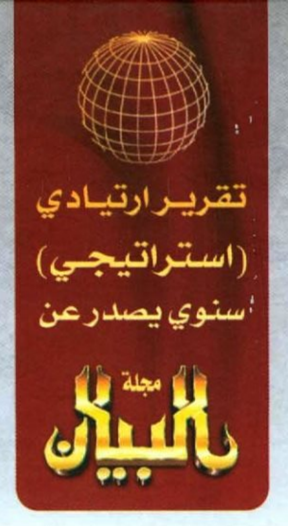


مستقبل الأمة وصراع الاستراتيجيات

الراعي الرسمي



الإصدار السادس
١٤٣٠هـ



تقرير ارتيادي (استراتيجي) يصدر عن

مستقبل الأمة وصراع الاستراتيجيات

الإصدار السادس

١٤٣٠هـ

(ردمد ١٢٧X - ١٦٥٨ :ISSN)

أُعد هذا التقرير بالتعاون بين مجلة البيان والمركز العربي للدراسات الإنسانية بالقاهرة

مجلة البيان : الرياض ١١٤٩٦ - ص . ب : ٢٦٩٧٠
هاتف : ٤٥٤٦٨٦٨ - ٠٠٠٩٦٦١ - فاكس : ٤٥٣٢١٢١ - ٠٠٩٦٦١
www.albayan.co.uk

مكتب بريطانيا : لندن : هاتف وفاكس : ٢٧٢٨١٧٤ - ٧٠٢٤٤٠
مكتب قطر : الدوحة : هاتف : ٤٤٠١٤٤٤ - ٤٧٩٠٠
فاكس : ٧٦١٧٢٣٣٤ - ٤٧٩٠٠
مكتب السودان : الخرطوم : هاتف وفاكس : ٦٥٨٧٢٢ - ٣٨١٩٤٢٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مستقبل الأمة وصراع الاستراتيجيات

المقدمة

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أما بعد

عام الانتظار ... هذا ما يمكن أن نصف به هذه السنة بأحداثها وصراعاتها.

فالقطب الذي ظن نفسه أنه أصبح مهيمنًا بات مثقلاً بحروب كبرى، خاضها منذ عدة سنوات، ولكنه أصبح الآن يعيش أجواء أشبه بهزيمة في العراق وأفغانستان، ثم جاءت كارثة الأزمة المالية، وإفلاس أكبر بنك أمريكي، وتعرض الاقتصاد العالمي لأكبر هزة في تاريخه منذ ستين عامًا تقريبًا، ويدفع العالم كله ثمن الجشع، بل قل ثمن نظام رأسمالي سائد وقائم على الربا، ومحاربة رب العزة ورسوله، فأنى له؟!

تقول دراسة تحليلية أعدها مجلس المخابرات القومي الأمريكي تحت عنوان «الاتجاهات العالمية في ٢٠٢٥م»، وأُعلن عنها في شهر نوفمبر ٢٠٠٨م: إن الأزمة المالية العالمية الحالية هي بداية إعادة توازن اقتصادي عالمي، وإن دور الدولار الأمريكي باعتباره العملة العالمية الرئيسة سيضعف، كما سيتزايد الاعتماد على مصادر طاقة بديلة عن النفط.

ويذكر التقرير الذي استند إلى مسح عالمي لخبراء واتجاهات، أجراه محللو مخابرات أمريكيون، أن العشرين عامًا المقبلة ستكون فترة انتقالية نحو نظام عالمي جديد مليء بالمخاطر. ويتوقع التقرير انضمام الصين والهند إلى الولايات المتحدة على رأس القوى الكبرى، وأن تنافس الدولتان أمريكا على النفوذ. ويقول: إن وضع روسيا كقوة كبرى غير مؤكد، بينما ستحصل دول مثل تركيا وإيران وإندونيسيا على نفوذ متزايد.

ويقول التقرير: إن النظام العالمي الذي تشكَّل بعد الحرب العالمية الثانية ستطمس معالمه تمامًا بحلول عام ٢٠٢٥م؛ بسبب بروز القوى الجديدة الصاعدة، وعولمة الاقتصاد، والانتقال التاريخي للثروة من الغرب إلى الشرق. ويتوقع تقرير الاستخبارات أن يتمحور التنافس على التجارة والتطورات والابتكارات التقنية، وعلى عمليات الاستحواذ، ويقول: إنه من غير المستبعد أن يشهد العالم عودةً إلى سيناريو مشابه لسباق التسلح في القرن التاسع عشر، والتنافس العسكري، والتوسع الإقليمي.

وبالإضافة إلى ذلك هو عام البطة العرجاء، كما يطلق على العام الأخير في الرئاسة الأمريكية؛ حيث تصبح الإدارة الأمريكية في عامها الأخير أشبه بالمشلولة، وعاجزة عن المبادأة، وتبقى فاعليتها متعلقة بردود الأفعال، وبعد الانتخابات الرئاسية جاء أوباما في لحظة تاريخية خاصة بالولايات المتحدة، ويتولى أول أسود سُدَّة الرئاسة، وإن كان غالب المحللين يبدون شكوكًا إزاء تغيير حاسم على صعيد السياسة الخارجية الأمريكية، وفي إسرائيل -أي الشق الثاني من المحور الصهيوني- تقريبًا نفس الحالة؛ حيث العجز الواضح، فالفضائح التي عاشها أولمرت، والتي اضطرته إلى الاستقالة، وتولي ليفني رئاسة حزبه بعد انتخابات ساخنة مع موفاز، ولكنها عجزت عن تشكيل حكومة تحالف بينها وبين الأحزاب الأخرى، مما جعل انتخابات فبراير القادم هي المخرج الوحيد وسط تكهنات بصعود يمين متطرف بزعامة نتانياهو.

وفي الجانب المقابل المتنافس على النفوذ في الشرق، أي المحور الشيعي بشقيه الإيراني والسوري، يغلب عليه حالة التجمد منتظرًا تغيير الإدارة الأمريكية ليتعامل معها وفق معطيات جديدة، ربما تعطيه ما لم توافق إدارة بوش على إعطائه في

صفقة متوقعة، وإن كانت حالة الانتظار هي الغالبة عليه؛ فإنه لا يعدم أن يعزز مواقعه في جميع الأماكن التي وضع يده عليها، خاصة في لبنان والعراق. أما المحور العربي، والذي يجري التنافس على أرضه، فقد ظلت حالته هي الركود، ولم تنفع حتى الآن أي محاولات لإيقاظه من غفوته، فهمُّه الحفاظ على الوضع القائم في بيئة سياسية محلية وإقليمية ودولية سوف تشهد متغيرات درامية في الفترة المقبلة، وإن بدت من بعض أقطاب هذا المحور تحركات دبلوماسية نشطة في الفترة الأخيرة، منتهزة فرصة تجمد القطب الواحد عن الحركة، وإن رجَّح بعض المراقبين أنها حركة في الوقت الضائع. ونحن في التقرير الارتيادي في إصداره السادس نحاول رصد هذه المتغيرات من خلال الهدف الذي وضعناه منذ العدد الأول، وهو إعادة قراءة واقع العرب والمسلمين بفهم عميق ونظرة ثاقبة..

ومن خصائص هذه القراءة:

١- أنها مرتبطة بسنن الله في الكون والأرض والحياة، وقبل كل ذلك بكتاب الله وسنة نبيه.

٢- أنها تتسم بطابع المنهج العلمي الاستنباطي، وليس الاستقرائي فقط.. هذه العلمية تتحقق عبر مستويات الوصف والتحليل والتوقع.

٣- أنها ترى الواقع بصورته كما هو، بدون تهويل، أو خداع، أو مبالغة.

٤- أنها تستفيد من تجارب الآخرين في قراءة الواقع.

هذا الفهم للواقع يهدف إلى بحث الخيارات الممكنة، والسبل المتاحة، لكي تأخذ الأمة الإسلامية وضعها ومكانتها في البيئة الدولية، وقدرتها على تحدي القوى والاستراتيجيات العالمية والإقليمية، بل ووصولها إلى وضع القوة المهيمنة الأولى على الساحة الدولية مستقبلاً في ضوء اللحظة الراهنة، ليس ذلك استكبارًا أو تجبرًا في الأرض، بل أداء لمهمتها التي كلّفها الله بها في الأرض.

و لذلك تم تقسيم التقرير إلى الأبواب الآتية:

في الباب الأول، وهو الذي يتعلق بالنظرية والفكر السياسي، بدأنا بموضوع قراءة في كتب السياسة الشرعية بين القديم والحديث؛ حيث حاول المؤلف تتبُّع بعض ما تم تأليفه في مجال السياسة الشرعية، ثم أتبعناه ببحث تهيئة الشعوب للاستعباد في عصر العولمة، وفيه يحاول الباحث الغوص في الأبعاد الفلسفية والإنسانية للهيمنة الغربية الأمريكية على العالم، وفي المبحث الثالث من هذا الباب يطل علينا الباحث من زاوية الجغرافيا السياسية؛ ليلقي الضوء على استخدام آلياتها ومناهج البحث في هذا العلم في التحليل السياسي، واستخراج قوانين الظاهرة السياسية.

أما الباب الثاني، وهو ملف التقرير، فقد خصصناه في هذا العدد لمنطقة الخليج العربي، وما يتفاعل داخله من صراعات، فجاء البحث الأول بعنوان الأمن في الحوض الخليجي، استعرض فيه طبيعة الأمن السننية ومقوماته البنيوية، ومهدداته الداخلية والخارجية، ومحدداته العقدية والسياسية والاستراتيجية التي توفر حفظه واستقراره، أما البحث الثاني فيتعلق برصد المدارس الأجنبية في منطقة الخليج؛ حيث اتخذ من دولة البحرين أنموذجًا لهذا الرصد على واقع تلك المدارس، وآثارها في الخليج كله، بحكم أن أول مدرسة أُنشئت في الخليج كانت في البحرين، ويلقي المبحث الثالث في هذا الباب الضوء على العلاقات الإيرانية الخليجية، متناولاً جذورها وأبعادها التاريخية والمعاصرة، وفي المبحث الرابع من هذا الباب يتناول الباحث الأقليات في الخليج بذكر مفهومها؛ حيث يركز بحثه على الأقلية الشيعية في هذه المنطقة.

وفي الباب الثالث الخاص بقضايا وهموم العمل الإسلامي طرحنا بحثين: الأول عن التماسك الاجتماعي والأسري في ظل ضغوط العولمة؛ حيث يقدم الباحث رؤية توضيحية تأصيلية لهذه الظاهرة. والثاني بعنوان المسلمون واستثمار الإنترنت، حاول فيه الباحث طرح إشكالية التعامل الإسلامي مع التطورات الجديدة على شبكة الإنترنت.

أما الباب الرابع، والمختص بمشكلات العالم الإسلامي، فقد تناول خمسة موضوعات: الأول عن موقع المقاومة العراقية في الاستراتيجية الأمريكية للعراق، على ضوء التطورات الجديدة في هذه الاستراتيجية؛ حيث رأى الباحث أن تجربة المقاومة العراقية ذات خصوصية إذا ما تمت مقارنتها بنماذج حركات التحرر الوطنية التي شاهدها عالمنا المعاصر، بينما ألقى المبحث الثاني الضوء على مشكلة دارفور من زاوية استراتيجية، وحاول المبحث الثالث تقديم استعراض تاريخي لأوضاع أهل السنة في لبنان، ومحاولة استشراف لدورهم المستقبلي على ضوء الصراع المتفجر في لبنان، ويرصد المبحث الرابع قضية كشمير، متتبعًا جذورها التاريخية واستراتيجيات القوى الإقليمية والدولية تجاهها، وختمنا هذا الباب بجنوب اليمن والاضطرابات التي تسوده، وأثرها الاستراتيجي على وضع اليمن ككل ودوره الإقليمي.

أما الباب الخامس المختص بالعلاقات الدولية فقد تضمن بحثين: الأول مستقبل العلاقات الأوروبية الأمريكية وأثرها في العالم الإسلامي، من أجل طرح البدائل لمستقبل التعامل مع ملفات مثل العراق والملف النووي، والصراع العربي الإسرائيلي، والحرب على ما يُطلق عليه «إرهاب»، أما المبحث الثاني في هذا الباب فيسعى إلى فهم وتحليل تأثير أزمة أوسيتيا الجنوبية على النظام الدولي ومستقبله، وذلك في ضوء المفاهيم الثلاثة التي طرحتها المدرسة الواقعية.

وقد تم استحداث بابين جديدين في هذا الإصدار: الأول ما يتعلق بالقضايا الاقتصادية المؤثرة على العالم الإسلامي، والآخر يطرح مشاريع بحثية وتأثيرها كخطوة على صعيد العمل الارتيادي في العمل الإسلامي:

ففي إطار القضايا الاقتصادية يطرح الباب السادس أربعة مباحث: الأول: دراسة في الأزمة الاقتصادية التي تجتاح العالم الآن، ويطلقون عليها اسم الأزمة المالية؛ حيث يعرف أبعاد هذه الأزمة وأسبابها ومشاكل تكييفها العلمي، كما يطرح البديل الإسلامي لهذه المشكلة، وفي المبحث الثاني يبحث في العملة الخليجية الموحدة؛ باعتبار الاتحاد النقدي أعلى مراحل التكامل الاقتصادي، ويطرح البحث الثالث مشكلة الغذاء وتأثيرها استراتيجيًّا على العالم الإسلامي؛ حيث تكمن خطورة هذه المشكلة في البلدان الإسلامية في بُعدها الارتيادي والحضاري، فالمفترض أن هذه البلدان تمثل أمةً لها رسالة، ولا شك أن عجزها عن توفير متطلباتها من الغذاء أدعى لنكوصها في تقديم رسالتها للآخر.

ويناقش الباب الأخير أحد المشروعات الارتيادية، وهو مقترح فكرة تأسيس معهد دراسات بيت المقدس في إحدى البلاد العربية أو المسلمة.

تجدر الإشارة إلى أنه لم تتم تغطية بعض الموضوعات المهمة، والتي حدثت هذا العام؛ إما لأن هذه الأحداث جاءت بعد الانتهاء من إعداد التقرير، أو وهو يجهز للطبع، مثل تحليل نتائج الانتخابات الأمريكية وتأثيرها الاستراتيجي على الأمة الإسلامية، أو لأن هذه الموضوعات يتم تجهيز أبحاث مستقلة لها في مجلة البيان، مثل الدور الإيراني في المنطقة العربية، وتمرد الحوثي في اليمن.

وهكذا يحاول التقرير الارتيادي في إصداره السادس تحقيق أهدافه المرصودة منذ الإصدار الأول، والتي ذكرناها سابقًا من خلال الرصد الارتيادي لمختلف جوانب الظواهر السياسية بأنواعها المختلفة، وانعكاساتها المستقبلية على الأمة الإسلامية في سبيلها للتقدم نحو غاياتها ودورها الارتيادي العالمي.

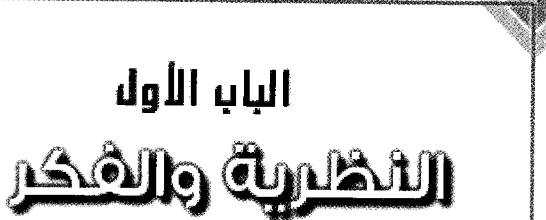
والحمد لله رب العالمين

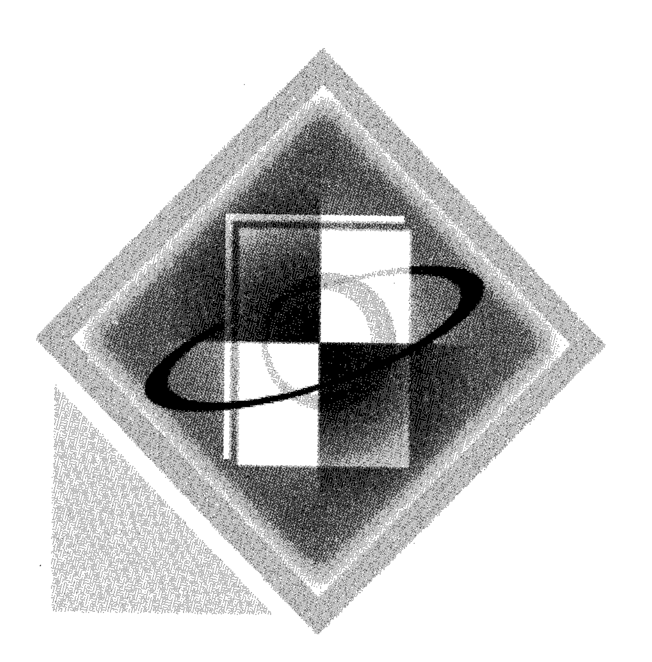


مستقبل الأمة وصراع الاستراتيجيات

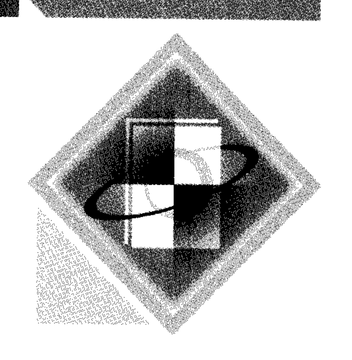
الفهرس




الباب الأول
النظرية والفكر







قراءة في كتب السياسة الشرعية بين القديم والحديث

محمد بن شاكر الشريف
باحث في السياسة الشرعية

ملخص الدراسة

يزعم كثير من الناس عدم اهتمام المسلمين بالحديث عن السياسة، وأن جلّ همهم متعلق بالآخرة، أما الدنيا فليس لها من كتاباتهم نصيب، وأن ما كتبوه في ذلك لا يتجاوز عددًا محدودًا من الدراسات، وأغلبهم لا يعرف من الكتب غير الأحكام السلطانية للماوردي.

وبعض هؤلاء يطعن بذلك في الإسلام نفسه، وأنه دين لا علاقة له بالدنيا، وليس من شأنه أن يتعامل معها، وهؤلاء يُرَدّ عليهم بأن الشريعة الخاتمة التي أنزلها الله تعالى على رسوله محمد -صلى الله عليه وسلم-، وجاءت أحكامها في الكتاب والسنة تعتني بالأمرين جميعًا: الدنيا، والآخرة، ولا تعرف هذا الفصل الحادّ بين المجالين.

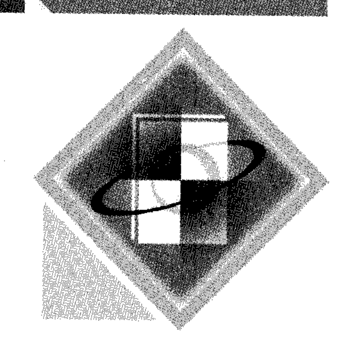
إن المطَّلِع على نصوص الوحي المعصوم من الكتاب والسنة يجد أنها أفردت مكانًا كبيرًا وعظيمًا للحديث عن كل المسائل التي يحتاجها الإنسان في حياته، فتناولت مجال نظام الحكم، والعلاقات الدولية، والحفاظ على دولة الإسلام، وحقوق وحريات الإنسان المسلم، بجانب اعتنائها بمجال الاختراع والابتكار والبناء والتعمير، والعناية بالحِرَف والمهن التي تسمو بالمجتمع، كما كان لمجال القضاء بين الناس ومجال الاقتصاد نصيب كبير.

وانطلاقًا من تلك المجالات المتعددة التي عالجتها مصادر الشريعة في باب السياسة الشرعية، ظهرت الكتابات المتعددة التي تعالج هذه المسائل، وفي ذلك رد على الفريق الذي يدعي تقصير علماء المسلمين في هذا الباب.

والكتابة في السياسة الشرعية مرَّت بثلاثة أطوار: بدأت من الرواية المعتمدة غالبًا على النقل الشفوي إلى طور التدوين الممتزج بما كُتب من تفسير القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، قبل أن تظهر الكتابات المتخصصة التي تعالج موضوعات خاصة من موضوعات السياسة الشرعية.

والمكتبة الإسلامية في مجال السياسة الشرعية حافلة؛ ففيها كتب الأحكام السلطانية، والكتب التي تتناول الجوانب المالية المتعلقة بالدولة الإسلامية، وأخرى تتناول القانون الدولي والعلاقات الدولية، بجانب الكثير من الكتب التي تتناول مواضيع هامة مثل الوزارة، والقضاء، ورعاية الأخلاق والآداب وصيانة المجتمع، إضافة إلى غيرها من كتب التاريخ السياسي والفكر السياسي.

وبجانب ذلك فإن هناك قدرًا كبيرًا من مخطوطات كتب السياسة الشرعية تعد بالعشرات ما زالت حبيسة لم تَرَ بعدُ نور الطباعة.



قراءة في كتب السياسة الشرعية بين القديم والحديث

محمد بن شاكر الشريف
باحث في السياسة الشرعية

في كثير من الأحيان تظهر مقولة، ثم تنتشر، ويفشو أمرها بين الناس: في أحاديثهم وكتاباتهم، حتى لا يكاد يُذكر في بابها غيرُها، وإذا فتشت في حقيقة ذلك وجدت أن أصلها كلمة مبتدأة في بابها لم يسبقها شيء فذاعت وانتشرت، وردها الكبير والصغير، وهي في حقيقة الأمر لا تعدو كونها رأيًا لم تتوفر له دلالات الصحة وأماراتها، ونحسب أن من ذلك ما يذكره كثير من الناس عن عدم اهتمام المسلمين بالحديث عن السياسة، وأن جلّ همهم متعلق بالآخرة، أما الدنيا فليس لها من كتاباتهم نصيب، فاهتمامهم مُنصَبٌ على أمور غيبية، أو على ما تحت التراب، لا على ما فوق وجه الأرض من العلوم والمعارف الدنيوية، وأن ما كتبوه في ذلك لا يتجاوز عددًا محدودًا من الدراسات، وأغلبهم لا يعرف من الكتب غير الأحكام السلطانية للماوردي، وهؤلاء فريقان:

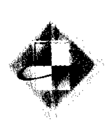
-الفريق الأول: من يطعن بذلك في الإسلام نفسه، وأنه دين لا علاقة له بالدنيا، وليس من شأنه أن يتعامل معها، وأن من يحاول ذلك من المسلمين فهو يظلم الدين؛ إذ يُدخِله -حسب زعمه- في أمور لم يأتِ لقيادها وعلاج ما فيها من أدواء، وهؤلاء هم العلمانيون.

-والفريق الثاني: من لا يذهب ذلك المذهب، بل يرى أن الدين كما هو يعتني بأمر الآخرة التي هي مستقر الناس بعد كدحهم في الدنيا، فهو يعتني أيضًا بأمر الدنيا؛ إذ الدنيا مزرعة الآخرة، لكنه يلقي بالتبعة واللوم على علماء المسلمين لتقصيرهم في هذا الباب.

ولعلنا في هذه الدراسة نعرض لمقولات كلا الفريقين، ونبيّن مدى صوابها ودقتها، وقبل الدخول في ذلك نود الإشارة إلى أن الشريعة الخاتمة التي أنزلها الله تعالى على رسوله محمد -صلى الله عليه وسلم-، وجاءت أحكامها في الكتاب والسنة تعتني بالأمرين جميعًا: الدنيا، والآخرة، ولا تعرف هذا الفصل الحادّ بين المجالين، فالتفريق بينهما إنما هو تفريق تكامل، لا تفريق تعارض وتضارب، فالدنيا مزرعة الآخرة، والآخرة حصاد الدنيا، وفساد الدنيا مُضِرٌ بالآخرة، لكن الأحكام الشرعية لم تأتِ في مصادرها على وِزان واحد، وإنما جاءت بصور متعددة ما بين التصريح والتنبيه، والإشارة والإيماء، وغير ذلك من طرق دلالة الأدلة على الأحكام من خلال الأمر أو النهي، أو التوجيه والإرشاد، أو التقرير أو من خلال القصص، وأخبار السابقين ونحو ذلك.

تعريف السياسة:

السياسة لغة: القيام على الشيء بما يصلحه، ولفظ «السياسة» في لغة العرب مُحمَّل بكثير من الدلالات والإرشادات والمضامين، فهي إصلاح واستصلاح، بوسائل متعددة من الإرشاد والتوجيه والتأديب والتهذيب، والأمر والنهي، تنطلق



من خلال قدرة تعتمد على الولاية أو الرئاسة. وما جاء في معاجم اللغة يدل على ما تقدم، فقد جاء في تاج العروس في مادة سوس: «سست الرعية سياسة: أمرتها ونهيتها. والسياسة القيام على الشيء بما يصلحه».

وفي لسان العرب في المادة نفسها: «السوس: الرياسة، وإذا رأسوه قيل سوَّسوه، وأساسوه، وسوس أمر بني فلان: أي كلف سياستهم، وسُوِّس الرجل على ما لم يسم فاعله: إذا ملك أمرهم، وساس الأمر سياسة: قام به، والسياسة: القيام على الشيء بما يصلحه، والسياسة: فعل السائس يقال: هو يسوس الدواب إذا قام عليها وراضها، والوالي يسوس رعيته»[1]، والسياسة كما عرّفها النسفي في طلبة الطلبة بقوله: «السياسة حياطة الرعية بما يُصلِحها لطفًا وعنفًا».

وقد عرفت السياسة الشرعية بتعاريف عدة، والفقهاء لهم اتجاهان في بيان ذلك:

الاتجاه الأول: يمثله قول أبي الوفاء بن عقيل الحنبلي: «السياسة ما كان من الأفعال؛ بحيث يكون الناس أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد، وإن لم يشرعه الرسول -صلى الله عليه وسلم- ولا نزل به وحي»، وقد قيَّده بقوله: «ما لم يخالف ما نطق به الوحي»، وعلى هذا النحو يحمل كلام ابن نجيم الحنفي؛ حيث يقول في باب حد الزنا: «وظاهر كلامهم هاهنا أن السياسة هي فعل شيء من الحاكم لمصلحةٍ يراها، وإن لم يرد بذلك الفعل دليل جزئي»، وكلام ابن عقيل أدقّ منه وأسدّ؛ لأنه قيَّد تحقيق المصالح ودَرْء المفاسد بعدم مخالفة الشريعة، ولم يربطها برؤية الحاكم، بعكس كلام ابن نجيم فلم يقيّدها بعدم مخالفة الشريعة وربطها برؤية الحاكم، وقد يكون مراد ابن نجيم كمراد ابن عقيل، لكن عبارته قصُرَت عن ذلك، وهذا التعريف يوسّع مجال السياسة الشرعية.

والاتجاه الثاني: اتجاه يضيّق مجال السياسة، ويحصرها في باب الجنايات، أو العقوبات المغلظة، وقد تُجعَل أحيانًا مرادفة للتعزير، وهذا الاتجاه غالب على الفقه الحنفي في نظرته للسياسة، قال علاء الدين الطرابلسي الحنفي: «السياسة شرع مغلظ».

وقد «نقل العلامة ابن عابدين -الحنفي- عن كتب المذهب: أن السياسة تجوز في كل جناية، والرأي فيها إلى الإمام، كقتل مبتدع يُتوهم منه انتشار بدعته، وإن لم يُحكَم بكفره .. ولذا عرَّفها بعضهم بأنها تغليظ جناية لها حكم شرعي؛ حسمًا لمادة الفساد، وقوله: لها حكم شرعي، معناه أنها داخلة تحت قاعدة الشرع، وإن لم ينص عليها بخصوصها.. ولذا قال في البحر: ظاهر كلامهم أن السياسة هي فعل شيء من الحاكم لمصلحةٍ يراها، وإن لم يرد بذلك الفعل دليل جزئي».

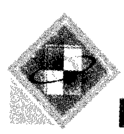
وقال بعض علماء الحنفية: «والظاهر أن السياسة والتعزيز مترادفان؛ ولذا عطفوا أحدهما على الآخر؛ لبيان التفسير كما وقع في الهداية والزيلعي وغيرهما»[2].

ومراد الفقهاء هنا بالسياسة هو ما يطلق عليه السياسة الشرعية، والسياسة الحقة ليست في حاجة إلى هذا القيد؛ لأن السياسة تعني الإصلاح والاستصلاح، وذلك يكون على أقصى درجات الكمال حين التقيُّد بالشريعة، فلا تحتاج السياسة من المنظور الإسلامي لذلك التقييد، لكن لما وُجِدَ من الولاة من لا يفهم ذلك، وظن أن السياسة أن يفعل ما يراه جالبًا لمصلحةٍ، أو يدرأ مفسدةً من خلال تقديره الشخصي للموقف، احتِيجَ لتقييد ذلك بالشريعة؛ دفعًا لذلك التوهم الفاسد.

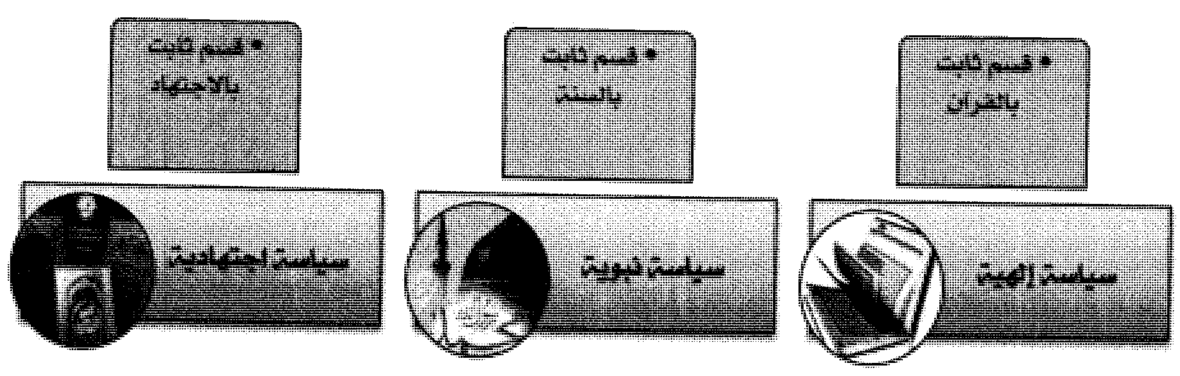
ولعلنا نلحظ أن جانبًا من هذه التعريفات ركَّز أو اقتصر على جزء مما تعالجه السياسة الشرعية، سواء من حيث التصرف، فقد حصرتها في الأفعال دون غيرها، أو من حيث القائم بها فقد حصرته في الحاكم دون غيره، لكن بالنظر إلى أن الإنسان عضو في مجتمع من الآدميين أمثاله، وهو لا يستطيع العيش منفردًا، ولا يمكنه القيام بكل ما يحتاج إليه من الشئون إلا بالمساعدة والمعونة من الآخرين، وهذه علاقات متشابكة

(١) مجلة البيان، عدد ١٩٧، مقال السياسة الشرعية تعريف وتأصيل، محمد بن شاكر الشريف.

(٢) المصدر السابق.



أقسام السياسة الشرعية



ومصالح متداخلة بين الناس، بما تحتمله من توافق الآراء والطباع أو تخالفها، وحينئذ فإن حياتهم لا تستقيم إلا بوجود نظام يشمل كل العلاقات المتشابكة والمصالح المتداخلة يقيمها، ويديرها على أساس من العدل.

وإدارة العلاقات المتشابكة بين الناس وجلب المصالح، ودفع المفاسد في جميع المجالات بما يمكن أن يحقق تطلعات الجميع مع المحافظة على الصلاح والعدالة هو ما يمكن أن يطلق عليه سياسة، والسياسة بهذا الفهم مجالها واسع يمتد ليشمل مجالات الحياة كلها، فهي ليست محصورة في أفعال يقوم بها الحاكم كما سبق ذكره، وإنما تتعداها إلى الأنظمة والترتيبات التي يضعها أهل الحل والعقد محققة لتلك الأهداف، وهي أيضًا ليست مساوية لنظام الحكم كما يعرّفها القانونيون والكاتبون في مجال السياسة الوضعية، فنظام الحكم أو النظام السياسي ليس إلا جزءًا من السياسة بمعناها الواسع الذي يشمل أمور الحياة كلها من سياسة (بمعناها الضيق)، واقتصاد، ومعاملات وقضاء، وعلاقات دولية ونحو ذلك.

والذي أظن أنه تعريف أكثر شمولاً للسياسة الشرعية هو: أنها قيادة وإدارة المجتمع في جميع النواحي الداخلية والخارجية، وأمور الدين والدنيا؛ لجلب المصالح ودفع المفاسد المتعلقة بالفرد أو المجموع، بالعدل والحق، رغبًا ورهبًا، لتحقيق الغاية التي خُلِقَ الإنسان من أجلها، بما يوافق كليات الشريعة وجزئياتها ولا يتعارض معها، إضافة إلى النظم والترتيبات التي يمكن بها تحقيق ما تقدم.

ولعلنا نلحظ هذا الشمول في تعريف السياسة الشرعية من تعريف أبي البقاء الكفومي لها في كلياته، حيث قال: «السياسة هي استصلاح الخلق بإرشادهم إلى الطريق المنجّي في العاجل والآجل، وهي من الأنبياء على الخاصة والعامة في ظاهرهم وباطنهم، ومن السلاطين والملوك على كل منهم في ظاهرهم لا غيرُ، ومن العلماء ورثة الأنبياء على الخاصة في باطنهم لا غيرُ».

والسياسة إذا كانت تنطلق من الشريعة، وتتقيد بنصوصها وأحكامها كانت سياسة شرعية، وأما إن كانت تنطلق مما ترى العقول صوابه من خلال تصوراتها وتجاربها من غير تقيد بالشرع، فهذه سياسة عقلية أو مدنية، وهي مباينة للسياسة الشرعية.

والسياسة الشرعية ثلاثة أقسام: قسم ثابت بالقرآن فهو سياسة إلهية، وقسم ثابت بالسنة فهو سياسة نبوية، وقسم ثابت بالاجتهاد وفق قواعد الاجتهاد المعروفة في أصول الفقه فهو سياسة اجتهادية، وكل ذلك يطلق عليه سياسة شرعية.

والسياسة الشرعية تواكب التطورات الداخلة على تصرفات الناس وأوضاعهم، ولا تقف عند حدّ السياسات



التفصيلية الجزئية السابقة، بل تتجاوزها إذا لم تكن محققة لأحكام الشريعة ومقاصدها إلى سياسات مناسبة للتطور الداخل على حياة الأفراد والأمم في ظل المحافظة على أحكام الشريعة ومقاصدها.

وإذا كانت هذه هي السياسة الشرعية بعمومها وشمولها؛ فإننا نعالجها في مبحثين: أحدهما: على مستوى الإسلام نفسه في دلالة مصادره على السياسة، وفيه رد على الفريق الأول الذي يقول: إن الشريعة لم تعتنِ بالسياسة، والثاني: على مستوى كتابات العلماء وتواليفهم في موضوعات السياسة، وفيه ردّ على الفريق الثاني الذي يقول: إن العلماء أهملوا العناية بالسياسة.

المبحث الأول

السياسة الشرعية على مستوى الإسلام نفسه في دلالة مصادره عليها

وفيه الرد على الفريق الأول

إن المطَّلِع على نصوص الوحي المعصوم من الكتاب والسنة يجد أنها لم تقتصر على الأمور المتعلقة بالآخرة فقط، كما يقول ذلك المحادّون لله ورسوله، كما لم تقتصر على الأمور المتعلقة بنظام الحكم وحده، وإنما أفردت مكانًا كبيرًا وعظيمًا للحديث عن كل المسائل التي يحتاجها الإنسان في حياته في جميع مراحله، انطلاقًا من كونه فردًا، ومن كونه عضوًا في جماعته المحدودة أو في جماعته المتسعة، ولو حاولنا إيراد وتقصّي ما ورد من النصوص المتعلقة بذلك لاحتاج الأمر إلى أسفار، ولو أضفنا على ذلك شروح أهل العلم لهذه النصوص لاحتاج كل سِفْر إلى أسفار، لكن لعلنا نُورِد هنا ما يكون بمثابة العناوين من غير تفصيل فهو اللائق بمثل هذه الدراسة.

١- في مجال نظام الحكم:

وردت النصوص التي تدل على طبيعة هذا النظام، ووجوب إقامته، واسمه وصفات القائمين عليه وشروطهم وواجباتهم وحقوقهم، وهل له حصانة تحُول دون محاسبته؟ ومرجعية النظام التشريعية والقانونية، وتحدثتْ عن حكم طلب الولاية، كما تحدثتْ عن موقع أهل الذمة، ومدى إمكانية توليهم للولايات، ودور المرأة في ذلك، وكيفية الوصول إلى ذلك المنصب، والجهات التي تعين المتصدين للمنصب الأسمى، وبيّنت دور الأمة في ذلك، ومراقبة تصرفات الحاكم ومدى تقيُّدها بالشرع، وإدارة أمور الدولة، ومن يعاونه في ذلك.

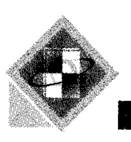
كما تحدثتْ عن مسئولية ولي الأمر، ومسئولية من يعاونه عن تصرفاتهم، وبيَّنت صفاتهم وصلاحياتهم، وذكرت الشورى في إدارة الأمور، وصفات من يُستَشار والصلاحيات الممنوحة لأهل الشورى، كما تحدثت النصوص عن السمع والطاعة لولي الأمر في المعروف، وأنه لا طاعة في المعصية، كما تحدثت النصوص عن الموقف الذي ينبغي اتخاذه عند وجود خلاف بين ولي الأمر والرعية، وكيف يُحَلّ ذلك الأمر.

كما تحدثت النصوص عن مسوغات عزل المتولي للأمر والخروج عليه إن احتيج لذلك، مع بيان الضوابط والشروط التي تلزم لذلك، كما بينت النصوص صاحب السيادة والمرجع الذي يرجع إليه وتصدر عنه جميع اللوائح والأنظمة والقوانين، والعمل مع الخارجين عن النظام بغير حق وهم البغاة، وأحكام ذلك، إلى غير ذلك من الأمور.

٢- في مجال العلاقات الدولية:

تحدثت النصوص عن علاقة دولة الإسلام بغيرها من الأنظمة القائمة، وما واجبها تجاه رعايا الدول الكافرة التي تدين بغير دين الإسلام، وبيان أصل العلاقة بين المسلمين وغيرهم من الكافرين، وأثر العلم بدين الإسلام وعدمه على تلك العلاقة، وتحدثت عن مسوغات المحاربة لهذه الدول، وما الحد الذي ينتهي عنده القتال.

كما تحدثت عن عقد المعاهدات والهدنة والأمان معهم، والوفاء بما عاهد عليه المسلمون، ومن الذي له حق إبرام المعاهدات نيابة عن الأمة، والمدة الزمنية للمعاهدات، ومتى يجوز نبذ العهد، كما تحدثت عن التحالف مع الكفار وضوابط ذلك، والواجب حيال السفراء الذين



ينقلون رسائل أقوامهم إلى ولي الأمر المسلم، وهل للسفير حصانة وما ضوابطها؟ وتحدثت عن أسرى العدو وما يُفعَل معهم، والتجارة مع أهل الحرب، ومناصرة المسلمين في خارج دولة ولي الأمر على عدوهم وأحوال ذلك.

٣- في مجال الحفاظ على دولة الإسلام:

شرعت النصوص الجهاد في سبيل الله تعالى، ودعت للاستعداد لذلك عن طريق تجييش الجيوش، وإعداد العدة والعناية بالصناعات الحربية، والحثّ على التدرب على المعدات القتالية والمسابقة فيها، كما بيّنت حدود استخدام السلاح الفتاك، كما بيّنت حكم موالاة الأعداء، ومساعدتهم ضد المسلمين، والخروج في صفوفهم، والحكم فيمن تجسَّس على المسلمين لصالح الكفار، والاستعانة بغير المسلمين في الحفاظ على دولة المسلمين، كما تحدثت عن العمل في الغنائم التي تكون إحدى نتائج المعارك، وكذلك أسرى الحرب.

> شرعت النصوص الجهاد في سبيل الله تعالى، ودعت للاستعداد لذلك عن طريق تجييش الجيوش، وإعداد العدة والعناية بالصناعات الحربية والحث على التدرب على المعدات القتالية والمسابقة فيها

كما بيّنت النصوص الجانب الأخلاقي للجهاد في سبيل الله تعالى، بحيث لم يعد قاصرًا على حماية دار الإسلام، وإنما تعدى ذلك للدفاع عن حقوق غير المسلمين في أن يخرجوا من تحت سلطان الحكام الطغاة، وفي التعرف على الإسلام وسماع كلام الله، وقد تحمل المسلمون في سبيل تحقيق ذلك أهوالاً جمة، لم يدفعهم إليها الحرص على دنيا زائلة أو مغانم فانية؛ بل لإخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم.

كما تحدثت النصوص عن حماية المجتمع، والحفاظ عليه أمنيًا وأخلاقيًا، فدعت للأخلاق الحميدة، ومنعت الظلم والعدوان، وشرعت العقوبات المناسبة للتعدي على الآخرين في أنفسهم وأعراضهم وأموالهم، وظهرت لذلك ولاية الحسبة وولاية المظالم.

٤- في مجال حقوق وحريات الإنسان المسلم:

بينت النصوص أن المسلم عبدٌ لله وحده، ومن ثم فإن الذي يحدّد حقوقه ويبين واجباته هو الله سبحانه وتعالى، وقد ساوت النصوص بين المسلمين، فلا تفضيل لأحدٍ على آخر إلا بالتقوى، وجعلت النصوص الشرعية حرمةً لمال المسلم ودمه وعرضه، وعملت على صيانة ذلك بكل سبيل، ووضعت عقوبات لمن يخالف ويعتدي على تلك الحقوق، كما لم تلزم النصوص أحدًا بالتبعية الفكرية لأحد، بل كفلت له حقه في التفكير، وفي الأخذ بما يظهر له أنه الصواب دون إلزام له بتبني رأي السلطة الحاكمة أو غيرها، ما دام ما توصل إليه لا يخرج عن حدود الشرع.

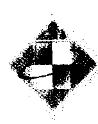
وانطلاقًا من أن هذه الحقوق ثابتة للمسلم من تشريع الله تعالى، وليست منحة من أحد، سواء كان هذا الأحد ملكًا أو رئيسًا، أو كان جماعة أو شعبًا بأكمله؛ فإن أحدًا من هؤلاء لا يملك إلغاء هذه الحقوق، أو تقييدها بغير ما قيّدتها به الشريعة، وفي ذلك أكبر الضمان للحفاظ على حقوق المسلم، كما بيّنت النصوص حقوق وواجبات المقيمين على أرض الإسلام من غير المسلمين، وعملت على احترامها والتقيد بها وعدم مخالفتها سواء من السلطة الحاكمة أو من أفراد الشعب.

٥- في مجال الاختراع والابتكار:

أتاحت الشريعة للمسلم العمل والسعي، ودعته للجد في كل ما يعود عليه أو على مجتمعه بالخير، كما دلّت على الأخذ بالمصلحة ومنع الضرر، ولم تقيد حركاته أو جهوده في ذلك بغير الالتزام بأحكام الشريعة وعدم الخروج عليها.

٦- في مجال البناء والتعمير، والعناية بالحِرَف والمهن التي تسمو بالمجتمع:

تحدثت النصوص عن العناية بالزرع، وعن إحياء المَوَات، والاهتمام بالحِرَف وتعلم الصناعات، والصيد واستخراج الثروات التي في باطن الأرض أو البحر، وحماية البيئة من التلوث، والعناية بالنظافة والصحة، والعمل على منع الإصابة بالأمراض، أو نقلها من مكان إلى آخر.



٧- في مجال القضاء بين الناس:

تحدثت النصوص عن الحكم بالعدل وعدم الظلم، وبينت شروط القاضي بين الناس، ومن أين يأخذ أجره، والشريعة التي يحكم بها، كما بينت ضرورة إنفاذ حكم القضاء، وبينت أيضًا الأحوال التي يُنْقَض فيها حكم القضاء، وتحدثت عن الصلح بين الناس وشروطه وحكمه، والتحكيم.

٨- في مجال الاقتصاد:

تحدثت النصوص عن تحريم الربا، ودعت للقرض الحسن، كما تحدثت عن منع الغرر والغشّ، وحرمت كثيرًا من البيوع التي توافرت فيها دواعي ذلك؛ كالجهالة أو الغبن، أو الخداع كالنجش وغيره، وأباحت البيوع والاستئجار والمضاربة، ودعت إلى الصدق في المعاملات، ومراعاة أداء الأمانة، ودعت أيضًا إلى كتابة الديون والإشهاد عليها، كما دعت للتنمية الاقتصادية، وعظّمت قيمة العمل، ودعت للضرب في الأرض، وابتغاء فضل الله، وحقّرت من أَمْر المسألة، والاتكال على الآخرين، وغير ذلك من المجالات الأخرى التي غطتها الشريعة؛ كبيان موارد الدولة المالية، وكيفية الإنفاق وضوابط ذلك.

ذلك لأن السياسة من معاني الدين، قال الزمخشري في أساس البلاغة: «دان القوم إذا ساسهم وقهرهم فدانوا له»، وفي لسان العرب لابن منظور: «الديان الذي يلي أمرك ويسوسك»، وفي لسان العرب: أيضا«دِنْته أَدِينُه دَيْنًا: سُسْته، ودِنته: مَلَكْتُه، ودُيِّنْتُه أي مُلِّكته، ودَيَّنْتُه القومَ: ولَّيته سياستهم... والديان: السائس»، وهذا يعني أن السياسة من معاني الدين.

المبحث الثاني

السياسة الشرعية على مستوى كتابات العلماء وتواليفهم، وفيه الرد على الفريق الثاني

وانطلاقًا من تلك المجالات المتعددة التي عالجتها مصادر الشريعة في باب السياسة الشرعية، ظهرت الكتابات المتعددة التي تعالج هذه المسائل.

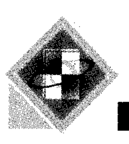
ومن المعروف أن وجود العلم يسبق تدوينه بمدة، قد تطول وقد تقصر، فتدوين العلم لاحق على وجوده، وذلك أمر موجود في كل العلوم الدينية أو الدنيوية، ولا يعني عدمُ تدوين العلم في الفترة السابقة على التدوين عدمَ وجود العلم فيها؛ فذلك أمر لم يقل به أحد، وموضوعنا لا يخرج عن تلك القاعدة.

يمكننا أن نقول: إن الكتابة في السياسة الشرعية مرَّت بثلاثة أطوار:

الطور الأول: كانت بدايات كلام العلماء في ذلك الباب مرتبطة بالرواية التي كانت تعتمد في أول الأمر في أغلب أحيانها على النقل الشفوي.

الطور الثاني: وانتقل كلام العلماء في ذلك في طور لاحق إلى التدوين، لكنه كان ممتزجًا بما كُتب من تفسير القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، قبل أن تظهر الكتابات المتخصصة التي تعالج موضوعات خاصة من موضوعات السياسة الشرعية، ومما يمثل كتب هذا الطور كُتُب الحديث المصنَّفة على الأبواب كصحيح البخاري ومسلم، وأبي داود والترمذي، والنسائي وابن ماجه، وموطأ مالك وسنن الدارمي ونحوها، وكذلك كتب الفقه المصنَّفة على الأبواب ككتاب الأم للشافعي، وسائر ما كُتب من الكتب الفقهية في سائر المذاهب، فقد ضُمِّنَت هذه الكتب في داخلها فصولاً متعددة عن كثير من مسائل السياسة الشرعية، ففيها فصول عن الإمارة والشورى، والجهاد وأحكام البغاة، والحدود والجزية، والعهد والأمان، والموادعة والقضاء، والبيوع والمزارعة والمساقاة، ونحو ذلك، وكتب السيرة النبوية أيضًا، وكذلك كتب العقائد أو الكلام؛ حيث ضمَّت في ثناياها الحديث عن الإمامة الكبرى (رئاسة الدولة)، وما دار حولها من اختلافات، وما يتعلق بها من أحكام.

وقد تداخل هذا الطور مع الطور الثالث، فما زالت تُؤَلَّف الكتب على نهجه حتى مع ظهور الكتابات المتخصصة، كتلك الكتب المصنفة في بعض الموضوعات الشرعية؛



حيث تتعرض في ثنايا ذلك لمسائل من السياسة الشرعية كفضائح الباطنية للغزالي؛ حيث خصَّص جزءًا من كتابه للحديث عن الإمامة. وكمنهاج السنة النبوية في الرد على الشيعة القدرية لابن تيمية؛ حيث ضمَّنه كثيرًا من الكلام حول الإمامة وطرق انعقادها، كما تحدث عن إثبات خلافة الصديق، كما ذكر الشروط التي ينبغي توافرها فيمن يعقد الإمامة لمستحقها. وكذلك كتاب الآداب الشرعية لابن مفلح؛ حيث تعرَّض لكثير من مسائلها كإنكار المنكر: حالاته وأحكامه، وأنواع من ينكر عليهم، والإنكار على السلطان، وتحدث عن الشورى وعن الاستعانة بأهل الذمة في أمور المسلمين، وغير ذلك من الكتب.

الطور الثالث: ثم انتقلت الكتابة إلى الطور اللاحق، وهو إفراد مسائل السياسة الشرعية أو بعضها بالتصنيف، وإن كان هذا لا يمنع من وجود كتابات متخصصة في مسائلها وُجِدَت في الطور الثاني، والكتابات المتخصصة في مجال السياسة الشرعية وُجِدَت على صورتين إحداهما: الاقتصار على مسائل السياسة الشرعية، والثانية: ذكر جملة كبيرة من مسائلها مع وجود مسائل أخرى لا تنتمي لها، وإن كان لها بموضوع الكتاب تعلُّق.

وفي هذا الطور تكثر الكتابات المتخصصة في مسائل السياسة الشرعية، وقد استغرق الوصول إلى هذا الطور قرابة ثلاثة قرون من الزمان.

وفي دراسة د/ نصر محمد عارف الرائدة توصل من خلالها إلى وجود أكثر من ثلاثمائة مؤلَّف في مسائل السياسة الشرعية، والتي طُبع منها أكثر من مائة مؤلَّف، مع الاعتراف والإقرار بأن هذا العدد لا يمثل جميع ما كُتِبَ، وهو ما يعني أن محاولة استيعاب الحديث عنها يخرج عن حدود هذه الدراسة، ولذا فقد اقتصرت من أمثلة هذا الطور على ما تحت يدي من الكتب (سواء كان في صورة إلكترونية، أو صورة ورقية أو مخطوط)، على أن الباحث يجد صعوبة في الفصل الحادّ بين مجالات هذه المؤلفات، فكثير منها لم يخلص لغرض واحد مما يُصعِّب مسألة التصنيف، الذي يترتب عليه الاختلاف في عدّ هذا الكتاب ضمن هذا النطاق أو غيره.

ولا شك أن الصورة المتكاملة في تغطية موضوع السياسة الشرعية في ولاياته جميعًا التي ظهر بها مؤلف الأحكام السلطانية، يرشد إلى أن هذا الكتاب يعد تطويرًا وتجميعًا لجهود سبقته في المجال نفسه، على أساس وجود كتابات تقتصر على ذكر ولاية، أو عدة ولايات، إلى أن جاء الماوردي فجمع الولايات كلها في كتاب واحد :

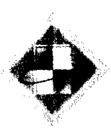
في دراسة د/ نصر محمد عارف الرائدة توصل من خلالها إلى وجود أكثر من ثلاثمائة مؤلف في مسائل السياسة الشرعية والتي طبع منها أكثر من مائة مؤلف

١- كُتُب الأحكام السلطانية، وهي الكتب التي تتحدث عن الإمامة العظمى وما يرتبط بها من ولايات عدة، وإن كان بعضها يقتصر في الحديث عليها:

هذه الكتب ظهرت متأخرة نسبيًّا، ومنهجها منهج فقهي يعتمد الأدلة من النصوص الشرعية في بيان الولايات، وشروطها وصلاحياتها، وصفات من يتولاها، فمن هذه الكتب:

كتاب تثبيت الإمامة وترتيب الخلافة للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني (ت٤٣٠هـ) تحدث فيه عن تثبيت إمامة الخلفاء الأربعة، وذكر أدلة ذلك، وردَّ على مَن خالف فيه كالرافضة وغيرهم.

وكتاب الأحكام السلطانية والولايات الدينية لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي الشافعي (ت ٤٥٠هـ) [دار الكتب العلمية/ بيروت لبنان] تكلم فيه عن الإمامة والوزارة، والإمارة على البلاد، والإمارة على الجهاد، والولاية على حروب المصالح، وولاية القضاء، وولاية المظالم، وولاية النقابة على ذوي الأنساب، والولاية على إمامة الصلاة، والولاية على الحج، والولاية على الصدقات وقسمة الفيء والغنيمة، وإحياء الموات،



واستخراج المياه، وأحكام الجرائم، ووضع الديوان وذكر أحكامه والحسبة، فهو يكاد يتعرض لكل ولايات الدولة ومؤسساتها.

وعلى المنوال نفسه سَمِيُّه كتاب الأحكام السلطانية والولايات الدينية لأبي يعلى الفراء الحنبلي (ت٤٥٨هـ)، [دار الكتب العلمية/بيروت لبنان].

وكتاب غياث الأمم في التياث الظُّلَم لإمام الحرمين أبي المعالي الجويني (ت٤٧٨هـ) [مؤسسة الريان/بيروت، ط١، ١٤٢٨هـ]، وقد قسم كتابه إلى ثلاثة أركان: أحدها عن الإمامة وما يتعلق بها من أبواب، والثاني في تقدير خلو الزمان من الأئمة والولاة، والثالث في تقدير انقراض حملة الشريعة، وقد تفرَّد الجويني بمنهج لم يسبقه إليه أحد؛ حيث افترض خلو الزمان من وجود ولي الأمر الشرعي، وبيَّن ما الذي ينبغي عمله في هذه الحالة.

ورسالة الخلافة والملك لتقي الدين أبي العباس أحمد ابن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني ت(٧٢٨هـ) [مكتبة المنار/الأردن، ط٢، ١٤١٤هـ وهي موجودة ضمن مجموع الفتاوى]، تحدث فيها عن الخلافة والملك والفرق بينهما، وبيَّن معنى الخليفة وخطَّأ مَن قال: إنه بمعنى النائب عن الله، كما تحدث عن أحكام قتال البغاة، والفرق بينهم وبين الخوارج.

وكتاب تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام لبدر الدين محمد بن إبراهيم ابن جماعة (ت٧٣٣هـ)، [دار الثقافة/قطر/ الدوحة - ١٤٠٨هـ -١٩٨٨م، ط٣] تحدث فيه عن الإمامة والوزارة والديوان، وأكثرَ من الحديث عن الجهاد وما يتعلق به، وقتال أهل البغي وعقد الذمة، لكنه لم يستوعب ما استوعبه كتاب الأحكام السلطانية.

وكتاب حسن السلوك الحافظ دولة الملوك لمحمد بن محمد بن عبد الكريم الموصلي، (ت٧٤٤هـ) [مدار الوطن/الرياض، ط١، ١٤١٦هـ].

وكتاب مآثر الإنافة في معالم الخلافة لأحمد بن علي بن أحمد القلقشندي (ت ٨٢١هـ) [مطبعة حكومة الكويت/الكويت، ط٢، ١٩٨٥م]، جوانب عديدة من هذا الكتاب تدخل تحت كتب الأحكام السلطانية؛ حيث تحدث عن معنى الخلافة، وطرق الانعقاد، وواجب الخليفة تجاه الرعية وحقه عليهم، كذلك تحدث عن ولاية العهد، وعن الطوارئ التي بمقتضاها يُعزَل الخليفة أو ولي العهد، لكن هناك جوانب أُخَر تُعَدّ من قبيل التاريخ السياسي؛ حيث يَعرِض لتاريخ الخلافة من بدايتها إلى زمنه في العديد من الجوانب.

وكتاب الولايات لأحمد بن يحيى الونشريسي المالكي (ت٩١٤هـ)، [مكتبة الثقافة الدينية/بورسعيد/ط١، ٢٠٠١م]

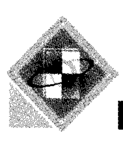
٢- الجوانب المالية المتعلقة بالدولة الإسلامية:

الدولة لا بد أن يكون لها مصادر مالية تنفق منها على المصالح العامة؛ لتحقيق الغايات من وجود الدولة، وتحتاج إلى مسلك الرحمة والإحسان في جمع هذه الموارد، ومسلك العدل في توزيعها، وأول ما يقابلنا من الكتابات المتخصصة في الجوانب المالية:

كتاب الخراج للقاضي أبي يوسف (ت١٨٢هـ) [المكتبة الأزهرية/القاهرة عام ١٤٢٠هـ] صاحب الإمام أبي حنيفة، وهو كتاب مطبوع متداول، كتبه أبو يوسف بأمر الخليفة هارون الرشيد، تناول فيه الجانب المتعلق بالموارد المالية للدولة كالغنيمة والفيء والخراج والصدقات، وكيفية الإنفاق منه، ورواتب القضاة والعمال، كما تناول بعض ما يتعلق بالولاة والأمراء، كما تناول الحدود وأنواعها وكيفية إقامتها، وحكم المرتد عن الإسلام، ثم اختتم كتابه بالحديث عن قتال أهل الشرك والأمان والموادعة، وهو مما يدخل في القانون الدولي والعلاقات الدولية.

> تفرد الجويني بمنهج لم يسبقه إليه أحد؛ حيث افترض خلو الزمان من وجود ولي الأمر الشرعي، وبين ما الذي ينبغي عمله في هذه الحالة

ومن الكتب التي نحت هذا المنحى الاقتصادي كتاب



الخراج ليحيى بن آدم (ت٢٠٦هـ) لدار الشروق/مصر، ط١، ١٩٨٧م].

وكتاب الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت٢٢٤هـ) لدار الهدي النبوي بمصر/دار الفضيلة بالسعودية، ط١، ١٤٢٨هـ].

وكتاب الأموال لحميد بن زنجويه (ت٢٥١هـ) [مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات/الرياض].

وكتاب الأموال لأبي جعفر أحمد بن نصر الداوودي (ت٤٠٢هـ)، لدار السلام/مصر/ط٢، ١٤٢٧هـ].

وكتاب الاستخراج لأحكام الخراج لابن رجب الحنبلي لدار الكتب العلمية/بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ].

ورسالة قاعدة في الأموال السلطانية لشيخ الإسلام ابن تيمية (ت٧٢٨هـ)، [سلسلة بحوث وتحقيقات مختارة من مجلة الحكمة (٢٢)، ١٤٢٢هـ]، على أن هذه الكتب كلها لم تقتصر على الجانب المالي، وإنما تحدثت عن أمور أخرى مما هو من مسائل السياسة، كالحكم بالعدل، ووجوب السمع والطاعة لأئمة المسلمين، وترك منازعتهم، ونحو ذلك، ولا شك أن هناك جوانب من الموارد المالية للدولة المذكورة في هذه الكتب غير موجودة الآن، لكن الذي يهمنا بيان اشتغال علماء المسلمين في زمنهم وعنايتهم بهذا العلم.

٣- القانون الدولي والعلاقات الدولية:

هناك أحكام شرعية تحكم العلاقة بين الدولة الإسلامية وبين الدول الكافرة، كالأحكام المتعلقة بالمغازي والسِّير، والعهد والأمان، والصلح والموادعة، والجزية ونحو ذلك، ومن الكتب المبكرة جدًّا في ذلك ما كتبه أبو عمر عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي (ت١٥٧هـ)، في كتابه السير، وقد رواه الإمام الشافعي بسنده في كتاب الأم.

وكتاب السير لأبي إسحق إبراهيم بن محمد الفزاري (ت١٨٦هـ) [مؤسسة الرسالة/بيروت، ط١، ١٩٨٧م، والكتاب بعضه مفقود].

وكتاب السير الكبير لمحمد بن الحسن الشيباني (ت١٨٩هـ) تلميذ أبي حنيفة، وقد شرحه شمس الأئمة السرخسي (ت٤٩٠هـ) لدار الكتب العلمية بيروت، ط١، ١٤١٧هـ]، وكان الشيباني صنَّف قبله كتاب السير الصغير، ولأبي يوسف مشاركة في ذلك؛ حيث ألف كتابًا اسمه الرد على سِيَر الأوزاعي.

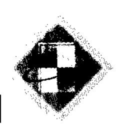
ومما يمكن إضافته إلى ذلك: الوثائق السياسية التي تمثل العقود والعهود التي أعطاها النبي صلى الله عليه وسلم وقادة الفتح للبلدان المفتوحة، وقد جُمع أغلب هذه الوثائق في كتاب بعنوان «مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة». (٣)

٤- الوزارة:

الوزارة من الولايات السياسية المهمة التي ظهرت في نظامنا السياسي، وهي تشمل جانبين: وزارة التفويض يقوم فيها الوزير مقام الخليفة أو الرئيس في كل فعله، فهو مفوَّض من قِبَله في ذلك؛ لذا يُشتَرط له من الشروط ما يُشتَرط للخليفة إلا شرط النسب، والحرية على الصحيح، ووزارة التقييد (كذا سماها الثعالبي وهي التي سماها الماوردي وزارة التنفيذ) يكون فيها الوزير بمثابة السفير بين الخليفة والرعية، فليست تمثل ولاية على الحقيقة، وقد وُجدت الكتب المتخصصة التي اعتنت بذلك، فمن الكتب ذات الاهتمام التاريخي كتاب الوزراء والكُتّاب لأبي عبد الله محمد بن عيدروس الجهشياري (ت٣٣١هـ) [مكتبة مصطفى البابي الحلبي/ القاهرة، ط١، ١٤٠١هـ].

ومن الكتب ذات الاهتمام الفقهي كتاب تحفة الوزراء لأبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي (ت٤٢٩هـ) لدار البشير/عمان، ط١، ١٤١٤هـ]، حيث رتَّب المؤلف كتابه على خمسة أبواب: بحث فيها أصل الوزارة واشتقاقها، وصفات الوزير الصالح، والحقوق المتبادلة بين الوزير والملك، وأقسام الوزارة، والفرق بين وزارة التفويض ووزارة التنفيذ، والحديث عن الشورى

(٣) مجموعة الوثائق السياسية جمعها، د/ محمد حميد الله الحيدر آبادي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.



وبيان من يُستشار، ومن لا يستشار، وكتمان الأسرار.

ومنها كتاب قوانين الوزارة لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي (ت٤٥٠هـ)، [مركز الإسكندرية للكتاب/الإسكندرية ط٣].

وكتاب تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء لأبي الحسن الهلال ابن المحسن الصابي (ت٤٨٨هـ) [مطبعة الآباء اليسوعيين/بيروت]، وهو كتاب تاريخي كما يظهر من اسمه.

٥- القضاء:

يعد القضاء من الولايات السياسية المهمة في الدولة؛ إذ تنتظم به أحوال الراعي والرعية والمجتمع، ويأمن الناس على دمائهم وأعراضهم وأموالهم، ويأخذ كل صاحب حقّ حقه، وفي هذا الفرع تُذكر أحكام الحدود والتعزير، والشهود والدعاوى والبينات، والحكم بالقرائن والأمارات والفراسة، وعقوبة المتهم، وشهادة الفسقة من المسلمين، وشهادة غيرهم من الكفرة ونحو ذلك، فمن الكتب التي تحدثت عن أخبار القضاة وتاريخهم كتاب أخبار القضاة للقاضي أبي بكر محمد بن خلف بن حَيَّانَ بن صدقة الضَّبِّيّ البَغْدَادِيّ، المُلَقَّب بِـ«وَكِيع» (المتوفى سنة ٣٠٦هـ) [المكتبة التجارية الكبرى/القاهرة، ط١، ١٣٦٦هـ].

ومن الكتب التي تحدثت عن مسائل القضاء نفسها كتاب أدب القاضي للخصاف (ت٢٦١هـ) الذي شرحه عمر بن عبد العزيز بن مازه البخاري المعروف بالصدر الشهيد (ت٥٣٦هـ) [مطبعة الإرشاد بغداد ط١/١٣٩٧هـ-١٩٧٧م]، وقد رتَّبه على مائة وعشرين بابًا، تناول فيه كل ما يتعلق بالقضاء.

وكتاب الطرق الحكمية في السياسة الشرعية (الفراسة) لأبي عبد الله محمد ابن أبي بكر بن قيم الجوزية (اشتهر بابن القيم ت ٧٥١هـ)، [المؤيد/الطائف، ط١، ١٤١٠هـ].

وكتاب تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام لبرهان الدين أبي الوفاء إبراهيم بن علي ابن محمد بن فرحون المالكي (ت٧٩٩هـ) [دار عالم الكتب/ الرياض ١٤٢٣هـ]، وهو كتاب حافل في بابه.

وكتاب معين الحكام فيما يتردد بين الخصمين من الأحكام لعلاء الدين علي بن خليل الطرابلسي الحنفي (ت٨٤٤هـ) [دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع].

وكتاب جواهر العقود ومعين الحكام والموقعين والشهود لشمس الدين محمد بن أحمد المنهاجي الأسيوطي (ت ٨٨٠هـ) [مصوّرة عن الطبعة الأولى المطبوعة على نفقة الأديب الكبير محمد سرور الصبان].

وكتاب المقدمة السلطانية في السياسة الشرعية لطوغان شيخ المحمدي الحنفي (ت٨٨١هـ)، وكتاب لسان الحكام في معرفة الأحكام لأبي الوليد إبراهيم بن محمد، المعروف بابن الشحنة الحنفي (ت ٨٨٢هـ)، [دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع]. وكتاب السياسة الشرعية لدده أفندي (ت ١١٤٦هـ). [٤]

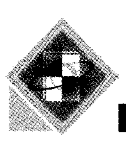
٦- رعاية الأخلاق والآداب وصيانة المجتمع:

وفي هذا الجانب من جوانب السياسة الشرعية تطالعنا الكتب الموسومة بكتب الحسبة، والتي تعتني بالحفاظ على أخلاق المجتمع وآدابه، وتصونه ممن يحاول الخروج عليها، من حيث إنكار المنكرات كلها، والأمر بالمعروف في كل الأمور المجتمعية، وفي هذا الباب نجد الكثير من الكتب:

منها كتاب السوق ليحيى بن عمر الكناني (ت٢٨٩هـ) [مكتبة الثقافة الدينية/ بورسعيد، ط١، ١٤٢٤هـ]، الذي يتحدث عن تنظيم الأسواق ومراقبتها، وعن المنكرات التي يمكن وقوعها في السوق، ويبين كيفية العمل معها.

---

(٤) في المخطوطة التي وقفت عليها لم تذكر من اسم المؤلف سوى: دده أفندي، وبالبحث في الأعلام للزركلي عن دده أفندي وجدت ما يلي: «(..- ١١٤٦ هـ =..- ١٧٣٣ م) محمد (بير محمد دده) بن مصطفى ابن حبيب الأرضرومي ثم القسطنطيني، زين الدين، المعروف بدده أفندي: من علماء الدولة العثمانية، فقيه حنفي» وذكر أن له من الكتب «السياسة والأحكام»، وكذلك جاء في إيضاح المكنون ٣٠٤/٢ لإسماعيل باشا البغدادي.



وكتاب الرتبة في طلب الحسبة للماوردي (ت٤٥٠هـ) لدار الرسالة/القاهرة، ط١، ١٣٢٢هـ].

وكتاب نهاية الرتبة الظريفة في طلب الحسبة الشريفة لعبد الرحمن بن نصر بن عبد الله الشيزري (ت٥٨٩هـ) يبين شرائط المحتسب وصفته، ويتكلم عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويبين كيفية الاحتساب على كثير من أصحاب المهن في المجتمع؛ كالأطباء والصيادلة، والصاغة والفصادين، والعطارين والخياطين، والنجارين والخبازين والطباخين، وغيرهم كثير.

وعلى المنهج نفسه كتاب معالم القُربة في أحكام الحسبة لمحمد بن محمد بن أحمد المعروف بابن الإخوة القرشي (ت٧٢٩هـ)لدار الكتب العلمية/لبنان/ط١، ١٤٢١هـ].

وكتاب الحسبة لابن تيمية (ت٧٢٨هـ) ؛ حيث يبين أن الأصل في الولايات أن تكون ولايات شرعية، ثم يبين بعض واجبات المحتسب والاحتساب في المعاملات المحرمة، ويتحدث عن التعزير بالعقوبات المالية، وأخيرًا عن استخدام اليد في إنكار المنكر.

وكتاب بغية الإربة في أحكام الحسبة لوجيه الدين عبد الرحمن بن علي الشيباني المعروف بابن الديبع (ت٩٤٤هـ) [جامعة أم القرى/مكة، ط١، ١٤٢٣هـ].

٧- كُتُب تُعنَى باستقرار الأحوال وانتظامها وإصلاحها عن طريق النصائح والمواعظ المتعلقة بالسياسة:

الأمراء والوزراء في تعاملهم مع شعوبهم، وفي قيادتهم للأمة، في حاجة إلى التحلي بفضائل خلقية تُعدّ من قبيل الصفات الذاتية؛ كالشجاعة والصدق والكرم، والوفاء والشكر، والإحسان والهيبة، والمظهر الملائم، والبعد عن أضدادها، من الجبن والخور، والكذب والبخل والغدر، وإخلاف الوعد، كما يحتاجون في قيادتهم للأمة بجانب الصفات السابقة إلى صفات كالعدل بين الناس، والتمسك بالحق وطيب المعشر، ودوام الألفة بينهم وبين الرعية، والحرص على المشاورة وعدم الاستبداد بالرأي، لذلك وُجِدَت الكتب التي تحضّ على تلك الفضائل، وتنهى عن ذميمها، وتبين ما يترتب على الأخلاق الحسنة من الخير، وما يترتب على السيئة من شرور.

> يُعدّ القضاء من الولايات السياسية المهمة في الدولة؛ إذ تنتظم به أحوال الراعي والرعية والمجتمع، ويأمن الناس على دمائهم وأعراضهم وأموالهم، ويأخذ كل صاحب حق حقه

كما تهدف تلك الكتب إلى تقديم النصيحة لمتولي الأمور، وبيان الطريق الذي ينبغي سلوكه، سواء في تولية الولايات، أو في تحصيل الأموال وإنفاقها، والحكم بين الناس بالحق، وإقامة الحدود وترك المحاباة، وسيرته مع مختلف فئات الدولة، ونحو ذلك، لكن من هذه الكتب ما يغلب الحديث عن الفضائل الذاتية، ومنها ما يغلب الحديث عما يصلح به أمر الراعي والرعية.

فمن هذه الكتب كتاب آداب الملوك لأبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي (ت٤٢٩هـ) [عالم الكتب/القاهرة، ط١، ١٤٢٨هـ]، يقول في مقدمته: «قد جعلت له مقدمة وسياقة، وبنيته على أن يتضمن الغُرر والنكت واللمع والعهد، مما يصلح للملوك وأصحابهم، وذكر ما لهم وعليهم، ورتَّبته في عشرة أبواب يشتمل كل باب منها على عدة فصول».

وكتاب تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك لأبي الحسن الماوردي (ت٤٥٠هـ) لدار النهضة/بيروت عام ١٩٨١م]؛ حيث رتبه على بابين وكل باب فيه عدة فصول، فالباب الأول في أخلاق الملك، والباب الثاني في سياسة الملك.

وكتاب نصيحة الملوك المنسوب للماوردي(٥) [مكتبة الفلاح/الكويت، ط١، ١٤٠٣هـ]، يقول في مقدمته: «فكتبنا كتابنا هذا نصيحة للملوك، وإظهارًا لمحبتهم، وإشفاقًا لهم على أنفسهم ورعاياهم، ورجونا

(٥) ذكر الدكتور فؤاد عبد المنعم في مقدمة تحقيقه لكتاب قوانين الوزارة أن كتاب نصيحة الملوك ليس من تأليف الماوردي.



أن من وقع له كتابنا هذا، بما فيه من صادق النصيحة وبليغ الموعظة، وأعطاه من عناية حظه بالنظر فيه والتدبر له والإصغاء إليه، علم أنّا من أعظم أوليائه له نصيحةً، وأبلغ خدَمه وأعوانه له معونةً».

وكتاب التبر المسبوك في نصيحة الملوك لأبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي (ت٥٠٥هـ).

وكتاب درر السلوك في سياسة الملوك لأبي الحسن الماوردي (ت٤٥٠هـ) [دار الوطن /الرياض ١٤١٧هـ]، وقد قسّمه إلى بابين: الباب الأول: في أخلاق الملك، والباب الثاني: في سياسة الملك، تحدث في الباب الأول عن الأخلاق المحمودة، وما يقابلها من الأخلاق المذمومة، وتحدث في الباب الثاني عن الرجوع إلى الحق ومحاسبة النفس، وبيَّن أن أصل ما تبنى عليه السياسة العادلة في سيرها: الرغبة والرهبة والإنصاف، كما تحدث عن سياسة الملك لحاشيته وأعوانه، ثم تحدث عن القضاة والحكام وعمال الخراج، وأهمية حسم مواد الفساد، وتفقد أحوال الرعية والعناية بأمن السبل والمسالك ورعاية العلم والعلماء ومكافأة المحسن على إحسانه والمسيء على إساءته، وختم كتابه بدعوة الملك إلى أن يكون دأبه فعل الخيرات إما ابتداءً من نفسه، أو اقتداء بالأخيار من سلفه.

وكتاب سراج الملوك لأبي بكر محمد بن الوليد الفهري الطرطوشي المالكي (ت٥٢٠هـ)، [الدار المصرية اللبنانية/القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م]؛ حيث رتَّبه على أربعة وستين بابًا، بدأها بالحديث عن موعظة السلطان، ثم تحدث عن الخصال التي يستمر بها نظام الملك، والخصال التي يكون بها زواله، وتحدث عن خصال الحلم والجود، والسخاء والصبر وأضدادها، وتحدث عن الوزراء وصفاتهم والمشورة والنصيحة، كما تحدث عن الخصال التي تصلح بها الرعية والخصال الموجبة لذم السلطان، وتحدث عن سيرة السلطان مع الجند، وفي جباية الخراج وسيرته في بيت المال، وتدوين الدواوين، وفرض الأعطيات، كما تحدث عن أحكام أهل الذمة، وتقدير الجزية، والصفات المعتبرة في الولاة، والشروط التي تؤخذ عليهم، وحذَّر من أخلاق مردية كالظلم والغيبة والنميمة، وتحدث عن الحروب وتدبيرها وحِيَلها وأحكامها، ثم ختم كتابه بأخبار ملوك العجم وحكاياتهم والعديد من الحِكَم المنثورة.

وكتاب المنهج المسلوك في سياسة الملوك، لعبد الرحمن بن نصر بن عبد الله الشيزري (ت٥٨٩هـ)، [دار المنار/الأردن ١٤٠٧هـ].

وكتاب تهذيب الرياسة وترتيب السياسة لمحمد بن علي بن الحسن القلعي (ت٦٣٠هـ)، [مكتبة المنار/ الأردن، ط١]، يقول في مقدمة كتابه: «فهذا الكتاب جمعته في تهذيب الرياسة، وترتيب السياسة، وجعلته قسمين:

القسم الأول منه يشتمل على أنواع أبواب تحتوي على غُرَر من كلام الحكماء ودرر الفصحاء.. يتضمن محاسن الأوصاف المحمودة من ذوي الأمر، وذم أضدادها، وما يجب استعماله، أو تركه من الأمور التي يحمد متبِعُها عاقبةَ إصدارها وإيرادها.

والقسم الثاني به حكايات عن الخلفاء ووزرائهم وعمالهم وأمرائهم، مما يدل على نبلهم، وغزارة فضلهم، وحسن سيرتهم، وكمال مروءتهم، وما اشتملت عليه طرائقهم وحوته خلائقهم من العدل، والإنصاف والبذل، والإسعاف والعفو عند الاقتدار، ومعرفة حقوق ذوي الأقدار، وقبول النصح من الناصحين، وسماع الموعظة من الصالحين، مع ما اتصفوا به من علم وأدب ووقار وحلم، وفصاحة وبراعة وسماحة وشجاعة، فمن اتخذ ذلك إمامًا ارتفع وانتفع، ومن عمل بما شاكلَه رشد وحمد، ثم يقول: وقد ابتدأت ذلك بذكر وجوب الإمامة، وعدم الاستغناء عن الولاة، وما يجب لهم على الكافة من الطاعة والموالاة».

وكتاب الشهب اللامعة في السياسة النافعة لأبي القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان المالقي (ت٧٨٤هـ) [دار الثقافة/الدار البيضاء/المغرب، ط١، ١٤٠٤هـ]، وقد رتَّبه على خمسة وعشرين بابًا؛ حيث ذكر فضل



العدل والحلم وكظم الغيظ، والصبر والتأني والجود والسخاء ورعاية العهود، والتواضع مع الحزم والقوة، والتدبير والمشاورة، وعمارة الأرض، وإصلاح المملكة، كما تحدث عن تولية الخطط الدينية وبيت المال، وسياسة الحروب وتدبيرها.

وكتاب السياسة الشرعية لأحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية (ت٧٢٨هـ).

وكتاب تحفة الترك فيما يجب أن يُعمَل في الملك لنجم الدين إبراهيم بن علي الحنفي الطرَسوسي (ت٧٥٨هـ) [دار الطليعة/بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ]، يقول في مفتتح كتابه: «فإن الله تعالى جعل حفظ نظام الأنام بالسلطان، وأدام له الأيام، بالعدل في الشريعة والإحسان، ورأيت الواجب في هذا الزمان بذل النصيحة له بقدر الإمكان بتأليف كتاب يشتمل على فصول، يجتمع فيها أنواع مصالح الملك، مما تعتمد عليه الملوك، وبيان طريق يدوم لهم بها الملك بأحسن السلوك، ولم أقصد بذلك سوى القيام بهذا الواجب، وحفظ نظام الملك لمن هو في اتباع الشرع من الملوك راغب»[٦].

وكتاب تحرير السلوك في تدبير الملوك لأبي الفضل محمد بن عبد الوهاب السنباطي الملقب بالأعرج (ت بعد ٩٢٢هـ)، فتحدث عن أهمية ابتعاد الملك عن الرذائل، وجمع أمهاتها في خمس: فأولها الكبر، وثانيها العجب، وثالثها الغرور، ورابعها الشحّ، وخامسها الكذب، ثم شرع في الكلام على الشروط التي ينبغي توافرها في الناظر في المظالم.

٨- كتب التاريخ السياسي:

تعتني بذكر الوقائع والأحداث المرتبطة بالدول والخلفاء والسلاطين والملوك، وقد تكون هذه خاصة بزمان أو مكان، وقد تكون عامة، فمن ذلك:

كتاب الإمامة والسياسة المنسوب لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، (ت٢٧٦هـ) [دار الكتب العلمية/بيروت، ط١، ٢٠٠٦م]، والذي يؤرخ فيه للإمامة من بدايتها، وما جرى من فتنة وقتال بين المسلمين بسببها إلى بداية الدولة العباسية.

وكتاب ولاة مصر لأبي عمر محمد بن يوسف الكندي (ت٣٥٠هـ) [دار صادر/بيروت].

وكتاب الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية لمحمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي (ت ٧٠٩هـ)، [دار صادر/بيروت]، يؤرخ فيه للدول الإسلامية من خلافة الراشدين إلى زمن انقضاء الدولة العباسية سنة٦٥٦هـ، يقول في كتابه: «وهذا كتاب تكلمت فيه على أحوال الدول، وأمور الملك، وذكرت فيه ما استظرفته من أحوال الملوك الفضلاء، واستقريته من سير الخلفاء والوزراء وبنيته على فصلين:

كتب التاريخ السياسي تعتني بذكر الوقائع والأحداث المرتبطة بالدول والخلفاء والسلاطين والملوك، وقد تكون هذه خاصة بزمان أو مكان، وقد تكون عامة

فالفصل الأول تكلمت فيه على الأمور السلطانية والسياسات الملكية، وخواص الملك التي يتميز بها على السوقة، والتي يجب أن تكون موجودة أو معدومة فيه، وما يجب له على رعيته، وما يجب لهم عليه.. والفصل الثاني تكلمت فيه على دولة دولة من مشاهير الدول» (والفصل الأول لا يبلغ من الكتاب ما نسبته ١٥٪)، وهو يشرح حال الوزارة مع كل خليفة يذكره.

وكتاب سيرة السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي لبهاء الدين بن شداد أبي المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة الأسدي الموصلي، نشأ عند أخواله بني شداد، فنُسِب إليهم (ت٦٣٢هـ)، [دار الأوائل/دمشق، ط١، ٢٠٠٣م].

وكتاب السلوك لمعرفة دول الملوك لأحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقريزي (ت٨٤٥هـ) يتكلم فيه عن ملوك مصر في حقبة زمنية معينة، يقول المقريزي: «لما يسر الله

(٦) تحفة الترك فيما يجب أن يُعمَل في الملك، ص ٢٦.



وله الحمد، بإكمال كتاب عقد جواهر الأسفاط من أخبار مدينة الفسطاط، وكتاب اتعاظ الحنفاء بأخبار الخلفاء، وهما يشتملان على ذكر مَن ملك مصر مِن الأمراء والخلفاء، وما كان في أيامهم من الحوادث والأنباء، منذ فُتحت إلى أن زالت الدولة الفاطمية وانقرضت، أحببت أن أصل ذلك بذكر من ملك مصر بعدهم من الملوك الأكراد الأيوبية، والسلاطين المماليك التركية والجركسية، في كتاب يحصر أخبارهم الشائعة، ويستقصي أعمالهم الذائعة، ويحوي أكثر ما في أيامهم من الحوادث والماجريات»، فهي كتب تركز على الجانب التاريخي فيما يتعلق بالولايات السياسية.

٩- كتب الفكر السياسي:

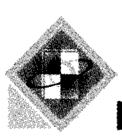
وهي الكتب التي تُعنَى ببحث العلاقة بين الظواهر الإنسانية والسياسة، والتأثير المتبادل بينهما، من خلال التدبر والتأمل في الطبائع الإنسانية، وتتبع واستقراء الوقائع والأحداث، والخروج من ذلك بقواعد عامة تحكم العلاقة بين الظواهر الإنسانية والسياسة، فمن ذلك:

كتاب مقدمة ابن خلدون لولي الدين عبد الرحمن ابن محمد بن أبي بكر ابن خلدون (ت٨٠٨هـ) [دار الفجر/ القاهرة، ط١، ١٤٢٥هـ]، أفرد ابن خلدون في كتابه هذا قدرًا كبيرًا للحديث عن السياسة، سواء من حيث الحديث عن القواعد التي تحكم السلوك الإنساني، أو من حيث الحديث عن الأحكام الشرعية التي ترتبط بها، ففي الجانب الأول تحدث عن علاقة العصبية بالرئاسة، وعن عوائق الملك، وعن ولع المغلوب بالاقتداء بالغالب، وأن الأمة إذا غلبت وصارت في ملك غيرها أسرع إليها الفناء، وتحدث عن أطوار الدولة وعن عمرها، وعن تأثير الترف على بقائها، وتأثير كثرة القبائل والأوطان على الاستقرار، كما تحدث في الجانب الثاني عن معنى الخلافة والإمامة والبيعة، وانقلاب الخلافة إلى الملك، كما تحدث عن ولاية العهد والوزارة، والحجابة والشرطة، والخطط الدينية كالعدالة والحسبة والسكة، والدواوين كديوان الأعمال والجبايات، وديوان الرسائل والكتابة.

كتب الفكر السياسي هي الكتب التي تعنى ببحث العلاقة بين الظواهر الإنسانية والسياسة، والتأثير المتبادل بينهما من خلال التدبر والتأمل في الطبائع الإنسانية، وتتبع واستقراء الوقائع والأحداث

ومن ذلك كتاب بدائع السلك في طبائع الملك لأبي عبد الله محمد بن علي بن محمد الأصبحي الغرناطي، ويعرف بابن الأزرق (ت٨٩٦هـ) [الدار العربية للموسوعات/بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ]، يقول عنه د/ علي سامي النشار في مقدمة تحقيقة: «فإني أقدم للمكتبة العربية، ولأول مرة، أعظم كتاب في علم الاجتماع السياسي لدى المسلمين»، وقد رتّب ابن الأزرق كتابه على مقدمتين وأربعة كتب وخاتمة، تكلم في المقدمة الأولى عما يمكن تسميته بطبائع الأقوام، وأثرها في الملك، ذكر فيها عشرين مسألة، وهي مأخوذة من مقدمة ابن خلدون، وتحدث في المقدمة الثانية عن المأخذ الشرعي في تولية الولاة ونصب الأئمة وأهمية ذلك، وسقوط بعض شروط الولاية لعدم توفرها، وإمكان الاستعاضة عنها، وفي نهايتها بيّن أن صلاح الرعية بصلاح السلطان وفسادها بفساده.

وأما الكتاب الأول فقد خصَّصه للحديث عن حقيقة الخلافة والملك، وسائر أنواع الرياسات، وسبب وجود ذلك وشرطه، وقد جعل ذلك في بابين، والكتاب الثاني بيَّن فيه أركان الملك، وقواعد مبناه ضرورة وكمالاً، وجعله في بابين أيضًا فتحدث عن نصب الوزير، وإقامة الشريعة، وإعداد الجند، وحفظ المال، وإقامة العدل، وتولية الخطط الدينية كالفتيا والقضاء والحسبة والسكة، وترتيب المراتب السلطانية كالحجابة والكتابة والجباية والشرطة، ورعاية السياسة وتقديم مشورة ذوي الرأي، وبذل النصيحة، وإحكام التدبير، كما تحدث عن الفضائل الذاتية كالعقل والعلم والشجاعة، والعفة والسخاء، والحلم وكظم الغيظ، والكتاب الثالث تحدث فيه عما يتمكن به السلطان من تشييد أركان



الملك، وتأسيس قواعده، والكتاب الرابع في عوائق الملك وعوارضه المانعة من دوامه، أو اللاحقة لطبيعة وجوده.

وأما الخاتمة فقد ذكر فيها أن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم في سياسة الدين والدنيا هي السيرة الجامعة لمحاسن الشِّيَم ومكارم الأخلاق، والمطالع لكتاب بدائع السلك يلحظ بدون تكلف مدى تأثر ابن الأزرق بابن خلدون في مقدمته وبأبي بكر الطرطوشي في سراج الملوك.

١٠- كتب متعددة الأغراض:

وهناك العديد من الكتب التي قد يصعب تصنيفها تحت قسم من الأقسام السابقة؛ وذلك لاحتوائها على أكثر من غرض من هذه الأغراض؛ فبينما يدخل جزء منه تحت قسمٍ؛ لحديثه المفصَّل عنه، فإن جزءه الثاني يتعلق بقسم آخر، ولعل أوضح كتاب على ذلك هو كتاب تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من الحِرَف والصنائع والعمالات الشرعية لأبي الحسن (أو أبي السعود) علي ابن محمد بن أحمد الخزاعي (ت ٧٨٩هـ) لدار الغرب الإسلامي/بيروت، ط١، ١٩٨٥م؛ حيث قسَّمه إلى عشرة أجزاء:

فالجزء الأول في الخلافة والوزارة وما ينضاف إلى ذلك، وفيه سبعة أبواب، والجزء الثاني في العمالات الفقهية، وأعمال العبادات، وما ينضاف إليها من عمالات المسجد، وعمالات آلات الطهارة وما يقارب منها، وفي الإمارة على الحج وما يتصل بها، وفيه خمسة وعشرون بابًا، والجزء الثالث في العمالات الكتابية وما يشبهها، وما ينضاف إليها، وفيه ثلاثة عشر بابًا، والجزء الرابع في ذكر العمالات الأحكامية (كالإمارة على النواحي والقضاء والمظالم والحسبة) وما ينضاف إليها وفيه سبعة عشر بابًا، والجزء الخامس في ذكر العمالات الجهادية، وما يتشعب منها وما يتصل بها، وفيه خمسة وأربعون بابًا، الجزء السادس في المعاملات الجبائية (كالزكاة والجزية، والخراج والعشور والصدقات) وفيه اثنا عشر بابًا، الجزء السابع في العمالات الاختزانية (كالخازن والوازن، والكيال وصاحب السكة، وصاحب الضرب، وأسماء الأوزان والأكيال في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم) وفيه أحد عشر بابًا، والجزء الثامن في سائر العمالات وفيه عشرة أبواب، والجزء التاسع في ذكر حرف وصناعات كانت على عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وذكر من عملها من الصحابة رضوان الله عليهم وفيه أربعة وثلاثون بابًا، والجزء العاشر، وبه كمال التأليف، في ذكر أمور متفرقة مما يرجع إلى معنى الكتاب وفيه أربع أبواب:

فالأول: في معنى الحرفة والعمالة والصناعة.

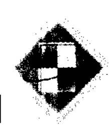
والثاني: في النهي عن استعمال غير المسلمين من الكفار من أهل الكتاب وغيرهم، وعن الاستعانة بهم.

الثالث: فيما جاء في أرزاق العمال.

الرابع: في ذكر الكتب التي استخرج منها جميع ما تضمنه هذا الكتاب.

ومن ذلك كتاب الدرة الغراء في نصيحة السلاطين والقضاة والأمراء لمحمود بن إسماعيل بن إبراهيم الخير بيتي (أو الخيرميتي) (ت بعد ٨٤٣هـ) لمكتبة نزار الباز/الرياض ١٤١٧هـ؛ حيث رتَّبه على عشرة أبواب، فتحدث عن الإمامة وشروطها وعن الوزارة، وعن قواعد الأجناد وآدابها، كما تحدث عن أمور متعلقة بالقضاء والفتوى والحيل الشرعية، ومتفرقات أخرى لا تعلُّق لها بالسياسة العامة.

ومن ذلك أيضًا كتاب سياست نامه، أو سِيَر الملوك للوزير السلجوقي أبي علي الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي، لُقِّب بنظام الملك (ت٤٨٥هـ) لدار الثقافة/ قطر، ط٢، ١٤٠٧هـ، يُعدّ من الأمثلة الواضحة على ذلك، فقد رتَّبه مؤلفه على خمسين فصلًا، يقول في مقدمة كتابه: «عمدت إلى درج وشرح كل ما كنت أعرفه، أو رأيته أو خبرته من تجارب في حياتي، أو تعلمته من أساتذتي في الموضوع في هذا الكتاب في خمسين فصلًا، ثم يقول: ليس لأي ملك أو حاكم



مندوحة من اقتناء هذا الكتاب ومعرفة ما فيه، خاصة في هذه الأيام، فكلما قرؤوه أكثر ازدادت درايتهم بأمور الدين والدنيا، واتسعت رؤيتهم في معرفة أحوال الصديق والعدو، وانفتحت أمامهم سُبُل تصريف الأمور وإدارتها، واتضحت لهم قواعد تدبير شئون البلاط والقصر والديوان، والمجلس والميدان والأموال والمعاملات، والعسكر والرعية؛ بحيث لا يظل في أرجاء المملكة شيء خافيًا صغيرًا كان أم كبيرًا، قريبًا أم بعيدًا، إن شاء الله تعالى».

كتب السياسة الشرعية في العصر الحديث:

قد يكون من الصعب تحديد معيار للحداثة؛ بحيث يقال: إن هذا الكتاب ينتمي إلى كتب التراث، أو إلى الفترة الحديثة، إضافة إلى أن المعيار المختار لن يجد قبولاً من الدارسين كلهم؛ إذ كل واحد ينظر لهذه الظاهرة بمنظار مختلف، وقد يمكن كاصطلاح في هذا المقال أن نجعل زمن وقوع الدول الإسلامية تحت الهيمنة الأجنبية معيارًا نفصل به بين كتب التراث وبين الكتب الحديثة، وذلك أنه بعد الثورة الفرنسية العلمانية، وبعد انتشار رؤاها في كثير من بلدان العالم، وبعدما غزت تلك الأفكار بلادنا العربية والإسلامية لم يعد المؤثر الوحيد في الفكر والثقافة المصدر الإسلامي، وإنما تداخلت معه مصادر أخرى وزاحمته، بلغ من مزاحمتها عند بعض الناس أن صارت هي الأصل الذي يعوّل عليه؛ بحيث يرد ما خالفه من المصدر الإسلامي، وبحيث يصبح ما يذكر من المصادر الإسلامية بمثابة الاستشهاد وليس عمدة الكلام، ولعل بدايات هذا التأثر في طورها الأول تظهر في كتابات رفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي:

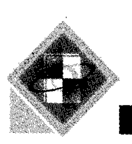
من ذلك كتاب أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك لخير الدين التونسي (ت١٣٠٨هـ)، [مطبعة الدولة/ تونس، ط١، ١٢٨٤هـ]؛ حيث يذكر أن الظلم مقتضٍ لخراب العمران، وأن استقامة الوزير لا تكفي إذا لم تكن هناك قوانين ضابطة؛ لأن عدم القوانين تجعل استقامة الأحوال مرهونة بإرادة الملك، ويتحدث عن عيوب الاستبداد، ويدعو إلى الحرية، ويذكر أسباب تراجع الأمة، ويطالب بالاتحاد بين رجال السياسة والعلماء لجلب مصالح الأمة ودرء المفاسد عنها، لكنه لا يلبث بعد ذلك أن يعقد أبوابًا متتالية عن الدول والممالك الكافرة في زمنه، ويبين ما هم عليه من الرقي والتقدم في أمور السياسات، ويكاد يقصّ علينا تفاصيل النظام السياسي في كثير من البلدان كفرنسا وإنجلترا، والنمسا وروسيا، وألمانيا وإيطاليا والسويد، وهولندا وسويسرا وبلجيكا والدنمارك، ويظهر إعجابه بحال تلك الدول وبالقوانين المنظمة لحياتهم وللحريات الممنوحة لهم.

وبوقوع البلاد الإسلامية تحت هيمنة الآخر الكافر حدث التغير المتوقع في كل جوانب الحياة الفكرية والعملية، ومن ذلك جانب السياسة الشرعية، قد لا يمكننا في هذه المقالة الموجزة التعرض لكل أو لكثير مما كتب حديثًا، ولكن من خلال المتابعة لعشرات من الكتب التي كُتبت في هذا الباب نجد أنها تمثل ثلاثة أقسام:

> بوقوع البلاد الإسلامية تحت هيمنة الآخر الكافر حدث التغير المتوقع في كل جوانب الحياة الفكرية والعملية، ومن ذلك جانب السياسة الشرعية

القسم الأول: قسم أهل الغلو والتطرف في متابعة هيمنة الآخر، فقد رفضوا كل ما لديهم في هذا الباب، وعدّوا ما جاءهم من الآخر الكافر المتغلب هو الحق الذي ليس وراءه حق، ويمثل هذا الاتجاه كتاب الإسلام وأصول الحكم لعلي عبد الرازق، والكتاب الذي أُعِدّ من قِبَل الكماليين في تركيا، وترجمه عبد الغني سني للعربية وعنوانه الخلافة وسلطة الأمة، وكتاب من هنا نبدأ لخالد محمد خالد قبل أن يتراجع عنه بعد مُضِي ما يقارب ربع قرن من الزمن.

وقريب منه مَن لم يبلغ هذا المبلغ، ولكنه تأثر كثيرًا بما عند الآخر فحاول أن يبين أن ديننا قد دلَّ على ما عند الآخر، ويتصيد لذلك الدلالات ولو بالإكراه، وهذا فيه خطورة؛ إذ يقدم ما عند الآخرين وكأنه



بضاعة إسلامية، ولسان حالهم يقول: هذه بضاعتنا رُدَّت إلينا، فحاصله تصويب ما عند الآخر المخالف، ويمثل هذا الاتجاه د/ عبد الحميد متولي في كتابه مبادئ نظام الحكم في الإسلام، وخالد محمد خالد في طوره الجديد في كتابه دفاع عن الديمقراطية.

والقسم الثاني: هو من وقف في كتابته عند حد كتاب الإمامة في كتب الأحكام السلطانية، ووقف عند المدوَّن في ذلك من غير التفات إلى الواقع، وإلى العوامل الجديدة الداخلة المؤثرة في الواقع، وكل ما قام به في هذا الصدد هو محاولة التعبير عن القديم بلغة معاصرة تكون سهلة الفهم على المتلقي، وهؤلاء قد أحسنوا بالحفاظ على خصوصياتنا، وإن لم يخلُ بعضها من التأثر بالفكر السياسي الوضعي.

والقسم الثالث: الذي يعتمد الكتاب والسنة المرجع الأساس، ويؤسس بناء عليهما نظامًا إسلاميًا في لحمته وسداه، مستفيدًا من تاريخنا السياسي، ويقف من الآخرين موقف العزة والعلو، فينتقي انتقاء مما عند الآخرين من الوسائل ما لا يتعارض مع ديننا، ويقدم صورة معاصرة لنظام سياسي ينطلق من شريعتنا قابلاً للتحقيق في أرض الواقع، لم يظهر بصورة كاملة وإن كانت تباشيره تلوح في الأفق.

ولعل من الكتابات المعتزة بنظامها غير المهزومة أمام الفكر الديمقراطي ما كتبه د/محمد رأفت عثمان في كتابه رياسة الدولة في الفقه الإسلامي، لدار الكتاب الجامعي/القاهرة)، وما كتبه د/ عبد الله بن عمر الدميجي في كتابه الإمامة العظمى لدار طيبة/الرياض ط١)، وما تقدم ذكره في هذه الأقسام هو مجرد أمثلة لا تمثل كل الموجود.

وأخيرًا لقد تبين من دراسة د/نصر محمد عارف أن هناك قدرًا كبيرًا من مخطوطات كتب السياسة الشرعية تعد بالعشرات ما زالت حبيسة لم ترَ بعدُ نور الطباعة، ولعلي أوجّه من هذا المنبر دعوة إلى مراكز الأبحاث ودور النشر بالالتفات إلى ذلك والعناية به، ومحاولة إخراج ما يمكن إخراجه من هذه المخطوطات مطبوعًا؛ تقديرًا لجهود علماء الأمة على ما بذلوه من جهد في ذلك، وحتى يتيسر وصوله والاطلاع عليه من قِبَل الدارسين والراغبين؛ للاستفادة منه في إيجاد بنية فكرية وهيكلية لنظام سياسي إسلامي في وقتنا الحاضر.





معلومات إضافية

موقع المصادر التراثية في الدراسات المعاصرة عن الفكر السياسي الإسلامي:

يتسم التعامل المعاصر مع التراث السياسي الإسلامي بأنه يتم بصورة غير منهجية تقوم على الصدفة والعشوائية، وهو ما تؤكده دراسة الدكتور نصر محمد عارف .. «في مصادر التراث السياسي الإسلامي.. دراسة في إشكالية التعميم قبل الاستقراء والتأصيل»؛ التي تناولت في أحد جوانبها بالحصر كمّ المصادر التراثية التي اعتمدها الباحثون المعاصرون في بناء نتائجهم وتعميماتهم، وتحديد نسبتها إلى مجمل ما توصل إليه من هذه المصادر، وهي ٣٠٧ مصادر تراثية مباشرة في علم السياسة -كما عرفه المسلمون-.

ويذكر الباحث أنه اطلع على ٧٤ كتابًا معاصرًا تتناول الفكر السياسي الإسلامي، أو أحد ظواهره؛ لتحديد موقع المصادر التراثية من هذه الكتابات فوجد أن:

كتابًا واحدًا رجع إلى ٣٣ مصدرًا.

كتابًا ثانيًا رجع إلى ١٩ مصدرًا.

كتابًا ثالثًا رجع إلى ١٦ مصدرًا.

كتابًا رابعًا رجع إلى ١٤ مصدرًا.

كتابين رجعا إلى ١٣ مصدرًا.

خمسة كتب رجعت إلى ١٢ مصدرًا.

ثلاثة كتب رجعت إلى ١١ مصدرًا.

سبعة كتب رجعت إلى ١٠ مصادر.

سبعة كتب رجعت إلى ٩ مصادر.

ثلاثة كتب رجعت إلى ٨ مصادر.

ستة كتب رجعت إلى ٧ مصادر.

خمسة كتب رجعت إلى ٦ مصادر.

ثلاثة كتب رجعت إلى ٥ مصادر.

ثمانية كتب رجعت إلى ٤ مصادر.

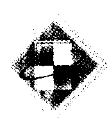
خمسة كتب رجعت إلى ٣ مصادر.

كتابين رجعا إلى مصدرين.

كتابين رجعا إلى مصدر واحد.

اثني عشر كتابًا لم ترجع إلى أي مصدر.

ويشير الباحث إلى أنه من خلال النتائج السابقة وجد أن أكثر الكتب التي لعبت دورًا محوريًا في الحياة الثقافية



المعاصرة، وأثرت على تصورات الكثيرين ومواقفهم من الفكر السياسي الإسلامي، وأثارت أسئلة عديدة لم يكن لها من موضع في العقل المسلم، مثل «هل هناك سياسة في الإسلام، أم أنه تمامًا مثل المسيحية الأوروبية؟»، و«هل عرف الفكر الإسلامي إنتاجًا فكريًا سياسيًا؟»... إلخ، أكثر هذه الكتب لم يستقرئ شيئًا من التراث الإسلامي السياسي.

وكما أن الكتابات المعاصرة التي تتناول الفكر السياسي الإسلامي، أو أحد ظواهره، لم تستقرئ التراث السياسي الإسلامي بدرجة معقولة تقربها من حدود المصداقية؛ فإن تنوع الباحثين لم ينتج تنوعًا في المصادر، فأكثر من ٨٠٪ ممن كتب في علم السياسة الإسلامي لم يرجع لأكثر من عشرة مصادر، كما أنهم يكررون المصادر نفسها، ولا يوجد بينهم نسبة اختلاف في التعامل مع المصادر؛ إذ إن جميعهم يتعاملون مع مصادر واحدة.

فهناك فقط أربعة كتب تراثية تكررت في أكثر من ٣٠٪ من الكتابات التي كانت محل البحث، والباقي احتل مواقع أدنى، بل إن معظمها لم يُستخدَم إلا من قِبَل باحث واحد أو اثنين، ويفسر د. عارف ذلك بأن السهولة في الوصول إلى الكتاب وذيوعه وانتشاره يعد محددًا أساسيًا في استخدامه في البحث الأكاديمي.

ويرى أن الناشرين والمحققين يحددون منهجية الباحث في العلوم السياسية في الإسلام، بل إنه ليس من المبالغة القول بأن اهتمام المستشرقين وتركيزهم على بعض المفكرين يعد مدخلاً أساسيًا في تحديد المصادر الإسلامية في علم السياسة وتحديد من هم المفكرون السياسيون الذين يجب أن يكونوا في موضع الدراسة والاهتمام.

واتسم التعامل مع المصادر الخاصة بالمفكرين الأكثر ذيوعًا وانتشارًا مثل «الماوردي» و«الفارابي» و«ابن سينا» و«ابن قتيبة» و«الغزالي» و«الجاحظ» بالانتقائية.

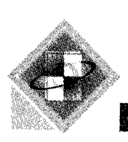
فعلى الرغم من أن التعامل مع التراث السياسي الإسلامي خضع للانتقائية والصدفة؛ حيث تم إبراز عدد محدود جدًّا من المفكرين، إلا إنه في الوقت نفسه لم يكن التعامل مع هذا العدد المحدود دقيقًا وممنهجًا بصورة علمية؛ إذ خضع بدوره للصدفة والانتقائية، بل والعشوائية؛ حيث لم يتم حصر إنتاج أولئك البارزين بصورة كاملة إلا في حالات نادرة، بل إنه كثيرًا ما يتم التركيز على أضعف كتابات المفكر لا لشيء إلا لأن الكتاب سبق الاهتمام بطبعه، أو لأن العنوان يحمل جاذبية تجعله سياسيًا أكثر من غيره من كتب هذا المفكر أو ذاك.

١- الماوردي:

على الرغم من أن إنتاجه الفكري وصل إلى خمسة كتب؛ إلا إنه لم يُركِّز إلا على «الأحكام السلطانية» دون بقية كتبه التي تعد أكثر أهمية من منظور الفكر السياسي، وليس الفكر الفقه السياسي أو القانون الدستوري، بل إن الرسائل الجامعية التي تعاملت معه وانصبت على دراسة فكره لم تقم أيٌ منها بحصر جميع إنتاج الماوردي، فالدكتور صلاح الدين رسلان في رسالته للدكتوراه عن الفكر السياسي للماوردي لم يرجع إلى «تسهيل النظر وتعجيل الظفر»، وكذلك فعل د. أحمد مبارك البغدادي الذي لم يرجع إلى كتابه «الرتبة في طلب الحسبة»، كذلك نجد د. سعيد بن سعيد الذي أعد رسالته للدكتوراه من الفكر السياسي لأبي الحسن الماوردي لم يرجع إلى جميع كتبه؛ حيث لم يشر إلى «تسهيل النظر»، و«الحسبة».

٢- أبو حامد الغزالي:

تم التركيز على كتابه «التبر المسبوك في نصيحة الملوك»، والأجزاء الخاصة بالسياسة في «إحياء علوم الدين»،



ولم يتم الرجوع إلى أهم كتبه السياسية، والذي يمثل الإنتاج العلمي المنظم له في هذا الحقل، وهو كتاب «سر العالمين وكشف ما في الدارين»، وقد يكون السبب في إهمال هذا الكتاب -على الرغم من أهميته- أن الشيخ محمد مصطفى أبو العلا قد نشره ملحقًا بكتاب «الدرة الفاخرة في كشف علوم الآخرة» مما أعطى انطباعًا بأنه مثل سابقه.

٣- ابن قتيبة الدينوري:

تم التركيز على كتابه «الإمامة والسياسة»، على الرغم من أنه لا يُعد مصدرًا للفكر السياسي الإسلامي، وإنما هو مصدر للتاريخ السياسي، يرصد تطور نظام الدولة الإسلامية المتمثل في مؤسسة الخلافة، ولم يتم الرجوع إلى كتابه «السلطان» المنشور في أول موسوعته «عيون الأخبار» الذي يعد في جوهر الفكر السياسي.

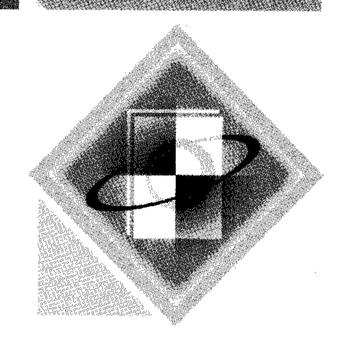
٤- الجاحظ:

على الرغم من أن أغلب أعماله منشورة إلا أنه صُنف على أنه أديب وليس مفكرًا سياسيًا، ومن ثَم لم يتم التركيز عليه إلا نادرًا، وعلى كتاب واحد هو «التاج في أخلاق الملوك»؛ في الوقت الذي يوجد له عشرة كتب في علم السياسة ما بين مخطوط ومطبوع، جميعها معلومة المكان، مما يجعل منه مفكرًا في حاجة إلى دراسة، خاصة أنه تعاطى العمل السياسي، وكان له دور فكري بارز في حركة الاعتزال، وإليه تُنسب فرقة من فِرَق المسلمين في صدر الإسلام.

وعلى ذلك فإن فجميع ما صدر من تعميمات في الدراسات المعاصرة يحتاج إلى مراجعة كاملة على ضوء ما تم التوصل إليه من مصادر فكرية غطت جميع مساحات التاريخ الإسلامي زمنيًّا ومكانيًّا.

المصدر:

نصر محمد عارف، «في مصادر التراث السياسي الإسلامي.. دراسة في إشكالية التعميم قبل الاستقراء والتأصيل»، المعهد العالمي للفكر الإسلامي (سلسلة المنهجية الإسلامية ٧)، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.



تهيئة الشعوب للاستعباد في عصر العولمة

محمد إبراهيم مبروك
مفكر إسلامي مستقل

ملخص الدراسة

عند تجاوز النظرة المعتادة للأبعاد السياسية لمسألة الهيمنة الغربية الأمريكية، على العالم إلى التعمق في الأبعاد الفلسفية والإنسانية لها يتكشف عند ذلك مدى بشاعة هذه الهيمنة وآثارها المدمرة على الإنسانية جمعاء.

إنها عملية استعباد تُمارَس على الشعوب لا نقول الفقيرة، ولكن «المستضعفة» وتتم تهيئة تلك الشعوب لهذا الاستعباد عبر «السياسة- الفكر- الاقتصاد- الإعلام»، فمن خلال هذه الوسائل تتم تهيئة الشعوب للانقياد.

لا يكاد يكون هناك موضع كبير للجدل في القول بأن الفكر البراجماتي هو الفكر القائد لعصر العولمة، وتفصيل ذلك أنه بنهاية الحرب العالمية الثانية، وانتقال مركز ثقل القوى الغربية لأمريكا؛ انتقل بدوره الفكر البراجماتي الأمريكي إلى مركز قيادة الفكر الغربي بوجه عام. وبسيادة هذا الفكر على العالم في عصر العولمة غدا الفكر القائد لهذا العصر.

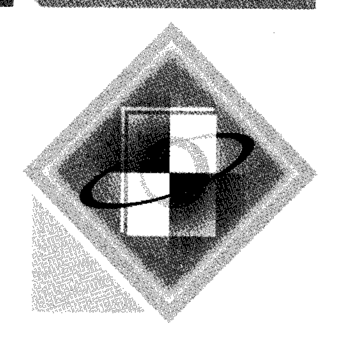
ومما يعتاد قوله: إن الدول الرأسمالية الكبرى تسيطر على الاقتصاد العالمي بالطريقة التي تؤدي إلى استغلال الدول الفقيرة، من خلال آلية الاقتصاد الليبرالي الحر الذي يقود عصر العولمة.

لكن السؤال الذي قد يغيب عن الكثيرين هو: من الذي يقود هذه الدول إلى عملية الاستغلال هذه؟

إنها النخبة البراجماتية المسيطرة على اقتصاد هذه الدول الكبرى، والتي لا تعمل على استغلال شعوب الدول النامية فقط من خلال النخبة البراجماتية المسيطرة عليها، ولكن على الطبقات المتدنية من شعوبها ذاتها.

إن الأفكار البراجماتية تعني الصراع المستمر بين جموع اللاعبين الذين لا يبحثون سوى عن الربح أو المنفعة، دون النظر إلى أيّ مبدأ وقيمة أخرى؛ فإن نتائج هذه المسألة تكون أكثر بشاعة بالنسبة للدول الفقيرة عما يحدث في الدول الغنية؛ وذلك لأن حجم الربح أو المنفعة في تلك الدول أقل كثيرًا.

وفضلاً عن الاستنزاف الدائم لأموال أبناء الشعوب الإسلامية الغنية من خلال ألاعيب بورصات التجارة العالمية؛ فإن التركيز على أبناء هذه الشعوب يتم أولاً من خلال صناعة الحاجز العازل بينهم وبين الإسلام؛ والضغوط الإعلامية بأن الاقتراب من الإسلام يؤدي بهم إلى الاتهام بتهمة «الإرهاب» ، وبذلك يتسنى لهم تشكيل عقول أبناء هذه الأمة من خلال القنوات الإعلامية الموجهة مخابراتيًا، والتي لا تنشر فقط الإباحية والفسق، ولكن تعمل بشكل مكثف على نشر العلمانية والإلحاد، وإعلاء قيم المنفعة والمفاهيم البراجماتية الأنانية، حتى سقط الكثيرون من أبناء هذه الشعوب في تخدير الإلهاء الشهواني الدائم.



تهيئة الشعوب للاستعباد في عصر العولمة

محمد إبراهيم مبروك
مفكر إسلامي مستقل

تمهيد:

أعتذر مبدئيًّا لكون هذه الدراسة قد تكون صادمة للغالب الأعم من القراء، ولا أقصد بهؤلاء القراء غيرَ المعادين للهيمنة الغربية الأمريكية على العالم فقط، بل أقصد أيضًا المعادين لهذه الهيمنة؛ لأنه عند تجاوز النظرة المعتادة للأبعاد السياسية للمسألة إلى التعمق في الأبعاد الفلسفية والإنسانية لها يتكشف عند ذلك مدى بشاعة هذه الهيمنة وآثارها المدمرة على الإنسانية جمعاء.

إنها عملية استعباد مستهدفة، تُمارَس على الشعوب لا نقول الفقيرة، ولكن «المستضعفة»، وتتم تهيئة تلك الشعوب لهذا الاستعباد عبر «السياسة- الفكر- الاقتصاد- الإعلام»، فمن خلال هذه الوسائل تتم تهيئة الشعوب للانقياد، حسب إرادة تلك الدول المتألهة، أو بتعبير أدق حسب إرادة النُّخَب القائدة المسيطرة عليها، كل ذلك تحت غلاف جميل من الشعارات البراقة: الحرية- المساواة- الديمقراطية- التقدم التكنولوجي- التجارة العالمية- تحوُّل العالم إلى قرية واحدة، أي ما يسمى عصر العولمة.

المزيج الفكري الذي يسود عصر العولمة:

اعتاد الباحثون أن يتحدثوا عن عصر العولمة -بعد سقوط المعسكر الشرقي وسقوط الماركسية والأيديولوجيات الاشتراكية الأخرى- بأنه عصر سقوط الأيديولوجيات، وإن كان فوكوياما استثنى من ذلك الإسلام والرأسمالية الليبرالية[(1)]. فإنه ليس من الدقيق فلسفيًّا وصف الرأسمالية الليبرالية بأنها أيديولوجية فكرية، فهي ليست سوى منظومة اقتصادية محددة، لا تستهدف غير الربح، وحتى الليبرالية كتيار سياسي؛ فإنها تعني إتاحة الحرية للتيارات السياسية والفكرية المختلفة، سواء كانت أغلبية أم معارضة دون توجيهها توجيهًا محددًا.

ولو أننا أقصينا الإسلام جانبًا الآن -وهو على العموم لا يصح وصفه بأنه أيديولوجية، وإن كان لا شك يحمل أيديولوجية موجهة-؛ فإنه يكون من الصحيح وصف عصر العولمة بأنه عصر سقوط الأيديولوجيات.

والوصف الآخر الصحيح أيضًا أنه هو عصر أيديولوجية السوق، وأقصد بذلك أنه صحيح مجازًا. وإذا كان المحور الأساس لأيديولوجية السوق هو البحث عن تحقيق الربح؛ فإن ذلك يتوافق تمامًا من الناحية العملية مع تحقيق المنفعة، وهي الغاية التي تستهدفها الفلسفة البراجماتية الأمريكية التي يتم فرضها على

(١) راجع كتابه: نهاية التاريخ.



العـالم الآن، أي أن الأمرين: الليبرالية الاقتصادية، والبراجماتية الفلسـفية وجهـان لعملة واحدة، كما أشرت سابقًا.

ويبدو أن وليم جيمس الذي تنبأ في مطلع القرن العشرين بسـيادة فلسـفته البراجماتية على العالم في حوالي عقد مـن الزمان، كان يحتاج إلى قـرن كامل لتحقيق هذه النبوءة، ولكن مع إقرارنا بأن الفلسـفة البراجماتية هي الفلسفة القائدة لعصر العولمة؛ فلا شك أن هناك تيارات فكريـة أخـرى تشـارك البراجماتية هذه القيـادة، وإن كان بنحـو أقـل فاعلية، وأقل تأثيرًا، مثل النيتشـوية، وما بعد الحداثة، والأصوليات الأسـطورية، مثل اليمين المسـيحي الجديد؛ ليتكون من كل ذلك مزيج فكري متداخـل يقوده الفكـر البراجماتي، وتضمن من خلاله النخب البراجماتية السيطرة على العالم، وتهيئة الشعوب للاستغلال والهيمنة والاستعباد.

البراجماتية كفكر قائد لعصر العولمة:

ما هو الفكـر القائد لعصر العولمة؟ إنه نفس الفكر الذي قاد المعسكر الغربي قبل انهيار المعسكر الشرقي الـذي كان يواجهـه في مطلـع التسـعينيات مـن القرن الماضي، غاية ما في الأمر أنه بعد انهيار هذا المعسـكر الأخـير حلَّ هذا الفكر القائد للمعسـكر الغربي محل الفكـر الـذي كان يقود المعسـكر الشـرقي أيضًا، أي أنـه صـار يقود العـالم أجمع، ومن هنـا جاء كونه مُعَوْلَمًـا، أي تم تعميمه على العالم أجمع، ويأتي بعده ما صاحَب ذلك من تطـور تكنولوجي في عالم الاتصالات والإنترنت؛ يسَّـر القدرة على انتقال الأفكار والمعلومات بـين أرجاء العالم، وإن كانت في الغالب الأعم تنتقل في اتجاه واحد، كما سنبين فيما بعد.

أمـا الجانـب المتعلـق بتعميم حريـة التجـارة، وانهيار الحواجز أمام تدفقات السـلع والخدمات ورأس المال عبر الحـدود، أو ما يعبَّر عنه بالبعـد الاقتصادي للعولمة؛ فإن ذلـك يندمج في تقديرنا هنا بالفكر القائد الذي تحدثنا عنه، وكما سنبين ذلك لاحقًا أيضًا.

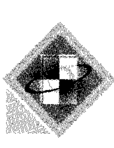
لا يسـعنا الحديـث هنا لمناقشـة مسـألة أيهمـا يُقدَّم على الآخر: الفكـر أم الاقتصاد؟ فهي مسـألة فلسـفية عميقـة عتيقة يضيق المجال عنها، ولكننا سـنجد أمام الحالـة التي نحن بصددها والمتعلقـة بعصر العولمة الذي نعيشـه الآن أن كلا البعديـن: الفكـري والاقتصادي وجهـان لعملـة واحدة؛ فإذا كانت الغاية المسـتهدفة من البراجماتية هي المنفعة؛ فإن ذلك لا يكاد يختلف كثيرًا مـن الناحية العملية عن الغاية المسـتهدفة من الرأسمالية الاقتصاديـة، وهـي الربـح، وهذا مـا سـنبينه تفصيلاً فيما يلي.

لا يـكاد يكـون هناك موضع جـدل كبير في القول بأن الفكـر البراجماتي هو الفكـر القائد لعصر العولمة، وتفصيل ذلك أنه بنهايـة الحرب العالمية الثانية، وانتقال مركـز ثقل القوى الغربية للولايات المتحدة الأمريكية؛ انتقل بدوره الفكـر البراجماتي الأمريكي إلى مركز قيـادة الفكـر الغربي بوجه عام. وبسـيادة هذا الفكر علـى العـالم في عصر العولمة غـدا الفكـر القائد لهذا العصر.

ولا بد أن نقرر أولاً أن الفلسـفة البراجماتية قد جاءت كفلسـفة أمريكيـة في الأسـاس؛ لأنها الفلسـفة التي تتسـق مع أسلوب الحياة الأمريكي ذاته، أي أنها جاءت لتعبـر عما هو واقـع بالفعل، يقول في ذلك ويلسـون آلن في كتابـه «الثقافـة الأمريكيـة»: «إذا كانـت النظرة البراجماتيـة للحياة سـائدة ومبتغـاة في الولايات المتحدة بأسلوب أكثر انتشارًا، وأكثر صدقًا منه في أيّ مكان آخـر في العالم الغربي؛ فقد كان لها السـيطرة الحالية علـى أغلبية الأمريكيين لمـدة طويلة قبل أن يحاول أحد وصفها بأسلوب الفكـر المجرد»[٢].

ومـن ناحية أخـرى فإن وليـم جيمـس المُنَظِّر الأكبر لهذه الفلسـفة قد وضـع عنوانًا جانبيًّا لكتابه المسـمى بنفس الاسـم «البراجماتية» هـو «معالجة جديدة لطرائق قديمـة في التفكـير»، وحقيقـة ذلـك أن البراجماتيـة تنطلق في الأسـاس من المزج بين فلسـفتين قديمتين لهما

(٢) ويلسون آلن، الثقافة الأمريكية: ص ٢٤.



مكانة كبيرة في الفلسفة الإغريقية، التي تنطلق منها الحضارة الغربية بوجه عام، هاتان الفلسفتان هما الفلسفة السفسطائية التي ذهبت إلى أن الحق والباطل وجهان لعملة واحدة، والفلسفة الأبيقورية التي جعلت من اللذة المعيار الوحيد للفضيلة، فأخذت من الأولى نظرتها العبثية للكون، ومن الأخيرة نظرتها النفعية في التعامل مع الأشياء، ثم قدمت ذلك في أسلوب أكثر معاصرة وأكثر مرونة في التعامل مع النوازع الإنسانية المختلفة.

يقول وليم جيمس عن الاتجاه البراجماتي: «إنه اتجاه تحويل النظر بعيدًا عن الأشياء الأولية: المبادئ، النواميس، الفئات، الحتميات المسلَّم بها، وتوجيه النظر نحو الأشياء الأخيرة: الثمرات، النتائج، الإثارة الوقائع، الحقائق» [٣].

البراجماتية «ليس لها أية عقائد يقينية أو جزمية، أو أية مذاهب أو مبادئ، اللهم إلا طريقتها ومنهاجها» وليم جيمس - البراجماتية

والبراجماتية «ليس لها أية عقائد يقينية أو جزمية، أو أية مذاهب أو مبادئ، اللهم إلا طريقتها ومنهاجها» [٤]، وأسماء مثل الإله، المادة، العقل المطلق لا نستطيع اعتبارها نهاية مطاف سعينا نحو الحقيقة؛ إذ يتعين على الإنسان من وجهة نظره أن يخرج من كل كلمة قيمتها النقدية الفورية العملية، وأن يُمرّسها على العمل بإظهار كيفيتها في نطاق مجرى خبرته، وعندئذ فهي لا تبدو حلاً بقدر ما تبدو برنامجًا أو منهاجًا للمزيد من العمل، «ومن ثم فإن النظريات تصبح أدوات ووسائل لا حلولاً لألغاز، ولا إجابات عن أحجية نستطيع أن نسكن إليها» [٥].

فنحن علينا أن نضع «كل المفاهيم المطروحة على بساط البحث على المحك البراجماتي، وسنفوز عند ذلك بالنجاة من الجدل الباطل العقيم. فإذا لم يكن ثمة فرق عملي بين قولين بالقياس إلى صحة هذا أو ذاك، إذن فالاثنان حقًّا عبارة واحدة في شكلين مختلفين، وإذا لم يكن ثمة فرق عملي يحدث، سواء كانت عبارة معينة صحيحة أو باطلة، إذن فالعبارة ليس لها معنى حقيقي.

وفي كلتا الحالتين فليس هناك شيء يستحق أن نتنازع من أجله. وأولى بنا أن نوفر جهدنا، ونمضي إلى أمور أكثر جدوى وأهمية، أي أن الحقائق ينبغي أن يكون لها نتائج عملية.

لقد كان الحق هو الغاية لكل الفكر الإنساني، لكن وليم جيمس جعل الحق هو مجرد وسيلة إلى الفوائد والمنافع، وهو بهذا لا ينفي عن الحق فقط أيّ معنًى مستقل، ولا يبرر فقط أيضًا الحصول على المنافع بإضفاء صفة الحق عليها، ولكن الأهم من ذلك كله أنه يخلط بين الحقائق والوسائل بطريقة تؤدي إلى تذويب الحقائق بشكل مطلق ونهائي.

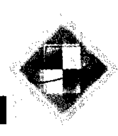
ولا يختلف الأمر كثيرًا لدى جون ديوي (فيلسوف البراجماتية الآخر الأمريكي أيضًا) فالأفكار في نظر ديوي «لا تعدو أن تكون أدوات يستعين بها صاحبها لتحقيق التوافق مع البيئة، فالفكرة آلة نافعة تعين صاحبها على الحياة، والأفكار الفاشلة تؤدي بصاحبها إلى الهلاك. والأفكار لذلك هي هذه الأشياء والوسائل أو الذرائع التي يتلمسها الإنسان في حياته لتحقيق هذا التوافق» [٦].

وكما يقول جون ديوي: «فالحق هو ما يهدينا هداية ناجحة، والإمكانية المحققة في مثل هذه الهداية الناجحة هي على وجه الدقة ما نعنيه بكلمة الحق» [٧].

والمبرر الأساس لهذه الطريقة في التفكير هو كما يقول وليم جيمس: إن الأنماط المتعددة من التفكير كلها متعارضة، وليس فيها واحد على سبيل الحصر يستطيع أن يقيم الحجة على دعوى الصحة المطلقة، أفلا ينبغي أن يثير ذلك احتمالاً أو فرضًا أو ظنًّا، أو حدسًا مناصرًا بوجهة النظر البراجماتية، وعلى هذا الأساس فإنه يتساءل: ومادامت هذه الأنماط المتعددة من التفكير غير صحيحة، لكنها خدمت أغراضًا معينة

---

(٣) وليم جيمس، البراجماتية: ص ٧٦.
(٤) المرجع السابق: ص ٧٥.
(٥) المرجع السابق، ص ٧٤.
(٦) دكتور هاني محمد بخيت، البراجماتية الأمريكية المعاصرة، ص٦٧.
(٧) نقلاً عن المرجع السابق، ص٧٢.



لكم، فلماذا لا يثير ذلك -ولو حتى احتمالاً- مناصرًا لمقولتنا: إن الحقائق ينبغي أن تكون هي الوسائل التي نستطيع بها أن نصل إلى ما نريد.

أي أن الرجل يبدأ بموقف عبثي من الكون، وينتهي بنا إلى موقف عبثي أيضًا، ثم يقول لنا: إنه مادام الأمر كذلك فبدلاً من اليأس والمرارة والسأم، على كل منا أن ينتفع بما يريح نفسه ويجد فيه المنفعة واللذة، ولو بشكل مؤقت ومتغير، وعليه لكي يستريح تمامًا- كما يظن وليم جيمس- أن يعتقد أن ذلك الذي يفعله هو الحقيقة.

وكما يظهر من كلام الرجل؛ فإنه لا يؤمن بالحق أو الحقيقة أصلاً، ولا يبحث عنها، ولا يهمه في شيء أن يبحث عنهما، إنما يحاول فقط أن يقدم تبريرًا فلسفيًّا لكل من يعمل على ما ينفعه، ولكي يرضينا فقط، ويقوّي من عزيمة من يتفق معه في ذلك، فقد أطلق على هذه التبريرات لفظ الحقائق. ومن ثَم تكون خلاصة المذهب هي «البحث عن تبرير للمنافع كما يراها أصحابها في عالم يخلو من الحقائق، وقد أرهقه البحث عنها».

الموقف البراجماتي من الدين:

هنا يبلغ الغيّ البراجماتي مداه، ويحصد وليم جيمس الحصاد؛ فالدين الذي قُتل من أجله بلايين البشر على امتداد العصور، والذي يعتبر الموقف منه أهم ركيزة للإنسان؛ لا ينظر إليه وليم جيمس إلا على أنه محقّق لبعض المنافع، وأن قبوله مشروط بتحقق تلك المنافع وليس مهمًّا بعد ذلك الإيمان بالدين نفسه، مادام أن إرادة الاعتقاد فيه تكفي لتحقيق المطلوب، بل وليس مهمًّا الاعتقاد بدين معين، فأي دين يحقق النافع المطلوب منه يكون مقبولاً، وكل فرد يكون حرًّا في القيام بتجربته العقائدية التي يختار على أساسها الدين الذي ينفعه فليس من المهم لدى الرجل أن يكون الله ذا وجود أو لا وجود، ولكن المهم كما يقول: «أن نتمتع بإلهنا إذا كان لدينا إله»[8].

ثم إنه ليس من المهم لدى جيمس أن يكون الله واحدًا، أو أن تكون هناك آلهة متعددة؛ حيث يذهب إلى أن «فرض الشرك ليس أقل احتمالاً من فرض التوحيد، فلماذا لا نقول بوجود قوًى متعددة تحكم الكون».

وعلى ما سبق؛ فإن الإله المطلوب لدى جيمس يجب أن يكون «صديقًا ومعينًا ووفيًا وخادمًا، وقد يكون معزيًّا مقويًا، وقد يكون منذرًا معاقبًا تبعًا لحالتنا وحاجتنا، وكما أنه هو خادم لنا فهو رفيق كثير المطالب دائب الحاجات؛ لأن ذلك يفرض علينا واجبات جديدة ومهمات كثيرة تبعث فيما حولنا جوًّا من العواصف والمخاطر، من شأنه دائمًا أن يشحذ هممنا، وأن يوقظ فينا أعلى الإمكانيات، وهو نفسه يستمد من ولائنا وإخلاصنا عظمة وجوده ومقدمات بقائه؛ لأنه إله متناهٍ هو نفسه جزء من العالم»[9].

ولأن الله عنده شخصية متناهية؛ فإنه لا يمكن أن يحيط بكل شيء، أو أن يعرف كل شيء، وليس في استطاعته أن يتمنى لنا خيرية العالم؛ لذلك فهو لا يفرض علينا طريقًا معينًا نكون ملتزمين أمامه أن نسير فيه، هذا فضلاً عن أنه هو نفسه ليس بقادر على كل شيء، ولكنه ليس إلا واحدًا من بين متعاونين كثيرين في وسط جمهرة من المتحكمين في هذا العالم. تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

ومن الواضح أن جيمس أراد أن يستخدم الدين استخدامًا نفعيًّا بحسب مذهبه، فقد استعاض عن الاعتقاد بالله بإرادة الاعتقاد فيه، على حد قول الفيلسوف الإنجليزي بريتر أندرسل، ولم يكتف بذلك بل إنه أراد أن يصنع دينًا وإلهًا «أو آلهة متعددة» بحسب ما يفضل بالهيئة والكيفية التي تخدم أغراضه هو، بل وبحسب ما يوحي به مزاجه المتغير، المهم فقط أن يمنحه ذلك الاعتقاد هو ومريديه الطمأنينة والسكينة، أو بقول أدق وأكثر تحديدًا يمكنهم من مواصلة حياة المنفعة واللذة التي يريدونها، وفي ذلك قمة العبث.

(8) وليم جيمس: البراجماتية: ص ١٣٧.

(9) زكريا إبراهيم، دراسات في الفلسفة المعاصرة، ص ١١٢.



السمات الأساسية للأفكار المابعد حداثية:



الفكر المابعد حداثي:

إذا كانت البراجماتية فلسفة تحايل وتكيّف مع الواقع المُعَاش؛ فإنه من نفس مضمون العجز الفلسفي الكامن في الفكر العلماني في أقصى تطوره الذي انطلقت منه الفلسفة البراجماتية انطلق اتجاه آخر مزاحم للفكر البراجماتي بعض الشيء هو اتجاه الأفكار المابعد حداثية.

فإذا كانت الحداثة مثّلت ثورة على الرؤى الدينية؛ فإن ما بعد الحداثة تمثل انعتاقًا عن الرؤى الدينية والأيديولوجيات الفلسفية معًا، فهي تمثل -كما يقول فيلسوفها البارز جان فرانسوا ليوتار-: «إمكانية التآكل الكامنة في نهج إضفاء المشروعية على الآخر، وهو جهاز الانعتاق المنبثق عن التنوير». (١٠)

فما بعد الحداثة تحمل من الحداثة الذات المنقسمة المفتتة، لكنها تمحو كل مسافة نقدية منها، فهي ضد الضد؛ حيث يكون ذلك لشيء أساس هو عدم إمكانية المعرفة، ومن ثَم فهي ضد الاستلاب؛ لأنه لم يعد ثمة ذات لتُستَلب، ولا شيء يجري الاستلاب عنه، والأصالة لم تُرفَض بقدر ما نُسِيَت ببساطة.

واهتداء بنيتشه فقد قلب فوكو رأسًا على عقب النظرة الدارجة عن العلاقة بين القوة والمعرفة؛ حيث يقول إيان كريب في كتابه «النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابر ماس»: «إذا كانت القوة هي الدافع لفعل أشياء لم يكن باستطاعتنا القيام بها من دونها؛ فإن فوكو يرى أن المعرفة هي في ذاتها قوة تمارسها على الآخرين؛ لتحدي الآخرين، أي أن المعرفة ما عادت أداة للتجريد بل أصبحت أداة للاستعباد» (١١).

ولأننا لا نستطيع أن نذكر هنا التوجهات أو الأبعاد المختلفة للأفكار المابعد حداثية؛ فإننا نذكر أهم سماتها الأساسية التي تتلخص في:

عدم إمكانية المعرفة- فقدان اليقين- فقدان المعنى- فقدان الجدوى- الذات المنقسمة- التشرذم- الانحلال والتشظي.

وقد لا يكون لهذه الفلسفات نصيب كبير من الأتباع خارج الأكاديميات العلمية وخواص المثقفين والفنانين، ولكننا سنرى (ويا للعجب في ذلك) أن هذه الأفكار تمثل الآن واقعًا عمليًا لشرائح عديدة من الشعوب الإسلامية الفقيرة في عصر العولمة، بعد أن كانت مجرد أفكار تنظيرية لبعض الفلاسفة الغربيين.

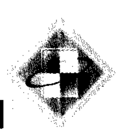
الارتداد إلى الأصوليات الأسطورية:

وكما رأينا فيما سبق بالنسبة للبراجماتية وما بعد الحداثة؛ أننا أمام موقفين فلسفيين مختلفين ناجمين عن بلوغ النسق الفلسفي الغربي العلماني العجز الكامل في الإجابة عن الأسئلة المصيرية الباعثة على القلق الإنساني؛ بعد إجهاده تمامًا عبر مسيرة التطور الحضاري: موقف تحايلي يقدم الإلهاء الحسي المتواصل بديلاً عن البحث

---

(١٠) ما بعد الحداثة، مجموعة دراسات، أحمد حسان، ص ٥٦.

(١١) إيان كريب، النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابر ماس، ص ١٠٨.




الفلسفي، وبذلك يتم تكريس الوعي الغربي في اللهاث وراء رغبات تتجدد على الدوام، ولا يمكن تلبيتها أبدًا، وهذا هو الموقف البراجماتي.

والموقف الثاني موقف جادّ صريح مع النفس، يعترف بهذا العجز، ويستسلم له بما يحمله ذلك من تشرذم وانهيار وعدم جدوى، وهذا هو الموقف الما بعد حداثي.

وهذا يعني أنه مع الافتراض الطبيعي بوجود قلقين في هذا الموقف الما بعد حداثي؛ فإن ذلك قد يدفعهم إلى البحث عن الحقيقة في نسق آخر غير النسق العلماني.

أي أن الموقف المابعد حداثي بما يمثله من نقطة نهائية للنسق العلماني قد يكون هو المعبر الذي تنتقل إليه العقول الغربية إلى أنساق فكرية أخرى (١٢).

وهذا ما حدث بالضبط، وهو ما يفسر تبني الكثير من هذه العقول للأنساق الدينية البديلة. فإذا كان الإسلام يتقدم في الغرب تقدمًا مذهلاً؛ فإنه قد حدث أيضًا توجيه الكثير من الغربيين إلى تبني الأصوليات الأسطورية، مثل اليمين المسيحي الجديد.

وفي الحالة التي نحن بصددها في العصر الحالي (الولاية البوشية الأمريكية) تم تحالف النُّخَب البراجماتية مع هذا اليمين المسيحي الجديد (المتحالف مع الجمهوريين) تحت قيادة جورج بوش الابن (المتعاطف على الأقل مع هذا التيار ضد شعوب العالم المستضعفة التي يتم سحقها كل يوم تحت قيادة هذا الرجل الذي يقول عن نفسه أنه يأتمر بإرشادات المسيح.

النيتشوية:

يرى بعض الباحثين في فلسفة نيتشه استباقًا للبراجماتية، فكلاهما يشترك في الحملة على العقل الخالص، وردّه إلى المقتضيات الحيوية للإنسان، كما أن الوجه السلبي للبراجماتية المتمثل في نقد الأسس الميتافيزيقية القديمة يكاد يكون ترديدًا لآراءٍ سبق ظهورها عن نيتشه... علاوة على أن نظرية الحقيقة عند نيتشه تشبه نظرية البراجماتية؛ فالحقائق من صنع الإنسان، ومقياس صحة الأفكار هو نفعها أو صلاحيتها للعمل، ومن هنا كان تغير الحقائق بتغير المواقف وما يصلح لكل منها، فاختفت الحقيقة الثابتة (١٣).

أما أهم نقاط الخلاف بين الفلسفتين فهي ثلاث: الأولى تتعلق بنظرية (موت الإله عند نيتشه)، ومن ثم إنهاء العلاقة تمامًا بالدين.

والثانية نظرية «الإنسان الأعلى أو السوبرمان» وهي تعني -فيما تعني- تعالي الإنسان عما هو متاح، وابتداع رغبات وطموحات تتفوق على الدوام على ما اعتاد عليه البشر، والسعي إلى تحقيقها بكل قوة دون النظر إلى أيّ اعتبار آخر.

والثالثة تتعلق بنظرية إرادة القوة؛ حيث يرى نيتشه «أننا إرادة قوة، وأن كل ما هو إنساني وحيواني مفعم بالحيوية والنشاط يعبر هو الآخر عن إرادة القوة» (١٤).

ومن الناحية السياسية العملية يشير الباحثون إلى تأثير هذه الفلسفة في فكر ألمانيا النازية، وفكر تيار المحافظين الجدد المعاصرين، ويمكن الإشارة أيضًا بكل وضوح في تمثلها -ولا أقول تأثيرها- في الممارسات الإسرائيلية على الواقع العربي، بل وأكثر من ذلك تمثلها في واقع الشعوب المستضعفة من خلال النخب المتحكمة فيها، والتي لا تتورع عن اتخاذ القوة معها بأية قواعد أو قيم.

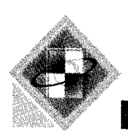
والغريب في الأمر -وهو ليس غريبًا في هذا العصر- أن هناك قناة فضائية عربية تروّج لهذه الفلسفة، وتدعو إليها ليل نهار من خلال إعلان دائم يتخلل بثها ولا يكاد ينقطع؛ يظهر فيه شخص بهيئة (السوبرمان) تمامًا يقوم بالتعدي على الآخرين بعنف وقسوة بالغة، بزعم الرغبة في القضاء على الملل، وهو ما يعبّر عن صميم الفلسفة النيتشوية.

---

(١٢) راجع محمد إبراهيم مبروك، الإسلام والغرب الأمريكي، نظرية في تفسير الصراع، ص ٢٩١.

(١٣) راجع فؤاد زكريا، نيتشه محاولة جديدة لقراءة فريدريك نيتشه، نقلاً عن دكتوره وفاء عبد السلام علي جعفر، ص ٤٥- ٤٦.

(١٤) محمد إبراهيم مبروك، نقد المذاهب المعاصرة، فصل النيتشوية، كتاب تحت الطبع.



الظاهر الماسوني المستخدم:

نظرًا لأن الماسونية ما هي إلا منظمة سرية في الأساس يكتنفها الكثير من الغموض والأسرار، خصوصًا فيما يتعلق بمنشئها التاريخي، والقوى المحركة لها؛ فإن تعريفها يختلف باختلاف المنظور الذي ينطلق منه هذا التعريف، ومن أهم النظريات التي تتحدث عن أصل الماسونية تلك النظرية التي ترجع بها إلى بناة الأحجار في العصور الوسطى، أو إلى الأديرة القديمة أو هيكل سليمان.

وهناك نظرية لا تكتفي بهذا بل تعود بها إلى نوح أو إلى آدم.

ونظرية أخرى تقول: إنها نتاج فرسان الهيكل بعد قمع هذه الجماعة عام ١٣١٢م.

وهناك من يقول: إنها مستمدة من الآثينيين [١٥]، أما أشهر هذه النظريات جميعًا خصوصًا في العالم الإسلامي فهي أنها جاءت من تدبير اليهود، ليتمكنوا من ورائها من حكم العالم بشكل خفيّ، وتعود تاريخيًّا -بحسب المنتسبين إليها- إلى جماعات عمال البناء السرية في العصور الوسطى، أو قبل ذلك بكثير.

وعلى الأسس السابقة؛ فإن التعريف العام للماسونية الذي قد يجمع النظريات السابقة هو أن: الماسونية منظمة سرية تحمل شعارات الحرية والإخاء والمساواة، وتحقيق التعاون بين البشر، في نفس الوقت الذي تمارس فيه طقوسًا سرية غامضة، وينسب إليها العديد من المؤامرات التاريخية كالثورة الفرنسية، والبلشفية والأتاتوركية، ويُتَّهم اليهود بإدارتها من وراء الستار.

أيًّا ما كان الأمر؛ فإن ما يهمنا في الموضوع هو تلك الشعارات التي ترفعها الماسونية في الظاهر: الحرية والإخاء والمساواة، أضف إلى ذلك -وقبل كل ذلك- الأسس الفكرية المعلنة: العلمانية غير الملحدة- احترام الله كمهندس أعظم للكون- التسامح مع أي دين.

يقول الواعظ الماسوني الأشهر جيمس أندرسون في كتابه «الدساتير» صدر عام ١٧٢٣م: «إن الماسوني كان يُلَقَّن ألا يكون كافرًا غبيًّا، وألا يكون مفكرًا حرًّا غير متدين [١٦] وأن يحترم السلطات المدنية، وألا يشترك في الحركات السياسية، ولأن الماسونيين رفضوا المعتقدات الكنسية الجامدة فهم يحترمون الله كمهندس أعظم للكون، ويتسامحون مع أي دين» . [١٧]

> الماسونية منظمة سرية تحمل شعارات الحرية والإخاء والمساواة، وتحقيق التعاون بين البشر، في نفس الوقت الذي تمارس فيه طقوسًا سرية غامضة، وينسب إليها العديد من المؤامرات التاريخية

وأيًّا كان الأمر في حقيقة الماسونية؛ فإن ما يهمنا هنا هو الظاهر الماسوني المتعلق بشعاراتها (الحرية المساواة - الإخاء - التسامح الديني)؛ حيث يستخدم هذا الظاهر كرداء جميل تختبئ وراءه كل الدعوات والمخططات الإجرامية لأصحاب المصالح المختلفة. ويُعد وصمة إعلامية تتردد صباحًا ومساءً في القنوات الفضائية ليمرر من خلالها الغزو الفكري والثقافي والاقتصادي، والدعوات الإباحية والهدامة.

كما أن المنظور الماسوني لله كمهندس أعظم للكون يتوافق إلى حد كبير مع المنظور البراجماتي لله كإله محدود، لا يوجب التزامات محددة. تعالى الله عن ذلك.

أما النفاق بالحديث عن الحرية والإخاء والمساواة؛ فيعبر عنه تمامًا حديث سيدة أمريكا الأولى -زوجة بوش الابن- في المؤتمر الانتخابي للجمهوريين في سبتمبر ٢٠٠٨م عن إنجازات الحزب الجمهوري في منح الحرية لخمسين مليون إنسان هم عدد سكان العراق وأفغانستان!!

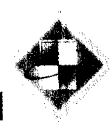
أليس ذلك جنونًا أم حقيقة براجماتية؟ أم هما الاثنان معًا.

---

(١٥) وزمان ماكنزي في كتابه «الجمعيات السرية»، راجع في تفسير منشأ الماسونية، ص ٢٢.

(١٦) نتحدث هنا عن ظاهر الماسونية المعلن؛ لأنها في الحقيقة سميت بذلك بحسب المنضمين إليها.

(١٧) الموسوعة السوفييتية الكبرى عام (١٩٧٧م)، نقلاً عن د. علي شلش، تاريخ الماسونية في مصر: ص ٤٣.



السيطرة الاقتصادية:

مما يعتاد قوله أن الدول الرأسمالية الكبرى تسيطر على الاقتصاد العالمي بالطريقة التي تؤدي إلى استغلال الدول الفقيرة، ونهب مواردها من خلال آلية الاقتصاد الليبرالي الحر الذي يقود عصر العولمة.

لكن السؤال الذي قد يغيب عن الكثيرين هو: من الذي يقود هذه الدول إلى عملية الاستغلال هذه؟

إنها النخبة البراجماتية المسيطرة على اقتصاد هذه الدول الكبرى، والتي لا تعمل على استغلال شعوب الدول النامية فقط من خلال النخبة البراجماتية المسيطرة عليها، ولكن على الطبقات المتدنية من شعوبها ذاتها. المهم أنه يتم في النهاية سحق الجماهير الغفيرة من مجتمعاتنا في طاحونة الاقتصاد الليبرالي العالمي، ومن ثم إلهاؤها التام عن كل ما يخرج عن نطاق ذواتها المتعلقة على مجرد البحث عن كفاحها اليومي، ومن ثم استسلامها التام لدائرة الاستعباد العالمي.

ولكن القصة طويلة وعميقة، ونبدأ شرحها بإيضاح ما نعنيه بهذه النخبة البراجماتية الاقتصادية.

يقول الدكتور إسماعيل صبري عبد الله في هذا الصدد: «مازال المشتغلون بالسياسة وأفكارها حبيسي مفهوم أن المجتمع الدولي مكون من حكومات مستقلة ذات سيادة وأعضاء في الأمم المتحدة، وتتفاوت بطبيعة الأحوال أوزان هذه الحكومات، وتدخل في صراعات وتحالفات، وللدول الكبرى نصيب الأسد في إدارة شئون العالم وفي الصراع على من يتولى القيادة فيه، ومن هنا سال كثير من المداد في مقالات وكتب عن العالم ذي القطبين الذي صار عالمًا واحدًا. وواقع الأمر أن القوى الفاعلة في هذه التطورات هي في التحليل الأخير الشركات متعددة الجنسيات»[١٨].

ولا خلاف لنا مع هذا التحليل سوى أن هذه القوى ليست القوى الفاعلة الوحيدة كما يقصد ذلك الماركسيون، وإنما هو تحالف براجماتي بين النخب السياسية والاقتصادية والإعلامية المسيطرة، كما سنبين فيما بعد.

إن الدخول لتلك الدائرة الاقتصادية العولمية يتطلب قيام حكومات الدول بقبول برنامج التكييف الهيكلي التي تمليها عليها المؤسسات الثلاث الكبرى التي تدير الاقتصاد العالمي: صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي، ومنظمة التجارة العالمية. وليس من المهم فقط أن تقبل الدولة برنامج التكيف، بشروطه وسياساته المعروفة، وما تنطوي عليه من تكاليف اجتماعية باهظة حتى يقبل رأس المال الأجنبي الانسياب إلى البلد «بل يجب أن يتأكد أصحاب رأس المال أنه لن يحدث تراجع عن تلك السياسات؛ مما يتطلب أن يكون هناك ما يراه ضروريًا لضمان ضبط العلاقات الاجتماعية في ضوء ما رسمته هذه البرامج.

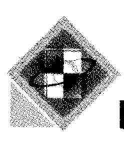
> الدول الرأسمالية الكبرى تسيطر على الاقتصاد العالمي بالطريقة التي تؤدي إلى استغلال الدول الفقيرة، ونهب مواردها من خلال آلية الاقتصاد الليبرالي الحر الذي يقود عصر العولمة

ومن هنا تأتي أهمية إيجاد تحالفات اجتماعية تستفيد من هذه البرامج، وتشكل قاعدة سلطة الدولة، ويكون لها مصلحة في استمرار تنفيذ تلك البرامج. وهنا يذكر البنك الدولي صراحة أنه «ربما يتوقف نجاح تدبير التكيف على إمكان قيام ائتلافات من المستفيدين». المسألة إذن ليست مجرد حزمة من السياسات الاقتصادية التي تؤثر في المتغيرات الاقتصادية، إنما الأهم من ذلك بكثير هو التأثير في العلاقات الاجتماعية، وبالذات إبقاء مستوى الأجور منخفضًا، وإيجاد شرائح اجتماعية تستفيد من حزمة هذه السياسات، وتعتمد عليها سلطة الدولة»[١٩].

إن الدخول في الدائرة الاقتصادية الاستعبادية العولمية لن تترك شرحها لهذا أو ذاك من الإسلاميين الموصومين بالإرهاب، أو لأولئك الاشتراكيين الذين يمثلون الجبهة

(١٨) د.إسماعيل صبري عبد الله، الكوكبة والتنمية المستقلة: ص ٤٧.

(١٩) د. رمزي زكي، الليبرالية المتوحشة، ص ٢٤٥.



الفكرية الاقتصادية المضادة للرأسمالية الليبرالية التي تقود العولمة الاقتصادية الاستعبادية، ولكن سنترك ذلك لواحد من أهم أساطينها الدكتور ستبينجلر الأكاديمي المعروف والنائب السابق لرئيس البنك الدولي، يقول: «إن الهوة المتزايدة بين من يملكون ومن لا يملكون قد تركت أعدادًا في العالم الثالث في فقر رهيب؛ حيث يعيش الفرد بأقل من دولار في اليوم، بالرغم من الوعود المتكررة التي قُطعت على امتداد العقد الأخير من القرن العشرين بخفض الفقر؛ فإن العدد الفعلي لمن يعيشون في الفقر زاد حاليًا بحوالي ١٠٠ مليون. حدث ذلك في الوقت الذي زاد فيه فعلاً إجمالي الدخل العالمي بنسبة ٢,٥٪ سنويًا في المتوسط» [٢٠].

هل تكللت جهود مؤسسات العولمة بالنجاح في دول المجتمع النامي؟

يقول ستبينجلر في ذلك: «إن في كل مظهر من مظاهر العولمة، وليس فقط في مجال تحرير التجارة، لم تكلل الجهود -وإن بدت حسنة النية- بالنجاح، بل أظهرت نتائج عكسية، وعندما فشلت مشروعات زراعية أو بنية تحتية زكاها الغرب، وقام مستشارون غربيون بوضع تصميمها وموَّلها البنك الدولي أو آخرون؛ فإن الشعب الفقير في العالم النامي يظل مطالَبًا بتسديد القروض، إلا لو كان هناك شكل من أشكال إسقاط الدين» [٢١].

أما بالنسبة لروسيا والدول الاشتراكية:

فـ«إن العولمة وإدخال اقتصاد السوق لم يحقق النتائج الموعودة في روسيا، وأغلب الاقتصاديات الأخرى التي تقوم بعملية التحول من الشيوعية إلى اقتصاد السوق.

لقد قال الغرب لهذه الدول: إن النظام الاقتصادي الجديد سيجلب لهم رخاءً اقتصاديًا غير مسبوق، وبدلاً من ذلك فقد جلب لهم فقرًا غير مسبوق. لقد أثبت اقتصاد السوق من نواحٍ كثيرة بالنسبة لأغلب الناس أنه أسوأ مما تنبأ به زعماؤهم الشيوعيون.

إن التناقض بين التحول في روسيا الذي وضعت هندسته المؤسسات الاقتصادية الدولية، والتحول في الصين الذي وضعت الصين تصميمه بنفسها، لا يمكن أن يكون أكبر من ذلك» [٢٢].

والأكثر من ذلك أن مجموعة السياسات التي يقدمها صندوق البنك الدولي الآن تخالف تمامًا مجموعة الأفكار الكنزية التي قام على أساسها، ولكنها تضمن دفع الدول النامية على العمل ضد طبقاتها الفقيرة، فكما يقول ستبينجلر: «بمرور السنوات تغير الصندوق بشكل ملحوظ عما كان في بدايته، لقد تأسس على عقيدة أن الأسواق تعمل غالبًا بشكل سيئ، في حين أنه الآن يدافع عن سيادة السوق، بحماسة أيديولوجية.

لقد تأسس على عقيدة أن هناك حاجة لضغط دولي على البلدان، لكي تكون لها سياسات اقتصادية وتصحيحية أكثر مثل زيادة الإنفاق، أو خفض الضرائب، أو خفض معدل الفائدة، ولتحفيز الاقتصاد- حاليًا لا يقدم صندوق النقد الدولي أموالاً، إلا إذا بدأت الدول في تطبيق سياسات، مثل خفض العجز في الموازنة، أو زيادة الضرائب، أو زيادة معدل الفائدة، مما يؤدي إلى انكماش الاقتصاد. إن كينز قد يتقلب في قبره لرؤيته ما حدث لابنه» [٢٣].

حتى بعض المكاسب التي من الممكن أن تكون قد حققتها العولمة؛ فإنها لا تتكافأ على الإطلاق مع الثمن الذي دُفع فيها.

«إن كانت مكاسب العولمة في العديد من الأمثلة أقل مما ادعى أنصارها؛ فإن الثمن الذي دُفع كان أكبر؛ حيث تم تدمير البيئة وإفساد العقليات السياسية، كما أن معدل شرعية التغيير لم يُتِح للبلدان الوقت للتكيف الثقافي. إن الأزمات التي جلبت في أعقابها بطالة كثيفة تبعتها بدورها مشكلات التحلل الاجتماعي طويل المدى». [٢٤]

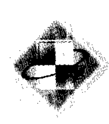
(٢٠) جوزيف ستبينجلر، ضحايا العولمة ص ٢٥.

(٢١) المرجع السابق ص ٢٨.

(٢٢) المرجع السابق: ص ٢٦.

(٢٣) المرجع السابق ص ٢٨.

(٢٤) المرجع السابق: ص ٢٣.



لصالح من تتم هذه السيطرة الاقتصادية العولمية؟

لنقل أولاً: إنها لصالح الدول الكبرى الغنية، فكما يقول ستيبنجلر: «من الممكن أن تكون المؤسستان قد أمدتا بلدانًا ما بوجهات نظر اختيارية، بالنسبة لبعض تحديات التنمية والتحول، وبفعل ذلك تكونان قد دعمتا العمليات الديمقراطية، لكن كان كلاهما مدفوعين بالإرادة الجماعية للسبعة الكبار (حكومات أهم سبع دول متقدمة)، وخاصة وزراء ماليتهم ووزراء خزانتهم، وفي أغلب الأحيان يكون آخر ما يريدونه هو نقاش ديمقراطي حول الاستراتيجيات البديلة» (٢٥).

لكن ستيبنجلر يشرح المشكلة بشكل أعمق، فيبرز كيف تتم هذه العولمة الاقتصادية الكبرى ليس لصالح الدول الغنية فقط، ولكن لصالح النُّخَب المسيطرة على مؤسساتها الاقتصادية تحديدًا، يقول ستبينجلر في ذلك: «إن أساس مشكلات صندوق النقد الدولي والمؤسسات الاقتصادية الدولية الأخرى هو التوجيه والسيطرة: أي من الذي يقرر ما تفعله هذه المؤسسات.

إن من يسيطر على هذه المؤسسات ليس أغنى البلدان الصناعية وحدها، لكن المصالح التجارية والمالية في تلك البلدان أيضًا، ومن الطبيعي أن تعكس سياسات هذه المؤسسات على ذلك، ويرمز اختيار رؤساء هذه المؤسسات للمشكلة التي تعاني منها، بل إن ذلك الاختيار يساهم في اختلالها الوظيفي في أغلب الأحيان، فبينما تتركز حاليًا كل أنشطة صندوق النقد والبنك الدوليين تقريبًا في العالم النامي (كل إقراضها بالطبع)، نجد أن ممثلي الدول الصناعية هم الذين يتولون قيادتها (بمقتضى عرف أو اتفاق ضمني، يكون دائمًا رئيس صندوق النقد الدولي أوروبيًا، ورئيس البنك الدولي أمريكيًا).

ويتم اختيارهم وراء أبواب مغلقة، بل ولا يشترط لتولي الرئاسة أن يكون للمرشح صلة بأية تجربة في العالم النامي. إن هذه المؤسسات لا تمثل الأمم التي تخدمها» (٢٦).

«وتنشأ المشكلات أيضًا من حقيقة «من الذي يتكلم عن بلد ما في صندوق النقد الدولي؟» يتولى ذلك وزراء المالية، ومحافظو البنوك المركزية، أما في منظمة التجارة العالمية فيتولى هذه المهمة وزراء التجارة، ويرتبط كل واحد من هؤلاء الوزراء ارتباطًا وثيقًا بمجموعة من أصحاب المصالح الخاصة «داخل» بلادهم.

وبالتالي يعكس وزراء التجارة اهتمامات مجتمع رجال الأعمال: المصدرون الذين يريدون رؤية أسواق جديدة تُفتَح أمام منتجاتهم، كذلك منتجو السلع الذين يتنافسون مع الواردات الجديدة، بالطبع يريد أصحاب هذه المصالح الخاصة الحفاظ على أكبر قدر ممكن من الحواجز أمام التجارة، والاحتفاظ بأي قدر من الدعم يستطيعون إقناع الكونجرس (أو برلماناتهم) بمنحه لهم.

ولا تحظى حقيقةُ أن الحواجز التجارية ترفع الأسعار التي يدفعها المستهلكون، أو كون الدعم يفرض أعباءً على دافعي الضرائب، إلا باهتمام ضئيل؛ مقارنة بمكاسب المنتجين - كما تحظى قضايا البيئة وقضايا العمل باهتمام أقل بكثير، باستثناء اعتبارها عقبات يتعين التغلب عليها، ويرتبط وزراء المالية ومحافظو البنوك المركزية ارتباطًا وثيقًا بالمجتمع المالي، فهم يأتون من شركات مالية، وبعد انتهاء فترة خدمتهم الحكومية، يعودون إلى تلك الشركات.

إن وزير الخزانة الأمريكي خلال أغلب الفترة المذكورة في هذا الكتاب روبرت روبن جاء مثلاً من أكبر بنك استثماري SACHSGALDMAN ، وذهب إلى شركة سيتي جروب التي تسيطر على أكبر بنك تجاري «سيتي بنك». والرجل الثاني في صندوق النقد الدولي خلال تلك الفترة ستان فيشر ذهب مباشرة من الصندوق إلى سيتي جروب، ومن الطبيعي أن يرى هؤلاء الأشخاص العالم من خلال عيون الجماعة المالية، ومن الطبيعي أيضًا أن تعكس قرارات أية مؤسسة وجهات

(٢٥) المرجع السابق ص ٢٩.

(٢٦) المرجع السابق ص ٣٥.



نظر ومصالح أولئك الذين يتخذون القرارات، ولا يوجد ما يدعو للدهشة عندما نجد أن كل سياسات المؤسسات الاقتصادية الدولية مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالمصالح التجارية والمالية لتلك الجماعات في البلدان المتقدمة»[٢٧].

وهكذا يلخص ستبينجلر هذه السيطرة العالمية التي تربط بين النخب الاقتصادية للدول الغنية والنخب الاقتصادية للدول للمستضعفة تلخيصًا تامًا في الفقرة التالية «للأسف ليس لدينا حكومة عالمية مسئولة أمام شعب كل بلد، تشرف على عملية العولمة بطريقة مشابهة للطريقة التي قادت بها الحكومات الوطنية عملية تشكيل الاقتصاديات الوطنية، لدينا بدلاً من ذلك نظام يمكن تسميته «سيطرة عالمية بدون حكومة عالمية»، نظام تسيطر على الساحة فيه منظمات معدودة (البنك الدولي، وصندوق النقد الدولي، ومنظمة التجارة العالمية) وعدد قليل من اللاعبين (وزراء المالية والتجارة المرتبطون ارتباطًا وثيقًا ببعض المصالح المالية والتجارية) غير أنه في ظل هذا النظام لا يملك عمليًا العديدُ من البشر ممن يتأثرون بقراراته حق الكلام»[٢٨].

السيطرة الإعلامية:

وعلى الرغم من التسليم العام بالأثر الكبير لوسائل الإعلام في توجيه الشعوب، سواء كان هذا التسليم من جانب المثقفين أو عوام الناس؛ فإن الكثيرين من هؤلاء وهؤلاء مازالوا لا ينتبهون إلى أن هذا التأثير يكاد يبلغ حد السيطرة التامة؛ فالمسألة لا تقف عند حد التأثير على سلوكيات الناس، والتلاعب في القيم الموجهة لهم، ولكن تتجاوز ذلك إلى التحكم في تحديد التصورت والمعتقدات الموجهة لهم. يقول في ذلك عالم الاتصالات الشهير هربرت.أ. شيلر في كتابه الشهير «المتلاعبون بالعقول»: «يقوم مديرو أجهزة الأعلام في أمريكا بوضع أسس عملية تداول الصور والمعلومات، ويشرفون على معالجتها وتنقيتها، وإحكام السيطرة عليها، تلك الصور والمعلومات التي تحدد معتقداتنا ومواقفنا، بل وتحدد سلوكنا في النهاية»[٢٩].

فالسيطرة السياسية تعتمد أساسًا على السيطرة الإعلامية، وإنه «يتعين فهم الأمة بوصفها نظامًا اتصاليًا»[٣٠].

على الرغم من التسليم العام بالأثر الكبير لوسائل الإعلام في توجيه الشعوب، سواء كان هذا التسليم من جانب المثقفين أو عوام الناس؛ فإن الكثيرين من هؤلاء وهؤلاء مازالوا لا ينتبهون إلى أن هذا التأثير يكاد يبلغ حد السيطرة التامة

ويشرح هربرت شيلر عملية السيطرة الإعلامية في كتاب آخر هو «الاتصال والهيمنة الثقافية» فيقول: «حالما تبدأ عملية السيطرة؛ فإنها تمتد إلى جميع الشبكات المؤسسية في المجتمع الذي يخضع لها، وبما أن البنية الأساسية لمؤسسات التنشئة الاجتماعية وثيقة الترابط والتشابك؛ فإن توقف تيار في إحدى القنوات سرعان ما ينتقل إلى غيرها أو يسعى إلى أن يجد فيها دعمًا له»[٣١].

ولكن ما الذي يحدث بالنسبة للنُخَب السياسية والإعلامية المهيمنة عند إدخال مجتمع ما إلى النظام العالمي الحديث؟ يقول شيلر في ذلك: «تتم استحالة الطبقة المهيمنة فيه، والضغط عليها، وإجبارها ورشوتها أحيانًا، كي تشكل المؤسسات الاجتماعية في اتساق مع قيم المركز المهيمن في النظام وبنائه، أو حتى الترويج لها»[٣٢].

أما بالنسبة لوسائل الإعلام العامة كالإذاعة والتليفزيون؛ فإنها تحتل مركز الصدارة في المشروعات العاملة التي تستخدم في عملية التغلغل. ومن أجل تحقيق درجة كبيرة ومهمة من التغلغل، فلا بد من أن تستحوذ القوة المهيمنة المتغلغلة على وسائل الإعلام ذاتها، ويتم

(٢٧) المرجع السابق ص ٣٩ - ٤٠.
(٢٨) المرجع السابق: ص ٤٢.

(٢٩) هربرت.أ. شيلر، المتلاعبون بالعقول، ص ١٢٤.
(٣٠) هربرت شيلر، الاتصال والهيمنة الثقافية.
(٣١) المرجع السابق: ص ٢٤ -٢٥.
(٣٢) المرجع السابق: ص ٢٥.



ذلك بقدر كبير عن طريق إضفاء الطابع التجاري على الإذاعة والتليفزيون»[٣٣].

ويقول شيلر عن دور الشركات متعددة الجنسية في تلك السيطرة الإعلامية :

«تنظم هذه الإمبراطوريات التجارية العدوانية السوقَ العالمية بأفضل ما تستطيع، وإن كان ذلك يتوقف بطبيعة الحال على القيود القانونية الوطنية المتفاوتة والجزئية، والتي كثيرًا ما تكون أقل مما يمكن، وعلى المستويات المختلفة للتطور الاقتصادي في المناطق التي تنشط فيها، وأثناء قيامها بتعزيز أهدافها ضمانًا للأسواق العالمية، وعدم عرقلة الحصول على الأرباح تضطر إلى التأثير والهيمنة -ما أمكن- على كل مجال ثقافي إعلامي يبعدها عن السيطرة الكاملة على بيئتها العالمية- الوطنية، ولا يعد هذا الأمر ضرورة في المدى القصير، بل هو شرط دائم ينبع من نظام السوق، والطريقة التي يحدد بها هذا النظام أولوياته، وبالتالي ما يصدره من جزاءات، وما يمنحه من مكافآت»[٣٤].

والسؤال المطروح هو: إذا كان شيلر قد كتب هذا الكلام في سبعينيات أو ثمانينات القرن الماضي، فماذا كان يمكن أن يقوله الآن في عصر ثورة الاتصالات الذي يقوده القطب الواحد؟!!

ما الذي تعنيه هذه التهيئة للاستعباد بالنسبة للشعوب الإسلامية:

أولاً: الشعوب الإسلامية الفقيرة والسقوط بين رحى المطحنة:

إذا تحدثنا عن الأفكار البراجماتية وأنها تعني الصراع المستمر بين جموع اللاعبين الذين لا يبحثون سوى عن الربح أو المنفعة، دون النظر إلى أيّ مبدأ وقيمة أخرى؛ فإن نتائج هذه المسألة تكون أكثر بشاعة بالنسبة للدول الفقيرة عما يحدث في الدول الغنية؛ وذلك لأن حجم الربح أو المنفعة في تلك الدول أقل كثيرًا.

المسألة تعني أن النخبة البراجماتية المسيطرة يُفترض أن تكون أقل عددًا، والضحايا الخاسرون الساقطون في مطحنة الفقرة يُفترض أن يكونوا أكثر عددًا من نظرائهم في الدول الغنية.

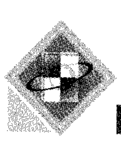
> الأفكار البراجماتية تعني الصراع المستمر بين جموع اللاعبين الذين لا يبحثون إلا عن الربح أو المنفعة، دون النظر إلى أيّ مبدأ وقيمة أخرى

وإذا كان مفكر شهير كالدكتور عبد الوهاب المسيري يتحدث عن أن هذه المنظومة الغربية صنعت من الإنسان الغربي ما يسمى الإنسان الطبيعي، أي الإنسان ذو البعد المادي الواحد المصمت روحيًّا؛ فإن الأمر يختلف كثيرًا بالنسبة لتأثير هذه المنظومة على إنسان الشعوب الفقيرة؛ لأنه إذا كان الغربيون قد قايضوا مقوماتهم الروحية بمقوماتهم المادية؛ فإن الساقطين من أبناء هذه الشعوب قد قايضوا مقوماتهم جميعًا: الروحية والمادية معًا بلا شيء؛ حيث لا يصل إلى هذا الشيء إلا القلة النادرة جدًّا منهم، ومن ثَم تكون المحصلة في النهاية أن هذه المنظومة الغربية المسيطرة تنتج في بلدان تلك الشعوب الفقيرة كل يوم الأعداد الوفيرة من المسوخ البشرية التي تفقد مقوماتها الروحية، وكل ما تعرف من قيم ومبادئ بين مطرقة الإفقار المتعاظم وسندان الابتعاث الإعلامي الصارخ لشعار الغرائز والرغبات المتجددة التي لا يمكن تلبيتها أبدًا.

وهكذا يتم تكوين شعب في ذهول دائم؛ يفقد جزء كبير منه قيمه ومبادئه في البحث عن رغبات لا يمكن تحقيقها، والجزء الآخر الذي يتواضع في البحث فقط عن أشد حاجاته الإنسانية الضرورية، يظل متقوقعًا حول ذاته، فاقد الثقة في القدرة على الحصول على هذه الحاجات الملحة بشكل يومي، الأمر الذي لا يجعله يملك قدرة المخاطرة على التفكير في أي شيء آخر.

---

(٣٣) المرجع السابق: ص٢٥ -٢٦.
(٣٤) المرجع السابق: ص ٢٢ .

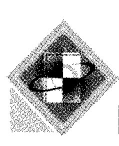


الأمر الذي يعني أنه في كل الحالات أننا أمام جموع مذهولة دائمة يتقوقع أفرادها حول أنفسهم، ولا يملكون القدرة على التفكير في أي شيء آخر، ومن ثَم فهم مهيئون تمامًا لتسييرهم إلى أيّ جهة يُرَاد لهم تسييرهم إليها، وهذه أعظم تهيئة للاستعباد.

بالنسبة للشعوب الإسلامية الغنية:

فضلاً عن الاستنزاف الدائم لأموال أبناء تلك الشعوب من خلال ألاعيب بورصات التجارة العالمية؛ فإن التركيز على أبناء هذه الشعوب يتم الآن أولاً من خلال صناعة الحاجز العازل بينهم وبين الإسلام؛ بإرهابهم المستمر من خلال الممارسات السياسية والإجراءات الاقتصادية، والضغوط الإعلامية بأن الاقتراب من الإسلام يؤدي بهم إلى الاتهام بتهمة الإرهاب، وحرب أمريكا العظمى عليهم، وبذلك يتسنى لهم تشكيل عقول أبناء هذه الأمة من خلال القنوات الإعلامية الموجهة مخابراتيًّا، والتي لا تنشر فقط الإباحية والفسق والفساد كما يعتقد البعض، ولكن تعمل بشكل مكثف على نشر العلمانية والإلحاد، وإعلاء قيم المنفعة والربح والمفاهيم البراجماتية الأنانية، حتى سقط الكثيرون من أبناء هذه الشعوب في تخدير الإلهاء الشهواني الدائم، والتقوقع الأناني حول الذات، وفقدان الصلة بينهم وبين مصالح مجتمعهم الإسلامي العريض، وبهذا التخدير يكونون أيضًا مهيئين للدخول في دائرة الاستعباد العالمي.





معلومات إضافية

الماسونية:

تعددت الآراء حول معنى الماسونية، فبعضهم رأى أنها اصطلاح يعني شعار الماسونية: (حرية- مساواة- إخاء- تعاون)، وبعضهم يرى أنه تعني (القوة الخفية)، وآخرون يرون بهذا الاسم رمزًا لأسماء مؤسسيها.

ويكاد الباحثون يُجمعون على أنها هي جمعية البنائين الأحرار التي وُجدت منذ أقدم العصور في مصر واليونان وفلسطين؛ وذلك لأن كلمة ماسونية من الكلمة الإنجليزية Mason التي تُكتب في العربية خطأً (ماسون) لكن الخطأ شاع، وتعني «البنَّاء»، ثم تضاف كلمة Free بمعنى حر، وتعني: البنَّاء الحر. وهناك بعض التفسيرات تذهب إلى أن كلمة (حر) تجيء لتمييز الـ«فري ميسون» أي البنَّاء الماهر في مقابل البنَّاء غير المدرب.

واصطلاحًا: تعرف الماسونية بأنها مجموعة من التعاليم الأخلاقية والمنظمات الأخوية السرية التي تمارس هذه التعاليم، والتي تضم البنائين الأحرار والبنائين المقبولين أو المنتسبين، أي الأعضاء الذين لا يمارسون حرفة البناء.

رموز الماسونية ووحداتها:

المثلث والفرجار والمسطرة والمقص والرافعة والنجمة الخماسية والأرقام ٣،٥،٧، وهي رموز وطقوس «تساعد على اكتشاف النور».

والوحدة الأساسية في التنظيمات الماسونية هي المحفل أو الورشة. ويحق لكل سبعة ماسونيين أن يشكّلوا محفلاً، والمحفل يمكن أن يضم خمسين عضوًا. وتعقد المحافل اجتماعًا دوريًّا كل خمسة عشر يومًا يحضره المتدربون والعرفاء والمعلمون. أما ذوو الرتب العليا فيجتمعون على حدة في ورشات التجويد. ويفترض في المشاركين في الاجتماع أن يقبلوا بلباس معين، فهم يضعون في أيديهم قفازات بيضاء، ويزينون صدورهم بشريط عريض، ويربطون على خصورهم مآزر صغيرة، وقد يرتدون ثوبًا أسود طويلاً، أو بزة قاتمة اللون أو سموكينج بحسب تقاليد محافلهم، وهي تقاليد في غاية التعقيد والتنوع.

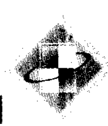
وتشكل المحافل اتحادات تدين بالولاء والطاعة لأحد المحافل الكبرى، ففي فرنسا على سبيل المثال خمسة محافل رئيسة كبرى، وهي: محفل الشرق الكبير، ومحفل فرنسا الكبير، والمحفل الوطني الفرنسي الكبير، والاتحاد الفرنسي للحقوق الإنسانية، ومحفل فرنسا الكبير للنساء.

قَسَم الجمعية:

عندما يتقرر قبول طالب للعضوية يتقدم ليقسم قسم الجمعية الذي يصبح بمقتضاه عضوًا عاملاً يؤدي واجبه ويتحمل مسئولياته. ونص القسم كالآتي:

«أقسم بمهندس الكون الأعظم أنني لا أفشي أسرار الماسونية، ولا علاماتها وأقوالها، ولا تعاليمها وعاداتها، وأن أصونها مكتومة في صدري إلى الأبد.

أقسم بمهندس الكون الأعظم ألا أخون عهد الجمعية وأسرارها، لا بالإشارة ولا بالكلام ولا بالحروف، وألا أكتب شيئًا منها ولا أنشره بالطبع أو بالحفر أو بالتصوير، وأرضى إن حنثت في قسمي أن تحرق شفتاي بحديد



ملتهب، وأن تقطع يداي ويجز عنقي وتعلق جثتي في محفل ماسوني ليراها طالب آخر؛ ليتعظ بها، ثم تحرق جثتي ويذر رمادها في الهواء؛ لئلا يبقى أثر من جنايتي».

الماسونية والصهيونية

الماسونية جمعية سرية يهودية مرت بمراحل عديدة، تهمنا منها مرحلة القرن الثامن عشر الذي شهد أول تأسيس منظم على يد اليهودي «أحيرام أبيود»، وضمت إليها «هيردوس الثاني» عدو المسيحية في ذلك الوقت. وعقد أول اجتماع لها عام ١٧٤٣م، وحضر هذا الاجتماع الملك (هيردوس) ومستشاراه اليهوديان (أحيرام أبيود، ومواب لافي).

ثم تلا هذا الاجتماع اجتماعات أخرى، وتعددت أوكار الماسونية في كل مكان من أوروبا باسم (الماسونية الزرقاء) وفي عام ١٧٧٠م اتصل عدد من اليهود المرابين بـ(آدم وايزهاويت) وكلفوه بمراجعة برتوكولات حكماء صهيون القديمة، وإعادة تنظيمها على أسس حديثة لتخدم عقيدة الإلحاد. ثم قام وايزهاويت بدعم من حكماء صهيون بتنظيم المحفل المكلف بقيادتها الذي كانت الخطوة التالية له تأسيس المحفل الماسوني، والذي عُرف باسم محفل الشرق الكبير، وأصبح يستقطب كل الجمعيات الماسونية القديمة في العالم، ويسيّرها إلى وجهة جديدة تخدم اليهود وأغراضهم وأحلامهم بتحقيق وطن قومي لهم ثم صيانة هذا الوطن.

وفي القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين الذي حدث فيه تطور للنفوذ اليهودي وتغلغل لسلطان اليهود عن طريق الماسونية في جميع الحكومات الأوروبية والأمريكية، فالماسونية تجد مكانًا خصبًا لدى الطائفة الإنجيلية.

ويقول (ألفريد ليلينتال) في كتابه (ثمن إسرائيل): لقد لعب العامل الديني دورًا مهمًّا في إقرار التقسيم، وخاصة لدى الطائفة الإنجيلية المستمدة تعاليمها عن التوراة، وكان هذا العامل من جملة العوامل التي حملت إيرل بلفور والجنرال سمطس على تأييد إقامة وطن قومي يهودي في الأراضي المقدسة.

وفي سنة ١٧٧١ أعاد اليهود النظر في تعاليم الماسونية ورموزها، وغيّروا فيها لتناسب الجو البروتستانتي في بريطانيا والولايات المتحدة. وقد كشف المحفل الماسوني الأعظم عن بعض نواياه حين جعل من أهداف الماسونية:

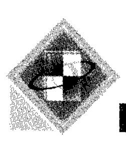
١- المحافظة على اليهودية.

٢- محاربة الأديان بصورة عامة والكثلكة بصورة خاصة.

٣- بث روح الإلحاد والإباحية بين الشعوب.

ثم بدأت اليهودية العالمية بمد الجمعيات الماسونية برجال الفكر والدهاء والمكر، فيلبسون لكل عصر لبوسه الملائم. بل لهم طرق في خداع الشعوب إذا لمسوا فيهم الإحساس بخطر الماسونية؛ لأن غاية الماسونية تأسيس جمهوريات علمانية تتخذ الوصولية والنفعية أساسًا لاتحادها، كما جاء في قرار المؤتمر الماسوني المنعقد في باريس عام ١٩٠٠م.

وجاء في قرار محافل الماسونية عام ١٨٨٤م: «يجب على الماسونيين الذين بيدهم زمام الأمور أن يأتوا بالماسونيين إلى سدة الحكم، وأن يقربوهم من كراسيه، وأن يُكثروا من عددهم فيه، وفي وسع الماسوني أن يكون مواطنًا أو نائبًا أو رئيسًا بشرط أن يكون ماسونيًا، وعليه أن يستلهم الأفكار الماسونية، ومهما علت مكانته الاجتماعية فإنه يستوحي مذهبه من المحفل الماسوني لا من مكانته.



درجات الماسونيين:

والماسونيون ليسوا كلهم على درجة واحدة، ولكنهم على ثلاث درجات:

الأولى: التلميذ أو الصبي (الملتحق أو المتدرب).

الثانية: زميل المهنة أو الصنعة (الرفيق).

الثالثة: البنّاء الأعظم أو الأستاذ (بمعنى أستاذ في الصنعة).

وأضيف إلى الدرجات الثلاث درجة أخرى أساسية هي (القوس المقدس الأعظم)، وهناك في بعض المحافل تصل إلى ثلاث وثلاثين درجة، كما هو الحال في الطقس الاسكتلندي القديم، وتصل أحيانًا عدد الدرجات إلى بضعة آلاف.

الماسونية النسائية:

يقول الدكتور «جان مينو»: «وقد أُنشئ للروتاري فرع نسائي عام ١٩٢٨م يسمى الجمعية الدولية للمتفائلات Soroptimiste (سوروبتمست).

ولا شك أن هذا النادي هو فرع ماسوني ثانٍ للحركة النسائية الروتارية غير فرع سيدات الروتاري باسم «إينرويل» Inner wheel لم تورد كل الوثائق التي لدي شيئًا عن تاريخه يمكن أن ننتفع بها».

وفي إنجلترا تأسست أول مدرسة ماسونية للنساء عرفت باسم «مدرسة بنات الإخوة الماسونيين» برعاية «راسبيني» ومساعدة العائلة الملوكية، وخاصة «دوتش أوف كيرلند» الذي دعيت باسمهم المدرسة فيما بعد «مدرسة كيرلند الملوكية»، ومازالت باقية تمارس نشاطها تحت رعاية ملكة إنجلترا، وقد عاد اسمها الأول «مدرسة البنات الماسونية».

وتعرف أندية الروتاري النسائية باسم «الإنرويل»، وهي خاصة بالنساء فوق ٢٨ سنة، أما اللاتي لم يبلغن هذا السن فيضمهن تنظيم مختلط يعرف باسم «الروترآكت»، أما الشباب من الجنسين في عمر المراهقة من ١٤-١٨ سنة فيضمهم تنظيم يسمى «الانترآكت»، وقد سُمح مؤخرًا بأن يضم التنظيم كافة الطلائع الصغيرة التي تبدأ بعمر الحضانة أو المدرسة الابتدائية.

وأهم النوادي الماسونية :

الروتاري.

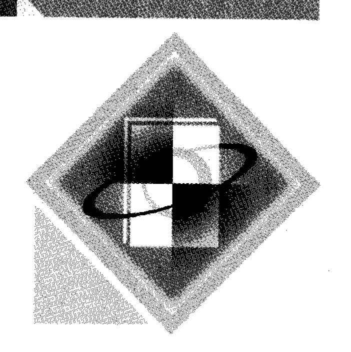
الليونز.

الكوائي.

الاكستشنج.. وغيرها.

المصدر:

الموسوعة الإسلامية العامة، وزارة الأوقاف المصرية، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.



تطورات علم الجغرافيا السياسية.. وأثرها في فهم التفاعلات الدولية الراهنة

حسن الرشيدي
مدير وحدة الدراسات والبحوث بالمركز العربي للدراسات الإنسانية

ملخص الدراسة

تعد الجغرافيا السياسية أحد مناهج التحليل السياسي، وتأتي أهميتها من كونها استطاعت أن تفسر بدقة كثيرًا من كليات وجزئيات الظاهرة السياسية في القرون الأخيرة، خاصة ما يتعلق منها بصراع الاستراتيجيات للقوى الإقليمية، والدولية، والتسابق بين الدول ذات الاستراتيجيات العظمى المتنافسة على الترتيب داخل منظومة النظام الدولي. وأصبح الاستعانة بقوانين الجغرافيا السياسية، وإدراك الإطار الجغرافي للمشكلة السياسية لا غنى عنه لفهم العلاقات الدولية، أو الصراعات الإقليمية على حدٍّ سواء، بل وبدأ الحديث عن أثر الظروف الجغرافية في توجيه الأحداث السياسية في جهات العالم المختلفة.

ويرجع تاريخ الجيوبوليتيك إلى أرسطو الذي كان أول من تحدث عن قوة الدولة المستمدة من توازن ثرواتها مع عدد ساكنيها. وظلت أفكار ربط الممارسات السياسية بالخصائص الجغرافية تتطور بإسهامات فلسفية متعاقبة. واكتسبت هذه الأفكار دفعة قوية بما كتبه ابن خلدون في مقدمته الشهيرة.

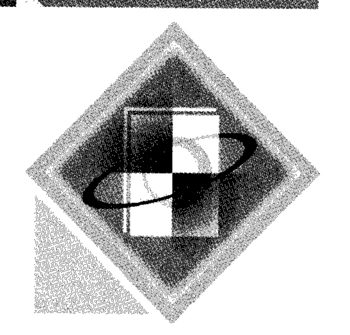
ومع العقود الأولى للقرن ١٨ شهدت فرنسا ظهور أفكار جغرافية سياسية رصينة، صاغها مونتسكيو، ولكن مرحلة تحول هذه الأفكار إلى علم جاءت على يد الألماني فردريك راتزل.

ويقسم البعض مراحل نشأة، وتطور علم الجغرافيا السياسية إلى ثلاث مراحل، هي مرحلة الحتم الجغرافي، ثم مرحلة الدولة ككائن حي، حتى وصلت إلى المرحلة المعاصرة.

وتتعدد موضوعات علم الجغرافيا السياسية بتعدد موضوعات علم السياسة، ولكن يوجد في الظواهر السياسية ما يصلح معه التحليل بواسطة الجغرافيا السياسية، ومنه ما لا يصلح.

وقد ظهرت عدة نظريات تحليلية في الجغرافيا السياسية من أبرزها نظرية القوة البرية، أو قلب الأرض للجغرافي البريطاني «ماكيندر»، ونظرية القوة البحرية للأمريكي ألفرد ثاير ماهان، ونظرية الجيوبولتيكية الألمانية التي شرحها العالم الجغرافي الألماني هوزهوفر، وهناك أيضًا نموذج كوهين، إضافة إلى نظرية الحدود الشفافة التي نادى بها العالم الأمريكي بيتر تايلور.

نحن الآن في حقبة تاريخية بعد الحرب الباردة ذات نظام جيوبولتيكي عالمي واحد تفرضه الهيمنة الأمريكية، ولكن هذه الهيمنة اهتزت في السنوات الأخيرة؛ نتيجة تورط الولايات المتحدة في حربين فاشلتين في أفغانستان، والعراق، ونتيجة الأزمة المالية الراهنة، ما دفع ببعض القوى الدولية والإقليمية إلى محاولة فرض قواعدها الجيوبوليتيكة، وكسر القواعد الجيوبوليتكية الأمريكية المهيمنة.



تطورات علم الجغرافيا السياسية.. وأثرها في فهم التفاعلات الدولية الراهنة

حسن الرشيدي
مدير وحدة الدراسات والبحوث بالمركز العربي للدراسات الإنسانية

«إن البارعين في الصراع يتخذون موقعًا غير قابل للهزيمة، ولا يضيّعون أية فرصة لهزيمة الخصم».

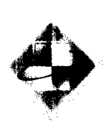
هذه مقولة اشتهرت على لسان سون تسو، وهو قائد عسكري صيني في الإمبراطورية الصينية، عاش في القرن السادس قبل الميلاد، وقد كتب مجموعة من المقالات العسكرية الاستراتيجية حملت اسم كتاب «فن الحرب».. هذا الكتاب اعتُبر لفترة طويلة مرجعًا كاملاً للاستراتيجيات والوسائل العسكرية؛ حيث كان له تأثير ضخم على التخطيط العسكري، وتُرجم في أوروبا قبل مائتي سنة، ولعب دورًا في التأثير على نابليون، والأركان العامة الألمانية، وحتى في تخطيط عملية عاصفة الصحراء.

وهذه المعادلة البسيطة التي يتحدث عنها هذا القائد العسكري تتلخص في أن تحقق النصر يتم من خلال التمركز، فمن خلال التمركز يتبين النصر والهزيمة للعيان قبل المواجهة، وهذا مثال صغير لمقولة استراتيجية ظلت لفترة طويلة جدًا تُستخدم منذ قبل الميلاد بقرون حتى عصرنا الحالي، مما يوضح أهمية صياغة الاستراتيجيات، سواء في الحروب أو غيرها من مجالات الصراع الأخرى، وهذا يقتضي نوعًا من التفكير العلمي يواكب هذه الاستراتيجيات، أو ما اصطُلح عليه بالتفكير الاستراتيجي الذي ينظر إلى أمور الصراع، وغيرها من الاهتمامات، وفق قواعد محددة من التفكير تحلل نقطة البدء لتصل إلى الهدف الاستراتيجي النهائي، وبينهما يمكن تحديد مسارات العمل مع تبين العوامل المساعدة، والأخرى المثبطة.

ومن الأمور التي هي محل نظر، وتستحق إعادة توجيهها استراتيجيًا فَهْم الظواهر السياسية، أو ما اصطلح عليه التحليل السياسي الذي أصبح الآن يجري في سياق معقد من مصالح القوى المحلية، والإقليمية والدولية، مما يستلزم ضرورة استخدام مناهج التحليل السياسي الاستراتيجي التي عن طريقها يمكن إدراك قوانين الظاهرة السياسية بشكل أفضل، ومن ثَم توقع امتداداتها المستقبلية.

وفي هذه الدراسة سيتم التركيز على منهج من مناهج التحليل السياسي الاستراتيجي، وهي الجغرافيا السياسية.

وتأتي أهمية الجغرافيا السياسية في كونها استطاعت أن تفسر بدقة كثيرًا من كليات وجزئيات الظاهرة السياسية في القرون الأخيرة، خاصة ما يتعلق منها بصراع الاستراتيجيات للقوى الإقليمية والدولية، والتسابق بين الدول ذات الاستراتيجيات العظمى المتنافسة على الترتيب داخل منظومة المجتمع الدولي.



أولاً: أهمية التحليل السياسي:

علم السياسة، والتحليل السياسي علم أساسي يتفرع من علم الواقع الذي هو أحد جناحي الفتوى الشرعية، يعرّفه بعضهم بأنه عملية إدراك الموضوع، وتفكيكه لتحديد المؤثرات والأسباب بغرض الوصول لفهم واضح ونتيجة تعي المتغيرات.

وقد قسّم العديد من الأساتذة والمفكرين هذا الفن إلى عدد من الأقسام والمراحل، وأولها إدراك القضية وتعريفها، ومن ثَم تفكيك القضية، وتحديد الأسباب الرئيسة، وأخيرًا تحقيق الترابط ضمن رؤية؛ وصولاً لرأي أو نتيجة.[1]

ويعرف الدكتور محمد الريفي التحليل السياسي بأنه عملية البحث في الاحتمالات الممكنة لمسارات التفاعلات بين القوى السياسية في المجتمع، وتفسير علمي واضح لنوع العلاقات بين هذه القوى السياسية الداخلية والخارجية، وهو الطريقة التي نحكم بها على الظواهر والأحداث السياسية محليًّا وإقليميًّا وعالميًّا.[2]

علاقة الجغرافيا السياسية بالتحليل السياسي:

يعتبر البعض أن الجغرافيا السياسية أو الجيوبوليتيك هي منهج للتحليل السياسي يناقض بشكل جزئي المنهج الأيديولوجي أو العقدي في التحليل السياسي، فبينما يحاول منهج الجغرافيا السياسية تفسير الظواهر السياسية من خلال أساس مادي يعتمد فرضيات علمية متحققة من علمي الجغرافيا والسياسة؛ نجد أن المنهج الأيديولوجي يجنح إلى التفسير الفكري، وأحيانًا العاطفي لمثل تلك الظواهر.

وفي حقيقة الأمر إن المنهجين غير متقابلين أو متضادين، بل هما يكمّل بعضهم البعض، فالتفسير المادي قد يُغفِل جانبًا هامًّا من دوافع أطراف الظاهرة السياسية، وهو الدافع الأيديولوجي أو العقدي، بينما التفسير الأيديولوجي أو العقدي يحتاج إلى بعض القوانين الاجتماعية، والنفسية، والسياسية، التي تحكم حركة المجتمعات، والتي يوفر جانبًا هامًّا منها علم الجغرافيا السياسية، والجيوبوليتيك.

إذن هي عوامل ثلاثة يجب على المحلل السياسي أن يراعيها لكي يلم بالظاهرة السياسية، وهي فهم لغة المصالح، والجانب العقدي أو الأيديولوجي، وأخيرًا الجغرافيا السياسية أو الجيوبوليتيك.

وبصرف النظر عن الخلاف في هذه المسألة؛ فإن الاستعانة بقوانين الجغرافيا السياسية، وإدراك الإطار الجغرافي للمشكلة السياسية أصبح لا غنى عنه لفهم العلاقات الدولية أو الصراعات الإقليمية على حدٍّ سواء، وليس ذلك فحسب، ولكن أيضًا بدأ الحديث عن أثر الظروف الجغرافية في توجيه الأحداث السياسية في جهات العالم المختلفة.[3]

ويرى الباحث ياسر الغرباوي [4] أن أهمية الجغرافيا السياسية تنبع من كونها استطاعت أن تفسر بدقة أغلب كليات وجزئيات حركة التاريخ. ابتداءً من القرن العشرين قبل الميلاد، وحتى القرن العشرين بعد الميلاد.

ويضرب الدكتور إبراهيم علوش [5] أمثلة كثيرة على استخدام علم الجغرافيا السياسية في التحليل السياسي، وفهم العديد من الظواهر السياسية التي مرت بأمتنا، فمنها أنه لا يمكن أن نفهم دافع الاستعمار الأوروبي لتأسيس دولة إسرائيل مثلاً إلا من منظور قوانين الجغرافيا السياسية.

فبعد قيام محمد علي باشا في مصر بضم الجزيرة العربية وبلاد الشام، خرج وزير خارجية بريطانيا

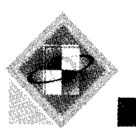
(١) علم التحليل السياسي بين الإخفاق والإهمال العربي، محمد بن سعيد الفطيسي، جريدة الساعة.

(٢) دورة في التحليل السياسي، موقع شبكة فلسطين للحوار http://www.paldf.net/forum

(٣) الجغرافيا السياسية، الدكتور محمد حجازي محمد، رئيس قسم الجغرافيا، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٩٦- ١٩٩٧م.

(٤) مؤسس المجموعة الجيواستراتيجية للدراسات، وموقعها على الإنترنت www.geosg.org

(٥) حوار مع الدكتور إبراهيم علوش في موقع الصوت العربي الحر: http://www.freearabvoice.org/arabi/index.htm



بالمرستون بفكرة عودة الشعب اليهودي إلى فلسطين لقطع الطريق على مصر شرقًا. ففلسطين لم تكن مستهدفة يومًا إلا بسبب موقعها في قلب الوطن العربي، ومعاناة الفلسطينيين ليست إلا نتاجًا فرعيًا لموقع فلسطين الجغرافي السياسي، وهو ما ينساه كثيرون اليوم من الفلسطينيين وباقي العرب، فدولة العدو كانت وما زالت موجهة أولاً ضد نشوء كتلة منافسة للغرب.

وكمثال آخر: بعد إخراج محمد علي باشا بالقوة من الجزيرة العربية وبلاد الشام قام الاستعمار الأوروبي بإعادتهما إلى الدولة العثمانية، فقد كانت بريطانيا تتعامل مع العثمانيين كحاجز جغرافي سياسي فحسب ضد تمدد القياصرة الروس جنوبًا وغربًا. وعندما تم توقيع المعاهدة البريطانية-الروسية، واستعيض عن العداء التقليدي البريطاني-الروسي بالتحالف، أصبحت الدولة العثمانية بحكم المنتهية، ووقع انقلاب تركيا الفتاة عام ١٩٠٨م.

> فلسطين لم تكن مستهدفة يومًا إلا بسبب موقعها في قلب الوطن العربي، ومعاناة الفلسطينيين ليست إلا نتاجًا فرعيًا لموقع فلسطين الجغرافي السياسي

تعريف المصطلح:

ثمة ضرورة منهجية لكشف الالتباس عن كثير من المفاهيم والمصطلحات التي تعتبر أدوات مهمة في التحليل السياسي، وإعادة النظر هذه هي شكل من أشكال إعادة تأهيل لهذه المفاهيم والمصطلحات بما يتسق وينسجم مع التقدم المعرفي، ومع المتغيرات الواقعية والسياسية، وكذلك لإزالة اللبس والغموض الذي يكتنف تحليلنا السياسي جراء الاستخدام غير الدالّ على المعنى المقصود منه سياسيًّا أو علميًّا لتلك المصطلحات.

ومن هذه المفاهيم والمصطلحات موضوع بحثنا، وهو الجغرافيا السياسية:

ففي عام ١٩٣٥م عرَّف هارتس هورن الجغرافيا السياسية على أنها علم دراسة الدولة كمساحة متغيرة بالنسبة لغيرها من المساحات المتميزة الأخرى [١].

ولكن في عام ١٩٥٤م عاد مرة أخرى هارتس هورن ليعرّفها بأنها العلم الذي يهتم بدراسة التماثل، أو التباينات في الشخصية السياسية للمساحات المختلفة، ويجب أن يُنْظَر إليها على أنها أجزاء مترابطة في كُلٍّ مُركَّب، أقرب ما يكون إلى تماثلات وتباينات عامة.[٢]

ويشرح جمال حمدان أكثر فيقول: من الطبيعي أن تكون قمة الجغرافيا هي التعرف علي شخصيات الأقاليم، والشخصية الإقليمية شيء أكبر من مجرد المحصلة الرياضية لخصائص الإقليم، وإنما تتساءل أساسًا عما يعطي منطقة تفردها وتميزها بين سائر الأقاليم والمناطق، وتريد أن تنفد إلى روح المكان لتستشف عبقريته الذاتية. [٣]

ويعرف كل من روجر كاسبيرسون، وجوليان منجي الجغرافيا السياسية بأنها التحليل المساحي للظاهرة السياسية. [٤]

ولعل هذا التعريف قد انتقل بالجغرافيا السياسية من مجرد عامل إقليمي أو محلي ليجعلها تغوص في عمق العلاقات الدولية، وتقدم تفسيرًا علميًّا استراتيجيًّا لكثير من الصراعات على الساحة العالمية، فالباحثان لم يقتصرا على أن تكون وحدة التعريف هي الدولة، بل حاولا التركيز على العلاقة بين الجغرافيا والسياسة.

وهناك تعريف يركز على أن الجغرافيا السياسية هي دراسة الوحدات، أو الأقاليم السياسية كظواهر على سطح الأرض، وما تشتمل عليه هذه الوحدات من شعوب

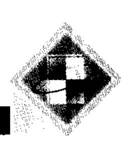
---

(١) ريتشارد هاريسون، الاتجاهات الحديثة في الجغرافيا السياسية، دورية العلوم الأمريكية، عدد ديسمبر ١٩٣٥م ص: ٩٥٧.

(٢) الدكتور محمد حجازي محمد ، محاضرات في الجغرافيا السياسية، قسم الجغرافيا كلية الآداب جامعة القاهرة، ص: ١٤.

(٣) جمال حمدان، شخصية مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥م، الجزء الأول: ص٣.

(٤) بنية الجغرافيا السياسية، روجر كاسبيرسون وجوليان منجي، مطابع جامعة لندن، ١٩٧٠م.



وجماعات، ويتوقف امتداد هذه الأقاليم وطبيعتها على تباين الظواهر السياسية التي تسود العالم، ففي بعض جهاتٍ من العالم نجد أن الأقاليم السياسية لها صفة الاستقرار النسبي لمدة زمنية طويلة، بينما نجدها في جهات أخرى من العالم يصيبها تغيرات سريعة. وبدراسة الظواهر السياسية نتاج البشر، وارتباطها بظواهر سطح الأرض نتاج الطبيعة يمكن للباحث الجغرافي أن يحلل ويعلل الطرق المختلفة التي نظّم بها الإنسان في هذه الأرض إلى أنماط سياسية. [1]

ولعل أبسط وأدق تعريف للجغرافيا السياسية، وأكثرها دلالة على معناها ما قدمته الأكاديمية القومية للعلوم في واشنطن من أن الجغرافيا السياسية هي العلم الذي يهتم بدراسة التفاعل الذي يوجد بين المساحات الجغرافية، والعمليات السياسية.

ويقول الدكتور محمد حجازي محمد عن هذا التعريف: لا شك أن هذا التعريف قد وضع أرضية جغرافية لكل ما يطرأ على العلاقات الدولية من تغيير، وفي نفس الوقت يتضمن أيضًا المشكلات السياسية الداخلية من توزيع لموارد الثروة، والقوى، ومراكز الثقل السكاني، والاقتصادي، وتوزيع النشاط البشري، وكل ما يترتب على ذلك من نتائج سياسية، واستراتيجية، ومن توجيه لعلاقات الدولة الخارجية. [2]

وفي هذا الصدد هناك مصطلحان متداخلان قد يُحدِثا التباسًا عند البعض، هذان المصطلحان يتم تداولهما في كثير من البحوث، والمقالات السياسية، وهما الجغرافيا السياسية، والجيوبوليتيك.

فهذان المصطلحان يستخدمهما بعض الباحثين بمعنى واحد، بينما القلة التي ترى الفرق بينهما:

فالجغرافيا السياسية: علم يتحدث عن أثر الجغرافيا على السياسة، والسياسة هنا في هذا المصطلح هي صفة للجغرافيا التي هي الموصوف الأصيل في هذا التعبير المركب.

أما مصطلح الجيوبوليتيك فهو مصطلح لاتيني ترجمته السياسة الجغرافية، أي أثر السياسة على الجغرافيا، فهنا الموصوف الأصلي هو السياسة، والصفة هي الجغرافيا، وتغير الصفة والموصوف بين المصطلحين يجعل المعنيين مختلفين، فالجغرافيا السياسية تدرس الإمكانات الجغرافية المتاحة للدولة بينما الجيوبوليتيك تُعنَى بالبحث عن الاحتياجات التي تتطلبها هذه الدولة لتنمو، حتى ولو كان وراء الحدود.

> الجغرافيا السياسية تدرس الإمكانات الجغرافية المتاحة للدولة بينما الجيوبوليتيك تُعنَى بالبحث عن الاحتياجات التي تتطلبها هذه الدولة لتنمو حتى ولو كان وراء الحدود.

وبينما تشغل الجغرافيا السياسية نفسها بالواقع، فإن الجيوبوليتيك تكرس أهدافها للمستقبل، وإذا كانت الجغرافيا السياسية تنظر إلى الدولة كوحدة استاتيكية؛ فإن الجيوبوليتيك تعدها كائنًا عضويًا في حركة متطورة.

وأيًا كان التداخل بين العلمين فإنهما يدوران حول تركيب الجغرافيا مع السياسة.

وهناك أيضًا تداخل أقل غموضًا بين مصطلحين، وهما الجيوبولتيك، والجيوستراتيجيك، فالجيوبولتيك هو تأثير السياسة بمعناها الضيق أو المحلي على الجغرافيا، أو تكون الدولة هي وحدة التحليل، أما الجيوستراتيجيك فهو تأثير الاستراتيجية على الجغرافيا، والاستراتيجية هي فن حشد القوى المختلفة للدولة للتأثير على الصراعات الدولية، فمصطلح الجيوستراتيجيك أشمل من مصطلح الجيوبولتيك في استعماله فموضوعه ليس جغرافية دولة أو إقليم، وإنما جغرافية العالم كله.

---

(١) محمد عبد الغني سعودي، الجغرافيا والمشكلات الدولية، المكتبة النموذجية القاهرة، ١٩٧٧م، ص ٢٠٣.

(٢) مرجع سابق، ص: ١٧.



تاريخ الجغرافيا السياسية، وتطورها:

يُرجِع الدكتور عاطف عبد الحميد [1] تاريخ الجيوبوليتيك إلى أرسطو الذي كان أول من تحدث عن قوة الدولة المستمدة من توازن ثرواتها مع عدد ساكنيها. وترك أرسطو أفكارًا بالغة الأهمية عن وظائف الدولة ومشكلات الحدود السياسية.

وظلت أفكار ربط الممارسات السياسية بالخصائص الجغرافية تتطور بإسهامات فلسفية متعاقبة. واكتسبت هذه الأفكار دفعة قوية بما كتبه عبد الرحمن بن خلدون في مقدمته الشهيرة.

وفَضْل ابن خلدون يتمثل في تشبيهه الدولة بالإنسان الذي يمر بخمس مراحل حياتية، هي: الميلاد، والصبا والنضج، والشيخوخة والموت.

وهذه الدورة الحياتية للدول، وارتباطها بمقدرات الدولة أرضًا وسكانًا وموارد.. كانت أبرز ما نقله المفكرون الغربيون فيما بعد حينما تمت بلورة الصياغة العلمية لقيام وسقوط الحضارات.

ومع العقود الأولى للقرن ١٨ شهدت فرنسا ظهور أفكار جغرافية سياسية رصينة، صاغها مونتسكيو، جنبًا إلى جنب مع ما قدمه من أفكار اجتماعية وفلسفية وقانونية. بيد أن اعتقاد مونتسكيو الشديد في الحتمية البيئية أدى به لأن يربط مجمل السلوك السياسي للدولة بالعوامل الطبيعية، وعلى رأسها تحكّم المناخ والطبوغرافيا مع التقليل من مكانة العوامل السكانية والاقتصادية.

ولكن مرحلة تحول هذه الأفكار إلى علم جاءت على يد الألماني فردريك راتزل، والذي يرجع إليه الفضل في كتابة أول مؤلَّف يحمل عنوان الجغرافيا السياسية في عام ١٨٩٧م، وأكد راتزل على أن الدولة لا تثبت حدودها السياسية، وكانت الدولة لديه أشبه بإنسان ينمو فتضيق عليه ملابسه عامًا بعد عام، فيضطر إلى توسيعها، وكذلك ستضطر الدولة إلى زحزحة حدودها السياسية كلما زاد عدد سكانها وتعاظمت مطامحها.

ويقسم آخرون [2] مراحل نشأة، وتطور علم الجغرافيا السياسية إلى ثلاث مراحل، مع العلم بأن هذا التصنيف في نشأة الجغرافيا السياسية يحل إشكالية التداخل بين مصطلحات الجغرافيا السياسية، والجيوبولتيكا، وبين المصطلح الأخير، وبين الجغرافيا الاستراتيجية وهذه المراحل هي:

مرحلة الحتم الجغرافي:

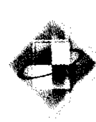
أي هذه المرحلة تندرج تحت تعريف الجغرافيا السياسية، ويمثلها أرسطو عندما تحدث عن الدولة المثالية، وحدّد عناصرها في حجم السكان وكمّ الموارد الاقتصادية؛ حيث ذكر أن حجم السكان يجب أن يكون متوسطًا بحيث يسهل حكمه فلا هو بالحجم الكبير الذي يصعب حكمه، ولا هو بالحجم الصغير الضعيف، أما عن رأيه في العاصمة المثالية للدولة فهي التي تجمع بين الموقع الحصين وبين الأداء الجيد لظروفها، كما أنه عالج الصفات التي يجب أن ينصب بها الجيش البري والأسطول الحربي الذي يضم عناصر مرتزقة من غير المواطنين، كما أنه ناقش وظائف الدولة والحدود السياسية المحصنة، وبالتالي فقد تطرق لكثير من موضوعات الجغرافيا السياسية التي تُعالَج في الوقت الحاضر.

ويمثل هذه المدرسة أيضًا ابن خلدون الذي ألقى الضوء في مقدمته على موضوعات هامة مثل القبيلة والدولة، والصراع القائم بين البدو والزُّرَّاع... كانت الجغرافيا السياسية في هذه المرحلة تدرس أثر البيئة الطبيعية (الموقع - المساحة - الشكل - التضاريس - المناخ - الغطاء الحيوي) على السلوك السياسي (الأقوال - القرارات - الأفعال) للدول، وبذلك اتسمت هذه النظرة بالحتم الجغرافي، أي أن الجغرافيا طغت على الظاهرة السياسية.

---

(١) الدكتور عاطف معتمد عبد الحميد، موقع إسلام أون لاين، ٢٠٠٢/١٠/٩م.

(٢) فتحي مصيلحي، الجغرافيا السياسية: الإطار النظري وتطبيقات عربية، دار الماجد القاهرة، ٢٠٠٥م، ص٢٢.



مرحلة الدولة ككائن حي:

وهي التي تندرج تحت تعريف الجيوبولتيكا، ووفق هذا التقسيم فإن الألماني راتزل هو صاحب هذا التحول الحقيقي لنشهد بزوغ الجغرافيا السياسية؛ حيث تأثر في أفكاره بمبدأ دارون: البقاء للأقوى، والحتم الجغرافي وظهرت آراؤه في عدة نقاط منها: الدولة كائن حي يتوقف نجاحه على إمكانية الحصول على مساحات إضافية، بالإضافة إلى التلاحم التام بين أرضها وسكانها، ونُشرت هذه الأفكار في كتابه الجغرافيا السياسية عام ١٨٩٧م، وفي هذه المرحلة طغت السياسة على الجغرافيا.

مرحلة المعاصرة:

بعد أفول نجم النظرية الحتمية الجغرافية، وبعد اشمئزاز الناس من الجيوبولتيكا بعد استغلالها السيئ من النازية ظهرت مدرسة جديدة ترى أن الجغرافيا السياسية هي دراسة التأثير المتبادل بين الظواهر الجغرافية من ناحية، والظاهرة السياسية من ناحية أخرى بطريقة متوازنة؛ بحيث لا يطغى عنصر على آخر، ومن أعلام هذه المرحلة وتلي وهارتشهورن وجوتمان، فقد أسهم وتلي في وضع إطار نظري للجغرافيا السياسية؛ حيث رأى أنها تهتم بدراسة اختلاف الظواهر السياسية من مكان إلى آخر على سطح الأرض، وتأتي الدولة في مقدمة هذه الظواهر.

ورأى هارتشهورن في كتاباته الأولى أن الجغرافية السياسية هي دراسة الوحدات السياسية، ويتضمن هذا المنهج وصفًا تحليليًا لعناصر الدولة، وبدأ بعد ذلك يركز على وظائف الدولة؛ حيث ذكر أن كل دولة تحتوي على عوامل الوحدة وعوامل التنافر معًا.

أما جوتمان فقد أضاف فكرتين هما الحركة والاكنوجرافيا، فالحركة تتضمن وسائل النقل والمواصلات، وانتقال الأشخاص والسلع والأفكار، أما الاكنوجرافيا فهي الثبات، وهي القوة المضادة للحركة، وتشمل قيم الماضي ووجهات النظر الاجتماعية.

موضوعات علم الجغرافيا السياسية، ومناهج البحث:

تتعدد موضوعات علم الجغرافيا السياسية بتعدد موضوعات علم السياسة، ولكن يوجد في الظواهر السياسية ما يصلح معه التحليل بواسطة الجغرافيا السياسية، ومنه ما لا يصلح.

فمن الميادين السياسية الصالحة للتحليل عن طريق الجغرافيا السياسية: الدولة، وعلاقتها بالدول الأخرى، وقد اختلف أهل علم الجغرافيا السياسية في المقياس أو في النظام، أو في المنهج الذي يحدد الموضوعات التي تدخل ضمن العلم، والموضوعات التي لا تدخل في إطاره، ولكن أدق توصيف لهذا المقياس ما أطلق عليه الدكتور محمد حجازي[1] في كتابه عن الجغرافيا السياسية بالأسس الستة، وهي:

١- المنطقة السياسية أو الوحدة السياسية، وتتكون من: بيئة طبيعية، وبناء حضاري.
٢- مقومات هذه الوحدة السياسية، ومن بينها العلاقات القائمة بين التخوم الحضارية، والسكانية داخل هذه الوحدة.
٣- مناطق المشكلات داخل الوحدة السياسية.
٤- العواصم داخل هذه الوحدة.
٥- طبيعة الحدود.
٦- الدول المخالفة، والصديقة.

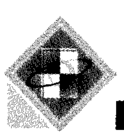
أما الدكتور إبراهيم زرقانة [2] فيرى أن هناك ثلاث مدارس فكرية داخل علم الجغرافيا السياسية:

- مدرسة تُعنَى بالمعالم السياسية في العالم، أي التوزيع العام لعناصر القوة السياسية.

- مدرسة تُعنَى بالعلاقة بين الناس، وبين المكان الذي يعيشون فيه، أي: تعنى بدراسة البيئة أو العناصر الثابتة في الدولة.

---

(١) محمد حجازي محمد، الجغرافيا السياسية ومشكلات النظام الدولي الجديد، القاهرة، ١٩٩٧/ ١٩٩٨م، ص: ٣٨.
(٢) الجغرافيا السياسية، إبراهيم زرقانة، الطبعة الثالثة، دار النهضة العربية، ص: ٧.



- مدرسة تعنى بدراسة الجهاز السياسي للدولة، أو العناصر المتحركة في الدولة.

ويحدد الدكتور زرقانة [1] أربعة علوم كمناهج للبحث في الوحدة السياسية، وهي:

١- علم الجغرافيا العام الذي يمد باحث العلوم السياسية بالمعلومات عن الظروف الطبيعية والبشرية للدولة، ويدخل في هذا تحديد علاقاتها بالوحدات السياسية الأخرى.

> هناك أربع مدارس للجغرافيا السياسية تنتمي كل منها إلى إحدى الدول الغربية، وتتفق مناهج كل مدرسة مع مطامع كل دولة على حدة، وأطماعها الاستعمارية، ولعل ذلك مما جعل هذا العلم مشبوهًا لدى البعض

٢- علم التاريخ الذي يمد الباحث بالمعلومات عن مجريات الحوادث التي تعرضت لها الدولة، مما يسبب تقدمها السياسي أو تخلفها.

٣- علم العلاقات الدولية الذي يفسر الصلة بين الدولة موضوع البحث، وبين الدول الأخرى، ويفسر سياساتها الخارجية، ويشرح تطبيقاتها العملية لهذه السياسات.

٤- علم السياسة الذي يحلل الأداة التي تحرك الدولة، وهو مجموعة من الآراء، والأفكار، والمعتقدات التي تكمن وراء تصرفات الدولة، سواء في الميدان الداخلي أو الخارجي.

بينما يعين الدكتور مجدي صقر [2] ثمانية مناهج تصلح للبحث في الجغرافيا السياسية، وهي:

المنهج التاريخي: يدرس نمو الدولة وتطورها حتى بلغت مرحلة النضج السياسي الحالي لها، وتطور رسم حدودها السياسية، والجذور التاريخية لإحدى المشكلات التي تواجهها.

المنهج الإقليمي: يقوم هذا المنهج بتحليل الوحدة السياسية من حيث العناصر التي تتكون منها، أو التي تكونها مثل الظواهر الطبيعية والاقتصادية والبشرية وشكل وحجم ومناخ الدولة، والسكان وغيرها، وتحليل التاريخ السياسي للدولة وحدودها وعلاقاتها السياسية بالعالم الخارجي.

منهج النظم العالمية: يتعلق هذا التحليل بالكيفية التي نتصور بها التحولات الاجتماعية على المستوى العالمي.

المنهج الوظيفي: يهدف إلى دراسة الدولة من حيث علاقاتها الخارجية والداخلية، وكيف يمكن للدولة أن تحافظ على كيانها الداخلي في ظل منظومة مجتمع دولي متكامل، وأثر العوامل الجغرافية كالمناخ والتضاريس والقوميات المتعددة، أو جماعات الشعوب على الأنشطة السياسية للدولة، وكذلك أثر المظاهر السياسية بدورها على العوامل غير السياسية، كأنماط الاستقرار، واستخدام الموارد وتطور شبكات النقل والاتصال، ونمو الخدمات والمرافق وغيرها.

المنهج المورفولوجي: يقوم هذا المنهج على تحليل أنماط الظواهر السياسية للدولة وتراكيبها؛ حيث يوجد نمط التنظيم السياسي الإداري داخل الدولة، أو نمط التنظيم الإقليمي (كتل إقليمية)، أو تنظيمات عالمية (اتحادات دولية).

منهج جونز: ويتألف من خمس حلقات هي: الفكرة السياسية، والقرار السياسي، والحركة السياسية، والمجال السياسي، والمنطقة السياسية.

منهج تحليل القوة: ينظر هذا المنهج في تحليل العوامل الجغرافية المؤثرة في قوة الدولة وضعفها وتكتلاتها.

المنهج الوصفي: وصف الحدود السياسية وتطورها وتركيبها ومشكلاتها وشكلها العام، وكذلك شكل الدولة ووصف علاقاتها الدولية الأخرى، وكذلك وصف المجتمع البشري بتركيباته المتعددة، والأسلوب الاقتصادي الذي تتبعه الدولة، وأثره في قوتها وضعفها.

---

(١) مرجع سابق، ص: ٤.

(٢) مرجع سابق، ص: ٢٠.



وقد حاول الباحثان بيتر تيلور، وكولن فلنت [1] وضع تصورات منهجية لاستخدام الجغرافيا السياسية في التحليل الاستراتيجي، فوضعا ما أطلقا عليه المبادئ الجيوبولتيكية أو خطط التصور، وهي الفرضيات الاستراتيجية التي تضعها حكومة ما فيما يتعلق بالدول الأخرى في صياغتها لسياستها الخارجية، وتتضمن هذه المبادئ الاستراتيجية الإجرائية: تقييم المناطق الجغرافية الواقعة وراء حدود الدولة من زاوية أهميتها الاستراتيجية، وإمكان أن تصبح يومًا ما مصدر تهديد لأمنها، وهي بحسب المؤلفين تعمل على مستويات ثلاثة: المحلي، والإقليمي، والدولي، ويتطلب المستوى المحلي من الدولة أن تقيّم أوضاع الدول المجاورة لها، وهذا ما تقوم به كل دول العالم، أيًّا كان حجمها. أما قواعد المستوى الإقليمي فهي مطلوبة للدول التي تتطلع إلى مد نفوذها على حساب جيرانها المباشرين، وهذا ما تضعه الحكومات الإقليمية القائمة، والمحتملة في الحسبان، وأخيرًا فإن عددًا قليلاً من الدول لها استراتيجيات عالمية، ومن ثَم تعمل حكوماتها وفق مبادئ جيوبولتيكية تتسق مع المنظومة العالمية.

وفي عام ١٩٩٢م -ومن منطلق تعريفهما للجيوبولتيكا بأنها شكل خاص من التفكير المنطقي يقيّم الأمكنة من زاوية ضرورات الأمن المتعلقة بدولة أو مجموعة من الدول- حدّد العالمان أوتواتهيل، وآجنيو شكلاً جديدًا من نظريات الجغرافيا السياسية في هذا الإطار يتم تقسيم الجغرافيا السياسية إلى قسمين: عملي، ورسمي، فالعملي هو الذي ترسمه نُخَب الدولة؛ حيث تنظر إلى المناطق الجغرافية وراء الدولة بالنسبة لما تشكله من تهديد لأمنها القومي، أما الرسمي فيصاغ في قالب نظريات عبر كتابات أكاديمية.[2]

ولكن يعود هذان العالمان ليقررا أنه بالرغم من أن لكل دولة قواعدها الجيوبولتيكية التي تنتهجها؛ فإن مثل هذا التفكير العملي لا يُمارس في فراغ، فهناك النظام الدولي وترتيب القوى فيه؛ حيث تفرض الدول القوية قواعدها الجيوبوليتيكية على الدول الأضعف، وفي حقبة تاريخية واحدة قد تتوافق القواعد الجيوبوليتيكية لتكون نمطًا واحدًا سائدًا؛ حيث يطلق عليها حينئذ الأنظمة الجيوبوليتيكية العالمية.

نظريات تحليلية في الجغرافيا السياسية:

تعد هذه النظريات أمثلة تطبيقية لعلماء الجغرافيا السياسية، يستدلون بها على قوة الجغرافيا السياسية في التحليل، وقد اشتهرت هذه النظريات منذ أوائل القرن العشرين، بالرغم من أن الكثيرين لا يزالون متمسكين بها حتى الآن، ويقولون بصلاحيات تطبيقاتها في الأحداث الراهنة.

والواقع أن هناك أربع مدارس للجغرافيا السياسية تنتمي كل منها إلى إحدى الدول الغربية، وتتفق مناهج كل مدرسة مع مطامع كل دولة على حدة، وأطماعها الاستعمارية، ولعل ذلك هو الذي جعل هذا العلم مشبوهًا لدى البعض:

فهناك المدرسة البريطانية، وإمامها في ذلك العلم هو ماكندر، وهناك أيضًا المدرسة الألمانية، وعلى رأسها راتزل، وتوجد المدرسة الفرنسية، وخبيرها دولابلاس، وأخيرًا المدرسة الأمريكية، وأشهر علمائها موهان، ولكن بعض الباحثين لا يعدون المدرسة الأمريكية مدرسة مستقلة بذاتها، ولكنها نظرية استراتيجية سياسية أكثر منها جغرافيا سياسية. [3]

وسوف نتناول أهم النظريات التي قال بها هؤلاء:

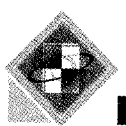
أولاً: نظرية القوة البرية أو قلب الأرض:

ظهرت هذه النظرية عام ١٩٠٤م، في هذه النظرية يفترض الجغرافي البريطاني ماكيندر، بعد وزنه للقوى الاستراتيجية عبر التاريخ، أن الصراع بين القوى البرية والبحرية لا بد أن ينتهي بالسيطرة على روسيا التي

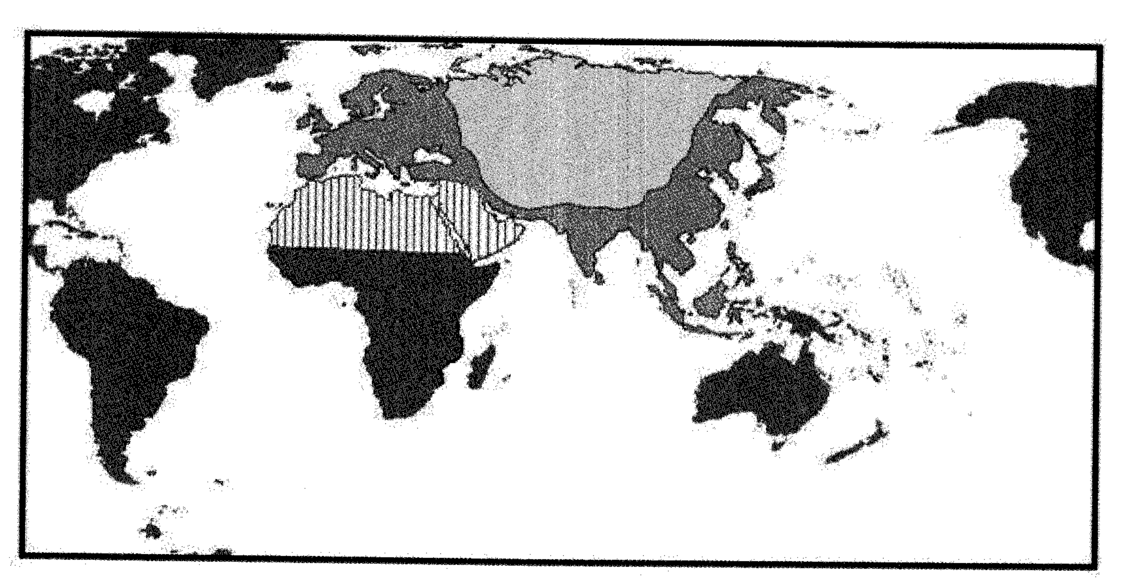
(١) بيتر تيلور وكولن فلنت، الجغرافيا السياسية لعالمنا المعاصر، عالم المعرفة، الجزء الأول، ٢٠٠٢م، ص: ١٦٤.

(٢) المرجع السابق، ص: ١١٤، ١١٥.

(٣) قال بذلك القول عالم الجغرافيا الفرنسي بيير سيليريه في كتابه الجغرافيا السياسية والجغرافيا الاستراتيجية، ص: ٢١.



نظرية ماكيندر – قلب الأرض



المنطقة المركزية (قلب الأرض)

الهلال الداخلي

الصحراء

الهلال الخارجي

المصدر: موسوعة «مقاتل من الصحراء» الإلكترونية

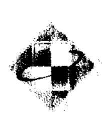
تجسّد قلب العالم، ومن يمسك بهذا القلب فقد تحكّم في نبضات الأرض وتدفق دمائها، فهو يعتبر الكرة الأرضية كتلة واحدة من اليابسة، ويطلق على مجموع القارات الثلاث: أوروبا، وآسيا، وإفريقيا الجزيرة العالمية، وهو يرى أن مركز هذه الكتلة هو أوروبا الشرقية، وهكذا يصل ماكيندر إلى عبارته الشهيرة أنه من يسيطر على أوروبا الشرقية فقد سيطر على قلب الأرض، ومن يسيطر على قلب الأرض فإنه يحكم الجزيرة العالمية، ومن يمتلك هذه الجزيرة العالمية فإنه يحكم العالم.[1]

ويقسّم ماكندر العالم إلى ثلاثة أقسام رئيسة: قلب الأرض- الهلال الخارجي- الهلال الداخلي، فقلب الأرض يبدأ من التركستان الروسية حتى جنوب شرق أوروبا، وهي منطقة سهلية عظيمة، ويحيطها جبال ومرتفعات وتضاريس تجعل غزوها صعبًا، ويحيط بقلب الأرض ما أطلق عليه ماكندر الهلال الداخلي، وهو قوس من الأراضي الساحلية متمثلاً في أوروبا الغربية، والبلاد العربية، وهو منطقة الصدامات بين قلب الأرض، والهلال الخارجي الذي يتكون من قوس من الجزر التي يفصلها عن القوس الداخلي بحار ومحيطات، ويشمل الأمريكتين، وأستراليا، والصين، واليابان، وبريطانيا.[2]

ورأى بعض علماء السياسة أن هذه النظرية سقطت مع سقوط الاتحاد السوفييتي عام ١٩٩٠م؛ لأن السوفييت أكثر من استخدموا تلك النظرية؛ حيث حاولوا السيطرة على شرق أوروبا، بل نجحوا في ذلك، ولكنهم لم يستطيعوا السيطرة على العالم في النهاية،

(١) مرجع سابق، ص: ٢٤.

(٢) محاضرات الدكتور عبد الرءوف رهبان في جامعة حلب قسم الجغرافيا، ونشرها موقع: «الجغرافيون العرب» على الإنترنت: www.arabgeographers.com/vb



وسقط الاتحاد السوفييتي، وعزز القائلون بسقوط النظرية تحول الاستراتيجيات العالمية والإقليمية في العقدين الأخيرين إلى الشرق الأوسط بعيدًا عن شرق أوروبا، وراجت نظرية جديدة تقول: إن من يسيطر على الشرق الأوسط الكبير يتحكم في قلب العالم، ولكن التطورات الأخيرة في القوقاز، والغزو الروسي لجورجيا، ونشر الدرع الصاروخي في بولندا، أي أوروبا الشرقية أعاد الاعتبار لهذه المنطقة في العالم، ومن ثَمّ فقد عادت الروح إلى هذه النظرية من جديد.

وقد أجرى سول كوهين مراجعة لهذه النظرية، وبخاصة مع التطور التكنولوجي، ونشوء القوات الجوية والصواريخ العابرة للقارات، وتنامي القوة البحرية السوفييتية. ويستند كوهين في مراجعته أساسًا إلى أن العالم ليس كتلة واحدة كما رآه ماكندر، وإنما وحدات إقليمية أساسية مستقلة، وهو يرى أن العالم يتكون من تسع وحدات أساسية، هي: القلب، وأوروبا الشرقية، وشرق آسيا، وجنوب شرق آسيا، والشرق الأوسط والصحراء الكبرى، والحدود المائية لأوروبا، والدول المغربية، وأمريكا الجنوبية والمناطق الآسيوية الأوقيانية المحاذية للشاطئ، والحدود الأمريكية الإنجليزية والكاريبية.

وهو يرى إلى جانب الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي ثلاث قوى عالمية جديدة هي: اليابان، والصين، وأوروبا، ثم تأتي مجموعة ثانية في المقام الأول تضم ٢٧ دولة، مثل الهند والبرازيل ونيجيريا، ثم تأتي مجموعة ثالثة وأخرى رابعة وهكذا. [1]

وجاء نيقولاس سبيكمان ليُحدث تطويرًا آخر على نظرية القوى البرية، لكن الحقيقة أن سبيكمان تبنّى جميع آراء ماكيندر، ولكن بصورة معكوسة، فبينما نجد أن ماكيندر يعطي كل الأهمية لقلب العالم من الناحية الاستراتيجية؛ فإن سبيكمان أعطى هذه الأهمية لمنطقة الهلال الداخلي التي أشار إليها ماكيندر في نظريته، وأطلق عليها اسم المنطقة البينية (الواقعة ما بين قلب العالم والهلال الخارجي)، أو أراضي الإطار أو منطقة الارتطام، أو منطقة الالتحام أو أرض الحافة، فهو يقول: من يحكم الإطار يحكم أوراسيا، ومن يحكم أوراسيا يتحكم في مصير العالم.

ثانيًا: نظرية القوة البحرية:

يأتي على رأس الجغرافيين السياسيين الأمريكيين ألفرد ثاير ماهان الذي عاش ما بين ١٨٤٠- ١٩١٤م، وكان أستاذًا لتاريخ البحرية، والاستراتيجية في كلية البحرية في نيوبورت، وهو يرى أن القوة البحرية أساس قوة الدولة، وأن أيّ دولة تريد السيطرة على العالم يجب أن تتحكم في قوة بحرية كبيرة، ويجب أن تكون لها السيطرة على البحار، ويرى أن الدول البحرية هي التي ستسود العالم في النهاية. ولعل ماهان قد تأثر بموقع الولايات المتحدة كشبه جزيرة محاطة بالمحيطات، وقد حدد ماهان خمسة عوامل عدها أساسية في تكوين القوة البحرية للدول، وهي: موائمة الموقع الجغرافي والإطلالة على بحار مفتوحة - شكل الساحل، وامتداده - خصائص الظهير القاري يجب أن يكون غني الموارد - الصفات القومية للشعب - شخصية الحكومة، وسياستها.

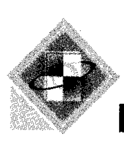
> «أيّ دولة تريد السيطرة على العالم يجب أن تتحكم في قوة بحرية كبيرة، ويجب أن تكون لها السيطرة على البحار»
>
> أستاذ تاريخ البحرية والاستراتيجية «ألفرد ثاير ماهان» (١٨٤٠ - ١٩١٤م)

وقد أكد أن كل المقومات والعوامل متوفرة للولايات المتحدة الأمريكية التي تكاد تشبه الجزيرة المحصنة، وهي مؤهلة لكي تكون أعظم قوة بحرية في العالم.

وهو يرى أيضًا أن تحالف الولايات المتحدة الأمريكية مع بريطانيا يُمكّنها من السيطرة على العالم؛ لأن بريطانيا كانت تشكّل في ذلك الوقت القوة البحرية الكبرى في العالم، وهي تتحكم بالقواعد الاستراتيجية، وتسيطر على خطوط الملاحة البحرية. ولم يعتبر ماهان الحصول على المستعمرات شرطًا من شروط القوة البحرية، بل

---

(١) الجغرافيا السياسية لعالمنا المعاصر، بيتر تيلور وكولن فلنت، ترجمة عبد السلام رضوان وإسحق عبيد، عالم المعرفة، ٢٠٠٢م.



كان يؤمن بضرورة التغلغل الاقتصادي الإمبريالي في دول العالم، كما أنه دافع عن ضرورة إقامة سلسلة متشعبة من القواعد العسكرية الاستراتيجية بعيدًا عن الولايات المتحدة الأمريكية من أجل حماية طرق الملاحة البحرية، وتأمين سرعة تدخل القوات الأمريكية إذا لزم الأمر.

ثالثًا: الجيوبولتيكية الألمانية:

شرَح هذه النظرية العالم الجغرافي الألماني هوزهوفر الذي قسّم العالم إلى ثلاث مناطق جغرافية كبرى، ينتظم فيها دول العالم: المنطقة الأولى مركزها اليابان، والثانية مركزها ألمانيا، والثالثة مركزها الولايات المتحدة، والملاحظ أن صياغة هذه النظرية تزامنت مع الطموحات النازية في زمن هتلر الذي اتخذها هاديًا لألمانيا في سعيها لتحقيق إمبراطورية كبرى.

رابعًا: نموذج كوهين:

يختلف كوهين عن ماكندر بأنه لا يرى العالم كتلة استراتيجية واحدة تنقسم إلى قلب، وحافة، وأطراف، وإنما يرى كوهين أن العالم ذو وحدات استراتيجية مختلفة، وإنما هناك عدة حلبات منفصلة في عالم منقسم أساسًا. (١)

ويوزع كوهين مناطق العالم إلى قسمين: مناطق جيواستراتيجية، ومناطق جيوبولتيكية، فالمناطق ذات الطبيعة الجيواستراتيجية هي المناطق التي تتحكم في جزء كبير من العالم، وهما منطقتان جيواستراتيجيتان، ويقصد بهما الولايات المتحدة، والاتحاد السوفييتي، وهما ينقسمان إلى مناطق جيبوبولتيكية خمسة في المنطقة الأولى، واثنتين في المنطقة الجيواستراتيجية الثانية. والمناطق الجيوبوليتيكية في نظر كوهين هي مناطق ذات إرث متجانس ثقافي، وسياسي، واقتصادي. وإضافة إلى السبع مناطق جيوبوليتيكة السابقة هناك منطقتان جيوبوليتيكيتان يسميهما الحزام المهشم؛ حيث تفتقران إلى الوحدة السياسية، وهما منطقة الشرق الأوسط، وجنوب شرق آسيا.

(١) الجغرافيا السياسية لعالمنا المعاصر، مرجع سابق، ص: ١١٢.

خامسًا: الحدود الشفافة:

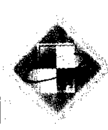
ونادى بهذه النظرية في العقدين الأخيرين العالم الأمريكي بيتر تايلور ليطرح مفهومًا جديدًا للجيوبوليتيك، وهو الحدود الشفافة التي يقصد بها الهيمنة الاقتصادية والعسكرية دون حدود خرائطية للدولة. وهو ما عُرف بجغرافية السيطرة من دون إمبراطورية، والسيطرة من دون إمبراطورية هي أفضل تجسيد لتطوير الأفكار الجيوبوليتيكية بعيدًا عن الأطر التقليدية للنمو العضوي للدولة.

مثال تطبيقي لاستخدام الجغرافيا السياسية في التحليل:

إن التصورات الأخيرة للجيوبولتيكا -والتي أوردناها سابقًا- كما عرّفها أوتواتهيل، وآجينو على أنها التفكير المنطقي الذي يقيّم الأمكنة من زاوية ضرورات الأمن المتعلقة بدولة أو مجموعة من الدول، ثم تم تقسيم هذا التفكير إلى نوعين: عملي، ورسمي، فالتفكير الرسمي يقسم العالم تقليديًا إلى تقسيمات أوردها العلماء الجغرافيون، كما بينا في السابق مثل طرح القلب، والأطراف، والحافة، والحدود المهشمة، وغيرها.

أما التفكير العملي، وهو الدائم التنفيذ؛ حيث تنظر النخب السياسية والعسكرية في الدولة إلى الساحات الجغرافية، فيما وراء الدولة، على أنها مصدر تهديد محتمل، وهذه النظرة طبقًا للقواعد الجيوبوليتيكية ذات ثلاثة مستويات (محلية، وإقليمية، وعالمية)، ونظرًا لوجود عدد كبير دول العالم لها قواعدها الجيوبوليتيكية المختلفة؛ فإن الدول الأقوى، والباحثة عن الهيمنة العالمية، تفرض قواعدها على الدول الأضعف؛ لتكون نمطًا واحدًا سائدًا في حقب تاريخية تسمى نظم جيوبوليتيكية عالمية.

ونحن الآن في حقبة تاريخية بعد الحرب الباردة ذات نظام جيوبولتيكي عالمي واحد تفرضه الهيمنة الأمريكية، ولكن هذه الهيمنة اهتزت في السنوات



الأخيرة؛ نتيجة تورط الولايات المتحدة في حربين فاشلتين في أفغانستان، والعراق، ونتيجة الأزمة المالية الراهنة، وازداد انحدار الخط البياني للهيمنة والتفرد في الشهور الأخيرة مع دخول الرئاسة الأمريكية في شلل، وغموض نتيجة الانتخابات والتغيير القادم، مما دفع ببعض القوى الدولية والإقليمية إلى محاولة فرض قواعدها الجيوبوليتيكة، وكسر القواعد الجيوبوليتكية الأمريكية المهيمنة، ونضرب في ذلك مثالين:

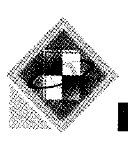
الأول: التحرك الروسي في القوقاز، واندفاع جيشها ليجتاح معظم أراضي جورجيا، وبذلك استطاعت روسيا كسر القواعد الجيوبوليتيكية الأمريكية بخصوصها، والتي تقضي بإقامة حزام من القواعد في الدول المحيطة بروسيا، ومنعها من السيطرة مرة أخرى على منطقة قلب العالم، وفقًا لما يقوله ماكندر الذي يحددها بمنطقة شرق أوروبا وروسيا، فالتحرك الروسي انتهز فرصة انحسار أمريكي، وعجزه عن الرد ليخرق القاعدة الجيوبوليتيكية الأمريكية، ويفرض قواعده الجيوبوليتيكة، والتي تتصل بصفة مباشرة بأمنه القومي ودول الجوار، فسعى إلى استقلال أوسيتيا الجنوبية، وأبخازيا كشريط جغرافي أمني حاجز بينه وبين القواعد الأمريكية في جورجيا.

الثاني: التحرك السياسي المصري الذي نشط فجأة بعد طول خمود، فمصر قبلت بالهيمنة والقواعد الجيوبوليتيكية التي فرضتها أمريكا، أو حاولت فرضها على المنطقة بما يسمى الشرق الأوسط الكبير؛ باعتباره -وفق نظرية كوهين التي ذكرناها سابقًا- منطقة جيوبوليتيكية أطلق عليها حزامًا مهشمًا أو هو وفق نظرية ماكندر يندرج ضمن الهلال الداخلي؛ حيث هو منطقة الصدامات بين قلب الأرض (روسيا، ومناطق نفوذها في آسيا الوسطى، وأوروبا الشرقية)، والهلال الخارجي (بريطانيا، والولايات المتحدة، واليابان، وأستراليا) أو هو وفق العالم الأمريكي سبيكمان أرض الإطار، أو من منطقة الالتحام؛ فمن يحكم الإطار يحكم القلب (أوراسيا)، ومن يحكم القلب يحكم العالم؛ حيث تفتقر إلى الوحدة السياسية، وتسودها الصراعات فبعد أن سيطرت الولايات المتحدة على قلب العالم بقواعدها العسكرية في شرق أوروبا، والقوقاز انتقلت أمريكا إلى ضبط الحواف، والأطراف، والمناطق المهشمة، ولكن كما أسلفنا سابقًا تراجعت أمريكا، خاصة مشروعها الشرق الأوسط الكبير؛ نتيجة فشلها في العراق، وأفغانستان، وأجهزت الأزمة المالية -والتي لم تشهدها أمريكا منذ أكثر من ستين عامًا- على طموحها لاستعادة أيّ دور لها في ظل الإدارة الحالية.

وقبل أن تجدد أمريكا طموحاتها بأساليب أخرى على يد إدارة أوباما الجديدة سارعت الدبلوماسية المصرية إلى انتهاز الفرصة، ومحاولة فرض قواعدها الجيوبوليتيكية محليًّا عبر دول الجوار في غزة، والسودان، وإقليميًّا في لبنان، والعراق.

وبذلك يمكن تفسير الإصرار المصري على عقد المصالحات بين الفصائل الفلسطينية لتأمين حدودها الشرقية، وزيارة الرئيس المصري إلى السودان شماله، وجنوبه، وقبلها حرص مصر على الدخول في الأزمة اللبنانية؛ باعتبارها نقطة تقاطع للدور الإيراني في المنطقة فأوفدت مسئوليها، واستقبلت بعض أقطاب الأزمة اللبنانية، ثم موافقتها على فتح سفارتها مجددًا في بغداد؛ لتجنب ترك العراق لقمة سائغة للإيرانيين، فالدور المصري حريص على الوقوف بقوة هذه المرة أمام الطموحات الإقليمية الإيرانية.

ولكن تظل شكوك كبيرة حول استمرارية هذا الدور، سواء على مستوى دول الجوار أو على المستوى الإقليمي، حالما تتمكن الإدارة الأمريكية الجديدة من تولي الأمور مرة أخرى، وتعيد فرض قواعدها الجيوبوليتيكة مجددًا على المنطقة مرة أخرى.



معلومات إضافية

نهاية الحرب الباردة وميلاد جغرافيا سياسية جديدة:

كانت نهاية الحرب الباردة هي بداية لجغرافيا سياسية جديدة. وقد لقي كتاب بول كنيدي «سقوط القوى العظمى» إقبالاً كبيرًا من القراء، ربما لأنه نُشِر في نهاية الثمانينيات عندما بدأت الحرب الباردة بالأفول، وبدأ نظام عالمي جديد بالتشكل.

لقد أتاحت الأزمة الاقتصادية الكبيرة التي مرت بها الولايات المتحدة أواخر الثمانينيات المجال للتنبؤ بقيام قوة عالمية جديدة ناجحة اقتصاديًا وتقنيًا مثل اليابان، ولكن ما بعد الحرب الباردة تمخض عن جيوبولوتيكا معقدة المعالم والأبعاد.

وقد حدثت تحولات عالمية كبرى بين عامي ١٩٨٩ و١٩٩١م، منها انهيار أنظمة الحكم الشيوعية في أوروبا الشرقية والاتحاد السوفييتي، وقيام الوحدة الألمانية، وتفكك الاتحاد السوفييتي، وسعت الولايات المتحدة في بناء نظام عالمي جديد بقيادتها، وتبدى نجاحها في ذلك في حرب الخليج الثانية.

ولكن السنوات التي مرت منذ عام ١٩٩٢م لم تكن كافية لمعرفة كيفية توزيع القوى على الساحة العالمية في الوقت القريب.

ومن الأفكار التي طُرحت في أوائل التسعينيات للجيوبولوتيكا الجديدة، هي عودة روسيا كقوة منافسة للولايات المتحدة، لتستعيد دور الاتحاد السوفييتي، ومنها أيضًا صعود الإسلام كقوة عالمية محتملة، فالعالم الإسلامي يغطي مساحات واسعة من العالم في آسيا وإفريقيا، ويملك موارد هائلة تؤهله للقيام بدور عالمي مؤثر.

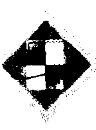
وطرح جون أولوفلن John O Loughlin عشرة بدائل مستقبلية أدرجها وفق احتمال حدوثها، وأهم هذه البدائل:

أن تنفرد الولايات المتحدة كطرف واحد بأمور هذا العالم؛ ولأنها القوة العظمى الوحيدة المتبقية على الساحة اليوم؛ فإنها تتمتع بوضع فريد في معاملاتها مع بقية أجزاء العالم.

أما السيناريو الثاني فقد أطلق عليه أولوفلن مصطلح «عالم ثنائي الأقطاب في ثوب جديد»، وهو حدوث تصدّع في التحالف الغربي بين الولايات المتحدة وأوروبا، كما حدث تصدع في المعسكر الشرقي بين الصين والاتحاد السوفييتي عام ١٩٦٢م، فتصبح أوروبا منافسًا للولايات المتحدة وقطبًا ثانيًا في النظام العالمي.

فلو أن دول شرقي أوروبا وغربيها انضمت تحت لواء الوحدة الأوروبية؛ لظهرت على الساحة كتلة أوروبية عظمى، يضاف إليها إفريقيا والشرق الأوسط والهند. وبهذا يشهد العالم قطبين جديدين: الكتلة الباسيفيكية العظمى، وأوروبا العظمى أيضًا.

ولكن العولمة بتغيراتها الكبيرة، وتحديها للدولة والأقاليم، تفرض البحث في جيوبولوتيكا جديدة تواكب هذه الظاهرة والسياسة العالمية التي تتشكل.



أعلام مرحلة الحتم الجغرافي

من أعلام مرحلة الحتم الجغرافي أرسطو وأفلاطون واسترابون في العصور الوسطى والحديثة، فقد تناول أرسطو في كتابه عن السياسة فكرة الدولة المثالية؛ حيث أوضح أن أهم عنصرين في هذه الدولة هما: السكان، وموارد الثروة، وأن العلاقة بين الاثنتين هي التي تحدد قوة الدولة، كما تحدث عن عاصمة الدولة، وضرورة أن تجمع بين الحصانة والدفاع من ناحية، وخدمة إقليمها من ناحية أخرى، وعالج أرسطو قوة الدولة العسكرية، وكافة وظائف الدولة، كما اهتم بالحدود السياسية.

وقد سيطر الحتم الجغرافي على أفكار الجغرافيا السياسية خلال تلك المرحلة؛ حيث كان يتم تفسير الظوهر الجغرافية السياسية بظاهرات طبيعية، فقد كانت كتابات أرسطو حتمية، ركّز فيها على حتمية تأثير الموقع الجغرافي والفلكي، وما يرتبط بهما من ظروف مناخية تؤثر في السلوك السياسي للإنسان، وتشابهت أفكار أفلاطون مع أرسطو، أما استرابون فقد حدّد بقاء الدولة الإمبراطورية بوجود حكومة مركزية قوية وحاكم قوي.

أما عبد الرحمن بن خلدون -الذي قال عنه الأوروبيون: إنه أول مكتشف لطبيعة البحث الجغرافي وميدانه- فلم يتسم نهجه في الجغرافيا السياسية بالحتم الصارم، وقد أضاف الكثير إلى الفكر الجغرافي السياسي في مقدمته الشهيرة، ويُعتَبر هو واضع الإطار العام الذي عُرف من بعده بدورة حياة الدولة، وتحدث ابن خلدون عن عوامل قيام الدولة وهرمها وسقوطها.

وفي أعقاب عصر النهضة انتعشت الدراسات الجغرافي السياسية في أوروبا، ويمكن أن نلمح ذلك في كتابات بودين ومونتسيكيه، وقد اتسمت كتاباتهما بالحتمية البيئية؛ حيث ذكر بودين أن الظروف المناخية والطبوغرافية للدولة هي التي تحدد ملامح شخصيتها القومية، والتي تؤثر بدورها في التركيب السياسي للدولة، أما مونتسكيه فقد اعتقد بوجود علاقة سببية وثيقة بين المناخ والحرية السياسية والعبودية، واقترح نموذجًا جغرافيًا سياسيًا حتميًا مؤداه أن الديمقراطية والحرية تتزايد بالبعد عن خط الاستواء؛ كنتيجة طبيعية لانخفاض درجة الحرارة بالبعد عنه، وعليه فإن المناخات الدافئة هي قرينة الحكم الاستبدادي، والمناخات الباردة هي قرينة الحرية والعدل، ولم يختلف رايتر عن سابقيه؛ حيث أشار إلى العلاقة بين الحضارة وظروف البيئة الطبيعية.

المصدر:

بيتر تايلور وكولن فانت، الجغرافيا السياسية لعالمنا المعاصر، ترجمة عبد السلام رضوان وإسحق عبيد، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد ٢٨٢، الطبعة الأولى، يونيو ٢٠٠٢م.

الباب الثاني

ملف التقرير

الخليج العربي.. من ملامح الواقع وآفاق المستقبل





الأمن في الحوض الخليجي

د. سامي محمد صالح الدلال

دكتور في العلوم السياسية

ملخص الدراسة

تتعدد مقومات الأمن في الحوض الخليجي، ويأتي على رأسها الأمن السنني، فاستقرار الأمن في الحوض الخليجي ينبغي أن يُنظر إليه من منظار أن سنة الله -تعالى- جرت بتوفير الأمن لعباده؛ لإعطائهم فرصة مطمئنة ومستقرة لإمعان الفكر وإعمال العقل ليحققوا العبادة له وحده لا شريك له، لكن استمرار هذا الأمن لكل أمة مرتبط بمدى تحقيق عبوديتها لله -تعالى- وبإقلاعها عن الشرك.

ورغم أن تحقيق التوازن الاستراتيجي من أبرز مقومات الأمن؛ فإن ميزان القوى بات مختلاً لصالح إيران، الأمر الذي يجب أن تتداركه الدول العربية في الحوض الخليجي بإسراع الخطى لإعادة مؤشر الميزان إلى وضع الاستقرار.

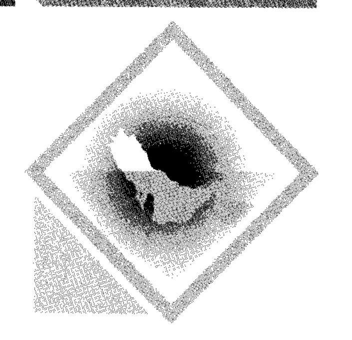
من جانب آخر فإن المتمعن في التركيبة السكانية في دول الحوض الخليجي - ماعدا إيران- سيكتشف بسرعة أنها واقعة في بحر من الإخلالات الخطيرة، وغياب التجانس السكاني؛ ما ينجم عنه أخطار أمنية فادحة، تطيح بالاستقرار المرغوب في هذه الدول، هذا بجانب الوضع الطائفي المحتقن، واتساع الفجوة بين السنة والشيعة في الحوض الخليجي، ويساعد على زيادة خطورة هذا الأمر توتر العلاقات مع إيران.

كما تفتقد دول الحوض الخليجي في هذه الآونة أيضًا إلى الاستقرار الاقتصادي المطلوب لتحقيق الأمن، خاصة بعد أن دخل اقتصاد العالم في مرحلة الركود والكساد، واتجهت أسعار النفط نحو الانخفاض.

إن الناظر المتفحص في وضع الحوض الخليجي يجد أن أمن دُوله العربية يتهددها مخاطر كثيرة، أبرزها اختلال عوامل الأمن الأساسية السابق ذكرها، بجانب احتمالات الحرب التي تدق طبولها بشدة وعنف في منطقة الحوض الخليجي.

ويعتبر الوضع في العراق من مهددات أمن الحوض الخليجي لأسباب واقعية واستراتيجية، هذا بجانب هبوب رياح الاحتقان الطائفي من لبنان وإيران، وبروز مخاوف من انتقال الاحتقان الطائفي السني الشيعي من لبنان إلى دول الخليج، ولعل المخاوف من امتلاك إيران للأسلحة النووية يعد أحد أبرز التهديدات التي تحدق بأمن الحوض الخليجي. ولا يقتصر التهديد على الخطر القادم من إيران، ولكن دولة الكيان اليهودي بدورها تسعى إلى التغلغل في مختلف القطاعات العسكرية والتجارية، والإعلامية والرياضية، في الدول الخليجية.

إن التهديدات المحدقة بدول الخليج تفرض عليها اتباع عدد من المحددات العقدية والاستراتيجية الضرورية لتحقيق الأمن في منطقة الحوض الخليجي، ويأتي على رأسها الالتزام بتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية، والنص على ذلك في جميع الدساتير الخليجية .



الأمن في الحوض الخليجي

د. سامي محمد صالح الدلال

دكتور فى العلوم السياسية

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على إمام المرسلين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد؛ فإننا في هذه الدراسة المقتضبة جدًّا سنتناول الأمن في الحوض الخليجي، طبيعته السُّنَنِيّة، ومقوماته البنيوية، ومهدداته الداخلية والخارجية، ومحدداته العقدية والسياسية والاستراتيجية التي توفر حفظه واستقراره، وذلك وفق عناوين عدة.

مقومات الأمن في الحوض الخليجي

نبرز هاهنا أهم مقومات الأمن في الحوض الخليجي.

١ – الأمن السُّنَنِيّ:

لا شك أن الحافظ للإنسان، سواء كان فردًا أو مجتمعات، هو الله تعالى. قال الله عز وجل: ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ (الأنبياء: ٤٢). وقد جرت سنة الله تعالى بتوفير الأمن لعباده؛ لإعطائهم فرصة مطمئنة ومستقرة لإمعان الفكر وإعمال العقل ليحققوا العبادة له وحده لا شريك له، فهو الذي خلقهم ورزقهم وأسبغ عليهم نِعَمه ظاهرة وباطنة. وقد كان الأنبياء يُبعَثون في أقوامهم وهم يتمتعون بنعمة الأمن، ولا يكدر معيشتهم ما يخيفهم أو يفزعهم، فيطمئنون لذلك ويغفلون عن نزول عذاب الله بهم بسبب شركهم. قال تعالى واصفًا حال ثمود قوم صالح عليه السلام قبل أن يُرْسَل إليهم ﴿ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴾ (الحجر: ٨٢). وقال تعالى: ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴾ (الشعراء: ١٤٦ – ١٤٩)، وقال تعالى عن قوم سبأ واصفًا حالهم وهم يتنعمون في بساتينهم وجناتهم قبل أن يجتاحهم سيل العرم: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴾ (سبأ: ١٨).

وقال تعالى واصفًا حال قريش قبل بعثة النبي -صلى الله عليه وسلم- ﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾ (قريش: ٣-٤). إن استمرار هذا الأمن لكل أمة مرتبط بمدى تحقيق عبوديتها لله تعالى وبإقلاعها عن الشرك. وقد جاء ذلك واضحًا في محاجة قوم إبراهيم عليه السلام له. قال تعالى: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ



﴿ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ (الأنعام : ٨٠ – ٨٢).

فإن لم يتحقق ذلك فلا أمن بل عقاب رباني وفق ما جرت به سنة الله تعالى. قال الله عز وجل: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَـٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ (الأعراف : ٩٧، ٩٩).

إن استقرار الأمن في الحوض الخليجي ينبغي أن يُنظر إليه من هذا المنظار الذي ذكرناه. وإنه من المؤسف أن نسجل الملاحظات التالية على الواقع العقدي والتشريعي في هذا الحوض مما يفقده الأمن ويجعله مهددًا بالمخاطر.

١- إن معظم الدول الخليجية لا تحتكم إلى الشريعة الإسلامية، بل إلى دساتير وضعية تم تلفيقها من قوانين الغرب والشرق. وهو ما اصطلح على تسميته شرك الحاكمية. وقد قال تعالى: ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ (الكهف : ٢٦).

٢- تنتشر في جميع دول الحوض الخليجي البنوك والمؤسسات التي تتعامل بالربا. وهذا يُفقدها الأمن الاقتصادي؛ لقوله تعالى: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ ﴾ (البقرة : ٢٧٦)، وما حل من انهيار اقتصادي عالمي في البنوك والبورصات -وبنوك الخليج العربي وبورصاتها جزء منها- هو تحقيق لنفاذ المعنى السنني لهذه الآية؛ لأن التعامل بالربا مؤداه الإعلان بالحرب من الله ورسوله، ومن يقدر على تحمل ذلك ؟!. قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ (البقرة : ٢٧٨- ٢٧٩).

٣- لقد انتشر الظلم في الحوض الخليجي، ليس على مستوى القوانين والحكومات فحسب، بل قد تلبس به كثير من الأفراد، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فضاعت جُلّ الحقوق، وازدادت مساحات الفقر والمرض والجهل، وانعدمت كثير من القيم الإنسانية أو أوشكت، ومعلوم أن الظلم من أسباب هلاك الأمم. قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَـٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ (الكهف : ٥٩)، وقال تعالى: ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ (الشعراء : ٢٢٧).

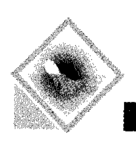
٤- أضحى الانفتاح السياحي والإعلامي محل تنافس في الحوض الخليجي. ويتضمن ذلك افتتاح البارات والملاهي الليلية، والمجمعات الهائلة التي تعجّ بالاختلاط والمسابح المترعة بالتعري، وغير ذلك من الوسائل التي جعلت الملايين من النصارى وسواهم يؤمون معظم بلاد الحوض الخليجي، فيعيشوا فيها الفساد، ويفتنوا العباد، فعمَّ فيها الفسق وانتشر الفجور. ولا شك أن ذلك من أسباب الأخذ الإلهي والتدمير الرباني. قال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ (الإسراء : ١٦).

> تنتشر في جميع دول الحوض الخليجي البنوك والمؤسسات التي تتعامل بالربا، وهذا يفقدها الأمن الاقتصادي؛ لقوله تعالى: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ ﴾ (البقرة : ٢٧٦).

٢ – التوازن الاستراتيجي:

عندما أخل شاه إيران بتوازن القوى في الحوض الخليجي سمحت أمريكا بسقوطه وعاونت على ذلك، غير أن الخميني الذي أطاح به سرعان ما رفع شعارات خطيرة، من أهمها تصدير الثورة الإيرانية، فشجعت أمريكا وقوع الحرب بينه وبين بعث العراق، وشرعت في نفخ كيرها حتى استمرت حوالي ثماني سنوات، دُمّر خلالها البلدان وخرجا بلا غالب ولا مغلوب. وبشكل خفي أعطت أمريكا الضوء الأخضر لاحتلال الكويت فتم ذلك عام ١٩٩٠م، واستباح البعث خضراءها، ثم جاءت أمريكا وجيوش التحالف من كل مكان، فأخرجوا صدامًا المعتدي من الكويت عام ١٩٩١م، غير أن ميزان القوى اختل بعد ذلك لصالح إيران، فكانت حرب احتلال العراق عام ٢٠٠٣م، ولا تزال الجيوش الصليبية محتلة لذلك البلد المسلم.

خلال السنوات الماضية طوّرت إيران أبحاثها النووية، ومدت نفوذها السياسي ليتغلغل في دوائر اتخاذ القرار



في بعض الدول الخليجية، وأصبحت تمارس الضغوط على دول الخليج ليقفوا في صفها في المواقف التي تراها، وسارعت في إعادة تسليح جيشها وحرسها الثوري، وشرعت في تهديد خطوط الملاحة الخليجية، وتهديد إمدادات النفط الخليجي لدول العالم، في حين يستمر إنهاك القوات الأمريكية وحلفائها في العراق، وبات ميزان القوى الاستراتيجي في الحوض الخليجي مختلاً لصالح إيران، خاصة مع وجود جاليات مؤثرة من الشيعة تصطفّ مع منحاها في بعض دول الخليج، وخاصة في البحرين والكويت والسعودية.

إن المطلوب من الدول العربية في الحوض الخليجي أن تغذ السير وتُسرع الخطى لإعادة مؤشر الميزان إلى وضع الاستقرار، وهذا من أبرز مقومات الأمن في هذا الحوض. ولكن مما يؤسف له أن تفاوت القوى بين دول المنطقة من جهة وبين إيران من جهة أخرى هو في حالة اتساع الزاوية لصالح إيران. وبهذا الاعتبار فإن دولاً أخرى قد تتدخل في المنطقة منطلقة من تلك الزاوية التي ذكرناها. ولما كان الأمر متسابقًا مع الزمن فإن احتمالاً كبيرًا أن تندلع الحرب في الحوض الخليجي، ثم تمتد إلى بعض دول الشرق الأوسط مثل سوريا ولبنان؛ حيث إن دولة الكيان اليهودي وحلف الناتو يرون أن الملف النووي الإيراني سيُسقط منطقة الحوض الخليجي في كامل النفوذ الإيراني، ويجعل إيران متحكمة في شرايين إمدادات النفط الخليجي، ويجعلها متوازنة استراتيجيًّا على المستوى الذري مع دولة الكيان اليهودي، وهذا مرفوض يهوديًّا ونصرانيًّا على حد سواء. وبناء على ذلك فإن وقوع هذه الحرب لتدمير المفاعلات الذرية الإيرانية (وربما البنية التحتية كذلك) بات شديد الاحتمال.

٣ - التركيبة السكانية:

إن المتمعن في التركيبة السكانية في دول الحوض الخليجي - ماعدا إيران - سيكتشف بسرعة أنها واقعة في بحر من الإخلالات الخطيرة التي تقضُّ مضاجع الأمن، وتورثه الهلع والفزع. ففي دولة الإمارات العربية ومن بين ٤ ملايين و١٠٦,٤٢٧ نسمة يمثلون إجمالي السكان، فإن عدد المواطنين لا يزيد عن ٨٢٥,٩٤٥ نسمة، مقابل ٣ ملايين و٢٨٠,٩٣٢ نسمة من الوافدين، أي أن عدد المواطنين يشكلون ٢٠,١٪ فقط من مجمل السكان. وفي دولة قطر فإن مجموع القوى العاملة من الوافدين تبلغ ٨٤٨,٣٨٣ نسمة، مقابل ١٢٨,٦٠٨ نسمة من المواطنين. وفي السعودية التي يبلغ مجمل عدد سكانها حوالي ٢٣ مليونًا، فإن عدد العمال الوافدين يبلغ حوالي ٦ ملايين ونيفًا. وفي البحرين التي يبلغ عدد سكانها مليونًا و٤٦,١١٤ نسمة؛ فإن منهم ٥١٧,٣٦٨ نسمة من الوافدين، وفي الكويت حيث يبلغ عدد سكانها حوالي ٤ ملايين نسمة، فإن منهم حوالي ٢ مليون و٧٥٠ ألفًا من الوافدين.

أما في عمان؛ فإن نسبة هذا الخلل في التركيبة السكانية أقل بكثير من مثيلاتها في باقي دول الخليج. أما العراق، وهي من دول الحوض الخليجي، فإن خللاً كبيرًا طرأ على تركيبتها السكانية، وخاصة في الجنوب، بسبب الهجرات الجماعية الإيرانية إليها. ولا تتوفر الآن إحصاءات تبين مقدارها [(١)].

إن هذه التركيبة غير المتجانسة للسكان في الدول العربية المطلة على الحوض الخليجي تنجم عنها أخطار أمنية فادحة، تطيح بالاستقرار المرغوب في هذه الدول، من أهمها ما يلي:

١- تشكل بعض الجاليات من هذه العمالة الوافدة أخطارًا على الوضع الأمني، من مثل المظاهرات التي قام بها عشرات الألوف من البنغاليين في الكويت، بسبب عدم حصولهم على حقوقهم المالية، وكذلك الهنود في البحرين والإمارات.

٢- تستخدم بعض هذه الجاليات للتأثير على القرارات السياسية في دول الخليج؛ وذلك لثقلها في التأثير على المسيرة الحياتية المعيشية في تلك البلاد.

٣- تشكل بعض تلك الجاليات هواجس تختص

(١) الأرقام المذكورة أعلاه نشرتها : Le Mond Diplomatique في نسختها العربية ٢٠٠٨م عدد (٩).



بإحداث قلاقل سياسية، بسبب ما تشكّله أعدادها من ثقل في التركيبة السكانية، فمثلاً: يبلغ عدد الإيرانيين في دولة الإمارات حوالي ٤٥٠ ألفًا، كما جاء في بعض الإحصاءات.

٤- إن معظم العمالة الوافدة هي عمالة استهلاكية، وليست عمالة منتجة، وبالتالي فإنها تشكل عبئًا اقتصاديًا على دول الخليج، كما أن ما تحصله من أموال يحول معظمه للخارج، ولا يُنفق في داخل البلاد التي تقطنها، فبحسب إحصاءات عام ٢٠٠٧م فإن مجموع التحويلات الصادرة من العمالة الوافدة بلغ ٤٠ مليار دولار، حيث بلغت تحويلات العاملين في المملكة العربية السعودية (١٥,٦ مليارًا) وفي الإمارات العربية المتحدة (٨٠ مليارًا) وقطر (٤,١ مليارًا) في المقدمة.[٢]

٥- إن كثيرًا من العمالة الوافدة، وخاصة التي من الهند ومن دول جنوب شرق آسيا هم من النصارى أو البوذيين أو البهرة أو الهندوس، وكثير منهم يمارسون أعمال الخدمة في داخل المنازل، ويشرفون على تربية أولاد المسلمين، وقد أحدث هذا الأمر خللاً كبيرًا في نصاعة الانتماء العقدي لدى المسلمين، وخاصة لدى النشء، وهي قضية في غاية الخطورة.

٦- أوجدت بعض العمالة الوافدة كيانات خاصة بها في داخل الدول الخليجية؛ بغرض إعطائها قوة مؤثرة في جميع الجوانب، سواء سياسيًا أو اقتصاديًا أو اجتماعيًا أو أمنيًا، ومثال على ذلك «جمعية حماية العمال الوافدين» في البحرين.

٧- أدى وجود هذا الكم من الوافدين، وخاصة من أهل الانتماءات العقدية الشركية، إلى إحداث خلل أخلاقي كبير في المجتمعات الخليجية، حيث أشاعوا الدعارة وشرب الخمر والمخدرات والسفور، وغيرها من الموبقات، مما أحدث عبئًا أمنيًا كبيرًا على المسئولين عن الأمن الاجتماعي، وكذلك أعدوا أماكن موبوءة، (شقق مفروشة مثلاً) لممارسة الرذيلة والأعمال الفاضحة، فسربوا سافل الموبوءات وشنيع الممارسات إلى الشباب العربي المسلم، سواء من السكان الأصليين أو الوافدين، وقد ساعد على ذلك أن معظم هذه العمالة الوافدة هم من العزاب والعازبات.

٨- لا تكتفي بعض الجاليات غير الإسلامية في دول الخليج العربية بممارسات طقوسهم الشركية بحرية مطلقة، بل تمارس أيضًا الترويج والدعاية المعلنة لشركياتها، وخاصة أعمال التنصير؛ إذ يستغلون معابدهم وكنائسهم كمظلات يتحركون تحت ظلالها للوصول إلى مآربهم. والمقام لا يتسع هنا لسرد أمثال هذه الأنشطة المخربة للعقول والقلوب والأخلاق.

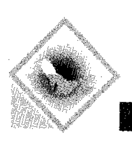
٤ – الوضع الطائفي

لا شك أن من أهم ما يكرّس الأمن الداخلي هو التجانس في الفهم العقدي بين المسلمين. ومعلوم أن هذا التجانس ليس على حالته المطلوبة بسبب مداومة اتساع الفجوة بين السنة والشيعة. إن الحوض الخليجي هو حوض سني في الجملة، ماعدا إيران حيث يبلغ السُّنة فيها حوالي ٣٠٪ إلى ٣٥٪ (وفي بعض الإحصاءات أكثر من ذلك)، وماعدا العراق حيث يبلغ السنة فيها حوالي ٥٠ إلى ٥٥٪، وكذا البحرين حيث يبلغ عدد السنة فيها حوالي ٤٠٪ (بحسب تقديرات سابقة)، أما عمان فيهيمن عليها المذهب الإباضي.

ومن المعلوم أنه لم يكن ثمة احتقان طائفي ظاهر بين السنة والشيعة الاثني عشرية قبل قيام الثورة الإيرانية الخمينية عام ١٩٧٨م، والتي ما إن سيطرت على السلطة في إيران حتى رفعت شعار تصدير الثورة، فتلقفت ذلك مختلف فئات الشيعة في دول الخليج، وراحت تتحرك من خلال ضغوط سياسية تمارسها على حكوماتها؛ مستفيدة من الدعم السياسي الإيراني المعلن، ومن مختلف أنواع المساندات الدعوية والاقتصادية الشيعية التي تقدمها لها إيران. ولقد رفع من الروح المعنوية لشيعة الخليج أنهم باتوا يحكمون عددًا من الدول الإسلامية والعربية؛ حيث إن العراق وسوريا تحت الحكم الشيعي.

وإلى الآن فإن كلاً من السنة والشيعة في الدول الخليجية يتجنبان الاحتكاك الساخن فيما بينهما؛ تغليبًا

(٢) المصدر السابق.



للمصلحة العامة، إلا إن الشيعة في البحرين يقدحون الشرارة أحيانًا، لكن سرعان ما يسارع الحكماء إلى إطفائها قبل أن تؤدي إلى حريق هائل يستعصي على الإطفاء، خاصة وأن كثيرًا من المواقع على الشبكة العنكبوتية (الإنترنت)، وكذا القنوات الفضائية تساهم في صب الزيت على النار؛ لأن كثيرًا من تلك المواقع والمحطات تتخذ منبرًا لسب صحابة النبي -صلى الله عليه وسلم- وخاصة أبي بكر وعمر -رضي الله عنهما-، والقدح في أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- وليس ذلك مقبولاً لدى أهل السنة بحال من الأحوال، ولا يمكن السكوت عليه، فضلاً عن الخلاف معهم في الأصول قبل الفروع.

كل ذلك يجعل التحرك الدعوي الشيعي مزعزعًا ومزلزلاً للأمن في الحوض الخليجي. ولا بد من الإشارة إلى أن الشيعة في الدول العربية المطلة على الخليج العربي ينقسمون من حيث الأصول إلى قسمين: عرب وعجم، أي إيرانيون، وهؤلاء هم الذين يشكّلون رأس الرمح الإيراني في تلك الدول، فولاؤهم لإيران قلبًا وقالبًا. وأما الشيعة العرب فليس لديهم ميل قلبي شديد لإيران، لكنهم يستفيدون منها في هذه المرحلة؛ حيث يجمعهم الطريق والأصول العقدية .

٥ - الاستقرار الاقتصادي

إنه أحد عوامل الأمن في الحوض الخليجي. وفي الواقع ليس هناك استقرار اقتصادي، مما سبَّب هوة هائلة بين الأغنياء -وعددهم ليس كبيرًا- وبين متوسطي الدخل والفقراء، وهؤلاء هم الغالبية العظمى. إن الشعوب الخليجية جمعاء لا ترى أثرًا حقيقيًّا لثروتها النفطية على أوضاعها الاقتصادية؛ إذ إن أكثر الخليجيين مسحوقون تحت وطأة القروض للبنوك الربوية، وأغلب هذه القروض متعلقة بتوفير المسكن أو السيارة أو الأثاث.

إن ضعف الموارد الاقتصادية لهذه الشعوب أصبحت آثاره ظاهرة في عدم القدرة على تلبية الاحتياجات التعليمية والصحية والخدماتية التي من المفروض أن تضطلع بها الحكومات. ونظرًا لأن دول الخليج هي من أكثر الدول ثراء نفطيًّا والأموال المتدفقة عليها في كل دقيقة تعد بالمليارات، فإن الحسرة الشديدة تجتاح فؤاد كل فرد خليجي واقع تحت ثقل الأزمات التي ذكرتها، ولا يستطيع أن يعبر عن حسرته تلك إلا بضرب كف بكف !! وخاصة عندما يقرأ أن عائدات النفط المقدرة لدول الخليج لعام ٢٠٠٨م هي حوالي ٦٠٠ مليار دولار، وهي قيمة تصدير حوالي ١٦ مليون برميل يوميًّا [٣] .

مثال : عائدات النفط في المملكة العربية السعودية ارتفعت من ٦٠ مليار دولار عام ٢٠٠٠م إلى ١٥٢ مليار دولار عام ٢٠٠٧م. [٤]، كما أن الإنتاج النفطي في ازدياد وليس في تناقص، كما هو موضح في الجدول التالي [٥] :

مليون برميل يوميًّا		
الدولة	إنتاج ٢٠٠١م	إنتاج ٢٠٢٥م (المتوقع)
السعودية	١٠,٢	٢٢,٥
إيران	٣,٧	٤,٩
العراق	٢,٨	٦,٦
الإمارات العربية	٢,٧	٥,٢
الكويت	٢,٤	٥,٠
قطر	٠,٦	٠,٨

كما أن احتياطيات النفط الهائلة في هذا الحوض الخليجي تجعله محط الابتزاز العسكري الصليبي، كما هو حاصل الآن؛ حيث إن هذا الحوض مملوء بالجيوش الصليبية برًّا وبحرًا وجوًّا .

وقد صدق فينا حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها ..» الحديث [٦].

(٣) مجلة المجتمع ٢٠٠٨/٨/١٦م عن تقرير اقتصادي مَغْنِيّ بالنفط.
(٤) مجلة نيوزويك ٢٠٠١/١١/٦م.
(٥) نشرة إدارة معلومات الطاقة، أبريل ٢٠٠٤م، عن كتاب: «حروب البترول الصليبية، عبد الحي يحيى زلوم، ص ١٨ .
(٦) رواه أحمد في المسند ٢٥٩/١٦ ح رقم ٢٢٢٩٦، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٦٨٣/٢ ح رقم ٩٥٨.



إن هذا الاحتلال إما أنه احتلال صريح كما في العراق، أو مقنَّع كما هو في بعض الدول الأخرى. إن دول حلف الناتو -وفي مقدمتهم الولايات المتحدة - يسيل لعابها من الأرقام المهولة لاحتياطيات النفط في الحوض الخليجي. فاحتياطيات نفط العراق تصل إلى ١١٢ مليار برميل، وفي السعودية تصل إلى ٢٦١ مليار برميل، مقابل ٢٢ مليار برميل فقط في الولايات المتحدة. وقد لجأ عدد كبير جدًا من مواطني الخليج إلى التعامل في البورصات أملًا بتحسن مدخولاتهم النقدية، ولكنهم أصيبوا بخيبة أمل عظيمة عندما تبخرت جميع أموالهم التي استقطعوها من قُوت عائلاتهم مع الأزمة المالية العالمية التي أطاحت بالبنوك والبورصات وشركات الأموال، وقادت العالم إلى كساد اقتصادي مخيف؛ حيث دفع العالم أجمع ثمنًا باهظًا للتعامل الربوي، وصدق الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ (البقرة : ٢٧٦).

إن الحكومات في الحوض الخليجي لم تنتفع من التدفقات النقدية الهائلة التي صاحبت ارتفاع أسعار البترول -حين بلغ حوالي ١٤٧ دولارًا للبرميل- في البناء التنموي والتعزيز الاقتصادي، بل تم استثمار معظمها في أمريكا والدول الغربية، وكانت النتيجة أن تبخرت معظم تلك الأموال المدخرة على مدى سنين في أسبوع واحد فقط، فقد انخفضت قيمة الاستثمارات الكويتية في بضعة أيام إلى ٧٥ مليار دولار بعد أن كانت ٣٠٠ مليار دولار، أي خسرت ٧٥٪ من قيمتها دفعة واحدة !! (هذا مثال، وعليه تقاس باقي دول الخليج).

إن مجلس التعاون الخليجي فشل -بعد حوالي ٢٥ عامًا من تأسيسه- في انتشال دوله من الأزمات الاقتصادية المتلاحقة التي عصفت بشعوبه، فهو إلى الآن لم يتمكن من توحيد عملته، ولا من تيسير تنقلات أفراده بين دوله، ولم يفلح في إيجاد توازن عسكري مع إيران للحفاظ على كينونته واقتصاده، وأصبح البترول عبئًا أمنيًا عليه بدلاً من كونه رافدًا لقوته، وتعزيزًا لاستقلال قراراته. إن على دول الحوض الخليجي المحافظة على أموالها ولا تخضع للضغوط الأمريكية التي تطلب منها مليارات الدولارات لانتشالها من ركستها الاقتصادية، كما عنونت لذلك «نيويورك تايمز» لمقال لها قالت فيه: إن «دول الخليج تكتنز الأموال ولا تنقذ أمريكا». وسؤالنا : من يستطيع من الدول إنقاذ أمريكا بعد أن بلغ عجز ميزانيتها في ٢٠٠٨م حوالي ٤٥٠ مليار دولار، ومن المتوقع بلوغه ٧٥٠ مليار عام ٢٠٠٩م، وبلغ العجز التجاري ٦٥ مليار دولار، وبعد بلوغ الديون المستحقة عليها حتى ٢٠٠٨/١٠/١٢م ١٠,٢٧٤ تريليون دولار (أي حوالي عشرة آلاف مليار دولار !!).

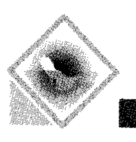
إننا نخشى حقيقة أن تستغل الولايات المتحدة قوتها العسكرية، سواء التي في الخليج، أو خارج الخليج لتضع يدها على النفط الخليجي من خلال سيناريو حرب يخطط لها الآن في دهاليز الذين يتخذون القرارات الخطيرة، سواء من جهة دولة الكيان اليهودي أو من جهة دهاقنة البيت الأبيض، أو كلاهما معًا وهو المتوقع!! وقد يحظى هذا التصرف الأهوج بمباركة من قِبَل كثير من دول العالم؛ باعتبار أن ذلك التصرف ربما يخفّف عنها حجم الأضرار التي حلّت بها، والتي بلغت خسائر بورصاتها حتى ٢٠ أكتوبر ٢٠٠٨م حوالي ٢٥ ألف مليار دولار منذ مطلع عام ٢٠٠٨م؛ حيث إن اقتصادها معلق بالاقتصاد الأمريكي.

وبناء على ما ذكرنا فإن دول الحوض الخليجي لا تتمتع الآن بأي استقرار اقتصادي، وخاصة بعد أن دخل اقتصاد العالم في مرحلة الركود والكساد، واتجهت أسعار النفط نحو الانخفاض [(٧)].

٦ - توتر العلاقات مع إيران

من الطبيعي أن تسير العلاقات بين الدول العربية الخليجية وإيران على خط حبل مشدود؛ وذلك بسبب احتلالها لجزر الإمارات الثلاث، ولتشييدها مفاعلاً نوويًا في بوشهر، ولدعمها السياسي للشيعة معنويًا وماديًا، ولتدخلها المباشر في جنوب العراق، ولتهديدها بإغلاق مضيق هرمز، وضرب المنشآت الحيوية في دول الخليج إذا اندلعت الحرب مع أمريكا، ولتسلل

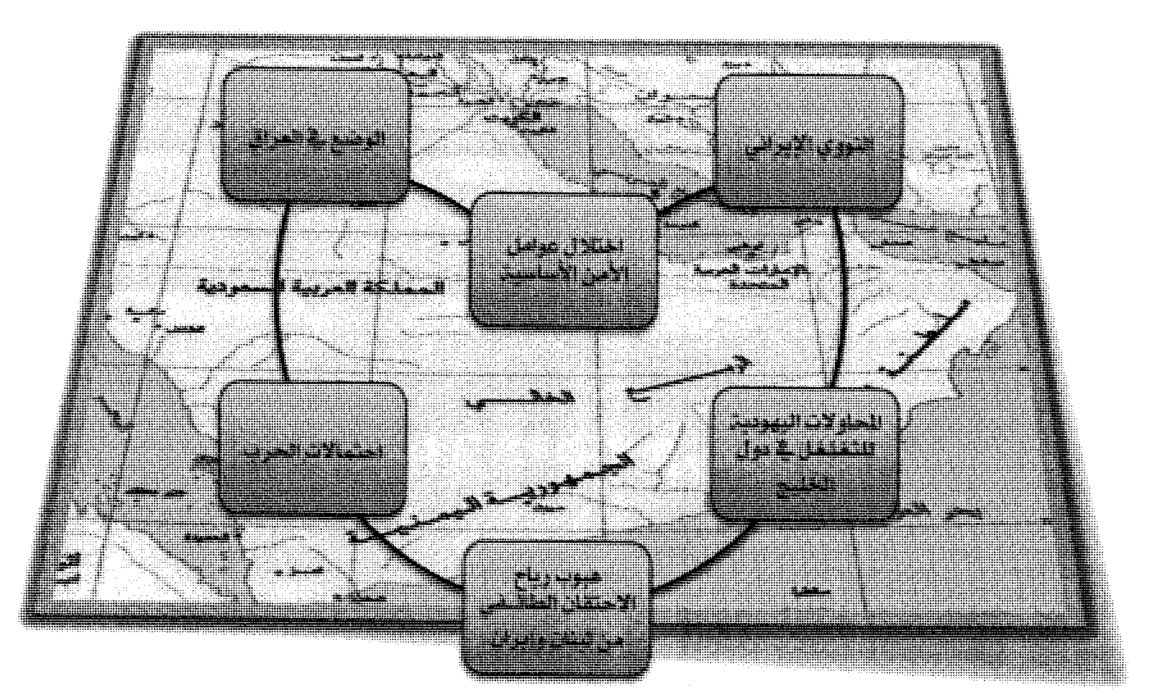
(٧) بلغ سعر النفط عند كتابة هذه الدراسة في أكتوبر ٢٠٠٨م حوالي ٧٠ دولارًا، مسجلة انخفاضًا يعادل ٥٠٪ من سعره قبل حوالي شهر.



أعـداد من الحـرس الثوري إلى أراضي الـدول الخليجية عـن طريق التهريـب، ولأمور أخرى. غـير أن حكومات دول الخليـج تقابـل كل ذلـك بسياسـة تهدئـة الأمور، وعدم توتير الأجواء، ومد الجسـور الخضراء؛ بغية تلافي الاحتكاكات مع الحكومة الإيرانية لتوفير أكبر قدر من الأمن في الحوض الخليجي.

وقد أخبرت حكومـات دول مجلس التعاون الخليجي حكومة إيران بأنها لن تسـمح بشن القوات الأمريكية هجومًا عليها انطلاقًا مـن أراضيها، ولكن الحكومة الإيرانية لم تقابل ذلك بالمثل، فقد بادرت بإنشاء مكتبين تابعين للبحرية الإيرانية في جزيرة أبي موسـى، أحدهما للإنقاذ البحري والثاني للسـفن، وهذا مناقض لما سـبق التوقيع والاتفاق عليه مع إمارة الشـارقة عام ١٩٧١م بعد ممارسة السيادة الإيرانية على جزيرة أبي موسى.

إن المواقـف الإيرانيـة الـتي أشـرت إليهـا دفعت دول مجلس التعاون الخليجي إلى تعزيز قواها المسـلحة بعقد صفقـات السـلاح مـع مختلـف الـدول، وكان آخرها اعتزام البنتاجون بيع دولة الإمارات نظامًا دفاعيًّا مضادًّا للصواريخ من الجيل الأحدث بقيمة ٦,٩٥ مليار دولار [٨]، هذا فضلاً عن زيادة دعم قواتها المرابطة في قواعد ثابتة في بعض الدول الخليجية مثل الكويت وقطر والإمارات وعمـان؛ حيـث توفـر هـذه القواعـد حمايـة أمريكية مباشـرة لتلـك الدول، مما يجعـل الحكومـة الإيرانية تحسـب حسـابات كثيرة ومعقدة قبل الإقـدام على أيّ عمل عسكري ضدها.



أبرز المخاطر التي تتهدد الأمن في الحوض الخليجي

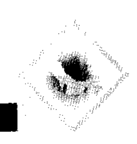
تهديدات الأمن في الحوض الخليجي:

يتهـدد الأمـن في الحـوض الخليجي مخاطـر كثيرة أبرزها ما يلي:

أولاً: اختلال عوامل الأمن الأساسية:

وهي العوامل السـتة التي ذكرتها سابقًا؛ إذ إن الخلل الجسـيم واقع فيهـا كلها، ذلك أن جميـع دول الخليج لم تكترث بالضابط الشـامل للأمن السنني، فمعظمها

(٨) الوطن الكويتية، ١٤ رمضان ١٤٢٩هـ، الموافق ١٤ سبتمبر ٢٠٠٨م.



أخلت بمكوناته جميعًا دفعة واحدة، وبعضها الآخر أخلت بمعظمها. إن عدم الانضباط بتلك العوامل يجعل الانفلات الأمني من طبيعة مكونات الحركة اليومية للمجتمعات الخليجية، مما يجعلها على مدار الساعة حاملة لأخطار الحتّ الذاتي أو العقوبة الربانية الكاسحة، لذلك فإنني هنا أرفع هذا التحذير الخطير لكل حكومات الحوض الخليجي بأن تلتزم شرع ربها قولاً وعملاً قبل أن يحل بها ما حل بالأمم الأخرى، سواء ما كان سابقًا أو مما نراه يوميًّا في أيامنا الحاضرة في مختلف أصقاع العالم. هذا بالنسبة للأمن السنني، أما العوامل الباقية فهي منتهكة انتهاكات صارخة تزعزع الأمن الخليجي من قواعده.

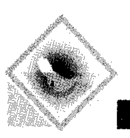
ثانيًا: احتمالات الحرب:

إن طبول الحرب تدق بشدة وعنف في منطقة الحوض الخليجي، وأسباب ذلك هي التسابق على بسط النفوذ عليها، بين كل من إيران من جهة، والولايات المتحدة من جهة أخرى، وكذلك التسابق على التفوق العسكري المطلق بين كل من إيران من جهة، ودولة الكيان اليهودي من جهة أخرى، ولكلٍّ منطلقات وأهداف خاصة به.

أما إيران فإن منطلقها عقدي، ربطته بخروج المهدي، ولها جوانب دعوية تتعلق بنشر المذهب الشيعي، وأهدافها البعيدة تتمثل بتمكين الشيعة من الاستيلاء على بعض أنظمة الحكم في دول الخليج، وخاصة البحرين والكويت، وإقامة دولة مستقلة للشيعة في المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية، تمهيدًا لإقامة إمبراطورية شيعية لها امتداد على كامل الساحل الغربي للخليج العربي، بما فيه المطل عليه من جهة جنوب العراق. وستكون هذه الإمبراطورية من أغنى دول العالم؛ لكونها ستكون مالكة لمعظم احتياطي النفط في العالم ومتحكمة فيه، ولأجل ذلك فإن إيران في سباق مع الزمن لإتمام إنشاء مفاعلاتها النووية بقصد الحصول الذاتي على السلاح الذري (وإن كانت تعلن ليل نهار أن قصدها الاستخدامات السلمية للطاقة النووية)، ولتدعيم مختلف أنواع أسلحتها الصاروخية بعيدة المدى: البرية، والبحرية، والجوية، وتقوم قياداتها السياسية والدينية بإرسال تهديداتها المباشرة والمبطنة إلى الحكومات الخليجية وأمريكا ودولة الكيان اليهودي، وتضرب بعرض الحائط العقوبات الدولية المفروضة عليها، وتتجاهل الأمم المتحدة، ولا تلقي بالاً لتقارير الوكالة الدولية للطاقة الذرية، وتقوم بإجراء المناورات الشاملة لقواتها المسلحة وللحرس الثوري، كما أنها توالي تزويد حزب الله اللبناني بالأسلحة، والتدريب المكثف على استعمالها، وتنسق سياسيًّا وعسكريًّا مع سوريا، وتسرب رجال حرسها الثوري إلى داخل دول الخليج، وتجوب قواربها المسلحة بالصواريخ (وأعدادها بالمئات) مياه الخليج شماله وجنوبه، بما في ذلك مضيق هرمز، وباختصار فإنها تستعد للحرب على أساس وقوعها في أية لحظة.

أما أمريكا فإنها تعتبر الحوض الخليجي من الجانب العربي واقعًا تحت نفوذها المطلق، ولن تسمح لأحد كائنًا من كان أن يهدد هذا النفوذ، أو يفكر في الحد منه أو إضعافه، وتعتبر الحوض الخليجي مركز العالم الاستراتيجي؛ بسبب مخزونه الهائل من النفط، ولكون الخليج العربي هو ممره إلى مختلف بقاع العالم، وأن أي تهديد له هو تهديد للمصالح الحيوية للولايات المتحدة، كما جاء ذلك على لسان الرئيس الأمريكي السابق نيكسون في كتابه «انتهزوا اللحظة».

إن الولايات المتحدة تعتقد أنها تمسك برقبة العالم من خلال سيطرتها على الخليج العربي، فإمدادات النفط لليابان ودول جنوب شرق آسيا وأوروبا تتحكم بها الولايات المتحدة من هذا الخليج، ولهذا السبب فإنها حشدت أساطيلها، واستنفرت مختلف قواعدها الجوية في أنحاء العالم استعدادًا لمحق أيّ تهديد لهذه المصالح من قبل إيران. ومن اللافت للموضوع أن المحافظين الجدد، وخاصة بوش، لهم نظرة دينية في هذه القضية تتعلق بظهور المسيح بعد الحرب مع إيران، تمامًا كما يعتقد أحمدي نجاد – الرئيس الإيراني – أن المهدي



سيظهر بعد هذه الحرب، وهذه مفارقة لاهوتية جديرة بالاهتمام !!

بناء على ما ذكرته؛ فإن أمريكا تستعد للحرب حقًا في منطقة الخليج [9] ولعلها قد خططت بالفعل للإجهاز على البنية التحتية الإيرانية، متحججة بالقضاء على المنشآت النووية الإيرانية التي تهدد نفوذها في الحوض الخليجي، بل والعراق أيضًا. وقد يعتقد البعض أن الانهيار المالي العالمي قد صرف الولايات المتحدة عن هذا التوجه؛ لأن الحرب لها كلفتها الاقتصادية الهائلة. وهذا صحيح في الجملة، لكن الضغوط اليهودية في داخل الدهاليز الأمريكية، والتي تجد لها تجاوبًا إيجابيًا من بوش والمحافظين الجدد، قد تدفع بالولايات المتحدة لخوض هذه الحرب بصيغة تفيد أنها مكرهة على دخولها، وذلك من خلال إشعالها بواسطة دولة الكيان اليهودي فتهب أمريكا لنجدتها تفعيلاً لمعاهدة الدفاع الاستراتيجي الموقعة بينهما.

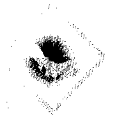
أما دولة الكيان اليهودي، فإنها ترى أن تمكُّن إيران من بسط نفوذها على الحوض الخليجي هو تهديد مباشر لها، وأن حصولها على السلاح النووي يخل بمعادلة التوازن في المنطقة لصالحها. وهذا يعني أن جميع المدن في دولة الكيان اليهودي ستكون تحت متناول أسلحتها، سواء المباشرة عن طريق الصواريخ الإيرانية بعيدة المدى، أو عن طريق الوكالة بواسطة حزب الله اللبناني أو سوريا. ولذلك فلا مناص لها من إجهاض التوجه النووي الإيراني؛ لتبقى كلمة الدولة اليهودية هي المتحكمة في منطقة الشرق الأوسط كله، وليس مجرد الحوض الخليجي. وبناء على ذلك فإن القيادة السياسية والعسكرية في دولة الكيان اليهودي ترى أن ضرب المنشآت النووية الإيرانية غير قابل للتأجيل، ولا بد من وقوعه قبل أن تتبدل الرئاسة في الولايات المتحدة في شهر يناير ٢٠٠٩م، مستفيدة من كونها ضامنة أن الرئاسة الأمريكية والمحافظين الجدد يؤيدونها في مسعاها الحالي، في حين أنها غير ضامنة لذلك بعد استلام الديمقراطيين الرئاسة. ضمن هذا التصور فإن دولة الكيان اليهودي استعدت للحرب من خلال قيامها بمناورات شاملة لكل القطاعات المدنية والعسكرية في أبريل ٢٠٠٨م، ومن خلال تزودها بنظام راداري أمريكي متطور T-FBX ومرفقاته؛ حيث قامت بنقله أكثر من ١٢ طائرة في ٢٠٠٨/٩/٢١م يرافقها ١٢٠ خبيرًا.

وذكرت صحيفة جيرو زاليم بوست اليهودية أن هذا الرادار الذي يمكنه رصد جسم بحجم كرة البيسبول من مسافة ٤٧٠٠ كلم سيسمح للصاروخ «آرو» اليهودي الصنع أن يعترض صاروخ «شهاب - ٣» الباليستي الإيراني في منتصف المسافة بعد إطلاقه من إيران بـ ١١ دقيقة، وكذلك وافق البنتاجون على تزويد دولة الكيان اليهودي بـ ٧٥ طائرة مقاتلة من طراز F 35، وهي أحدث المقاتلات الأمريكية على الإطلاق بقيمة إجمالية بلغت ١٥,٢ مليار دولار، كما أبلغت وزارة الدفاع الأمريكية الكونجرس بمشروع بيع الدولة اليهودية ألف قنبلة من طراز جي بي يو - ٣٩، وسلسلة من التجهيزات العسكرية بقيمة إجمالية تصل إلى ٧٧ مليون دولار.

> القيادة السياسية والعسكرية في دولة الكيان اليهودي ترى أن ضرب المنشآت النووية الإيرانية غير قابل للتأجيل، ولا بد من وقوعه قبل أن تتبدل الرئاسة في الولايات المتحدة في شهر يناير ٢٠٠٩م.

وجميع هذه الصفقات معلنة نشرت تفاصيلها مختلف الصحف في العالم. ورغم هذه الصفقات الأمريكية لدولة الكيان اليهودي والخاصة بالوضع الاستراتيجي مع إيران؛ فإن الأخبار تتالت عن مزاولة أمريكا لضغوط منوعة عليها لمنعها من شن هجوم على إيران في الفترة المتبقية من عهد بوش، وقد يحصل ذلك أو لا يحصل، ولكن في كل الأحوال فإن دولة الكيان اليهودي لن تنتظر حتى تعلن إيران عن ولادة أول قنبلة نووية إيرانية، بل هي بالتأكيد ستقوم بما تعتقد أنه سيجهض هذه الأمنية الإيرانية قبل تحققها. إضافة إلى ذلك فإن المترسخ في الذهن اليهودي أن بناء الهيكل والذي سيكون على

(٩) رغم التوجه لافتتاح مكتب متابعة لمصالحها في طهران.



أنقاض هدم المسجد الأقصى مرتبط بحرب قبل ذلك، وأنه سيحدث (أي هدم المسجد الأقصى) أثناءها أو بعدها، وهذا هو الجانب اللاهوتي في المسألة.

وهكذا تبين لنا أن كلاً من إيران والولايات المتحدة ودولة الكيان اليهودي يسعون لإشعال هذه الحرب من منظور لاهوتي واستراتيجي يخص كلاً منهم على حدة، فهي حرب عجيبة يتفق الجميع أن مصلحته لا تتم إلا بإضرامها !!

ولكن إذا قامت الحرب فعلاً؛ فإن نتائج خطيرة ستترتب على ذلك، سواء أثناء الحرب أو بعد أن تضع أوزارها. وربما أشير هنا بسرعة إلى بعض تلك النتائج:

١- ستحاول أمريكا ودولة الكيان اليهودي تدمير كامل البنية التحتية الإيرانية وتدمير الحرس الثوري ومنشآته، وتمكين الجيش من الاستيلاء على الحكم أو تدميره إن لم يحقق هذا الهدف وهو إسقاط النظام الإيراني الحاكم.

٢- ستشن إيران هجمات مضادة واسعة باستخدام الصواريخ لتدمير قطع الأسطول الأمريكي في الخليج، وربما ضرب المنشآت النفطية في بعض دوله أو تتوسع لضرب المنشآت المدنية الأساسية كمحطات الكهرباء والمياه.

٣- ستشن إيران هجمات صاروخية مكثفة على دولة الكيان اليهودي، وستطلب من حزب الله في لبنان أن يساعدها في هذه المهمة، وإذا حصل ذلك فستقوم دولة الكيان اليهودي بقصف لبنان بشكل واسع وستدمر بنيته التحتية بالكامل، وربما أدى ذلك إلى اشتعال حرب أهلية فيه.

٤ - في الأغلب لن تكون سوريا في منجى من هذه الحرب.

٥ - ستقوم مظاهرات في جميع العالم الإسلامي مناصرة لإيران، إلا أن أشدها سيكون في البحرين؛ حيث الوضع فيها محتقن أصلاً، وسيقوم الشيعة في البحرين بأعمال مسلحة وأعمال تخريبية واسعة قد تقتضي طلب البحرين للمساعدة من الدول العربية والإسلامية.

٦ - سيغلق مضيق هرمز ويتوقف مرور السفن فيه، وسيؤدي ذلك إلى قطع إمدادات المواد الغذائية والاستهلاكية والإنشائية إلى كل من الكويت والبحرين وقطر وميناء الدمام؛ مما سينجم عنه ارتفاع شديد في الأسعار وشحّ كبير في تلك المواد، وكذلك ستتوقف الإمدادات النفطية بسبب الأعمال الحربية في الخليج، وكذا بسبب إغلاق مضيق هرمز الذي ستقوم إيران بتلغيمه وإغراق بعض السفن فيه، إن تمكنت من ذلك.

٧- سيقوم الوافدون وخاصة من الجاليات الهندية والباكستانية والبنغالية والفلبينية بهجرة واسعة عودة لأوطانهم خوفًا من الحرب وتبعاتها، ونظرًا لأن خطوط النقل الجوية ستتوقف بسبب الحرب؛ فإن الهجرة ستتم عن طريق البر عبر المملكة العربية السعودية.

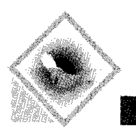
> ستؤدي هذه الحرب إذا نشبت إلى معاودة الارتفاع الحاد لأسعار النفط بسبب وقف الإمدادات النفطية الخليجية، وكذا لوقوع الحرب في وقت الشتاء الأوروبي

وإذا طالت الحرب المناطق البترولية في المنطقة الشرقية من المملكة السعودية؛ فإن هجرة مماثلة ستحدث باتجاه الرياض والمنطقة الغربية. وسيؤدي ذلك إلى اضطراب في الإمدادات الغذائية والخدمات الصحية، وارتفاع لأسعار العقار في السعودية (ماعدا المنطقة الشرقية)، يقابله انخفاض لأسعار العقار في الكويت وقطر والبحرين لوجود الفائض العقاري وانخفاض الاستخدام السكني.

٨- على المستوى العالمي سيقف حلف الناتو داعمًا لأمريكا ودولة الكيان اليهودي سياسيًا ولوجستيًا وحربيًا. لكن ستقف روسيا سياسيًا مع إيران، لكنها إذا دعمتها عسكريًا؛ فإن ذلك سيشكل خطورة بالغة على السلام العالمي، ومثل ذلك يقال بالنسبة للصين.

٩- ستؤدي هذه الحرب إذا نشبت إلى معاودة الارتفاع الحاد لأسعار النفط؛ بسبب وقف الإمدادات النفطية الخليجية، وكذا لوقوع الحرب في وقت الشتاء الأوروبي.

١٠- ستؤدي هذه الحرب إلى وقف خطط التنمية



في بعض الدول الخليجية، أو في كلها، خاصة إذا استخدمت الولايات المتحدة القنابل النووية المحدودة أو القنابل النيوترونية.

إن الآثار الوخيمة التي ذكرتها هي التي تجعل الولايات المتحدة مترددة في خوض هذه الحرب المكلفة على جميع المستويات، ولكن إن لم تخضها فإن الحوض الخليجي بما فيه من احتياطيات النفط سيقع حتمًا تحت سطوة النفوذ الإيراني، وهذا سيقوّض المصالح الأمريكية الحيوية في المنطقة، فماذا ستختار الولايات المتحدة، الحرب أو الخروج من الخليج، أم تسعى لتسوية بينهما ؟!

ثالثًا: الوضع في العراق

يعتبر الوضع في العراق من مهددات أمن الحوض الخليجي لأسباب واقعية واستراتيجية، ومن أبرزها :

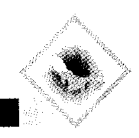
١- من الناحية العقدية؛ فإن الفئة المسيطرة على دفة الحكم، حكومة وبرلمانًا وجيشًا وشرطة ومخابرات، هم الشيعة .. ويعتبر رئيس الوزراء العراقي نوري المالكي من متطرفيهم، وهو رئيس حزب الدعوة سابقًا، ويستخدم المرجعية الشيعية الدينية (السيستاني) كغطاء لتعميق الهيمنة الشيعية سياسيًّا وأمنيًّا في العراق بدعم قوي من أمريكا. ومن هذه الوجهة فإن العراق اليوم موظف كلاعب أساسي في التجاذب السني الشيعي. وعندما ترى دول الخليج العربي السنية كيف يوجه النظام العراقي الشيعي إمكانات الدولة لمحاربة السنة في العراق وقمعهم، وإقصائهم بالكلية عن مواقع التأثير وخاصة العسكرية والأمنية؛ فإن هذه الدول تتوجس خيفة من هذا النظام الذي سيقوم لاحقًا، بلا شك، بنقل هذه الممارسات إلى داخل دول الخليج، معتمدًا على الشيعة فيها، سواء كانوا أقلية كما في المملكة العربية السعودية أو أكثرية كما في البحرين.

٢- إن القوات الأمريكية التي تحتل العراق الآن تعتبرها دول الخليج صمام أمان وكابح واقعي ضد احتمال فقدان التوازن الاستراتيجي في المنطقة. وسيختل هذا التوازن إذا انسحبت هذه القوات من العراق. وهذا الانسحاب لا يزال أمرًا محتملًا، لكنه إن حصل فإنه سيكون انسحابًا جزئيًّا وليس كليًّا، ولا تزال هذه النقطة وأشياء أخرى محل خلاف في الاتفاقية الأمنية بين الحكومة العراقية وأمريكا.

٣- الوضع الحالي في العراق هو وضع تقسيمي مغطى بكساء الفيدرالية. ومن الواضح أن جنوب العراق يشكل نواة دولة شيعية صافية. ويتطلع الشيعة إلى ضم الكويت إليهم ولو بعد حين، ويقومون بين الفينة والأخرى بتسخين الأوضاع الحدودية من خلال المتسللين، أو التحرش بالمواقع الكويتية الحدودية. إن دولة الكويت تتوجس خيفة من هذه المخططات التي تشكل عامل إقلاق أمني لها.

٤- قد تصبح الكويت مستقبلاً محلًا للتنافس بين شيعة إيران وشيعة العراق؛ حيث إن الخلاف العقدي بينهما معروف، وشيعة العراق لا يحبون شيعة إيران؛ ولذلك فإنهم بعد استتباب الأمر السياسي لصالحهم؛ فإنهم سيعملون عل تقليص الدور الإيراني في العراق. وقد جاء في مقابلة لمجلة المجتمع (عدد : ١٨٠٤ تاريخ ٢٠٠٨/٥/٣١م) قول المرجع الشيعي العراقي الشيخ جواد الخالصي بشأن تدخل إيران في العراق: إنه «غير محبب بالنسبة لنا أن تلعب إيران هذا الدور، وأعتبر أن الدور الإيراني لا يتسم بالحكمة والإيجابية، على الأقل في بعض جوانبه».

ونشرت صحيفة القبس الكويتية في ١٨ شوال ١٤٢٩ هـ الموافق ٢٠٠٨/١٠/١٧م أن «صحفًا عراقية رسمية مثل الاتحاد والعراقية، والدستور والجديد وغيرها قد كرّست جهودها الإعلامية لنشر تقارير وإعلانات ضد إيران، وحتى إن البصرة ومدنًا أخرى شهدت ندوات واجتماعات ومؤتمرات لإدانة ما وُصف بتدخل طهران الشامل في شئون العراق، داعية لمقاطعة شراء السلع الإيرانية ومنع الإيرانيين من دخول العراق، وعلقت لافتات كبيرة في بغداد ومدن أخرى كتب عليها «احذروا من التدخل الإيراني» و«الإيرانيون ليسوا شيعة بل صفويين» و «الإيرانيون أسوأ من الأمريكيين والقاعدة» !!. وبما



أن الشيعة في الكويت هم من الإيرانيين والعرب؛ فإن ذلك قد يظهر فيها على السطح لاحقًا، ومثله يقال فيما يخص البحرين.

٥- نشر النائب الكويتي ناصر فهد الدويلة -رئيس المركز الاستراتيجي للدراسات وإدارة المشاريع والخطط- دراسة مطولة على أربع حلقات أبرز فيها الدور المتوقع لإيران في احتلال الكويت في الحرب التي يمكن أن تنشب في المنطقة. (الوطن الكويتية ٢٧ - ٣١ يوليو ٢٠٠٨م). وفي الجملة فإن الوضع في العراق غير مرشح للاستقرار في الزمن المنظور، مما يترك انعكاساته السلبية على الوضع الأمني في مجمل الحوض الخليجي.

رابعًا: هبوب رياح الاحتقان الطائفي من لبنان وإيران

إن الاحتقان الطائفي السني الشيعي في لبنان سينتقل حتمًا إلى دول الخليج لوجود عدد كبير من اللبنانيين فيها. ويقوم حزب الله اللبناني بمد الشيعة في دول الخليج، سواء من اللبنانيين الشيعة أو المواطنين الشيعة بجميع ما يحتاجونه لإنشاء كيانات خاصة بهم. وهذه الإمدادات تتضمن الجانب المالي والكوادر الدعوية والإدارية والمهنية والتدريبية والإعلامية، بما يمكّنهم من تفعيل الحسينيات، وافتتاح المدارس والمعاهد والجامعات والنوادي الرياضية والمنتديات الفكرية والديوانيات، وإنشاء الشركات والمؤسسات الاقتصادية، والمشاركة في الوزارات والبرلمانات ومجالس الشورى، وافتتاح المطابع، وإنشاء الصحف والقنوات الفضائية والمواقع على الشبكة العنكبوتية (الإنترنت)، وأنشطة أخرى كثيرة، كل ذلك بمعونة ومساندة ومساعدة شاملة وحثيثة ورفيعة المستوى من قبل حزب الله اللبناني، الذي بالإضافة لما ذكرت فإنه ينشئ في دول الخليج أحزابًا (غير معلنة) باسمه أي باسم حزب الله.

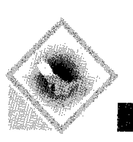
وأما من جهة إيران فإن الاضطهاد الشديد الذي يتعرض له أهل السنة هناك فمعلوم ومعروف، وإن العاصمة الإيرانية طهران والتي يبلغ عدد سكانها فوق الخمسة عشر مليونًا ليس فيها مسجد واحد لأهل السنة. وما أكثر التقارير التي نُشرت عن الحملات الوحشية التي تقوم بها الحكومة الإيرانية والحرس الثوري على أهل السنة أينما حلوا. وقد ذكر تقرير للجارديان كتبه بيتر تاتشيل، ونشر في صحيفة الوطن الكويتية في ٢٣ شوال ١٤٢٨ هـ الموافق ٢٢ أكتوبر ٢٠٠٨م أن سلطات الأمن في إيران قامت بحملة اعتقالات واسعة في صفوف السنة في بلوشستان، وفي التاسع من أغسطس ٢٠٠٨م ألقت السلطات الإيرانية القبض على زعيم سني كبير هو مولاي أحمد ناروي؛ لأنه يعمل رئيس تحرير لموقع ديني للسنة على الإنترنت، وكذا على مساعده محمد يوسف إسماعيل زاهي.

وفي السابع والعشرين من أغسطس ٢٠٠٨م تعرض مسجد أبي حنيفة الذي يضم أيضًا مدرسة دينية في مدينة زابول إلى الهجوم، وإتلاف كتبه ومخطوطاته التي لا تقدر بثمن، ثم جرى هدمه واعتقال المسئولين عن خدمته، وكذلك على طلاب المدرسة الدينية ولم يعلم أين هم الآن !! وقبل ذلك ذكر عضو البرلمان الإيراني علي شهرياري أن هناك ٧٠٠ شخصًا ينتظرون الإعدام في إقليمي سيستان وبلوشستان.

أقول: إن نشر هذه التقارير تدل على حقيقة ما ينتظر أهل الخليج العربي لو أن إيران انفردت ببسط نفوذها على الحوض الخليجي.

خامسًا: النووي الإيراني

في ٢٠٠٨/٧/٢٤م أعرب رئيس وزراء الدولة اليهودية أيهود أولمرت عن اعتقاده بأن إيران ستحصل على جميع العناصر والمركبات الضرورية لبناء قنبلة نووية في نهاية عام ٢٠٠٩م أو بعد عامين، فسارع الرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد بعد يومين إلى تأكيد مضمون قول أولمرت بطريقته الخاصة عندما أعلن أن لدى بلاده ما بين ٥ إلى ٦ آلاف جهاز طرد مركزي لتخصيب اليورانيوم، ولكن للأغراض السلمية، وأن على القوى الكبرى (وهي الدول الست صاحبة العقوبات



على إيران، وهي أمريكا وبريطانيا، وفرنسا وألمانيا، وروسيا والصين) ألا تتصور بأن إيران سوف تركع لمطالبها. وشرعت إيران ببناء مفاعل نووي آخر في مدينة آراك إضافة لمفاعل بوشهر، وكلاهما يتمتع بالقدرة على توفير الوقود النووي وهو البلوتونيوم الذي لا بد منه لتصنيع الأسلحة النووية.

هذه المواقف المتشددة جعلت الولايات المتحدة تشارك عن طريق مساعد وزير خارجيتها وليام بيرنز في حضور اجتماع جنيف الذي عقده منسق الشئون الخارجية والأمنية الأعلى في الاتحاد الأوروبي خافيير سولانا بتاريخ ١٩ يوليو ٢٠٠٨م مترأسًا الوفد الأوروبي مع مسئول الملف الإيراني النووي سعيد جليلي. الموقف الإيراني واصل تصلبه وعدم تراجعه، وأعلن وزير الخارجية الإيراني منوشهر متكي أن التحدث عن مهلة للرد على الحوافز الأوروبية لا معنى له بالنسبة لإيران.

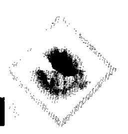
وقال غاري سيك الخبير في الشئون الإيرانية: إن سياسة الولايات المتحدة الرامية إلى عزل إيران وتشديد العقوبات لن تؤدي إلى حمل طهران على وقف تخصيب اليورانيوم. فردت دانا بيرينو المتحدثة باسم البيت الأبيض بأنه في غياب رد إيجابي على العرض الكريم الذي قدمناه في حزمتنا الموسعة نعتقد أنه ليس أمام الحلفاء خيار سوى إجراءات جديدة ستكون عقابية. وأكد جونزو جاليجوس الناطق باسم الخارجية الأمريكية بتاريخ ٦ أغسطس ٢٠٠٨م أن ممثلي الدول الست اتفقوا على أنه لا مناص من السير في خيارات أخرى مع إيران .. وشنع عبدالله بشارة على موقف إيران وقال في مقال له في صحيفة الوطن الكويتية بتاريخ ٢٠٠٨/٨/١١م: «تتصور إيران أن دبلوماسية التمييع توفر لها الاختراقات في تماسك الموقف العالمي».

ومن فيينا دعا مدير عام الوكالة الدولية للطاقة الذرية الدكتور محمد البرادعي إيران بتاريخ ٢٠٠٨/٩/٢٣م إلى الرد على الادعاءات حول قيامها بدراسات لإنتاج رأس حربي نووي، خاصة وأن إيران ردت على المجتمع الدولي بإجراء سلسلة كبيرة من المناورات العسكرية كان أضخمها بتاريخ ٢٠٠٨/٩/١٥م، ثم بتاريخ ١٠/١٥/ ٢٠٠٨م في جميع أنحاء إيران شارك فيها السلاح الجوي، وأخرى لقوات التعبئة الشعبية (الباسيج) بتاريخ ٢١ أكتوبر ٢٠٠٨م لاستعراض الجاهزية الدفاعية والعتادية الشاملة لقوات التعبئة وزيادة القدرة القتالية. وهذا ما دفع نتالي جولد رينغ -من «برنامج دراسات الأمن» في جامعة جورج تاون بواشنطن- إلى أن تقول معلقة على مجمل الأنشطة الإيرانية: إن «هذا الأمر ينطوي على مخاطر كبيرة جدًا، مما جعلني أشعر بالدهشة والقلق من تحرك الإيرانيين في هذا الاتجاه، لاسيما أن مخاطر الصراع كبيرة جدًا على نحو غير مقبول. (ذكر ذلك سكوت بيترسن عن كريستيان ساينس مونيتو في دراسة ترجمتها الوطن الكويتية بتاريخ ١٨ سبتمبر ٢٠٠٨م).

> لقد بات الوضع خطيرًا جدًا، فقد عرضت الوكالة الدولية للطاقة الذرية في ١٥ سبتمبر ٢٠٠٨م وثائق وصورًا تشير إلى أن إيران حاولت سرًا تعديل الرأس المخروطي لصاروخ يستوعب قنبلة نووية.

لقد بات الوضع خطيرًا جدًا، فقد عرضت الوكالة الدولية للطاقة الذرية في ١٥ سبتمبر ٢٠٠٨م وثائق وصورًا تشير إلى أن إيران حاولت سرًا تعديل الرأس المخروطي لصاروخ يستوعب قنبلة نووية. وأصبح بوسعها تصنيع المواد اللازمة لإنتاج قنبلتين نوويتين خلال فترة تتراوح بين ١٢ و ١٨ شهرًا بحسب ما صرح به الخبير النووي د. جاك كارافيلي مستشار الرئيس الأمريكي السابق كلينتون (صحيفة الصوت ٢٠٠٨/١٠/٢٣م)، وتزامن ذلك مع ما ذكرته النيويورك تايمز من أن عالمًا روسيًا يعمل لحسابه الخاص قد ساعد إيران على إجراء اختبارات معقدة حول عملية تشغيل سلاح نووي (القبس ٢٠٠٨/١٠/١١م).

إن هذا الإصرار الإيراني على المضي قدمًا في المشروع النووي هو الذي دفع كيسنجر عندما سأله روبرت ساتلوف المدير التنفيذي لمعهد واشنطن لشئون الشرق الأوسط: «ما التحدي الأكبر الذي تواجهه أمريكا



اليوم؟» إلى الإجابة بقوله : «إنه الدور الإيراني، وانتشار السلاح النووي، وانعكاسات ذلك على الإرهاب الجهادي .. إن انتشار الأسلحة النووية سوف يلحق بالبشرية كارثة كبرى إن لم يتم احتواء هذا الخطر .. وإن منع انتشار الأسلحة النووية الآن مسألة لا بد منها مهما كلف الأمر» (الوطن الكويتية ٢٠٠٨/١٠/١٨م).

إن الدول الخليجية على كل حال ستكون ضحية هذا الوضع الخطر الذي عبر عنه مدير مركز الدراسات الاستراتيجية في الكويت سامي الفرج بقوله: «إن عواقب امتلاك إيران للأسلحة النووية ستكون أسوأ من عواقب الهجوم عليها» (صحيفة الدار ٢٠٠٨/٧/٢٨م).

سادسًا : المحاولات اليهودية للتغلغل في دول الخليج

تسعى دولة الكيان اليهودي إلى التغلغل في مختلف القطاعات العسكرية والتجارية والإعلامية والرياضية في الدول الخليجية. وهنا نقف عند بعض المحطات:

تم فتح مكتب تمثيل تجاري للدولة اليهودية في كل من قطر وعمان .

مثلت لاعبة التنس شحار بيير دولة الكيان اليهودي في بطولة قطر للسيدات في ٢٠٠٨/٢/١٩م .

حضرت وزيرة خارجية دولة الكيان اليهودي تسيبي ليفني «منتدى الدوحة الثامن للديمقراطية والتنمية والتجارة الحرة» بتاريخ ٢٠٠٨/٤/١٣م، وذلك بدعوة من أمير قطر الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني؛ حيث حثت الوزيرة الدول العربية على إقامة علاقات مع دولتها ، والتقت الوزيرة في المؤتمر بوزير الدولة العماني للشئون الخارجية يوسف بن علوي، ورئيس الوزراء القطري الشيخ حمد بن جاسم بن جبر آل ثاني .

قال تلفزيون دولة العدو: إنها طلبت من قطر دراسة بيعها الغاز الطبيعي المسال في صفقة تبلغ قيمتها ١١,٤ مليار دولار، وقد تساعد في تحسين الروابط مع العالم العربي .

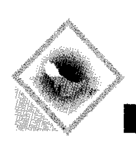
نقلت معظم الصحف العربية ما ادّعته صحيفة هاآرتس اليهودية في عددها المؤرخ ٢٠٠٨/٩/١٦م من أن العشرات من الجنرالات المتقاعدين من الذين سبق أن تبوؤوا مواقع حساسة وهامة في أجهزة الموساد وجهاز المخابرات الشاباك وهيئة أركان الجيش اليهودي يديرون ويعملون في عدد من الشركات في دول الخليج، فضلاً عن مساهمة شركات عسكرية يهودية بدور واسع في تلك الدول، وأكدت الصحيفة أن الجنرالات يقومون بتقديم إرشادات واستشارات أمنية للأجهزة الأمنية الخليجية. وأن الشركة الدولية AGT السويسرية التي أسسها ويديرها رجل الأعمال اليهودي الأمريكي ماتي كوخافي فازت مؤخرًا بعقد تصل قيمته إلى مئات ملايين الدولارات لبناء مشروع تابع للأمن الداخلي في دولة خليجية. وقد نفت الدول الخليجية هذه الأخبار ..

تسعى دولة الكيان اليهودي إلى التغلغل في مختلف القطاعات العسكرية والتجارية والإعلامية والرياضية في الدول الخليجية

في الكويت أصدر أمين عام جماعة أنصار الشورى والسلام الدكتور أحمد عبد العزيز المزيني بيانًا نشر في الصحافة الكويتية بتاريخ ٢٠٠٨/٩/٢٧م، ومما قال فيه: «إن إسرائيل لن تعيش أكثر من ١٥٠ سنة بإذن الله – لذا علينا أن نستفيد من أبناء العم بالمعرفة والتكنولوجيا والعلم الذي يملكونه»، ثم أورد حديث «ستتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها .. ».

ثم قال : «ونفهم من هذا الحديث أن رسولنا -عليه الصلاة والسلام- يدعونا إلى التفاهم والحوار، وحسن المعاملة مع أكلة القصعة الذين هم إسرائيل وأمريكا والاتحاد الأوروبي، وروسيا وكندا وأستراليا».

ثم قال: «بالنسبة للسودان والصومال وإثيوبيا وإريتريا وجيبوتي، على قادة هذه البلاد أن يتحدوا ويتعاونوا مع أكلة القصعة (إسرائيل وأمريكا)، وبذلك تحل مشاكلهم .. ». وهذا الخبر غني عن التعليق .



المحددات العقدية والاستراتيجية لأمن الحوض الخليجي:

ذكرت في هذه الدراسة بعضًا من تلك المحددات، وأخص منها ما يلي :

١- الالتزام بتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية، والنص على ذلك في جميع الدساتير الخليجية .

٢- تنقية الخليج من الوافدين غير المسلمين، ممن لا حاجة ماسّة لخدماتهم .

٣- دعم المؤسسات الخيرية والدعوية وتيسير سبل انتشارها .

٤- تسهيل افتتاح البنوك الإسلامية، وإغلاق البنوك الربوية، وكذلك تشجيع وتيسير افتتاح المؤسسات والشركات الإسلامية العاملة في كافة المجالات الإنتاجية والخدماتية .

٥- أسلمة التعليم، وذلك بتنقية المناهج الدراسية من الأدران العقدية الشركية والنهوض بالتعليم في كافة مستوياته على أحسن ما أفرزته التقنيات التعليمية الحديثة .

٦- إدخال المفاهيم العقدية الإسلامية في المؤسسات العسكرية، واعتبارها الأساس الذي تنتظم فوق قواعده أركان البناء العسكري .

٧- التأكيد على سلامة البنية المدنية الاجتماعية، وذلك برفع الظلم وإعادة النظر في التركيبة السكانية، وبصون الحقوق المدنية والإنسانية وفق مبادئ الشريعة الإسلامية وبأسلمة السياحة، وبتطبيق قواعد العدالة والمساواة في إطار أداء الحقوق والقيام بالواجبات بما جاء مكفولاً ومفصلاً في الشريعة الغراء .

٨- توجيه رءوس الأموال الإسلامية الخليجية نحو الاستثمار في البلاد الإسلامية ليعود مردودها على الأمة الإسلامية جمعاء .

٩- إخضاع الإعلام وأجهزته للقواعد الشرعية، وتنقيته مما فيه من الإسفاف والانحراف، وتوظيفه لصالح نهضة الشعوب الخليجية؛ لتتمكن من المشاركة الهادفة والمساهمة البناءة في إعادة النهوض بهذه الأمة.

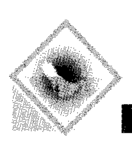
١٠- تحديد العلاقات مع الدول الأجنبية بحسب مواقفها من الدين الإسلامي وأهله.

١١- تصفية الحوض الخليجي من الجيوش الأجنبية .

١٢- المحافظة على الثروة النفطية والغازية، وتوجيهها بما يعود بالنفع والمصلحة على شعوب الخليج العربي والشعوب الإسلامية كلها.

فتلك الضوابط الاثنتي عشرة من المحددات العقدية والاستراتيجية التي أراها ضرورية لصيانة الأمن في الحوض الخليجي .

وصلى الله على نبينا محمد، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



معلومات إضافية

الإنفاق الأمني لدول مجلس التعاون الخليجي:

تسلمت دول مجلس التعاون الخليجي أسلحة متنوعة ومتعددة المصادر من عام ١٩٩٧م إلى عام ٢٠٠٦م بقيمة بلغت نحو ٢١,٥٣٧ مليار دولار، وكانت مصادرها حسب الترتيب التالي: الاتحاد الأوروبي ١٠,٥٧٦ مليار دولار، الولايات المتحدة ٩,٩٧٢ مليار دولار، روسيا ٤٠٤ مليون دولار، الصين ٨٩ مليون دولار، ودول أخرى ٤٩٦ مليون دولار.

دولة الإمارات العربية المتحدة

وقّعت الإمارات في فبراير ٢٠٠٧م مذكرة تفاهم مع شركة إي. أيه. دي. إس (إيادس) الأوروبية لشراء ثلاث طائرات من نوع إيرباص (A-380) لأغراض التزويد الجوي بالوقود، كما وقعت عقدًا مع شركة رايثيون الأمريكية، وشركة أبو ظبي لصناعة السفن (ADSB) لشراء سبعة أنظمة لإطلاق الصواريخ الموجهة (ذات الحركة الدائرية لجسم الصاروخ) بقيمة ٧٦,٥ مليون دولار، والتي سيجري تركيبها على ست فرقاطات إماراتية من نوع (بينونة)، وتعتبر هذه الصواريخ منظومة دفاعية مضادة لتهديدات صواريخ (كروز) والأهداف الجوية وزوارق السطح، وكان من المقرر أن يبدأ تسليمها في ديسمبر عام ٢٠٠٧م.

كما أوصت الإمارات على ٩٠٠ صاروخ جو - أرض من نوع (هيلفاير ٢ لونغ بو) وعلى ثلاثمائة رأس صاروخ انشطاري، بقيمة ٤٢٨ مليون دولار.

وحول صفقة الصواريخ أرض- جو، ومدفعية مقاومة الطائرات، لأغراض الدفاع الجوي قصير المدى التي وقعت مع روسيا، وهي من نوع بانتسير (Pantsir – s1) ذكرت مصادر دفاعية عالمية في ٣٠ أكتوبر٢٠٠٧م، أن الإمارات قد لا تتسلم سوى نظامين حتى نهاية عام ٢٠٠٧م، من أصل ٥٠ نظامًا، علمًا بأن خطة التسليم الأولية تقضي بأن تتسلم ١٢ نظامًا في عام٢٠٠٧ م، و ٢٤ نظامًا في عام٢٠٠٨ م، و ١٤ نظامًا في عام ٢٠٠٩ م، وذلك بقيمة تبلغ حوالي ٣ مليارات دولار، وربما حصل التأخير بسبب التجارب التي أجريت على النموذج الأول الذي تم تصنيعه آنفًا ثم تسليمه في أواخر عام ٢٠٠٦م.

ومن المتوقع أن تحصل الإمارات من روسيا أيضًا على قطع احتياطية لصواريخ أرض – جو المستخدمة لديها من نوع (سام- ١٨ إيغلا) وآليات القتال المدرعة للمشاة من نوع (بي.إم. بيه)، وأعمال صيانة وتطوير على كلا النظامين.

مملكة البحرين:

توجهت البحرين في يونيو ٢٠٠٧م لشراء تسع طائرات عمودية من نوع بلاك هوك (Sikorsky UH-60 M) من فائض الجيش الأمريكي عن طريق برنامج المبيعات العسكرية، ويستخدم هذا النوع من الطائرات للقيام بمهام البحث والإنقاذ المسلح، وذلك بقيمة ٢٠٤ ملايين دولار. وذكرت مصادر أجنبية أن وزارة الدفاع الأمريكية (البنتاجون) وافقت على بيع البحرين ست طائرات عمودية من نوع بيل (Bell – 412) لأغراض البحث والإنقاذ بقيمة ١٦٠ مليون دولار.



المملكة العربية السعودية

عقدت السعودية صفقة لشراء ٧٢ طائرة قتال وهجوم أرضي حديثة جدًّا من نوع (تايفون يوروفايتر) البريطانية (FGA Eurofighter Typhoon) التي تعاقدت عليها المملكة في نهاية عام ٢٠٠٥ م، على أن يبدأ التسليم عام ٢٠٠٨ م، وتبلغ قيمة الصفقة ١٣ مليار دولار شاملة الأسلحة وقطع الغيار والإسناد الفني والتدريب.

كما ناقشت فرنسا والسعودية ما يتعلق باحتمال شراء ٤٨ طائرة مقاتلة من نوع (رافال) وست فرقاطات متعددة الوظائف، ومن ست إلى ثماني غواصات، وعدد من دبابات (لكلير).

وذكر مصدر إعلامي دولي أن عقود الأسلحة الفرنسية المحتملة قد تشمل طائرات التموين (التزويد) الجوي للوقود، وفرقاطات وطائرات عمودية، بالإضافة إلى قمرين صناعيين للمراقبة، بالاشتراك بين كل من السعودية والإمارات وقطر.

كما حصلت المملكة على أحدث الأنظمة الصاروخية وقذائف أرض – جو الذكية والموجهة بالأقمار الصناعية من نوع (JDAM) الأمريكية الصنع (يفترض أنه بدأ تسليمها خلال النصف الثاني من عام ٢٠٠٧م).

وذكرت مصادر دفاعية عالمية أن السعودية تتوجه نحو شراء ١٥٠ طائرة عمودية روسية الصنع، هجومية من نوع (مي- (٣٥، ولأغراض النقل من نوع (مي - ٨) و (مي - ١٧)، وذلك بمبلغ ٢,٢ مليار دولار.

كما ذكرت مصادر إعلامية في أكتوبر ٢٠٠٧م أن السعودية عملت على شراء ٦١ مدرعة خفيفة و٥٠ مدرعة من نوع (همفي) الأمريكية، بالإضافة إلى صواريخ ورشاشات ومناظير للرؤية الليلية بقيمة ٦٣١ مليون دولار.

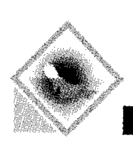
وفي مجال التطوير والتحديث، فازت شركة بوينج الأمريكية وشركة السلام السعودية بعقد تطوير خمس طائرات سعودية للقيادة والسيطرة من نوع (أواكس) لتركيب نظام (الرابط ١٦) للبيانات والمعلومات (Data Link-16) وهو نظام توزيع معلومات متعدد الوظائف، وذلك بقيمة ٤٩,٢ مليون دولار.

سلطنة عُمان:

من المفترض أن تكون قد وصلت إلى عُمان أول طائرة عمودية من نوع يوروكوبتر هولندية (NH-90 TTH) في يوليو ٢٠٠٧م لتتم تجربتها واختبارها في طقس حار وبيئة صحراوية وأن تكون قد تسلمت في عام ٢٠٠٨ م طائرتين من النوع نفسه.

ووقعت عُمان اتفاقية مع شركة (في تي) البريطاني في ١٥ يناير ٢٠٠٧م لشراء ثلاث سفن حربية (فرقاطات) من خلال مشروع (خريف) بهدف تحديث وتطوير وتأهيل القوة البحرية العمانية، وبدأت مرحلة الإنتاج للسفينة الأولى ببريطانيا في ٢٤ أكتوبر ٢٠٠٧م.

وفي ٢٧ يناير ٢٠٠٧م ، تم توقيع عقد شراء لطائرتي نقل عسكري من نوع إيرباص (A-320-300).



دولة قطر

لم يذكر كتاب التوازن العسكري عام ٢٠٠٧م الصادر عن معهد الدراسات الاستراتيجية في لندن أي معلومات عن صفقات السلاح القطرية ومواعيد تسليمها، كما لم يذكر كتاب (سيبري) السنوي ٢٠٠٧م نفقات الدفاع لدى قطر خلال الفترة (١٩٩٧-٢٠٠٦م) أسوةً ببقية دول مجلس التعاون الخمس الأخرى. علمًا بأنهما من المراجع العسكرية العالمية المعتمدة في هذا الشأن.

لكن ذكرت بعض المصادر الإعلامية أن قطر وقعت عقدًا مع الشركة الأوروبية للصناعات الجوية والدفاعية (إيادس)، من أجل شراء نظام رادار متطور بقيمة ٣٢٢,١ مليون دولار، سيتم تسليمه على مدى ثلاث سنوات.

دولة الكويت

في مارس عام ٢٠٠٧م تسلمت الكويت الدفعة الأولى المؤلفة من ست طائرات أباتشي العمودية المقاتلة، من أصل صفقة تبلغ ١٦ طائرة جرى توقيعها في عام ٢٠٠٢م؛ حيث تم الإعلان عن تشكيل سربين جويين لاستيعاب هذا النوع من الطائرات هما السربان (١٧ -٢٠) للعمل من قاعدة علي السالم الجوية، وكان من المفترض أن تكون الكويت قد تسلمت بقية الدفعة وعددها عشر طائرات خلال عام ٢٠٠٧م.

وفي سبتمبر ٢٠٠٧م استكمل الجيش الكويتي استعداداته لنشر صواريخ أرض- جو من نوع (باتريوت) في مناطق بحرية محددة ومعروفة ضمن خطة عسكرية لمواجهة أي احتمالات قتالية في المنطقة وبأي وقت.

وكانت الكويت أوصت في أكتوبر ٢٠٠٧م على ثلاث طائرات نقل عسكري من نوع (L-100-300) وهي النسخة الأحدث من طائرات (C-130) الأمريكية الصنع وذلك بقيمة ٢٥٠ مليون دولار، كما تعتزم الكويت تقوية دفاعاتها الجوية من خلال شراء أنظمة صواريخ أرض- جو من نوع (باتريوت)، ويتوقع أن تكون حصة الكويت من صفقة الأسلحة الأمريكية لدول مجلس التعاون، التي أعلن عنها وزير الدفاع الأمريكي روبرت غيتس نحو ثلاثة مليارات دولار من أصل عشرين مليارًا. كما وضعت الكويت خطةً فنيةً لتطوير الأسلحة العاملة في القوات البرية والبحرية والجوية الكويتية.



القوى البشرية العاملة في القوات المسلحة لدول مجلس التعاون عام ٢٠٠٧م

المجموع الكلي للقوى البشرية العاملة في القوات المسلحة لدول مجلس التعاون في عام ٢٠٠٧م لا يزال بحدود ٤١٧ ألف جندي؛ إذ لم يطرأ أي تغيير يذكر على تعدادها العام، عما كانت عليه خلال السنوات الثلاث الأخيرة، كما أن مجموع ميزانيات الدفاع الرسمية في عام ٢٠٠٦م، بقي كما كان عليه في عام ٢٠٠٥م، وذلك بحدود٣٨,٥ مليار دولار، وبقي أيضًا مجموع نفقات التسليح في عام ٢٠٠٦م كما كان عليه في عام ٢٠٠٥م تقريبًا وذلك بحدود ٣٦ مليار دولار.

فيما استمرت بالتقدم ـ كمًا وكيفًا ـ عمليات التسليح والتطوير والتدريب والتنسيق المشترك لجيوش دول مجلس التعاون بما في ذلك قوات (درع الجزيرة)، وذلك بهدف تحقيق أفضل مستوى ممكن من حيث الجاهزية والكفاءة القتالية.



الناتج المحلي الإجمالي وميزانية الدفاع لدول مجلس التعاون الخليجي لعام ٢٠٠٦م

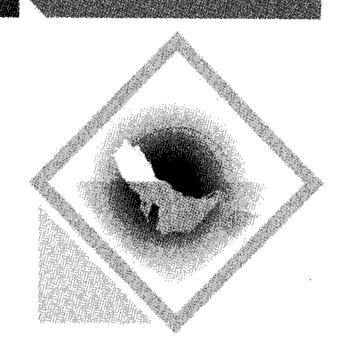
الدولة	الناتج المحلي الإجمالي لعام ٢٠٠٦م (مليار دولار)	ميزانية الدفاع لعام ٢٠٠٦م (مليار دولار)
الإمارات العربية المتحدة	١٤٢	٢,٥٨
مملكة البحرين	١٥,٥	٠,٤٧٨
المملكة العربية السعودية	٣٤٣	غير معروفة (كانت ٢٥,٤ عام ٢٠٠٥م)
سلطنة عُمان	٣٦,١	٣,٢٧
قطر	٥٣,٨	٢,٣٣
الكويت	٨٧,١	٤,٥١
المجموع الكلي لدول المجلس	٦٧٧,٥	٣٨,٥٦٨

النفقات العسكرية لدول المجلس في الفترة (١٩٩٧-٢٠٠٦م) بالمليون دولار بحسب سعر الدولار الأمريكي الثابت لعام ٢٠٠٥م

الدولة	١٩٩٧م	١٩٩٨م	١٩٩٩م	٢٠٠٠م	٢٠٠١م	٢٠٠٢م	٢٠٠٣م	٢٠٠٤م	٢٠٠٥م	٢٠٠٦م	المجموع
الإمارات	٣٠٦٧	٣٠٣٦	٢٩٩٩	٢٩٢٥	٢٨٨٢	٢٩٠٩	٢٨٥٣	٢٦٢٩	٢٥٥٩	-	◆٢٥٨٥٩
البحرين	٢٩٧	٣٠٤	٣٤٠	٣٣٧	٣٥٦	٣٥٧	٤٩١	٤٩١	٤٨٣	٤٥٨	٣٩١٤
السعودية	١٧٧٤٩	٢٠٥٠٠	١٨٢٤٨	٢٠١١٢	٢١٤٢١	١٨٨٠٥	١٨٩٤٤	٢١٠٦٠	٢٥٣٧٢	٢٩٠٣٢	٢١١٢٤٣
عُمان	١٩٣٤	١٧٣٥	١٧٥٧	٢٠٩١	٢٤٣٩	٢٥٢٠	٢٦٦٧	٣٠١١	٣٦٥٢	٣٠٩١	٢٤٨٩٧
قطر	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-
الكويت	٢٩٣٣	٢٧٣٥	٢٦٥٨	٣٠٨٢	٣٠٢٩	٣١٢٦	٣٣٦٩	٣٦٧٩	٣٩٠٩	٣٨٣٦	٣٢٣٥٦
المجموع الكلي	٢٥٩٨٠	٢٨٣١٠	٢٦٠٠٢	٢٨٥٤٧	٣٠١٢٧	٢٧٧١٧	٢٨٣٢٤	٣٠٨٧٠	٣٥٩٧٥	٣٦٤١٧	٢٩٨٢٦٩

المصدر:

عميد (م) موسى حمد القلاب، شئون الدفاع في دول مجلس التعاون.. الأسلحة والمعدات، مجلة «آراء» حول الخليج، العدد ٤١، فبراير ٢٠٠٨م، ص٧٨-٨٢.



المدارس الأجنبية في الخليج البحرين أنموذجًا

عبدالعزيز بن أحمد البداح

باحث متخصص في الأديان والمذاهب

ملخص الدراسة

منذ بعثة النبي -صلى الله عليه وسلم- وحتى وقتنا هذا وأعداء الإسلام يكيدون المكائد ويحيكون المؤامرات؛ للنيل من أمة الإسلام، ودينها وثقافتها ولغتها، وفي عصرنا هذا تنوعت أساليبهم وتعددت وسائلهم، فكان من أقواها تأثيرًا وأشدها وقعًا: المدارس الأجنبية.. لما لها من أثر كبير في صياغة الشخصية، وتشكيل الهوية، والتحكم في التوجهات والتصورات .

وواقع المدارس الأجنبية في البحرين يمكن أن يمثل نموذجًا جيدًا ليكشف لنا الصورة الحقيقية لهذه المدارس ومخاطرها.

بدأ التعليم الأجنبي في البحرين بافتتاح مدرسة الرجاء في عام ١٨٩٢م والتي كانت في الأصل مدرسة الإرسالية الأمريكية، وقد قام بتأسيسها القس صموئيل زويمر، ومع مرور الوقت وتطور التعليم في البحرين وصل عدد هذه المدارس من مدرسة واحدة في عام ١٨٩٢م، إلى خمس وخمسين مدرسة في عام ٢٠٠٥م.

تنقسم المدارس الأجنبية في البحرين إلى قسمين: مدارس وطنية ومدارس أجنبية، ولكن في الواقع لا فرق بينها إلا في الأسماء؛ إذ في كلا النظامين يتم تدريس المنهج الأجنبي، ولغة التعليم هي دائمًا لغة أجنبية، ويقوم بالتدريس فيه معلمون أجانب، والأنشطة التي تُمارس ذات طبيعة واحدة.

والأكثر خطورة أن بعض المدارس الأجنبية في البحرين ذات طابع تنصيري كمدرسة القلب المقدس، التي تسعى من خلال مناهجها وأنشطتها إلى الدعوة إلى النصرانية أو إضعاف التمسك بالإسلام، والبعض الآخر له طابع تغريبي، كمدرسة البحرين، التي تسعى من خلال مناهجها وأنشطتها إلى ترسيخ السلوك الغربي.

ورغم أن الجهات المسئولة عن التعليم في البحرين قررت إلزام هذه المدارس بتدريس مادة التربية الإسلامية واللغة العربية، وتاريخ وجغرافية البحرين، ولكن واقع تدريس هذه المواد لا يفي بالغرض؛ لقلة عدد ساعاتها؛ ولكون تلك المدارس لا تهتم بها، فضلاً عن أن بعض تلك المدارس لا تقوم بتدريسها من الأساس.

إن واقع المدارس الأجنبية ومناهجها ونشاطاتها يشتمل على آثار سلبية خطيرة يجب التصدي لها، خاصة أنها تمس المعتقد والأخلاق واللغة.



المدارس الأجنبية في الخليج البحرين أنموذجًا

عبدالعزيز بن أحمد البداح
باحث متخصص في الأديان والمذاهب

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن الله أخبر عن عداوة الكافرين للمسلمين ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ .(سورة البقرة:١٠٩).

ومنذ بعثة النبي -صلى الله عليه وسلم- وحتى وقتنا هذا وأعداء الإسلام يكيدون المكائد ويحيكون المؤامرات للنيل من أمة الإسلام ودينها وثقافتها ولغتها.

وفي عصرنا هذا تنوعت أساليبهم وتعددت وسائلهم، فكان من أقواها تأثيرًا وأشدها وقعًا: المدارس الأجنبية.. لما لها من أثر كبير في صياغة الشخصية وتشكيل الهوية، والتحكم في التوجهات والتصورات.

وقد اخترت أن تكون هذه الدراسة عن المدارس الأجنبية في البحرين؛ لتكون أنموذجًا للدلالة على واقع تلك المدارس وآثارها في الخليج كله، بحكم أن أول مدرسة أنشئت في الخليج كانت في البحرين (مدرسة الرجاء عام ١٨٩٢م)، ولتشابه الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية في دول الخليج.

أنواع التعليم الخاص في البحرين

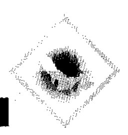
المؤسسة التعليمية الوطنية

(١) تعريفها:

المؤسسة التعليمية الوطنية، داخلة ضمن التعليم الأجنبي، باعتبار مناهجها التي تُدرَّس فيها - كما سيجري إيضاحه من خلال التعريف بها وبمناهجها-.

جاء في تعريف المؤسسة التعليمية الوطنية في القانون الخاص بالمؤسسات التعليمية والتدريبية الخاصة بما يلي: (هي المعهد أو المدرسة أو المركز التعليمي أو روضة الأطفال، التي ينشئها ويمولها أشخاص طبيعيون أو اعتباريون، بحرينيون أو بالاشتراك مع أشخاص طبيعيين أو اعتباريين غير بحرينيين؛ بقصد التربية والتعليم والتثقيف، وفقًا للمناهج الوطنية، أو استنادًا إلى المناهج التي تجيزها الوزارة تحت إشرافها، وتخدم بالدرجة الأولى الطلبة البحرينيين)[1].

(١) قانون المؤسسات التعليمية والتدريبية الخاصة، رقم (٢٥)، للعام ١٩٩٨م، ص١.



وتطبق هذه المدارس نظامًا ثنائي اللغة؛ حيث يتم استخدام اللغتين العربية والإنجليزية في العملية التعليمية.

وعلى هذا فالمؤسسة التعليمية الوطنية ليست ملزمة بالمناهج الوطنية المعمول بها في الدولة، وإنما يمكن لها تدريس المنهج الذي تريده؛ شريطة موافقة وزارة التربية والتعليم عليه، حسبما نص عليه النظام المشار إليه بعاليه، ولهذا فتسميتها بالمؤسسة التعليمية الوطنية -وهي تدرس منهجًا أجنبيًّا، وتديرها أحيانًا هيئة تعليمية أجنبية- محل تحفظ ونظر؛ إذ لا تستقيم هذه التسمية مع مضمون هذه المدارس وحقيقتها، ولهذا ستدخل هذه المدارس في صلب هذا البحث بشكل أوَّلي ورئيس لهذا الاعتبار الوجيه، خاصة وأن أكثر المدارس الوطنية تقوم بتدريس المناهج الأجنبية، وتديرها هيئة تعليمية أجنبية، ولا تختلف أنشطتها وبرامجها عن أنشطة المدارس الأجنبية.

> أكثر المدارس الوطنية تقوم بتدريس المناهج الأجنبية، وتديرها هيئة تعليمية أجنبية، ولا تختلف أنشطتها وبرامجها عن أنشطة المدارس الأجنبية

(٢) مناهجها:

تطبق هذه المدارس المنهج الأمريكي، وفي بعضها يطبق أيضًا المنهج الوطني، ولغة التعليم فيها اللغة الإنجليزية.[٢]

الشهادات التي تقوم المدارس الأجنبية بمنحها:

تقوم المدارس الأجنبية بمنح عدد من الشهادات العالمية المعترف بها عالميًّا، وهذه الشهادات التي تقوم هذه المدارس بمنحها، هي:

(١) شهادة الثانوية العامة البريطانية *GCSE*:

وتعني هذه الشهادة بأحرفها الأربعة مختصرًا لشهادة الثانوية العامة البريطانية General Education of Seondary Certificate)، وتعتبر أعلى شهادة في التعليم العام، أو التعليم قبل الجامعي، وهذه الشهادة يمكن للطلبة غير البريطانيين الحصول عليها من خلال المدارس المسجلة ضمن مجلس التعليم في لندن أو كمبيريدج، ويجب على هذه المدارس أن تتبع نفس القيم والسبل التعليمية الصادرة في بريطانيا لهذا النوع من الشهادة.[٣]

(٢) شهادة البكالوريا الدولية *IBO*:

وهي شهادة معتمدة من قِبَل منظمة البكالوريا الدولية: (Internationa Baccaureate)، التي تتخذ من جنيف في سويسرا مقرًّا لها، وهذه المنظمة تقوم بشكل منتظم بمراجعة البرنامج الأكاديمي للمدرسة، وشهادة البكالوريا الدولية معترف بها دوليًّا كمعادلة للسنة الأولى الجامعية، وتبلغ هذه الدراسة فيها سنتين، ويشترط أن يكون عمر الطالب ما بين (١٦ إلى ١٩) سنة عند التقديم لامتحان هذه الشهادة [٤].

(٣) شهادة البكالوريا الفرنسية:

وهي شهادة معترف بها في كافة أنحاء العالم، وتتيح الدخول للجامعات الفرنسية، وضمن بعض الشروط الدخول إلى الجامعات في بلدان الاتحاد الأوروبي والجامعات الكندية والأمريكية [٥].

(٤) شهادة الدبلوما الأمريكية:

وهي شهادة معترف بها في الولايات المتحدة الأمريكية، وبرنامجها الأكاديمي معتمد من قِبل جمعية الدول الوسطى للجامعات والمدارس في الولايات المتحدة الأمريكية، وتتيح للحاصل عليها الالتحاق بالجامعات الأمريكية، وهي تلي شهادة الثانوية العامة،

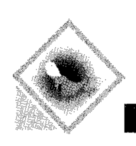
---

(٢) هذا الحصر مستقى من الزيارات الميدانية للمدارس، ومن المنشورات الصادرة عنها، ومن دليل المؤسسات التعليمية الخاصة، إعداد أمينة عيسى، إدارة التعليم الخاص، وزارة التربية والتعليم، البحرين، ١٩٩٧م، ص٤٠.

(٣) الموقع (www.bab.com.sa) على شبكة الإنترنت بعنوان: (التعليم في بريطانيا).

(٤) الموقع (www.studycanada.ca) على شبكة الإنترنت بعنوان: (الدراسة بكندا وأمريكا).

(٥) الموقع (www.bab.com.sa) على شبكة الإنترنت بعنوان: (التعليم في فرنسا).



ويلزم الطالب فيها دراسة متطلبات ومواد تؤهله لدخول امتحانها!![6]

ويتضح للقارئ أن الشهادات التي تمنحها المدارس الأجنبية شهادات عالمية معترف بها في الجامعات الأمريكية والأوروبية مما يؤهّل الطالب للالتحاق بها.

المؤسسة التعليمية الأجنبية

(١) تعريفها:

عرَّف قانونُ المؤسسات التعليمية والتدريبيةِ الخاصةِ المؤسسةَ التعليمية الأجنبية بما يلي: «هي المعهد أو المدرسة أو المركز التعليمي أو روضة الأطفال، التي ينشئها ويمولها أشخاص أو مؤسسة من المؤسسات الأجنبية الموجودة في دولة البحرين، أو بالاشتراك مع أشخاص طبيعيين أو اعتباريين بحرينيين، بقصد التربية والتعليم والتثقيف؛ وفقًا لمناهج وإشراف تربوي أجنبي، وتمنح شهادات بلد المنشأ التي هي امتداد له، وتخدم بالدرجة الأولى الطلبة الأجانب»[7].

وعلى هذا فالمؤسسة التعليمية الأجنبية، هي التي ينشئها -في الأصل- أشخاص أو مؤسسات أجنبية، ولو بالاشتراك مع أشخاص، أو مؤسسات بحرينية، وفقًا لمناهج أجنبية. ويسمح هذا النظام للطلبة البحرينيين بالانضمام إليها، وتضم هذه المدارس مراحل التعليم المختلفة.

وهذه المدارس منها ما يتبع الكنائس وتحمل اسمها، ومنها ما يتبع مؤسسات أو أفرادًا.

ويبلغ عدد هذه المدارس -المدارس الأجنبية- إحدى وعشرين مدرسة، كما هو مسجل في الإحصائية المؤرخة في ٢٠٠٤/١٢/١١م الصادرة عن إدارة التعليم الخاص بوزارة التربية والتعليم[8].

ويلحظ أن عدد المدارس الأجنبية يقارب عدد المدارس الوطنية؛ إذ تجد هذه المدارس إقبالاً من الطلاب العرب والمسلمين، كما سيجري إيضاحه عند الحديث عن تطور عدد المدارس والطلاب في المدارس الأجنبية.

(٢) مناهجها:

سبق القول بأن النظام أجاز للمدارس الأجنبية العمل؛ وفقًا لمناهج وإشراف تربوي أجنبي مع منح شهادات بلد المنشأ.

وتطبق هذه المدارس المنهج البريطاني، وبعضها المنهج الأمريكي، والبعض الآخر المنهج الفرنسي، ولغة التعليم إما اللغة الإنجليزية أو الفرنسية[9]

مراحل التعليم الخاص في البحرين وما يتعلق بها

مرحلة الحضانة:

التعريف بدُور الحضانة وبيان أهدافها:

عرف قانون المؤسسات التعليمية والتدريبية الخاصة دُور الحضانة بأنها: المؤسسات التي تضم أطفالاً لا تتجاوز أعمارهم سن الثالثة بقصد رعايتهم[10].

دور الحضانة الأجنبية ومناهجها:

مناهج دور الحضانة الأجنبية تتوزع بين المنهج الأمريكي والبريطاني.. ولغتها هي اللغة الإنجليزية.

وغالب العاملات فيها من الجنسية الأمريكية والأوروبية.

وهناك تركيز على الموسيقى؛ إذ يتم تخصيص معامل في هذه الدُور لهذا الغرض[11].

ومن هذا العرض يتبين أن دور الحضانة الأجنبية تحمل جانبين خطيرين:

---

(٦) نشرة تعريفية صادرة عن مدرسة ابن خلدون الوطنية بدولة البحرين باللغة الإنجليزية، وتمت ترجمتها للعربية (IBN KHULDON NATIONAL SCHOOL).

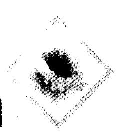
(٧) قانون المؤسسات التعليمية والتدريبية الخاصة رقم (٢٥) للعام ١٩٩٨م، المادة الأولى، ص١.

(٨) قائمة تصنيف المؤسسات التعليمية الخاصة إلى وطنية وأجنبية وجاليات، إدارة التعليم الخاص، وزارة التربية والتعليم، البحرين، ٢٠٠٤/١٢/١١م.

(٩) هذا الحصر مأخوذ من الزيارات الميدانية للمدارس، ومن المنشورات الصادرة عنها، ومن دليل المؤسسات التعليمية الخاصة، إعداد أمينة عيسى، ص٧٠.

(١٠) قانون المؤسسات التعليمية والتدريبية الخاصة رقم (٢٥) للعام ١٩٩٨م، المادة الأولى. الفقرة الرابعة، ص٣.

(١١) كتيبات باللغة الإنجليزية صادرة عن تلك الدور تمت ترجمتها إلى العربية، إضافة إلى الزيارة الميدانية لها.



أولهما: أن برامجها ونشاطاتها خالية من أي بُعد إسلامي أو عربي أو تربوي.

وثانيهما: أن العاملات فيها غير مسلمات، خاصة أن الطفل في هذا السن يتلقى مهاراته عن طريق المحاكاة والتقليد، وبالتالي فلا بد أن يتأثر بهذه البيئة التي يعيش فيها.

مرحلة رياض الأطفال:

تشكل رياض الأطفال في البحرين القطاع الأكثر نموًّا في خريطة التعليم الخاص.

ورياض الأطفال في البحرين -بخلاف دور الحضانة- تقع تحت إشراف وزارة التربية والتعليم [١٢].

مناهج رياض الأطفال:

لا توجد مناهج مكتوبة لرياض الأطفال، لكن مما يدل على واقعها جنسية العاملات فيها؛ إذ جنسيتهن إما أمريكية أو بريطانية وأحيانًا عربية. [١٣]

وهنا لا بد أن يسجل الباحث ما يلي:

١ - لا تشتمل مناهج رياض الأطفال ونشاطاتها ما يعزّز انتماء الطالب لدينه وأمته ووطنه.

٢ - لغة التعلم في رياض الأطفال اللغة الأجنبية، وعليه ينشأ الطفل مقطوع الصلة بلغته العربية.

٣ - تفتقد رياض الأطفال للمحضن التربوي الآمن؛ إذ العاملات فيها غير عربيات ولا مسلمات؛ مما يشكل خطورة على الأطفال في هذا السن بالذات.

وأما بخصوص رياض الأطفال التي تكون العاملات فيها عربيات؛ فإن ثمة إشكالاً آخر لديها يتمثل في أنها لا تهتم بتعليم الطفل القيم الإسلامية أو اللغة العربية.

٣- مراحل التعليم العام:

من المعلوم أن مراحل التعليم العام -في النظام السائد- تنقسم إلى ثلاث مراحل: الابتدائية والإعدادية والثانوية... بينما مراحل التعليم في المدارس الأجنبية توزع على اثني عشر سنة من ١ - ١٢ تمثل كل مرحلة سنة دراسية كاملة...» [١٤].

وإضافة إلى المواد التي تدرسها المدارس الأجنبية؛ فإنها تلتزم بالمناهج التي توافق عليها الوزارة فيما يتعلق بمقررات اللغة العربية للطلبة العرب، والتربية الإسلامية للطلبة المسلمين، وتاريخ وجغرافية البحرين لجميع الطلبة).

ويفترض في هذه المواد الإجبارية (اللغة العربية، التربية الإسلامية، تاريخ وجغرافية البحرين) أن تربط الطالب بدينه ولغته ووطنه إذا كانت مناسبة من جهة عدد ساعاتها وطبيعة مناهجها والقائمين بتدريسها، ولكن بالنظر إلى الواقع يمكن للباحث أن يلحظ ما يلي:

١ - أن عدد ساعات هذه المواد غير كافية؛ إذ غالب هذه المدارس لا تلتزم من جهة مادة اللغة العربية إلا بحصة واحدة في الأسبوع، أما مادة التربية الإسلامية فهي حصة واحدة في الأسبوع بموجب النظام المشار إليه، وأما مادة تاريخ وجغرافية البحرين فهي حصة واحدة في الأسبوع، على أنه من المهم الإشارة إلى أن بعض المدارس الأجنبية لا تقوم بتدريس هذه المواد أصلاً.

> تفتقد رياض الأطفال للمحضن التربوي الآمن؛ إذ العاملات فيها غير عربيات ولا مسلمات مما يشكل خطورة على الأطفال في هذا السن بالذات

٢ - أن هذه المواد لا تجد العناية والاهتمام الذي تجده المواد الأخرى، فلدى الطلاب مفهوم سائد أنه لا يوجد رسوب في هذه المواد، مما جعلها مواد هامشية. وعليه فيضعف الأثر الإيجابي لهذه المواد.

نشأة التعليم الخاص في البحرين

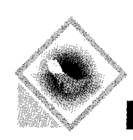
تعتبر مدرستي (الرجاء، البيان) من أقدم وأهم وأكبر المدارس في البحرين.

---

(١٢) دليل المؤسسات التعليمية الخاصة، أمينة عيسى أحمد، ص١١.

(١٣) المصدر السابق.

(١٤) نشرة تعريفية صادرة عن مدرسة ابن خلدون الوطنية بدولة البحرين باللغة الإنجليزية، وتمت ترجمتها للعربية (IBN KHLUDON NATIONAL SCHOOL).



لذا سأعرف بهما من خلال التعريف بهما وبمراحلهما وبمناهجهما:

[١] مدرسة الرجاء (١٨٩٢م):

تمثل مدرسة الرجاء التي كانت في الأصل مدرسة الإرسالية الأمريكية نواة التعليم النظامي في البحرين، وقد قام بتأسيسها القس صموئيل زويمر في العام ١٨٩٢م، كما أنها تعتبر من أول المدارس التي تم إنشاؤها على النمط الغربي في البحرين [١٥].

عدد الطلاب:

وصل عدد طلاب مدرسة الرجاء في العام ٢٠٠٤م إلى (٥٠٠) طالب وطالبة.

الرسوم الدراسية:

يلحظ أن الرسوم الدراسية في مدرسة الرجاء تعتبر ضئيلة فيما إذا قارناها بالمدارس الأخرى، وهذا ما يؤكد وجود دعم للمدرسة من قبل الكنيسة.[١٦]

وهذا الاستنتاج أكده أحد التقارير الذي تناول المدرسة وجاء فيه أن ميزانية المدرسة تبلغ أربعين ألف دينار ربعها تبرعات كنيسة الإصلاح الأمريكية [١٧].

الهيئة التعليمية والطلاب:

مدير المدرسة أمريكي الجنسية، وأما الهيئة التعليمية فتتكون من عدة جنسيات أجنبية وعربية، والغالبية الساحقة من طلابها من الجنسية العربية أكثرهم بحرينيون، ويوجد عدد قليل من الطلاب من جنسيات أجنبية [١٨].

واقع المدرسة:

المدرسة مختلطة بين الطلاب والطالبات في كافة المراحل وسائر الأنشطة، عدا حصة التربية الرياضية، فيتم فيها الفصل بين الجنسين.

وتنظم المدرسة رحلة سنوية داخلية لطلابها وطالباتها، تتخللها عدد من البرامج الترويحية والرياضية التي بالطبع ترسخ مفهوم الاختلاط بين الجنسين.

كما تقوم المدرسة بتنظيم عدد من الزيارات الميدانية لعدد من المرافق والجهات الحكومية والأهلية.

ويؤكد عدد من الطلاب أنه لا يوجد أي دعوة للتنصير من قبل المدرسة أو هيئتها التعليمية، في حين أنهم يؤكدون على أن المعاملة التي يلقاها الطلاب والطالبات من الهيئة التعليمية في المدرسة في غاية اللطف وفي جو من الرعاية والاهتمام.

ولا يوجد مراعاة لأوقات الصلاة خلال اليوم الدراسي، أو عند القيام بأي نشاط يتخلله وقت صلاة؛ فضلاً عن أنه لا يوجد مصلى أو مكان مهيأ لأداء الصلاة فيه أصلاً.

ويرتبط أكثر طلاب المدرسة وطالباتها بعلاقات صداقة نتيجة جو المدرسة المختلط [١٩].

الزي المدرسي:

يلبس الطلاب زيًّا موحدًا يتمثل في البنطال والقميص، وترتدي الطالبات التنورة والقميص، وغالبية الطالبات يكون لباسهن إلى الركبة حتى في المرحلة الثانوية. أما نسبة الطالبات المحجبات في المدرسة - اللاتي يغطين شعورهن - فلا تكاد تُذكر [٢٠].

---

(١٥) اسم الكتاب (AN ANALYTICAL STUDY OF THE SYSTEM OF EDUCATION IN BAHRAIN). دراسة تحليلية لنظام التعليم في مملكة البحرين ١٩٤٠، ١٩٦٥، عبدالملك يوسف الحمر، ص٢٠.

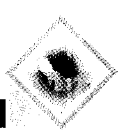
(١٦) المصدر السابق، موقع وزارة التربية والتعليم في البحرين، التعليم الخاص، (www.education.gov).

(١٧) تقرير سري صادر عن إحدى سفارات إحدى الدول العربية في البحرين، ص١٧.

(١٨) زيارة ميدانية للمدرسة في يوم الأحد ١٤٢٦/١/١٨هـ الموافق ٢٠٠٥/٢/٢٧م.

(١٩) مقابلة مع الطالب: محمد بن عيسى الجامع خريج مدرسة الرجاء في يوم الاثنين ٢٦/ ٦/ ١٤٢٦هـ الموافق ٢٠٠٥/٨/١م.

(٢٠) زيارة ميدانية للمدرسة في يوم الأحد ١٤٢٦/١/١٨هـ الموافق ٢٠٠٥/٢/٢٧م.



[٢] مدرسة بيان البحرين النموذجية (١٩٨٢م)[٢١]:

تأسست مدرسة بيان في عام ١٩٨٢م، وهي مدرسة ذات تعليم ثنائي اللغة، وتشمل جميع المراحل من الحضانة وحتى الثانوية العامة، وتهدف المدرسة إلى إعداد الطلاب للجامعة داخل المجتمعات الإنجليزية والعربية، وتقدم منهجًا يؤهل الطالب إلى برنامج دبلوم (البكالوريا) ودبلوم المدرسة الثانوية، كما أنها مؤسسة معتمدة من قبل منظمة الدول الوسطى للمدارس والجامعات[٢٢].

المراحل الدراسية:

مرحلة الحضانة ورياض الأطفال:

يركز في هذه المرحلة على تلقين الطفل الحروف الإنجليزية [٢٣].

ومن المهم الإشارة إلى أن الطفل في مرحلتي الحضانة والروضة لا يتعلم أي مفردة من مفردات التربية الإسلامية التي تعتبر الأساس الذي يربى عليه الطفل المسلم، كما يتم في هذه المرحلة التركيز على اللغة الإنجليزية يصاحبه قصور كبير في تعليم اللغة العربية.

المنهج الابتدائي:

يسعى البرنامج الابتدائي إلى إدراك الطالب لعدد من المواد، يهمنا في هذا الجانب ما يلي:

١- اللغة الإنجليزية: وهي مادة أساسية، ويتم التركيز عليها بشكل كبير، وهي لغة المواد كلها، عدا مادتي التربية الإسلامية واللغة العربية.

٢- الموسيقى: يتعلم الطلاب الموسيقى باللغتين العربية والإنجليزية؛ حيث يتعلم الطلاب كل عام فصلاً دراسيًا في مادة الموسيقى باللغة العربية، وفصلاً آخر باللغة الإنجليزية، والموسيقى مادة إجبارية على الطلاب من مرحلة الروضة وحتى نهاية المرحلة الإعدادية.

منهج المدرسة المتوسطة:

يدرس الطلاب المواد المذكورة إضافة إلى المواد الآتية:

❖ التاريخ: ويركز في هذه المادة على تاريخ الحضارات القديمة: (الإغريق، الفراعنة، اليونان) إضافة إلى الحرب العالمية الأولى والثانية، ولا يدرس الطالب في هذه المرحلة تاريخ الدولة الإسلامية بعصورها المختلفة: (العهد النبوي، الخلفاء الراشدين، الأموية، العباسية، المماليك، العثمانيين، التاريخ الإسلامي الحديث).

❖ اللغة الفرنسية: تقوم المدرسة المتوسطة بتعليم اللغة الفرنسية بوصفها لغة ثالثة في المستوى السابع.

❖ منهج المدرسة الثانوية: يدرس الطلاب في هذه المرحلة كل المواد الدراسية التي سبقت في المرحلة المتوسطة، بالإضافة إلى مادتي (الموسيقى، الدراما) كمادتين اختياريتين [٢٤].

الرسوم الدراسية:

يلحظ من خلال هذا الحصر ارتفاع تكلفة الدراسة في هذه المدرسة التي تناسب أن تكون رسومًا دراسية للمرحلة الجامعية لا لمراحل التعليم العام.. وهذا ما جعل هذه المدارس خاصة بأبناء الأثرياء.[٢٥]

الهيئة التعليمية والطلاب:

تضم الهيئة التعليمية لمدرسة (بيان) عددًا من الجنسيات المختلفة، فهناك الأجانب ويمثلهم معلمون من أمريكا وكندا وأستراليا وبريطانيا، وهناك العرب ويمثلهم معلمون من مصر والأردن والبحرين.

وأما الطلاب، فإن النسبة الغالبة هم البحرينيون، ويوجد نسبة من الأجانب الذين هم غالبًا أبناء الهيئة التعليمية الأجنبية في المدرسة [٢٦].

---

(٢١) كتيب تعريفي بعنوان (The Bahrain Bayan Sshool) صادر عن المدرسة تمت ترجمته إلى العربية .

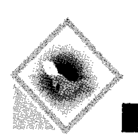
(٢٢) جمعية الدول الوسطى للجامعات والمدارس مقرها في الولايات المتحدة الأمريكية. انظر: ص١٤١.

(٢٣) المصدر السابق.

(٢٤) كتيب تعريفي بعنوان (The Bahrain Bayan School) صادر عن المدرسة تمت ترجمته إلى العربية.

(٢٥) موقع وزارة التربية والتعليم في البحرين، التعليم الخاص (www.education.gov).

(٢٦) زيارة ميدانية للمدرسة في يوم الأربعاء ١٤٢٦/١/٢١هـ الموافق ٢٠٠٥/٣/٢م.



واقع المدرسة:

مدرسة البيان يختلط فيها الطلاب بالطالبات في كافة المراحل وسائر الأنشطة، عدا حصة التربية الرياضية، فيوجد فيها فصل بين الجنسين. ويوجد في المدرسة أنشطة مختلفة كالرحلات الداخلية للمصانع والمتاحف والسينما وغيرها. كما تنظم المدرسة رحلة خارجية علمية -سنوية- (لقبرص) تضم طلاب وطالبات المدرسة، وتضم في برنامجها فعاليات ترويحية وترفيهية.

وتقيم المدرسة حفلات موسيقية يحييها الطلاب والطالبات، إضافة إلى الحفلات المسرحية التي يقدم فيها الطلاب مسرحيات عربية وإنجليزية، وهذه الحفلات تشمل الطلاب والطالبات في المراحل التعليمية كلها.

وتنظم المدرسة كرنفالاً [٢٧] لطلاب المرحلة المتوسطة داخل المدرسة يشتمل على اللعب والرقص والموسيقى والحفلة التنكرية وغيرها من الفعاليات.

تقيم المدرسة حفلات موسيقية يحييها الطلاب والطالبات، إضافة إلى الحفلات المسرحية التي يقدم فيها الطلاب مسرحيات عربية وإنجليزية، وهذه الحفلات تشمل الطلاب والطالبات في المراحل التعليمية كلها

ومن الأنشطة التي تقدمها المدرسة «يوم تعدد الثقافات»؛ حيث يقوم الطلاب بارتداء الأزياء الهندية والأسبانية واليونانية واليابانية في عرض لطرائق الشعوب وعاداتهم، ويعتبر يوم المتعة والسعادة الذي تقيمه المدرسة لطلابها وطالباتها في المرحلة الثانوية والذي يشتمل على اللعب والرقص والغناء والراحة والاسترخاء أحد أوجه النشاط في المدرسة [٢٨].

ولا يراعى في جدول الحصص وقت الصلاة بالرغم من وجود مصلى -والذي يكون أحيانًا مقفلاً وقت الصلاة- فضلاً عن أن تكون الصلاة إلزامية للطلاب... مع أن نسبة ضئيلة من الطلاب هم الذين يلتزمون بأداء الصلاة في المدرسة.

ونتيجة للجو المختلط بين الجنسين في المدرسة أضحت العلاقة بينهما فاشية ظاهرة. على أن من الملاحظ أيضًا فشوّ ظاهرة التدخين في أوساط الطلاب، رغم كونه ممنوعًا داخل المدرسة [٢٩].

الزي المدرسي:

يلبس الطلاب زيًا موحدًا يتمثل في البنطال والقميص، وترتدي الطالبات التنورة والقميص، وأكثر الطالبات يكون لباسهن إلى الركبة حتى في المرحلة الثانوية.

أما الطالبة التي تغطي شعرها فتمثل نسبة قليلة جدًا من مجموع طالبات المدرسة؛ إذ يمكن القول بأن: عدد المحجبات طالبة واحدة من كل عشرين طالبة [٣٠].

نشأة المؤسسة التعليمية الأجنبية:

تعتبر مدرسة (القلب المقدس، البحرين الدولية) من أقدم المدارس الأجنبية في البحرين، لذا سأعرف بهما من خلال التعريف بمناهجهما وبيان واقعهما.

[١] مدرسة القلب المقدس (١٩٤٠م):

تأسست مدرسة القلب المقدس في عام ١٩٤٠م، ويمتلكها الكاهن لويس ماجتيكاني، ويدير المدرسةَ الكنيسةُ الكاثوليكية في البحرين (كنيسة القلب المقدس) [٣١].

(٢٧) الكرنفال (CARNIVAL): مهرجان يتضمن الغناء والرقص والعزف والموسيقى، وقد يتضمن فقرات ترفيهية مثل حفلات الرقص بالملابس التنكرية، وعرفت الكرنفالات في العصور الوسطى الأوروبية في دول رومانية كاثوليكية، مثل إيطاليا وأسبانيا، وكانت مناسبات للمرح تقام في الأيام التي تسبق موسم الصوم النصراني الكبير، وقيل: إن الكرنفال نشأ من مهرجان روماني قديم كان يقام في منتصف الشتاء، وعادة ما تكون الكرنفالات مبررًا للتصرف اللامسئول. الموسوعة العربية العالمية، ج١٩ ص٢٢٦.

(٢٨) الكتاب السنوي الصادر عن المدرسة للعام ٢٠٠٤م، ٢٠٠٥م باللغة الإنجليزية، وتمت ترجمته إلى العربية ٢٠٠٥م (BAHRAIN BAYAN SCHOOL).

(٢٩) مقابلة مع الطالب أحمد بن علي آل خليفة خريج مدرسة بيان في يوم الأحد ١٤٢٦/٨/٢١هـ الموافق ٢٠٠٥/٩/٢٥م.

(٣٠) زيارة ميدانية للمدرسة في يوم الأربعاء ١٤٢٦/١/٢١هـ الموافق ٢٠٠٥/٣/٢م.

(٣١) اسم الكتاب: AN ANALYTICAL STUDY OF THE SYSTEM OF 1940، 1965 EDUCATION IN BAHRAIN. دراسة تحليلية لنظام التعليم في مملكة البحرين ١٩٤٠، ١٩٦٥، اسم المؤلف: By: ABDULMALIK YOUSUF AL HAMER. عبد الملك يوسف الحمر، ص١١.





الهيئة التعليمية والطلاب:

الإدارة في مدرسة القلب المقدس بريطانية الجنسية، وكذا المعلمون عدا معلمي مادتي التربية الإسلامية واللغة العربية. كما يوجد من ضمن الهيئة التعليمية راهبات بزيهن المعروف، يقمن بتدريس المواد المختلفة.

أما بالنسبة للطلاب فأكثرهم من غير المسلمين، وهم من جنسيات مختلفة: بريطانية وهندية وفلبينية. وأما الطلاب المسلمون فأغلبهم من البحرينيين.

أما على مستوى الطائفة؛ فالملاحظ أن الطلاب المنتمين للمذهب الشيعي أكثر من الطلاب المنتمين للسنة؛ بالنسبة لعموم الطلاب المنتمين للمدرسة.

وفي عام ٢٠٠٤م بلغ عدد طلاب مدرسة القلب المقدس ما يزيد على ألف وأربعمائة طالب وطالبة؛ يمثل الطلاب العرب والمسلمون منهم ما يقارب النصف[٣٢].

المنهج الدراسي:

لا تشتمل مادتا التاريخ والجغرافيا على التاريخ الإسلامي، أو جغرافية العالم الإسلامي.

ومادة الدين عبارة عن حصة واحدة في الأسبوع، ويقوم بتدريسها مدرسات، وفي بعض السنوات كانت إحداهن غير محجبة، على أن هذه المادة ضعيفة من ناحية المحتوى، ولا تجد الاهتمام المطلوب، ولذا فأثرها في تعزيز جانب التدين لدى الطلاب ضعيف.

على أنه من المهم الإشارة إلى أن المدرسة منذ إنشائها في عام ١٩٤٠م وحتى صدور أول قانون لتنظيم التعليم الخاص في عام ١٩٦١م -الذي ألزمت المدارس الخاصة بموجبه بإخال مادة التربية الإسلامية ضمن مناهجها- لم تكن تلك المدرسة تدرس تلك المادة فضلاً عن أنها لم تكن واقعة تحت إشراف الدولة أصلاً.

ولي أن أتساءل عن حال الجيل أو الأجيال التي خرجتها تلك المدرسة خلال عشرين عامًا حين كانت تعمل وفق أهدافها التنصيرية وبأسلوب ظاهر مكشوف؟!

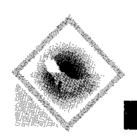
الزي المدرسي:

في مدرسة القلب المقدس يتم إلزام الطالبات بزي موحد، والطالبات يلبسن لباسًا إلى حد الركبة. ونسبة الطالبات المسلمات اللاتي يغطين شعورهن لا تكاد تُذكر[٣٣].

---

(٣٢) زيارة ميدانية للمدرسة في يوم الثلاثاء ١٤٢٦/١/٢٧هـ الموافق ٢٠٠٥/٣/٨م.

(٣٣) الزيارة الميدانية للمدرسة .



الرسوم الدراسية:

يُلحظ أن الرسوم الدراسية متدنية جدًا، بل يمكن اعتبارها رسومًا رمزية؛ ولو قارنا بينها وبين المدارس الأخرى لوجدنا أن المدارس الأخرى تتجاوزها بعشرة أضعاف.. وهذا ما يؤكد رعاية الكنيسة للمدرسة وتقديمها الدعم المادي لها.(٣٤)

واقع المدرسة:

مدرسة القلب المقدس من أكثر المدارس التي يظهر عليها الطابع الديني النصراني؛ يتمثل ذلك في جود راهبات يقمن بالتدريس ووجود صور لرموز نصرانية معلقة على حوائط المدرسة كصور للبابا وبعض القسيسين (٣٥).

على أن المدرسة كانت في وقت سابق تُلزم طلابها المسلمين وغيرهم بارتداء الزي المدرسي الذي كان يحمل صورة الصليب.

والمدرسة تعمل وفق نظام اختلاط الطلاب بالطالبات في كافة المراحل وسائر الأنشطة، ونتيجة لذلك تكثر العلاقات العاطفية بين الطلاب والطالبات، وأحيانًا تكون تلك العلاقة بين طالبة مسلمة وطالب غير مسلم، والعكس يحصل أيضًا.

تراعي المدرسة في نظامها الشعائر النصرانية من غير مراعاة للشعائر الإسلامية؛ فمثلاً لا يوجد مصلى، ولا يراعى وقت الصلاة في جدول الحصص المدرسي؛ ولا يلتزم الطلاب المسلمون بأدائها، إضافة إلى أن المقصف -البوفيه- يستمر في عمله خلال شهر رمضان من غير توقف؛ وإن كان أكثر الطلاب المسلمين يصومون.

وتمنح المدرسة إجازتها الأسبوعية لطلابها في يومي الجمعة والأحد، على أنه خلال احتفالات أعياد الكريسمس يُعطَى الطلاب إجازة لمدة أسبوعين.

وتنظم المدرسة رحلات داخلية لطلابها لعدد من الأماكن والمرافق، وتكون هذه الرحلات مختلطة بين الجنسين.

وتقيم المدرسة أيضًا حفل تخريج -سنويًا- لطلابها وطالباتها يتخلله برامج مسرحية وموسيقية (٣٦).

[٣] مدرسة البحرين (١٩٦٨م):

أنشئت مدرسة البحرين من قبل وزارة الدفاع الأمريكية؛ لتعليم أبناء أفراد الجيش الأمريكي المقيم في قاعدة الجفير(٣٧) الأمريكية في البحرين، وهي ضمن مدارس أخرى أنشئت في كل من هولندا، والمملكة المتحدة والنرويج، وبلجيكا وألمانيا، وإيطاليا وتركيا وأسبانيا لهذا الغرض (٣٨).

وقد توسعت مدرسة البحرين الدولية لتقبل غير أبناء العسكريين الأمريكان، بل أصبح الملتحقون بالمدرسة من غير الأمريكان أكثر من الأمريكان أنفسهم.

الرسوم الدراسية:

الرسوم الدراسية الخاصة بالمدرسة مرتفعة جدًا، بل تعتبر رسومها من أعلى الرسوم على المستوى التعليم الخاص في البحرين كلها. وهذه الرسوم مقررة على الطلاب الوافدين، أما الطلاب المنتمون للجنسية الأمريكية فلهم رسوم خاصة تقترب من كونها رسومًا رمزية.(٣٩).

الهيئة التعليمية والطلاب:

إدارة المدرسة أمريكية، والهيئة التعليمية فيها بين أمريكيين وأوروبيين والأمريكيون أغلب، وبالنسبة لدياناتهم: فمنهم النصارى ومنهم اليهود، ومدرسو مادة اللغة العربية من الجنسية العربية.

---

(٣٤) موقع وزارة التربية والتعليم في البحرين، التعليم الخاص (www.education.gov).

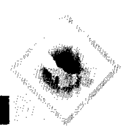
(٣٥) الزيارة الميدانية للمدرسة.

(٣٦) مقابلة مع الطالب سلمان الرشيد -خريج مدرسة القلب المقدس- في يوم الأحد ١٤٢٦/٦/٢٥هـ الموافق ٢٠٠٥/٧/٣١م، إضافة إلى الزيارة الميدانية للمدرسة.

(٣٧) الجفير منطقة في البحرين تسمى بهذا الاسم، وفيها يقع الأسطول الأمريكي الخامس. انظر: ص٥٠.

(٣٨) كتاب تعريفي صادر عن المدرسة للعام ٢٠٠٤م.

(٣٩) موقع وزارة التربية والتعليم في البحرين، التعليم الخاص، (www.education.gov).



أمـا الطلاب فهـم من جنسـيات مختلفـة، وإن كان أكثرهم من العرب والمسلمين، والطلاب الشيعة أكثر مـن الطـلاب السـنة، وفي السـنوات الأخـيرة زاد عـدد الطلاب السـعوديين خاصة ممن يعمل ذووهم في شركة (أرامكو) النفطية (٤٠).

وبلغ عـدد طلاب المدرسـة وطالباتهـا الإجمالي للعام ٢٠٠٤م مـا يزيد على ألف طالـب وطالبة، يمثلون أكثر من أربعين جنسية مختلفة (٤١).

المراحل والمواد الدراسية:

تضـم مدرسـة البحريـن المراحل الدراسـية كلها من الحضانة حتى المرحلة الثانوية.

والمواد فيها على نوعين:

مواد إجبارية: ومنهـا: اللغة الإنجليزية، اللغة العربية- للعرب، تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، الموسيقى.

مـواد اختيارية: ومنهـا: الدراما، واللغات: الفرنسـية والأسبانية والألمانية.

وتركـز مـادة التاريـخ -كما هو عنوانهـا- علـى التاريـخ الأمريكـي والمراحـل الـتي مـر بهـا، بدايـة من مرحلة الاسـتكشـاف وحتـى التاريخ الحالي، ولهذا لا يوجد ضمن مفردات المنهج تاريخ العالم الإسـلامي، بل ولا تاريخ البحرين أو جغرافيته.

كما لا توجد مادة التربية الإسلامية في مراحل التعليم كلها، بدءًا من الحضانة وحتى نهاية المرحلة الثانوية.

وممـا تتضمنه مادة الدراما تعليـم الطلاب والطالبات طريقة الرقص الغربي (٤٢).

واقع المدرسة:

إذا كانـت مدرسـة القلـب المقـدس تحمـل الطابـع التنصيري العقدي؛ فمدرسة البحرين الدولية تحمل طابع ترسيخ السلوك الغربي لدى الطالب.

وعلى هذا فتعتبر مدرسـة البحرين بيئة مصغرة للحياة الغربية بكل قيمها ومفاهيمها وعاداتها. فالاختلاط بين الجنسين فيها بارز وواضح، بل يمكن القول بأنه متعمد ومقصود؛ إذ إن الاختلاط يشـمل كافة الأنشطة، حتى السـباحة يمارسـها الطلاب والطالبات سويًا إلى الصف الأول الثانوي، وتكون بملابس السباحة المعروفة (٤٣).

ونتـج عن هذا الاختلاط المشـين شـيوع العلاقات بين الجنسـين على نحو ظاهـر، وامتدت تلك العلاقات حتى كانت بين العرب من الجنسـين وغيرهم من الجنسـيات الأخـرى، وتطفو على السـطح بين آونـة وأخرى حالات تبرز مسـاوئ الاختلاط ومفاسده، ففي عام (١٤١٨هـ- ١٩٩٨م) تم اكتشـاف حالة حمل غير شرعي لدى طالبة أمريكية فتم ترحيلها إلى أمريكا في حينه.

> تعتبر مدرسة البحرين بيئة مصغرة للحياة الغربية بكل قيمها ومفاهيمها وعاداتها فالاختلاط بين الجنسين فيها بارز وواضح بل يمكن القول بأنه متعمد ومقصود

وبشـأن العلاقـات العاطفيـة بـين الطلاب والطالبات، فقد تعدت حدود الجنسيات؛ إذ شملت طلابًا أجانب مع عربيات، وطلابًا عربًا مع أجنبيات.

وينتشـر بـين الطـلاب والطالبـات تعاطي الحشـيش والحبـوب المخدرة، ولعـل هـذا هـو السـبب في أن يـورد كتـاب الطالـب تعهـدًا يوقع عليه الطالب وولي أمـره يتضمن فقرة حول منـع تعاطـي الخمـور والمخـدرات، أو ترويجهـا داخـل المدرسة (٤٤).

وذلك لأن التأكيد على هذا الأمر في مؤسسـة تربوية محل نظر وتأمل، وهو يقود إلى القول بأن المدرسة تعاني من انتشار هذه الظاهرة؛ فنصت على منعها لأجل ذلك.

---

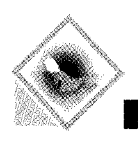
(٤٠) زيارة ميدانية للمدرسة في يوم الأربعاء ٢٨/١/١٤٢٦هـ الموافق ٩/٣/٢٠٠٥م.

(٤١) الزيارة الميدانية للمدرسة.

(٤٢) كتاب تعريفي صادر عن المدرسة للعام ٢٠٠٤م.

(٤٣) الكتاب السنوي الصادر عن المدرسة للعام ٢٠٠٠م باللغة الإنجليزية، وتمت ترجمته للعربية، ص١٩٨.

(٤٤) كتاب الطالب Student Handbook، ص٥٧.



ولا يتم مراعاة أوقات الصلاة في جدول الحصص اليومي، ولا خلال الرحلات والزيارات الميدانية، على أنه يوجد مكان معد للصلاة داخل المدرسة لا يرتاده سوى عدد قليل ومحدود من الطلاب المسلمين، وفي إحدى السنوات وُجدت حالات مضايقة لطلاب كانوا يحرصون على أداء الصلاة. ومن الجدير بالذكر أن نسبة قليلة من الطلاب المسلمين يصومون رمضان [٤٥].

الاهتمام بالأعياد [٤٦]:

يجد الاحتفال بالأعياد النصرانية على اختلافها اهتمامًا كبيرًا من المدرسة، فتقوم المدرسة بالاحتفال بعيد (الكريسمس) وعيد (رأس السنة الميلادية) وعيد الحب، وأعياد الميلاد الشخصية للطلاب أو للهيئة التعليمية [٤٧].

وخلال السنة تقيم المدرسة حفلات موسيقية ومهرجانات غنائية يحييها الطلاب والطالبات، ولم يقتصر اهتمام المدرسة بالموسيقى على هذا فحسب، بل إنها كونت فرقًا موسيقية من الطلاب والطالبات تشارك في مهرجانات موسيقية محلية وعالمية [٤٨].

وتمارس الطالبة في المدرسة الرياضة بأنواعها، ويوجد فريق رياضي للطالبات في مختلف الرياضيات، ويلبس الطالبات حال ممارستهن لها ما يُظهر أكثر من الفخذ، ومدرس مادة الرياضة رجل، ويجري هذا الفريق مباريات مع فرق في مدارس أجنبية أخرى في البحرين، وأحيانًا يرتفع التمثيل للمشاركة في مباريات في الدوحة والكويت وآثينا [٤٩].

ومن ضمن الأنشطة التي تقيمها المدرسة: عيد الرقص والتمثيل؛ الذي يقوم الطلاب والطالبات فيه بالرقص على الطريقة الغربية؛ إضافة إلى برامج أخرى ترفيهية.

وترتب المدرسة لطلابها رحلات خارجية لعدد من الدول الأوروبية كباريس وسويسرا ولندن، وهي رحلات ترفيهية، إضافة إلى عدد من الدول العربية كبيروت والقاهرة.

ومن المهم الإشارة إلى أن الطلاب والطالبات في رحلاتهم الداخلية والخارجية يعيشون في حرية كاملة، ومن يطَّلِع على صورهم خلال تلك الزيارات لا يرى أن هناك قيودًا أو ضوابط لتعامل الطالب مع الطالبة، بل يمكن القول: إن المشاهد يرى طلابًا وطالبات لا يميزهم عن الطالب والطالبة الغربية سوى الأسماء والجنسيات.

ولا عجب أن يكون حال الطلاب والطالبات هكذا؛ فالتقرير السنوي للمدرسة يجمع بين كل طالب وطالبة يشتركان في شيء معين، مثل: (أجمل عيون، أجمل ابتسامة، أكثر حبًا ومودة، الأكثر رياضة) [٥٠].

نادي الخدمة:

يهدف النادي إلى مساعدة المحتاجين، وتقديم العون لهم من خلال تنظيم المهرجانات والحفلات الراقصة والموسيقية والأسواق الخيرية؛ ليعود ريعها على هذا الجانب.

ويتم استغلال المناسبات الدينية -النصرانية- في هذا الأمر؛ إذ يتم توزيع الطعام على المحتاجين في احتفالات عيد الكريسمس [٥١].

الزي المدرسي:

تنص أنظمة المدرسة على أنه ليس هناك زيد موحد أو معين يلزم به الطلاب والطالبات، فالأمر متروك للطالب والطالبة في اختيار الزي الذي يريدانه.

وغالب الطالبات يلبسن ما يكشف ما فوق الركبة، مع المبالغة في الألبسة الفاتنة.

---

(٤٥) مقابلة مع الطالب سلمان الجويسر، خرج مدرسة البحرين، في يوم الثلاثاء ١٤٢٦/٤/٢هـ الموافق ٢٠٠٥/٥/١٠م.

(٤٦) في موضوع الأعياد انظر: الأعياد وأثرها على المسلمين، الدكتور سليمان السحيمي، الجامعة الإسلامية، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

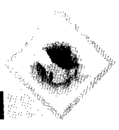
(٤٧) التقرير السنوي ص١٧٧، ٤٣، ٩٧، ٩٠.

(٤٨) المصدر السابق، ص١٨٦.

(٤٩) المصدر السابق، ص١٧٣، ١٧٦.

(٥٠) المصدر السابق، ص٤٣، ٤٨.

(٥١) كتاب الطالب Student Handbook، ص٤٨.



وإذا نصت أنظمة المدرسة على وضع ضوابط للباس(٥٢)؛ فإنها في الواقع غير مطبقة.

وبخصوص تحجب الطالبات، فإنه يمكن القول من خلال الزيارة الميدانية أنه لا توجد طالبة محجبة، ولعل هذا نتيجة طبيعية لواقع المدرسة (٥٣).

السكن الداخلي:

يوجد لدى مدرسة البحرين سكن داخلي يقع في حرمها وتحت إشرافها، يستفيد منه اثنان وخمسون طالبة واثنان وستون طالبًا من الصف الأول الثانوي وحتى الصف الثالث الثانوي.

والسكن مختلط بين الطلاب والطالبات سوى في الأماكن المعدة للنوم، ويستفيد الطلاب من قاعة مشتركة للاستراحة ومركز ترفيهي تابع للسكن.

وتشتمل الأنشطة التي يمارسها الطلبة في أيام الأسبوع الاعتيادية وعطلة نهاية الأسبوع على رياضة ركوب الخيل، وحضور المهرجانات المختلفة، والمعارض والحفلات، فضلاً عن المشاركة في الرحلات إلى المنتجعات والسواحل المحلية والمجمعات التجارية، ودور السينما والمطاعم، والمعالم السياحية بالبحرين. (٥٤)

نشأة معاهد التعليم الأجنبية:

يوجد في البحرين خمسون معهدًا حسب إحصائية وزارة التربية والتعليم للعام ١٩٩٧م، وهذه المعاهد تختلف نشاطاتها، فمنها ما هو متخصص لتعليم اللغات، وبعضها للحاسب الآلي، وهناك معاهد لتعليم التصوير والموسيقى وفن الباليه.

ولكون هذه المعاهد أجنبية أولاً، ولما تمارسه من دور ثانيًا؛ فإني سأعرض لمعهدين منها فحسب:

(٥٢) كتاب الطالب Student Handbook ، ص٨٢.

(٥٣) الزيارة الميدانية للمدرسة .

(٥٤) كتاب تعريفي صادر عن المدرسة باللغتين العربية والإنجليزية للعام ٢٠٠٤م.

[١] المعهد الثقافي البريطاني (١٩٥٨م):

يعتبر المعهد البريطاني للغات من أقدم المراكز الأجنبية في البحرين؛ إذ تأسس في عام (١٩٥٨م) وهو يتبع المجلس البريطاني (٥٥).

وهو مَعْنِيّ بتعليم اللغة الإنجليزية على وجه الخصوص، والهيئة التعليمية فيه من الجنسية البريطانية (٥٦).

البعثات الخارجية:

ينظم المعهد بعثات خارجية إلى المملكة المتحدة للمتفوقين للدراسة في جامعاتها، وينظم المعهد كذلك دورات صيفية للطلاب من سن ١٠- ١٧ في بريطانيا، ويتخلل البرنامج الصيفي؛ إضافة إلى تعليم اللغة الإنجليزية، برامج ترفيهية وسياحية.

كما أن المركز البريطاني يتجاوز دوره من خلال إقامة معرض تعليمي سنوي في البحرين، يتم فيه التعريف بالجامعات البريطانية، والدعاية للدراسة فيها، يحضره ممثلون عن تلك الجامعات للإجابة على جميع الأسئلة والأمور المتعلقة بالتقدم للدراسة في بريطانية لمن يرغب فيها (٥٧).

واقع المعهد:

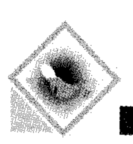
ينظّم المعهد عددًا من الأنشطة والبرامج الترفيهية لطلابه والمنتسبين له، فيرتب الرحلات البرية والبحرية، والزيارات لعدد من المرافق السياحية.

كما أن المعهد يشارك في عدد من الأعمال التطوعية والخيرية، بالمشاركة مع الأندية والمؤسسات الخيرية في البحرين.

(٥٥) المجلس البريطاني: منظمة تهتم بالاتصالات الثقافية والعلمية بين بريطانيا والدول الأخرى، كما تهتم بتعليم اللغة الإنجليزية خارج بريطانيا. تأسس في العام ١٩٣٤م. الموسوعة العربية العالمية، ج٢٢ ص٢٨٧ .

(٥٦) زيارة ميدانية للمعهد في يوم الاثنين ١٤٢٦/٤/٢٩هـ الموافق ٢٠٠٥/٦/٦م.

(٥٧) المنشورات الصادرة عن المعهد .



[٢] المعهد الثقافي الفرنسي (١٩٦٩م):

تأسس المعهد الثقافي الفرنسي في العام (١٩٦٩م) وهو مَعْنيّ بتدريس اللغة الفرنسية، والهيئة التعليمية فيه من الجنسية الفرنسية، ويوجد عرب في أعمال إدارية[٥٨]. والدراسة في المعهد مختلطة بين الجنسين[٥٩].

البعثات الخارجية:

ينظم المعهد الفرنسي بعثات خارجية إلى فرنسا للطلبة المتفوقين ولطلبة المراحل المتقدمة.

كما يوجد بالمعهد مركز خاص يقدم كافة المعلومات عن طريقة الدراسة وأماكن السياحة في فرنسا. ويعتبر هذا المركز قاعدة معلومات تخدم الراغبين في السفر إلى فرنسا؛ لغرض الدراسة أو السياحة[٦٠].

واقع المعهد:

للمعهد الفرنسي نشاط قوي في غير الجانب التعليمي، فهو ينظم الحفلات الموسيقية والاحتفالات المسرحية، ويقوم بعرض الأفلام السينمائية -الفرنسية- في صالة المعهد.

كما يرتب المعهد لطلابه وطالباته زيارات دورية لعدد من المرافق والمناطق السياحية في البحرين.

كما يضم المعهد أماكن ترفيهية، وملعبًا تتاح فيه فرصة ممارسة الرياضة لمنسوبي المعهد[٦١].

وفي الجدول التالي نموذج لما قام به المعهد من نشاط ثقافي خلال شهري مارس- أبريل ٢٠٠٥م[٦٢]:

مسلسل	التاريخ	النشاط
١	١٦ مارس	فيلم سينمائي فرنسي
٢	٢٢ مارس	اجتماع جمعية الفرنسيين بالبحرين
٣	٢٣ مارس	مهرجان المسرح الفرنسي للطفولة
٤	٢٨ مارس	معرض الخليج للتعليم
٥	٣٠ مارس	فيلم سينمائي فرنسي
٦	٦ أبريل	فيلم سينمائي فرنسي
٧	١٣ أبريل	فيلم سينمائي فرنسي
٨	١٨ أبريل	محاضرة بعنوان (الغرب والإسلام) باللغة العربية لمحاضر فرنسي
٩	١٩ أبريل	محاضرة بعنوان (الغرب والإسلام) باللغة الفرنسية لمحاضر فرنسي
١٠	٢٠ أبريل	محاضرة بعنوان (الشعر العربي الحديث بين الإسلام والشرق) باللغة العربية لمحاضر فرنسي

ومن خلال هذا الجدول يتضح أن نشاط المعهد غير التعليمي يأخذ اتجاهين:

الاتجاه الأول: نشر الثقافة الفرنسية من خلال الفيلم والمسرح والكلمة، ولكافة شرائح المجتمع.

الاتجاه الثاني: النشاط المكثف؛ إذ إن عشرة أنشطة خلال خمسة وعشرين يومًا تعتبر نشاطًا ملحوظًا.

تطور التعليم الخاص في البحرين

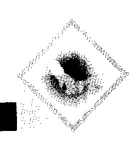
تطور التعليم الخاص (عدد المدارس)

بدأ التعليم الأجنبي في عام (١٨٩٢م) من خلال مدرسة واحدة (مدرسة الرجاء)، ومضى على بداياته ما يزيد على مائة سنة، تطور فيها تطورًا كميًّا محلوظًا؛ إذ بلغ عدد المدارس الأجنبية في البحرين في آخر إحصائية (٢٠٠٥م) خمسًا وخمسين مدرسة، بمعدل مدرسة في كل سنتين تقريبًا.[٦٣]

وهذا العدد الذي بلغ (خمسًا وخمسين) مدرسة يعتبر عاليًا؛ إذا ما قارناه بعدد السكان البالغ ٥٨٢ ألف نسمة؛ يشكل البحرينيون منهم ٦٣,٦٪

(٥٨) زيارة ميدانية للمعهد في يوم الاثنين ١٤٢٦/٤/٢٩هـ الموافق ٢٠٠٥/٦/٦م.
(٥٩) المصدر السابق.
(٦٠) المصدر السابق.
(٦١) زيارة ميدانية للمعهد في يوم الاثنين ١٤٢٦/٤/٢٩هـ الموافق ٢٠٠٥/٦/٦م.
(٦٢) نشرة صادرة عن المعهد باللغة الفرنسية Agend Culturel- mars- avril 2005، البرنامج الثقافي مارس، أبريل ٢٠٠٥م تمت ترجمتها للعربية.

(٦٣) إحصائية التعليم للعام ٢٠٠٤- ٢٠٠٥م، إدارة الإحصاء التربوي، وزارة التربية والتعليم، البحرين، ص١٥.



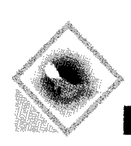
وبمساحة البلاد البالغة ٦٩٥ كم٢.

ولا تـزال المـدارس الأجنبية في ازديـاد مطرد ، خاصة أن الاسـتثمار في التعليم يعد واحدًا من أوجه الاسـتثمار الجيد والناجح.

تطور التعليم الخاص (عدد الطلاب):

شـهدت المـدارس الأجنبية في السـنوات الأخيرة إقبالاً كبيرًا من الطلاب على الالتحاق بها.

فمثـلاً في عـام ١٩٩٠م بلـغ عـدد الطـلاب (٢٢٤٠٦) طالبًـا ، وفي عـام ٢٠٠٤م بلـغ عـدد الطـلاب (٥٠٤٢٠) طالبًـا.. أي أصبحت نسـبة زيادة الطلاب خلال خمسـة عشر عامًا الضعف ونصفه.



معلومات إضافية

بدايات التعليم الأجنبي في العالم الإسلامي:

ارتبط التعليم الأجنبي منذ وفوده على البلاد الإسلامية كما ذكر جب في كتابه: (وجهة الإسلام): بالإرساليات التبشيرية، وتنسب بداية المحاولة إلى الأسباني (ريمون لول)، ثم أخذت الجمعيات التبشيرية في الانتشار في أواخر القرن ١٨ وأوائل الـ١٩ التي كان أحد أهم مناشطها التعليم، خاصة مع تحول الكنائس الكبرى في أوروبا من الإطار الكهنوتي البحت إلى الإطار التعليمي بإنشاء المدارس والمعاهد التابعة لها.

وقد بدأت الإرساليات تمارس نفس الدور في العالم الإسلامي، خاصة حين أخفقت الأساليب المباشرة للتبشير فشرعت في أداء الدور التعليمي، وخاصة بعد أن رأى المبشرون من خلال مؤتمراتهم وخبراتهم المتبادلة أن العمل في جانب الصغار أجدى بكثير من الكبار وفي جانب الفتيات أخطر منه في البنين.

انطلقت الشرارة الأولى في بيروت بإنشاء مدرسة للبنات في الإمبراطورية العثمانية سنة ١٨٣٠م؛ لأن البنات سيكُنَّ أمهات؛ فإذا تربَّيْن في هذه المدارس النصرانية أثرن على أولادهن!! وكانت تعنَى ببنات الأسر والبيوت الكبيرة اللاتي سيكون لهن السيطرة على الجيل المقبل؛ ولهذا قال بعض دعاتهم:«إن مدرسة البنات في بيروت هي بؤبؤ عيني»!!

وقد تركزت في لبنان جهود الأمريكيين، والفرنسيين، وقد كان للجامعة اليسوعية (الأمريكية فيما بعد) وجامعة القديس يوسف دور خطير في لبنان بالتقاط النابهين من نصارى الشام وبنائهم نماذج متغربة تعمل لحساب المشروع الغربي؛ حيث ارتبط كثير منهم بالمخطط الماسوني الهادف لإسقاط الدولة العثمانية وتفتيت العالم الإسلامي وغرس الدولة اليهودية في المنطقة.

وفي مصر عام ١٨٤٠م، ومن خلال البعثات التنصيرية قام «الآباء» بتأسيس «الكلية الفرنسية» بالإسكندرية و«الجمعية الإنجيلية البروتستانتية»، و«جمعية راهبات القلب المقدس» عام ١٨٤٥م، ثم تلتها «الإخوة المسيحيون» و«الفرير» عام ١٨٤٧م ثم الآباء اليسوعيون والجزويت ثم الفرنسيسكان ١٨٥٩م والميردي ديو (وتعني أم الله! تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا) ١٨٧٧م.

ثم تبعتها مدارس الآباء اليسوعيين عام ١٨٨٠م كمقدمة لاحتلال مصر في عام ١٨٨٢م، وقد بلغ عدد مجموع الطلاب من المسلمين ٧١١٧ طالبًا مسلمًا حتى عام ١٨٩١م، وهو رقم مذهل بمقاييس تلك الأيام وظروفها.

كان انتشار المدارس الأجنبية في مصر مكثفًا ومقصودًا؛ حتى إنها الآن تبلغ عشرات الآلاف من المدارس، ويشير مؤرخو المدارس الأجنبية إلى أن اليونانيين كانوا كلما حلوا في بلد أنشأوا فيه كنيسة ومدرسة، كما فعلوا في الإسكندرية عام ١٨٤٣م ثم في المنصورة، وطنطا، وبورسعيد، والسويس، والقاهرة وغيرها، وهكذا الجالية الإيطالية منذ عام ١٨٦٢م، والجالية الألمانية عام ١٨٦٦م، واليهود منذ عام ١٨٧٢م، والمارونيون السوريون، وكانت أولى الجاليات الجالية الأرمنية عام ١٨٢٨م في بولاق.

أما عن تعليم البنات فقد كان هناك مدرستان في أواخر العقد السادس من القرن الماضي للتعليم العام بحي الأزبكية: واحدة تابعة للكنيسة الأرثوذكسية، والأخرى تابعة لكنيسة الأقباط الإنجيليين. وفي عام ١٩٠٤م أنشأت الكنيسة القبطية أول مدرسة صناعية ببولاق.



- كما شهدت سوريا بالتزامن مع حالة لبنان ومصر جهودًا موسعة لفتح المدارس الإرسالية حتى كان نصيب سوريا وحدها من المدارس الأمريكية عام ١٩٠٩م: (١٧٤) مدرسة في المدن والقرى.

- وفي السودان قامت الكثير من أنواع المدارس والبعثات التنصيرية.

- وأما في جبال النوبة فقد استولت الإرساليات البريطانية على التعليم فيها منذ عام ١٩١٩م وحاصرت توسع الإسلام واللغة العربية، وأغلقت ما يفتح من المدارس الإسلامية حتى عام ١٩٣١م.

- وفي العراق: في أوائل القرن العشرين الميلادي كانت أول مدرسة تبشيرية في البصرة مدرسة للبنات، ثم انتشرت مدارسهم في أنحاء العراق.

- وهذا ما جرى عليه الحال في سائر بلاد الإسلام، خاصة البلاد التي دخلها الاستعمار.

وقد كان جُلّ اهتمام التنصير منصبًا على مصر وباكستان تحديدًا؛ ولذا نالا قسطًا أكبر من الغزو عمومًا ومن خلال التعليم على وجه الخصوص. يقول (ستيف نيل) مؤرخ الكنيسة: «في العالم الإسلامي دولتان تمثلان أكبر أهمية بالنسبة للتنصير، هما باكستان ومصر، وسقوط إحداهما في قبضتنا يعني إزالة أكبر عقبتين من طريق الكنيسة».

وفيما يلي بعض الإحصائيات حول نشاط عدد من أشهر المدارس في باكستان تعطي صورة عن حجم النشاط وما يصبو إليه وما يمكن أن يحققه:

- في مدرسة القديس باتريك في كراتشي (٢١٠٠) طالب مسلم و(٤٠٠) نصراني!
- وفي مدرسة القديس يوسف (٢١٠٠) مسلم، و(١٠٠) نصراني!
- وفي مدرسة القديس لورانس (١٠٥٠) مسلمًا، و(١٥٠) نصرانيًا!
- وفي مدرسة القديس جوز (١٠٠) مسلم، وليس فيها نصراني واحد.
- وفي مدرسة المسيح الملك (٧٠٠) مسلم، (٣٠٠) نصراني.
- وفي مدرسة القديس جون (٧٠٠) مسلم، (٢٠٠) نصراني.
- وفي مدرسة القديس بونا بونتشر في حيدر آباد (١٥٦٠) مسلمًا، و(٤٠) نصرانيًا.
- وفي مدرسة القديسة ماري في حيدر آباد (١٥٥٨) مسلمًا، (١٣٩) نصرانيًا.

- ولم يتوقف الأمر عند حدود مصر أو باكستان أو بلاد الشام، وإنما زحف نحو جميع البلاد في غفلة من المسلمين. وتشير الأرقام إلى وجود ٢٦٤ مدرسة تنصيرية في ماليزيا، وفي قطر هناك أكثر من ٣٠ مدرسة، وفي مدينة مقديشو وحدها أكثر من ثلاثين مدرسة من هذا النوع!

وطبقًا لإحصائيات عام ١٩٩١م توجد ١٦٥٠٠ مدرسة نصرانية في إفريقيا وحدها.

أما التعليم الجامعي فهناك ثلاث مؤسسات كان لها أبلغ الأثر في تحول كثير من أبناء الأمة عن دينهم وهم:

- جامعة القديس يوسف في لبنان، وهي جامعة بابوية كاثوليكية (تعرف الآن بالجامعة اليسوعية).

- الجامعة الأمريكية التي كانت من قبل تسمى (الكلية السورية الإنجيلية)، ثم كلية بيروت، وقد أنشئت في عام ١٨٦٥م، وهي جامعة بروتستانتية.

- الكلية الفرنسية في لاهور.

إلى جانب (كلية روبرت) في استطنبول، والكلية الأمريكية في القاهرة (الجامعة الأمريكية فيما بعد)، وكلية جوردن (البريطانية) في الخرطوم، وأخيرًا الجامعة الأمريكية الجديدة في الشارقة، وفي قطر.

ومن خلال هذا الجهد المكثف نجح التعليم الأجنبي بمدارسه وجامعاته في تخريج أجيال عملت على خدمة المصالح الغربية على تفاوت فيما بينها.

المصدر:

مهيمن عبد الجبار، التعليم الأجنبي.. مخاطر لا تنتهي!، مجلة البيان، العدد [١٧٤] بتاريخ (صفر ١٤٢٣ - مايو ٢٠٠٢م)، ص ١٨.





العلاقات الخليجية الإيرانية

د. ضيف الله الضعيان
أكاديمي وباحث سعودي

ملخص الدراسة

تُعد منطقة الخليج العربي إحدى أهم المناطق الاستراتيجية في العالم المعاصر، كما أنها في الوقت نفسه أكثر بقاع الأرض عرضة للنزاعات والاضطرابات؛ حيث تتشابك المصالح الاقتصادية العالمية مع المطامع الإقليمية، والتباينات العرقية والأيديولوجية. وتعتبر العلاقات بين الدول الخليجية وإيران ذات طابع خاص منذ القدم، فالأطماع الإيرانية في الخليج، ومحاولات السيطرة عليه مستمرة منذ قدوم الدولة الصفوية وسيطرتها على إيران، وتحويلها بالقوة إلى المذهب الشيعي، ومنذ ذلك الوقت لم يفتر الحماس الإيراني تجاه التوسع على حساب جيرانها من العرب.

وظهرت المزاعم الإيرانية بأحقيتها في البحرين، وفي عام ١٩٧١م قامت باحتلال ثلاث جزر إماراتية، ولم يتغير الأمر بقيام ثورة الخميني؛ إذ تأكد للجميع أن الأطماع الفارسية القديمة بالسيطرة على الخليج ودوله لم تندحر باندحار النظام الشاهنشاهي، بل تعززت وتعاظمت بامتزاجها بالفكر العقدي الرافضي. بدورها مثلت الحرب العراقية الإيرانية وحرب الخليج الثانية محطات بارزة في تاريخ هذه العلاقة الشائكة.

تقف عدة عوامل مؤثرة وراء استمرار التوتر بين دول الخليج وإيران، على رأسها: استمرار احتلال الجزر الإماراتية، والمحاولات المستمرة للسيطرة على الخليج، خاصة في ظل غياب توازن استراتيجي (عربي- خليجي- إيراني) في الوقت الراهن، والنزعة الإيرانية لتملك الأسلحة النووية، بجانب الهدف الذي ظل ثابتًا في قاموس السياسة الإيرانية، وهو تصدير الثورة إلى دول الجوار الخليجي.

ورغم مخاوف دول الخليج من تأثير التغلغل الإيراني في العراق، والتحذيرات الكثيرة من خطورة ترك الساحة العراقية للاستفراد الإيراني الشيعي؛ إلا إن الدول العربية، وعلى رأسها دول الخليج العربي، وقفت موقف المتفرج مما يجري في العراق، ومع ذلك فإنه لا يزال هناك متسع من الوقت لدول الخليج ومحيطها العربي أن تبادر لتفرض لنفسها -بما تملك من أوراق- دورًا أكبر في التأثير على مجريات الأمور داخل العراق.

قد يشير الوضع القائم اليوم إلى أن النظام الإقليمي في المرحلة المقبلة محسوم لصالح إيران؛ نظرًا لحجم الفجوة بين الطرفين، وقوة وأهمية الأوراق والخيوط التي يمسك بها كل منهما، ولكن ذلك ليس حقيقة مؤكدة الحدوث، فلدى إيران إشكالاتها العديدة والعميقة، وفي الوقت نفسه، يمسك الجانب الخليجي ببعض خيوط اللعبة، إن أحسن تحريكها واستخدامها.



العلاقات الخليجية الإيرانية

د. ضيف الله الضعيان
أكاديمي وباحث سعودي

مقدمة:

تعد منطقة الخليج العربي إحدى أهم المناطق الاستراتيجية في العالم المعاصر، كما أنها في الوقت نفسه أكثر بقاع الأرض عرضة للنزاعات والاضطرابات؛ حيث تتشابك المصالح الاقتصادية العالمية مع المطامع الإقليمية والتباينات العِرقية والأيديولوجية. ونظرًا لمخزونها الهائل من النفط الخام (٦٠٪ من الاحتياطي العالمي) إلى جانب الغاز الطبيعي، وهما المادتان الحيويتان لتقدم الدول الصناعية والاقتصاد العالمي بصفة عامة، واقتصاد الولايات المتحدة الأمريكية - المستهلك الرئيس للنفط - بصفة خاصة. كما تتمتع بموقع جغرافي يشكل حلقة الوصل بين قارات العالم ومحيطاته وحضاراته، مما جعلها محط اهتمام الدول الصناعية والقوى الكبرى في الشرق والغرب، وستظل كذلك -والله أعلم- في المدى الزمني المنظور.

الخليج... عربي أم فارسي؟ ...إشكالية التسمية:

جميع الوثائق والخرائط والمعاهدات الدولية- تقريبًا- التي صدرت قبل عام ١٩٦٠م كانت تطلق على الخليج اسم «الخليج الفارسي». وأول من أطلق هذه التسمية «نيارخوس» قائد أسطول الإسكندر الأكبر (عام ٣٢٥ ق.م)، وكان قد عاد من الهند بأسطوله بمحاذاة الساحل الفارسي (الشرقي)، فلم يتعرف إلى الجانب العربي (الساحل الغربي) من الخليج. وبقي هذا الاسم متداولاً حتى تسربت التسمية للغرب عن طريق اليونان. وفي القرن الأول الميلادي أطلق المؤرخ الروماني بليني اسم «الخليج العربي» بعد أن عرف الساحل الغربي المحاذي للجزيرة العربية.[١]

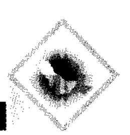
أما اليونان فكانوا يطلقون هذه التسمية - الخليج العربي- على ما يعرف الآن بالبحر الأحمر، بينما أطلقوا على الخليج الفاصل بين الجزيرة العربية وإيران «الخليج الفارسي». وتبنت الخرائط الأوروبية هذه التسميات من العالمين اليونانيين الجغرافيين الشهيرين (Strabo and Ptolemy) سترابو وبتولمي. بل إن كثيرًا من الجغرافيين المسلمين في العصور الإسلامية الأولى تأثروا بهذه التسمية، فأطلقوا مسمى «بحر فارس» على هذا الخليج.[٢] إلا إن المراجع العربية القديمة حملت عدة تسميات أخرى للخليج أهمها؛ بحر العجم، خليج البصرة، خليج عمان، خليج البحرين، خليج القطيف، البحر الأدنى مقابل البحر الأعلى وهو البحر الأبيض المتوسط.[٣]

---

(١) د.محمود علي الدود؛ الخليج العربي والعلاقات الدولية. معهد الدراسات العربية العالمية، دار المعرفة، ج١

(٢) موقع http://www.iranian.com

(٣) أحمد العناني؛ جذور الحاضر الخليجي. قطر: دار المتنبي، ط الأولى، ١٩٨٣، ص٦



ومع صعود القومية العربية في بداية الستينيات، وازدياد الاهتمام العالمي بنفط الخليج، خصوصًا على الجانب العربي منه، شاع لدى العرب استخدام مسمى «الخليج العربي»، وأصبح هذا الاسم مقبولاً تدريجيًا لدى الدول الغربية في التعاملات والقضايا الاقتصادية المتعلقة بالنفط.

الاسم المعتمد رسميًا لدى دول الجامعة العربية هو «الخليج العربي»، كما تستعمله الأمم المتحدة-بصفة غير رسمية- في بعض وثائقها المكتوبة باللغة العربية. ومؤخرًا بعد ازدياد الوجود العسكري الأمريكي في المنطقة، أصدرت وزارة الدفاع الأمريكية تعليمات لكافة قطاعاتها العسكرية العاملة في دول الخليج باستخدام اسم «الخليج العربي»، وإن بقي «الخليج الفارسي» هو الاسم المعتمد لدى الولايات المتحدة الأمريكية في المنشورات الرسمية.

أما إيران فتعتمد اسم «الخليج الفارسي»، بل تعارض ولا تعترف بأي تسمية أخرى.

التسمية...من منظور أكاديمي:

اعترف عدد من باحثي الغرب المنصفين بعروبة الخليج من الناحيتين الجغرافية والتاريخية. من هؤلاء المؤرخ الإنجليزي «رودريك أوين» الذي زار الخليج العربي، وأصدر سنة ١٩٥٧م كتابًا بعنوان «الفقاعة الذهبية – وثائق الخليج العربي»، وقد روى فيه أنه زار الخليج العربي، وهو يعتقد بأنه خليج فارسي؛ لأنه لم ير على الخرائط الجغرافية سوى هذا الاسم، لكنه حين تعرف إليه عن كثب، أيقن بأن الأصح تسميته «الخليج العربي»؛ لأن أكثر سكان سواحله من العرب. وقال: «إن الحقائق والإنصاف يقتضيان بتسميته الخليج العربي». [1]

يقول المؤرخ الدانيماركي كارستن نيبور، الذي جاب الجزيرة العربية عام ١٧٦٢م: «ومن المضحك أن يصور جغرافيونا جزءًا من بلاد العرب كأنه خاضع لحكم ملوك الفرس، في حين أن هؤلاء الملوك لم يتمكنوا قط من أن يكونوا أسياد ساحل البحر في بلادهم الخاصة. لكنهم تحملوا -صابرين على مضض- أن يبقى هذا الساحل ملكًا للعرب». [2]

أبرز المحطات التاريخية في العلاقات الخليجية الإيرانية:

- الأطماع الإيرانية القديمة في الخليج ومحاولات السيطرة:

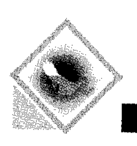
كانت الأراضي الإيرانية خاضعة للدولة الإسلامية، ولم يبدأ انفصالها عنها إلا بقدوم الدولة الصفوية التي أسسها في أذربيجان «إسماعيل الصفوي»، عام ١٥٠٠م الذي بسط نفوذه على شروان والعراق وفارس، واتخذ من «تبريز» عاصمة لدولته. فرضت الدولة الصفوية المذهب الشيعي بالقوة على أهل السنة الذين كانوا أكثرية في في البلدان التي سيطرت عليها، وجعلته مذهب الدولة الرسمي. وبلغت الدولة الصفوية أوجها في عصر «شاه عباس الصفوي» (١٥٨٨-١٦٢٩م) الذي استعان بالإنجليز وأقام لهم مراكز، ومنحهم تسهيلات في إيران والخليج، وهم دعموه في حربه ضد الدولة العثمانية حين هاجمها، وحقق انتصارات عليها مستغلاً انشغالها في حربها مع النمسا في أوروبا. عمل الصفويون على تحويل الحجاج الإيرانيين من مكة إلى مشهد، وقد حج «الشاه عباس الصفوي» سيرًا على قدميه من أصفهان إلى مشهد؛ حيث ضريح الإمام «علي الرضا» الإمام الثامن لدى الشيعة الإمامية، ومنذ ذلك الحين أصبحت مشهد مدينة مقدسة عندهم. [3]

قضى العثمانيون والأفغان على حكم «الشاه حسين» آخر الشاهات الصفويين، وانتهت بزواله الدولة الصفوية الباطنية عام ١٧٢٢م (١١٤٩هـ)، وخلفهم الأفشاريون

(١) كتاب: Golden Bubble: The Arabian Gulf Documentary. المؤلف: Roderic Owen. الناشر: Collins لندن سنة ١٩٥٧.

(٢) رحلات في الجزيرة العربية وبلدان أخرى في الشرق. كارستن نيبور، ص١٣٨

(٣) د.عبد الله محمد الغريب؛ وجاء دور المجوس. ط٤ بدون ناشر، بدون سنة، ص٨٠.



الذين اشتهر منهم «الملك نادر شاه»، الذي حاول التخفيف من الغلو الباطني الاثنا عشري الذي مارسه الصفويون، فأعلن عن المذهب الجعفري الذي ينسب إلى الإمام جعفر الصادق، واعتبره مذهبًا سنيًا خامسًا.[1]

عُرف «نادر شاه» بشخصيته التوسعية، ومحاولاته لإنشاء إمبراطورية فارسية، فأسس أسطولاً بحريًا تمكن من خلاله من فرض نفوذه في الخليج العربي فاحتل البحرين، وعين «آل مذكور» من قبيلة «المطاريش» العربية حُكامًا عليها، واستمر حكمهم للبحرين حتى عام ١٧٨٢م، إلى أن استولت عليها قبيلة العتوب التي ينتمي إليها حُكامها الحاليون (آل خليفة).

حاول نادر شاه احتلال عمان؛ ليعزز من سيطرته على مضيق هرمز، ولينتقم من العمانيين بسبب هجماتهم على الساحل الفارسي الجنوبي.

عاثت قوات نادر شاه الإيرانية الشيعية الفساد في عمان، وقتلت النساء والأطفال، ونهبت الأموال. وحين اضطر نادر شاه إلى العودة إلى إيران أكثر من مرة، لإخماد ثورات داخلية فيها، كان يعود بعدها إلى عمان ليجتاح معظم المدن العمانية، ابتداء من رأس الخيمة وحتى «العين» في البريمي، وغيرها من المدن الداخلية، حتى دخلوا مسقط، لكنهم لم يستطيعوا البقاء فيها؛ بسبب المقاومة الباسلة التي أبداها سكانها من العرب.

> عاثت قوات نادر شاه الإيرانية الشيعية الفساد في عمان، وقتلت النساء والأطفال ونهبت الأموال، وحين اضطر نادر شاه إلى العودة إلى إيران أكثر من مرة، لإخماد ثورات داخلية فيها، كان يعود بعدها إلى عمان ليجتاح معظم المدن العمانية

واستطاع أهل عمان وحُكامها -بعد أن نبذوا خلافاتهم ووحدوا جهودهم- أن يطردوا الفرس من كامل بلادهم.

وبعد اغتيال نادر شاه (الأفشاري) عام ١٧٤٧م، تراجعت إيران عن مركز الصدارة والقوة في الخليج؛ نتيجة الصراعات على السلطة في فارس، الأمر الذي أدى إلى خروج عدد من الأقاليم عن النفوذ الفارسي.[2]

وبعد صراعات مستمرة مع الأفشار، آل الحكم في إيران منذ العام ١٧٩٤م إلى الأسرة القاجارية التي امتد حكمها حتى عام ١٩٢٥م، عندما أطاح رضا شاه بهلوي بأحمد شاه، آخر ملوكها. واستمر حكم آل بهلوي حتى قامت ثورة الخميني عام ١٩٧٩م.

البحرين والمزاعم الإيرانية الدائمة:

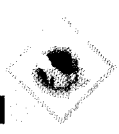
لم تتوقف المحاولات الإيرانية الفارسية للاستيلاء على البحرين، منذ أن تمكنت قبائل العتوب من طرد عرب بوشهر المرتبطين بالفرس عام ١٧٨٢م. إلا إنها لجأت إلى الأساليب السياسية عبر المطالبة بها من بريطانيا التي سيطرت على معظم منطقة الخليج خلال القرن التاسع عشر ومعظم القرن العشرين. وحين نفى وزير خارجية بريطانيا لابردين عام ١٨٤٠م أحقية إيران في الخليج أو في البحرين، أجابه «حلنجي ميرزا» رئيس وزراء إيران بمذكرة جاء فيها: «إن الشعور السائد لدى جميع الحكومات الفارسية المتعاقبة، أن الخليج الفارسي من بداية شط العرب إلى مسقط، بجميع جزائره وموانيه بدون استثناء ينتمي إلى فارس، بدليل أنه خليج فارسي وليس عربيًا».

وفي ١٩٥٧/١١/١١ أعلنت إيران إلحاق البحرين بالتقسيمات الإدارية لإيران، معتبرة إياها المحافظة الرابعة عشرة. وفي عام ١٩٥٨م خصصت إيران مقعدين في برلمانها للبحرين، شغلهما بحرينيان من أصل فارسي. كما نجحت إيران في منع البحرين من الانضمام إلى منظمة الدول المصدرة للنفط «أوبك»، ورفضت الاعتراف بجوازات السفر الصادرة منها. كما كانت المناهج المدرسية الإيرانية تلقن تلاميذها بأن البحرين جزيرة إيرانية، وأن رعاياها إيرانيون، كما أن

---

(١) د.محمد حسن العيدروس؛ دراسات في العلاقات العربية الإيرانية. دار الكتاب الحديث ط١، ١٩٩٩م ص١٢.

(٢) د.محمد حسن العيدروس؛ التدخل الفارسي في الشئون العمانية. مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، الكويت العدد ٥٥، ١٩٨٨م ص١٥٠.



الصحف الإيرانية دأبت على التحريض والادعاء بفارسية البحرين.[1]

حين أعلنت بريطانيا في يناير عام ١٩٦٨م عزمها على الانسحاب من الخليج، حاول حكام طهران تحقيق أطماعهم القديمة، إلا إن كلاً من بريطانيا التي تسعى إلى بقاء مصالحها في المنطقة، والولايات المتحدة الأمريكية القادم الجديد إلى المنطقة بعد الحرب العالمية الثانية، حالتا دون أطماع الساسة الإيرانيين. فقد مارست كلتا الدولتين - وهما حليفتان لشاه إيران- ضغوطًا عليه للتخلي عن مطالبه، مقابل تعاون تجاري واقتصادي أفضل مع الدول الخليجية الأخرى، وتحقيق مطالب أخرى له ومطامع في المنطقة، الأمر الذي أجبر الشاه في عام ١٩٧٠م على التخلي عن مطالبه، والقبول بقرار مجلس الأمن المبني على تقرير بعثة الأمم المتحدة لتقصي الحقائق، التي أكدت رغبة أغلبية الشعب البحريني في الاعتراف بهويته العربية في دولة مستقلة ذات سيادة، وحرة في تقرير علاقاتها بالدول الأخرى.

لم تنته الأطماع الإيرانية في البحرين بقبول الاستفتاء والتحكيم الدولي، وظهرت فارسيتها المقيتة في أول فقرة من دستورها. ولا يزال الإيرانيون الفرس الذين تسربوا إلى البحرين عبر السنين، ويشكلون نسبة معتبرة من سكانها، يدينون بالولاء لمرجعياتهم ويولون وجوههم شطر قم ومشهد وطهران.

احتلال الجزر الإماراتية:

يعود تاريخ احتلال إيران للجزر الثلاث: أبو موسى، وطنب الكبرى وطنب الصغرى إلى ما قبل قيام اتحاد الإمارات العربية السبع بأقل من أسبوع، أي في ١٩٧١/١١/٣٠م، وقبل يوم واحد من انسحاب بريطانيا، التي أعطت إيران الضوء الأخضر لاحتلالها، وذلك لفرض أمر واقع على الاتحاد الوليد. وكانت حكومات إيران المتعاقبة قد قامت بعدة محاولات للسيطرة على هذه الجزر وغيرها في الخليج منذ مطلع القرن العشرين، إلا إن تلك المحاولات كانت تبوء بالفشل.

تبلغ مساحة جزيرة أبو موسى التي تتبع لإمارة الشارقة، ٣٢ كم٢، وتبعد عن سواحلها بنحو ٤٥ كم، وعن الساحل الإيراني ٧٠ كم، أما جزيرة طنب الكبرى (٨٠ كم٢) وطنب الصغرى (٤ كم٢) فهما يتبعان لإمارة رأس الخيمة القريبة من مضيق هرمز. وليست أهمية هذه الجزر بمساحاتها، فهي جزر صغيرة، ولا بعدد سكانها، فهو ضئيل، بل تكمن أهميتها، بموقعها الاستراتيجي قرب مضيق هرمز، فجزيرة أبو موسى بالنسبة لإيران، تقع في وسط ممر ناقلات النفط الخليجي والإيراني.

> رغم أن احتلال إيران للجزر الثلاث يشكل مصدر توتر في العلاقات بينها وبين دول الخليج، إلا إنها ترفض مبادرات الوساطة التي تطلقها دول مجلس التعاون

كما أنها تصلح قاعدة عسكرية بحرية وبرية في نفس الوقت، إلى جانب اكتشاف النفط فيها. وكانت إمارة الشارقة رضخت للأمر الواقع، وعقدت معاهدة مع إيران في نوفمبر ١٩٧١م بشأن الجزيرة، تنص على اقتسام عائدات النفط فيها بين البلدين، وعلى مساهمة إيران في تنمية الجزيرة، وبقاء سكانها تحت سلطة حكومة الشارقة، مع بقاء علم الشارقة مرفوعًا على الجزيرة.[2]

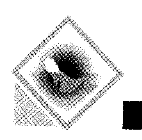
ورغم أن احتلال إيران للجزر الثلاث يشكل مصدر توتر في العلاقات بينها وبين دول الخليج، إلا إنها ترفض مبادرات الوساطة التي تطلقها دول مجلس التعاون، بل وتقابلها بمثل قول المتحدث باسم الخارجية الإيرانية: «إن جزر الخليج هي إيرانية إلى الأبد، وهي جزء لا يتجزأ من الجمهورية الإسلامية»، كما أنها ترفض التحكيم الدولي، وتصر على التفاوض الثنائي بشأنها مع الإمارات.[3]

---

(١) د.عبد الله محمد الغريب؛ وجاء دور المجوس. ط٤ بدون ناشر، بدون سنة، ص٣٠٢.

(٢) أيمن مجاهد؛ حروب قادمة على الحدود العربية والإسلامية. دار الصحوة للنشر، ط١ ، ١٤١٥هـ، ص٦٧.

(٣) د. سعد حقي توفيق؛ علاقات العرب الدولية في مطلع القرن الحادي والعشرين. دار وائل للنشر، ط١، ٢٠٠٣م ص٣٢٢.



تجدر الإشارة إلى أن إيران تحتل جزرًا عربية أخرى، مثل جزيرة «صرى» الواقعة بين أبو ظبي والشارقة عام ١٩٦٤م، وأنشأت فيها مطارًا حربيًّا، وجزيرة «هنجام» القريبة من رأس الخيمة في عام ١٩٥٠، وجزيرة «الغنم» التابعة لعمان. وتطالب بثلاث جزر في الكويت، ولها مع الكويت والسعودية نزاعات حدودية بشأن الجرف القاري الواقع في المنطقة الحدودية البحرية بين البلدين وإيران.

قيام الثورة ومحاولات تصديرها إلى دول الخليج:

بقيام الثورة (الإسلامية) التي قادها الخميني، وبسقوط الشاه الذي كان يمثل شرطي أمريكا في المنطقة، استبشر كثيرون في الوطن العربي وفي منطقة الخليج فخُدعوا بأهداف الثورة المعلنة التي روّجت لفكرة الوحدة الإسلامية، كما استهوتهم الشعارات التي رفعها الخميني للوقوف مع الدول الإسلامية ضد الحركة الصهيونية وإسرائيل والدول الاستعمارية. أما على المستوى الرسمي، فقد اعترفت دول الخليج بثورة الخميني، وأبرق زعماؤها له ولرئيس وزرائه «بازركان» مهنئين، وزارت طهران وفود سياسية ودينية خليجية رسمية.

لم تسر الأمور كما توقعها الحالمون والمخدوعون، فالوجه الفارسي الكالح للثورة بدأ يتكشف، وسوأتها الشيعية المتعصبة لم تعد تسترها شعاراتها البراقة عن التضامن والوحدة الإسلامية، وعلاقاتها السرية بالشيطان الأكبر -الولايات المتحدة الأمريكية- وإسرائيل لم تعد سرًّا يخفى.

واكتشف هؤلاء أن الأطماع الفارسية القديمة بالسيطرة على الخليج ودوله لم تندحر باندحار النظام الشاهنشاهي، بل تعززت وتعاظمت بامتزاجها بالفكر العقدي الرافضي، حتى قال الخميني: «إننا نواجه الدنيا مواجهة عقائدية».[1] بل قد أعلن اثنان من آيات الله في حكومة الخميني، هما آية الله خلخالي وآية الله روحاني «أن إيران تزمع تصدير الثورة (الإسلامية) الإيرانية إلى العالم ابتداء من دول الخليج».[2]

نظرًا لقربه من إيران من ناحية وكثرة الوجود الشيعي في دوله من ناحية أخرى، كان من الطبيعي أن يقع اختيار الثوار الجدد في طهران على الخليج ليكون أول منطقة يستعرضون فيه عضلاتهم الأيديولوجية.

فاتجهت العلاقات بين إيران الخميني ودول الخليج نحو التأزم والتوتر، على إثر التهديدات التي أطلقها قادة الثورة لبعض دول الخليج العربي، واتهامها بأنها أدوات للاستعمار الأمريكي، وتصريحات الخميني بأن الإسلام لا يتفق مع النظام الملكي (وهو الشكل السائد للحكم في المنطقة). وبلغت هذه التصريحات ذروتها في تهديد «آية الله صادق روحاني» للبحرين، بأنه سيتولى من إيران منصب مرشد الثورة فيها، ومزاعمه بأن شعبها لا يرغب في أمير سني. ورغم محاولات المسئولين الإيرانيين النأي بأنفسهم عن تصريحات روحاني، إلا إن بيانات وخطب المحيطين بالخميني نفسه والمطبوعات التي يصدرها أتباعه حتى قبل انتصار الثورة، كانت تبشر بسقوط الأنظمة الخليجية.[3]

رافق الثورة في إيران تحرك شيعي في العراق وفي عدد من دول الخليج العربي، ويقود هذا التحرك أنصار الخميني الذين هم من أصول فارسية، فضبطت السلطات في مختلف دول الخليج كميات كبيرة من الأسلحة جرى تهريبها إلى داخل هذه البلدان، على شكل أدوية أو بضائع من لبنان عن طريق سوريا بواسطة شبكات محترفة.

وفي المنطقة الشرقية من السعودية التي تقطنها الطائفة الشيعية، تحرك هؤلاء على إثر انتصار ثورة الخميني وواجهوا السلطات المحلية مواجهة عسكرية، فاضطرت الحكومة السعودية إلى التعامل معهم بحزم.

---

(١) برنامج «زيارة خاصة» قناة الجزيرة بتاريخ ٢٠٠٠/١/١٧م.

(٢) كمال محمد الأسطل؛ نحو صياغة نظرية لأمن دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية. مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، العدد٣٣، ط١، ١٩٩٩م، ص١٠٤.

(٣) د.عبد الله محمد الغريب؛ وجاء دور المجوس. ط٤ بدون ناشر، بدون سنة، ص٣٣٧.



الحرب العراقية الإيرانية:

اندلعت الحرب العراقية الإيرانية بعد ثمانية عشر شهرًا فقط من قيام الثورة، أي في أيلول سبتمبر ١٩٨٠م، في مؤشر إلى حجم التوتر والقلق الذي أحدثه انتصار الخميني وأتباعه في المنطقة. وكان من الطبيعي أن تشعر دول الخليج بالقلق من حرب شرسة تدور رحاها بين أقوى دولتين مطلتين على الخليج العربي، فإلى جانب الآثار المباشرة للحرب، فإن المنتصر منهما سيشكل خطرًا على أمن هذه الدول وسلامتها، خصوصًا وأن مسائل الحدود بين كل من العراق وإيران وبين دول الخليج لم تُحسم بعدُ، وهذا ما حدث بالفعل حين اجتاحت جيوش صدام - الذي شعر بنشوة النصر على إيران - الكويت بعد سنتين من توقف حربه مع طهران.

وفي ظل تجاهل دولي لهذه الحرب، بل ومحاولات تسعيرها أحيانًا، عبر إمداد الطرفين بالأسلحة والذخائر وقطع الغيار- سرًا وجهرًا - سعت دول المجلس لإيقاف الحرب عبر وساطاتها الدبلوماسية وعلاقاتها بطرفي النزاع، وعبر طرح موضوع الحرب في مختلف المحافل الدولية والإقليمية، ووعد إيران بتعويضات ضخمة إن هي أوقفت الحرب. إلا إن وساطتها باءت كلها بالفشل بسبب التعنت الإيراني.

لم تكن دول الخليج ترغب في تأييد العراق، الذي تعرف نزعته التوسعية في ظل حكم صدام حسين، إلا إن التعصب الفارسي والانحياز الطائفي الذي أبداه قادة الثورة في طهران، لم يترك لها مفرًا من مساندة العراق. فكانت السعودية والكويت هما الدولتان اللتان تولتا الدور الأساس في تغذية آلة الحرب العراقية، بما يزيد عن ٣٥ مليار دولار أمريكي.[1]

اتجهت العلاقات الإيرانية الخليجية نحو التأزم بدرجة أكبر، فطلبت السعودية من أمريكا تزويدها بطائرات استطلاع متقدم من طراز «أواكس»، وزادت من حجم القوات الباكستانية المرابطة في أراضيها. واتخذ التصعيد بعدًا آخر، حين ضربت إيران الكويت بالصواريخ عام ١٩٨٧م، وسمحت باقتحام سفارتي الكويت والسعودية في طهران، وبعد حوادث الحجاج الإيرانيين في الحرم المكي في حج عام ١٤٠٧هـ (١٩٨٧م).[2]

زادت الولايات المتحدة من حجم تدخلها العسكري في منطقة الخليج تحت ستار حماية السفن الكويتية، خلال عام ١٩٨٧م، ووجدت إيران - التي كادت أن تحقق اختراقًا عسكريًا ضد العراق - نفسها معزولة عن العالم. وفي الداخل الإيراني، تراجع التأييد الشعبي للحرب، واشتدت الضغوط العسكرية الأمريكية والعراقية، فاضطرت إيران للقبول بوقف إطلاق النار الذي أقرته الأمم المتحدة في تموز/يوليو ١٩٨٨م.[3]

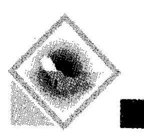
حرب الخليج الثانية والتقارب الخليجي الإيراني:

اعتبر الإيرانيون غزو العراق للكويت، فرصة ذهبية للخروج من عزلتهم الدولية. فقد استطاعوا توظيف الأحداث التي خلَّفتها مغامرة صدام لصالحهم بشكل جيد، مما عاد عليهم بكثير من المكاسب السياسية والاقتصادية. فصدام الذي مزَّق اتفاقية الجزائر الموقعة بين البلدين، وخاض على إثرها ثمانية أعوام من الحرب، عاد ليعترف بالاتفاقية بعد غزوه للكويت، وانسحب من الأراضي الإيرانية (٢٥٠٠ كم٢) التي كان يحتلها منذ توقف حرب الخليج الأولى، كما وافق على عودة ٤٠ ألف أسير إيراني إلى بلادهم. وسمحت إيران بعودة العلاقات الدبلوماسية مع بغداد لتعود معها رحلات الشرك إلى (مقدساتهم) في النجف وكربلاء. ووعد صدام حسين بحل المنظمات الإيرانية المعارضة التي تعمل في العراق منذ قيام الثورة، وعلى رأسها جماعة مجاهدي خلق.

(١) جمال سند السويدي؛ إيران والخليج البحث عن الاستقرار: سياسة إيران في الخليج من المثالية والمجابهة إلى البراجماتية والاعتدال: محسن ميلاني. مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ط١ ١٩٩٦م، ص١٢٥.

(٢) د. عبد الله الأشعل؛ العلاقات الدولية لمجلس التعاون. ط١، دار السلاسل للطباعة والنشر، ١٩٩٠م، ص١٥٩.

(٣) جمال سند السويدي؛ إيران والخليج البحث عن الاستقرار: سياسة إيران في الخليج من المثالية والمجابهة إلى البراجماتية والاعتدال: محسن ميلاني. مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ط١ ١٩٩٦، ص١٢٦.



على الصعيد الخليجي، كانت طهران - خلال الأشهر الأولى التي أعقبت غزو الكويت - مزارًا للعديد من المسئولين الخليجيين الذين قدّم بعضهم - الكويت تحديدًا- الاعتذار عن مواقف بلاده الداعمة للعراق في حربه مع إيران، بل ووعدوا طهران بتعويضات عن هذه الحرب. وأعادت الرياض علاقاتها الدبلوماسية المقطوعة مع طهران. وفي إطار المكاسب الإيرانية من تلك الأزمة، دعا قادة مجلس التعاون خلال قمتهم التي عقدوها في الدوحة بعد اجتياح الكويت، إلى تعزيز التعاون بين دول المجلس وإيران.[1]

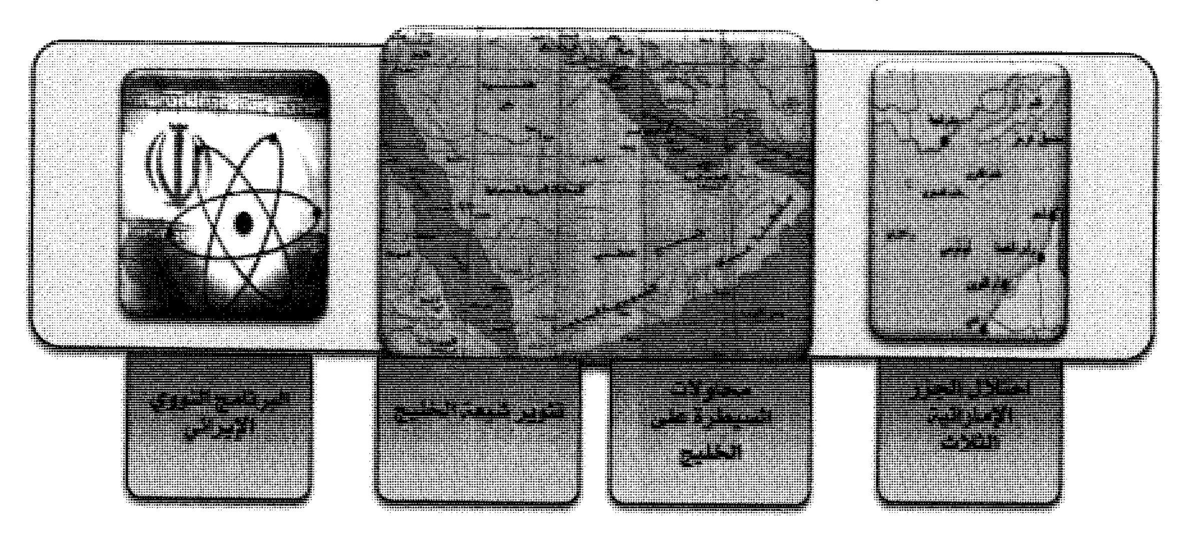
لقد كانت أزمة الكويت، البوابة التي ولجت منها إيران إلى الخليج، بل إلى العالم العربي بأسره؛ حيث أعادت عدد من الدول العربية علاقاتها الدبلوماسية مع طهران. وكان رحيل الخميني ومجيء الرئيس رفسنجاني، الذي يوصف بالبراجماتية حافزًا آخر لبث الدفء في العلاقات الخليجية الإيرانية، التي ثمّنت لطهران رفضها للعدوان العراقي، ووقوفها إلى جانب قرارات الأمم المتحدة التي تطالب بانسحاب العراق من الأراضي الكويتية، إلى جانب التزامها بالحصار الاقتصادي الذي فرض على بغداد.

عوامل التوتر الدائمة بين دول الخليج وإيران:

- احتلال الجزر:

تعد مشكلة الجزر الإماراتية الثلاث، التي ترفض طهران إحالة ملفها إلى محكمة العدل الدولية أو مجلس الأمن، عاملاً رئيسًا من عوامل التوتر بينها وبين دول الخليج، ومن المستبعَد في المدى المنظور أن تتنازل إيران عن هذه الجزر أو عن بعضها، خصوصًا في ظل ضعف دول الخليج، وغياب الإرادة الدولية عن التعامل بجدية مع هذا الملف. ولا يختلف قادة طهران - إذا تعلق الأمر بالسيطرة الفارسية والتوسع على حساب دول الجوار- بين راديكالي محافظ وبارجماتي أو إصلاحي، فهذه التصنيفات، لها علاقة بالساحة الداخلية الإيرانية، أكثر مما تتعلق بالسياسة الخارجية. فالرئيس رفسنجاني، الذي يوصف بالبراجماتية، قام بنفسه بزيارة مفاجئة لجزيرة أبو موسى عام ١٩٩٢م، ثم قامت قوات الحرس الثوري باحتلال كامل الجزيرة ونشر قوات إيرانية فيها، وإغلاق المدارس الإماراتية، ومضايقة السكان العرب، والقيام بمناورات بحرية استفزازية، رغم ارتباط إمارة الشارقة بمعاهدة اقتسام

أبرز عوامل التوتر الدائمة بين دول الخليج وإيران



(١) ضيف الله الضعيان؛ أساليب حكام إيران في مواجهة أزمة الخليج. مجلة السنة، العدد السابع، نوفمبر ١٩٩٠م.



الجزيرة التي أبرمتها مع حكومة الشاه. ولم يحرك الرئيس خاتمي «الإصلاحي» - الذي امتدت فترة رئاسته لثمان سنوات وأعاد جوًّا من الدفء للعلاقات الخليجية الإيرانية - شيئًا يُذكر بشأن هذا الملف، بل قد صرّح المتحدث باسم وزارة خارجيته، حميد رضا آصفي بأن «هذه الجزر جزء لا يتجزأ من الأراضي الإيرانية وستبقى كذلك الى الأبد». وتجدر الإشارة إلى أن النزاع بين إيران ودولة الإمارات على الجزر، لم يمنع هذه الأخيرة من أن تكون الشريك التجاري الأول لإيران، التي يقدر حجم جاليتها في الإمارات بنحو نصف مليون نسمة، وهناك ما يقرب من ست آلاف وخمسمائة شركة إيرانية تعمل في دولة الإمارات.[1]

- محاولات السيطرة على الخليج:

لقد باتت إيران هي القوة الإقليمية الأقوى، ومن دون منافس بعد زوال غريمتها العراقية، وبعد سيطرة حلفائها وشيعتها على حكم بغداد، وهي ترى أن قضية الأمن في منطقة الخليج العربي قضية تخص الدول المطلة عليه - أو كما كان الشاه يسميها «الدول المشاطئة» - وبالتالي ترفض الوجود الأجنبي، الذي تعتبره مصدر التهديد الأساس لأمنها. لذلك فهي تطالب بالمشاركة في الترتيبات الدفاعية لدول مجلس التعاون. وبالمقابل تدرك دول الخليج أن السياسة الإيرانية تجاه الخليج تهدف إلى الهيمنة عليه، في ظل غياب توازن استراتيجي عربي- خليجي -إيراني في الوقت الراهن.

ومما يزيد المخاوف الخليجية والعربية، هو السعي الإيراني الدءوب لتعظيم قدراتها العسكرية التقليدية وغير التقليدية، وعلى رأسها البرنامج النووي الإيراني. إن هذه المخاوف، التي تستعيد من الذاكرة القريبة تجربة العراق والكويت، هي التي دفعت بعض دول الخليج إلى توقيع اتفاقات أمنية مع عدد من الدول الأجنبية – كما ذكر آنفًا- وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية والسماح لها بقواعد عسكرية دائمة، أو على الأقل بتسهيلات وإمدادات لوجستية لأساطيلها الجوية والبحرية. كما عقدت مختلف دول الخليج صفقات تسلح ضخمة مع الولايات المتحدة الأمريكية وغيرها من الدول الصناعية، قد تفوق قدرة جيوشها الصغيرة على استيعابها والاستفادة منها. إن هذه النظرة المتناقضة للطرفين حول أمن الخليج ودوله، ستظل مصدرًا دائمًا للتوتر بين ضفتي الخليج العربي.

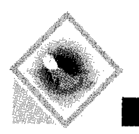
- تثوير شيعة الخليج:

رغم الخلافات الأيديولوجية في صفوف الزعامات الإيرانية التي هيمنت على عرش الثورة منذ قيامها، ورغم تعقيد المسرح الديني والسياسي في إيران، إلا إن الهدف الذي ظل ثابتًا في قاموس السياسة الإيرانية، هو تصدير الثورة إلى دول الجوار الخليجي. ويمارس الساسة الإيرانيون وما يسمى (برجال الدين) تبادل الأدوار في خدمة هذا الهدف، حتى أولئك الذين يوصفون بالمعتدلين، يخططون ويعملون لتقوية ودعم الأقليات الشيعية في دول الخليج، وإن اختلفت أساليبهم عن الثوريين المتشددين.

لقد بات في حكم المشتهر، ذهاب الآلاف من شيعة السعودية إلى سوريا كل صيف ومنها إلى إيران، حيث تتعاون السفارة الإيرانية وسلطات الجوازات السورية معهم بمنحهم جوازات سفر غير سعودية، أو توضع أوراق خارجية ترفق بجوازاتهم يتم ختم الدخول والخروج إلى إيران عليها، ثم تنزع بعد عودتهم إلى سوريا. يقضي هؤلاء الشباب فترة شهرين، في إيران يتدربون فيها في معسكرات الحرس الثوري الإيراني على مختلف أنواع الأسلحة وفنون القتال، ويتلقون مزيدًا من التعبئة والشحن الطائفي. كما أن أعدادًا من هؤلاء يجري تدريبهم في معسكرات حزب الله في سهل البقاع اللبناني(الواقع تحت السيطرة السورية إلى عهد قريب).

يقول عادل الأسدي ينيا الذي كان سفيرًا لطهران في البرتغال ثم مستشارًا لوزير الخارجية في طهران، وبعدها قنصلاً عامًّا لإيران في دبي، ثم طلب اللجوء السياسي في بريطانيا عام ٢٠٠٢م: «توجد خلايا إيرانية نائمة في الخليج حيث تدرب إيران مواطنين من دول خليجية معظمهم من

(١) موقع المعرفة شبكة الجزيرة www.aljazeera.net.



الشيعة، وتتصل بهم ليأتوا إلى إيران، ويخضعوا لتدريب عسكري وأمني، ثم بعد ذلك يرجعونهم إلى بلدانهم في وضع جاهز لتنفيذ ما تأمرهم به إيران»، ويقول: «الخلايا النائمة كثيرة جدًا، وعملهم الآن يتركز على نقل أخبار وأمور أخرى للحكومة الإيرانية، وستستيقظ الخلايا وفق حاجة الحكومة الإيرانية».[1]

وهم في مطالبهم تلك وتحديهم للسلطات المحلية في دول الخليج، خصوصًا في البحرين والسعودية والكويت، يجدون التأييد من طهران، التي لا يفتر قادة هذه الأقليات وزعماؤها من التردد عليها تحت سمع وبصر سلطات بلدانهم، وفي نفس الوقت لا يزال تجارهم الذين يسيطرون على حصة ضخمة من تجارة الخليج يبعثون «بخُمُسهم» وهباتهم إلى آيات قم الذين يعيدون تدوير هذه الأموال لتصب في خدمة برامج تصدير الثورة. ومما يندرج في هذا السياق، ويثير جوًا من التوتر بين دول الخليج وغيرها من الدول العربية من جهة، وحكومة طهران من جهة أخرى، الدعم المالي والسياسي والعسكري غير المحدود الذي تقدمه إيران لما يسمى بـ «حزب الله» الشيعي في لبنان، الذي يسعى إلى السيطرة على المشهد اللبناني.

يضاف إلى نقاط التماس بين الطرفين، التغلغل الشيعي المحموم المدعوم من إيران - خصوصًا في ظل حكومة الرئيس محمود أحمدي نجاد ذي التوجهات الثورية - في بلاد الشام كلها ومصر والسودان ودول المغرب العربي واليمن وغيرها، الذي أصبح في الآونة الأخيرة حديث النخب في هذه البلدان، وهو موضوع قائم بذاته وجدير بالدراسة والرصد والتحليل.

- البرنامج النووي الإيراني:

تتمسك دول الخليج بمبدأ منع إيران من امتلاك القدرات النووية العسكرية، وهذا نابع من حقيقة الموقف السياسي والمذهبي لهذه الدول، الذي سيجعل منها ومن شعوبها الضحية المحتملة والهدف الرئيس للضغوط السياسية والعسكرية الناتجة عن انضمام إيران للنادي النووي، الذي من شأنه إحداث تغيير جذري في ميزان القوى الإقليمي. كما أن الموقع الجغرافي سيجعل دول الخليج ومياه الخليج أول المتضررين من أي تسرب نووي عرضي أو متعمد.

> والسيناريو المفضل لدول الخليج، هو أن يتمكن المجتمع الدولي من تفكيك البرنامج النووي الإيراني بالوسائل الدبلوماسية والضغوط الاقتصادية، لكن هذا الخيار أثبت عدم جدواه عبر السنوات الماضية.

والسيناريو المفضل لدول الخليج، هو أن يتمكن المجتمع الدولي من تفكيك البرنامج النووي الإيراني بالوسائل الدبلوماسية والضغوط الاقتصادية، لكن هذا الخيار أثبت عدم جدواه عبر السنوات الماضية؛ نتيجة التشبث الإيراني بهذا البرنامج. وما تخشاه دول الخليج، أن تلجأ أمريكا أو إسرائيل إلى خيار العمل العسكري لمنع طهران من امتلاك هذا السلاح الاستراتيجي، وهو الخيار الذي قد يشمل مواقع التخزين ومنشآت تصنيع ومنصات الصواريخ الإيرانية بعيدة المدى، وذلك لمنع قيام إيران بعمل انتقامي فوري. لكن دول الخليج تدرك أن إيران وإن عجزت عن منع الضربة المحتملة لمنشآتها، فإنها ستنتهج استراتيجية رد الفعل الانتقامي، الذي قد يستهدف الدول الخليجية، التي هدد أكثر من مسئول إيراني باستهدافها إن هي قدمت أي تسهيلات لأمريكا. ولذلك فدول الخليج ستكون حذرة من استخدام أمريكا لأراضيها لتنفيذ الهجوم المحتمل، وهي تؤكد دائمًا على الخيار السلمي لحل هذه المشكلة.[2]

تأثير التغلغل الإيراني في العراق على المصالح السياسية لدول الخليج:

في ٢٠٠٣/٤/٩م سقطت بغداد بأيدي القوات الأمريكية وحلفائها، وتشكل مجلس الحكم الذي سيطرت عليه الأحزاب الشيعية التي تأسست وارتبطت

(١) محمد سرور زين العابدين؛ صفحات من تاريخنا المعاصر: أيقاظ قومي أم نيام ..؟ دار الجابية لندن، ط١، ١٤٢٨هـ، ص٩٣.

(٢) مصطفى العاني؛ الموقف المحتمل لدول مجلس التعاون الخليجي تجاه سيناريو العمل العسكري ضد المنشآت النووية الإيرانية. مركز الخليج للأبحاث ط١، ٢٠٠٤م.

بإيران أثناء فترة المعارضة لنظام صدام حسين. فالمجلس الأعلى الإسلامي العراقي أسسته المخابرات الإيرانية سنة ١٩٨٢م إبان الحرب مع العراق، وغالب مكوناته من الجماعات المنفية في إيران، ويرتبط مع هذه الأخيرة بوشائج ثقافية وعاطفية، وأتباعه من المنبهرين بالنموذج الثوري الإيراني. وعائلة الحكيم التي تسيطر عليه، عائلة إيرانية، وأول شيء طالب به عبد العزيز الحكيم حين استلم دورة مجلس الحكم، هو تعويض إيران بـ ١٠٠ مليار دولار عن الحرب التي دارت بينها وبين العراق، بينما يطالب الدول العربية بإلغاء ديونها! وحزب الدعوة إيراني التأسيس والانتماء، وأول قرار اتخذه الجعفري عند توليه الوزارة: إطلاق ٤٠٠ معتقل إيراني، بينما كانت سجونه تعج وتضج بمعتقلي أهل السنة العراقيين. والمرجع الشيعي الأعلى «علي السيستاني» إيراني من مدينة سيستان، ويحمل جواز سفر إيراني، وقد أصدر فتواه الشهيرة بتحريم مقاومة الاحتلال الأمريكي للعراق.

> أول شيء طالب به عبد العزيز الحكيم حين استلم دورة مجلس الحكم، هو تعويض إيران بـ ١٠٠ مليار دولار عن الحرب التي دارت بينها وبين العراق، بينما يطالب الدول العربية بإلغاء ديونها!

حرص الأمريكان على إطلاع إيران والتنسيق معها في غزو بغداد، والطلب منها عشية الغزو - عبر عملائها في العراق- تحريك الميليشيات الشيعية التي دربها الحرس الثوري الإيراني، ومن أهما فيلق بدر (٢٥ ألف مقاتل) التابع للمجلس الأعلى، وذلك للسيطرة على الأراضي العراقية في الجنوب، بعد أن يعبرها الجيش الأمريكي نحو بغداد.

ويأتي هذا التعاون الأمريكي الإيراني استجابة لدعوات عدد من الكتاب والمخططين الأمريكيين، الذين طالما كتبوا الكتب والمقالات التي تدعو الإدارة الأمريكية لضرورة التفاهم والتعاون مع إيران، وعلى رأسهم ثلاثة من كبار العقول الاستراتيجية الأمريكية، هم « زبغنيو بريجنسكي» و «برنت سكوكروفت» مساعدا الرئيس الأمريكي للأمن القومي السابقين، و «ريتشارد ميرفي» سفير أمريكي سابق ومساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى وجنوب آسيا.(١)

لقد تبين لهؤلاء المفكرين عبر قراءتهم للتاريخ ورصدهم وتحليلهم في مراكز دراساتهم الاستراتيجية، أن الشيعة عمومًا والفرس منهم على وجه التحديد، برغم الجلبة الإعلامية والضجيج الذي يصدرونه ضد أمريكا وإسرائيل، إلا إنهم - إذا تعلق الأمر بالتحالف مع الأجنبي للهيمنة على أهل السنة وعلى العرب وقهرهم- فهم حلفاء أوفياء يوثق بهم. وهذا ما حدث فعلاً بعد سقوط بغداد؛ إذ تحالف الصليبيون واليهود مع الفرس الصفويين، ضد العرب من أهل السنة في حرب إبادة وتطهير عرقي بشع، وعاثت المخابرات وفرق الاغتيالات الإيرانية بأهل السنة قتلاً وفسادًا تحت سمع وبصر القوات الأمريكية والبريطانية.

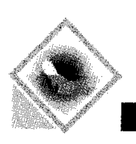
إن هذا التحالف القذر بين الرافضة وأعداء الأمة هي الحقيقة التي كشف عنها بنظرته الثاقبة وألمعيته المعروفة شيخ الإسلام ابن تيمية، قبل أن يعرفها دهاقنة الغرب ومفكروهم، ولكنَّ قومي لا يقرأون، يقول رحمه الله:

«... فالرافضة يوالون من حارب أهل السنة والجماعة ويوالون التتار والنصارى، وقد كان بالساحل بين الرافضة وبين الفرنج مهادنة حتى صارت الرافضة تحمل إلى قبرص خيل المسلمين وسلاحهم، وغلمان السلطان، وغيرهم من الجند والصبيان، وإذا انتصر المسلمون على التتار أظهروا المآتم والحزن، وإذا انتصر التتار على المسلمين أظهروا الفرح والسرور....» إلى أن قال رحمه الله: «والرافضة شر الطوائف المنتسبين إلى القبلة».(٢)

وقفت الدول العربية وعلى رأسها دول الخليج العربي موقف المتفرج مما يجري في العراق، بل إن بعضها مد يد العون للمحتل لإسقاط النظام العراقي السابق. وإذا

(١) د.عبد الله النفيسي؛ الحسبة الاستراتيجية في العراق. ورقة في مؤتمر نصرة الشعب العراقي، اسطنبول -تركيا، ذوالقعدة ١٤٢٧هـ ص٦٧.

(٢) شيخ الإسلام ابن تيمية؛ مجموع الفتاوى ٢٨/ ٦٣٦ - ٦٣٨.



كان الضعف الذي تعيشه دول الخليج منعها من دعم مقاومة أهل السنة للمحتل الذي مكّن لهؤلاء الشعوبيين الموتورين في بلاد الرافدين، فلم يكن هناك مبرر واقعي ولا استراتيجي للتخلي عن أهل السنة، ولو من أجل مصلحة ومستقبل الدول الخليجية نفسها.

لقد حذر الغيورون طويلاً من خطورة ترك الساحة العراقية للاستفراد الإيراني الشيعي، الذي يسعى من خلال التفاهم مع المحتل الأمريكي، إلى ضمان المصالح الدينية والسياسية والاقتصادية الإيرانية.

والسؤال المهم في المرحلة الراهنة، هل فات الأوان؟ وهل قَدَرُ أهل السنة في الخليج أن يفقدوا إخوانهم من عرب السنة في العراق إلى الأبد؟ أم أنه يجب إنقاذ ما يمكن إنقاذه، وأنه لا يزال هناك هامش أمام دول الخليج للمناورة؟

يرى الباحث، أنه بالرغم من وجود قدرٍ من التفاهم الإيراني - الأمريكي حول مستقبل العراق، إلا إن أمريكا ستظل قلقة من سيطرة اتجاه أيديولوجي واحد على منطقة هي الأهم بالنسبة لها؛ لذا فهي تبحث عن طرف سني قوي يكون شريكًا في حكم العراق، حتى لو كان هذا الطرف ممن شارك في مقاومة الاحتلال، لكنه يؤمن بمبادئ اللعبة السياسية. يؤيد هذا الرأي، المحاولات المتكررة من قبل الأمريكيين في العراق للاتصال ببعض المقربين من فصائل المقاومة العراقية المؤثرة، ليس من أجل إيقاف المقاومة التي أنهكت أمريكا وأسقطت هيبتها وغطرستها فحسب، بل ومن أجل ترتيب البيت العراقي وضمان التوازن العرقي والطائفي فيه. فلا يزال - في تقديري- هناك فسحة من الوقت وفرصة لدى دول الخليج، خصوصًا السعودية ذات الثقل الدولي والإقليمي والقبول لدى الكيانات والأطراف السنية العربية في العراق، لا تزال فرصة اللحظات الأخيرة، التي يلملم فيها بوش ملفاته السوداء مغادرًا بيته الأبيض، لفرض وجود فاعل وقوي لعرب أهل السنة في حكم ومستقبل العراق، من أجل مستقبل الخليج العربي ودوله واستقراره.

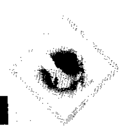
إنه لا يزال - في تقديري - هناك متسع من الوقت لدول الخليج ومحيطها العربي أن تبادر لتفرض لنفسها - بما تملك من أوراق - دورًا أكبر في التأثير على مجريات الأمور داخل العراق، على الأقل من أجل التخفيف من النفوذ والهيمنة الإيرانية على المشهد السياسي العراقي. يمكن أن تمارس دول الخليج هذا التأثير، عبر الدعوة لتجمع سياسي سني، تستثمر فيه المكتسبات التي حققتها المقاومة السنية، وتشترك فيه قوى المقاومة، وغيرها من الكيانات السنية الإسلامية والوطنية المعتدلة، يكون هذا التجمع شريكًا فاعلاً ولاعبًا رئيسًا في المعترك السياسي العراقي.

إن سيناريوهات المستقبل السياسي العراقي المحتملة، هي بقاء الدور الهامشي المعطى حاليًا لأهل السنة، واستمرار هيمنة القوى والأحزاب والكيانات الشيعية على المشهد السياسي العراقي، بتحالفها مع القوميين والشيوعيين الأكراد، أو فرض الفيدرالية السياسية، التي يستولي فيها شيعة إيران على منابع النفط في الجنوب، والأكراد على نفط الشمال، ويبقى أهل السنة كيانًا ضعيفًا فقيرًا في وسط العراق. وفي السيناريو الأخير تحقق أمريكا تقدمًا في تطبيق نظامها الشرق أوسطي نحو تقسيم العراق كمدخل لتقسيم دول عربية أخرى كالسعودية أو مصر أو السودان أو غيرها، وهو المشروع الذي ساهمت المقاومة العراقية السنية حتى الآن بإفشاله.

إن أيًا من هذه السيناريوهات سيشكل تهديدًا مباشرًا لدول الخليج والعالم العربي ككل، وسيعني بالضرورة عبور المد الإيراني الصفوي الفارسي شط العرب وزحفه أكثر نحو قلب الجزيرة العربية.

النظام الإقليمي في المرحلة المقبلة...أيهما يستوعب الآخر، إيران أم دول الخليج؟

يبدو هذا السؤال ساذجًا بدرجة كافية، إذا نظرنا عبر نافذة الواقع الذي تعيشه المنطقة اليوم، فالجواب بلا شك محسوم لصالح إيران. وحتى لا يُتَّهَم الباحث بالتشاؤم، فسأذكر مجرد إشارات ومعالم تبين حجم الفجوة بين الطرفين، وقوة وأهمية الأوراق والخيوط



التي يمسك بها كل منهما، وقد ذكر بعضها تفصيلاً في ثنايا هذا البحث، والترتيب هنا غير مقصود:

- احتلال إيران للجزر العربية والعجز الخليجي التام عن القيام بأي تحرك إيجابي.

- التحكم الإيراني التام بمضيق هرمز الذي يمر عبره نفط الخليج وبضائعه.

- الانفجار السكاني والوجود الشيعي الكثيف حول منابع النفط، وفي المناطق الحيوية في دول الخليج والعلاقات الإيرانية المنظمة بهذه الكيانات، والشحن الثوري والطائفي الذي يمارس عليها.

- الجاليات الإيرانية الكبيرة، خصوصًا في دول جنوب الخليج كعمان ودولة الإمارات، والثقل الاقتصادي لهذه الجاليات.

- التغلغل الإيراني في العراق والإدارة شبه المباشرة لشئونه عبر الحكومة العراقية الطائفية، والغياب الخليجي والعربي المريع عن هذا المشهد.

- البرنامج النووي الإيراني، واحتمالية الحصول على السلاح النووي الذي ستكون دول الخليج والدول العربية أول المهددين به. في الوقت الذي لا تملك دول الخليج – ولا أي دولة عربية- حتى مجرد القرار للبدء ببرنامج مماثل.

- التباين بين دول الخليج في الموقف من إيران، واستشعار الخطر الذي تشكله على المنطقة، فعمان وقطر تحلقان – منذ قيام الثورة - في أحيان كثيرة، خارج السرب الخليجي.

- التسلح الإيراني المحموم منذ توقف حربها مع العراق، وترسانة الأسلحة التي جمعتها من الشرق والغرب، إلى جانب الأسلحة الأمريكية والأوروبية والإسرائيلية التي تشتريها من السوق السوداء. مقابل محدودية قدرات وتعداد جيوش دول الخليج، رغم صفقات الأسلحة الضخمة التي تبرمها مع الدول الغربية.

- التصنيع والتطوير الإيراني المستمر للأسلحة التقليدية، والصواريخ طويلة المدى والصواريخ البالستية قصيرة المدى، والدبابات والطائرات بدون طيار والأسلحة الكيماوية والبيولوجية وغيرها، في الوقت الذي لا يوجد أي مصانع أسلحة ذات بال في دول الخليج العربي، سوى مصنع أو اثنين لتجميع البنادق التقليدية وتعبأة الذخيرة.

- التداول على السلطة في إيران ووجود الأجهزة الرقابية على أداء الحكومة، في مقابل الحكم الأسري في دول الخليج، وتنفُّذ القوى العلمانية والليبرالية التي تسوق للمشروع الغربي.

- العلاقات الإيرانية السرية مع أمريكا وإسرائيل التي لم تعد تسرًّا يمكن إنكاره أو تجاهله.

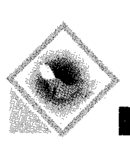
- المد الشيعي الإيراني في لبنان ودول الشام ومصر والسودان وإفريقيا واليمن، بما يمثله ذلك من إقامة حزام شيعي يطوق الجزيرة العربية ودول الخليج.

- التفوق السكاني الإيراني الذي يتجاوز ثلاثة أضعاف سكان الدول الخليجية، بما يشكله ذلك من جيش وقطاعات حربية كبيرة، وكفاءات عسكرية وعلمية وتقنية، بما فيها العقول والعلماء الذين استقدموا من الدول المستقلة بعد تفكك الاتحاد السوفييتي السابق، ومنحوا الامتيازات والحوافز إلى جانب الجنسية الإيرانية.

ما ذكر أعلاه، لا يعني بطبيعة الحال، أن الصورة وردية مشرقة في الجانب الإيراني، وسوداء معتمة من الطرف الخليجي. فلدى إيران إشكالاتها العديدة والعميقة، وفي الوقت نفسه، يمسك الجانب الخليجي ببعض خيوط اللعبة، إن أحسن تحريكها واستخدامها.

ويمكن الإشارة إلى ذلك فيما يأتي:

- تعيش إيران تدهورًا اقتصاديًّا مستمرًّا، منذ قيام الثورة وما تبعها من التدمير الذي طال كافة قطاعاتها أثناء حرب الخليج الأولى، والإنفاق العسكري الضخم ينهك ميزانيتها المعتمدة بشكل شبه كلي على النفط الذي تتذبذب أسعاره كثيرًا، ويتناقص مخزونه لدى إيران، وإن كانت احتياطياتها من الغاز لا زالت مرتفعة. والديون الخارجية تلتهم جزءًا معتبرًا من مداخيل النفط،



يضاف إلى ذلك الإنفاق السخي على حزب الله وغيره من جهود تصدير الثورة ونشر التشيع في العالم، والبطالة الحقيقية والمقنعة تتجاوز ٣٠٪. كما أن الحصار الذي تفرضه أمريكا ومجلس الأمن على إيران بسبب برنامجها النووي، يحد من تنفيذ خططها التنموية.

- ولا يعني بالضرورة أنه من مصلحة دول الخليج اختناق إيران اقتصاديًا؛ لأن ذلك قد يدفعها إلى مزيد من التطرف، وإنما المطلوب أن تستثمر دول الخليج الحالة المتردية للاقتصاد الإيراني لفرض نوعٍ من التنازلات في سياساتها الخارجية تجاه دول المنطقة، والحد من حمى التسلح التي تنتابها.

- الصراع بين الأحزاب الإيرانية الشيعية ذات التوجهات الأيديولوجية المتناقضة أحيانًا، محتدم على السلطة في إيران، وتعدد أجهزة الدولة من سلطة مرشد الثورة إلى مجمع تشخيص مصلحة النظام، ومن مؤسسة الرئاسة إلى مجلس صيانة الدستور، وكذلك التباين والتنافس بين الحرس الثوري والجيش النظامي، يحد من قدرة النظام الإيراني على اتخاذ قرارات خارجية كبرى ويتيح لمن يحسن فن السياسة، اللعب على وتر هذه التناقضات والتباينات.

تعيش إيران تدهورًا اقتصاديًا مستمرًا منذ قيام الثورة وما تبعها من التدمير الذي طال كافة قطاعاتها أثناء حرب الخليج الأولى، والإنفاق العسكري الضخم ينهك ميزانيتها المعتمدة بشكل شبه كلي على النفط الذي تتذبذب أسعاره كثيرًا

- إن أخطر القضايا - في نظري - التي يجب على دول الخليج أن توليها الاهتمام الكافي، هو التغلغل الإيراني في صفوف الأقليات الشيعية الخليجية. ولا يتصور أن تكون هذه الدول بأجهزة مباحثها ومخابراتها - التي ربما تكون أكثر أجهزة الدولة فاعلية- غافلة عن مثل هذا الاختراق الخطير، إلا إن المطلوب هو المزيد من الحذر، ودراسة سبل استيعاب هذه الأقليات في محيطها السني، وعزلها عن تأثير عملاء إيران المتطرفين.

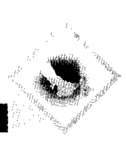
- التواصل الإيجابي مع أهل السنة في إيران الذين تبلغ نسبتهم ٣٠٪ من سكان إيران، وهم مضطهدون ولا يتمتعون بأبسط ما يتمتع به شيعة الخليج من حقوق، ومع عرب الأحواز، الذين وإن تشيع كثير منهم؛ نتيجة البطش الذي مُورس عليهم من قِبَل الحكومات الإيرانية المتعاقبة، إلا إنهم مهمَّشون ومسلوبة حقوقهم؛ نتيجة التعصب الفارسي المقيت الذي تميزت به - ولا تزال - ثورة الخميني. والضغط الدبلوماسي والإعلامي على إيران من أجل الاعتراف بهم، والمطالبة بحقوقهم في المحافل والمنظمات الدولية.

- تملك دول الخليج عمقًا استراتيجيًا عربيًا وإسلاميًا، يمكن استثماره لصالحها، ومزاحمة النفوذ الإيراني، خصوصًا لدى الدول والشعوب الفقيرة، ولدى السعودية - على وجه التحديد- بمكانتها الدينية والاقتصادية، ثقل عربي وإسلامي على المستويين الرسمي والشعبي لا تستطيع إيران منافستها فيه، لو أحسنت استثماره.

- الحد من التدخل الإيراني في العراق، عبر تقوية أهل السنة ومدهم بالدعم المادي والسياسي، والضغط على أمريكا لمنحهم مزيدًا من السلطة، وقطع الطريق على مشاريع التقسيم التي يُراد منها خنق عرب أهل السنة وتهميشهم.

- استثمار مداخيل النفط المرتفعة لتحقيق تنمية حقيقية لشعوب دول الخليج في المجالات التعليمية والصناعية والتقنية، والتفكير الجاد بامتلاك أسلحة الردع الاستراتيجية، وبناء جيش أو جيوش خليجية بناءً إيمانيًا سليمًا تستطيع معه صنع توازن عقدي مع الكيانات العسكرية الإيرانية المؤدلجة.

- تبني القضايا العربية والإسلامية بصورة إيجابية وفاعلة، بعيدًا عن المكاسب الشخصية والفرقعات الإعلامية، ودعم حركات التحرر الشعبية ذات الثقل الجماهيري والشعبي، ومزاحمة النفوذ الإيراني لديها، بدلاً من الاكتفاء بالتعامل مع السلطات الرسمية، كما هو الحال في فلسطين والعراق ولبنان والصومال وأفغانستان وغيرها.



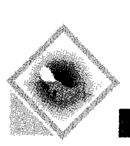
- إقامة جامعات إسلامية في مختلف بلدان العالم الإسلامي تُعنَى بتخريج الدعاة المخلصين المعتدلين من مختلف الجنسيات، ومن ثَم تبنيهم ودعمهم لنشر العقيدة الصحيحة، والتحذير من البدع، وقطع الطريق على إيران التي تستجلب آلاف الطلاب من البلدان العربية والإسلامية الفقيرة ومن الأقليات الإسلامية في العالم، إلى الجامعات الإيرانية في طهران وقم ومشهد وتبريز وأصفهان وغيرها، ليتعرضوا طيلة حياتهم الجامعية لعمليات غسيل فكري وعقدي مدروسة ومقننة، يعودون بعدها إلى بلدانهم دعاة للتشيع مدعومين ماديًّا وفكريًّا من السفارات الإيرانية في بلدانهم التي تعمل كمعاقل وقلاع لتصدير الثورة وبثّ المذهب الشيعي.

> تمتلك دول الخليج عمقًا استراتيجيًا عربيًا وإسلاميًا يمكن استثماره لصالحها ومزاحمة النفوذ الإيراني خصوصًا لدى الدول والشعوب الفقيرة

- عدم الركون إلى الولايات المتحدة الأمريكية وغيرها من القوى الغربية أو الشرقية، فهذه الدول تدور حول نفسها، ولا تعني لها قيم العدالة والحقوق المشروعة شيئًا إذا تعارضت مع مصالحها الذاتية. وكثيرًا ما تلتقي مصالح النصارى واليهود مع مصالح الرافضة والفرس، -كما ذكر شيخ الإسلام- وعندها، لن تكون معاهدات الحماية التي وقَّعتها دول الخليج مع هذه الدول، أثمن من الورق الذي كُتبت عليه.

- لن تستطيع دول الخليج الصمود أمام إيران ومواجهة أطماعها التوسعية المبنية على عقيدتها الطائفية التي تجترّها من عمق التاريخ الفارسي والصفوي، بدساتير مشوهة ومهلهلة، ولا بعروش وكيانات قبلية ضيقة، فالناس مستعدون للتضحية فقط، من أجل دينهم ومبادئهم وعقيدتهم، التي على هذه الدول رعايتها وحمايتها من دعاة العلمنة والليبرالية والتغريب؛ الذين ينخرون في المجتمعات الخليجية المحافِظة، ولا يخجلون من الترويج لأفكارٍ ونظمٍ غربية فاشلة، عفى عليها الزمن، وتهاوت في عقر دارها.

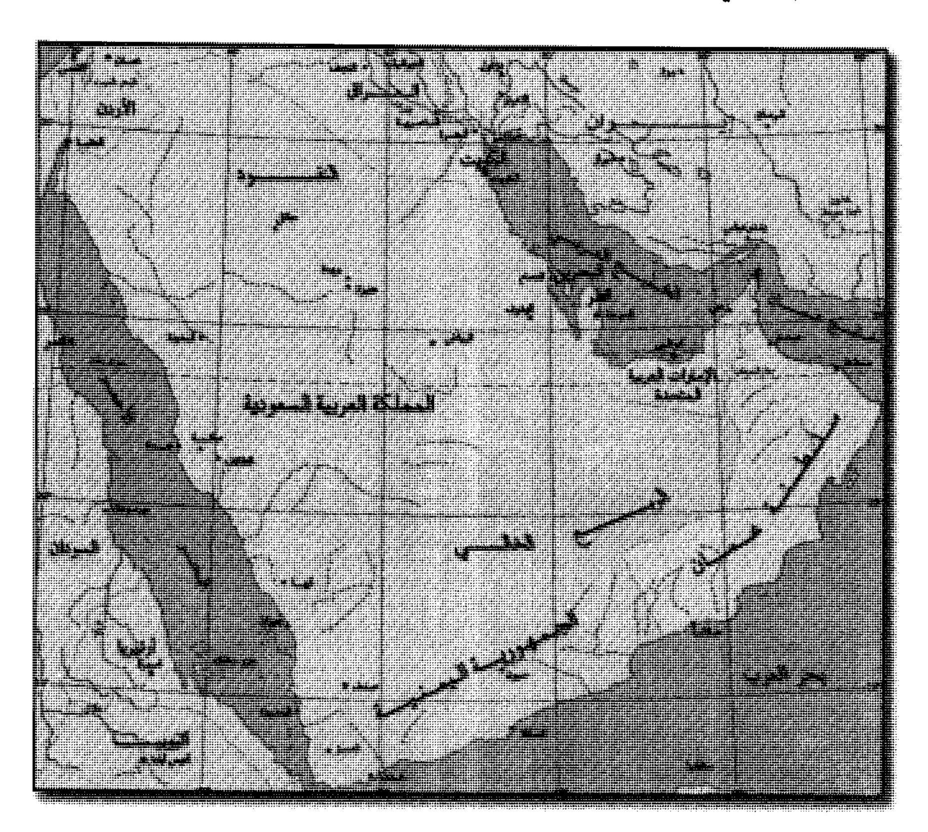
- دعم وتشجيع وسائل الإعلام الجماهيرية الناطقة بمختلف اللغات (بما فيها الفارسية)، لمخاطبة الشعوب العربية والإسلامية والوصول إليها في عقر دارها، ونشر العقيدة الإسلامية الصحيحة، ومزاحمة المد الإعلامي الرافضي الموجه، الذي يحاول الوصول بالثورة إعلاميًّا ما عجزت عن تحقيقه ميدانيًّا على الأرض.



معلومات إضافية

الخليج العربي.. نبذة جغرافية:

كتلة مائية (شبيهة بالكُلْية) تقع في جنوب غربي آسيا بين إيران وشبه الجزيرة العربية. ويصل مضيق هرمز بين الخليج العربي وخليج عمان الذي يعد ذراعًا للمحيط الهندي. يبلغ طول الخليج حوالي ٨٠٠ كم، وعرضه نحو ٢٠٠كم، وتقدر مساحته بنحو ٢٦٠,٠٠٠ كم٢، ويبلغ انخفاض أعمق نقطة فيه ٩٠ مترًا حول مدخله الجنوبي عند مضيق هرمز. أما طول ساحله الغربي (العربي) فيبلغ ١٨٠٠كم، بينما يبلغ طول ساحله الشرقي (الفارسي) ١٢٠٠كم. تحده من الشمال، الشمال الشرقي، والشرق إيران؛ بينما تحده من الجنوب الشرقي والجنوب كل من عُمان والإمارات العربية المتحدة، وتحده من الجنوب الغربي والغرب كل من السعودية وقطر، وتقع كل من الكويت والعراق على أطرافه الشمال غربية، بينما تقع البحرين ضمن مياهه الغربية شمال قطر. ويسكن العرب على ضفتي الخليج، سواء في القسم الغربي (دول الخليج والعراق)، أو من الشرق في إقليم عربستان (الأحواز ولنجة).



شكل (١) خريطة الخليج العربي

الخليج العربي... لمحة تاريخية:

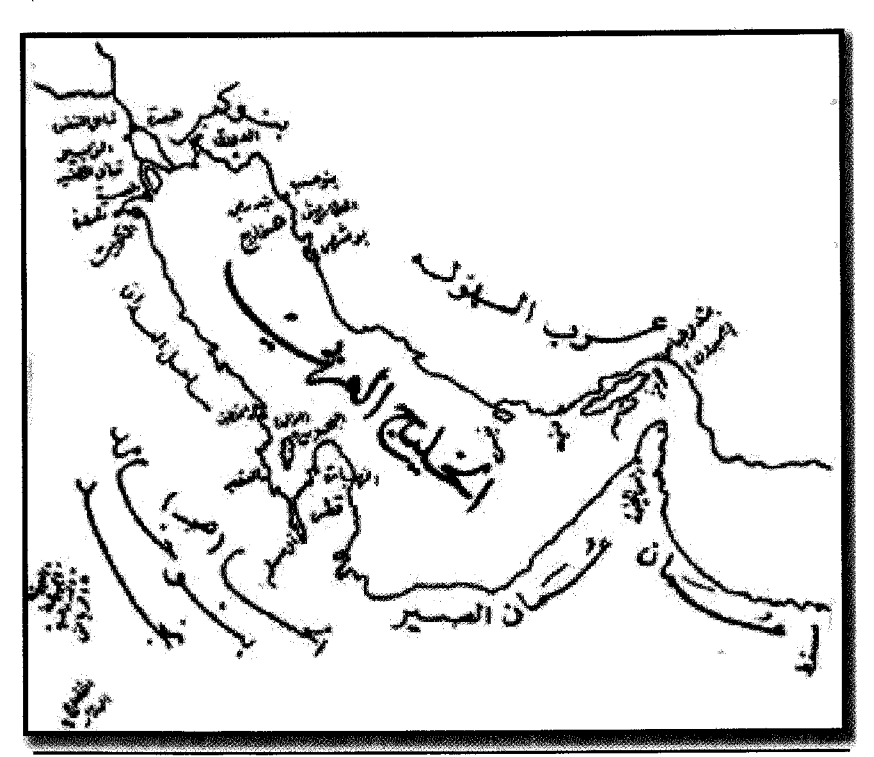
قامت على ضفاف الخليج العربي عدد من الحضارات القديمة، كان أبرزها، دول سامر وبابل وآشور وعيلام في رأس الخليج. وظلت الجزيرة العربية ساحة صراع بين كتلتين إحداهما شرقية هي الإمبراطورية الفارسية والأخرى غربية وهي الإمبراطورية البيزنطية الرومانية. وقد كانت منطقة النزاع – الذي دام خمسة قرون- تتركز عند الجزء

الشـمالي مـن منطقـة الخليج، حيث كانت أعالي دجلـة والفرات تمثل الحدود الفاصلة بـين الإمبراطوريتين. أما في الجنوب فقد كانت القبائل العربية خاضعة لملوك اليمن من بني شيبان، الذين بسطوا نفوذهم بعد ذلك على الجزيرة العربية بعد أن تمكنوا من هزيمة الفرس في معركة (ذي قار).

يرجع الوجود العربي في الخليج إلى عصر العمالقة الذين هم أولاد عيلام بن لاوذ، وأولاد طسم بن لاوذ، الذين يرجع نسبهم إلى يعرب بن قحطان – أصل العرب العاربة- الذين استقروا في البحرين واتخذوا منها وطنًا لهم.

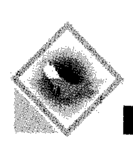
وفي عصر الخلفاء الراشدين، كان الخليج العربي مسرحًا ومنفذًا للفتوحات الإسلامية التي أطاحت بدولة الفرس المجوسـية، ونشـرت الإسلام في المشـرق الوثني الذي ما لبث أن انضوى تحت راية الدولة الإسلامية. واستمرت أهمية منطقة الخليج كمركز للتجارة والملاحة إبان العصر الأموي، ومن بعده العصر العباسـي الذي انتقلت عاصمته إلى بغـداد، إلى أن اجتاحها المغول سـنة ٦٥٦هـ، وسـقطت على إثره الدولة العباسـية التي خلفتها دويـلات عرقية وقبلية متصارعة.

يبدأ تاريخ الخليج العربي الحديث بظهور البرتغاليين في مطلع القرن السادس عشر الميلادي بعد أن نجحوا في اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح بقيادة «فاسـكو دي جاما». تمكن البرتغاليون من السـيطرة على طرق التجارة وقضوا على مملكـة هرمز، أهم المراكز التجارية المزدهرة في الخليج. فكانوا هم أسـياد الموقـف في الخليج العربي، خلال القرن السـادس عشـر، وكانوا يسيطرون على تجارة الحرير مع إيران، رغم المحاولات غير الناجحة للعثمانيين الأتراك لعرقلة هـذه التجـارة. وفي نهاية ذلك القرن، كانت أنظار الإنكليز تتطلع إلى إمكانية المسـاهمة في التجارة بين الهند وإيران، إلى أن تُوجت تلك التطلعات والأعمال التجسسية البريطانية بإنشاء شركة الهند الشرقية البريطانية عام ١٦٠٠م.



شكل (٢) خريطة توزيع القبائل العربية في منطقة الخليج العربي في القرن الثامن

المصدر: موسوعة مقاتل من الصحراء



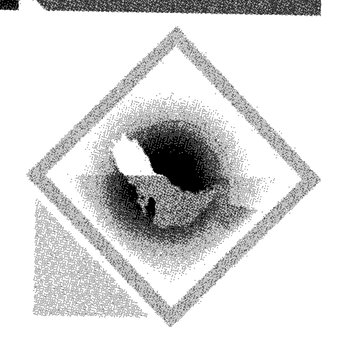
فشلت محاولات البرتغاليين في منع الإنكليز من مشاركتهم في نهب خيرات المنطقة، حتى استطاع الإنكليز بتحالفهم مع الهولنديين، وبمساعدة شاه إيران وسلطان عمان من قهر البرتغاليين وإخراجهم من الخليج نهائيًّا عام ١٦٥٢م. واستمرت القوتان الاستعماريتان الجديدتان في سلب مقدرات المنطقة، وحرمان سكانها الأصليين -العرب القاطنين على ساحل عمان - الذين لجئوا إلى أعمال القرصنة البحرية. بدأت المنافسة السياسية والتجارية بين القادمين الجدد - الهولنديين والإنكليز – وفي مرحلة لاحقة الفرنسيين، حتى استطاعت بريطانيا حسم هذا التنافس لصالحها والانفراد بالمنطقة، وبسط نفوذها خلال القرن التاسع عشر على معظم أجزاء الخليج.

وفي مطلع القرن التاسع عشر، قامت حركات مقاومة عربية تحاول إبعاد النفوذ البريطاني عن الخليج العربي، وذلك بقيادة القواسم على الساحل الشمالي، وقبيلة بني بوعلي في سلطنة مسقط، واستمر الصراع بين القوى والقبائل العربية وبريطانيا أكثر من نصف قرن حتى استطاعت هذه الأخيرة من إخضاع هذه القبائل وعقد معاهدات صلح وحماية، تخضع بموجبها مشيخات الخليج – الإمارات السبع المشكِّلة لدولة الإمارات العربية المتحدة حاليًا، إلى جانب البحرين وقطر والكويت - لسلطة بريطانيا العظمى وهيمنتها، مقابل حماية هذه الدويلات من أي اعتداء محلي أو أجنبي، وظلت الأمور على هذا الوضع حتى خروج بريطانيا نهائيًّا من المنطقة عام ١٩٧١هـ.

المصادر:

- الموسوعة العربية العالمية ج١٠ ص١٥٨.
- شيخة غانم القحطاني، توازن القوى بين دول مجلس التعاون الخليجي، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، ١٩٩٧م ص٥٧.
- جون باجوت غلوب، الفتوحات العربية الكبرى، تعريب وتعليق خيري حماد، بغداد، ص٢٣.
- د.محمود علي الدود، الخليج العربي والعلاقات الدولية، معهد الدراسات العربية العالمية، دار المعرفة، ج١.





الأقليات الدينية في الخليج العربي

أحمد فهمي

باحث فى الشئون السياسية

ملخص الدراسة

بخلاف الشيعة، فإن دول الخليج العربي لا تضم أقليات أخرى جديرة بالانتباه، ومن الصعب ذكر نسب سكانية محددة للشيعة في دول الخليج الست؛ نظرًا لتعدد المصادر واختلاف الأسس -والنوايا أيضًا- التي بُنيت عليها التقديرات، وبصورة عامة يميل الشيعة دومًا إلى تضخيم نسبتهم العددية.

يزعم ناشطون شيعة بأن ما يعتبرونه اضطهادًا مستمرًا لهم يدفعهم إلى التمرد على الأنظمة السُّنية الحاكمة بصورة دورية، وبحسب السنة فإن طبيعة التمرد والرفض الموجودة لدى الشيعة تجعل من الضروري معاملتهم بأسلوب خاص يتسم بالحذر والمراقبة؛ حفاظًا على الأمن والاستقرار.

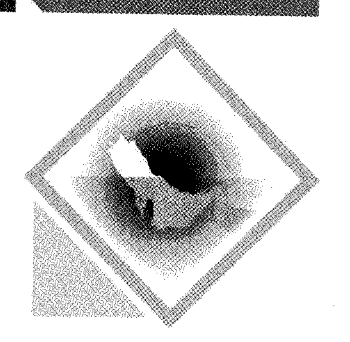
وهناك منظومة متبادلة من الفعل ورد الفعل بين الأقليات الشيعية والسلطات المحلية، وفي كثير من الأحيان كانت تلك الأقليات تحمل أفكارًا ثورية رافضة للحكم السني؛ بحيث إنه يصح القول بأن أداء الحكومات لم يكن بالضرورة طائفيًا، ولكنه «احترازي»، وقد تشوبه أخطاء في بعض الفترات.

ويتنوع التهديد الذي يلوح به قادة الشيعة في حال لم تتم الاستجابة لمطالبهم ما بين عودة العنف، أو اشتعال حرب طائفية، أو طلب تدخل دولي من الأمم المتحدة، أو الولايات المتحدة.

على الصعيد السياسي؛ فإن المتأمل في مرحلة نشأة الأحزاب الثورية الشيعية يلحظ أن أغلب جيل المؤسسين والملهمين لم يكونوا خليجيين، وبعضهم لم يكونوا عربًا من الأساس.

ويبدو بوضوح تواصل الأجهزة الإيرانية مع الأحزاب الشيعية في الخليج، سواء تم ذلك التواصل مباشرة أم عن طريق وسيطها الرئيس حزب الله اللبناني، كما تحظى القضايا المتعلقة بإيران أو الشيعة عمومًا بأولوية مطلقة لدى شيعة الخليج من حيث متابعتها، والتفاعل معها بشتى الأساليب.

ويبقى أن قضية اندماج الأقلية الشيعية في مجتمع أغلبيته سنية، ذات تعقيد نسبي، فالدعوة الرسمية إلى تحقيق هذا الاندماج لا بد أن تكون مصحوبة بتنازلات للشيعة تتعلق بنظام القضاء والمساجد والتعليم والتعيينات ..إلخ، وهذه التنازلات تشكل قائمة المطالب الشيعية من الأنظمة السنية، وفي حالة تلبية أغلب هذه المطالب؛ فإنه بذلك سيتم ترسيخ كون الشيعة أقلية منغلقة أكثر، ومستقلة ذاتيًا داخل الدولة، بمعنى أن الشيعة سوف يكون لديهم صلاحية أوسع في حكم أنفسهم بأنفسهم، أي أن التوسع في تلبية المطالب الشيعية يتناسب طرديًا مع تحويل الأقلية الشيعية إلى دولة داخل الدولة.



الأقليات الدينية في الخليج العربي

أحمد فهمي

باحث فى الشئون السياسية

مفهوم الأقليات:

لا يخلو مصطلح «الأقليات» من لَبْس في معانيه، ودلالاته الواقعية؛ إذ تختلف التعريفات المقدمة له في المراجع العلمية في اعتباره - أولاً- متضمنًا لدلالة تقويمية لوضع أقلية ما في المجتمع الذي تعيش فيه، بمعنى هل يكون وصف جماعة ما بأنها أقلية يحمل في طياته كونها تعاني من الاضطهاد والتضييق وسلب الحقوق، أم لا؟

على سبيل المثال، يعرّف قاموس علم الاجتماع جماعة الأقلية بأنها جماعة عنصرية، أو دينية أو إثنية معترَف بها في مجتمع معين، تعاني من تفرقة مترتبة على تحقير أو تمييز.

وتعرف الموسوعة الدولية للعلوم الاجتماعية الأقلية بأنها: جماعة من الأفراد الذين يتميزون عن بقية أفراد المجتمع عرقيًا أو قوميًا أو دينيًا أو لغويًا، وهم يعانون من نقص نسبي في القوة، ومن ثَم يخضعون لبعض أنوع الاستعباد والاضطهاد والمعاملة التمييزية.

وتعرف الموسوعة الأمريكية الأقليات بأنها: جماعات لها وضع اجتماعي داخل المجتمع أقل من وضع الجماعات المسيطرة في نفس المجتمع، وتمتلك قدرًا أقل من النفوذ والقوة، وتمارس عددًا أقل من الحقوق مقارنة بالجماعات المسيطرة في المجتمع.

وتعرف موسوعة المعارف البريطانية الأقليات بأنها: جماعات من الأفراد الذين يتمايزون عرقيًا أو لغويًا أو دينيًا أو قوميًا عن بقية الأفراد في المجتمع الذي يعيشون فيه.

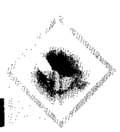
ولكن بعض المتخصصين يعرِّفون الأقلية تعريفًا حياديًا بأنها: أية مجموعة بشرية تختلف عن الأغلبية في واحد أو أكثر من المتغيرات التالية: الدين أو اللغة، أو الثقافة أو السلالة، وهو التعريف المختار في هذه الدراسة. [1]

الأقليات في دول الخليج العربي:

بخلاف الشيعة فإن دول الخليج العربي الست لا تضم أقليات أخرى جديرة بالانتباه، لذا سوف يتركز البحث حول الأقليات الشيعية تحديدًا.

---

(١) (انظر الملل والنحل والأعراق، د.سعد الدين إبراهيم، ص ٢٦-٢٩).



النسب السكانية:

من الظواهر المعتادة صعوبة تحديد النِّسَب السكانية للأقليات، خاصة في دول ذات طابع سياسي خاص، كما هو حال الدول العربية؛ إذ عادة ما يتم تجنب التصنيف الطائفي في الإحصاءات السكانية، أو اعتبارها معلومات سرية غير معلنة، لذا سيكون من الصعب ذكر نسب سكانية جازمة للشيعة في دول الخليج الست؛ نظرًا لتعدد المصادر واختلاف الأسس- والنوايا أيضًا- التي بُنيت عليها التقديرات، وبصورة عامة يميل الشيعة دومًا إلى تضخيم نسبتهم العددية، كما تنزع أغلب المصادر الغربية إلى ذات التوجه.

في الكويت، وفقًا لتقرير «الحرية الدينية في العالم» لعام ٢٠٠٦م، الذي تصدره الخارجية الأمريكية، يشكل الشيعة نسبة ٣٠٪ من إجمالي المواطنين، الذين يبلغ عددهم ٩٧٣ ألفًا (انظر: سي إن إن، شيعة الكويت بين المشاركة والتمايز المذهبي ١٣-٤-٢٠٠٧م)، ويذكر التقرير ذاته أيضًا أن هناك ١٠٠ ألف شيعي مقيم لا يحمل الجنسية الكويتية، كما يوجد نحو عشرة آلاف من طائفة البهرة (الشيعية) الهنود.

لكن يذكر الباحث المتخصص في شئون الشيعة د.فلاح المديرس أن نسبتهم في الكويت تتراوح بين ١٥-٢٥٪ على أكثر تقدير، (انظر عرض كتاب: الحركة الشيعية في الكويت، د. فلاح المديرس، مجلة الراصد)، ويشير د. سعد الدين إبراهيم إلى أن نسبتهم لا تتجاوز ٢٠٪.[٢]

في البحرين، يثور لغط أكبر حول النسبة الحقيقية؛ كون الشيعة في هذا البلد يمثلون النسبة الأكبر بين دول الخليج، لذا تتراوح التقديرات بين ٧٠٪ وأقل من ٥٠٪، ومن أبرز الأمثلة على هذا اللغط ما ذكره سعد الدين إبراهيم في موسوعته عن الأقليات عام ١٩٩٤م من أن نسبة العرب السنة ٤٥٪ والعرب الشيعة ٤٥٪، ويمثل الإيرانيون ٨٪ من السكان، ثلثاهم من الشيعة، وثلثهم الباقي سنة، أي أن إجمالي الشيعة في البحرين يبلغ قريبًا من ٥١٪، والسنة يبلغ قريبًا من ٤٩٪.[٣]

لكن تراجع د.سعد الدين إبراهيم عن تقديراته في تقرير الأقليات الصادر عام ١٩٩٩م، ومنح الشيعة في البحرين نسبة ٧٠٪ مرة واحدة (انظر بحث التجمعات الشيعية في البحرين، شبكة راصد)، وهي نفس النسبة التي ذكرها التقرير الأمريكي «الحرية الدينية في العالم»، والتي ذكرها تقرير مجموعة الأزمات الدولية «التحدي الطائفي في البحرين»، وأشار موقع سي إن إن إلى أن نسبتهم تتراوح من ٦٠-٨٠٪ [٤].

من الصعب ذكر نسب سكانية جازمة للشيعة في دول الخليج الست نظرًا لتعدد المصادر واختلاف الأسس- والنوايا أيضًا- التي بُنيت عليها التقديرات

لكن من خلال لقاءات خاصة مع شخصيات سنية في البحرين، تروّج تأكيدات بأن النسبة الحالية تقترب من المناصفة بين الطائفتين؛ استنادًا إلى نتائج دورتي الانتخاب السابقتين، والتي أظهرت أن نسبة الشيعة لا يمكن بحال أن تصل إلى هذا الرقم المبالغ فيه.

في قطر، حسب تقديرات تقرير الحرية الدينية في العالم، تبلغ نسبة الشيعة ١٠٪ [٥]، ويؤكد نفس النسبة د.سعد الدين إبراهيم في دراسة الملل والنحل.[٦]

في الإمارات، يذكر د. إبراهيم أن نسبتهم الإجمالية ٢٠٪، ولكن تتركز النسبة الأكبر منهم في دبي؛ حيث يمثلون قريبًا من نصف السكان المحليين، أما تقرير الحرية الدينية في العالم، فيرتفع بالنسبة إلى مستوى جزافي؛ حيث يجعلها ١٥٪ من إجمالي السكان وليس المواطنين، أي من عدد ٤,٥ مليون شخص، وهو ما يجعل الشيعة في الإمارات قريبًا من

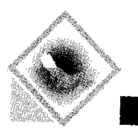
(٢) انظر الملل والنحل، ص ٩٣.

(٣) انظر الملل والنحل، ص٩٦.

(٤) انظر مقال: شيعة البحرين على هامش المواطنة، ١٠-٤-٢٠٠٧م.

(٥) سي إن إن، شيعة قطر.. الانسجام مع الأكثرية، ٢٤-٤-٢٠٠٧م

(٦) انظر الملل والنحل ص ٩١.



ثلث السكان حسب التقرير الأمريكي.[7]

في عُمان، يختلف الوضع كثيرًا؛ إذ يتراوح وضع السنة بين الأقلية والأكثرية باختلاف التقديرات؛ حيث تقدرها دراسة الملل والنحل بـ٢٠٪، بينما يبلغ أتباع الإباضية ٧٠٪، مقابل أقل من ١٠٪ للشيعة[8]، لكن هذه النِّسب تبدو غير دقيقة؛ إذ تشير تقديرات جون بيترسون -أحد أبرز الباحثين الغربيين في الشئون العُمانية، في بحثه الذي نشره في دورية «ميدل إيست جورنال» (شتاء ٢٠٠٤م)، بعنوان «المجتمع المتنوع في عُمان»- إلى أن الإباضيين يشكلون نحو ٤٥٪ فقط من إجمالي السكان، بينما يشكل السنة ٥٠٪، ولا تتجاوز نسبة الشيعة ٥٪، وبعض المصادر تقدر عدد أتباع الشيعة الإمامية بنحو ١٠٠ ألف من إجمالي عدد السكان، الذي يبلغ مليونين و٣٣٠ ألف نسمة، منهم مليون و٨٠٠ مواطن عُماني حسب إحصاء عام ٢٠٠٣م.[9]

تاريخ من الاضطهاد أم التمرد؟!

أيهما يسبق الآخر، الاضطهاد أم التمرد؟! يزعم ناشطون شيعة بأن ما يعتبرونه اضطهادًا مستمرًا لهم يدفعهم إلى التمرد على الأنظمة السنية الحاكمة بصورة دورية، وبحسب السنة فإن طبيعة التمرد والرفض الموجودة لدى الشيعة تجعل من الضروري معاملتهم بأسلوب خاص يتسم بالحذر والمراقبة؛ حفاظًا على الأمن والاستقرار.

الحسم الموضوعي لهذه الإشكالية من وجهة محايدة يبدو صعبًا؛ نظرًا للتعقيدات التاريخية التي تجعل من العسير تحديد نقطة تاريخية حاسمة يبدأ من عندها التحكيم، وخروجًا من الخلاف سوف نركز على التاريخ المعاصر، مع الاعتماد على المصادر الشيعية أو الغربية متجنبين المصادر السنية.

لكن قبل الولوج إلى التاريخ المعاصر ننقل إفادة واحدة لمثقف شيعي يصف فيها طبيعة الوجود الشيعي في تلك المنطقة عبر التاريخ الإسلامي، يقول نجيب الخنيزي: «وتميزت المنطقة - الساحل الغربي للخليج- باندلاع الثورات والانتفاضات المبكرة ضد الدولة الأموية، ثم الدولة العباسية، والتي تكللت بسيطرة القرامطة في نهاية القرن الثالث الهجري التي جعلوها قاعدة لحكمهم، ومنطلقًا لحملاتهم ضد المراكز والعواصم العربية.[10]

وتذكر دراسة مجموعة الأزمات عن البحرين -التي سبقت الإشارة إليها- أنه «من وجهة النظر التاريخية كان ما حدث -الاضطرابات بين الشيعة والدولة بعد ثورة الخميني- يمثل تحولاً عميقًا. فقبل عام ١٩٧٩م، لم تكن الحكومة تنتهج أجندة طائفية محددة، من منطلق أنها كانت تعتبر التهديد الأكثر خطورة هو النابع من المنظمات اليسارية الراديكالية»، ولذلك كان رجال الدين الشيعة غير البحرينيين الذين يحملون فكرًا تثويريًّا يدخلون البلاد دون أي مضايقات، ويؤكد ذلك القيادي الشيعي البحريني مرتضى بدر، والذي شغل مؤخرًا منصب رئيس المجلس البلدي في العاصمة المنامة، يقول في حوار مع صحيفة الوطن البحرينية عن تنقلات رجل الدين المعروف هادي المدرسي عراب التيار الشيرازي في الخليج -كان ذلك التيار مؤيِّدًا للسيطرة الإيرانية على دول الخليج الصغيرة-: «كان السيد المدرسي يتنقل بعدة جوازات سفر.. وفي العام ١٩٧٦م حصل على جواز سفر بحريني».[11]

وفي الكويت يصف موقع سي إن إن حالة الأقلية هناك بالقول: «يشكل الشيعة جزءًا من نسيج المجتمع الكويتي، وهم مشاركون في الحياة السياسية، ولهم وجود نافذ في الحقل الاقتصادي، وحقوقهم الدينية في الأغلب مصانة»[12]، وذلك على الرغم من التاريخ القديم

(٧) سي إن إن، الشيعة في الإمارات.. الاندماج في مجتمع متنوع، ٢٤-٤-٢٠٠٧م.

(٨) انظر الملل والنحل ص ٩٤.

(٩) سي إن إن، الشيعة في عمان نموذج لأقلية ناجحة، ٢٥-٣-٢٠٠٧م

(١٠) انظر مقاله: النشاط السياسي لشيعة السعودية، الجزيرة نت.

(١١) من سلسلة مقالات، قصة الإسلام الحركي في البحرين، صحيفة الوطن البحرينية للكاتب وسام السبع ٢٦-٢-٢٠٠٦م، نقلاً عن موقع موسوعة الرشيد.

(١٢) مرجع سابق.



من عدم الثقة، فمنذ تأسيس أول مجلس استشاري للمشاركة السياسية عام ١٩٢١م تم استبعاد الشيعة، رغم النص على تعيين ممثلين من ذوي الأصول الإيرانية، بسبب امتناع الشيعة عن المشاركة في معركة الجهراء بين الكويت وبعض جيرانها عام ١٩٢٠م، حيث ذهبت مجموعة منهم إلى المقيم البريطاني، وعبروا عن عدم رغبتهم بالمشاركة في هذه المعركة على أساس أنهم ليسوا مواطنين كويتيين، ولكنهم في عام ١٩٣٨م طالبوا بأن يكون لهم تمثيل نيابي، وعندما رفضت السلطات توجه عدد كبير من الشيعة المنحدرين من أصول إيرانية إلى المقيم البريطاني طالبين الحصول على الجنسية البريطانية في تحدٍّ للمجلس التشريعي.[١٣]

وتكرر الأمر لاحقًا أثناء الحرب العراقية الإيرانية؛ حيث اتخذ كثير من الشيعة مواقف مخالفة للموقف الرسمي للدولة المؤيد للعراق، وشارك عدد منهم في الحرب لصالح إيران، كما تورط عدد آخر في عمليات إرهابية داخل الكويت فترة الثمانينيات.

هذه المقتطفات تثبت أن هناك منظومة متبادلة من الفعل ورد الفعل بين الأقليات الشيعية والسلطات المحلية، وأن تلك الأقليات كانت في كثير من الأحيان تحمل أفكارًا ثورية رافضة للحكم السني؛ بحيث إنه يصح القول بأن أداء الحكومات لم يكن بالضرورة طائفيًا، ولكنه «احترازي»، وقد تشوبه أخطاء، أو مبالغات في بعض الفترات.

ومع تتبع أداء تلك الأقليات -أو قياداتها- في العقود الأخيرة؛ فإن الأمر يحتاج إلى عقود أخرى حتى تطمئن الأغلبية إلى أن تقديم المزيد من التنازلات لن يكون مجازفة غير محسوبة.

سمات مشتركة بين الأقليات الشيعية:

بحكم التوحد الطائفي والتركز الجغرافي فإنه يمكن ملاحظة سمات مشتركة بين الأقليات الشيعية في دول الخليج، هذه السمات تفيد معرفتها في بلورة تصورات أكثر دقة عن مستقبل هذه الأقليات، وعلاقاتها مع المجتمعات السنية التي تعيش فيها.

أولاً: التكوينات العِرقية المتشابهة:

يصعب فصل المكون الأجنبي عن شيعة الخليج؛ نظرًا لكون تلك المنطقة ذات جذب لمجتمعات شيعية أخرى ذات طبيعة مهاجرة، وبخاصة نموذجي الهند وإيران.

يقيم الشيعة بالساحل الغربي للخليج العربي منذ عقود بعيدة، إلا إن تأسيس دولة القرامطة مع نهاية القرن الثالث الهجري، فيما كان يعرف بالبحرين، وتضم أغلب مناطق الساحل الغربي للخليج، أدى إلى انتعاش الحالة الشيعية، وظل الأمر كذلك حتى سقوط القرامطة عام ٤٦٧هـ على يد السلاجقة، وكانت تلك الدولة بمثابة نقطة جذب للشيعة من المناطق المجاورة، ورغم ما تركته من ميراث يتسم بالقسوة والوحشية تجاه المجتمعات السنية المجاورة لها، فإنها تحتل مكانة مخالفة تمامًا في الثقافة الشيعية؛ حيث يمتدحها البعض وكأنها دولة ديمقراطية على النمط الغربي الحديث، يقول مثقف شيعي: «والقرامطة من الناحية المذهبية ينتسبون إلى فرقة الإسماعيلية، وفي عهدهم جرى استحداث الكثير من التنظيمات الإدارية والعسكرية والقانونية والاجتماعية ذات المدى المتقدم والمتطور التي تأخذ بعين الاعتبار مصالح الغالبية من السكان.. كما اتسم البناء السياسي والاجتماعي للقرامطة بالديمقراطية العسكرية».[١٤]

بعد القرامطة وفي القرن السابع الهجري استولى أتابك فارس على الجانب الغربي من الخليج العربي لتتحول المنطقة إلى نقط جذب جديدة للتجمعات الشيعية[١٥]، وفي القرون التالية ظل النفوذ الإيراني في تلك المنطقة حاضرًا بقوة خاصة مع ظهور الدولة الصفوية في القرن السادس عشر الميلادي، ومع ضعف القبضة العثمانية

(١٣) انظر دراسة فلاح المديرس: الحركة الشيعية في الكويت، عرض مجلة الراصد.

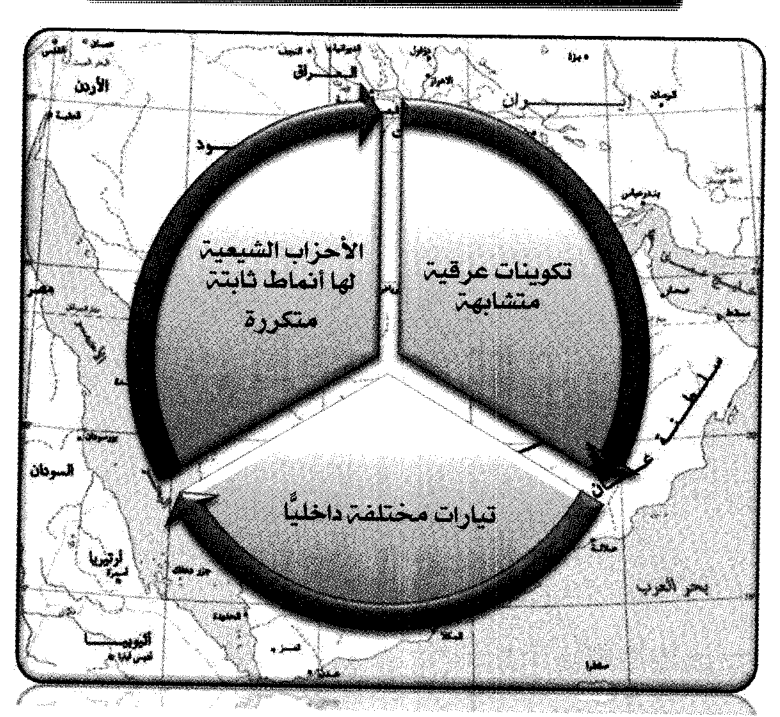
(١٤) النشاط السياسي لشيعة السعودية، مرجع سابق.

(١٥) انظر مقال: التجمعات الشيعية في السعودية، شبكة راصد.



علـى تلك المنطقة البعيدة، وتمكن الإيرانيون في فترات متتابعـة من احتلال بعـض المناطق؛ حيث اسـتولوا على البحرين- الجزيرة- مطلع القرن السـابع عشـر الميلادي بعـد البرتغاليين، وحكموها بشـكل متقطع حتى عام ١٧٨٣م عندمـا تمكنـت قبيلة عتبة- الـتي ينحدر منها عائلة آل الخليفة الحاكمة حاليًا- من طردهم.(١٦)

نتـج عن ذلك تحول المكون الإيراني إلى جزء هام من الأقليات الشـيعية في الخليج، بل إن بعـض الذين زاروا البحرين، أو كتبوا عنها في بدايات هذا القرن يذكرون صراحة أن الوجود الشـيعي هو وجود أجنبي. يقول أمين الريحاني في كتابه «ملوك العرب» الصادر سنة ١٩٢٤م ص٧٢١ مـا يلـي: «وهي (البحرين) علـى صغرها عامرة بمائـتي ألف مـن العرب والأعاجم من الشـرق والغرب،



على المسـتوى الشـعبي كانـت المنطقة تمثل بالنسـبة للإيرانيين موطئ قدم قريب يهربون إليه من أيّ أزمات أو صراعات أو مشـاكل في بلدهم، وأدى ذلك إلى تراكم موجـات مـن الهجـرة أثرت علـى التركيبة السـكانية للشـيعة في المنطقة، وفي منتصف القرن العشـرين وضع الشـاه محمد رضـا بهلوي مخططًا اسـتخباراتيًا سـريًا يستهدف تغيير التركيبة السكانية للمنطقة الغربية من الخليج عن طريق تهجير مبرمج لشـيعة إيرانيين، سـواء كانوا من أصول عربية أم فارسية.(١٧)

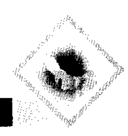
بيـد أنها لا تـزال عربية الأصل والحكـم، عربية اللغة والـروح؛ لأن أكثـر سـكانها مـن العـرب الأصليين: عـرب نجد، وفيهـم من المذاهـب الإسـلامية المالكي والشـافعي والحنبلـي والجعفري، أمـا الجعفريون فهم مثل الهنود يعدون من الأجانب؛ لأنهم إيرانيون أو إيرانيو التبعية».(١٨)

ويذكـر فـلاح المديـرس أن شـيعة الكويـت العرب ينحـدرون من شـرق الجزيرة العربية، وهـم الذين يطلق

(١٦) انظر التجمعات الشيعية في البحرين، شبكة راصد.

(١٧) انظر مقال: يخدعنا من يقول: إن هذه هي الديمقراطية، سميرة رجب، الوطن البحرينية

(١٨) انظر بحث التجمعات الشيعية في البحرين، سابق.



عليهم «الحساوية» نسبة إلى منطقة الأحساء بالسعودية، أو «البحارنة» نسبة إلى البحرين، وفئة قليلة منهم جاءت من جنوب العراق، ويطلق عليهم «البصاروة» أو «الزبيرية»، نسبة إلى البصرة أو الزبير بالعراق، أما الشيعة الذين جاءوا من إيران فيطلق عليهم «العجم»، وهم يشكلون نسبة كبيرة من شيعة الكويت. (١٩)

وفي البحرين تُقدَّر نسبة الإيرانيين بين الشيعة -حسب تقرير مركز ابن خلدون- بحوالي ١٢٪، إلا إن هذا التقدير لا يشمل من تمتد أصولهم الإيرانية إلى قرون ماضية، ويشير تقرير مجموعة الأزمات عن البحرين إلى أن ذوي الأصول الفارسية يبلغون ما بين ٢٥-٣٠٪ من السكان.

أما في عُمان فإن الشيعة هناك يصنّفون أنفسهم ويصنّفهم الناس أيضًا بأنهم «إيرانيون» حتى ذوي الأصول العربية منهم. (٢٠)

إذن لا مجال للقول بأن شيعة الخليج هم عرب «خُلّص»، ولا مجال أيضًا للقول بأن الوجود الحالي لتجمع شيعي في دولة خليجية ما يعني أن ذلك الوجود ممتد عبر التاريخ، أي أن دعوى الارتباط الجغرافي ببقعة معينة من الأرض لا تصمد أمام جولة تاريخية لعدة مئات من السنين؛ نظرًا لطبيعة الارتحال والتنقل المستمر التي ميزت القبائل في القرون الماضية، سواء لأسباب تتعلق بنمط الحياة في الصحراء، أو لتغيرات الظروف السياسية كما ذكرنا.

> ما لا يقل عن ٢٥٪ من إجمالي الشيعة في الخليج حصل على انتمائه لهذه المنطقة عن طريق التجنس، وكثير منهم حصل عليها يوم أن كانت «جوازات» السفر تباع كأي سلعة قبل أكثر من أربعين عامًا.

وبالتالي يصعب ادعاء الملكية التاريخية لمنطقة جغرافية معينة من الساحل الغربي للخليج العربي، وتاليًا أيضًا لا مجال للاعتراض على استمرار عمليات التجنس، طالما كان ذلك قرارًا سياديًا تتخذه الدولة، فما لا يقل عن ٢٥٪ من إجمالي الشيعة في الخليج حصل على انتمائه لهذه المنطقة عن طريق التجنس، وكثير منهم حصل عليها يوم أن كانت «جوازات» السفر تباع كأي سلعة قبل أكثر من أربعين عامًا قبل أن تتخذ أغلب دول الخليج شكلها النظامي الحالي. (٢١)

ثانيًا: تيارات مختلفة داخليًا:

لا تشكل الأقلية الشيعية في دول الخليج كيانًا واحدًا متجانسًا، فهم ينقسمون إلى عدة تيارات دينية وسياسية.

فمن الناحية الدينية توجد ثلاث فرق شيعية اثنا عشرية في منطقة الخليج، وهي: الإخبارية، الأصولية، الشيخية، والأخيرة متفرعة عن الأولى، والثانية تطوير للأولى، والخلافات بين الأولى والثانية تمتد عبر قرون، واتخذت أشكالاً مأساوية في بعض مراحلها؛ إذ رافقها عمليات قتل وتجريح وسباب . (٢٢)

وينتشر الإخباريون في منطقة الأحساء، بينما يكثر الأصوليون في القطيف، وحسب بعض المراقبين فإن الإخباريين أكثر ميلاً للداخل وبعدًا عن الصراعات السياسية. (٢٣)

وتذكر دراسة مجموعة الأزمات أن شيعة البحرين كان يغلب عليهم الانتماء للإخباريين حتى مطلع القرن العشرين، ولكن حاليًا يتبع أغلبهم المذهب الأصولي.

وتوجد الشيخية بنسبة قليلة في الأحساء، وفي الكويت أيضًا حيث أقام أحد شيوخها وهو الميرزا علي بن موسى الحائري في الكويت سنوات، وكانت مجموعة من شيعة الكويت يقلدون والده موسى بفعل تأثر الكويت وقربها من كربلاء. (٢٤)

---

(١٩) انظر مقال: شيعة الكويت بين المشاركة والتمايز المذهبي، سي إن إن ١٣-٤-٢٠٠٧م.

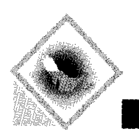
(٢٠) انظر دراسة الملل والنحل، ص ٩٤.

(٢١) انظر التجمعات الشيعية في الخليج، شبكة راصد، وكتاب «وجاء دور المجوس».

(٢٢) انظر كتاب: صراع المصالح في بلاد الرافدين لتفصيلات أكثر عن طبيعة الخلاف بين الفرقتين ص ٢٥-٢٨.

(٢٣) انظر شبكة راصد الشيعية ٨-١٠-٢٠٠٧م، ومقال: اغتيال قاضي جعفري، حسين عباس، موقع مصريون ١٢-١٠-١٤٢٨هـ.

(٢٤) التجمعات الشيعية في الكويت، شبكة راصد السنية.



ومن حيث المرجعية الدينية، فإن الأصوليين فقط -وهم أغلبية الشيعة الخليجيين- هم من يعتمدون نظام المرجعيات، وأبرز المراجع المتبوعين هم: السيستاني ويقيم في النجف، وصادق الروحاني والشيرازي في إيران، وخامنئي المرشد الإيراني، وحسين فضل الله المقيم في لبنان. (٢٥)

ولا يوجد مرجع من مراجع التقليد المعتبرين يقيم في دول الخليج حاليًا، وتذكر بعض التقديرات أن حوالي ٨٠٪ من شيعة السعودية يقلدون السيستاني، والأقل هم من يقلدون فضل الله. (٢٦)

نفس التركيبة المرجعية تتكرر تقريبًا في بقية دول الخليج، لكن مع اختلاف النِّسَب، وإن كان السيستاني يحتفظ بالأولوية، ويقول هادي العلوي أحد قيادات تيار الشيرازي في البحرين: إن أتباع مذهب مرجعه لا يقلون عن ربع شيعة البحرين، وإن كان بعض رجال الدين الشيعة يغيرون ممثليهم كل فترة. (٢٧)

ويتميز تيار الشيرازي بأنه يقرن بين العمل السياسي والمرجعية الدينية، ويوصف التيار بأنه راديكالي، (انظر دراسة التحدي الطائفي في البحرين)، وتنبثق عنه جمعية العمل، أو حزب العمل كذراع سياسي، وهو نسخة من مثيله في العراق، وفي البحرين يقود جمعية العمل محمد علي محفوظ، ويطلق على المكتب المختص بالأنشطة الدعوية والدينية «الرسالة»، ويزعم هادي العلوي وهو عضو في التنظيمين الديني والسياسي-الرسالة والعمل- بأن مجموعة العضوية بين التنظيمين تناهز ٢٠,٠٠٠ عضو مسجل، وهو يدّعي أيضًا أن تنظيمه يحوز على تأييد أوسع من ذلك بكثير، وأنه يبلغ مجموع التمثيل ما بين ٤٥٪ إلى ٥٥٪ من الشيعة، ويفسر عدم إعلانهم بأن كثيرًا من البحارنة يفضلون عدم الإعلان عن تأييدهم العلني. (٢٨)

وفي الكويت يحظى التيار بوجود ملحوظ، خاصة مع ظهور قناة الأنوار التابعة له، ويمثله سياسيًّا تجمع العدالة والسلام، وللتيار نشاط واضح في طباعة الكتب وإقامة المؤسسات، كما حقق نجاحًا في اختراق الشيخية وجذب أتباعها. (٢٩)

ويوجد تيار ولاية الفقيه في عدة دول، وإن كانت النظرية لا تحظى بشعبية في الأوساط الشيعية.

وتُظهر الخارطة الدينية لشيعة الخليج أن منابعهم الدينية ترمي بثقلها إلى الخارج، فمصادر التيارات الأساسية ورموزها لا ينتمون إلى دول الخليج ولا يقيمون فيها، وكذلك المرجعيات الدينية تتوزع في الأساس بين العراق وإيران، في المقابل فإن جميع الرموز والعلماء الشيعة في الخليج العربي قضوا فترة طويلة نسبيًا من مرحلة التحصيل العلمي في النجف أو قم.

ثالثًا: الأحزاب الشيعية والأنماط المتكررة:

تمثل حركة الإصلاح في السعودية التي يتزعمها حسن الصفار أبرز الحركات السياسية لشيعة السعودية، وفي البحرين فإن أبرز الكتل السياسية الشيعية في مقدمتها جمعية الوفاق برئاسة علي سلمان، وجمعية العمل الإسلامي بزعامة محمد علي محفوظ، وفي الكويت تأسس التحالف الإسلامي الوطني في التسعينيات، ثم تأسس الائتلاف الوطني الشيعي في عام ٢٠٠٥م، وهو يضم خمسة تيارات، سياسية ودينية، هي: تجمع العدالة والسلام الذي يمثل أنصار صادق الشيرازي، وتجمع الميثاق الوطني الذي يمثل مقلدي حسين فضل الله، وحركة التوافق الوطني الإسلامية التي انشقت عن حزب الله -الكويت، وتجمع الرسالة الإنسانية الذي يمثل الشيعة «الحساوية» في الكويت، والذي يعرف أيضًا بتيار جامع الإمام الصادق، وأخيرًا تجمع علماء المسلمين الشيعة الذي يقوده المرجع محمد باقر المهري. (٣٠)

---

(٢٥) انظر حوار مع فؤاد إبراهيم، الجزيرة نت.

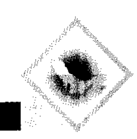
(٢٦) مقال سعود صالح السرحان، نحو مرجعية شيعية مستقلة في الخليج، الشرق الأوسط ٢٤-٢-٢٠٠٣م

(٢٧) دراسة مجموعة الأزمات ، التحدي الطائفي في البحرين.

(٢٨) المرجع السابق.

(٢٩) التجمعات الشيعية في الكويت، سابق.

(٣٠) انظر سي إن إن، شيعة الكويت بين المشاركة والتمايز المذهبي، سابق.



ولا يحظى الشيعة بحضور سياسي مماثل في بقية دول الخليج، ويتركز حضورهم الأقوى في المجالات الاقتصادية والدينية.

ومن خلال دراسة الأداء السياسي للأحزاب الشيعية في العقود الأربعة الماضية يمكن ملاحظة أنماط ثابتة متكررة في غالبية هذه الأحزاب في الدول الثلاث، وهي أنماط تتشابه فيها مع أحزاب شيعية في دول أخرى، مثل لبنان والعراق، وهذا التكرار النمطي يعطي إيحاءات بمستوى الارتباط والتنسيق وتبادل الخبرات بين الأحزاب الشيعية في المشرق العربي.

ونذكر هذه الأنماط فيما يلي:

١- مرحلة المعارضة الخارجية الحادة والعنيفة:

مثلت «مجموعة» حزب الله أبرز الأحزاب المتبنية للعنف، وكان لكل دولة من الدول الخليجية الثلاث فرعها المستقل من «حزب الله»، وكان أكثرها حدة وعنفًا الفرع الكويتي الذي نفّذ في الثمانينيات عدة عمليات إرهابية، أبرزها المحاولة الفاشلة لاغتيال أمير الكويت، وبرز في البحرين حزب الدعوة منذ الستينيات وكان يمارس نشاطه سرًّا في الداخل، ثم انتقل إلى الخارج، وحركة أحرار البحرين، والجبهة الإسلامية لتحرير البحرين، والأخيرة أكثرها عنفًا، ومؤسسها هو رجل الدين هادي المدرسي، والذي كان يدعو إلى الانقلاب على عائلة آل خليفة، وكانت هذه الأحزاب تهاجم الأنظمة دون مواربة؛ بما في ذلك مهاجمة العائلات الحاكمة، وكان تتلقى الدعم من إيران بصورة مباشرة أو عن طريق حزب الله اللبناني.

٢- مرحلة التحول إلى المعارضة السلمية المتصالحة جزئيًّا:

بعد موت الخميني وبدء التحول في السياسة الإيرانية نحو مزيد من البراجماتية مع رئاسة رافسنجاني، تغير أسلوب الخطاب، وشرعت غالبية الأحزاب في تبني لهجة مرنة تتداول إمكانات العودة إلى الداخل، وكان تجربة حزب الله اللبناني في مرحلة «اللبننة» مصدر إلهام لهذه الأحزاب، فتحولت حركة أحرار البحرين إلى جمعية الوفاق، وضمت معها عناصر من حزب الدعوة القديم وحزب الله، وتحولت الجبهة الإسلامية لتحرير البحرين إلى جمعية العمل، وتأسس التحالف الإسلامي الوطني في الكويت كذراع سياسية لحزب الله، وفي الفترة من مطلع التسعينيات وحتى العام ٢٠٠١م كانت أغلب القيادات الشيعية المعارضة قد نسقت أوضاعها مع السلطات الرسمية في سياق الحصول على تنازلات دينية واجتماعية وسياسية.

٣- استمرار الخطاب الخارجي المعارض:

فيما يبدو كوسيلة للضغط، وللتعبير عن المطالب دون مواربة أو مرونة سياسية، وقد سهلت التقنيات الإعلامية الحديثة، وفي مقدمتها شبكة الإنترنت، مسألة المعارضة الخارجية؛ إذ غالبًا ما تكون خارجية اسمًا بينما تُدار المواقع الإلكترونية المعارضة من الداخل، وقد أغلقت السلطات في البحرين ثلاثة مواقع إنترنت، وباشرت التحقيق مع المسئول الإعلامي في جمعية الوفاق؛ بسبب اللهجة الطائفية التي تتبناها هذه المواقع.[٣١]

نفس الوضع ينطبق على الأصوات المعارضة في السعودية والكويت، وبخاصة تلك التي تحرص على تبني الهجوم على أهل السنة ورموزهم الدينية، ومن أمثلة ذلك ما يسمى بهيئة خدام المهدي في الكويت، وهي هيئة غامضة تعلن أن مكتبها الرئيس في بريطانيا، وتصدر مجلة المنبر الطائفية، وتوزعها سرًّا على مؤيديها وغيرهم.

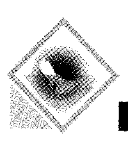
٤- تبني قائمة مطالب مبالغ فيها:

رغم المكاسب المتحققة مع الرفع المستمر لسقف المطالب، وسوف نناقش هذه المسألة لاحقًا.

٥- استخدام أسلوب التهديدات المبطنة والتي تصل إلى حد العنف:

وهذه ظاهرة جديرة بالتأمل؛ إذ تكشف ماهية الإصلاح الذي يتحدث عنه قادة الأحزاب الشيعية، ويتنوع التهديد الذي يلوح به قادة الشيعة في حال لم

(٣١) انظر دراسة التحدي الطائفي في البحرين، سابق



تتم الاستجابة لمطالبهم ما بين عودة العنف، أو اشتعال حرب طائفية، أو طلب تدخل دولي من الأمم المتحدة، أو الولايات المتحدة.

يقول ناشط شيعي في حوار مع مجلة المشاهد: «بدون إصلاح سياسي داخلي يؤسس لعلاقة جديدة بين الحاكم والمحكوم، لا تستطيع أي حكومة عربية، أن تواجه الضغوط الأمريكية.

وعلى هذا الأساس إذا رفضت هذه الدول الإصلاحات الداخلية، فليس هناك فرص أمام الآخرين غير المشروع الأكثر راديكالية، وهو المشروع الأمريكي.

وفي البحرين قال حسن المشيمع نائب رئيس جمعية الوفاق في تهديد واضح: إن «أي انهيار في المعارضة المعتدلة - يقصد حزبه الوفاق- إمّا بضغط من الحكومة أو من الأسفل، سيؤدي إلى ظهور تنظيمات أكثر راديكالية وتطرفًا، أو سيجبر حتى القوى المعتدلة على تصعيد أساليبها»، وتحدث عن ظهور تنظيم مقاتل يدعو نفسه حزب الله؛ حيث تردّد أن له حضورًا في الجزيرة، وأنه يتم تأييده بشكل متزايد من قِبَل الشباب الغاضبين والمحبطين من الوضع الراهن حسب زعمه.

وقد أعلنت جماعات شيعية من بلدة سترة في البحرين أنهم على استعداد لحمل الأعلام الأمريكية إلى جانب البحرانية، إذا كان مثل ذلك ضروريًّا لإقناع واشنطن الضغط على حكومتهم. (٣٢)

وفي الكويت صرح محمد باقر المهري أمين عام تجمع علماء المسلمين الشيعة أن الاستبعاد المقصود للشيعة في الكويت من المناصب السياسية قد يؤدي إلى تهديد الوحدة الوطنية. (٣٣)

إن التشابه الواضح بين الأحزاب الشيعية في هذه الأنماط الرئيسة لا يمكن تفسيره بأنه من قبيل المصادفة، أو التوافق العشوائي، فنحن نتكلم عن فترة زمنية مدتها أربعون عامًا، والأمر كذلك فإن تنمية مستوى الوعي لدى القيادات السنية تستلزم تجاوز الإطار الزمني الضيق عند تقويم الأداء السياسي للأحزاب الشيعية في الخليج، والنظر إلى الحالة الشيعية ككل بوصفها أنماطًا متكررة عبر التاريخ.

إشكاليات الولاء والاندماج:

إشكالية الولاء:

ولاء الشيعة لمن؟ الإجابة على هذا التساؤل تثير عواصف من الفعل ورد الفعل، وعندما صرح الرئيس المصري حسني مبارك قبل أعوام بأن ولاء أكثرية الشيعة لإيران، ثارت الثائرة ولم تقعد، إذن طرح هذه القضية من خلال مصطلح الولاء قد يكون مشوشًا بعض الشيء، ولذلك نطرح تساؤلاً بديلاً: من يقود شيعة الخليج؟ أو: من يملك التأثير على توجهاتهم السياسية؟

أعلنت جماعات شيعية من بلدة سترة في البحرين أنهم على استعداد لحمل الأعلام الأمريكية إلى جانب البحرانية، إذا كان مثل ذلك ضروريًّا لإقناع واشنطن بالضغط على حكومتهم

وفيما يلي محاولة لتقديم إجابات موضوعية عن هذه التساؤلات.

أولاً: الولاء للمرجع:

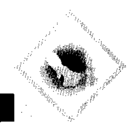
قبل أقل من مائة عام لم تكن الخريطة السياسية للجزيرة العربية، وبخاصة منطقة الخليج على صورتها الحالية، بل هناك دول خليجية لم يمض على استقلالها وتأسيسها بصورتها المعاصرة إلا ٣٨ عامًا، وبعضها أقل.

في المقابل لم يكن تاريخ العلاقة بين الشيعة والسنة تاريخًا من السلام والمحبة، بل كان في أغلبه تاريخ صراع ديني سياسي، ولم ينشأ التشيع بالأساس إلا انشقاقًا عن أهل السنة، نحن إذن لا نتحدث عن فرقتين من فرق المسلمين بينهما خلافات علمية، فقد تأسست دول واشتعلت حروب، وثارت صراعات عقودًا متتابعة انطلاقًا من هذا الخلاف بين السنة والشيعة.

---

(٣٢) انظر دراسة التحدي الطائفي في البحرين.

(٣٣) أ.ف.ب ٩-٦-٢٠٠٥م.



وقد طوّر الشيعة عبر التاريخ طرقًا وأساليب للتواصل فيما بينهم لا تزال قائمة حتى الآن، وأبرزها نظام المرجعية الدينية، وهذا النظام يمثل أبرز صور الانتماء الطائفي وأقواها، فالمرجع هو الأساس في الفتوى، كما يتلقى خُمس الدخل الذي يكسبه أي شيعي على وجه الأرض كل عام.

فما هو حجم الولاء والانتماء الذي يستلزم إخراج خمس الدخل السنوي عن رضا وطيب نفس، وإعطاءه لمرجع ديني-غالبًا إيراني- يقيم في دولة أخرى قد تكون معادية لدولة دافع الخمس، أو على الأقل مختلفة معها؟

أضف إلى ذلك أن حدود تأثير المرجع في توجهات مقلديه الأصل أنها غير محدودة بمجال معين، ومن يطلع على أبواب ومجلدات الفتاوى الموجودة في مواقع المراجع على الإنترنت يمكنه ببساطة أن يتأكد من شمول الفتاوى لكافة مجالات الحياة، وليس الأمر كما يقول المنظر الشيعي فؤاد إبراهيم: «هذه كانت دائمًا التهمة المكررة أن الشيعة -لأن لديهم انتماء خارج الحدود وهو المرجع- لا بد أن يكونوا مزدوجي الولاء، وهذا غير صحيح مطلقًا؛ لأن اتباع مرجع ديني معين لا يعني أن هناك ارتباطًا سياسيًّا بالمرجع».

ويقول أيضًا: «في الغالب المرجعيات الدينية ليس لها موقف سياسي متشدد إلى حد المخاصمة مع الحكومات، وبالتالي لم أجد حتى الآن من ينادي أتباعه إلى مخالفة حكوماتهم».(٣٤)

هذا الكلام مردود عليه من طريقين: الأول من كلام ناشط شيعي آخر هو حمزة الحسن، والذي يقول في مقال بالجزيرة نت أيضًا: «فاتباع مرجع ديني معيّن، سواء كان في إيران أو في العراق، أو حتى في لبنان، ينعكس على الموقف السياسي للأفراد أو المقلدين تجاه كل القضايا السياسية المطروحة على الساحة العربية والإسلامية، بما فيها الموقف من نظام الحكم».(٣٥)

والطريق الثاني: استعراض بعض مواقف المرجعيات من أنظمة الحكم الخليجية، ونذكر مثالاً واحدًا: موقف «آية الله» الشيرازي، المرجع المعروف، وصاحب تيار ينتشر أتباعه في دول الخليج، وكذلك «آية الله» صادق روحاني، وهو أيضًا مرجع، وكان له مقلدون في الخليج، كلاهما طالب عام ١٩٧٩م باستعادة الأرض المسلوبة التي تخلى عنها الشاه، أي البحرين، وأعلنوا قيادة حركة ثورية من أجل استعادتها، وشاركهم فيها هادي المدرسي الذي أسّس الجبهة الإسلامية لتحرير البحرين.(٣٦)

ثانيًا: الانتماء السياسي:

على الصعيد السياسي؛ فإن المتأمل في مرحلة نشأة الأحزاب الثورية الشيعية يلحظ أن أغلب جيل المؤسسين والملهمين لم يكونوا خليجيين، وبعضهم لم يكونوا عربًا من الأساس، مثل: الشيرازي، تقي المدرسي، هادي المدرسي، وهناك أحزاب تأسست كفروع لأحزاب شيعية خارجية، مثل حزب الدعوة البحريني، وفروع حزب الله في دول الخليج، وقبل اندلاع الثورة الإيرانية كان رموزها مصدر إلهام للكثيرين.

لم يكن تاريخ العلاقة بين الشيعة والسنة تاريخًا من السلام والمحبة، بل كان في أغلبه تاريخ صراع ديني سياسي، ولم ينشأ التشيع بالأساس إلا انشقاقًا عن أهل السنة.

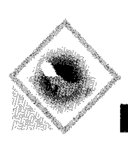
يقول مرتضى بدر أحد مؤسسي الجبهة الإسلامية لتحرير البحرين: «في مطلع السبعينيات كنّا نتفاعل مع الحركة الفكرية في إيران، خاصة مع صعود نجم الدكتور علي شريعتي. المحاضرات التي كان يلقيها شريعتي في جامعة طهران تصل إلى البحرين، وتُترجم إلى العربية».(٣٧)

(٣٤) انظر حوار مع فؤاد إبراهيم، الجزيرة نت، ملف الشيعة في السعودية.

(٣٥) انظر مقال: علاقة شيعة السعودية الخارجية مذهبيًّا وسياسيًّا، سابق.

(٣٦) انظر مقال سميرة رجب، صحيفة الوطن البحرينية، سابق.

(٣٧) انظر حواره مع الوطن البحرينية، سابق.



ظل العراق هو مركز التشيع العالمي، وبؤرة التثوير الشيعي، حتى عام ١٩٧٩م، وكانت كلية الفقه من المؤسسات العلمية التي أُنشئت على النهج الأكاديمي الحديث، واستقطبت الكفاءات الذكية الشيعية من كل مكان، وباتت أحد المصادر التي اعتمد عليها حزب الدعوة في تجنيد عناصره، وفتح فروعه في دول أخرى، ومن بين هذه العناصر أبرز رجال الدين الشيعة في البحرين عيسى عبده قاسم.[٣٨]

بعد الثورة تحولت الأنظار إلى إيران كمركز للتعليم الديني والتثوير الشيعي، كما يذكر حمزة الحسن في مقاله: «توجهت الأنظار إلى إيران التي انتصرت فيها الثورة للتوّ، مما أعطى الارتباط الديني العبادي الصرف ملامح سياسية واضحة».[٣٩] وهذا يعني أن التوافد الشيعي الخليجي على قم من أجل الدراسة لم يخلُ من ملامح سياسية، وارتباطات كان لها تأثير كبير في أداء القيادات الشيعية في مراحل تالية.

ومن النقاط المهمة في هذا الصدد أنه رغم كون «الإلهامات» السياسية لشيعة الخليج ذات طابع خارجي عادة، إلا إن ذلك لا يستلزم بالضرورة أن تكون إيرانية دومًا، فالمجال مفتوح لنشأة منابع أخرى للقيادة والتوجيه السياسي، رغم صعوبة ذلك في ظل الهيمنة الإيرانية، إلا إنه أمر حدث بالفعل قبل الثورة، فقد كان تيار الشيرازي سابقًا عليها، وكذلك حزب الدعوة الذي تأسس في العراق إبان خمسينيات القرن العشرين.

ثالثًا: الأحداث المحورية:

عند تتبع المنعطفات الرئيسة التي مر بها العمل السياسي الثوري الشيعي سنلحظ أربعة أحداث أنتجت هذه المنعطفات، وكلها مرتبطة بالمصالح الإيرانية على نحو عجيب: الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩م، الحرب العراقية الإيرانية مطلع الثمانينيات، التقارب الخليجي الإيراني في التسعينيات، احتلال العراق وسقوط البعث عام ٢٠٠٣م.

عقب كل حدث تتغير دفة العمل السياسي الشيعي في اتجاه جديد، ولا مجال لإنكار أو جدال في هذه الصدد، فهو أمر يعترف به الشيعة أنفسهم علمانيون ودينيون، يقول محمد باقر المهري تعليقًا على رفع شيعة الكويت لسقف مطالبهم بعد احتلال العراق: إن «التغير السياسي في العراق، ومطالبات المجتمع الدولي لحكومات المنطقة بضمان الحريات الدينية، بات حافزًا للشيعة في الكويت لتحقيق مطالب قديمة لهم». ويقول حمزة الحسن: «أمريكا لم تعد تريد السعودية أبدًا. بل إنها تراهن على الدور المقبل للعراق.. لا أرى أي أهمية تذكر للسعودية في الأجندة الأمريكية.. من الناحية الفعلية فإن العراق سيكون هو الثقل السياسي.. الآن قد يستقطب العراق حتى دول الخليج».[٤٠]

لكن هذه التراتبية تثير حنق بعض الشيعة الرافضين لتغلغل النفوذ الإيراني في أوساط الشيعة، يقول الصحفي الكويتي الشيعي خليل حيدر: «وكان أنصار حزب الله وأنصار ولاية الفقيه في الكويت معادين للولايات المتحدة، لا لأن أمريكا خطرة على الكويت، أو أنها تمثل تهديدًا لمصالحها، بل لأن الثورة الإسلامية في إيران اصطدمت بها وعادتها.. ولو تصالحت إيران غدًا مع الولايات المتحدة على نحو ما، أو وفق صفقة ما، أو توازن ما، فسنرى فورًا جملة من التحولات السياسية في لبنان والبحرين والكويت في خطاب أعتى عتاة رجال حزب الله!»، ويقول حيدر في نفس المقال: «لماذا كلما أصيب الولي الفقيه بالزكام ينبغي أن نتجاوب في الكويت بالعطس».[٤١]

رابعًا: التواصل الإيراني مع الأحزاب:

بعيدًا عن تتبع الأداء الاستخباراتي، فإن تواصل الأجهزة الإيرانية مع الأحزاب الشيعية في الخليج أمر معروف للجميع، سواء تم ذلك التواصل مباشرة أم عن طريق وسيطها الرئيس حزب الله اللبناني، وقد ثارت

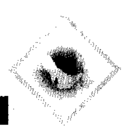
---

(٣٨) انظر مقال منصور الجمري: صفحات من تاريخ الحركة الإسلامية البحرينية، صحيفة الوسط، وهو رئيس التحرير وناشط شيعي قديم.

(٣٩) مرجع سابق.

(٤٠) حوار مع مجلة المشاهد.

(٤١) مقال شيعة الكويت وتأبين عماد مغنية، الوطن الكويتية ١١-٣-٢٠٠٨م.



ضجة في الكويت قبل الانتخابات الأخيرة بسبب تسرب معلومات عن لقاءات سرية عُقدت في السفارة الإيرانية بالكويت بين مسئولين إيرانيين ومترشحين شيعة للمجلس، بدعوى أن إيران تسعى إلى توحيد الشيعة وجمع كلمتهم في الانتخابات.(٤٢)

وفي الإمارات أرسلت الحكومة تنبيهًا رسميًا إلى الحكومة الإيرانية حول استعمال إيران للأراضي الإماراتية؛ حيث رصدت سلطات دبي لقاءً بين شيعة عمانيين ومسئولين إيرانيين في أحد الفنادق، وأن هذه اللقاء تم فيه تداول خطط لتكوين جبهة ضغط تمثل الشيعة العمانيين».(٤٣)

وتحدثت بعض التقارير عن اجتماعات عُقدت في دمشق وبيروت بين قيادات في أحزاب بحرينية من بينها جمعية الوفاق، مع ممثلين عن حزب الله للاستفادة من خبرات الحزب في التكتيكات السياسية وأساليب التصعيد والاحتواء.(٤٤)

خامسًا: التواصل الشعبي:

تحظى القضايا المتعلقة بإيران أو الشيعة عمومًا بأولوية مطلقة لدى شيعة الخليج من حيث متابعتها، والتفاعل معها بشتى الأساليب، ويتحدث القيادي الشيعي البحريني مرتضى بدر عن أن شيعة البحرين كانوا دومًا متأثرين بما يجري في إيران، فيقول: «بعد العملية الانقلابية على رئيس الوزراء الإيراني الوطني الدكتور محمد مصدق خرجت مسيرة من فريج المخارقة تندّد بالشاه وبأمريكا.. وبعد عدة سنوات من احتجاز مصدق انتشر خبر وفاته فخرجت مسيرة من أمام منزلنا، وغالبية من شارك فيها هم من العجم المؤيدين لمصدق».

ويذكر مرتضى دورًا لشيعة الخليج في دعم ثورة الخميني: «كانت بيانات الإمام تُترجم إلى العربية، وتُنشر في المنطقة من قِبَل تيار الحركة الرسالية في الخليج»، ولا يقتصر الدعم فقط على إيران، فهو يمتد إلى العراق أيضًا، يقول: «مع ثورة العشرين من القرن الماضي كان هناك تفاعل كبير من المجتمع البحريني؛ فكانت المساعدات المالية والمؤن تُجمَع من القرى والمدن، وتُصدَّر إلى البصرة دعمًا للثورة.. واليوم يعيد التاريخ نفسه؛ حيث نرى اليوم أن المسيرات والاعتصامات تخرج تأييدًا للمرجعية الدينية في العراق».(٤٥)

وعندما تحدث النائب الكويتي السني وليد طباطبائي منتقدًا الأداء الطائفي لميليشيات بدر في العراق ضد السنة، لم يتحمل الشيعة الحاضرين ذلك، ووجهوا له السباب، وذكر موقع براثا نيوز التابع لأحد قيادات المجلس -جلال الدين الصغير- الخبر وفق السياق التالي: «حاول عدد من الشيعة، بل والشيعيات، ضربه، ولكنه لاذ بالفرار تحت حماية المنظمين بعد أن بصقت عليه إحدى الشيعيات، وضربه أحد الحضور بحذاء».(٤٦)

سادسًا: التواصل المعنوي مع الماضي العنيف:

يعتبر البعض أن مرحلة العنف التي صبغت الأداء الشيعي في مرحلة الثمانينيات قد ولت إثر مصالحة وتوبة، ولكن موقف كثير من الناشطين الشيعة من هذه الأحداث يطرح تساؤلات عديدة، ولعل أبرز هذه المواقف ما حدث من النائبين في البرلمان الكويتي عدنان عبد الصمد وأحمد لاري بإقامة حفل تأبين لعماد مغنية، وهو شخصية غير كويتية، وتاريخه مع الكويت أسود يتمثل في تورطه في التخطيط لعدة عمليات إرهابية في تلك الحقبة، فما هي دلائل تأبينه، خاصة وأن النائبين يمثلان شريحة من الناخبين الشيعة؟

ويمتدح مرتضى بدر مشاركة شيعة خليجيين مع إيران في حربها ضد العراق مخالفة لموقف الدول التي ينتمون إليها، فيقول: «شارك بعض عناصر الجبهة في الحرب المفروضة على إيران، وهذه تُعْتَبَر من المواقف

(٤٢) انظر مجلة الوطن العربي، جاسم الشمالي، خطة خامنئي لتصدير الثورة إلى الكويت.

(٤٣) مجلة المراقب العربي، وموقع موسوعة الرشيد.

(٤٤) انظر موقع القناة الإخباري، خفايا اجتماعات بيروت ودمشق.

(٤٥) انظر حواره مع الوطن البحرينية، سابق.

(٤٦) انظر براثا نيوز، وموقع الطريق إلى كربلاء ١٦-٧-٢٠٠٦م.

المشـرفة للجبهة»[٤٧] ، فماذا يكون الموقف إذن لو ثارت حـرب جديدة أحـد طرفيها إيران، وطرفهـا الآخر دولة خليجية، هل ستتكرر المواقف المشرفة؟!

سابعًا: مقاربة «الاضطهاد يدفع إلى الخارج»:

يقدم بعض المثقفين الشـيعة مقاربة خطيرة في دلالاتها لتبرير الارتباط السياسي لشيعة الخليج مع الخارج، فهم بداية لا ينكرون ذلك، ولكنهم يذكرون أن الاضطهاد الذي يتعرض له الشـيعة هو الـذي ألجأهم إلى التواصل مـع الـدول الخارجيـة، وإذا كانـت قضيـة الاضطهاد مسـألة خلافية، وفي التصور الشيعي لا تـزال موجـودة، فمـاذا يعني ذلك حاليًا ومستقبلاً؟

يقول ناشط شيعي في موقع الجزيرة نـت: «في الواقـع فـإن ولاء وانجذاب الأقليـات الإثنيـة والدينية إلى ما وراء الحدود هو في أحد مظاهره يدل على شـعور هذه الأقليـات بالظلم والحيـف، والتمييز الواقع عليها من قِبَل السلطات الحاكمة، أو نتيجة الاضطهاد الـذي تمارسـه القوميـة أو الأكثريـة الاجتماعيـة، أو الفئات المتشددة دينيًا ومذهبيًا».[٤٨]

ويزعـم آخـر: «في ظل الاسـتمرار في سياسـة التمييز على أسس مذهبية، فإن الخارج الشيعي سواء أكان في إيـران أم في العراق، أم في لبنان والبحرين سـيلعب دورًا سيكولوجيًا وسياسيًا ودينيًا».[٤٩]

إشكالية الاندماج:

إن قضيـة اندمـاج الأقلية الشـيعية في مجتمـع أغلبيته سـنية، ذات تعقيد نسـبي، فالدعوة الرسمية إلى تحقيق هذا الاندماج لا بد أن تكون مصحوبة بتنازلات للشـيعة تتعلق بنظام القضاء والمساجد والتعليم والتعيينات ..إلخ، وهـذه التنـازلات تشـكل قائمـة المطالـب الشـيعية من الأنظمة السـنية، وفي حالة تلبية أغلب هذه المطالب؛ فإنه بذلك سـيتم ترسـيخ كون الشـيعة أقلية منغلقة أكثر، ومسـتقلة ذاتيًـا داخل الدولة، بمعنى أن الشـيعة سـوف يكون لديهم صلاحية أوسع في حكم أنفسهم بأنفسهم، أي أن التوسع في تلبية المطالب الشيعية يتناسب طرديًا مع تحويل الأقلية الشيعية إلى دولة داخل الدولة.

من ناحيـة أخرى، فإن المانـع الأيديولوجي- العقدي- مـن أهم الموانـع التي تعـوق عملية الاندماج بـين الأقلية والأغلبيـة؛ إذ يبقى الاندمـاج محدودًا في أغلب الحالات، وفي الحالة السـنية الشـيعية فإن الاختلاف العقدي يحمل في طياته رغبات دفينة متوارثة تتحدث عن الثأر لأهل البيت، فليس إذن مجرد اختلاف عقدي يتـم تجاوزه عن طريق جهود التقريب المعتادة.

> بعيدًا عن تتبع الأداء الاستخباراتي فإن تواصل الأجهزة الإيرانية مع الأحزاب الشيعية في الخليج أمر معروف للجميع سواء تم ذلك التواصل مباشرة أم عن طريق وسيطها الرئيس حزب الله اللبناني

والمشـكلة هنا أن عملية التقريب نفسها تواجه طريقًا مسـدودًا، فمن الناحية النظرية وصـول عملية التقريب إلى حدها الأقصى يعني زوال المعتقد الشيعي من أساسه؛ كونه نشـأ للعمل على ردّ الحق الذي اغتصبه الصحابة وأتباعهم-أي السنة- من أهل البيت إلى ورثته الحقيقيين وأتباعهم- أي الشيعة.

من جهـة أخرى، فإنـه مما يصعب حـدوث التقارب، وبالتالي الاندماج، أن بعض الشيعة يضمون إلى مطالبهم حـدوث تغييرات دينية لدى السـنة تتمثـل في التخلي عن بعـض ثوابتهم، وهي تُطرح في سـياق رفض ما يسـمونه «السلفية أو التشدد الديني».

ويصل مثقف شـيعي آخر بالقضية إلى مسـتوى المطالبة بإعـادة تشـكيل أسـس الدولـة مـن أجـل القضـاء على الطائفيـة المزعومة، يقول فـؤاد إبراهيم: «مقترحات الحل متنوعـة: المقترح الأول هو: إعادة تشـكيل أسـس الدولة.. وأعتقـد بضرورة تخفيـض الجرعة الدينيـة داخل الدولة، واعتبار المؤسسـات الدينية جميعًا سـواء، الرسمية الآن أو

---

(٤٧) حوار مع الوطن، سابق.

(٤٨) مقال: النشاط السياسي للشيعة في السعودية، سابق.

(٤٩) مقال: علاقة شيعة السعودية الخارجية ، سابق.

الأهلية ضمن مؤسسات المجتمع المدني».[50]

من المهم في هذا السياق استحضار أهم تجربة عربية في احتواء الطائفة الشيعية، وهي تجربة النظام العراقي، فعلى الرغم من جهوده الدموية لإقصاء الأحزاب الشيعية السرية، إلا إنه يعتبر من الناحية الموضوعية أكثر النظم العربية تقديمًا للتنازلات الدينية والسياسية للشيعة، حتى على المستوى الشعبي وصل التقارب إلى حد أن أصبح الزواج المختلط بين السنة والشيعة ظاهرة اجتماعية، فهل نجح ذلك في تحقيق الرضا داخل الطائفة؟ النتيجة واضحة في العراق: حرب طائفية، ومئات الألوف من قتلى السنة، وسعي دءوب لفصل الجنوب العراقي تحت مسمى الفيدرالية.

> بعض الشيعة يضمون إلى مطالبهم حدوث تغييرات دينية لدى السنة تتمثل في التخلي عن بعض ثوابتهم، وهي تطرح في سياق رفض ما يسمونه بالوهابية.

خاتمة:

يقدم لنا علم الاجتماع السياسي عدة نماذج تحدد المسارات المتاحة أمام الأقليات لتحديد علاقاتها مع الأغلبية، وهي خمسة نماذج.[51]

الأول: نموذج الأقليات الانصهارية: وهي التي تتنازل عن الصفات الأساسية المميزة لها، وتتبنى كل ما يميز الأغلبية منصهرة داخلها، وهذا النموذج بالطبع مستبعد تمامًا بالنسبة للشيعة.

الثاني: نموذج الأقليات الاندماجية: وفي هذه الحالة تتنازل الأقلية والأكثرية عن بعض صفاتهما المميزة، ويكون الناتج طائفة جديدة لها صفاتها الخاصة، يعني لا هي سنية ولا شيعية، وهذا الطرح ممكن فقط على مستوى الشعارات، ولكنه عمليًا غير ممكن، ومرفوض أساسًا من الطائفتين.

الثالث: نموذج الأقليات الاستعلائية: وهنا تنمي الأقلية نزعة التفوق والاستعلاء لدى أتباعها تجاه الأغلبية أو الأقليات الأخرى، ولا يكون لديها قبول للخضوع لحكم الأغلبية الأدنى منزلة -سواء دينيًا أو اجتماعيًا أو عرقيًا- ومن ثَم تسعى الأقلية إما إلى السيطرة على الحكم في الدولة، أو الاحتفاظ لنفسها بنوع من الحكم الذاتي أو وضعية «دولة داخل الدولة»، وهذا النموذج قريب من الثقافة الشيعية، وله أمثلة ربما أقربها حزب الله اللبناني.

الرابع: نموذج الأقليات الانفصالية: في هذه الحالة تسعى الأقلية إلى الانفصال عن الأغلبية، وترك الدولة الحالية؛ إما لتأسيس دولة جديدة، أو للانضمام إلى دولة مجاورة تشاركها في انتماءاتها الدينية، ويعزز من هذا النموذج تركز الطائفة في منطقة جغرافية واحدة.

الخامس: نموذج الأقليات التعددية: بحسب هذا النموذج تحتفظ كل طائفة أو مجموعة بخصائصها وخصوصياتها الدينية، وتتساويان في الحقوق السياسية والمدنية دون أي تمييز، ويكون لكل منهما الحق في ممارسة الشعائر بحرية ودون تقييد.

هذا النموذج في واقع الحال يجد قبولاً رسميًا لدى الدول السنية، وإن كان هذا القبول لا يعني تنفيذه حرفيًا؛ إذ لا يُتخيَّل التساوي المطلق بين أقلية لا تصل إلى نسبة ١٠٪، وبين أغلبية تتجاوز ٩٠٪، ولكن مفاهيم هذا النموذج لها بريق جذاب وتصلح كشعار للتعايش والتقارب.

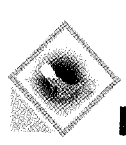
على المستوى الشيعي فإن هذا النموذج يمثل مرحلة مهمة، وخطوة على الطريق إلى نماذج أخرى قد تكون أكثر قبولاً لدى كثير من الشيعة، وفي واقع الأمر فإن كثيرًا من المنظِّرين الشيعة يسعون إلى ترسيخ هذا النموذج والتمهيد له، وبعضهم يقدم طرحًا عجيبًا يساوي فيه بين الخلافات العقدية ما بين الشيعة والسنة والخلافات المذهبية بين الشافعية والحنابلة والمالكية والحنفية.

وهذا تقسيم عجيب، ليس له أي أساس علمي، حيث يخلط ما بين الانتماء الديني العقدي والمذهب

---

(٥٠) الجزيرة نت، سابق.

(٥١) انظر الملل والنحل، د. سعد الدين إبراهيم، ص ٣٧-٤٢.



الفقهي، ويسمي الإسماعيلية مذهبًا مثلها مثل الشافعية والحنبلية، وفي التاريخ الإسلامي كله لم يتحدث أحد عن كون الشافعية أقلية، أو الحنبلية أغلبية يترتب عليها حقوق سياسية أو مدنية، ولكن هذه محاولة من المثقفين الشيعة للترويج للنموذج التعددي حتى ولو تم تجاوز كل الحقائق العلمية.

ويقول أحد المثقفين الشيعة في موطن آخر: «لا يمكن القول بوجود أقلية وأغلبية في السعودية، هناك مجموعة أقليات بما في ذلك أتباع المذهب الرسمي»[٥٢]

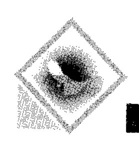
ونختم البحث بنظرة تقويمية لكاتب شيعي كويتي ينتقد موقف الشيعة من تأبين عماد مغنية، يقول خليل حيدر: «على الشيعة بالذات أن يحاسبوا أنفسهم، ويحاسبوا هذه الفئة بالذات من الداخل، فبعض هؤلاء ماضٍ في هذا الطريق بعزم وتعصب منذ ما قبل الثورة الإيرانية! وقد تسببوا في مشاكل وحوادث معروفة بعد الثورة، وتسببوا في إعدام عشرات الشباب الشيعة في مكة.. ولو كان أي إنسان آخر في مكان هؤلاء، لأكلته الحسرة بسبب ما جرى لكل هؤلاء الشباب، وما تسببت سياساتهم من مشاكل لعموم الشيعة!! ولكن هؤلاء فازوا مرارًا منذ ذلك الحين في الانتخابات البرلمانية، مما يدل على أزمة حقيقية في الوعي السياسي ضمن أوساط الشيعة قبل غيرهم». [٥٣]

---

(٥٢) الجزيرة نت، سابق.

(٥٣) (الوطن الكويتية، ١١-٣-٢٠٠٨م).





معلومات إضافية

من مظاهر التغلغل الإيراني الشيعي في ا الكويت:

أولاً : المظاهر الدينية والثقافية:

- انتشار المكتبات الشيعية في مناطق عدة، من بينها: بنيد القار، والرميثية، والسالمية والجابرية.

- نشر الكتب والأشرطة على نطاق واسع، خاصة على الوافدين من الدول العربية .

- انتشار المساجد والحسينيات؛ بحيث لا تخلو منطقة إلا وفيها حسينية أو مسجد، وأصبحت هذه الظاهرة مريبة ومخيفة بشكل كبير؛ حيث منها المرخص، وأكثرها غير مرخص.

- إنشاء بعض القنوات الفضائية الشيعية، والتي تعد من أقوى القنوات، مثل قناة الأنوار، والتي يرأسها النائب في البرلمان صالح عاشور، ومقرها الكويت. وقناة المعارف، وقناة أهل البيت، ولهم برامج رمضانية في أغلب القنوات الكويتية الرسمية منها والخاصة.

- إصدار الصحف اليومية مثل صحيفة النهار، وصحيفة الدار، ولا تخلو جريدة كويتية من كاتب شيعي أو صفحة أسبوعية للشيعية مثل جريدة الوطن، فضلاً عن نقل أخبار الحسينيات أولاً بأول.

- التعاون بين القنوات الإعلامية، فنرى على سبيل المثال تعاون جريدة الدار مع قناة فنون للمساهمة بنشر وجهة النظر الشيعية بين سكان الكويت.

- قامت إيران بإنشاء مدرسة إيرانية، والآن تقوم بإنشاء مدرسة ثانية، لكنها أكبر منها بكثير، ويُخيَّل لكل من رآها أنها جامعة خاصة في منطقة الرقعي، والتي يشكل الوافدون العرب أكبر نسبة سكان فيها.

- تركيز التواجد الشيعي في مناطق معينة من البلاد؛ لما ينجم عن ذلك من فوائد، ليس أكبرها إمكانية إيصال أكبر عدد من النواب الشيعة إلى المجلس.

تعتبر الكويت دولة مهمة مصدّرة للمال الداعم للشيعة في العالم، وأغلب الكتب تُطبع على نفقة التجار الشيعة، وكذلك كفالة الدعاة، ودعم الحركات الشيعية في العالم.

ثانيًا : المظاهر الاقتصادية

- للتجار الشيعة يد كبرى داخل الاقتصاد الكويتي، فلهم شركات كبرى ومؤسسات ضخمة.

- أهم التجار الشيعة في الكويت لهم مساهمات كبيرة في حركة التشييع، مثل: بهبهاني ومعرفي، والمتروك وبوخمسين ودشتي، وحيدر وقبازرد والوزان وغيرهم.

- سيطرة الشيعة على النواحي الاقتصادية، فهم يسيطرون على قطاع تجارة الذهب، وقطاع الصيرفة والصرافين وقطاع الأغذية، وقطاع الأقمشة، ويمتلك الشيعة العديد من العقارات في الكويت، وهم من كبار مُلاك العقارات في الكويت، ونتيجة لقدرتهم المالية الكبيرة تمكنوا من السيطرة على مجالس إدارات الشركات المساهمة.



ثالثًا: المظاهر السياسية:

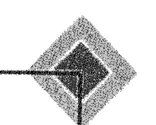
- للشيعة في الكويت تجمعات وحركات فعّالة في المجال السياسي.

- للنواب الشيعة في البرلمان تأثير كبير خاصة في تراخيص المساجد والحسينيات، وحماية دعاة التشيع.

- يعتبر محمد باقر المهري الناطق الرسمي باسم الشيعة في الكويت، ويكاد لا يخلو يوم إلا وله تصريح سياسي يحرّض فيه الحكومة على الجماعات السنية وعلماء السنة.

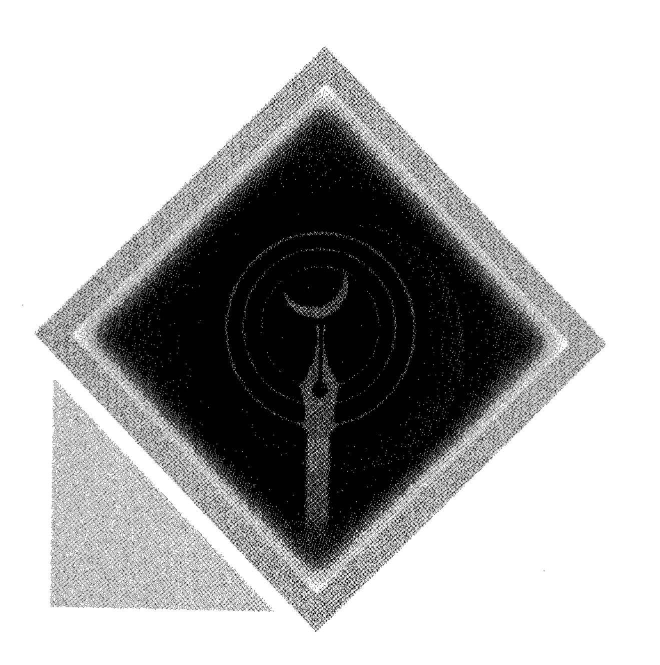
المصدر:

موقع «لجنة الدفاع عن عقيدة أهل السنة في فلسطين» (الحقيقة)، مظاهر التغلغل الإيراني الشيعي في البلدان السنية (بتصرف)، انظر الرابط: http://www.haqeeqa.com/index.aspx?status=prodetail&aid=769

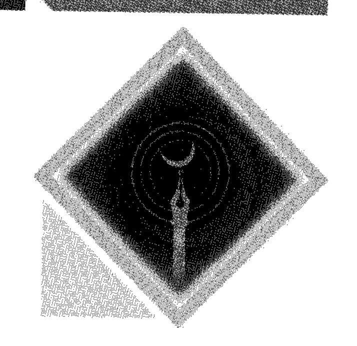


الباب الثالث

العمل الإسلامي







التماسك الاجتماعي والأسري في ظل ضغوط العولمة

عبد الله بن ناصر الصبيح

باحث وأكاديمي سعودي

ملخص الدراسة

كثيرون ممن بحثوا في العولمة يرون أنها ذات محتوى تغريبي، بل إن بعض الباحثين الغربيين يرون أنها ذات محتوى أمريكي، وقد تعرضت منطقة الجزيرة والخليج لكل مؤثرات العولمة، فأصبحت مسرحًا لصراع ثقافات وأفكار متعددة متباينة، وفدت إلى المنطقة من خلال عدد من القنوات الفضائية والشركات العابرة للقارات.

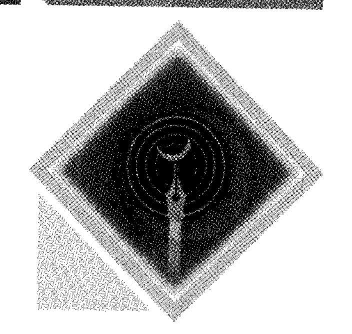
ولا يبدو واضحًا مستقبل التماسك الأسري والاجتماعي في ظل ضغوط العولمة، لاسيما وأن العولمة نفسها تواجه أزماتٍ ربما تساهم في تغير المفهوم، وموقف الدول النافذة منه، خاصة بعد أحداث ١١ سبتمبر، والانهيار المالي الكبير الذي تعانيه الولايات المتحدة في الوقت الحالي.

كما أن دراسة الأسرة في منطقة قَبَلِيَّة كمنطقة الخليج والجزيرة لا يمكن أن تكون بمعزل عن العلاقات القرابية كالعشيرة والقبيلة، فهي ذات تأثير قوي على الأسرة؛ إذ إن الأسرة تستند فيها إلى ميراث ضخم من علاقات قرابة الدم، وهي علاقات تؤثر في التماسك الأسري، بل لا يمكن بحث التماسك الأسري في هذه المنطقة مستقلاً عنها.

وليس من المتوقع أن تضعف مؤسسة العشيرة والقبيلة، وأن تخلي مكانها لمؤسسات العولمة الوافدة، بل إن القبيلة بدأت تقوم بدور الحزب في بعض دول الخليج في الانتخابات العامة. كما إن أثر ضغوط العولمة على تماسك الأسرة مرهون بثلاثة عوامل كبيرة، وهي: القيم المضادة للعولمة، ومستقبل العولمة وما يمكن أن تؤول إليه، بجانب ممانعة المجتمعات المحلية أو ردود أفعالها تجاه العولمة، وسعيها للتصدي لآثارها السلبية، بإنشاء مؤسسات حكومية وأخرى أهلية، وسن تشريعات تُعنَى بالأسرة، وتقيها من آثار العولمة المدمرة.

كما أن الأسرة تتأثر بعاملين كبيرين: وهما التدين والاقتصاد، والأول منهما رغم أنه يواجه معركة عنيفة إلا إنه أثبت أنه قادر على المقاومة والانتشار، ويبدو أن هجمة العولمة وما صاحبها من غزو للمنطقة استثار العامل الديني، وساهم في نشر ظاهرة التدين. وأما العامل الاقتصادي فرغم الضربات التي واجهها في ظاهرة الغلاء الشديد والبطالة والتضخم، وانتكاسات الأسهم، إلا إن الانهيار المالي الكبير الذي حصل في الغرب ربما كان له مردود إيجابي على اقتصاد شعوب المنطقة، فساعد الطبقة الوسطى على الاحتفاظ بمواقعها، وهذا فيه دعم للتماسك الأسري.





التماسك الاجتماعي والأسري في ظل ضغوط العولمة

عبد الله بن ناصر الصبيح

باحث وأكاديمي سعودي

موضوع هذا البحث -كما جاء في عنوانه- هو التماسك الأسري في دول الخليج العربية في ظل ضغوط العولمة، ويحسُن قبل تناول الموضوع بيان المقصود بالعولمة والأسرة.

العولمة:

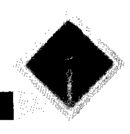
العولمة ظاهرة نتجت من التطور التقني في الاتصالات، والتطور في الاقتصاد، وتهدف إلى إضفاء صبغة العالمية على بعض النماذج في الأنظمة والفكر والسلوك. ومن أكثر مجالات العولمة وضوحًا الاقتصاد؛ حيث تسعى العولمة إلى إيجاد نظام اقتصادي عالمي واحد يتسم بالتجارة الحرة، وتدفق رأس المال وأسواق العمالة الأجنبية الرخيصة. (انظر: Merriam-Webster dictionary).

والعولمة يمكن النظر إليها من شقين: الأول محتوى العولمة، والثاني آليات العولمة وعملياتها.

الشق الأول: محتوى العولمة

كثيرون ممن بحثوا في العولمة يرون أنها ذات محتوى تغريبي، بل إن بعض الباحثين الغربيين يرون أنها ذات محتوى أمريكي، فهي في الحقيقة أمركة، ونماذج الفكر والسلوك التي يُراد تعميمها هي خيارات أمريكية، وليست خيارات محايدة، هذا مع العلم أنه ليس في الثقافة والفكر حياد، بل إن أيّ حياد في ثقافة ما هو في الحقيقة فراغ ثقافي ينتظر الملء من ثقافة أخرى.

ومن يرى أن العولمة أمركة أو تغريب يحتج بأن ما تتبناه المؤسسات الدولية التابعة لهيئة الأمم المتحدة هو الليبرالية بصورتها المتطرفة في الاجتماع والاقتصاد. فمثلاً مؤسسات الأمم المتحدة المعنية بالأسرة والمرأة عَرَّفَت الأسرة بما لا يتفق مع الأديان السماوية ولا مع عادات الشعوب وثقافاتها. والتصور الذي انتهت إليه هذه المؤسسات من خلال عدد من المؤتمرات العالمية، وسعت إلى تعميمه وإلزام الشعوب به هو تصور ليبرالي موغل في الليبرالية، يرفضه بعض الغربيين أنفسهم، فمثلاً مؤتمر الأمم المتحدة للمرأة عام ٢٠٠٠م - وكان تحت شعار المساواة والتنمية والسلام في القرن الحادي والعشرين- تضمنت وثيقته التحضيرية الدعوة إلى الحرية الجنسية والإباحية للمراهقين والمراهقات، والتبكير بالجنس مع تأخير سن الزواج، وإباحة الشذوذ الجنسي (اللواط والسحاق)، والدعوة إلى مراجعة القوانين التي تجرّم الشذوذ الجنسي. كما تضمنت أيضًا تعريفًا جديدًا للأسرة فهي يمكن أن تتكون من شخصين من نوع واحد (رجل ورجل، أو امرأة وامرأة). (فؤاد العبد الكريم، ٢٠٠٢م).



ويؤكد هذا الاتجاه ما ذكره المفكر الأمريكي جوزيف ناي (١٤٢٧هـ) في كتابه القوة الناعمة؛ حيث أشار إلى نوعين من القوة: أحدهما القوة العنيفة أو الخشنة، وهي قوة السلاح. والأخرى القوة الناعمة، وهي قوة الثقافة والمعلومات والفن وأنماط السلوك التي يمكن أن تصدر من شعب إلى آخر. وذكر أن أمريكا لها من هذه القوة النصيب الأوفر، ويرى أنها بها تستطيع أن تغزو العالم وتهيمن عليه. ووسائل أمريكا في تصدير قوتها الناعمة ليست محصورة في الفضائيات الأمريكية والصحافة وما تنتجه هوليود من أفلام، بل في نُظم المعلومات المتقدمة عندها، وفي برامج الأطفال، وفي مؤسساتها الاقتصادية، بل إن سلسلة مطاعم أمريكية كـ(ماكدونالدز) استطاعت أن تغزو ثقافات العالم، وتنشر أنماطًا من الثقافة الأمريكية والسلوك الأمريكي ما لم يقم به كثير من مؤسسات الثقافة الأمريكية.

وشواهد قول من يرى أن العولمة في حقيقتها أمركة أكثر من أن تُحصى، ولكن هل معنى ذلك أن محتوى العولمة أمريكي فقط، أم تستطيع الشعوب الأخرى أن تساهم في مهرجان العولمة الكبير؟

الواقع يقضي بأن الشعوب الأخرى تستطيع أن تساهم بثقافتها في العولمة، بل إن شواهده المؤيدة له لا تقل في كثرتها عن شواهد الأمركة.

إذن تأثير العولمة ليس ذا اتجاه واحد من الشمال إلى الجنوب، أو من الغرب إلى الشرق، أو من العالم المتقدم إلى العالم النامي، إنه في الحقيقة ذو اتجاهات متعددة، والشخص يؤثر ويتأثر في الوقت نفسه. ومحتوى العولمة ليس ذا طبيعة واحدة، بل لها طبائع متعددة بتعدد المشاركين فيها، فهناك المؤسسات الاقتصادية ويمثلها الشركات العابرة للقارات، وهناك المؤسسات المصدرة للفكر ويمثلها بعض القنوات الفضائية ومواقع الإنترنت، وهناك المنظمات العالمية المتمثلة في مؤسسات هيئة الأمم المتحدة والمنظمات الدولية، وهناك أيضًا جهود الأفراد والجمعيات المحدودة التي تشارك في العولمة عن طريق مواقع في الإنترنت وقنوات فضائية مهما كان حجمها وتأثيرها. وجميع الأنواع المذكورة تساهم في صياغة محتوى العولمة في منطقتنا العربية. ويمكن القول: إن منطقة الجزيرة والخليج تعرضت لكل تلك المؤثرات فأصبحت مسرحًا لصراع ثقافات وأفكار متعددة متباينة، فالثقافة الغربية -ومنها الأمريكية خاصة- وفدت إلى المنطقة من خلال عدد من القنوات الفضائية والشركات العابرة للقارات، والثقافة الإسلامية والقومية والثقافة المعارضة للعولمة استفادت من آلياتها وحققت قدرًا من الانتشار من خلال بعض الفضائيات فاستنهضت الشعور الإسلامي والوطني والقومي.

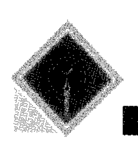
بل إنه استفاد من آليات العولمة أنماط من الثقافات المجتمعية الخاصة، فحققت قدرًا من الانتشار، فمن خلال بعض الفضائيات وبرامج مثل شاعر المليون ومهرجانات مزاين الإبل انتشرت ثقافة قَبَلِيَّة مُضِرّة بالوحدة الوطنية، لُحْمَتها التعصب للقبيلة.

والناس أمام العولمة يمكن تقسيمهم إلى قسمين: قسم شارك في العولمة واستخدم أدواتها في نقل خياراته الثقافية إلى غيره، وقسم كان سلبيًّا مستقبِلاً ما تبثه أدوات العولمة من قِيَم وأنماط سلوكية، فهذا حري به أن يتأثر وأن يعجز عن وقف سيل العولمة الهادر وعبثها بثقافته.

الشق الثاني: عمليات العولمة وآلياتها:

يمكن النظر إلى العولمة باعتبارها (فعلاً) أو (سلوكًا) أو (مجموعة عمليات) مجردة بغض النظر عن المحتوى أو الفكر والقيم التي يمكن أن تنتقل عبر آليات العولمة. واستيعاب هذا الشق يعين على التحكم في محتوى العولمة. ومما يعين في فهم هذا الشق إدراك سمات العولمة، ومن أهمها ما يلي:

١- تطور تقنية الاتصال عن بُعد، والإنترنت حيَّد أحيانًا المكان والبيئة المحلية من التأثير في السلوك، والمؤثرات النائية خلف الحدود والبحار أصبحت تؤثر في السلوك في قرية نائية، أو في صحراء بعيدة عن العمران. فمن



خلال الإنترنت ووسائل الاتصال عن بُعد والفضائيات تقع الأحداث الاجتماعية متزامنة في أي مكان في العالم، وفي أي وقت، بغض النظر عن محدودية المكان والزمان. قبل عصر العولمة كانت البيئة المحلية العامل الأكبر في صياغة سلوك الأفراد، وكانت محدودية المكان تحد من السلوك بل ربما منعته من الوقوع. أما بعد العولمة فقد أصبحت بيئة مدينة مثل نيويورك أو باريس تؤثر في صياغة سلوك فرد في مانيلا أو الرياض أو القاهرة في الوقت نفسه الذي تؤثر في سلوك فرد في حواري نيويورك أو باريس.

إن الحدث بمجرد انتقاله من خلال الفضائيات أو الإنترنت يبدأ تأثيره في السلوك عبر العالم متجاوزًا حدود المكان والثقافة. وواضح من هذا أن سلوك الأفراد لا يكون أحيانًا استجابة لمؤثرات في بيئاتهم، وإنما لمؤثرات خارج الحدود وخارج الثقافة. وعلى هذا فما قد يبدو في المسرح الاجتماعي في بيئة ما من سلوك التحدي أو المحاكاة والمسايرة الاجتماعية قد لا يكون له علاقة ببيئة الفرد المحلية، وإنما هو استجابة لمؤثرات من بيئة أخرى. بل إن حاجات الأفراد وتطلعاتهم قد لا تكون ناشئة من بيئتهم المحلية، وإنما هي وافدة، أو رد فعل لمؤثرات وافدة من بيئة ثقافية أخرى.

وهذا القول ينطبق على الثقافة وعلى الاقتصاد أيضًا، فالمؤسسة الاقتصادية التي تنشأ في بلد ما في عصر العولمة قد لا يكون الدافع لنشأتها حاجات أبناء البلد نفسه، وإنما هي استجابة لحاجات بلد آخر بعيد، ولكنه يملك المال والتأثير.

٢- حرية الانتقال:

من خصائص العولمة أنها يسَّرت للأفراد تجاوز الحدود السياسية فسهلت لهم التنقل والهجرة حيث شاءوا، وكذلك الشركات والمؤسسات المالية أصبحت قادرة على التنقل من بلد إلى آخر، وفتح فروع لها حيث شاءت.

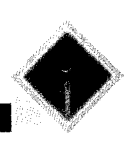
وحرية الانتقال مرتبطة بفتح أسواق جديدة والحصول على عمالة رخيصة، سواء باستقدام من يرغب في الهجرة، أو في نقل الشركات مصانعها إلى مواطن العمالة الرخيصة. وحرية حركة الأشياء ينتقل معها الفكر وأنماط السلوك والقيم. ولعل من أوضح القيم التي تنتقل مع رأس المال القيم التي يحتاجها الاستهلاك. إن الاستهلاك يعكس نظرة الفرد إلى الحياة كما يعكس سُلّم القيم في رؤيته الثقافية.

إن بعض القيم تدفع نحو الاستهلاك وتعظيم مادية الحياة، بينما هناك قيم أخرى مضادة لها تدفع نحو الإنتاج والإنفاق، أو تدفع نحو العمل والادخار كما يقول عالم الاجتماع ماكس فيبر الذي ربط بين نشأة الحضارة الغربية والأخلاق البروتستانتية، وعزا ذلك الإنجاز الحضاري في بريطانيا مثلاً إلى قيمة العمل والادخار. وكذلك كما يقول عالم النفس ماكليلاند الذي ربط نشأة الحضارات بدافع الإنجاز المستكن في الحضارات، والمتمثل في سلوك أفرادها، وذلك في دراسة استغرقت منه ربع قرن من عمره. ودافع الإنجاز عند ماكليلاند قيمة يتعلمه الفرد ويكتسبه من المجتمع الصغير الذي حوله، وتستطيع الأسرة والمجتمع تنشئة أفرادها عليه. إن تصور ماكس فيبر وماكليلاند لا يتفقان مع حياة الاستهلاك وما تريده مؤسسات رأس المال العالمية في عصر العولمة. إنها تريد أسواقًا تستهلك ما تنتجه هذه المؤسسات، والقيم التي تبثها مع منتجاتها سواء من خلال الدعاية في الفضائيات والشبكة العنكبوتية أو من خلال صور الثقافة الوافدة هي متعة الحياة الحسية وحيازة الأشياء وتضخيم الحاجات الحسية، وابتكار أنواع منها يمكن إشباعها بما تنتجه شركات العولمة ومصانعها.

> حرية حركة الأشياء ينتقل معها الفكر وأنماط السلوك والقيم. ولعل من أوضح القيم التي تنتقل مع رأس المال القيم التي يحتاجها الاستهلاك.

٣- العولمة كيان قائم بذاته مستقل عن سيطرة الحكومات:

فامتداداتها وتأثيرها يمكن أن يصل إلى كل أحد،



ويستطيع المشاركة فيها كل شخص يمتلك الأدوات اللازمة لذلك. وحينما تمتد أدوات العولمة إلى بلد فإن تبادل الفكر والاتصال والتنظيم يصبح حرًّا لا يخضع لسيطرة أحد ولا يحتاج إذنًا من أحد، إن ذلك كله يتم في الفضاء الفسيح. إن فلسفة إدارة المجتمعات التي تقوم قبل عصر العولمة على التماثل في الفكر وأنماط السلوك، وعلى منع غير المرغوب فيه تعجز عن إدارة مجتمعات ما بعد العولمة، فكلا الأسلوبين عاجزان عن مقاومة تيار العولمة الجارف.

٤- سرعة التغير الاجتماعي:

المجتمعات التقليدية تتسم ببطء التغير، ولكن حينما يتعرض المجتمع لرياح العولمة فإن وتيرة التغير فيه تكون أسرع من ذي قبل، وتوالي الأحداث الاجتماعية يكون سريعًا. وهذا التغير السريع تعجز عن استيعابه أنماط السلوك ومعاييره في مجتمع ما، ولهذا ربما لجأ الناس إلى تحطيمها وتجاوزها مما يكون سببًا في خلخلة الثقافة المحلية السائدة في المجتمع ودخولها في تحولات متعددة أو اختراقها من قبل الثقافات الوافدة.

> المجتمعات التقليدية تتسم ببطء التغير ولكن حينما يتعرض المجتمع لرياح العولمة فإن وتيرة التغير فيه تكون أسرع من ذي قبل، وتوالي الأحداث الاجتماعية يكون سريعًا

ومما يعجز عن استيعاب التغير السريع الأنظمة والقوانين المنظمة لأنواع السلوك فيضطر الناس إلى مخالفتها مما يكون سببًا في الهرولة في استحداث قوانين وأنظمة، ولكنها لا تستند إلى الثقافة السائدة والمرجعية التشريعية في المجتمع، وإنما تُصاغ وفق الثقافة الوافدة المهيجة للتغير السريع.

٥- الاشتراك في العولمة ممكن لكل أحد تقريبًا:

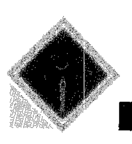
ولا يخضع لسيطرة أحد، سواء كان حكومة أو سواها، وهو يستطيع أن ينشر من خلالها ما يؤمن به من قيم وثقافة.

٦- حرية الاتصال أو الترابط الاجتماعي المتجاوز لحدود الجغرافيا والسياسة:

فالعلاقات بين الأفراد والمنظمات والجماعات تنشأ في فضاء الإنترنت وهو فضاء لا يُحَدّ بحدٍّ غير حدود الفضاء الواسعة. في هذا الفضاء يمكن عقد الاجتماعات وتبادل الفكر والخبرات. ومن خلال الاتصال المتجاوز للحدود السياسية والإقليمية ينتقل الفكر والفعل أيضًا، فيمكن الاحتجاج السياسي وإعلان المواقف العامة التي ربما يكون في بعضها اعتراض على العولمة ذاتها كما حصل في المظاهرات المعارضة للعولمة في قممها المتعددة، ومنها قمة سياتل في الولايات المتحدة الأمريكية.

أزمة العولمة:

سمات العولمة السابقة تستند إلى افتراض وجود قطب واحد في السياسة الدولية، ولهذا لم تصبح العولمة ظاهرة ملموسة إلا بعد سقوط الاتحاد السوفييتي وتفرد الولايات المتحدة الأمريكية بالمسرح الدولي. إن وجود قوة مهيمنة لها يد طولى تهيمن بها على مسرح الأحداث في العالم يفترض فيه أن يضعف حدة الصراع واختراقات مجالات النفوذ التي لا تسمح بها تلك اليد الطولى. ويفترض فيه أيضًا أن يخفف من التنافس الاقتصادي القائم على حيازة النفوذ، ويصبح بدلاً منه تنافسًا مبعثه جودة السلعة وتوفرها. وعلى هذا الأساس قامت منظمة التجارة الدولية التي تؤكد عدم تدخل الحكومة في الاقتصاد ودعم السلع المحلية، وأن تفتح جميع الأسواق أمام التجارة العالمية، والعامل المؤثر في قبول أي سلعة هو جودتها وسعرها وليس الدعم الحكومي. إن هذه الفلسفة والافتراضات ما كانت لتتم لو كان هناك تنافس في النفوذ بين أقطاب متنازعة. ولا يخفى أنه في عصر الحرب الباردة كانت أسواق كل قطب مغلقة أمام سلع القطب الآخر. وهذا ليس خاصًا بالاقتصاد بل يشمل الثقافة وحركة البشر أيضًا. وإذا كان الاتحاد السوفييتي يمارس منعًا قسريًّا يحول بين أفراده وبين حرية التنقل، فإن الولايات المتحدة شهدت حقبة المكارثية، وهي تجربة بوليسية مؤلمة كانت الحكومة الفيدرالية تمارسها في حق مواطنيها.



ومما يمكن أن يعيق العولمة ويغيّر اتجاهها حدثان كبيران:

الحدث الأول: ما حصل في الحادي عشر من سبتمبر من عام ٢٠٠١م، حينما ضرب مركز التجارة العالمي في نيويورك بطائرات مدنية. فهذا الحدث كان فوق الخيال، ونتج عنه سياسات دولية بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية تحت اسم محاربة الإرهاب. وجميع هذه السياسات مضادة لظاهرة العولمة فحرية التنقل ومؤسسات النفع العام ومؤسسات المجتمع المدني في العالم الإسلامي تأثرت بهذا الحدث، وكذلك حرية حركة الأفكار.

وكان من نتائج أحداث الحادي عشر من سبتمبر أو من الأحداث المصاحبة لها انحياز ثقافي ضد الإسلام وأهله. وشهد العالم هجومًا على الإسلام وقيمه ومفاهيمه بحجة أنه يدعم الإرهاب أو أنه لا يتفق مع الليبرالية أبرز قيم عصر العولمة. كما شمل الهجوم أيضًا ثقافات شعوب بعينها، وكان لثقافة شعب الجزيرة والخليج ونظامه الاجتماعي النصيب الأكبر في ذلك. ومن القيم التي تعرضت لهجوم شديد قيم الأسرة ومكانة المرأة فيها وعملها وحرية الأولاد: بنين وبنات، ومدى سيطرة الأبوين عليهم.

والحدث الثاني: الانهيار المالي الكبير الذي شهدته الولايات المتحدة الأمريكية في عام ٢٠٠٨م نتيجة للفساد المالي في الرهن العقاري، هذا الحدث أسقط أحد أهم مسلمات العولمة، وهي عدم تدخل الحكومة في التجارة ومؤسسات المال. فالحكومة الأمريكية تدخلت من أجل حماية مؤسساتها المالية فاشترت قدرًا كبيرًا من الديون، وأممت تلك المؤسسات، ووضعت رقابة حكومية عليها، كما كشف الحاجة الملحة إلى نظام اقتصادي جديد يقوم على قيم ومفاهيم مختلفة غير قيم الرأسمالية التي يصفها بعض أقطابها بالمتوحشة. كما أسقطت الأزمة مبدأ حرية الشركات في إقامة مصانعها حيث تشاء، فشركات صناعة السيارات لما تقدمت بطلب مساعدة من الحكومة الفيدرالية كان الاعتراض عليها أن المواطن الأمريكي لن يستفيد من هذه المساعدة، وإنما سوف تستفيد منها مصانع في الهند والصين وغيرها.

إن هذا الحدث يشير إلى تراجع الولايات المتحدة الأمريكية من هيمنتها العالمية، وبروز أقطاب أخرى منافسة لها. وفي أعقاب هذه الأزمة صرح مدير الاستخبارات الأمريكية مايكل ماكونيل أن العالم يواجه خطرًا متزايدًا لنشوء نزاعات في السنوات العشرين أو الثلاثين المقبلة بينما تجري عملية انتقال لا سابق لها للثروة والقوة من الغرب إلى الشرق. وتوقع أنه حتى عام ٢٠٢٥م، سيكون احتمال وقوع نزاع بين دول وحروب أهلية أكبر. وأشار إلى ظهور عالم متعدد الأقطاب في ٢٠٢٥م، والعالم سوف يشهد صعود الصين والهند والبرازيل التي ستكون اقتصاداتها مطابقة لاقتصاديات الدول الصناعية الغربية. وقال إن: «التنافس الاستراتيجي سيتمحور على الأرجح حول التجارة والتوزع السكاني والوصول إلى الموارد الطبيعية والاستثمارات والتكنولوجيا، وسيكون هناك نزاع لتحقيق تفوق تقني يشكل مفتاحًا لفرض الهيمنة».

وستواجه مناطق في العالم مستقبلاً ظروفًا أصعب مع ارتفاع الطلب على المواد الغذائية والمحروقات وموارد أخرى [1].

وماكونيل ليس فريدًا في توقعاته فكثيرون من قادة الغرب ومفكريه ممن تحدثوا عن أزمة المال يشاركونه هذه التوقعات.

الأسرة:

دلالة كلمة «أسرة» في اللغة العربية أوسع مما تدل عليه في الدراسات الاجتماعية المعاصرة، فهي تدل على أهل بيت الرجل وتدل أيضًا على عشيرته، جاء في مختار الصحاح للرازي (١٣٩٠هـ) «أسرة الرجل: رهطه لأنه يتقوى بهم». وفي المعجم الوسيط (دت): الأسرة «أهل الرجل وعشيرته». وجاء في لسان العرب لابن منظور:

(١) http://www.middle-east-online.com/?id=69267



«أسرة الرجل عشرته لأنه يتقوى بهم، وأهل بيته».

والأهل تطلق أيضًا على الأقارب والعشيرة، كما تطلق على الزوجة خاصة، جاء في المعجم الوسيط: «الأهل الأقارب والعشيرة. والأهل الزوجة» [٢].

أما في العلوم الاجتماعية فكلمة «أسرة» تعني وحدة مكونة من زوجين: رجل وامرأة وأطفالهما الذين يعولانهم (موسوعة علم الاجتماع، ٢٠٠٠م).

والأسرة يمكن أن تتكون من جيل واحد ومن جيلين وأكثر ما داموا يسكنون في بيت واحد. والأسرة التي تتكون من أكثر من جيل تسمى الأسرة الممتدة، أما التي تتكون من جيل واحد فهي الأسرة النووية (موسوعة علم الاجتماع، ٢٠٠٠م).

مفهوم الأسرة في منطقة الخليج لا يقتصر على الأسرة النووية أو الممتدة ذات الجيلين والثلاثة وأكثر، بل يتجاوز من يسكنون في بيت واحد تحت سقف واحد ليشمل سواهم من الأقارب والأحفاد ممن يسكنون في بيوت عدة وفي مدن عدة.

ولقاءات الأسرة واجتماعاتها ربما شملت عددًا من الأسر حسب تعريف العلوم الاجتماعية، والعنصر المؤثر في الاجتماع هو قرابة الدم، فجميع ذرية الجد الواحد يشهدون الاجتماع. وربما كان الجد الجامع لهم هو العاشر، وربما تجاوز عدد الحاضرين خمسين أسرة، بل ربما بلغ المائة، وجميعهم ينسبون أنفسهم إلى جد واحد ويرون أنفسهم أسرة واحدة.

وعلى هذا فتبني تعريف الأسرة المتعارف عليه في الدراسات الاجتماعية لا يساعد الباحث في فهم التماسك الأسري في السعودية والخليج. إن الأسرة في هذه المنطقة ليست هي ما ينتج من عقد الزواج فقط، بل يشمل أيضًا علاقات القرابة الدموية، وهذه علاقات واسعة جدًا ربما شملت مئات بل آلاف الأشخاص. ولعل من المفيد دراسة الأسرة على مستويين: على النطاق المحدود (الميكرو micro) وعلى نطاق واسع (المايكرو macro).

إن دراسة الأسرة على هذين المستويين تكشف لنا عن ثلاثة مستويات للعلاقات القرابية:

الأول: الأسرة الصغيرة، وهي الزوج والزوجة وأطفالهما.

والثاني: العشيرة وهم غالبًا يحملون لقبًا واحدًا، ويلتقون في جد واحد سواء كان قريبًا أو بعيدًا، ويحملون اسمًا عائليًّا واحدًا غالبًا، ولكنها ليست القبيلة أو ما في معناها كالفخذ أو فروعها الكبيرة، ويطلق عليها الأسرة.

الثالث: القبيلة:

وهذه المستويات الثلاثة تؤثر على الأسرة بمستواها الصغير فتحميها من الانهيار، وتسددها إذا تعثرت وتعينها إذا ضعفت.

التماسك الأسري:

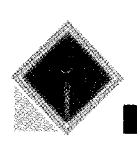
يتمثل التماسك الأسري في وجود علاقات ترابطية خاصة بين أفراد الأسرة تحميها من التصدع، وتجعلها قادرة على مواجهة أحداث الحياة.

وسترلين (Stierlin، ١٩٧٤م) عرَّف التماسك الأسري بما يفيد هذا المعنى، فوصفه بأنه «قوة تجذب أعضاء الأسرة تجاه بعضهم البعض في وحدة عاطفية وفكرية» (في القرشي، ١٤٢٤هـ، ص ٢٧).

وعرفه محمد الحامد (١٩٩٤م) بتعريف قريب من تعريف سترلين، ولكن مع شيء من التفصيل فقال عنه إنه: «طبيعة بناء الحياة الأسرية ومدى اتحاد وترابط ذلك البناء من خلال التعرف على واقع التفاعل الاجتماعي بين أفراد الأسرة ومدى تطابق اتجاهاتهم وترابطهم العاطفي وتبادلهم الاحترام والثقة وكيفية شغلهم للأدوار الأسرية

---

(٢) في الاستعمال اليومي تطلق كلمة أسرة على أمرين: أهل بيت الرجل وهم زوجته وأولاده من البنين والبنات، والمرادف لها العائلة. والثاني عشيرة الرجل، وهم كل من يحمل اسم العائلة في اسمه، ومن الأمثلة على ذلك: أسرة آل سعود، وأسرة آل الشيخ، وأسرة آل صباح، وبعض هذه الأسر يُعد أفرادها بالآلاف.



وشعورهم بالأمن والانتماء للأسرة» (الحامد، ١٩٩٤م).

والتماسك الأسري يقتضي وجود دافع داخلي عند الأفراد يدفعهم نحو ارتباط بعضهم ببعض، وأحد مكونات هذا الدافع هو علاقات القرابة والشعور بالانتماء للأسرة، والشعور بالأمن معها. وبالإضافة إلى الدوافع الداخلية توجد مؤثرات بيئية تعزز من التماسك وأخرى تضعفه.

وحدد سترلين أبعاد التماسك في تعريفه بالوحدة العاطفية والفكرية، والحامد أضاف إلى ذلك الشعور بالانتماء إلى الأسرة والاحترام المتبادل، ثم فصلها في مقياس وضعه للتماسك الأسري فبلغ بها تسعة أبعاد، وهي:

١- التفاعل الاجتماعي: وهو طبيعة العلاقة التي تربط أفراد الأسرة بعضهم ببعض، ومدى تأثر كل واحد منهم بأعمال الآخرين داخل الأسرة وأفعالهم وآرائهم وتأثيره فيهم.

٢- الأمن الأسري: وهو مدى اطمئنان الفرد وثقته بوجود مقومات ثبات الأسرة، واستقرارها وعدم تعرض وحدتها للخطر.

٣- التمثل الأسري: وهو مدى اتفاق أفراد الأسرة على القيم والعادات والمعايير الاجتماعية، ومدى تطابق مواقفهم واتجاهاتهم السلوكية.

٤- الانتماء الأسري: وهو مدى انتساب الفرد لكيان أسري يشده، ويستقي منه مكونات حياته الاجتماعية.

٥- الاحترام الأسري: وهو القيمة الاعتبارية للفرد داخل الأسرة، ويشمل احترام حقوق أفراد الأسرة ومشاعرهم، واستشارتهم فيما يهم الأسرة، والحرص على إعطائهم الحرية في اتخاذ القرارات.

٦- الدور الأسري: وهو مدى قيام كل فرد بمهمته ووظيفته الاجتماعية داخل الأسرة عن طريق التعرف على مدى مطابقة سلوك أفراد الأسرة لما يتوقعه المجتمع لكل من يحتل مركزًا من مراكز الأسرة.

٧- الدعم الأسري: وهو ما يقدمه الفرد لأسرته من مساعدة وعون مادي ومعنوي حسب قدرته.

٨- العاطفة الأسرية: وهو طبيعة الميل الانفعالي الذي يربط أفراد الأسرة بعضهم ببعض، ويشمل ذلك الحب والرحمة والشفقة والنصح والتسامح، وعكسه الكراهية والحقد والأنانية والقسوة ونحو ذلك.

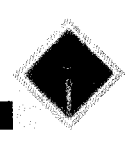
٩- المشاركة الأسرية: وهو طبيعة ارتباط أفراد الأسرة مع بعضهم البعض عن طريق حضور المناسبات والاحتفالات، وتبادل الزيارات وقضاء أوقات الفراغ ونحو ذلك.

وهذا المقياس بهذه الأبعاد يصلح لقياس تماسك الأسرة وفق تعريف العلوم الاجتماعية، وهو تعريف يتفق مع مفهوم الأسرة في الغرب، ولكنه لا يتفق مع مفهوم الأسرة في الخليج والجزيرة العربية بل لا يتفق مع مفهوم الأسرة في المناطق التي تنتشر فيها العلاقات القبلية والعلاقات الأسرية الواسعة.

> إن مجتمعات الخليج والجزيرة مجتمعات قبيلة والأسرة تستند فيها إلى ميراث ضخم من علاقات قرابة الدم وهي علاقات تؤثر في التماسك الأسري، بل لا يمكن بحث التماسك الأسري في هذه المنطقة مستقلاً عنها

إن مجتمعات الخليج والجزيرة مجتمعات قبيلة والأسرة تستند فيها إلى ميراث ضخم من علاقات قرابة الدم، وهي علاقات تؤثر في التماسك الأسري، بل لا يمكن بحث التماسك الأسري في هذه المنطقة مستقلاً عنها.

وهذا التصور له ما يؤيده في الدراسات الاجتماعية ففي دراسة لفتحية القرشي (١٤٢٤هـ) عن التماسك الأسري في السعودية ثبت أن الزيارات المتبادلة بين الأسرة وأقارب الأب، وكذلك أقارب الأم لها علاقة إيجابية بالتماسك الأسري، وكذلك أظهرت الدراسة أن إقامة الأسرة في جوار أقارب لها له علاقة إيجابية بتماسكها.



التماسك الأسري والاجتماعي

في ظل ضغوط العولمة

التماسك الأسري والتماسك الاجتماعي كما سبق مرتبطان معًا لا يمكن دراسة أحدهما بمعزل عن الآخر. وفي منطقة الجزيرة والخليج؛ حيث يتكون السكان من مجموعة قبائل وعشائر وأسر ممتدة تؤثر العلاقات القرابية بين أفرادها في ترابط الأسرة وتماسكها. والتماسك سواء كان على المستوى المحدود micro أو على المدى الواسع macro من وظائفه الأساسية المحافظة على العادات وتوريثها للأجيال الجديدة، وتبطئة التغير الاجتماعي.

وتماثل القيم والعادات بين أفراد الأسرة أحد أبعاد التماسك الأسري، حسب ما قرره الحامد (١٩٩٤م) في مقياسه للتماسك الأسري، وكذلك فتحية القرشي (١٤٢٤هـ)، فقد أظهرت دراستها علاقة إيجابية بين الاتفاق القيمي، والتماسك الأسري عند الأسر في السعودية. والعولمة كما سبق في ملامحها تتسم بسرعة التغير الاجتماعي، فهل معنى ذلك أن التماسك الأسري في منطقة الخليج والجزيرة إلى ضعف؟

لعله من الصعوبة بمكان الجزم بجواب قاطع في هذه المسألة؛ لأن العولمة ذات طبيعة معقدة واستجابة المجتمع لها معقدة كذلك.

والباحث يرى أن أثر ضغوط العولمة على تماسك الأسرة مرهون بثلاثة عوامل كبيرة، وهي:

١- القيم المضادة للعولمة التي تنتشر من خلال أدوات العولمة، أو ما يمكن تسميته بالعولمة المضادة.

٢- مستقبل العولمة، وما يمكن أن تؤول إليه، والعولمة كما سبق تعاني من أزمة أسقطت بعض مسلماتها، وهذه سوف تؤثر في قيمها.

٣- ممانعة المجتمعات المحلية أو ردود أفعالها تجاه العولمة وسعيها للتصدي لآثارها السلبية، بإنشاء مؤسسات حكومية وأخرى أهلية، وسن تشريعات تُعنَى بالأسرة وتقيها من آثار العولمة المدمرة.

سبق تحديد ثلاثة مستويات للعلاقات القرابية، وهي الأسرة ثم العشيرة ثم القبيلة وهي مستويات متدرجة من الأصغر إلى الأكبر أو من الميكرو إلى الماكرو. وسبقت الإشارة إلى أن التماسك الأسري في هذه المنطقة لا يمكن فهمه دون دراسة هذه المستويات الثلاثة، وعلى هذا فمستوى التفاعل يختلف من مستوى إلى آخر، ومظاهر التماسك تختلف أيضًا من مستوى إلى آخر.

وفيما يلي عرض لمظاهر التماسك في كل مستوى من مستويات القرابة الثلاثة، وبيان علاقة ذلك بالأسرة الصغيرة.

الأسرة:

للتماسك الأسري عدد من المؤشرات وردت الإشارة إليها في دراسة فتحية القرشي (١٤٢٤هـ) كما ورد ذكرها في دراسة الحامد (١٩٩٤م)، وسبقت الإشارة إليها، وأبرز مظهر للتفكك الأسري هو انفراط عقد الأسرة بالطلاق، ونسب الطلاق تتفاوت بين دول المنطقة، فمثلاً نسب الطلاق في السعودية في عقد من الزمن من عام ١٤١٥هـ إلى عام ١٤٢٥هـ كانت تتراوح بين ٢٠٪ و٢٣٪، وهذا العقد يمكن أن يسمى بعقد العولمة ففيه دخلت الشبكة العنكبوتية السعودية، وفيه بدأت الفضائيات بثها في العالم العربي، وفيه دخلت عدد من دول المنطقة منظمة التجارة العالمية، وصاحب ذلك حركة اقتصادية ضخمة في دول الخليج، ومما ينبغي ملاحظته أن السعودية دخلت منظمة التجارة بعد هذا التاريخ.

وفي البحرين سجلت حالات اعتداء الزوج على الزوجة ارتفاعًا في عام ٢٠٠٦م عن عام ٢٠٠٥م ففي عام ٢٠٠٥م كان عدد الحالات ٢٤٥ حالة وفي عام ٢٠٠٦م كان عدد الحالات ٣١١ حالة.

وفيما يلي بعض العوامل المؤثرة في التماسك الأسري في منطقة الخليج:

١- مستوى الدخل: تشير الدراسات الاجتماعية إلى أن التماسك الأسري يكون أكثر بين أفراد الطبقة



الوسطى، ويقل في الطبقات الفقيرة والطبقات الغنية، وفي دراسة فتحية القرشي (١٤٢٤هـ) شواهد على ذلك من المجتمع السعودي، فقد وجدت علاقة بين الترابط الأسري ومستوى دخل الأسرة. وفي منطقة الخليج يصعب التوقع الصحيح لمستقبل الطبقة الوسطى، وسبب ذلك أنه في فترة ماضية شهدت المنطقة تقلصًا في حجم الطبقة الوسطى بعد خسائر الأسهم، ولكن بعد الانهيار المالي في أمريكا يصعب توقع مستقبل الطبقة الوسطى في الخليج، وبعض التوقعات ترى أنها سوف تزداد اتساعًا بعد التقلص الذي شهدته.

٢- التدين: يكاد يكون بين الدراسات الاجتماعية إجماع على أن الأسر المتدينة أكثر تماسكًا من غير المتدينة، كما أن دراسات التدين تشير إلى أن التواصل الاجتماعي بين الأسر المتدينة أكثر من غيرها، وفي دراسة الحامد (١٩٩٤م) ما يؤكد ذلك. وعلى هذا فمع العولمة كلما نشطت قيم التدين في المجتمع وقويت زاد التماسك الأسري قوة، وكلما ضعفت ضعف التماسك الأسري، فالعلاقة بينهما طردية.

> يكاد يكون بين الدراسات الاجتماعية إجماع على أن الأسر المتدينة أكثر تماسكًا من غير المتدينة، كما أن دراسات التدين تشير إلى أن التواصل الاجتماعي بين الأسر المتدينة أكثر من غيرها

ومما يعكس مستوى قوة القيم الدينية في المجتمع مستوى الجريمة فيه، فبين الجريمة والتدين علاقة عكسية: زيادة الجريمة مؤشر على ضعف التدين، وتراجع القيم الدينية وضعفها مؤشر على قوة القيم التدين في المجتمع. ودول الخليج شهدت في الآونة الأخيرة زيادة في الجريمة وأنواعًا من الجرائم لم تكن تشهدها من قبل. ومن ذلك ارتفاع نسبة الانتحار، وازدياد حالات الاعتداء الجنسي بين المحارم، وتعدي بعض الأبناء على الأبوين بالضرب وهروب الفتيات، وكل هذه الجرائم مؤشر على ضعف التماسك الأسري وضعف التدين أيضًا.

العشيرة:

قوة تماسك العشيرة هي قوة في التماسك الأسري، ومما يدعم ذلك أن القيم المهيمنة على العشيرة قيم محافظة، ويغلب عليها التدين. وإذا نشطت العشيرة نشطت معها القيم الدينية والقيم المحافظة، والقيم المحافظة محضن جيد للتماسك الأسري.

وفي منطقة الخليج نشهد قدرًا من التماسك العشائري ومن مظاهره ما يلي:

١- اللقاءات الدورية بين أفراد العشيرة: وهذه اللقاءات ربما كانت أسبوعية أو نصف شهرية أو شهرية، أو ربع سنوية أو في مناسبات الأعياد.

٢- شجرة النسب: كثير من الأسر الآن والعشائر تحرص على تدوين نسبها في مشجرات للنسب تُظهر فيها علاقاتها القرابية.

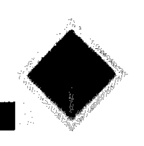
٣- صناديق الأسر الخيرية: وهي صناديق هدفها دعم شباب العشيرة فيما يحتاجونه ولاسيما في الزواج والحوادث الطارئة، ومواساة المحتاج.

٤- مواقع العشيرة في الإنترنت: فكثير من الأسر والعشائر في منطقة الخليج صممت لها مواقع في الإنترنت تحفظ تاريخها ومفاخرها، وتحقق التواصل بين أفرادها.

القبيلة:

المجتمع الخليجي مجتمع قبلي في الجملة، ونشاط القبيلة وقوتها مؤشر على قوة التماسك الأسري بين أفرادها، ولا يلزم العكس إلا بدراسات اجتماعية تثبت ذلك. ومع الفضائيات وغزو الشبكة العنكبوتية لمجتمعات الخليج نشطت القبيلة ولجأ الناس إليها، ومما شجّع على ذلك مهرجانات الشعر الشعبي، وأبرزها برنامج شاعر المليون الإماراتي، ومزاين الإبل، والفضائيات التي تُعنَى بالشعر الشعبي.

والقبيلة تسيطر عليها القيم المحافظة كما هو الشأن في العشيرة، وإذا نشطت القبيلة والعشيرة فإن القيم المحافظة سوف تنشط، وسوف ينشط معها التواصل الاجتماعي والتماسك الأسري. ولعل من أبرز قيم القبيلة



قيمة «الفزعة للقريب» أو لابن العم، وهذه القيمة تقتضي صورًا من التماسك الأسري والتماسك القبلي.

أما مظاهر الترابط القَبَلِيّ فتتمثل فيما يلي:

١- اللقاءات القبلية الدورية: وهذه لقاءات تجمع أبناء القبيلة الواحدة في الدولة الواحدة، وربما حضرها بعض أبناء القبيلة من الدول الأخرى المجاورة. واللقاءات ربما كانت دورية، وربما كانت عارضة بسبب حادث يمس بعض أبناء القبيلة ولاسيما حوادث دفع الديات، أو ما يسمى بإعتاق الرقاب من القتل.

٢- في الكويت تقوم القبيلة بدور الحزب السياسي، حيث تنتخب أحيانًا من بين أبنائها من يخوض انتخابات مجلس الأمة، ومن يفوز في انتخابات القبيلة تتوحد القبيلة خلفهم وتصوت لهم. وما حصل في الكويت يمكن أن يتكرر في أي بلد خليجي. وفي الانتخابات البلدية في السعودية ظهرت بدايات لتكتلات قبيلة في بعض المناطق ربما تكون في المستقبل أكثر وضوحًا وأعمق أثرًا.

٣- ومما يدعم التكتل القبلي مواقع القبائل في الإنترنت، وهي مواقع تُعنَى بتاريخ القبيلة ونسبها وأمجادها القديمة، كما أنها مكان للحوار بين أبناء القبيلة والتواصل بينهم، والتنبيه إلى من يحتاج دعمًا، سواء كان ماديًّا كما في حالات الدم، أو معنويًّا كما في الانتخابات.

ووجود القبيلة سوف يستمر مع العولمة، ولا يتوقع أنها تؤثر عليه تأثيرًا سلبيًّا، كما لا يتوقع أن الظروف الاقتصادية تؤثر عليه أيضًا، فالناس إذا احتاجوا لجأوا إلى القبيلة من أجل الرِّفْد، وإذا اغتنوا لجأوا للقبيلة من أجل الوجاهة والتأثير الاجتماعي والحضور السياسي.

الخاتمة

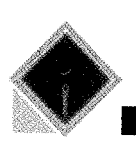
مستقبل التماسك الأسري والاجتماعي في ظل ضغوط العولمة ليس واضحًا بعدُ؛ لأن العولمة تواجه أزمات ربما تساهم في تغير المفهوم وموقف الدول النافذة منه، كما أن العولمة ليست دائمًا ذات تأثير إيجابي أو ذات تأثير سلبي، فهذا يعتمد على القيم التي تتضمنها العولمة ومقاومة شعوب الخليج والجزيرة لقيم العولمة الوافدة، وما يمكن أن تقدمه من ثقافة بديلة.

> مؤسسة العشيرة والقبيلة ليس من المتوقع أن تضعف وتخلي مكانها لمؤسسات العولمة الوافدة المتمثلة في مؤسسات المجتمع المدني أو الأحزاب السياسية، بل إن القبيلة بدأت تقوم بدور الحزب في بعض دول الخليج

ودراسة الأسرة في منطقة قبلية كمنطقة الخليج والجزيرة لا يمكن أن تكون بمعزل عن العلاقات القرابية كالعشيرة والقبيلة، فهي ذات تأثير قوي على الأسرة. ومؤسسة العشيرة والقبيلة ليس من المتوقع أن تضعف وتخلي مكانها لمؤسسات العولمة الوافدة المتمثلة في مؤسسات المجتمع المدني أو الأحزاب السياسية. بل إن القبيلة بدأت تقوم بدور الحزب في بعض دول الخليج في الانتخابات العامة.

والأسرة تتأثر أيضًا بعاملين كبيرين: وهما التدين والاقتصاد، والأول منهما رغم أنه يواجه معركة عنيفة إلا إنه أثبت أنه قادر على المقاومة والانتشار، لاسيما أن ما تشهده المنطقة من هجمة العولمة وما صاحبها من غزو عسكري لها استثار العامل الديني، وساهم في نشر ظاهرة التدين.

وأما العامل الاقتصادي فرغم الضربات التي واجهها في ظاهر ة الغلاء الشديد والبطالة والتضخم وانتكاسات الأسهم، إلا إن الانهيار المالي الكبير الذي حصل في الغرب ربما كان له مردود إيجابي على اقتصاد شعوب المنطقة فساعد الطبقة الوسطى على الاحتفاظ بمواقعها، وهذا فيه دعم للتماسك الأسري.



المراجع:

- العبد الكريم، فؤاد (٢٠٠٢م). العولمة الاجتماعية للمرأة والأسرة. مجلة البيان، عدد شوال ١٧٠، لندن.

- الحامد، محمد (١٩٩٤م) التماسك الأسري. الرياض: مكتبة الرشد.

- الرازي، محمد بن أبي بكر (١٣٩٠هـ). مختار الصحاح. ط٣. الطائف: مكتبة المؤيد.

- القرشي، فتحية بنت حسين (١٤٢٤هـ). المتغيرات الاجتماعية والاقتصادية المرتبطة بالتماسك الأسري كما تراه طالبات الصف الثالث الثانوي في مدينة جدة. دراسة غير منشورة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في علم الاجتماع. كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

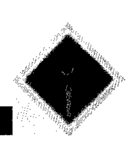
- مارشال، جوردن (٢٠٠٠م). موسوعة علم الاجتماع. ترجمة محمد الجوهري وآخرون. مصر: المجلس الأعلى للثقافة.

- مصطفى، إبراهيم والزيات، أحمد وعبد القادر، حامد والنجار محمد (دت). المعجم الوسيط. ط٢. مجمع اللغة العربية. مصر.

- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم. لسان العرب. بيروت: دار الفكر.

- ناي، جوزيف (١٤٢٧هـ). القوة الناعمة: القوة الناعمة وسيلة النجاح في السياسة الدولية. الرياض: مكتبة العبيكان.

http://www.middle-east-online.com/?id=69267



معلومات إضافية

توصيات لحماية الأسرة المسلمة من أخطار العولمة:

قدّم الدكتور «وليد بن عثمان الرشودي» بعض المقترحات والتوصيات لحماية الأسرة من أخطار العولمة، في سياق بحثه المقدم لندوة (الأسرة المسلمة والتحديات المعاصرة) التي نظمتها مجلة البيان في شهر ذي القعدة ١٤٢٩هـ.

وقد قسم د. وليد هذه المقترحات إلى قسمين: توصيات عامة للنهوض بالمجتمع المسلم ككل، وتوصيات خاصة بالأسرة المسلمة.

أولاً: التوصيات العامة للنهوض بالمجتمع المسلم:

١- التمسك بالشريعة الإسلامية، التي ارتضاها الله تعالى لنا، فوفقها ننظم حياتنا، ونربي أجيالنا، ونتبصر بحقائق الحياة.

إن مجرد كوننا مسلمين جغرافيين لا يكفي لإنجاز وعد الله لنا بالنصر في مواجهة أخطار العولمة؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ [محمد: ٧]، فهل نحن نصرنا الله تعالى فيما أمر به ونهى عنه؟

٢- تبني المنهج الشمولي في فهم الإسلام، الذي يجمع بين العقيدة، والشريعة، والسلوك، والحركة، والبناء الحضاري، وفق منهج واعٍ، أصولي سليم، يعتمد فقط على العلم والعقل، وهذا يتطلب تغيير حياتنا منطلقين من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ ﴾ [الرعد: ١١].

٣- إعادة النظر في مشكلاتنا الاجتماعية، في ضوء أحكام الشريعة الإسلامية العامة، ومقاصدها، وغاياتها الحكيمة في الحياة أولاً؛ لتحديد مسئولية الأسرة، والمدرسة والجامعة، ومعاهد التعليم، ومؤسسات المجتمع المدني، في القيام بواجباتها في هذا الجانب.

٤- إقامة المجتمعات الإسلامية على القاعدة الإيمانية، التي تجمع بين المسلمين جميعًا، دون الالتفات إلى اختلاف اللغة أو اللون أو العرق، ومعاملة أهل الأديان جميعًا وفق القاعدة التالية: (لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين)، أي تحقيق العدالة المطلقة للجميع، إلاَّ فيما يخصُّ القضايا التشريعية الخاصة بكل أهل دين، فالبشر جميعًا كرامتهم مصانة في إطار المجتمع الإنساني.

ثانيًا التوصيات الخاصة بالأسرة المسلمة:

١- الاهتمام بتربية الأسرة المسلمة:

بتثقيف أفرادها، وتوعيتهم، وتوجيههم من خلال أجهزة الدولة المختلفة، ومن خلال الوسائل، والبرامج التي تشترك جميعًا في تكوين أجيال تشعر بانتمائها الإسلامي، وانتسابها الحضاري للأمة العربية والإسلامية.

إنَّها التربية الإسلامية، التي تهدف إلى صياغة الفرد صياغة إسلامية حضارية، وإعداد شخصيته إعدادًا كاملاً من حيث العقيدة، والأخلاق والقيم، والمشاعر والذوق، والفكر، والمادة؛ حتى تتكوَّن الأمَّة الواحدة المتحضرة، التي لا تبقى فيها ثغرة تتسلل منها إغراءات العولمة اللادينية، الجنسية، الإباحية.



٢- المحافظة على الأسرة المسلمة من المخاطر الخارجية، وذلك عن طريق:

- كشف سوءات مؤتمرات تحرير المرأة والمساواة للجمهور الإسلامي، وبيان مراميها، ومخالفتها لمقاصد الشريعة، وهذا الدور يقع على عاتق وسائل الإعلام الجادة، والدعاة، وأهل العلم، ممن يبلغون دين الله للناس، ويحملون شعلة الحق.

- قيام الوزارات، والهيئات، والمؤسسات الإسلامية -الرسمية وغير الرسمية-، بإصدار بيانات تستنكر هذه المؤتمرات وأهدافها الخبيثة، ونشر هذه البيانات، وتغطيتها تغطية إعلامية حتى يتبين الأمر للجمهور الإسلامي.

- كشف زيغ التيار النسوي العلماني التغريبي في العالم الإسلامي والعربي، وأنه جزء من تيار الزندقة المعاصر، والمدعوم من هيئات مشبوهة خارجية.

- قيام الجهات الخيرية الإسلامية -والأقسام النسائية فيها على وجه الخصوص- بتحمل مسئولياتها، والتنسيق فيما بينها، للقيام بالمناشط الدعوية التثقيفية لمختلف شرائح المجتمع، وإصدار وثيقة للأسرة المسلمة، تؤصّل فيها الرؤية الشرعية، حول المرأة وحقوقها الأساسية في الإسلام.

- عمل رصد إعلامي جاد لكل فعاليات المؤتمرات الدولية والإقليمية، ومتابعة الخطوات الفعلية لتنفيذ توصيات المؤتمرات السابقة، التي ناقشت قضايا المرأة، وإصدار ملاحق صحفية؛ لبيان الموقف الشرعي من هذه المؤتمرات وتوصياتها.

- ممارسة ضغوط قوية على وسائل الإعلام المختلفة، التي تقوم بالترويج والتغطية السيئة لهذه المؤتمرات؛ لتكف عن ذلك.

- ضرورة إعادة النظر في خطط تعليم المرأة؛ بحيث تتفق مع طبيعة المرأة من ناحية، وظروف المجتمع، واحتياجات التنمية من ناحية أخرى.

- تكوين هيئات عليا للنظر في كل ما يتعلق بالأسرة من النواحي النفسية، والثقافية، والصحية، وتفعيل دور وزارات الشئون الاجتماعية؛ للقيام بدور فاعل للاستجابة لمتطلبات الأسرة المسلمة.

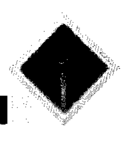
- المشاركة الفاعلة في هذه المؤتمرات -إن كانت المصلحة تقتضي ذلك-، وطرح البديل الإسلامي في المسألة الاجتماعية، وكشف عوار الحياة الغربية الاجتماعية -كلما أمكن-.

- تأسيس مراكز متخصصة؛ لمتابعة النشاط النسوي التغريبي العالمي والإقليمي، ومعرفة ما يتعلق به من مؤتمرات.

- نشر موقف الإسلام من المرأة والأسرة عالميًا؛ وذلك من خلال مبادرات إسلامية لعقد مؤتمرات عالمية عن قضايا المرأة، والأسرة، وحقوق الإنسان، من منظور شرعي.

- ضرورة العمل على إيجاد مؤسسات نسائية متخصصة، (شرعيًا- علميًا- تربويًا- اجتماعيًا- اقتصاديًا)، من شأنها أن تسهم إسهامًا جليًا في توفير الحصانة الشرعية والفكرية، وفي البناء الدعوي والتربوي للمرأة المسلمة، لتكون قادرة على مواجهة هذا التيار التغريبي الهادر.

- التحذير من مخاطر الغزو الثقافي والإعلامي للحضارة الغربية، التي تتميز أسرها بالتفكك، والتشتت، وغياب الروابط الدينية والأخلاقية والتربوية فيما بين أفرادها، في مختلف وسائل الإعلام.



- وجوب قيام وسائل الإعلام المختلفة المسموعة، والمرئية، والمقروءة، ثم المساجد، ودور القرآن، والمدارس، بالإضافة إلى الجمعيات، والنوادي الثقافية، والتربوية، والدعوية، بالتوعية بأهمية الأسرة في المجتمع ودورها العظيم.

- الرد العقلاني الموضوعي على الترهات التي يروّجها الغرب، وتوجيه الأسرة العربية العملي لمواجهاتها، بدءًا من إنكار أكاذيبهم، والاستعداد لمقاومتها.

٣- المحافظة على الأسرة من الداخل وذلك عن طريق:

- إحياء العقيدة الصحيحة داخل الأسرة، وتصحيح العبادة الإيجابية الدافعة إلى فعل الخيرات وترك المنكرات.

- التدريب على الصبر، وإحياء القيم الاجتماعية، والإسلامية داخل الأسرة.

- إعطاء المعلومة الصحيحة والخبرة للشباب حول شروط ومقومات الزواج الناجح.

- عدم تعجيز الشباب في أمور الزواج، وذلك بالمغالاة في المهور، وتكاليف الزواج الباهظة.

- وجوب قيام العلاقة الزوجية على التفاهم، والحوار، والاحترام المتبادل، والتعاون من أجل بناء أسرة متينة، وقوية.

- توعية المجتمع بالبعد الجنسي في موضوع الزواج.

- وجوب طاعة الزوجة لزوجها؛ من أجل الحفاظ على تماسك الأسرة، والفوز برضوان الله.

- تفعيل دور المرأة الأم، وتثقيفها، وتوعيتها دينيًا، وتربويًا، واجتماعيًا، بأهمية صحة علاقاتها الأسرية السليمة مع زوجها وأبنائها.

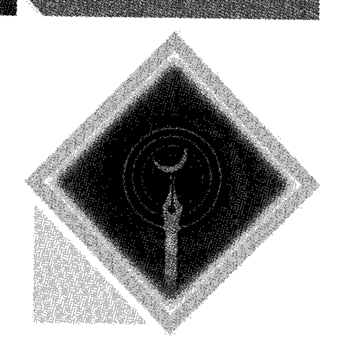
- إدراك حقيقة العلاقة التي ارتضاها الرب تبارك وتعالى بين الأفراد داخل الأسرة، وأنها علاقة رحمة وتواد وتكافل، وليس تنافس وأنانية وتآمر.

- مساندة من أرادت العمل من النساء لمنفعة نفسها، وأسرتها، وخدمة مجتمعها، والمشاركة في تنميته، وتشجيعها على الإيجابية، والمبادرات المحمودة.

المصدر:

د.وليد بن عثمان الرشودي، التماسك الأسري في ظل العولمة، بحث مقدم ضمن أعمال الندوة العلمية التي نظمتها مجلة البيان تحت عنوان: (الأسرة المسلمة والتحديات المعاصرة)، الرياض ١٥ ذو القعدة ١٤٢٩ هـ الموافق ١٣ نوفمبر ٢٠٠٨م، انظر الرابط:

http://www.albayan-magazine.com/files/osrah/3.htm



المسلمون واستثمار الإنترنت

أ. وسام فؤاد

مدير وحدة البحوث والتطوير بشبكة إسلام أونلاين

ملخص الدراسة

منذ مطلع عام ٢٠٠٤م دخلت الإنترنت مرحلة جديدة عُرفت أكاديميًّا بالحالة ما بعد التفاعلية للإنترنت، أو الإنترنت ما بعد التفاعلية، التي أمكن فيها لكل متصفحي الإنترنت أن يكونوا بمثابة منتجين للمحتوى الإعلامي، وأن يتحكموا كذلك فيمن يطالع هذا المحتوى، بدءًا من التعامل الخاص جدًّا، وحتى التداول المفتوح؛ فيما عُرف باسم التشبيك Networking.

وعلى الرغم من أن التطور النوعي في الحضور العالمي على الإنترنت كوسيلة نشر وتشبيك، ورغم أن الإنترنت يشهد في هذا المجال طفرة على الصعيد العالمي، إلا أن مشاركة العالم الإسلامي في الإنترنت الجديدة واهية.

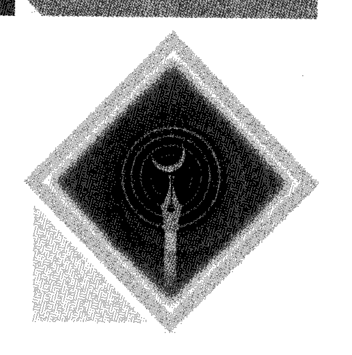
فمقارنة بعشرات المواقع العالمية للفيديو والصور والمدونات والتشبيك، نجد أن عدد المواقع الإسلامية التي تقدم إمكانيات النشر الإعلامي لمستخدمي الإنترنت لا يتجاوز ٣ مواقع، فيما لا تزال المواقع ما بعد التفاعلية العربية والإسلامية بالغة الضآلة، كما أن خبرات العرب والمسلمين واستثماراتهم في الوجود المتخيل نادرة.

ومع أننا نعيش عصر الطوفان المعلوماتي، لكن الناظر إلى خريطة الحضور الإسلامي أونلاين يجد قدرًا من التحيُّر في الوصول لمعلومة دقيقة، سواء أنظرنا لهذه المواقع من زاوية الإسلام كدين، أو من زاوية المواقع كتعبير عن حضور العالم العربي والإسلامي أونلاين، حيث لا توجد منظمة، أو موقع، أو أية جهة تقوم بعمل حصر وتوثيق للمواقع الإسلامية، ومنح معلومات بشأنها لأدلة المواقع ذائعة الصيت.

وللحضور العربي أونلاين خصائص وسمات لعل أبرزها أنه إعلام وخدمات أحادية الاتجاه، ويتسم بمحدودية الاتجاه التفاعلي، بجانب ضعف التقنية المستخدَمة لبناء المواقع، كما لا تدعم المواقع العربية خصائص التشبيك وتبادل الآراء، إضافة إلى افتقارها لخاصية التكامل التقني مع المواقع التي تقدم خدمات كبرى.

إن الوضع الحالي للحضور العربي الإسلامي على الإنترنت يؤكد ضرورة وضع رؤية لترشيد الاستثمار في شبكة الإنترنت الجديدة، والاستفادة من إمكانياتها المذهلة وما توفره القيم ما بعد التفاعلية من آليات، والآفاق التي يمكن أن يتم استثمار الوجود الإسلامي بها أونلاين على نحو أفضل، ويمثل إضافة نوعية للنهضة بالعالم الإسلامي على صعيد الموارد البشرية، بقدر ما إن ذلك سيكون مؤشرًا افتراضيًّا لنهضته العامة.





المسلمون واستثمار الإنترنت

أ. وسام فؤاد
مدير وحدة البحوث والتطوير بشبكة إسلام أونلاين

ارتبط بالدعوة الإسلامية منذ بعثة الرسول -صلى الله عليه وسلم- جهاز إعلامي وجَّهه رب العالمين بالإطار تارة، وبالتفصيل تارة، حتى استولت الدعوة على قلوب أصحاب الفطرة السليمة والطوية المستعدة للطهر والحياة الطيبة. وتنوعت وسائل هذا الجهاز ما بين وسائل الاتصال الشخصي؛ كالدعوة الفردية، والتأثير بالسلوك، وبين الاتصال الجماهيري الطابع، أو ما أسمته أدبيات فقه السيرة بالدعوة العلنية التي اتخذت أشكالاً عدة، منها اليوم ظاهرة الإنترنت.

أ - مشكلة البحث وهدفه:

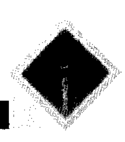
هل يعاني العالم الإسلامي من مشكلة مع التجدد الحادث في الإنترنت؟ إن إطلالة سريعة قبل البحث تشي بأن الغالبية الساحقة من المواقع الإسلامية إما تنشر، أو تخزن الوسائط المتعددة كالقرآن، والخطب والدروس والعظات، والملفات الفلاشية الدعوية، والفيديو الخاص بالتلاوات القرآنية، واللقاءات التليفزيونية التي يتم بثها عبر الفضائيات الإسلامية.

إن الفكرة التي يطرحها هذا البحث أن استثمار المسلمين للإنترنت يجب أن ينصرف إلى تلك الإمكانات المتجددة التي توفرها البنية التحتية للإنترنت، فلا شك أن النشر والتخزين خصائص مهمة للإنترنت؛ لكنها ليست هي كل الإنترنت، وما تتيحه من إمكانيات. وإنجاز هذا البحث أن ينجح في رسم ملامح اللحظة الإسلامية الراهنة، وملامح المسار المستقبلي.

ب - منهج البحث وأدوات التحليل:

إذا كان ما سبق هو هدف البحث، فإن طبيعة هذا الهدف تتطلب منا أن نتبع أسلوبًا منهجيًا واحدًا مع أدوات فرعية متعددة. الأسلوب المنهجي الذي سنسلكه هو الأسلوب الاستقرائي. واللجوء لهذا الأسلوب المنهجي يكون من خلال ثلاث آليات: هي مسح الأدبيات التي تناولت مشكلة البحث أو هدفه، ثم المنهج المسحي لكي نلم ببعض الإحصاءات حول الوجود الإسلامي أونلاين؛ مما يُيَسِّر التأريخ له، ومتابعة تطوره الكمي والنوعي عبر الزمن، ثم الآلية المنهجية الثالثة التي ستتمثل في لجوئنا لبعض الخبراء للحصول على معلومات بعينها قد لا تكون متاحة ضمن التقارير المعلوماتية الدورية.

وبناء على ما سبق؛ نشير إلى أن البحث سينقسم إلى ثلاثة أقسام؛ على النحو التالي:



أ - تطور شبكة الإنترنت، وموقف المسلمين منها.
ب - الواقع الرقمي أونلاين: عالميًا وإسلاميًا.
ج - أُفق تطوير الاستثمار في الإنترنت.

أولاً: تطور الإنترنت وملاحقات المسلمين:

التطورات الأخيرة الحادثة في الإنترنت منذ مطلع ٢٠٠٤م ترتبط بظهور الجيل الجديد من الإنترنت المعروف باسم ويب ٢,٠، والتطور الفرعي داخله الذي يميل البعض لتسميته -تجاوزًا- باسم ويب ٣,٠، وهو ما أدى إلى ما يعرف أكاديميًا بالحالة ما بعد التفاعلية للإنترنت، أو الإنترنت ما بعد التفاعلية.

وما بعد التفاعلية مرحلة جديدة دخل إليها الإنترنت منذ ٢٠٠٤م، وأمكن فيها لكل متصفحي الإنترنت أن يكونوا بمثابة منتجين للمحتوى الإعلامي (نص- صوت- صورة- فيديو- تطبيقات اجتماعية)، وذلك بفضل التطور التقني، وترجمته في وسائل مثل السيرفرات الضخمة، وقواعد البيانات المتطورة، وتقدم لغات تطبيقات الويب. كما صار بإمكان مستخدمي الإنترنت التحكم فيمن يطالع هذا المحتوى؛ بدءًا من التعامل الخاص جدًا، وحتى التداول المفتوح؛ فيما عرف باسم التشبيك Networking. وفيما يلي نتعرف على ملامح الإنترنت الجديدة [١].

أ - التحول من أحادية اتجاه التدفق الاتصالي لتعددية الاتجاه وتداعياته:

سبق وأشرنا إلى أن ما بعد التفاعلية، كخاصية لحقبة الإنترنت الجديدة؛ قد نقلت زوار الإنترنت من حقبة استهلاك المحتوى الإعلامي إلى حالة إنتاج هذا المحتوى. ويرى مراقبون أن من أهم التغيرات تحوُّل نمط التدفق الإعلامي من نمط تدفق في اتجاه واحد Many to One إلى نمط Many to Many [٢] أو التدفق متعدد الاتجاهات.

وبمعنى آخر، فإن ملايين المدونات؛ بتلك اللغات المتباينة المتعددة، بما تحويه من محتوى نصيّ أو صوتي، أو محتوى فيديو، أُضيفت لمساحة المحتوى الذي يتعرض له مستخدمو الإنترنت يوميًا، ولم يعد الأمر قاصرًا على تلك المواقع الرسمية، أو تلك المواقع التي تعبّر عن مؤسسات إعلامية صار لها اتجاه محدد وموجه لا تحيد عنه.

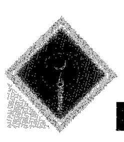
وقد ارتبط بتلك المرحلة ما عرفه المراقبون والمتخصصون باسم صحافة المواطن؛ ويعرف أيضًا باسم Public or Participatory Journalism وهو دور يؤديه المواطن الذي يلعب دورًا فعّالاً في عملية جمع وتصنيف وتحليل وصياغة المعلومات والأخبار [٣].

وفي إطار الحديث عن Web 2.0 أشار تقرير مؤسسة برايس ووترهاوس إلى نمط جديد من الأنماط الإعلامية المتمثلة في «إعلام نمط الحياة» أو Lifestyle Media. لتشير به إلى موجة جديدة من أنماط الإعلام تعبّر عن الخبرة الإعلامية الشخصية ضمن سياق اجتماعي. وقد أشار الخبراء إلى أن المستخدمين الإعلاميين النافذين الذين يتفاعلون مع الشبكات الاجتماعية على Web 2.0 يطلبون منتجات إعلامية تسمح لهم بزيادة القيمة المستفادة من المحتوى الإعلامي المتنوع، ضمن وقت الفراغ المحدود المتاح لديهم [٤].

ويوضح الخبراء أن «إعلام نمط الحياة» يتسم بسمتين هامتين: تتمثل أولاهما في أنه يعطي المستخدم القدرة على اكتشاف، أو تقديم محتوى جديد، وتتمثل ثانيتهما في أنه يتيح للمستخدمين اختيار كيفية توزيع هذا المحتوى [٥].

أما عن واقع المسلمين في إطار هذه التطورات، فلا يمكن القول إلا بأنه ضعيف جدًا. فمقارنة بعشرات المواقع العالمية للفيديو مثل You Tube، و Face book والصور وأهمها Flickr وPicasa، والمدونات وأهمها Blogger، وVox، وtig، والتشبيك وأهمها Orkut وFace Book

(١) موسوعة ويكيبيديا الحرة، مادة: ما بعد التفاعلية.
(٢) تقرير نادي دبي للصحافة لعام ٢٠٠٦م، ص: ٢٠.
(٣) Wikipedia, the free encyclopedia: Citizen Journalism.
(٤) تقرير نادي دبي للصحافة، عام ٢٠٠٦م، ص: ٢٣.
(٥) المرجع السابق، ص: ٢٣ - ٢٤.



وHi5، وبالنظر لعدد المواقع التي تقدم إمكانيات تتيح النشر الإعلامي لمستخدمي الإنترنت لا نكاد نجدهم إلا ٣ مواقع: «مكتوب» و«جيران» و«مدونتي» وبعض المواقع الأخرى التي لا تكاد تفتح للزائر إلا ونراها تحمل عطبًا ما. كما أن تقييم هذه المواقع فنيًا وتقنيًا لا يجعلها موضع مقارنة للخدمة المثيلة المتاحة عالميًا.

غير أن هذا لا ينطبق على مواقع المنتديات التي يمكن القول بأنها تبلغ بضعة آلاف، لكن أيًا منها لا يمكن اعتباره موقعًا متميزًا، وتعتمد على النقل من المواقع في الغالب، والندرة منها التي تقدم جديدًا.

وفي مقابلة أجراها الباحث مع أحد خبراء التسويق الإليكتروني أفاد الخبير بأن عدد المصريين وحدهم المسجلين في موقع Face Book بلغ ٧٥٠ ألف مشترك حتى نهاية يونيو ٢٠٠٨م. وهو رقم لم يسجله المصريون لأي موقع عربي؛ والسبب هو نوعية الموقع وطبيعة الخدمة التي يقدمها[٦].

ب – تسارع تنامي الإنترنت ما بعد التفاعلية وتداعياته:

ذلك التعريف الذي أوضحناه سلفًا مفتاح لفهم تطورات ويب ٢,٠ التي مرت بعدة مراحل حتى وصلت بنا للمرحلة الخامسة التي بدأت تدمج تقنيات Internet Virtual، ولكن على أرضية Cyber، أو الافتراضي لا Virtual المتخيل[٧].

كانت المرحلة الأولى ما بعد التفاعلية تتمثل في تلك الحالة التي عرفناها باسم التدوين الذي بدأت معه ويب ٢,٠ تأخذ شكل منصة يحتل فيها مستخدم الإنترنت -لا صاحب الموقع- موضع المركز والبؤرة، وقد اعتمدت المدونات على إمكانات النص والصورة وحسب.

والمرحلة ثانية تمثلت بأن اتجهت كل المواقع الكبيرة لتطوير المساحات الخاصة التي تمنحها للمستخدمين، وهكذا تطورت المساحات الخاصة التي كان المستخدم يتعامل معها عبر مواقع مثل ياهو: My Yahoo -على سبيل المثل- إلى أشكال جديدة من المواقع، بل باتت المواقع الكبرى تشتري المواقع الجاهزة التي توفر مساحات للزوار مثل SlideShare، وYouTube، وMySpace، وFlickr، وOrkut، وغيرها.

> لو عدنا إلى المواقع ما بعد التفاعلية العربية والإسلامية سنجدها بالغة الضآلة، ويزداد تضاؤل العدد حين نستبعد المواقع الإسلامية غير الناطقة بالعربية.

وفي مرحلة ثالثة، بدأت المدونات في الاستفادة من تطورات لغات تطبيقات الويب الجديدة؛ فبدأت تتيح لمستخدميها إمكانات أكبر فيما يتعلق بإدماج ألبومات صورة وفيديو، وشرائح فلاشية، وأنظمة تصنيف، وأرشفة، وبرمجيات صغيرة مثل الاستطلاع لمدوناتها.

وأخيرًا انتقلت شبكة الإنترنت ما بعد التفاعلية إلى جيلها الرابع الذي تمثل في إنتاج مواقع مثل Face Book، أو PerfSpot. والتي أَوْلَتِ اهتمامات خاصة بالتشبيك والتعقيب والرسوم الوجدانية، بالإضافة لتوفيره عددًا من الإمكانات الاقتصادية Business Models للمستخدمين.

ولو عدنا إلى المواقع ما بعد التفاعلية العربية والإسلامية سنجدها بالغة الضآلة، ويزداد تضاؤل العدد حين نستبعد المواقع الإسلامية غير الناطقة بالعربية. وأهم المواقع العربية في هذا الصدد موقع PerfSpot.

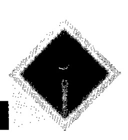
ج – إطلالة على الوجود المتخيل وتداعياته:

تكاثرت المواقع التي تعتمد البيئة التقنية ثلاثية الأبعاد؛ متأثرة باتجاه جديد للوجود الافتراضي عبرت عنه حركة تسمى Movement Literary Cyberpunk،

---

(٦) مقابلة أجراها الباحث مع الأستاذ محمد عبد الكريم مسئول التسويق الإلكتروني بأحد بيوت الخبرة في مجال النشر الإلكتروني.

(٧) للإنترنت حتى الآن مستويان للبيئة، أولهما البعد الافتراضي الذي توفره شبكة الإنترنت التي نعرفها بتحرك على مستوى أحادي البعد، والمستوى الثاني هو المستوى المتخيل، أو Virtual وهو مستوى ثلاثي الأبعاد. لمزيد تفاصيل راجع: وسام فؤاد، الإنترنت ما بعد التفاعلية واتجاهات تطوير الإعلام الإلكتروني، موقع المبادرة العربية لإنترنت حر، ٢٠٠٧/١١/١٢م.



وهي ظاهرة تنمو باطراد[8]. ويُعدّ موقع Second Life أبرز المواقع المعبرة عن هذه الموجة.

ووفقًا لإحصاء موقع Second Life؛ فإن إجمالي المقيمين بعالم Second Life بلغ في ٣١ أكتوبر ٢٠٠٧م، حوالي ١٠ ملايين و٦٠٠ ألف مقيم، يوجد منهم على مدار الساعة ما متوسطه ٨٠٠٠ مقيم. وبلغ حجم التعاملات الآنية في هذا الموقع حوالي ٣,٥٦٧,٧٦٦,٢١٣ دولارًا ليندونيًا، وقد صار لهذه العملة بورصة خاصة على الموقع تتيح البيع والشراء[9].

ومن خلال دراسة مَسْحِيّة، أجراها كاتب هذه الورقة، نجد أن خبرات واستثمارات العرب والمسلمين في الوجود المتخيل نادرة. والوجود العربي والإسلامي في العالم المتخيل يكاد يقتصر مؤسسيًا على شبكة إسلام أونلاين التي اشترت جزيرة شيدت بها مجسمًا تدريبيًا يحاكي لزوار الموقع مناسك فريضة الحج وسنة العمرة. ودون ذلك؛ فوجود العرب والمسلمين على Second Life لا يعدو أن يكون وجودًا استهلاكيًا لا يُنتِج واقعًا ثقافيًا أو اقتصاديًا.

ثانيًا: الواقع الرقمي أونلاين: عالميًا وإسلاميًا

أ - واقع الإنترنت عالميًا.. أرقام عرض شبكة الإنترنت والطلب عليها:

يقدر خبراء المعلومات رفيعو المستوى أننا نعيش عصر الطوفان المعلوماتي. فلم يعد وصف ثورة معلوماتية يصلح لما نراه ونعيشه الآن. فمنظمة EMC Corporation، وهي من كبرى المنظمات العاملة في حقل الأبحاث المعلوماتية، نجد أن تقريرها الصادر في عام ٢٠٠٧م يتحدث عن الكون الرقمي Digital Universe في إشارة لاتساع الوجود الرقمي في الظرف التاريخي الراهن، بينما كان تقرير عام ٢٠٠٨م بعنوان انفجار الكون الرقمي في إشارة لخروج النمو المعلوماتي عن السيطرة.

فمن الصعب على أحد تصور أن حجم الكون الرقمي في عام ٢٠٠٧م بلغ ٢٨١ مليار جيجا بايت (٢٨١ إكزابايت). ويقدر الخبراء أنه من المتوقع أن يتضاعف الكون الرقمي في عام ٢٠١١م عشر مرات، أي خلال الأربع سنوات المقبلة. ومن المتوقع أن يصل إلى ١,٨ زيتا بايت (١٨٠٠ إكزابايت). وتقدر التقارير الاستراتيجية أن حصة الفرد الواحد من حجم الكون الرقمي في عام ٢٠٠٧م بلغت ما يعادل ٤٥ جيجا بايت من المعلومات[10]. وإذا كانت شبكة الإنترنت حصة كبيرة من الكون الرقمي، فما حال الإنترنت اليوم؟

بالرجوع إلى موقع WebHosting Info وجدنا أن الأرقام فيه لا تقلل من الشعور بهذا الانفجار الرقمي. فقد سجلت مختلف الهيئات الطبيعية والاعتبارية عددًا مهولاً من النطاقات Domain Names في عام ٢٠٠٧م، بلغ ٦٤,٧٧٩,٤٤٤ نطاقًا في الولايات المتحدة وحدها، وفي ألمانيا تم تسجيل ٥,٧٤٦,٠٧٢ نطاقًا، وفي المملكة المتحدة ٣,٥٦٩,٩٦٨ نطاقًا. ويبلغ عدد النطاقات المسجلة على الصعيد العالمي في الإجمالي حتى ٢١ يوليو ٢٠٠٨م ١٠١,٠٢٣,٩٤٩ نطاقًا.

ولكي تكتمل الصورة يمكن أن نشير إلى أن العدد بحلول ٢٠٠٨م قد يبلغ ١٨٠ مليون نطاق بحلول نهاية العام. ومع أخذنا بعين الاعتبار احتمال أن يكون بكل نطاق موقعان على الأقل؛ تكون المحصلة المتاحة لدينا قرابة ٣٦٠ مليون موقع على الأقل. ويتوقع البعض بعد جولة باريس لمنظمة الآيكان في نهاية يونيو ٢٠٠٨م أن يقفز الرقم لأكثر من هذا بكثير[11].

وحتى تاريخ كتابة هذا التقرير يمكن القول باطمئنان بأنه لا توجد إحصائية متاحة حول التصنيفات الفرعية لهذا الكمّ الهائل من المواقع، لا في موقع منظمة الآيكان التي تحتكر بموجب قرار قمة المعلومات بجنيف حق

(٨) Wikipedia, the free encyclopedia: Second Life.

(٩) Second Life Economic Statistics.

(١٠) John Grantz, The Diverse and Exploding Digital Universe, EMC, March 2008.

(١١) تقرير موقع بي بي سي العربي، نهاية عصر «دوت كوم» على شبكة الإنترنت، ٢٦/٦/٢٠٠٨م.



توزيـع نطاقـات الإنترنت [١٢]، ولا في تقريرها السـنوي، ولا في موقـع Info WebHosting. وفي استشـارة لأحد الخبراء للباحث، أشـار الخبـير إلى أن هذه الإحصاءات ممكنة لكنها صعبة وغير موجودة [١٣].

ومـن خـلال البحـث نجـد أن تقسـيم أليكسـا ينطـوي علـى ١٦ فئة فرعيـة، تنتظـم ٤ ملايين و٤٣٢ ألـف موقـع[١٤]. ولا يمكن وضع معيـار محدد للتعرف علـى ملامح ذلك التقسـيم، وهو ما يسـتدعي توضيح عناصر الفئات. ففئة العالم بأسـره World استحوذت علـى ٣٩٪ تقريبًا من إجمالي الفئات، ونجدها تتضمن فئات فرعيـة تمثل تلك المواقع الناطقة بغير الإنجليزية. والموقـع Alexa هنا يكشـف عن تحيـزه اللغوي، بما يعـني أن بقية التصنيفات هي مؤشـر للمواقـع المبثوثة باللغة الإنجليزية وحدها. أما الفئة القطرية Regional التي استحوذت على ٢٥٪ تقريبًا من عدد المواقع المبوبة فتتضمن فئات فرعية تمثل التقسيم القاري للعالم.

وبـدون اعتبار هـاتين الفئتين، يبدو أن تقسـيم الفئات ضمن العالم الناطق بالإنجليزية يبلغ المنحى السابق بيانه في الجـدول (رقـم١)؛ فالجدول يكشـف أن فئة الفنون تحتل المرتبة الأولى بوزن بلغ ١٦٪، وتتضمن فئات فرعية مثل: الرسـم والتصوير والترفيـه والمنظمات الفنية.. إلخ. أمـا فئة المجتمـع فتحتل المرتبـة الثانية بـوزن بلغ ١٥٪، وتتضمـن فئـات فرعيـة مثـل: مواقـع القانون والأسـرة والمواقـع العسـكرية (غـير الإخباريـة) والاستشـارات الاجتماعيـة والتوجيـه الجنسـي.. إلخ. أمـا المواقع ذات النشـاط الاقتصادي غير الشـرائي فتحتل المرتبة الثالثة بوزن نسـبي بلغ ١٤,٧٪، في حين أن مواقع الشراء احتلت المرتبة الثامنة بوزن نسبي بلغ ٦,١٪.

وأما المواقع التي تتضمن استشارات وتوجيهات تقنية، وتحتـوي على برمجيات تجريبية، فاحتلت المرتبة الرابعة بوزن نسبي بلغ ٧,٢٪. وأما المواقع التي تعيد تدوير الإنتاج المنشـور أونلاين (مـن الملفات الصوريـة، وحتى الصوت والبرمجيات والفيديو) فقد احتلت المرتبة الخامسـة، ثم تترى بقية المواقع على النحو المبين بالجدول.

ومـن المهـم أن نشـير في هـذا الصـدد إلى أن مؤشـر أليكسا لا يتضمن كل المواقع بطبيعة الحال، فخمسة ملايين موقع لا يمكن مقارنتهم بما يقرب من ٣٦٠ مليون موقـع، كمـا رصدنا مـن قبل. كما أن المؤشـر المعدل يحدثنا عن المواقع المبثوثة باللغة الإنجليزية وحدها.

ب - الوجود الإسلامي على الإنترنت:

في هـذا المحـور من محاور الدراسـة؛ نتناول اسـتثمار الإنترنت إسلاميًا. وفي هذا الإطار نتناول المحاور الفرعية التالية:

١ - الحضور الإسلامي أونلاين.. خريطة عامة:

الجدول (رقم١) توزيع أليكسا المعدل للمواقع الإنجليزية

الفئة	النسبة	الفئة	النسبة
الفنون	١٦٪	المجتمع	١٥٪
الاقتصاد	١٤,٧٪	الحاسوب	٧,٢٪
تدوير الإنتاج	٦,٨٪	العلوم	٦,٦٪
الرياضة	٦,٤٪	الشراء	٦,١٪
الصحة	٣,٨٪	المراجع	٣,٦٪
الألعاب	٣,٥٪	الأطفال والمراهقون	٢,٨٪
المنزل	١,٨٪	الأخبار	٠,٥٪
الإجمالي	١٠٠٪		

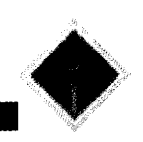
الناظر لخريطة الحضور الإسلامي أونلاين يجد قدرًا من التحيُّر في الوصول لمعلومة دقيقة، سـواء أنظرنا لهذه المواقـع من زاوية الإسـلام كدين، أو مـن زاوية المواقع كتعبير عن حضور العالم العربي والإسلامي أونلاين.

فلو نظرنا لخريطة المواقع الإسلامية من منظور الدعوة الإسلامية سنجد الأرقام مربكة للغاية. فموقع أليكسا الذي يقوم بإعداد دليل للمواقع ذات عدد الزيارات المعتبر يقوم بتقسـيم مواقع الأديـان إلى ١٠١,٥٥٨ موقعًا، منهم ١٨٣٩ موقعـًا إسـلاميًا، بينما اليهوديـة نجده يرصد لها

(١٢) انظر موقع منظمة الأيكان وتعريفها بنفسها: http://www.icann.org

(١٣) مقابلة مع أ. أحمد عبيد مدير قسم المعلومات بأحد أكبر بيوت الخبرة في مجال الإعلام الإلكتروني في العالم العربي.

(١٤) يمكن الرجوع مباشرة لصفحة التبويب في موقع Alexa للحصول على المزيد من المعلومات.



٢٣٣٠ موقعًا [١٥]. وهو ما يعني أن المؤشر المستخدم ليس دقيقًا، ولا يمكن الاعتماد عليه لمقارنة مواقع تخدم أكثر من مليار ونصف هم عدد المسلمين مقارنة بمواقع تخدم ٢٠ مليون يهودي.

ومن ناحية ثانية نجد أن أكبر أدلة المواقع الإسلامية: إسلام سايتز Islam Sites يشير في إحصائية طيبة ينجزها برنامج قاعدة بياناته إلى أنه يتضمن ٣٠ قسمًا تجمع كلها ١٢٦٨ موقعًا، بينما لديه قائمة انتظار تبلغ ١٥٢ موقعًا. أما دليل سلطان فيشمل ضمن المواقع الدعوية ٦٥٧ موقعًا [١٦]، بينما تضمن دليل مواقع شبكة إسلام أونلاين ٣٩٧ موقعًا في مجال علوم الدين والشريعة والدعوة [١٧]. بينما بقية الأدلة الإسلامية التي عثرنا عليها في هذا الصدد تقدم أعدادًا تتراوح ما بين ٥٠ موقعًا و١٢٤ موقعًا. ولا يمكن الاعتماد على هذه المواقع في رسم الصورة. وبخلاف موقع «إسلام سايتز» لا نكاد نجد موقعًا للأدلة يتضمن إحصائية محددة عما ينشره من مواقع إسلامية.

أما لو وسَّعنا المنظور قليلاً ليَعتبر الوجودَ الإسلامي قاطبة؛ من دون تخصيصه بمعيار الدعوة الإسلامية، نجد أن الدالّ الذي يرسم لنا بعض ملامح الصورة متمثل في مؤشر Alexa Directory [١٨] برغم بعض مثالبه التي أشرنا إليها من قبل.

وقد لاحظ الباحث عدم وجود منظمة، أو موقع، أو أية جهة تقوم بعمل حصر وتوثيق للمواقع الإسلامية، ومنح معلومات بشأنها لأدلة المواقع ذائعة الصيت، وذلك باستثناء حالة واحدة، لكنها كانت محدودة القيمة تتمثل في موقع «منظمة المواقع الإسلامية»، التي اتضح من رسالتها المنشورة على موقعها أنها مَعْنِيّة بتوثيق المواقع الإسلامية لفحص وتوثيق المواقع الإسلامية كخدمة لمستخدمي الإنترنت. غير أن هذا الموقع لم يكن يتضمن إلا ٩ مواقع أقر بكونها إسلامية، و١٧ موقعًا صنَّفها تحت عنوان: مواقع تعادي الإسلام. لكن الغريب أن هذا الموقع يتضمن موقعًا مثل الإسلام اليوم، ولا يتضمن موقع إسلام أونلاين، برغم أن الأخير سبق الموقع الأول في ظهوره بقرابة العام ونصف العام.

أما عن مستخدمي الإنترنت في العالم العربي فنجد أن عددهم يبلغ ٣١,٦٣٨,٦٤٠ نسمة، منهم ٢٠,١١٥,٤٤٠ نسمة في الجناح الإفريقي، و١١,٥٢٣,٢٠٠ نسمة في الجناح الآسيوي [١٩].

٢ - خصائص وسمات الحضور العربي أونلاين:

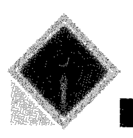
من المهم في هذا الإطار أن نُجرِي بحثًا ميدانيًا للتعرف على أهم سمات المواقع الإسلامية الأكثر ذيوعًا. وجدير بالذكر هنا أننا لا نقارن بين المواقع الإسلامية وغيرها، بل نحلل سمات المواقع الإسلامية. وفي هذا الإطار قام الباحث بمسح وتحليل أول ٥٠٠ موقع من المواقع صاحبة الترتيب العالمي، وذلك لهدفين:

أولهما: تحديد المواقع العربية ضمن هذه المواقع.
وثانيهما: تحديد خصائص هذه المواقع.

وبعد المسح وجدنا أن أول خمسمائة موقع لا تتضمن إلا ٤ مواقع عربية فقط، هي: PerfSpot، وجاء في المرتبة ٧٦، يليه جوجل السعودي في المرتبة ١٠٦، وهو أعلى جوجل عربي بالنظر لتضمن الخمسمائة الأوائل جوجل الإمارات، وجاء في المرتبة ٤٠٣، ولا يمكن اعتبار الموقعين عربيين. أما المرتبة الثانية عربيًا فجاء فيها موقع مكتوب بالترتيب ١٨١، ثم موقع كووورة في الترتيب ٢٢٨، ثم أخيرًا موقع برامج نت في المرتبة ٤٣٨.

وواضح من نتيجة المسح أن هذه النتائج لا يمكن الاعتماد عليها في تحليل خصائص المواقع العربية. غير أن المهم في هذه النتيجة أنها مؤشر يبين أن الموقعين المتقدمين في الترتيب ضمن المواقع الأربعة كانوا مواقع ما بعد تفاعلية، أما الموقعين التاليين، فكان أحدهما يقدم

(١٥) يمكن مراجعة دليل موقع أليكسا: http://www.alexa.com
(١٦) مسح للمواقع المتضمنة بدليل سلطان: http://www.sultan.org
(١٧) مسح لدليل المواقع بشبكة إسلام أونلاين: http://www.islamonline.net/SiteDirectory/Arabic
(١٨) لمراجعة هذا الاعتبار المنهجي يمكن زيارة صفحة التبويب Directories في موقع Alexa.
(١٩) لمزيد من التدقيق بخصوص تطورات الوضع الإحصائي يمكن زيارة موقع World Internet Stats الذي يعتبر مرجع هذه الإحصائيات.



خدمة إعلامية تتعلق بلعبة هي الأكثر شعبية في العالم: كرة القدم، وأما الرابع؛ فكان يقدم خدمات تتعلق بالحاسب، وهو من لوازم ومتطلبات العصر الرقمي.

غير أن هذا القصور في المسح يدفعنا إلى إجراء مسح للمواقع على مستوى عربي محض؛ وذلك لتقليل حدة المنافسة مع العالم الخارجي، مما يمكّننا من قراءة خصائص المواقع العربية.

وفي هذا الإطار نقوم بدراسة مسحية للمواقع محل الإقبال في السوق العربية. وبالنظر للصعوبة العملية في بحث استهلاك الزوار للمواقع في كل العالم العربي سنتجه لدراسة الإقبال على المواقع في دولتين وحسب، هما مصر والسعودية. ومردّ اختيارنا لهاتين الدولتين أنهما تنتميان لإقليمين عربيين مختلفين، كما أنهما تمثلان أكبر سوق للإنترنت عربيًّا، بالإضافة إلى أنهما تمثلان اتجاهين سوقيين مختلفين.

ومن خلال التحليل يمكن لنا أن نخلص لخصائص المواقع العربية، والتي يمكن القول بصفة عامة بأنها تنتمي للإنترنت القديمة المعروفة باسم WWW.

وقبل الخوض في تفاصيل الخصائص، أود الإشارة إلى أن تحليل الخصائص الذي سنقوم به هو تحليل موجه لغرض خدمة الاستثمار المستقبلي في شبكة الإنترنت. فهو تحليل للخصائص في ضوء تراجع المواقع العربية لصالح تيارات الإنترنت الجديدة. وتمثل خصائص الإنترنت الجديدة محكات لفحص خصائص المواقع العربية التي رصدناها. والخصائص الغالبة على المواقع المرصودة في الدولتين يمكن تفصيلها فيما يلي:

❖ إعلام وخدمات أحادية الاتجاه: بمعنى أن صاحب الموقع هو المتحكم في كل المحتوى. سواء أكان أخبار أم تسجيلات قرآنية أم خلافه، وأمكن لشريحة من المستخدمين تعويض هذا القصور باللجوء للمواقع الأجنبية التي بلغت ١١ في مصر، و٣ مواقع بالمملكة السعودية.

❖ محدودية الاتجاه التفاعلي: تتسم المواقع جميعها بتراجع الاتجاه التفاعلي، وعدم اعتباره، سواء ذلك الذي يلعب فيه المواطن دورًا إعلاميًّا، أو ذلك الذي يستفيد فيه المواطن بالإمكانيات التفاعلية للموقع من تدريب وتعليم وتثقيف وتربية.. إلخ. وهو ما يجعل الجمهور يقبل على المواقع الأجنبية.

❖ ضعف التقنية المستخدمة: تتسم المواقع المحللة في الدولتين بضعف التقنية المستخدمة لبناء هذه المواقع، ويغلب ظهور هذه الصفة جلية في المواقع المصرية، وتكاد تكون سمة عامة للمواقع الحكومية فيها. وتفتقر هذه المواقع لكل الخصائص المستحدثة للإنترنت من تقييف Customization، وخفة وزن، واستثمار للبرمجيات مفتوحة المصدر التي تؤدي خدمات مختلفة، وافتقار عام للتطبيقات الوظيفية خفيفة الوزن.

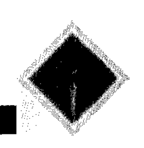
> لا تدعم المواقع العربية خصائص التشبيك وتبادل الآراء، وإن كانت هذه الوظيفة تقوم بها المنتديات جزئيًا

❖ مواقع المستخدم المنفرد: تفتقر كل المواقع المرصودة، باستثناء تلك الأجنبية، بأنها مواقع لمستخدم الإنترنت المنفرد. فلا تدعم المواقع العربية خصائص التشبيك وتبادل الآراء، وإن كانت هذه الوظيفة تقوم بها المنتديات جزئيًّا، لكن فكرة المنتديات تقوم على مفهوم إعلام المواطن أكثر من اعتبارها لمفهوم التشبيك.

❖ مواقع القيام بالذات: تفتقر كل المواقع الواردة بالمسح إلى خاصية التكامل التقني مع المواقع التي تقدم خدمات كبرى، فلا توجد صحيفة تقدم إحالة لألبوم صور مرتبط بوقائع قامت بتغطيتها، ولا تحيل إلى ملفات فيديو منشورة، ولا تربط ما بين كل هذه المواقع لتقديم خدمة متكاملة لزوارها. الكل يعمل منفردًا.

ثالثًا: نحو رؤية لترشيد الاستثمار في الإنترنت الجديدة:

كما سبق ورأينا؛ فإن الحضور العربي الإسلامي على الإنترنت محدود في إمكانيات استفادته الآنية من



إمكانات الإنترنت الجديدة. هذا لا يعني أنه حضور منخفض المستوى، بل هو حضور فاعل إلى حد يمكن القول بأنه متوسط. ولكن للأسف؛ فإن هذا الحضور يتراجع، وإطلالة مقارنة على ترتيب المواقع العربية الكبرى بين أوائل عام ٢٠٠٦م واليوم تكشف هذا التراجع.

أ - إمكانات الفرص في الإنترنت الجديدة:

سبق وأن تحدثنا عن ما بعد التفاعلية. غير أن هذه الحالة الجديدة للإنترنت ليست مصمتة. كما لا يمكن في إطارها أن نبدأ من الصفر. والجديد الذي نحتاج للتعرف عليه في إطار تفهُّم استثمار المسلمين للإنترنت يتمثل في ملامح الجيل الرابع لما بعد التفاعلية. وتتمثل هذه الملامح فيما يلي:

١ - منصة التطبيقات: بداية، لا بد من أن نشير إلى أن أهم سمة من سمات الجيل الرابع من المواقع ما بعد التفاعلية؛ وبخاصة مواقع مثل Face Book وGoogle يتمثل في كونه شكَّل منصة Platform لإنتاج تطبيقات تفاعلية تشبيكية صغيرة الحجم من ناحية، وإتاحة المجال لمطوري البرامج من مستخدمي الموقع لإضافة تطبيقات تشبيكية من إنتاجهم، وأيضًا إتاحة المجال للمستخدمين غير المتخصصين لإنتاج برامجهم التشبيكية الخاصة، عبر إيجاد عدة أشكال من التطبيقات القابلة للتقييف Customization[٢٠].

٢ - التشبيك والإعلام مترابطان منذ البداية: من أهم خواص المرحلة الآنية من المواقع ما بعد التفاعلية أنها تهتم ببناء المجتمع أونلاين Community مع تزويد الخدمة التفاعلية جنبًا إلى جنب.

وليس المقصود ببناء المجتمع هنا أن الجيل الرابع يعمل كما الجيل الثاني عن طريق توفير مساحة أو بند للمجموعات البريدية، بل باعتباره خدمة بينية بين كل الخدمات الأخرى. ففي هذه المساحة؛ يمكن للمستخدم ومن يشاركونه التجمع Community أن يتصفحوا كل المواد التي بين أيديهم، وتتاح لهم تحتها ومعها مساحات للنقاش، وأدوات تعبيرية مختلفة.

٣ - للمشاعر والوجدان مساحة لا بد منها: جزء مهم من ثقافة الجيل الرابع للمرحلة ما بعد التفاعلية أنها أولت للمشاعر والأحاسيس أهمية لا تقل عن تلك الأهمية المعتبرة للأفكار والآراء، وذلك عبر استخدام برمجيات الجيرافيك.

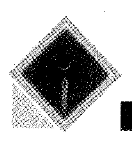
واستخدام هذه التطبيقات الرسومية التعبيرية Graphic تستخدم على مستويين؛ أولهما أنها وسيلة للتعبير عن موقف من مادة منشورة في أوساط التجمع، وثانيهما حيث تكون المشاعر هنا قيمة في ذاتها، كتعبير أحد أعضاء التجمع عن سعادته أو إحباطه أو أي من المشاعر التي لا علاقة لها بالتعبير عن رأيه في محتوى متاح للتجمع.

٤ - إيلاء العناية القصوى للتعقيبات: تتحلى المرحلة الرابعة ما بعد التفاعلية بخاصية مهمة تتمثل في إيلاء العناية والاهتمام الكبيرين بعملية التعقيب على المحتوى. لقد بدأت هذه الخاصية حضورها انطلاقًا من توجه شبكة الإنترنت بصورة أساسية لمتلقي المادة الاتصالية وليس منتجها؛ في محاولة لجعله الطرف الأكثر قدرة على الإفادة وإنتاج المحتوى البديل.

٥ - التواصل والتكامل مع المواقع ما بعد التفاعلية البارزة: من اللافت للنظر أن المواقع ما بعد التفاعلية أصبحت تهتم كثيرًا بالتكامل فيما بينها. وقد اتضح من المتابعة أن مواقع الجيل الرابع لا تكترث بأن توسع سيرفراتها لاستضافة ملفات فيديو، بل تنتج برنامجًا صغيرًا يجعل بإمكان المستخدم أن ينشر الفيديو الذي يهتم به على موقع You Tube من خلال وضع الكود الذي يزوده به هذا الموقع، أو حتى من خلال رابط الفيديو.

وخلال مسح الباحث لهذه المواقع وجدت أن المواقع التي انتشرت في المرحلة الثالثة بدأت تنتج بنفسها تطبيقات لأجل المواقع المنتمية للجيل الرابع، فوجدت تطبيقات للربط APIs على موقع Face Book تربطه

(٢٠) وسام فؤاد، المحيلات الرقمية، شبكة إسلام أونلاين، نطاق علوم وصحة، ٢٠٠٨/٥/٢٨م.





بمواقع مثل del.icio.us أو Flickr. والمحصلة النهائية أن شبكة الإنترنت عبر هذا الجيل بدأت تستشعر أن الاقتراب الشديد من مستخدم الإنترنت، والذهاب إليه صار هو الوسيلة الأكثر فاعلية في الاستحواذ على حصة من سوق الإنترنت.

٦ - التشبيك واسع النطاق: من أهم سمات الجيل الرابع ذو النزوع التشبيكي أنه يجعل من عملية التعارف معلمًا بارزًا من معالمه. فلم تعد هذه الوظيفة من مختصات برامج الزواج وإيجاد الرفيق التي باتت تاريخًا، وإن كان -عمليًا- لا يزال ثمة إقبال على ما تقدمه من خدمة.

والتطبيقات العاملة في هذه المساحة تضع إمكانيات متعددة لتوفير التعارف، وتعتمد مفاهيم حيوية في هذه المساحة، ولعل أهم هذه المفاهيم مفهوم Network الذي ينبّه المنتمين إلى شبكة ربط معينة (بلد أو مدرسة وجامعة أو عمل) أن يلتقوا بعضهم البعض ويتعارفوا، ومنها مفهوم Match الذي يتيح للعزاب أن يتعارفوا، أو مفهوم Group وهو أقل هذه التطبيقات استخدامًا وشيوعًا، ويتيح الالتقاء على هدف ما للنشطاء، أو مفهوم Fan الذي يتيح تشكيل رابطة للإعجاب بشخص ما أو ظاهرة ما، أو مفهوم User الذي يتيح لمستخدم تطبيق معين أن يتعرف على أنشط مستخدمي هذا التطبيق، أو مفهوم Birthday لمواليد نفس اليوم. وتتسع الدائرة باتساع اشتراك الناس في مفهوم أو مصطلح أو جماعة أو غيرها.

٧- إمكانيات مباشرة المستخدمين للنشاط الاقتصادي: تتسم مواقع هذا الجيل بصفة عامة بممارسة أشكال مختلفة من النشاط الاقتصادي. وأحد أهم النماذج الاقتصادية التي يعتمدها هذا النمط من المواقع بخلاف الإعلانات ما يتمثل في الاعتماد على رغبات المستخدم في التوسع في استخدام تطبيقات بعينها، بل يمكن للمستخدمين الذين ينتجون التطبيقات التي يستخدمها زوار ومستخدمو الموقع للترفيه، أو للتعلم أو للتواصل، يمكن للمطورين أن يضمنوا للتطبيقات التي ينتجونها نشاطًا تسويقيًا لبرمجياتهم، ويحصل الموقع على نسبة من عوائدهم.



قد تكون رحلتنا انتهت مع الجيل الرابع للمرحلة ما بعد التفاعلية، غير أن هذا الجيل ليس منتهى التطور في المرحلة ما بعد التفاعلية، إذ إن هناك بالفعل تطبيقات ثلاثية الأبعاد تمثل إرهاصة الجيل الخامس، قد تظهر خلال فترة ليست بالطويلة.

ب - استثمار الفرص في الإنترنت الجديدة:

السعي وراء القيم ما بعد التفاعلية التي توفرها شبكة الإنترنت ليس قيمة في ذاته، بل لأنه يوفر مجموعة من الآليات، والآفاق التي يمكن أن يتم استثمار الوجود الإسلامي بها أونلاين على نحو أفضل، ويمثل إضافة نوعية للنهضة بالعالم الإسلامي على صعيد الموارد البشرية، كما سيكون ذلك مؤشرًا افتراضيًّا لنهضته العامة. فكيف يكون هذا؟

والرأي في هذا الإطار يكمن في الانطلاق من معيار مزدوج، يأخذ بعين الاعتبار تجدد الإنترنت من ناحية؛ ويعتبر الخصائص الإشكالية للمواقع الإسلامية من ناحية ثانية. وفي هذا الإطار تثور لدينا عدة سيناريوهات غير تنافسية، يمكن في إطارها تعزيز الحضور الإسلامي أونلاين. تتمثل هذه السيناريوهات فيما يلي:

١ - سيناريو الجاذبية: سبق وأشرنا إلى أن المواقع الإسلامية لا تكاد تلحق بركب التطور في البنية التحتية للإنترنت. ولا يحتاج الأمر لدراسة متخصصة لتكشف ضعف جاذبية الغالبية العظمى من هذه المواقع من ناحية، بجوار ضعفها التقني.

وربما تمثل الموارد المادية عنصر ضغط يدفع لتلك النتيجة من فقدان الجاذبية، ولكن الأكثر أهمية أن غالبية هذه المواقع لا تتعرف على طبيعة عموم جمهور الإنترنت، وهو ذلك الجمهور الملول الذي يريد المعلومة في أقصر محتوى ممكن، بالإضافة لأكثر سبل إنتاج المحتوى جاذبية وسهولة في التحميل، وهذه كلها أدوات وإمكانات توفرها الإنترنت الجديدة بما يصنع فارقًا هائلاً في إنتاج المحتوى وترويجه.

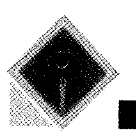
٢ - سيناريو التنسيق: لُوحِظ من خلال دراسة حالة عينة المواقع الإسلامية المشار إليها أن المواقع الإسلامية تتسم بالتنافسية الشديدة. وبالإضافة لهذه التنافسية؛ فإن المواقع التي تنشر الإسلام مغلوطًا كثيرة، بينما غالبية المجالات التي أشرنا إليها من قبل، في هذا البند، لا تكاد تجد من يتولاها.

هذا السيناريو يعكس ضرورة التوجه لأمرين:

أولهما ضرورة تخصيص مورد لدراسة الإسلام على الإنترنت، والعمل على توفير قاعدة بيانات «معلوماتية» قوية حول بياناته وزواره، وتوجيهها لتلك النوايا الطيبة بإنشاء مواقع جديدة، بما يعمل على تخفيف حدة التشابه والتنافس، والتوجه للمجالات الجديدة البكر. ولا مانع من أن ينطوي هذا التوجه على دليل قوي تصدره هيئة مهتمة ببحوث ودراسات الإنترنت، وتصدر إلى جنبه تقريرًا سنويًّا عن الإسلام على الإنترنت وتطوراته؛ بحيث يخدم التحرك الإسلامي في هذا الفضاء الرحب الذي ينتظره مزيد اتساع. ولا بد من أن نوضح هنا أننا لا نقصد بحال أن نقضي على التعددية. فهذه التعددية فيها سعة ورحمة لا بد من الإحاطة بهما، لكن المراد هنا هو تخفيف حدة التنافس والتعددية المفرطة غير الصحية.

وثاني هذه المجالات ابتكار نموذج لإفادة مستخدمي الإنترنت حول ما يمكن اعتباره مواقع تقع ضمن دائرة الدين الإسلامي الحق؛ وتميزه تمييزًا بيِّنًا عن تلك المواقع التي تدعي الإسلام وتقول بغيره، وذلك كنوع من الشهادة على هذه المواقع من ناحية، وباعتباره جهدًا دعويًّا متميزًا ومطلوبًا من ناحية ثانية. ولا مانع من أن يتضمن التقرير السنوي المقترح سابقًا بندًا حول هذه القضية.

٣ - سيناريو المعلوماتية: لعلنا في البند السابق أشرنا لضرورة أن تكون هناك جهة تعطي صورة عن طبيعة الإنترنت الإسلامية لأصحاب الاستثمارات. لكن هذا الأمر لا بد في إطاره أن نعي أن الإنترنت لا تكاد تجد اهتمامًا معلوماتيًّا يعطي رأس المال المنتمي فرصة التعرف على طبيعة المواقع وعدد زوارها، وحقيقة الإنترنت بالأرقام، سواء في ذلك ليكون الإنترنت مجالاً استثماريًّا، أو ليكون سوق ترويج وإعلان، أو للتعرف على طبيعة ميول جمهور الإنترنت في منطقة بعينها؛ أو توجههم حيال نشاط بعينه.



إن دراسة في هذا المجال تكلف عنتًا ومشقة. وبالرغم من توفر محاولات متناثرة؛ إلا أن هذه المحاولات لا تكاد تعطي صورة كاملة؛ مما يفتح الباب أمام اجتهاد الباحثين في ابتكار نماذج قياس على نحو ما سلك الباحث خلال هذه الدراسة. وقد لا تكون هذه النماذج كافية. والبديل هو تكثيف التعامل المعلوماتي مع الإنترنت؛ باعتبارها موضوعًا وليس مصدرًا. وهو ما قد يأخذ شكل التنسيق بين الجهات المعلوماتية المرتبطة بالإنترنت، أو ابتكار برنامج قياس جديد يتم توسيع تداوله بين مزودي الخدمة.. إلخ. ولا تخلو هذه المساحة من احتمالات الابتكار المفيدة والمثمرة.

٤ – سيناريو الإنترنت لأغراض التدريب: النظر للإنترنت باعتباره وسيطًا لنقل المعرفة والتدريب عليها في آن، عبر وسائل جديدة لم تكن متوفرة بالإنترنت القديمة www التي عرفت إرهاصات التعليم الإلكتروني E-Learning. فاليوم تتيح البرمجيات المتطورة إمكانات مثل حلقات النقاش الحية المرتبطة بالفيديو LVD، ومواقع السيمينارات الإلكترونية Webinars، وغيرها من الإمكانات الجديدة التي صار قوامها توفير المادة التدريبية والتدريسية في الوقت الذي تتوفر فيه في نفس الصفحات مساحات لمناقشتها، والتعقيب عليها، وإضافات ملفات صوت وصورة توافق أو تعارض، أو تضيف وتعدل، بالإضافة لإمكانات الرسوم البيانية والقواميس الفورية، والدردشة الصوتية، بل والمرئية، وكل ذلك يتجمع أمام مستخدم الإنترنت في نفس المساحة بدون اضطراره لقطع الجلسة لأغراض أخرى إلا لجلب الملفات التي يحتاجها من نفس الحاسوب.

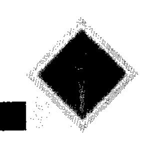
بقي أن نشير في هذا الصدد إلى أن التطور الهائل في لغات تطبيق الحاسوب الخادمة للويب قطع شوطًا طويلًا وقويًا، ولم يتوقف بعدُ، بحيث يمكن القول بأن التطبيقات المتوفرة ليست إلا خطوة في طريق التقدم الذي يكمن في تفكير وحُلْم، ثم يليه توفر تمويل ليس بالضخم؛ يعقبه تنفيذ؛ ويلي ذلك كله تجدّد مستمر للتجويد الذي لا يجب أن يتوقف أو ينقطع؛ لإثراء الفكرة والارتقاء بالخدمة.

٥ – سيناريو تكامل المواقع : يؤدي تنافس المواقع الإسلامية أحيانًا إلى تبديد مواردها لإنتاج أكثر من محتوى خاص بموضوع واحد، بحيث تمنع هذه الموارد من خاصية المراكمة الأفقية للمحتوى؛ سواء أكان هذا المحتوى نصًا أو ملف رسوم متحركة Flash File، أو ملف فيديو أو ملف صوت. وكما تابعنا فإن المواقع الغربية لا تنهك مواردها وسيرفراتها في إنتاج محتوى مماثل لمحتوى موجود؛ باستثناء المحتوى الذي يتعرض لنفس القضية بوجهة نظر أخرى. والمطلوب من المواقع الإسلامية أن تتجه للتكامل بينها فتستثمر مواقع الفيديو Tube Sites لتحميل ملفات الفيديو التي تريد عرضها عندها من دون أن يضر هذا بسيرفراتها، أو يحملها ما لا تطيق، وكذا الحال مع ملفات الصور والصوت والفلاش.

> يؤدي تنافس المواقع الإسلامية أحيانًا إلى تبديد مواردها لإنتاج أكثر من محتوى خاص بموضوع واحد

ولا مانع من أن تتبع المواقع الإسلامية مع بعضها البعض خدمة الإنتاج الإعلامي التبادلي، الذي يقوم على إمكان تداول أكثر من موقع لمادة محتوى واحدة، خاصة وأن ثمة ظاهرة ملحوظة تتعلق بكتابة الموضوع الواحد لأكثر من جهة. ولعل هذا الأمر يكون أكثر إفادة في حالات مكتبات الوسائط المتعددة التي تتميز فيها بعض المواقع مثل طريق الإسلام؛ وتصر بعض المواقع الأخرى على أن يكون لها مكتبات خاصة بها منفردة، وهو ما يمثل عبئًا مزدوجًا على موارد الحالة الإسلامية مجتمعة، ويرفع قيمة التكلفة البديلة لكل محتوى مكرر.

٦ – سيناريو تفعيل المشاركة ووأد السلبية: الاعتماد على الإنترنت لتعميق مواجهة حالات الانسحاب الجماهيري المسلم من المشاركة في الحياة العامة على الأصعدة العالمية والقطرية والإقليمية، من خلال الشروع في إنشاء المواقع التي تتيح توفير آليات تقوم على مشاركة الجماهير، بدلاً من تلك الثقافة التي تقوم على التدفق الاتصالي المحدود من جانب واحد. فالناظر للإنترنت العربية اليوم يجد أنها لا تعدو أن تسلك نفس طريق التدفق الاتصالي الذي تستخدمه المشروعات السياسية الشمولية، بينما واقع الإنترنت تجدد وتطور، لكي يمنح



المستخدم الفرصة للهرب من الحصار على المحتوى الذي يريد أن يراه أو ينشره.

وهذه الإمكانية فرصة لا تهديد فيها للفكر القويم. وحده الخائف هو من يفرض القيود؛ ويضع السدود أمام إمكانات المشاركة الجماهيرية، وهو ما أدى في لحظة تاريخية لانهيار الاتحاد السوفييتي عقب كفّ أيدي الجهاز الأمني عن معاقبة من يرفض المقولات الاشتراكية، وهو ما أعقبه انهيار الاشتراكية بمفهومها الشمولي في كل بلدان أوروبا الشرقية تباعًا. لكن المخاطر في هذه البلدان لم تكن في انهيار النظم؛ بل في أن الفرد كان منسحبًا من الحياة العامة لدرجة أن سيطر الفساد أو الاستبداد على هذه الدول بشكل أو بآخر.

٧ - سيناريو التشبيك: الانتباه للمفهوم الحاكم لتطورات الإنترنت الراهنة والمتمثل في «التشبيك» الذي يعد من الفرص التي توفرها الإنترنت، وهي فرصة يمكن استثمارها بأكثر من وسيلة تقوم على استثمار الطاقات البشرية المتخصصة المعطلة لأغراض التعليم والتربية والتوجيه. وممارسة هذه الأنشطة في عصر التشبيك لم يعد يتم من خلال التلقين، بل من خلال تكوين مجموعات تتواصل فيما بينها؛ تتبادل وسائط المعرفة، وتناقشها، وتعمق الوعي بها فيما بينها، وتتمتع بحق نقد المعرفة المقدمة لها، ما دامت عرضة للنقد (اجتهادات - وجهات نظر - آراء)، ولها أن تقدم بدائل، وتدعمها بحُجَج لا حصر للوسائط التي يمكن دعمها بها، سواء أكانت فيديو أو صوت أو صورة أو نص أو ملفات فلاشية.. إلخ.

إن هذه الإمكانية يمكن أن تُستخدَم في تعليم الدين، كما يمكن أن تستخدم في التعليم عبر إيجاد مجموعات تعليم صغيرة بدلاً من ظواهر مثل الدروس الخصوصية، أو يمكن استثمارها في أنشطة التنمية البشرية والذاتية عبر التطبيقات الصغيرة الحجم المتعددة الوظائف التي يمكنها أن تلائم احتياجات كل مشروع تدريبي، مهما اختلفت خواصه ومتطلباته، كما يمكن استخدامها في مجال التدريب على نظم تحسين البيئة ومكافحة التلوث وسائر المشروعات التنموية التي تحتاجها أوطاننا.

وكما ذكرت من قبل، فإن ما نتعامل معه في هذا المقام ليس السقف المطروح أمامنا استثمار إمكاناته وطاقاته، بل هي نماذج لما يمكن أن نصل إليه بطموحاتنا التي ليس بالضرورة أن يتضمنها موقع واحد. لقد صارت شبكة الإنترنت الجديدة بمثابة منصة Platform لكل طموحات المتعاملين معها، منصة للتطبيقات، ومنصة للنشر، ومنصة للخدمات، ومنصة للتخزين والأرشفة، ومنصة للتشبيك. ولا يحدها اليوم إلا ما نضعه نحن عليها من قيود وحدود.

٨ - سيناريو المحاكاة الأخلاقية الافتراضية: التعاطي مع الإنترنت باعتباره ليس مجرد وسيلة لنشر المنفعة أو الفضيلة أو الدين الصحيح بمفهومه السمح المستقيم، بل أداة لتواضع المجتمع الإلكتروني المسلم للتدرب على هذه الفضيلة، والعيش بها على الصعيد الافتراضي، وممارستها افتراضيًّا وتخيليًّا، واستحضارها دومًا، وتعزيز حضورها عبر تطبيقات ويب مختلفة بقدر توفر المحتوى الصوتي والمرئي الراعي لها؛ بحيث تقل الفجوة ما بين حضور الثقافة المحافظة أوفلاين وحضورها أونلاين.

بل يمكن استثمار البنية التحتية للإنترنت لتوفير درجة عالية من المعايشة والانتشار لهذه القيم من الواقع الافتراضي للواقع المُعَاش.

ولا شك أن قيم المجتمع الغربي تحضر على الإنترنت بشكل يعمّقها. فلو أخذنا موقعًا مثل فيس بوك Face Book سنجد أنه يمثل تنويعة للقيم الخاصة بالمجتمعات النشطة من خلاله. فنجد الفئة الغربية فيه تكثر بينها برمجيات المواعدة، وتقييم أكثر الرفاق جاذبية وحضورًا جنسيًّا، بالإضافة للفردانية والخصوصية والتطبيقات الإباحية. بينما نجد الحضور الآسيوي يتمثل في بعض البرمجيات التي تعكس خصوصية دينية أو اجتماعية.. إلخ. فالمواقع تعكس خصوصية المجتمعات التي نشأت بها، أو المجتمعات التي تنشط عليها، وهو ما يدفعنا للاهتمام بخصوصيتنا وأخلاقياتنا.

فالفرد المستخدم للإنترنت أونلاين هو الذي يعيش على أرض الواقع، والتواصل معه ومع ثقافته عبر البرمجيات المتجددة والوسائط المختلفة من شأنه أن يحيي ثقافته، ووجودها في قلبه وسلوكه، سواء عبر حاسوبه أو عبر أيّ وسيط آخر يستخدمه.



معلومات إضافية

استخدام الإنترنت عالميًا

مناطق العالم	عدد السكان في ٢٠٠٨م	عدد مستخدمي الإنترنت في ٢٠٠٠/١٢/٣١م	عدد مستخدمي الإنترنت في ٢٠٠٨/٦/٣٠م	نسبة المستخدمين لعدد السكان	نسبة الاستخدام بالنسبة للعالم	نسبة النمو (٢٠٠٠ – ٢٠٠٨م)
إفريقيا	٩٥٥,٢٠٦,٣٤٨	٤,٥١٤,٤٠٠	٥١,٠٦٥,٦٣٠	٪٥,٣	٪٣,٥	٪١,٠٣١,٢
آسيا	٣,٧٧٦,١٨١,٩٤٩	١١٤,٣٠٤,٠٠٠	٥٧٨,٥٣٨,٢٥٧	٪١٥,٣	٪٣٩,٥	٪٤٠٦,١
أوروبا	٨٠٠,٤٠١,٠٦٥	١٠٥,٠٩٦,٠٩٣	٣٨٤,٦٣٣,٧٦٥	٪٤٨,١	٪٢٦,٣	٪٢٦٦,٠
الشرق الأوسط	١٩٧,٠٩٠,٤٤٣	٣,٢٨٤,٨٠٠	٤١,٩٣٩,٢٠٠	٪٢١,٣	٪٢,٩	٪١,١٧٦,٨
أمريكا الشمالية	٣٣٧,١٦٧,٢٤٨	١٠٨,٠٩٦,٨٠٠	٢٤٨,٢٤١,٩٦٩	٪٧٣,٦	٪١٧,٠	٪١٢٩,٦
أمريكا اللاتينية	٥٧٦,٠٩١,٦٧٣	١٨,٠٦٨,٩١٩	١٣٩,٠٠٩,٢٠٩	٪٢٤,١	٪٩,٥	٪٦٦٩,٣
أستراليا	٣٣,٩٨١,٥٦٢	٧,٦٢٠,٤٨٠	٢٠,٢٠٤,٣٣١	٪٥٩,٥	٪١,٤	٪١٦٥,١
المجموع	٦,٦٧٦,١٢٠,٢٨٨	٣٦٠,٩٨٥,٤٩٢	١,٤٦٣,٦٣٢,٣٦١	٪٢١,٩	٪١٠٠,٠	٪٣٠٥,٥

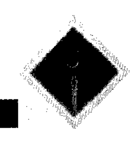
المصدر:

Internetworldstats.com

الاستخدام العربي للإنترنت

دول عربية تتوفر معلومات عن عدد مستخدمي الإنترنت فيها حتى ٢٠٠٧/٢١/٣١م

الدولة	التعداد السكاني في ٢٠٠٧م	مستخدمو الإنترنت (عام ٢٠٠٠م)	مستخدمو الإنترنت حتى ٢٠٠٧/١٢/٣١م	نسبة المستخدمين	نسبة النمو (٢٠٠٠-٢٠٠٧م)
البحرين	٧٠٨,٥٧٣	٤٠,٠٠٠	١٥٧,٣٠٠	٪٢٢,٢	٪٢٩٣,٣
العراق	٢٧,٤٩٩,٦٣٨	١٢,٥٠٠	٣٦,٠٠٠	٪٠,١	٪١٨٨,٠
الأردن	٦,٠٥٣,١٩٣	١٢٧,٣٠٠	٧٩٦,٩٠٠	٪١٣,٢	٪٥٢٦,٠
الكويت	٢,٥٠٥,٥٥٩	١٥٠,٠٠٠	٨١٦,٧٠٠	٪٣٢,٦	٪٤٤٤,٥
لبنان	٣,٩٢٥,٥٠٢	٣٠٠,٠٠٠	٩٥٠,٠٠٠	٪٢٤,٢	٪٢١٦,٧
عمان	٣,٢٠٤,٨٩٧	٩٠,٠٠٠	٣١٩,٢٠٠	٪١٠,٠	٪٢٥٤,٧
الضفة الغربية بفلسطين	٢,٥٣٥,٩٢٧	٣٥,٠٠٠	٢٦٦,٠٠٠	٪١٠,٥	٪٦٦٠,٠



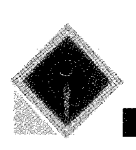

قطر	٩٠٧,٢٢٩	٣٠,٠٠٠	٢٨٩,٩٠٠	٣٢,٠٪	٨٦٦,٣٪
السعودية	٢٧,٦٠١,٠٣٨	٢٠٠,٠٠٠	٤,٧٠٠,٠٠٠	١٧,٠٪	٢,٢٥٠,٠٪
سوريا	١٩,٣١٤,٧٤٧	٣٠,٠٠٠	١,٥٠٠,٠٠٠	٧,٨٪	٤,٩٠٠,٠٪
الإمارات	٤,٤٤٤,٠١١	٧٣٥,٠٠٠	١,٧٠٨,٥٠٠	٣٨,٤٪	١٣٢,٤٪
اليمن	٢٢,٢٣٠,٥٣١	١٥,٠٠٠	٢٧٠,٠٠٠	١,٢٪	١,٧٠٠,٠٪

دول عربية تتوفر معلومات عن عدد مستخدمي الإنترنت فيها حتى ٢٠٠٨/٦/٣٠م

الدولة	التعداد السكاني في ٢٠٠٨م	مستخدمو الإنترنت (عام ٢٠٠٠م)	مستخدمو الإنترنت حتى ٢٠٠٨/٦/٣٠م	نسبة المستخدمين	نسبة النمو (٢٠٠٠-٢٠٠٧م)
الجزائر	٣٣,٧٦٩,٦٦٩	٥٠,٠٠٠	٣,٥٠٠,٠٠٠	١٠,٤٪	٦,٩٠٠,٠٪
جزر القمر	٧٣١,٧٧٥	١,٥٠٠	٢١,٠٠٠	٢,٩٪	١,٣٠٠,٠٪
جيبوتي	٥٠٦,٢٢١	١,٤٠٠	١١,٠٠٠	٢,٢٪	٦٨٥,٧٪
مصر	٨١,٧١٣,٥١٧	٤٥٠,٠٠٠	٨,٦٢٠,٠٠٠	١٠,٥٪	١,٨١٥,٦٪
ليبيا	٦,١٧٣,٥٧٩	١٠,٠٠٠	٢٦٠,٠٠٠	٤,٢٪	٢,٥٠٠,٠٪
موريتانيا	٣,٣٦٤,٩٤٠	٥,٠٠٠	٣٠,٠٠٠	٠,٩٪	٥٠٠,٠٪
المغرب	٣٤,٣٤٣,٢١٩	١٠٠,٠٠٠	٧,٣٠٠,٠٠٠	٢١,٣٪	٧,٢٠٠,٠٪
الصومال	٩,٥٥٨,٦٦٦	٢٠٠	٩٨,٠٠٠	١,٠٪	٤٨,٩٠٠,٠٪
السودان	٤٠,٢١٨,٤٥٥	٣٠,٠٠٠	١,٥٠٠,٠٠٠	٣,٧٪	٤,٩٠٠,٠٪
تونس	١٠,٣٨٣,٥٧٧	١٠٠,٠٠٠	١,٧٦٥,٤٣٠	١٧,٠٪	١,٦٦٥,٤٪

المصدر:

Internetworldstats.com



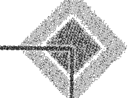
رصد اتجاهات مواقع الإنترنت في مصر والسعودية

رصد اتجاهات مواقع الإنترنت في مصر

م	الخدمة التي نرصدها	المواقع التي تضمنتها	نسبة
١	المواقع ما بعد التفاعلية	٢١ موقعًا	٪١٦
٢	المكتبة الصوتية	٢٠ موقعًا	٪١٥
٣	مواقع المحتوى الإعلامي	١٨ موقعًا	٪١٤
٤	المواقع الاجتماعية	١٢ موقعًا	٪٩,٢
٥	المواقع الأجنبية	١١ موقعًا	٪٨,٤
٦	الرياضة	١٠ مواقع	٪٧,٦
٧	مواقع المحتوى التقني الخدمي	٩ مواقع	٪٧
٨	مواقع الخدمات الترفيهية	٨ مواقع	٪٦,١
٩	مواقع محركات البحث العالمية	٨ مواقع	٪٦,١
١٠	مواقع الخدمات المحلية	٦ مواقع	٪٤,٦
١١	مواقع الشركات	٤ مواقع	٪٣
١٢	المواقع ذات المحتوى الإسلامي	٤ مواقع	٪٣
	الإجمالي	**١٣١**	**٪١٠٠**

رصد اتجاهات مواقع الإنترنت في المملكة العربية السعودية

م	الخدمة التي نرصدها	المواقع التي تضمنتها	نسبة المواقع
١	مواقع الخدمات المحلية	٤٦	٪٣٠
٢	المواقع الحكومية	٢٨	٪١٨
٣	المواقع الاجتماعية	٢٣	٪١٥
٤	مواقع المحتوى الإعلامي	١٧	٪١١
٥	المواقع ذات المحتوى الإسلامي	١٤	٪٩
٦	مواقع الشركات	١٠	٪٧
٧	الرياضة	٥	٪٣,٣
٨	المكتبات الصوتية	٣	٪٢
٩	مواقع المحتوى التقني الخدمي	٣	٪٢
١٠	مواقع الخدمات الترفيهية	٣	٪٢
١١	المواقع ما بعد التفاعلية	١	٪٠,٧
	الإجمالي	**١٥٣**	**٪١٠٠**



الباب الرابع

العالم الإسلامي







موقع المقاومة العراقية في الاستراتيجية الأمريكية الجديدة

د. خالد المعيني
رئيس مركز دراسات الاستقلال

ملخص الدراسة

انطلقت المقاومة العراقية في ظروف دولية غير مناسبة، خضع فيها العالم إلى أقوى دولة عظمى كقطب منفرد، ومهيمن يتحكم في تقرير مقدرات السياسة الدولية، ورغم الإمكانات البسيطة لهذه المقاومة إلا إنها استطاعت فرض نفسها، وتكبيد الاحتلال خسائر فادحة.

وكان للاحتلال الأمريكي تأثيره على طبيعة ومستويات الصراع في العراق؛ إذ أسفر عن تحول الوضع العراقي إلى بؤرة لتداخل عدة مستويات من الصراع دولية، وإقليمية، ومحلية في آنٍ واحد؛ من حيث المدى والعنف، وصار مآل الوضع في العراق محددًا لمستقبل المنطقة برُمتها، ونقطة حاسمة في تحوّل منحنى وتراتبية القوى في النظام السياسي الدولي برُمّته.

لقد شكّلت الانطلاقة السريعة لعمليات المقاومة العراقية منذ الأيام الأولى للاحتلال العقبة الأساسية، أمام المخططات الأمريكية، ونجحت في إفشال وتعطيل وتفكيك الصفحات السياسية، والاقتصادية والاجتماعية للاستراتيجية الأمريكية الشاملة، وذلك بعد أن كبّدت قوات الاحتلال وعملاءه، في فترة قياسية، خسائر بشرية ومادية فادحة.

وحققت فصائل المقاومة العراقية في المرحلة السابقة إنجازات ونجاحات على المستوى الاستراتيجي، سواء أكانت منظورة أم غير منظورة، ليس فقط على المستوى العسكري، بل على المستويين السياسي والمعنوي، وهي الآن تدشّن المرحلة الجديدة للصراع مدعومة بعوامل قوة دافعة للأمام.

ويمكن تصنيف النظرة إلى موقع المقاومة العراقية في الاستراتيجية الأمريكية إلى مرحلتين: الأولى شملت ثلاث استراتيجيات تمتد منذ عام ٢٠٠٣م إلى عام ٢٠٠٦م وهو العام الذي شكّل متغيرًا كبيرًا في تراكم عمل المقاومة، وتأثيرها على الاحتلال بعدما وصل حجم العمليات والخسائر الأمريكية حدًّا غير متوقع.

ومع تكسر الاستراتيجيات الثلاث الأولى على جدار المقاومة العراقية؛ لجأ الاحتلال إلى الاستراتيجية الأخيرة المسماة «الطريق الجديد – إلى الأمام». والتي حظيت باهتمام خاص من قِبل الإدارة الأمريكية بدعوى تحقيقها الأهداف المتوخاة منها، رغم أن تقرير مكتب المحاسبة التابع للحكومة الأمريكية أكد أن الفشل الذريع كان مصير هذه الاستراتيجية كسابقاتها، وهو الأمر الذي يطرح أسئلة غاية في الخطورة تمسّ مستقبل العراق من مثل: ماذا بعد؟ وكذلك إلى أين يسير العراق؟



موقع المقاومة العراقية في الاستراتيجية الأمريكية الجديدة

د. خالد المعيني
رئيس مركز دراسات الاستقلال

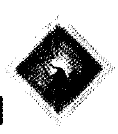
المحتويات:

أولاً: المقدمة:

يُعدّ نموذج المقاومة العراقية ذا خصوصية، إذا ما تمت مقارنته بنماذج حركات التحرر الوطنية التي شاهَدَها عالمنا المعاصر في البلدان التي خضعت للاحتلال الأجنبي، ولا يأتي هذا التفرد من أن هذه المقاومة انطلقت في ظروف دولية غير مناسبة، خضع فيها العالم إلى أقوى دولة عظمى كقطب منفرد، ومهيمن يتحكم في تقرير مقدرات السياسة الدولية، وبالتالي غياب أيّ دولة حاضنة لها، كما حصل في معظم تجارب المقاومة العالمية لدعم أعمال هذه المقاومة، أو أن تشكّل لها عمقًا سياسيًّا وعسكريًّا وماديًّا وإعلاميًّا.

إنّ هذا التميز لا يأتي من تلك الإمكانات البسيطة، مقارنة بما يملكه العدو من تفوق كامل، وحيازته لأعتى وأعقد صنوف الأسلحة، معززًا بالدعم التكنولوجي والفضائي والاستخباراتي من قبل عدة أطراف سانِدَة لمشروعه محليّة وإقليمية ودولية، بل إنّ هذا التميز ينبع من قدرة هذه المقاومة على فرض نفسها، رغم كل هذه العناصر السلبية؛ وسط سيطرة تامة للاحتلال على مستوى التضليل والإعماء الإعلامي، ومحاولته التقليل من شأن هذه المقاومة، والإيحاء بهامشيتها، ولصق مختلف التُّهَم بها، بقصد تقليص الدعم لها، وحَجْب الحاضنة الشعبية لها.

وفي هذه الدراسة يحاول الباحث من خلال دراسة طبيعة الصراع، وتحليل نتائج الاستراتيجيات الأمريكية في العراق، وآخرها استراتيجية (الطريق الجديد- إلى الأمام) تلُّمس عناصر تأثير المقاومة العراقية من خلال التأثير الناجم عن فشل صفحات الاستراتيجيات الأمريكية المتتابعة، وبكافة أبعادها العسكرية والاقتصادية والسياسية، هذا الفشل يمثّل انعكاسًا واضحًا لمدى تأثير عمليات فصائل المقاومة العراقية على مدى سنين المنازلة.



ثانيًا: طبيعة ومستويات الصراع في العراق

دشّنت الولايات المتحدة الأمريكية بغزوها للعراق في آذار ٢٠٠٣م -الذي استوفى كافة أركان العدوان- عهدًا جديدًا في نمط العلاقات الدولية، ضربت فيه بكافة تطورات ومؤسسات النظام السياسي الدولي التي سادت القرن الماضي عرض الحائط، وأعادته إلى عصر القوة وشريعة الغاب، كما ورد تمامًا في نظرية (هوبس) للقوة.

توالدت جرّاء هذا الغزو، وتداخلت عدة مستويات من الصراع، وانتظمت بمصفوفة رياضية لا يمكن التنبوء باحتمالاتها، فمن النادر في تاريخ العلاقات الدولية أن يشكل صراعٌ ما بؤرةً لتداخل عدة مستويات من الصراع في آنٍ واحد؛ من حيث المدى والعنف، كتلك التي تحصل حاليًا في العراق.

دشّنت الولايات المتحدة الأمريكية بغزوها للعراق في آذار ٢٠٠٣م -الذي استوفى كافة أركان العدوان- عهدًا جديدًا في نمط العلاقات الدولية

ويمكن -لأغراض منهجية- أن نقسم هذه المصفوفة إلى ثلاثة مستويات، وهي حتمًا ليست معزولة عن بعضها، ومتداخلة مع بعضها في بعض الحالات إلى حدّ التماهي:

أ- المستوى الدولي للصراع.
ب- المستوى الإقليمي للصراع.
ج- المستوى المحلي للصراع.

ويُعدّ ذلك نموذجًا حريًّا بالباحثين أن يدرسوه، ومجالاً رحبًا للتأمل والتعمق فيه. فما سيؤول إليه الوضع في العراق لن يحدد نمط الحكم الذي سيسود، أو حتى مستقبل العراق كدولة فقط، بل سيصبغ شكل المنطقة برمتها، ويترك أثرًا فاعلاً ليس على التوازنات الإقليمية السائدة، ولكنه سيمثل نقطة ومفصلاً محوريًّا حاسمًا في تحوّل منحنى وتراتبية القوى في النظام السياسي الدولي برُمّته، وسيكون بقاء الولايات المتحدة كقطب أوحد على قمة الهرم السياسي الدولي رهنًا بنتائج الصراع الدائر في العراق واحتمالاته.

المستوى الدولي للصراع:

يتعلق هذا المستوى بطبيعة التنافس الذي أعقب انهيار الاتحاد السوفييتي بين الأقطاب الدولية الرئيسة؛ سواء منها التي تغرب شمسها، أو الأقطاب البازغة التي تتطلع إلى القمة، وما يمثله العراق في معترك هذا التنافس؛ حيث يتربع على أكبر احتياطي للبترول في العالم، سيستمر إنتاجه طيلة القرن الحادي والعشرين [1].

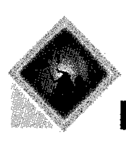
لقد شكّل انهيار الاتحاد السوفييتي بلا شك نصرًا استراتيجيًّا وتاريخيًّا للولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها، ولكنه في نفس الوقت دشّن بداية مأزق لها، فقد رافق هذا النصر -لسوء حظ الولايات المتحدة، وربما من حسن حظ العالم- فقدان في التوازن؛ نتيجة هوس وفلسفة المحافظين الجدد بالقوة العسكرية، واعتمادها عاملاً رئيسًا ووحيدًا في السياسة الخارجية الأمريكية.

مثّلت السنوات الأولى التي أعقبت حرب الخليج الثانية عام ١٩٩٠م قمة التفرد الأمريكي بمقدرات العالم، فقد تمكنت من حشد أكثر من ٣٠ دولة لضرب العراق، وتحولت الأمم المتحدة إلى مكتب ملحق بدوائر وزارة الخارجية الأمريكية، وأصبح النظام السياسي الدولي أقرب إلى القطبية الأحادية الصلبة، يسوده الانضباط والانصياع الكامل لأوامر الولايات المتحدة.

ويمكن ملاحظة ذلك من خلال إلقاء نظرة على عدد، وكثافة، وطبيعة القرارات التي أصدرها مجلس الأمن في مطلع عقد التسعينيات، مقارنة بعددها، وكثافتها طوال حقبة الحرب الباردة، إلاّ أن تحوُّلاً طرأ على طبيعة مواقف الأقطاب الصاعدة، والتي تعدّ نفسها للتنافس على قمة الهرم الدولي، من خلال اتخاذ مواقف أكثر استقلالية إزاء الولايات المتحدة الأمريكية.

---

(١) حمدان حمدان، حرب بوش الديمقراطية بين خسارة اليوم المبكر أو كارثة الغد المتأخر، دار الخيال للطباعة والنشر، لبنان سنة ٢٠٠٧م، ص١٧.



لقد توهمت الولايات المتحدة الأمريكية، من خلال نصرها السريع والمزيف باحتلال العراق، أنها ستحقق بأبخس ثمن ثلاثة أهداف استراتيجية تمثلت في:

- السيطرة المباشرة على أكبر خزين للنفط في العالم، والتحكم بعصب الطاقة في القرن الحادي والعشرين، وقطع الطريق على بقية الأقطاب المنافسة.
- إزالة العراق كقوة مادية بشرية متوازنة من معادلة الصراع العربي – الإسرائيلي.
- إعادة تشكيل منطقة الشرق الأوسط على وفق الرؤية الأمريكية، والبدء بالعراق كنموذج.

إنّ خطورة بقاء الحال على ما هو عليه في معادلة الصراع الدائر في العراق؛ يعني، في كل يوم على مستوى الصراع الدولي، استنزافًا وخسارة استراتيجية للولايات المتحدة الأمريكية إزاء تنافسها الدولي، فهي تدرك -وكذلك العالم- أنها باتت أعجز من أن تستطيع معالجة أو التعامل مع أيّ خطر، أو تهديد استراتيجي ثالث قد تتعرض له الولايات المتحدة الأمريكية، فالقوى الرئيسة المنافسة، وكثير من الدول لا تبدو فقط مرتاحة، بل تساهم بشكل أو بآخر باستنزاف الثور القوي الهائج إلى أن تخور قواه، وتتعمد عدم مدّ يد المساعدة لإنقاذ القوة العظمى من المستنقع الذي أغرقت نفسها فيه، رغم طلب الأخيرة ذلك مرارًا إلى حد الاستجداء؛ لأن هذا الوضع من الناحية الواقعية يعني عمليًا كسبًا استراتيجيًا مجانيًا لبقية القوى دون عناء، وربما يفسر هذا ما يدور في أمريكا اللاتينية وتصريحات قادتها من أن الدبابة الأمريكية التي تُحرَق في شوارع بغداد كأنها أُحرقت في (كرا كاس)، وكذلك يفسر انتفاضة روسيا ودورها لاستعادة مجالها الحيوي السابق في أوروبا، وإعادة تنشيط جذوة سباق التسلح.

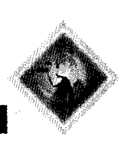
ب: المستوى الإقليمي للصراع:

شكّل العراق على الدوام؛ بثرواته وموقعه الجيوبولتيكي المتميز، مسرحًا لأطماع الشعوب المحيطة به، والتي تسكن الهضاب والجبال والصحاري الجرداء، فإيران التي كانت عبر التاريخ بلاد عيلام وفارس لم تنفك يومًا تستطيع أن تمنع نفسها من النظر إلى العراق. وأدى العراق عبر تاريخه وظيفتين: الأولى كان فيها حجر الزاوية في توازن المنطقة برمتها؛ فكلما كان قويًا توازنت المنطقة ما بين شرق جبال زاكروس وغربها، وكلما كان ضعيفًا أصبح منطقة تخلخل في الضغط، وتنافست تركيا وإيران أيهما يكون العراق مجاله الحيوي. الوظيفة الثانية أن العراق كان بمثابة مصدر يحمي الجناح الشرقي للوطن العربي من النفوذ الفارسي.

أدى انهيار العراق بهذه الطريقة التي أزالت أية مقومات للدولة والنظام إلى إحياء الإطماع الإيرانية وإيقاظها، وإن لبست هذه الأيام لبوس الدين والطائفية، وإلى انكشاف الأنظمة العربية الهشة التي ساهمت بغباء وتآمر شديدين في انهيار النظام السياسي في العراق، الذي كان -في أسوأ حالاته- بمثابة جدار عازل وسدّ صادّ يحميهم من النفوذ الإيراني.

بعد خسارتها الحرب أمام العراق في حرب الخليج الأولى في عقد الثمانينيات من القرن الماضي، استثمرت إيران في عقد التسعينيات انشغال المجتمع الدولي بحصار العراق بعد غزو الكويت؛ لبناء ترسانة أسلحة، وتطوير البرنامج النووي، مستغلة تفكك جمهوريات الاتحاد السوفييتي، وشراء مصانع ومواد، وعلماء ذرة من هذه الدول التي باتت بحاجة ماسة للمال، ثم جاءت المرحلة الأخطر، وهي تورط الولايات المتحدة الأمريكية في العراق، ودعمها للأحزاب الطائفية الإيرانية في العراق، الأمر الذي أعطى إيران نفوذًا مضاعفًا لتحييد موقف الولايات المتحدة، وإجبارها على الاعتراف لإيران بدور ونفوذ إقليمي.

الأمر الذي بدت فيه الولايات المتحدة أعجز من أن تحُدّ من التعاظم المضطرد للتهديد الإيراني، ليس إزاء دول الخليج الضعيفة بل امتداد قدرة إيران وذراعها الضارب ليطال خاصرة إسرائيل مباشرة من خلال حركات وأحزاب مقاتلة تحظى بدعم مادي وبتكنولوجيا



صواريخ، باستطاعتها أن تدكّ العمق الإسرائيلي، أو أكثر من ذلك مستقبلاً [٢].

أمّا بالنسبة إلى تركيا فلا يمكنها إغفال وجود ملفين يعدان الأخطر، ويمسان جوهر أمنها القومي، وهي تنظر من خلالهما إلى الشأن العراقي:

الملف الأول: يخص الأكراد، والثاني يخص قضية كركوك. فيما يخص الأكراد فإنها تنظر بحذر وريبة شديدين إزاء تعاظم استقلاليتهم في العراق، وما يمثله ذلك من تهديد مباشر لمستقبل تركيا الموحدة.

الملف الثاني: الذي يحظى بأهمية استثنائية لدى الأتراك هو قضية كركوك ذات الأغلبية التركمانية، والتي تعرضت منذ الاحتلال إلى عملية (تكريد)، وكُرّس ذلك في الدستور من خلال نص يمهّد لضمها إلى إقليم كردستان، مما يعطي أرجحية جغرافية واقتصادية، ويقوي دعائم الانفصال؛ حيث تمثل كركوك عصب الطاقة بالنسبة للمنطقة الشمالية، ففيها ١٢٪ من خزين العراق النفطي [٣].

ج: المستوى المحلي للصراع:

رسمت إدارة الاحتلال حال دخولها إلى العراق ملامح الصراع المحلي على شكل مرحلتين: تمثلت المرحلة الأولى في إصرار هذه الإدارة، سواء أكان ذلك بنية مسبقة -وهو المرجح- أو بغباء وتخبط على إلغاء وإزالة كافة صمامات الضبط الاجتماعي، وتفكيك المؤسسات السيادية للدولة العراقية؛ من خلال إلغاء الجيش العراقي والشرطة، وأجهزة الأمن والمخابرات، وفتح المجال لأوسع عملية نهب وسرقة لكافة المؤسسات الحكومية، والوزارات والآثار والمكتبات الوطنية، عدا وزارة النفط!!

وعلى الرغم من ذلك كله لم يشهد المجتمع العراقي، ولمدة سنة كاملة حتى حزيران ٢٠٠٤م، ورغم غياب أية حكومة أيّ حادث مسجل لانتقامات طائفية أو مذهبية، وخاصة في بغداد المختلطة، ويُعدّ ذلك دليلاً لا يقبل الدحض على زيف ادعاءات الاحتلال وعملائه من وجود احتقانات وثارات، وانقسامات طائفية حادة في عمق نسيج الشعب العراقي.

ويقف وراء ذلك التماسك الوطني أسباب موضوعية وتاريخية، فطبيعة المجتمع العراقي وجذوره لا تزال ريفية وعشائرية متداخلة، ومتصاهرة منذ مئات السنين، بغض النظر عن الانتماء الطائفي أو القومي، فتجد على سبيل المثال قبيلة طي، وهي أكبر قبيلة عربية في العراق تتكون من ٧٩ عشيرة يقطن أكثر من نصف أفرادها في الجنوب، ثم تمتد إلى الوسط صعودًا إلى الموصل.

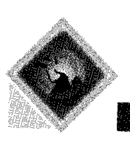
> شكّلت الانطلاقة السريعة لعمليات المقاومة العراقية منذ الأيام الأولى للاحتلال العقبة الأساسية، والتي لم تكن في حسبان المخططين

اضطرت إدارة الاحتلال بعد أن توسعت دائرة المقاومة مطلع عام ٢٠٠٤م إلى أن تباشر بالمرحلة الثانية، والتي مثلت وصفة جاهزة لإثارة العنف، وتأجيج الصراع الطائفي والعرقي من خلال تصنيع وغرس قواعد لعبة سياسية، هي مولّد ومحرّك حقيقي للصراع، وذلك من خلال تكريس مبدأ المحاصصة الطائفية والعرقية كأساس يحكم الدستور والبرلمان والحكومة، وتم اعتماد معيار مزدوج ومصطنع لتقسيم العراقيين: (قومي عنصري - مذهبي طائفي)، وذلك لتحفيز الحسّ الطائفي والعرقي، ووضع القوميات والطوائف أمام بعضها البعض، وإثارة الاحتقان والصراع على السلطة والثروة.

ولغرض تدعيم هذه الماكينة استعانت دوائر الاحتلال بطاقم فاسد من طبقة سياسية ليست لديها أية جذور في العراق، تم استئجارها من أصقاع الأرض، لبس بعضها عمائم وعباءات من كافة الألوان؛ بغية تحريك النعرات الطائفية، في حين لبس البعض الآخر رداء الليبرالية والديمقراطية الزائفة، وكانت فِرَق الموت والقتل والإبادة الجماعية، من هذا الطرف أو ذاك، الوقود اللازم لبدء

(٢) عبد الكريم العلوجي، إيران والعراق صراع حدود أم وجود؟ الدار الثقافية للنشر، القاهرة، سنة ٢٠٠٧م، ص ١٦٧.

(٣) إيدن اقصو، كركوك.. صراع النفط ورحلة البقاء، مؤسسة المختار للنشر، بغداد، سنة ٢٠٠٧م، ص٣٩.



الحركة، ومحاولة تعميق الصراع والانقسام؛ لكي يصل عمقَ النسيج الاجتماعي، والذي صمد طويلاً، ولم يُستدرَج إلى أتون هذا التقسيم المصطنع والزائف (٤).

ثالثًا: تقييم وضعية فصائل المقاومة العراقية

لم تكن المقاومة العراقية بدعة بين نظيراتها فيما عُرف من تاريخ الحروب، فحيثما وُجد الاحتلال فثمة مقاومة، وهي لا تنشأ إلا حين يحتل أجنبيٌّ إقليمَ شعب، ولولا الاحتلال ما عرفنا المقاومة، وهي وسيلة الشعب المضطهد في انتزاع استقلاله، ولا تشكل عدوانًا ضد أحد، إنما تُعد بمثابة الدفاع عن النفس (٥).

لقد شكّلت الانطلاقة السريعة لعمليات المقاومة العراقية منذ الأيام الأولى للاحتلال العقبة الأساسية، والتي لم تكن في حسبان المخططين، ونجحت في إفشال وتعطيل وتفكيك الصفحات السياسية، والاقتصادية والاجتماعية للاستراتيجية الأمريكية الشاملة، وذلك بعد أن كبّدت قوات الاحتلال وعملاءه، في فترة قياسية، خسائر بشرية ومادية فادحة (٦)، فلا شك أن النجاح الذي حققته فصائل المقاومة العراقية تجسّد في القدرة على شلّ إرادة العدو، وتحطيم معنوياته من خلال استنزافه، وإنهاك قوته يوميًّا، ولعل الإنجاز الأكبر الذي تحقّق في بداية الصراع هو كسر حاجز الخوف النفسي الناجم عن تفوق وسمعة الولايات المتحدة، ومن ثم تحقيق التوازن، وكسر إرادته، وتحطيم معنويات جنوده.

إن الاستنزاف المعنوي لقوات الاحتلال قد بدأ يفعل فعله، وإن الإنهاك قد طال إدارته وقيادته، وعندما يبدأ الانقسام في مركز قراره السياسي، ويشتد الرأي العام ضد الحرب في عقر دار المحتل حول قيمة ومدى شرعية هذه الحرب، فإن ذلك من أهم الإشارات على نجاح تأثير المقاومة.

من الواضح أن فصائل المقاومة العراقية قد حقّقت في المرحلة السابقة إنجازات ونجاحات على المستوى الاستراتيجي، سواء أكانت منظورة أو غير منظورة، ليس فقط على المستوى العسكري، بل على المستويين السياسي والمعنوي، وهي تدشّن المرحلة الجديدة للصراع مدعومة بعوامل قوة دافعة للأمام (٧)، فقد يتوهم البعض

(٤) محمد العرب، ما لم يذكره بريمر في كتابه، مكتبة مدبولي، القاهرة، سنة ٢٠٠٧م، ص٧٣.

(٥) خليل إسماعيل الحديثي، تنازع المشروعية بين الاحتلال والمقاومة في العراق، عمان، الأردن، سنة ٢٠٠٥م، ص٣٠.

(٦) حصيلة القتلى من الجيش الأمريكي التي تنشرها وزارة الدفاع غير حقيقية، ويتم التلاعب بها لأغراض التحكم بالرأي العام الأمريكي وتضليله، ويأتي عدم الكشف عن الحجم الحقيقي للخسائر الأمريكية بحجة عدم إعطاء رسالة إلى العدو (المقاومة العراقية) بأنها تحقق انتصارات، والمعطيات الحقيقية لعدد القتلى الأمريكيين إذا ما أخذنا أعداد غير الحاملين للجنسية الأمريكية، والمتعاقدين والمرتزقة، والشركات الأمنية؛ فإن المعلن لا يشكل سوى ٢٠٪ من العدد الحقيقي مع أكثر من خمسين ألف جريح ومعوق حرب، جراء إحصائية جمعية المحاربين القدامى الأمريكية، عدا تزايد أعداد الهاربين من الخدمة العسكرية والمنتحرين.

(٧) يمكن وضع العمليات العسكرية لفصائل المقاومة العراقية ضد قوات الاحتلال الأمريكي تحت أربعة أصناف بعد عمليات التوحيد التي شهدتها هذه الفصائل في الأشهر الأخيرة:

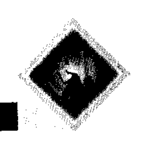
أ- مجلس شورى المجاهدين، والذي تأسس في يناير ٢٠٠٦م ويضم سبعة تنظيمات مسلحة هي: القاعدة، جيش الطائفة المنصورة، سرايا الجهاد الإسلامي، كتائب الأهوال، سرايا أنصار التوحيد، سرايا الغرباء، والتحق بالمجلس لاحقًا جيش أهل السنة والجماعة، أعلن هذا المجلس عن قيام الدولة الإسلامية في العراق.

ب- جبهة الجهاد والإصلاح: تأسست في مايو عام ٢٠٠٧م، وتضم أربعة فصائل، هي: الجيش الإسلامي، وجيش المجاهدين، والهيئة الشرعية في جيش أنصار السنة، وجيش الفاتحين، وأعلنت هذه الجبهة مع حركة المقاومة الإسلامية (حماس)، والجبهة الإسلامية للمقاومة العراقية (جامع)، المجلس السياسي للمقاومة العراقية.

ج- جبهة الجهاد والتغيير: تأسست في أيلول ٢٠٠٧م، وتشكلت من ثمانية فصائل مسلحة: كتائب ثورة العشرين، جيش الراشدين، جيش المسلمين، الحركة الإسلامية لمجاهدي العراق، سرايا الدعوة والرباط، سرايا جند الرحمن، سرايا التمكين، كتائب محمد الفاتح.

د- الفصائل الوطنية وتتراوح هذه الفصائل ما بين القيادة الموحدة للجهاد والتحرير، والتي أعلنت من قبل حزب البعث -جناح عزت الدوري في أيلول ٢٠٠٧م، والمكونة من ٢٢ فصيل: أهمها جيش رجال الطريقة النقشبندية، وكذلك القيادة العامة للقوات المسلحة التي توحدت من ثلاث قيادات عامة سابقة، وتمثل فصائل وطنية عسكرية مستقلة.

عدا برنامج الدولة الإسلامية الذي يتزعمها تنظيم القاعدة، والذي لا يحظى بقبول معظم العراقيين، ويتخذ من العراق ساحة معركة، وتتجاوز أهدافه خارطة العراق، فإن الأصناف الثلاثة الباقية، والتي تتراوح ما بين إسلامي سلفي وطني (الصنف ب)، والذي استطاع من خلال المجلس السياسي المزاوجة مع الفكر الإخواني الذي تمثله (حماس) و(جامع)، وإسلامي معتدل وطني (الصنف ج)، ووطني (الصنف د)، متفقة جميعًا على استقلال العراق، وقيام دولة حديثة، بل إنّ جبهة الجهاد والتغيير التي تعد هيئة علماء المسلمين بزعامة الشيخ الدكتور حارث الضاري مرجعيتها الشرعية الوطنية، التي تحظى بثقل رمزي ونوعي كبير، ليس في أوساط المقاومة العراقية فقط، بل في عموم العراق والبعدين العربي والإسلامي، تذهب أبعد من ذلك في أنها تؤمن بأن صناديق الاقتراع هي الوسيلة الوحيدة لاختيار الحاكم، وأن ممثلي الشعب العراقي ليسوا فقط رجال المقاومة، والقوى السياسية المناهضة للاحتلال، بل كافة شرائح وكفاءات الشعب العراقي. ومن=



أنّ تقلّص حجم العمليات العسكرية ضد الاحتلال بمثابة علامة ضعف، إلاّ أنّ معطيات الأرض تؤكد عبور تجربة المقاومة الميدان العاطفي، وكثرة الأخطاء والأضرار التي لصقت بها؛ جرّاء تراكم انحرافات التنظيمات المتطرفة، ويمكن تلخيص مؤشرات وعوامل هذه القوة كما يلي:

١- يمكن أن نعزو أحد أهم أسباب نجاح المقاومة في العراق إلى ذلك الغموض واللا يقين الذي اكتنف عملياتها، وقيادتها وعدد فصائلها، طيلة المرحلة السابقة، وجعل من شدة ضرباتها وعملياتها على الأرض أفضل ناطق وممثل يعبّر عنها. وفي خِضَم تلك المرحلة التي كانت أبعادها عسكرية صرفة، كان للباحث والمراقب أن يعد أكثر من مائة راية وعنوان تنفّذ تحتها العمليات العسكرية، ثم بلغ العدد نهاية المرحلة السابقة إلى ثلاثين فصيلاً رئيسًا لتحصل الانتقالة الأهم في توحد جميع الفصائل تحت ثلاث جبهات رئيسة، وهي قاب قوسين أو أدنى للتوحد جميعًا في مجلس سياسي موحد للمقاومة.

> يمكن أن نعزو أحد أهم أسباب نجاح المقاومة في العراق إلى ذلك الغموض واللا يقين الذي اكتنف عملياتها وقيادتها وعدد فصائلها

٢- نجاحها في الفرز فيما بينها وبين الفصائل ذات التوجهات المتطرفة، أي الفرز ما بين المقاومة وبين ما يسمى (بالإرهاب)، وفي الوقت الذي تعد دوائر الاحتلال والتابعون له أن انحسار دور هذه المجموعات المتطرفة انتصارًا لهم؛ فإن الحقائق والوقائع تشير إلى أن هذه المجموعات المتطرفة قد فقدت حاضنتها، ليس بسبب دور القوات الأمريكية، وإنما بسبب تنامي رفض الكثير من فصائل المقاومة والعشائر لمشاريع هذه المجموعات، وإعلانها دولة إسلامية كنوع من الإقرار بتقسيم العراق، وتراكم أخطائها تجاه الكفاءات والشخصيات الاجتماعية والدينية والعلمية، إضافة لتصفيتها لكثير من قيادات ورموز المقاومة.

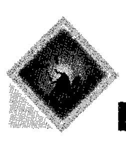
والنتيجة هي حرمان الاحتلال من إحدى وسائله في خلط المقاومة بالإرهاب، وكذلك فإن من المتوقع أن ينخرط معظم مقاتلي هذه المجموعات في صفوف باقي فصائل المقاومة، التي لا تزال تحظى بدعم وحاضنة شعبية.

٣- بعد وصول التعزيزات العسكرية الأمريكية إلى مرحلة الذروة، وعدم تحقيقها سوى نجاحات محدودة ومؤقتة، هي طبيعية في نوبات الكرّ والفرّ لحروب التحرير الوطنية، وحروب العصابات، فالقدرة على قطع التماس مع العدو، وليس إدامة التماس هي واحدة من أهم ملامح نجاح حروب التحرير وحرب العصابات، فهذه المجموعات الصغيرة التي تتصرف كبقعة زئبقية، تختفي أو تظهر في هذه المنطقة أو تلك في الزمان والمكان الذي تحدّد، الأمر الذي دفع قادة وجنرالات الاحتلال إلى الإقرار بالعجز والإنهاك والجهد.

ومع تفكك التحالفات والتكتلات الطائفية التي استعان بها الاحتلال طيلة المرحلة السابقة، يبدو أن فصائل المقاومة قد أعدت نفسها طبقًا لقواعد اللعبة الصفرية (Zero-game) بمعنى المراهنة على الوقت والاستنزاف ليفعل فعله، فهي لا تحتاج طبقًا لمقتضيات الحال سوى إلى ٢٪ من الشعب لحمل السلاح، خاصة وأن عمودها الفقري هو من ضباط ومراتب الجيش العراقي، وفنيّي التصنيع العسكري ذوي الخبرة والتمرس في قتال القوات الأمريكية والإيرانية، مضافًا إلى ذلك عامل بشري ديموغرافي في صالح المقاومة العراقية، يتلخص في أن نصف الشعب العراقي هم من فئة الشباب، فالجيل الذي كان في بداية الاحتلال عمره عشر سنوات، أصبح الآن في سن الخامسة عشرة.

٤- يعيش جنوب العراق حاليًا نوعًا من الغليان المتصاعد، سيفضي حتمًا -لمن يعرف طبيعة الجنوب-

* المتوقع قريبًا أن تتوحد هذه الجبهات ذات البعد الإسلامي الوطني في مجلس واحد للمقاومة، وتختلف حاليًا في أمور ليست جوهرية من قبيل من هو العدو الأول، والأكثر خطرًا على مستقبل العراق، النفوذ الإيراني أم احتلال الولايات المتحدة، وكذلك في النظرة إلى جدوى الانخراط، أو المناورة في دخول العملية السياسية الجارية.



إلى ثورة، ورغم التعتيم الإعلامي حول عدد العمليات ضد مواقع الاحتلال، وهي في حالة تزايد، لاسيما بعد انكشاف زيف وخداع رجال الدين والأحزاب ذات التوجهات السياسية الطائفية؛ الذين عملوا جاهدين في المرحلة السابقة على تهدئة، وتسكين هذه المنطقة، إضافة إلى اندلاع صراع عميق ما بين هذه الأحزاب الدينية وعصاباتها على السلطة والثروة، وخاصة تهريب النفط.

٥- شكّلت المرحلة السابقة نموذجًا لفشل الحكومات الاحتلالية المتعاقبة وفسادها، ووصول الشعب العراقي إلى دون مستوى مقومات العيش الإنساني، الأمر الذي سيهيئ الأرضية المناسبة لتقبل أيّ برنامج سياسي وطني موحّد تطرحه فصائل المقاومة العراقية، والقوى والشخصيات السياسية المناهضة للاحتلال، كبديل للاحتلال والقوى السياسية القادمة معه.

رابعًا: موقع المقاومة العراقية في الاستراتيجية الأمريكية

تبنت الولايات المتحدة الأمريكية منذ بداية غزوها للعراق استراتيجية محكمة في تداول المعلومات تقوم على أساس حرمان العدو (المقاومة) من أيّ شعور بتحقيق الانتصار، وذلك من خلال سياسة إعلامية مدبَّرة نجحت من خلالها، في بداية الأمر، في تضليل الرأي العام الأمريكي حول حقيقة ما يجري في العراق.

شكّل انبثاق عمليات فصائل المقاومة العراقية، وتصاعد تأثيرها وشدتها ابتداءً من منتصف ٢٠٠٣م وضعًا محرجًا لتبرير الأعداد المتزايدة من القتلى والجرحى في صفوف الجيش الأمريكي. وللتقليل من شأن عمليات المقاومة دأبت الماكينة الإعلامية الأمريكية على عدم الاعتراف -بأيّ حالٍ من الأحوال- بوجود مقاومة مسلحة للشعب العراقي، وإنما أطلقت عدة صفات على العمليات المسلحة ضد قواتها، كان القصد منها إضفاء طابع طائفي، أو مناطقي لهذه العملياتز

ولغرض الدراسة النظرية يمكن تصنيف النظرة إلى موقع المقاومة العراقية في الاستراتيجية الأمريكية إلى مرحلتين:

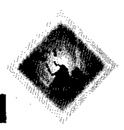
المرحلة الأولى (٢٠٠٣- ٢٠٠٦م)

ففي المرحلة الأولى عزت العمليات المسلحة ضدها في البداية إلى (أزلام النظام السابق، والمتضررين، وفدائيي صدام)، وبعد معركة الفلوجة الأولى في نيسان ٢٠٠٤م، والتي شكّلت مفصلاً خطيرًا في تطور عمل المقاومة العراقية؛ مُنِيَت من خلالها القوات الأمريكية بهزيمة قاسية اضطرتها إلى التفاوض مع ممثلي المقاومة، كما اضطرت معه إدارة الاحتلال إلى إطلاق مصطلح (المثلث السني) في إشارة إلى المحافظات الساخنة التي اشتعلت فيها المقاومة: كالرمادي، والموصل، وصلاح الدين، والحقيقة أنّ العمليات كانت تتم في أكثر من منطقة ومحافظة عراقية، ولكن بشكل متفاوت.

بعد تزايد نشاط تنظيم القاعدة، والذي لا يشكل سوى ٥٪ من فصائل وتنظيمات المقاومة العراقية، أضفت إدارة الاحتلال صبغة تنظيم القاعدة على عمليات المقاومة العراقية في محاولة لخلط الأوراق أمام الشعب العراقي، ودمج الإرهاب بالمقاومة.

شكّلت سنة ٢٠٠٦م متغيرًا كبيرًا في تراكم عمل المقاومة، وتأثيرها على الاحتلال؛ فقد شكّل حجم العمليات والخسائر الأمريكية حدًّا غير متوقع، ويذكر كل من جيمس بيكر ولي هاملتون[٨] في تقريرهما أنّ اللجنة المشكّلة لدراسة الحالة في العراق دققت في أحد أيام تموز ٢٠٠٦م عدد العمليات المسلحة ضد القوات الأمريكية؛ فتم تزويدها بعدد العمليات والبالغ ٩٣

(٨) نشأت لجنة بيكر- هاملتون لتقييم الوضع في العراق بصفة مستقلة، بطلب من قبل الحزبين الجمهوري والديمقراطي، ووافق أعضاء الكونجرس بالتشاور مع الإدارة الأمريكية على أن لدى كلّ من وزير الخارجية الأمريكي السابق الجمهوري جيمس بيكر، وعضو الكونجرس السابق الديمقراطي لي هاملتون المعرفة الواسعة في الشئون الخارجية المطلوبة لتولي رئاسة هذا الجهد المشترك بين الحزبين، وتم استشارة أكثر من ١٨٣ مسئولاً من كبار القادة العسكريين والميدانيين وكبار السياسيين المسئولين عن قضية العراق. انظر نص تقرير لجنة بيكر هاملتون حول العراق، ترجمة صبحي الجنابي، مكتبة دار طلاس، سنة ٢٠٠٧م.



عمليــة ، إلا أن اللجنة جمعت كافة عمليات هذا اليوم، فتوصلــت إلى أن عدد العمليات والهجمــات على القوات الأمريكية في ذلك اليوم قد بلغ ١١٠٠ عملية. هذا الفارق هو ما تحاول الإدارة الأمريكية بإصرار إخفاؤه، والأمر كذلك فيما يتعلق بحجم خسائرها المادية والبشرية.

يذكر التقرير كذلك أن ١٠٠ أمريكي يموتون كل شهر، وأن معظم الوحدات العسكرية الأمريكية واقعة تحــت ضغط نفســي كبير، وطُلِب من الرجال والنســاء في الخدمة العســكرية، وكذلك عائلاتهم، أن يقدموا التضحيات الكبيرة.

مــن خلال دراســة توصيات تقرير هــذه اللجنة -ويعد تقريرهــا الأكثــر رصانة لتقييم الأوضــاع في العراق في المرحلــة الأولى مــن الصراع الدائر في العــراق- يمكننا عندئذ تلُّمس تأثير العمل المسلح، والذي يسميه المؤلفان (المتمردين، الميليشيات) كانعكاس على حجم الخسائر والشعور في طيات التقارير الأمريكية.

لغــرض تعميق البحــث في موقع المقاومــة العراقية في الاســتراتيجية الأمريكيــة للمرحلــة الأولى لا يمكــن إغفال دراســة مهمة وشــاملة صدرت تحت عنوان (خطة عملية للانســحاب من العــراق الآن) لكل من الدكتور جورج ماكغفــرن، والدكتور وليام بولــك[9] وفيما يلي بعض التوصيات التي وردت في هذه الدراسة:

١ - إذا لم تنسحب الولايات المتحدة من العراق، فالحرب ستســتمر، وهذا يعــني أنّ أكفان الجنــود القتلى وأفراد الجيش المصابين سيستمرون بالتدفق على أمريكا.

٢ - مــا دام الأجانب في البلاد؛ فــإن الأهالي الوطنيين سيواصلون كفاحهم حتى يخرج الأجنبي، مهما كانت القوة التي تُســتخدَم ضدهم كبيرة، ومهما كان القتال باهظًا في الدماء والأموال.

٣ - إنّ الخطوة الأولى في عملية وقف النزيف للمصالح الأمريكية هي انسحاب قواتنا.

٤ - لم تنجــز القوة العســكرية في الحقيقة الأهداف المعلنــة للحرب. إنّ غزو العــراق كان من بعض الجوانب فشلاً ذريعًا أكثر من فشل تجربتنا المحزنة والدموية في فيتنام.

٥ - بعــد انســحاب القــوات النظاميــة الأمريكيــة، والبريطانيــة والمرتزقة الأجانب؛ فــإن التمرد الذي كان يهــدف إلى تحقيق هــذا الهدف ســيفقد التأييد. إن عدم وجــود هــدف وطني مشــروع للتمرد ســيفقده ســلطانه عندئذ، فإما أن يُلقي المسلحون سلاحهم، وإما يصبحوا خارجين عن القانون.

كانــت مثل هذه النتيجة هي حصيلة تجربة التمرد في الجزائر وكينيا وأيرلندا.

ولمعرفــة نتائــج الاســتراتيجيات الثــلاث الــتي طُبقت في العــراق للفــترة مــن ٢٠٠٤- ٢٠٠٧م، يمكــن تلمّس فشــلها في رؤيــة هنــري كيســنجر، والذي يتســاءل في إحدى دراســاته -من فيتنــام إلى العراق، دروس من أجل وضع اســتراتيجية للانســحاب- كيف يمكــن تعريف المصطلحــات (تقــدُّم) و(تحسُّــن)، ففي حــرب لا يوجد فيها خطوط مواجهة، هل تشــير فــترة الهدوء إلى نجاح؟ أم أنه قرار اســتراتيجي مــن جانب العدو؟ وهل انخفاض هجمات العدو ناجم عن إنهاك العدو؟ أم أنها استراتيجية مقصودة تهدف إلى الاحتفاظ بالقوى لتشجيع الانسحاب الأمريكــي؟ التحدي العســكري في العــراق هو أكثر مراوغة فلا توجد خطوط مواجهة، وميدان المعركة هو في كل مكــان، نحن نواجه شبح العدو.

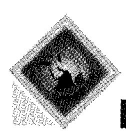
المرحلة الثانية (كانون الثاني٢٠٠٧- ٣١ تموز ٢٠٠٨م):

منــذ إعــلان الرئيــس الأمريكــي جورج بــوش انتهاء العمليــات العســكرية في حــرب العراق، وذلــك في آيار ٢٠٠٣م توالــت أربع اســتراتيجيات، حاولــت من خلالها الولايات المتحدة الأمريكية تجاوز انزلاقها في المســتنقع

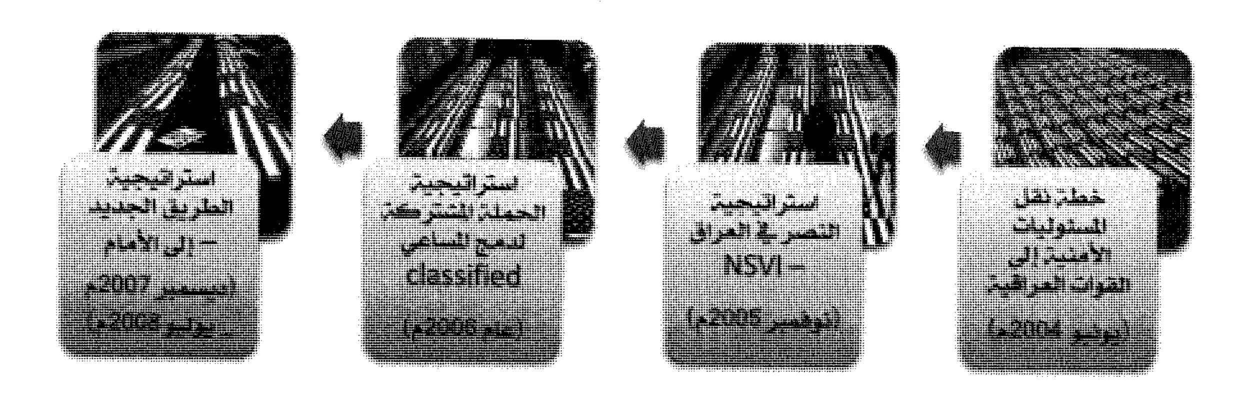
(٩) جــورج ماكغفرن: مرشــح الحــزب الديمقراطي الأمريكي للرئاســة في عــام ١٩٧٢م، عضــو في مجلس النــواب الأمريكي مــن عام ١٩٥٧ - ١٩٦١م.

وليام بولك: مرشح من الحزب الجمهوري، عمل عضوًا في لجنة إدارة الأزمات في أثناء أزمة الصواريخ الكوبية سنة ١٩٦٢م.

انظر: جورج ماكغفرن، الخروج من العراق خطة عملية للانســحاب الآن، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، سنة ٢٠٠٦م.



استراتيجيات الاحتلال الأربع في العراق منذ مايو 2003م



العراقي، والتخلص من المأزق الذي وضعت نفسها فيه.

١- الاستراتيجية الأولى حزيران ٢٠٠٤م (خطة نقل المسئوليات الأمنية إلى القوات العراقية).

٢- الاستراتيجية الثانية تشرين الثاني ٢٠٠٥م (استراتيجية النصر في العراق - NSVI).

٣- الاستراتيجية الثالثة عام ٢٠٠٦م (استراتيجية الحملة المشتركة لدمج المساعي classified).

٤- الاستراتيجية الرابعة كانون الأول ٢٠٠٧م - ٣١ تموز ٢٠٠٨م (استراتيجية الطريق الجديد - إلى الأمام).

ويبدو أنّ الاستراتيجيات الثلاث الأولى كانت تُعلن، ولكنها عندما تتكسر على جدار المقاومة العراقية؛ فإنها توأد بصمت وبدون ضجيج، إلاّ أنّ الاستراتيجية الأخيرة والتي تمت المباشرة بها في كانون الأول ٢٠٠٧م ولمدة ١٨ شهرًا، وانتهت تموز الماضي وكان مقدرًا لها في حال نجاحها أن تتوج بتوقيع الاتفاقية الأمنية في ٣١ تموز ٢٠٠٨م حظيت باهتمام خاص من قبل الإدارة الأمريكية بدعوى تحقيق هذه الاستراتيجية الأهداف المتوخاة منها، ونحن هنا بصدد دراسة وتحليل تقرير مهم صدر في واشنطن بتاريخ ٢٣ تموز ٢٠٠٨م من قِبل مكتب المحاسبة العائد للحكومة الأمريكية يقيّم من خلاله وبطريقة دقيقة نتائج هذه الاستراتيجية [١٠].

بُنيت عناصر هذه الاستراتيجية على ثلاثة مجالات:

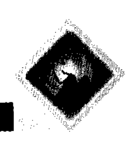
المجال الأمني، المجال التشريعي والسياسي، ثم المجال الاقتصادي والبيئي:

في المجال الأمني اعتمد التقرير في تقييمه لنتائج الاستراتيجية في هذا المجال على معيارين:

- انخفاض عدد عمليات المقاومة.
- زيادة عدد القوات الحكومية العراقية.

في المعيار الأول والخاص بانخفاض عدد عمليات المقاومة اتخذ التقرير من عدد العمليات في حزيران/ يونيو ٢٠٠٨م أساسًا للمقارنة بعدد العمليات من نفس الشهر لعام ٢٠٠٧م، وعند دراسة وتحليل منحنى العمليات العنيفة للمقاومة العراقية المسجلة لدى الجيش

(١٠) GAO=United states Government Accountability Office هو مكتب مسائلة (محاسبة) الحكومة الأمريكية، وهو وكالة مستقلة، غير تحزبية تعمل لصالح الكونجرس. وغالبًا ما تسمى «كلب الحراسة في الكونجرس». (غاو) تحقق في كيفية إنفاق الحكومة الاتحادية لدولارات دافعي الضرائب. رئيس (غاو) هو المراقب العام للولايات المتحدة، ويُعيَّن لمدة ١٥ سنة من قِبَل الرئيس من قائمة من المرشحين يقترحهم الكونجرس. انظر موقع مكتب المحاسبة الأمريكي على شبكة الإنترنت:
http://GAO.gov/docsearch/featured/oif.html



الأمريكي منذ بداية الغزو حتى انتهاء الاستراتيجية في ٣١ تموز ٢٠٠٨م (انظر المخطط) يمكن التوصل إلى الاستنتاجات التالية:

١- أنّ الفترة التي تمت المقارنة فيها تمتد من تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٦م حتى تموز/ يوليو ٢٠٠٧م، وباعتراف التقرير.. كانت تجري فيها ١٨٠ عملية يوميًّا، ووفقًا للتقرير فقد نفّذت في هذه الفترة لوحدها ٤٦ ألف عملية.. وبالتالي لا يمكن وصف هذا الكمّ الهائل من العمليات على أنها عمليات مقاومة أو حرب عصابات.. وإنما ينطبق عليها وصف (الثورة) ضد قوات الاحتلال، وبالتالي فإن تراجع عدد العمليات إلى مستوياتها السابقة لهذه الفترة يعد أمرًا طبيعيًّا ينسجم وجوهر مفهوم وعمل المقاومة القائم على أساس حرب الاستنزاف، وقطع التماس مع العدو، وضرورة الاحتفاظ بالقوى، واختيار المكان والزمان المناسبين لتوجيه الضربات.

٢- يعد هذا التقرير، ومنحنى العمليات لكامل فترة الغزو، اعترافًا صريحًا بحجم الخسائر التي تكبّدتها القوات الأمريكية؛ حيث يشير المنحنى إلى أنّ عدد العمليات الإجمالي المنفذ ضد هذه القوات منذ ٢٠٠٣-٢٠٠٨م يقارب ١٦٤ ألف عملية، وعلينا أن ندرك أنّ هذه العمليات مسجلة لديهم على أنها مهمة، ومنها يمكن استنتاج حجم القتلى الحقيقي بعيدًا عن سياسة تضليل الرأي العام الأمريكي التي يستخدمها البنتاجون، ووقوف عداد إحصاء القتلى عند الأربعة آلاف قتيل.

وبهذا الصدد لا يمكننا إغفال أربعة مؤشرات تؤكد استنتاجاتنا :

- في حرب فيتنام وللفترة ١٩٦٥-١٩٦٨م أصرّت الإدارة الأمريكية برئاسة جونسون آنذاك على تزييف العدد الحقيقي للقتلى الأمريكيين ببضعة آلاف، وعند الكشف عن الرقم الحقيقي فقط في هذه السنين الثلاث، تبين أنّ عدد القتلى كان ٣٠ ألف قتيل، مما شكّل صدمة لدى الشعب الأمريكي الذي فوجئ بمرارة الهزيمة.

- يذكر نفس تقرير المحاسبة (GAO) الذي نحن بصدده في هامش الصفحة الخامسة أنّ عدد العمليات المسلحة ضد القوات الأمريكية لا يمثل الرقم الحقيقي؛ حيث لم تسجل معظم العمليات التي تجري في جنوب البلاد، وكذلك العمليات المنفذة في مناطق مختلفة ضد القوات الحكومية العراقية أو مشتركة مع القوات الأمريكية.

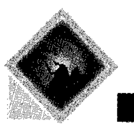
- يذكر التقرير الذي أعدته لجنة بيكر- هاملتون، وهي لجنة رصينة تشكلت من الحزبين الجمهوري والديمقراطي، واستعانت بأكثر من ١٨٣ خبيرًا وعسكريًّا ومخططًا أمريكيًّا.. تذكر اللجنة في حيثيات التوصية رقم ٧٧.. أنه في أحد أيام تموز يوليو ٢٠٠٦م تم تسجيل ٩٣ هجومًا أو عملية مهمة ضد القوات الأمريكية، وعندما دققت اللجنة أحداث هذا اليوم تبين أنّ عدد العمليات الحقيقي هو ١١٠٠ عملية!

- وكذلك يعترف نفس التقرير في تقييمه للوضع في العراق بخسارة الجيش الأمريكي ١٠٢ من جنوده في شهر تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٦م، وأن معدل الهجمات كان ١٨٠ هجومًا يوميًّا.

- أشار عدد قتلى الجيش الأمريكي خلال شهر تموز الماضي، حسب إحصائيات البنتاجون المعلنة، إلى مقتل جندي أمريكي يوميًّا، ولمّا كان تقرير مكتب المحاسبة (GAO) يشير إلى أن معدل عدد العمليات استقر عند ٣٠ عملية يوميًّا؛ فإن هذا يعني أنّ هنالك تناقضًا كبيرًا بين معدل عدد العمليات المنفذة والمسجلة لدى الجيش الأمريكي، وعدد القتلى المعلن عنهم من الجيش الأمريكي.

يعزو التقرير الأمريكي انخفاض عدد عمليات المقاومة إلى ثلاثة أسباب، وهي ظاهرة الصحوات، والهدنة مع جيش المهدي، وكذلك زيادة عدد القوات الأمريكية مطلع ٢٠٠٧م.

وهذه العوامل التي ينسب لها التحسن تعد عوامل هشّة ومؤقتة؛ فالصحوات كظاهرة اجتماعية نشأت نتيجة



لعدة عوامل، تظافرت كرد فعل ضد انحرافات تنظيم القاعدة، والهدنة مع جيش المهدي غير مضمونة، ورهن بمشيئة إقليمية قد تُستخدَم كورقة ضغط في أيّ لحظة لتحسين شروط هذه الدولة في ملفها الأمني، تبقى زيادة عدد القوات الأمريكية فالحقيقة أنّ هذه الاستراتيجية سبق وأن استُخدِمت في تجربتي الجزائر وفيتنام؛ حيث لم تكسب قوات الاحتلال سوى هدنة وراحة لالتقاط الأنفاس، وليس لتحقيق النصر، علمًا أنّ الجيش الأمريكي قد فقد أية رغبة للقتال؛ حيث لم تعد لديه قضية أو إرادة يقاتل ويموت لأجلها، بعد اكتشاف زيف الادعاءات التي من أجلها شُنَّت الحرب.

يؤكد تقرير مكتب المحاسبة الأمريكي عدم جاهزية القوات الحكومية العراقية، وأن ولاءات هذه القوات لميليشياتها وأحزابها، وأن عقيدتها العسكرية متشظية طائفيًا وعرقيًا

على مستوى المعيار الثاني الذي اعتمده تقرير مكتب المحاسبة الأمريكي في تقييمه نتائج الاستراتيجية الأمريكية الأخيرة (الطريق الجديد- إلى الأمام) التي حددت ٢٠٠٨/٧/٣١م موعدًا محددًا لانتهائها، وتحقيق جاهزية كاملة للقوات الحكومية العراقية في استلام الملفات الأمنية لمعظم المحافظات العراقية.

يقر التقرير بوضوح أنّ القوات الحكومية العراقية، ورغم المبالغ الهائلة التي صُرِفت عليها، ورغم تضاعف أعدادها من ٣٢٣ ألفًا في كانون الثاني ٢٠٠٧م إلى ٤٧٨ ألفًا في نيسان ٢٠٠٨م؛ فإن ١٠٪ فقط من هذه القوات لديها جاهزية للعمل بمفردها دون مساندة القوات الأمريكية، وأن هذه القوات ليست موحدة ومتعددة الولاءات طائفيًا ومخترقة من قبل الميليشيات، وأنه رغم انتهاء مدة الاستراتيجية الأخيرة؛ فإن ثماني محافظات من أصل ١٨ لم تستلم إلى الآن مهامها الأمنية.

يؤكد التقرير عدم جاهزية القوات الحكومية العراقية، وأن ولاءات هذه القوات لميليشياتها وأحزابها، وأن عقيدتها العسكرية متشظية طائفيًا وعرقيًا. فطبقًا لهذه الاستراتيجية كان من المقرر أن تنتهي جاهزية هذه القوات بما يؤمن استلام الملف الأمني، وتفرغ القوات الأمريكية لمهمات التدريب والدعم عن بُعد، وبالتالي يشكّل هذا التقرير خيبة أمل كبيرة، وإخفاقًا مؤكدًا لثاني أهم معيار اعتمد في سياق هذا التقييم الحكومي الأمريكي للوضع في العراق.

المجال التشريعي والسياسي

رسمت الاستراتيجية الأمريكية الأخيرة عدة أهداف على مستوى التشريع والسياسة في العراق؛ حيث كانت قد تعهدت بالاشتراك مع الحكومة العراقية على إنجاز الملفات التالية قبل الموعد المخطط لانتهاء هذه الاستراتيجية في ٣١ تموز ٢٠٠٨م، وندرج فيما يلي الملفات، كما ذُكرَت في تقرير مكتب المحاسبة الأمريكي (GAO) في معرض تقييمه لنتائج هذه الاستراتيجية :

١- إنهاء ملف اجتثاث البعث، والتزام الحكومة العراقية بسن القوانين اللازمة لعودة البعثيين السابقين إلى الحكومة بحلول كانون الأول ٢٠٠٧م.

٢- إطلاق سراح عشرات الآلاف من المعتقلين، والذين تقر معظم المنظمات واللجان المحايدة بأن ٩٠٪ منهم قد اعتُقلوا دون أمر قضائي.

٣- تمرير قانون النفط والغاز.

٤- نزع سلاح الميليشيات.

٥- إجراء انتخابات المحافظات.

٦- إجراء المصالحة الوطنية الشاملة.

٧- إعادة النظر بالدستور الدائم الحالي.

من خلال دراسة هذه الملفات نجد أن معظمها لم يتحقق، ولم تحرز الحكومة الحالية أيّ تقدم على صعيد أيٍّ منها، كما أن هنالك ملفات أخطر تعاني منها هذه الحكومة كالفساد المالي والإداري، والذي يفتك بثروات العراق، فضياع وهدر مليارات الدولارات يجري على قدم وساق، وتشير إحصائيات المنظمات الدولية للنزاهة إلى أن النظام المالي والإداري في العراق يعد ثاني أسوأ نظام في العالم.



خامسًا: الخاتمة والاستنتاجات:

أهمية النتائج التي توصل إليها تقرير مكتب المحاسبة الأمريكي (GAO) في معرض تقييمه للاستراتيجية الأخيرة في العراق (الطريق الجديد.. إلى الأمام) تتمثل في أنّ الولايات المتحدة الأمريكية بعد هذه الاستراتيجية -كما يشير نص هذا التقرير- ليس لديها استراتيجية بديلة، فقد كان مخططًا لأن تُتوج هذه الاستراتيجية خلال الفترة من كانون الثاني ٢٠٠٧م حتى ٣١ تموز ٢٠٠٨م بصفحاتها الأمنية والسياسية والاقتصادية بتوقيع الاتفاقية الأمريكية- العراقية التي تضمن انسحابًا تدريجيًّا ومدبرًا للقوات الأمريكية المنهكة، يحفظ لها الحد الأدنى لماء الوجه، وكذلك ضمان مصالح الولايات المتحدة الاستراتيجية في العراق، والمتمثلة بوضع اليد على بترول العراق.

ومن خلال دراسة وتحليل وتقييم عناصر هذه الاستراتيجية يتوصل التقرير -على استحياء- إلى أنّ الفشل الذريع هو نصيب هذه الاستراتيجية، وهو الأمر الّذي قد يطرح أسئلة غاية في الخطورة تمسّ مستقبل العراق من مثل: ماذا بعد؟ وكذلك إلى أين يسير العراق؟ ومن الجدير بالذكر أنّ هذه الأسئلة ليست مطروحة على طرف واحد في معادلة الصراع، بل كافة أطرافه بما في ذلك فصائل المقاومة العراقية، والقوى والهيئات والشخصيات الوطنية المناهضة للاحتلال.

وفيما يلي أهم الاستنتاجات التي يمكن التوصل إليها، والتي يمكن تلخيص التقرير بها :

١- يعد هذا التقرير بمثابة اعتراف أمريكي حكومي ورسمي بفشل معظم الاستراتيجيات في العراق، وآخرها استراتيجية (الطريق الجديد.. إلى الأمام) للفترة من كانون الثاني ٢٠٠٧م حتى ٣١ تموز ٢٠٠٨م، والتي كان من المتوقع في حال نجاحها أن تتوج بتوقيع الاتفاقية الأمنية الشاملة.

٢- على المستوى الأمني يخلص التقرير إلى أنّ الأمن في العراق هشّ، ويشير التقرير إلى النص التالي (البيئة الأمنية لا تزال متقلبة وخطيرة)، فالعناصر التي تم البناء عليها في ادعاءات التحسن الأمني هشة وغير مستقرة، فظاهرة الصحوات قيد التحلل والتفكك، والهدنة مع جيش المهدي غير مضمونة، ومرهونة باعتبارات إقليمية وطائفية ومزاجية، كما أنّ إبقاء الزيادة في القوات الأمريكية لمُدَد طويلة أمرٌ لا يمكن تحمُّله في داخل الولايات المتحدة.

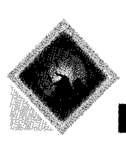
٣- الاعتراف بأكثر من ١٦٤ ألف عملية لفصائل المقاومة العراقية ضد قوات الاحتلال؛ يبدّد كافة أكاذيب وادعاءات الاحتلال وأدواته في التقليل من شأن هذه المقاومة أو شدتها.

> الاعتراف بأكثر من ١٦٤ ألف عملية لفصائل المقاومة العراقية ضد قوات الاحتلال؛ يبدد كافة أكاذيب وادعاءات الاحتلال وأدواته في التقليل من شأن هذه المقاومة أو شدتها

٤- التأكيد على أنّ عمليات المقاومة النوعية مستمرة، كما وردت في التقرير وبمعدلات تعتبر طبيعية (١٢٠٠) عملية شهريًّا، وهذا ينسجم مع جوهر عمل المقاومة في المصابرة، واستنزاف العدو ماديًّا وبشريًّا، أو اعتماد استراتيجية (الإنهاك بالملل)، والتي يصبح معها بقاء قوات الاحتلال بلا هدف ومستحيلاً.

٥- جاهزية القوات الحكومية العراقية ليست كما يتم توظيفها سياسيًّا وإعلاميًّا من قِبَل إدارة الاحتلال وأدواتها في بغداد؛ فالتقرير يشير بكل وضوح إلى أن ١٠٪ فقط من هذه القوات مستعدة للعمل منفردة، دون مساندة قوات الاحتلال، سواء في النقل والإمداد والدعم، ونقص التدريب والقيادة، كما يعترف التقرير بأن هذه القوات لا تشكل جيشًا ذا عقيدة وطنية، وإنما تتجاذبه الولاءات الطائفية والعرقية.

٦- شكّل فشل الصفحات السياسية من الاستراتيجية الأمر الأكثر وضوحًا، وخيبة للأمل في التقرير؛ حيث يشير إلى فشل الحكومة العراقية في إنجاز واجباتها المناطة بها طبقًا للاستراتيجية (الطريق الجديد- إلى



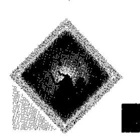
الأمام)، فلم يتم تحقيق أيّ تقدم في ملفات (اجتثاث البعث، العفو عن عشرات الآلاف من الأسرى والمعتقلين، قانون النفط، نزع سلاح الميليشيات، انتخابات المحافظات، المصالحة الوطنية، إعادة النظر بالدستور).

توجد عناصر وأبعاد أخرى لفشل المشروع الأمريكي برمته في العراق، يمكن النظر إليها كانعكاسات إضافية:

١- المتغيرات الدولية؛ حيث يشكّل استمرار تورط الولايات المتحدة في نزاعين استراتيجيين في آن واحد بمثابة فخّ تاريخي للإمبراطوريات، وبعد الانتفاضة الروسية الأخيرة في جورجيا، وسعيها الحازم لاستعادة مجالها الحيوي، وعجز الولايات المتحدة عن اتخاذ أيّ ردة فعل؛ فإن الأخيرة ستفكر جديًا في تخفيف التزاماتها في العراق، وخاصة العسكرية.

٢- المتغيرات الداخلية في الولايات المتحدة، واستحقاقات الانتخابات الأمريكية؛ حيث من المتوقع أن تأتي إدارة تعالج تراكم الكلفة الباهظة التي تكبدتها الولايات المتحدة جراء الحرب في العراق، والعجز المالي والتجاري.

٣- ازدياد الوعي الشعبي في العراق باتجاه رفض الاحتلال، وفشل سياسة المحاصصة الطائفية، التي قامت عليها قواعد العملية السياسية، مما أدى إلى عزل الطاقم السياسي الذي استعانت به الولايات المتحدة، وكذلك انهيار هياكله السياسية العاجزة المتمثلة بالدستور والبرلمان والحكومة.



معلومات إضافية

مجالس «الصحوات» في العراق

مجالس الصحوات هي تشكيلات عسكرية مؤلفة من رجال القبائل، ولا تضم بين صفوفها سوى أفراد وجماعات تطوعت أو نذرت نفسها -مقابل المال في الغالب- في سبيل هدف معلن هو «قتال القاعدة ومطاردتها»، وهم لا يمتلكون إلا خبرات قتالية محدودة اكتسبها بعضهم من فترة خدمته في الجيش العراقي السابق، والبعض الآخر اكتسبها من العمل مع جماعات مسلحة خلال السنوات المنصرمة من الاحتلال.

نشأتها:

بدأت ظاهرة الصحوات في محافظة الأنبار (أكبر محافظة سنية غرب العراق) عندما عاد عبد الستار أبو ريشة من الأردن ليعلن رسميًا في ٢٠٠٦/٩/١٧م تأسيس تحالف عشائري «سُنيّ» لمواجهة القاعدة تحت مسمى مجلس صحوة الأنبار.

بعد ذلك انطلقت شرارة «الصحوات» إلى محافظات أخرى مثل: ديالى، وصلاح الدين ونينوى وبغداد التي تأسست بها صحوات في مناطق الدورة والعامرية والسيدية، والخضراء واليرموك، والمنصور والجامعة والغزالية، والأعظمية والفضل، ومناطق حزام بغداد الشمالي والجنوبي والغربي، حتى قال جريجوري سميث مدير فرقة الاتصالات في الجيش الأمريكي: «إن مجالس الصحوة وصلت في العراق إلى ١٨٦مجلسًا تعمل في ١٨٦ منطقة من خلال ٧٧ ألف عنصر مسلح».

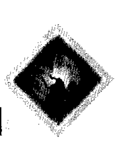
وقد شرع زعماء قبليون في إغواء الشبان لتشكيل دوريات وأفواج مسلحة، بحجة تأمين مناطقهم السكنية، بينما هي تهدف في الأساس لمطاردة المقاومة الوطنية، وطعن عناصرها من الخلف، بالإضافة إلى رفع العبء عن كاهل جنود الاحتلال الأمريكي.

وصارت الصحوات أشبه عمليًا بقوات المرتزقة التي تعمل بالمال، ولم يحدث ذلك في سياق البيع والشراء والابتزاز فقط، ولكنه حدث أيضًا عبر تبرير سياسي وفّره الحزب الإسلامي، وساهمت في نشره بعض قوى المقاومة كذلك.

ويتمثل التبرير المذكور في أن الخطر الحقيقي الذي يواجه العرب السنة هو الخطر الإيراني أكثر من الخطر الأمريكي، وأن من الأفضل التفاهم مع الأمريكان لمواجهة الخطر الإيراني، وبعد ذلك لكل حادث حديث.

طبيعة ظاهرة الصحوات:

من وجهة نظر سياسية علمية لا يمكن اعتبار ظاهرة الصحوات ظاهرة سياسية يمكن البناء عليها، وإنما يمكن وصفها بأنها (ظاهرة اجتماعية) يتم توظيفها سياسيًا لخدمة مرحلة من قبل طرف ما، فهي ورقة بيد قوات الاحتلال، لكنها في كل الأحوال ظاهرة مؤقتة، إذا ما قُورنت بمدى وحجم الصراع الدائر في العراق، وإذا ما تم تحليل وضع اللاعبين الرئيسيين في هذا الصراع وأهدافهم ومصالحهم سيتضح أنها أصغر من أن تشكل على المدى المتوسط والبعيد أيّ وزن يُعتد به، وستتلاشى كوسيلة بعد أن يتم استنفاذها.



الأهداف التي سعى إليها الاحتلال بتشكيل مجالس الصحوة :

يمكن القول: إن الهدف الرئيس المتوخى من تشكيل ما يسمى بمجالس الصحوة إنما يصب في صالح قوات الاحتلال الأمريكي بالدرجة الأولى، وعلى المديين القصير والمتوسط، وكانت واشنطن تسعى إلى تحقيق الأهداف التالية من خلال الصحوات (وذلك قبل أن تقوم في الآونة الأخيرة بتسليم ملفها إلى الحكومة العراقية):

١- تحت ذريعة محاربة القاعدة والإرهاب يتم توجيه مجالس الصحوة للقضاء على المقاومة في المناطق المستعصية على الاحتلال أو الساخنة، ويتم ذلك من خلال تشكيل قوات شبه عسكرية تكون بمواجهة فصائل المقاومة، بغية إيجاد مناطق عازلة «Buffer zone» تفصل قوات الاحتلال عن ضربات المقاومة، وكذلك تقلّص من مساحة انتشار قوات الاحتلال التي تحدّ بالتالي من عدد عمليات المقاومة نتيجة تقلص عدد الأهداف المتاحة.

٢- تشكل مجالس الصحوة وتسليحها بهذا العدد، ورقة ضغط ومناورة بيد إدارة الاحتلال؛ لإجبار الحكومة من جهة على تقديم المزيد من التنازلات والتبعية السياسية، وذلك من خلال تهديدها بدمج هذه القوة (السنية) كميليشيات بوزارة الدفاع والداخلية. وهذا ما لا تريده هذه الحكومة الطائفية؛ حيث إنها تتفادى تسليح العشائر كونها لا تضمن ولائها المستقبلي (ولذلك أعلنت الحكومة بعد تسلمها ملف الصحوات أنها تلتزم بضم ٢٠٪ فقط من عناصر مجالس الصحوة إلى قواتها الأمنية، على أن ينخرط الباقون في وظائف مدنية في القطاعين العام والخاص).

ومن جهة أخرى إجبار القوى السياسية المحسوبة على السنة كجبهة التوافق والحزب الإسلامي أيضًا على تقديم المزيد من التنازلات والتبعية السياسية، وذلك من خلال تهيئة بديل قوي لهم في حالة رفضهم الانصياع للإدارة الأمريكية.

٣- كانت الاستراتيجية الأمريكية تسعى إلى تأمين انسحابات مهمة لقواتها في النصف الثاني من عام ٢٠٠٨م، وذلك عن طريق تكليف قوات ما يسمى بالصحوة مسئولية حفظ الأمن، وتأمين هذه الانسحابات من المناطق الساخنة.

مصير الصحوات:

في الأول من أكتوبر ٢٠٠٨م بدأت قوات الاحتلال الأمريكية تسليم السيطرة على مجالس الصحوات إلى الحكومة العميلة، وتشمل المرحلة الأولى انتقال ٥٤ ألف عنصر من مجالس الصحوة ينتشرون في محافظة بغداد.

وستبدأ حكومة نوري المالكي بدفع رواتب هذه العناصر اعتبارًا من ١٠ نوفمبر ٢٠٠٨م بدلاً من جيش الاحتلال الذي أنفق حتى الآن ١٥ مليون دولار شهريًا لتسديد تلك الرواتب.

والتزمت الحكومة العراقية بضم ٢٠٪ من عناصر مجالس الصحوة إلى قواتها الأمنية، على أن ينخرط الباقون في وظائف مدنية في القطاعين العام والخاص. لكن الشكوك حول ما ستؤول إليه الفئة الثانية تثير القلق.

ويرى المراقبون أن رفض ضم هذه العناصر إلى الجيش والأجهزة الأمنية، خاصة مع تهديدات هذه العناصر بحمل السلاح مجددًا قد يؤدي إلى مضي بعض عناصرها في اتجاه القاعدة من جديد، أو في اتجاه قوى المقاومة.

والاحتمال الآخر أن تتكفل الحكومة بصيغة أخرى لا تفجر في وجهها قنبلة الصحوات، ولا تدفعها نحو العنف من جديد، فالحكومة العراقية التي تدرك الخطر الماثل في تحول بعض عناصر الصحوة نحو المقاومة أو القاعدة



من جديد، مالت إلى استيعابهم في المؤسسات المدنية، ولا يعرف بالطبع كيف سيتم ذلك، وهل ستكون الصيغة المذكورة مرضية لديهم من جهة، ثم هل ستشكل عائقًا دون انخراط بعضهم في المقاومة من جهة أخرى؟

المصادر:

- حسن الرشيدي، موقف سنة العراق من مجالس الصحوة، مفكرة الإسلام، ٢٠٠٨/٢/٢٨م، على الرابط:

html.60263/28/02/http://www.islammemo.cc/Tkarer/Tkareer/2008

- د. خالد المعيني، ظاهرة مجالس «الصحوات»، موقع مركز الاستقلال للدراسات الاستراتيجية، على الرابط:

http://istqlal-cnt.com/index.php?p-114

- ياسر الزعاترة، حرب القاعدة على الحزب الإسلامي وظاهرة الصحوات، الجزيرة نت، ٢٠٠٨/٩/٢٥، على الرابط:

http://www.aljazeera.net/NR/exeres/6BCC34FE-0E0E-4CD7-8129-3158BBB74C51.htm



أبعاد أزمة دارفور ومآلاتها.. رؤية استراتيجية

أ.د.حمدي عبد الرحمن حسن
أستاذ العلوم السياسية، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة

ملخص الدراسة

تشهد دارفور منذ عام ٢٠٠٣م أزمة كبيرة تمثل موقفًا صراعيًا بالغ التعقيد والتشابك، بل وتتداخل فيه مختلف الأبعاد الداخلية والخارجية، حتى إنه أضحى يستعصي على أدوات التحليل المعتادة.

وفي الوقت الذي يتحرك الكل في دارفور: ما بين دول غربية طامحة في اكتساب الثروة والنفوذ، وقوًى آسيوية صاعدة، على رأسها الصين؛ فإن التعامل العربي والإسلامي مع أزمة دارفور اتسم بالضعف واللامبالاة الشديدة، بل والاكتفاء بتفسيرات التحليل التآمري في النظر إلى ما يحدث في الإقليم.

إن أزمة دارفور قديمة من حيث مسبباتها، والعوامل المفضية إليها، وهي في بُعدها الداخلي تعبر عن «أزمة المشروع الوطني»، وتطرح إشكاليات الهوية والمواطنة، والدور التوزيعي للدولة الوطنية في السودان. ولعل السمة الأبرز للأزمة الدارفورية في سياقها الوطني وأبعادها الداخلية تتمثل في حالة الانقسام والتشرذم السياسي بين جماعات وتنظيمات التمرد المسلح الموجودة داخل الإقليم.

إقليميًا، أعاد الصراع في دارفور صياغة التفاعلات الإقليمية في دول الجوار العربي والإفريقي؛ حيث سعى كل طرف إقليمي إلى محاولة التأثير على مجريات هذا الصراع لتحقيق مآرب ومصالح خاصة.

وعلى الجانب الآخر فثمة خطاب دولي مثير، ومتنوع في توجهاته وانحيازاته الفكرية والأيديولوجية بشأن طبيعة الصراع في دارفور، ومسارات تسويته وإدارته. فبينما أسرعت الإدارة الأمريكية إلى وصف ما يحدث بأنه تطهير عرقي، نجد أن الموقف الصيني من دارفور تحكمه اعتبارات ومصالح استراتيجية مهمة، فيما اتسم الفعل الدولي في الأمم المتحدة ومجلس الأمن بالوقوع تحت تأثير القوى الغربية الضاغطة، ولاسيما بعد إصدار المدعي العام الدولي طلب مذكرة اعتقال بحق الرئيس عمر البشير.

ولعل الناظر لمآلات الصراع الدارفوري يستطيع أن يصل إلى ثلاثة سيناريوهات أساسية يتوقع أحدها أن تقع البلاد فريسة التفكيك والتقسيم، والآخر يرى بقاء الأوضاع على ما هي عليه، وإما أن يغلب السيناريو الثالث، وتتمكن أطراف الأزمة من الوصول إلى الإصلاح والتسوية.

إن الخيارات الاستراتيجية المطروحة أمام السودان للخروج من هذه الأزمة تتطلب وجود إصلاحات سياسية واقتصادية مهمة، بجانب دعم وتعاون المجتمع الدولي، ولاسيما العربي والإسلامي.

ومع ذلك يظل مسار الأزمة الدارفورية ومآلها مرتبطًا بالإرادة الواعية لأطراف الصراع في الداخل والخارج..



أبعاد أزمة دارفور ومآلاتها.. رؤية استراتيجية

أ.د.حمدي عبد الرحمن حسن
أستاذ العلوم السياسية، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة

«تعد دارفور مثالاً لموقف صراعي، يتم فيه استغلال الندرة الشديدة في الموارد الطبيعية من قِبَل الساسة لتحقيق مآربهم الخاصة. وقد يرى البعض خارج السودان الصراع على أنه مجرد حرب قَبَلِيَّة. بيد أنه في حقيقة الأمر صراع من أجل السيطرة على البيئة التي لم تعد تحتمل أن يعيش عليها الناس كافة. إنه لا ينبغي التوقف عند الأعراض الظاهرة، ولكن ينبغي الغوص للوصول إلى الجذور الحقيقية المسببة للصراع من خلال دفع جهود التنمية المستدامة، وزيادة قدرات المواطنين على بذل الجهد لتحقيق الاعتماد الذاتي».

وانجاري ماثاي، الحائزة على جائزة نوبل للسلام [1]

مقدمة:

ليس بخافٍ أن الأزمة التي تشهدها دارفور منذ عام ٢٠٠٣م تمثل موقفًا صراعيًا بالغ التعقيد والتشابك، بل وتتداخل فيه مختلف الأبعاد الداخلية والخارجية، حتى إنه أضحى يستعصي على أدوات التحليل المعتادة. فثمة كتابات غربية وأمريكية بالأساس تؤصل مجموعة من الأساطير والادعاءات التي تتجاوز حقيقة ما يحدث على أرض الواقع، وباتت تروّج لأطروحات معينة مثل: التطهير العرقي، وعمليات التهجير القسري، والانقسام العرقي بين العرب والأفارقة، وهي حالة أقرب ما تكون إلى الحرب الدعائية بكافة أشكالها [2].

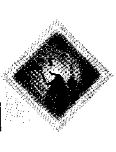
ولعل ذلك المنحى الأيديولوجي المحمل بكثير من الانحيازات والأساطير الفكرية التي صاحبت عالم ما بعد الحادي عشر من سبتمبر، قد دفعت بالمجتمع الدولي بصورة غير مبررة إلى تبني مواقف وسياسات معينة، وهو ما أعاق عملية التفاوض الجدي لتسوية المسألة الدارفورية.

بيد أن تحدي هذه التوجهات والأساطير الخارجية لا تعني بالضرورة التقليل من أهمية خطورة البعد الإنساني للأزمة، والانتهاكات المتكررة لحقوق الإنسان في الإقليم. بل على النقيض من ذلك تمامًا؛ فإن تحدي الأطروحات التي تنادي بها بعض الأطراف والقوى الفاعلة الخارجية يمثل فرصة مناسبة وضرورية لتقديم صورة واضحة وحقيقية

---

(١) - Wangari Mathai, Washington post, May 12, 2005.

(٢) Flint, Julie, and Alexander De Waal. Darfur: A Short History of a Long War. African arguments. London: Zed Books, 2005, Xavier, John. Darfur: African Genocide. New York: Rosen Publ, 2008. <http://www.loc.gov/catdir/toc/ecip079/2007002909.html>.and Prunier, Gérard. Darfur: The Ambiguous Genocide. Crises in world politics. Ithaca, NY: Cornell University Press, 2005.



لواقع الأحداث في دارفور، وهو ما يعني القدرة على التعامل الصحيح معها؛ بهدف تسويتها وإيجاد مخرج عادل لها.

إن للإقليم الدارفوري، الذي تزيد مساحته على مساحة فرنسا، عمق تاريخي وحضاري، فهو يشهد أكبر عدد من مراكز تحفيظ القرآن في السودان، كما أنه احتفظ برواق خاص لأبنائه في الأزهر الشريف. وكان الدارفوريون قبل اكتشاف النفط، يُسيِّرون محملاً سنويًا إلى الكعبة المشرفة لإطعام الحجيج وسقايتهم. وتذكر بعض الروايات أن أحفاد آخر سلطان لدارفور، علي دينار، توجهوا بعد مقتله على أيدي الجيش البريطاني عام ١٩١٦م إلى مكة للعيش من فيء وقف دارفور هناك [٣].

وعلى الرغم من ذلك؛ فإن التعامل العربي والإسلامي مع أزمة دارفور اتسم بالضعف واللامبالاة الشديدة، بل والاكتفاء بتفسيرات التحليل التآمري في النظر إلى ما يحدث في الإقليم. ليس من عجب أن يتحرك الكل في دارفور ما بين دول غربية طامحة في اكتساب الثروة والنفوذ، وقوى آسيوية صاعدة، على رأسها الصين، تأبى إلا أن يكون لها نصيب معلوم في هذا السباق الدولي المحموم، ويبقى العرب وحدهم لا يحركون ساكنًا وكأنهم خارج التاريخ.

وعليه فإن هذه الدراسة الموجزة تسعى إلى طرح رؤية واعية لأزمة دارفور تتجاوز إشكاليات التحليلات الجزئية التي تستبطن نموذج العميان والفيل في رؤية الحقيقة الحسية الظاهرة، ولتقديم منحًى مغايرًا لهذه التقاليد السائدة. وإذا كانت غاية التحليل هي تحقيق القدرة على الفهم، وإزالة الغموض المرتبط بالظاهرة السياسية؛ فإن التحليل السياسي الاستراتيجي يذهب أبعد من ذلك ليستشرف آفاق المستقبل، ويساعد على مواجهة المآلات المحتملة للأحداث والظواهر. وبإعمال هذا المنهج في النظر إلى المسألة الدارفورية يمكن التركيز على العناصر والمحاور التالية:

التحليل الاستراتيجي: رؤية حضارية.
الأبعاد الداخلية.
الأبعاد الإقليمية.
الأبعاد الدولية.
مآلات الصراع والسيناريوهات المحتملة.
الاستراتيجيات والخيارات الممكنة.

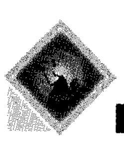
أولاً: التحليل الاستراتيجي : رؤية حضارية

يشير لورانس بنتاك إلى أزمة دارفور باعتبارها أكبر قضية تعرضت للتعتيم الإعلامي في العالم العربي، وأنه لم يُمَط اللثام عن حقيقة ما يحدث في الإقليم منذ عام ٢٠٠٣م وحتى اليوم[٤]. إذ انشغل الإعلام العربي بقضايا محورية أخرى مثل فلسطين والعراق ولبنان. وبغَضّ الطرف عن النوايا الحقيقية التي يستبطها هذا التوجه النقدي للمعالجة العربية للأزمة الدارفورية؛ فإن التوجه السائد في الأدبيات العربية اكتفى، في معظم الأحوال، بالإشارة إلى الأطماع الصهيونية والمؤامرات الغربية لتفسير ما يحدث في دارفور، مع تجنب الطرح النقدي لحقيقة الصراع وطبيعته المعقدة. ولا شك أن هذا المنحى في التفسير قد استُخدم في التعامل مع الحرب الأهلية في جنوب السودان من قبل.

إن العرب والمسلمين بحاجة إلى استخدام لغة الاستراتيجية في التعامل مع قضاياهم المصيرية، ولفهم التأثيرات المتباينة التي تنبعث من رياح العولمة العاتية. وربما يدفعنا ذلك إلى تبيان حقيقة وخصائص أسلوب التحليل الاستراتيجي الذي نحاول تطبيقه هنا على المسألة الدارفورية.

(٣) O'Fahey, R. S. The Darfur Sultanate: A History. New York: Columbia University Press, 2008 and
سيد أحمد علي عثمان، السلطان الشهيد علي دينار.. بين الحجاز وليبيا وتركيا .. المقاومة الوطنية الأولى، وثائق وحقائق، ١٨٩٨-١٩١٦م، القاهرة، الدار العربية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٨م.

(٤) Lawrence Pintak, Darfur: Covering the "forgotten" story. in http://www.arabmediasociety.com/?article=223



فمن المعلوم أن أساليب التحليل الاستراتيجي انتشرت على نطاق واسع في أدبيات الإدارة وقطاع الأعمال، إلى جانب مجالات الدفاع والأمن، وقضايا الحرب والسلام. فما الذي يعنيه التحليل الاستراتيجي بداية؟ وما هي التساؤلات الرئيسة التي يسعى الباحث للإجابة عليها من خلال هذا النمط من أنماط البحث والتحليل العلمي؟ فالتحليل الاستراتيجي ينظر إلى الحدث أو القضية المطروحة في سياقها العام والكلي، والمؤثرات الخارجية من حولها. ويطرح هذا التحليل سؤالين أساسيين:

أولهما: كيفية تأثير ما يحدث على الدولة أو المنطقة ككل.

وثانيًا: أشكال ردود الأفعال والاستجابات على هذه التغيرات المحتملة.

ويكتسب هذا النمط من التحليل صفةً استراتيجية؛ لأنه يطرح رؤى كلية على المدى البعيد، ولا يقتصر على الوصف والتحليل الجزئي للقضية موضوع التحليل. كما أنه يأخذ من التحليل القدرة على التعامل مع ما هو مركب ومعقد، وتحويله إلى أبعاد محددة يسهل النظر إليها. ويركز التحليل الاستراتيجي كذلك على العوامل الخارجية، بحسبانها أمضى تأثيرًا، وهو ما يجعل القدرة على التعامل مع تأثيراتها المحتملة أمرًا مهمًّا في إدارة الأزمات والصراعات الكبرى، عوضًا عن الافتراض بأنه لا يمكن مواجهة هذه التحديات، والاكتفاء بالقول أنه ليس بالإمكان أبدع مما كان.

ويساعد التحليل الاستراتيجي على تحقيق ثلاثة أهداف رئيسة:

القدرة على التنبؤ بما يمكن حدوثه في المستقبل.
تقويم كيفية وقوع الحدث المحتمل.
الاستعداد وأخذ التدابير الملائمة لما قد يحدث.

وعليه فإن التحليل الاستراتيجي يطرح رؤى أكثر وضوحًا تساعد على فهم ما يحدث، وعلى اتخاذ القرارات الاستراتيجية السليمة، ولعل ما يتم التعبير عنه في الأدبيات «بتحليل البيئة الخارجية للصراع» يعد أمرًا محوريًّا وأساسيًّا في عملية التخطيط. يعني ذلك أن غياب هذا النمط من التحليل يسهم في «ضياع الفرصة»، وهو ما يطلق عليه في لغة الأعمال باسم «تكلفة الفرصة» أي تكلفة عدم القيام بهذا التحليل.

> التعامل العربي والإسلامي مع أزمة دارفور اتسم بالضعف واللامبالاة الشديدة، بل والاكتفاء بتفسيرات التحليل التآمري في النظر إلى ما يحدث في الإقليم.

ثانيًا: الأبعاد الداخلية:

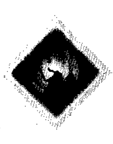
إن أزمة دارفور قديمة من حيث مسبباتها، والعوامل المفضية إليها، فهي بمثابة صراع على الأرض والموارد أوجدته حاجة الإنسان الدارفوري لمصادر المياه والعشب. ونتيجة لشح هذه الموارد ونضوب المياه؛ تزداد احتمالات الاحتكاك القبلي، والتي قد تصل حد الاحتراب والصراع. على أن هذا الصراع قد اتخذ بعدًا آخر؛ نتيجة المشاحنات التي قد تحدث بين القبائل الزراعية المستقرة، وهي في غالبيتها من الأفارقة، ومن القبائل الرعوية المرتحلة، وهي في غالبيتها من العرب، الأمر الذي جعل الصراع يتخذ شكل المواجهة بين أرباب المهن (الزراعة والرعي) في دارفور.(٥)

ومن المعلوم أن القبائل المستقرة تشمل الفور، وهي الجماعة الإثنية الكبرى، والتي إليها ينتسب الإقليم، والقبائل ذات الأصول الإفريقية الأخرى، مثل الزغاوة والمساليت والفلاتة، والداجو والبرتي. أما القبائل الرعوية فإنها تشمل بني حسين والحبانية والزيادية وبني هلبة والعطيفات، والمحاميد وبني جرار والزريقات والمعالية.(٦)

---

(٥) Suliman, Mohamed, Ethnicity From Perception to Cause of Violent Conflicts: The Case of the Fur and Nuba Conflicts in Western Sudan, CONTICI International Workshop, Bern, July 8-11, 1997, Center For African Studies, London.

(٦) Hoile , D. Darfur in Perspective, London: European-Sudanese Public Affairs Council, 2005



وطبقًا لعلماء الأنثروبولوجيا من أهل السودان؛ فإن جميع هذه القبائل تدعي وصلاً بالعرب، وتتحدث العربية؛ إذ لا يخفى أن كثيرًا من القبائل التي تحسب على أنها غير عربية وإفريقية مثل الفور والزغاوة والميدوب تتحدث اللغة العربية بطلاقة، وإن احتفظت بلغاتها المحلية [٧].

وعليه فإن المدخل القبلي في فهم الصراع الدارفوري أمر معيب، سواء من حيث المنطق الذي يقوم عليه، أو المنهج الذي يسترشد به. إن على المرء أن يتساءل عن حقيقة الصراعات القبلية والإثنية في السودان بخاصة وإفريقيا بعامة؟ ولماذا يستخدم العنف بدلاً من التفاوض والمساومة في تسوية هذه الصراعات؟

يقول جيرالد برونيه في تعليقه على أحداث رواندا عام ١٩٩٤م ومقتل أكثر من نصف مليون شخص خلال ثلاثة أشهر فقط: إننا بحاجة إلى فهم الأسباب الحقيقية التي تفسر حملات الإبادة تلك. ربما يكون التفسير الأسهل والأقرب إلى التصديق هو إلقاء اللوم على المتغير القبلي، وعدم الخوض في التفاصيل والمتغيرات الأخرى التي قد تفوق القبلية من حيث الأهمية.

ويضيف برونيه: «إن ما شاهدناه في رواندا هو نتاج تاريخي، وليس نكبة ذات طابع بيولوجي، أو مجرد اندفاع وحشي تلقائي، فالهوتو والتوتسي لم يخلقهما الله على شاكلة القطط والكلاب من حيث العداء الفطري. إنه لم يكتب عليهما قدرًا أن يفتك كل منهما بالآخر»[٨]. ولعل ذلك التحليل يصدق بحق على طبيعة العلاقات السائدة في دارفور، والتي كانت دومًا مثالاً للتمازج العرقي والثقافي بين الجميع.

بيد أن المسألة الدارفورية في بُعدها الداخلي تعبر عن «أزمة المشروع الوطني» وتطرح إشكاليات الهوية والمواطنة، والدور التوزيعي للدولة الوطنية في السودان.

وقد أشار الكتاب الأسود الذي وضعه الدكتور خليل إبراهيم زعيم حركة العدل والمساواة إلى نمط السيطرة السياسية السائد في الخرطوم منذ الاستقلال، والذي اتسم بهيمنة النخبة الشمالية على حساب تهميش المناطق الأخرى في السودان[٩]. ولعل مطلب اقتسام الثروة والسلطة يُعدّ مطلبًا أساسيًّا لدى حركات التمرد كافة في إقليم دارفور.

ومع الاعتراف بأهمية البعد التنموي والاقتصادي في أزمة دارفور؛ فإن البعض يشير إلى أن هذه الأزمة تعبر في حقيقتها عن جوهر الانقسام الحاد بين النخبة السياسية الحاكمة ولا سيما بين جناحي الحركة الإسلامية السودانية [١٠]؛ إذ عمدت القوى السياسية الحاكمة، عسكرية كانت أم مدنية، إلى تسييس مطالب أبناء دارفور، وهو ما أضفى على المسألة الدارفورية مزيدًا من التعقيد والتشابك الشديد. ويلاحظ أنه منذ وصول جبهة الإنقاذ بزعامة عمر البشير إلى السلطة عام ١٩٨٩م أضحى معيار تولي المنصب العام هو الموالاة، وليس الكفاءة. وهذا ما يفسّر وجود عدد كبير من الكادر السري للجبهة في معظم الوظائف الحكومية. غير أنه بعد حدوث الانقسام الشهير بين البشير والترابي تم إبعاد من جاهر بالمعارضة، كما حدث مع الدكتور خليل إبراهيم، والذي تولى عدة مناصب وزارية إقليمية، فضلاً عن كونه الممثل السياسي للجبهة الإسلامية في دارفور[١١].

> المسألة الدارفورية في بُعدها الداخلي تعبر عن «أزمة المشروع الوطني» وتطرح إشكاليات الهوية والمواطنة والدور التوزيعي للدولة الوطنية في السودان

ولعل السمة الأبرز للأزمة الدارفورية في سياقها الوطني وأبعادها الداخلية تتمثل في حالة الانقسام والتشرذم

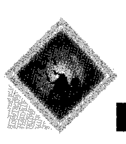
٧- ibid.p.8.

(٨) Prunier, Gérard. The Rwanda Crisis: History of a Genocide. New York: Columbia University Press, 1995.

(٩) Cobham, A. "Causes of Conflict in Sudan: Testing The Black Book." EUROPEAN JOURNAL OF DEVELOPMENT RESEARCH. 17. 3 (2005): 462-480.

(١٠) Hoile, op.cit, p.13.

(١١) Mamdani, Mahmood. How can we name the Darfur crisis: Preliminary thoughts on Darfur 2004-10-07, from http://www.pambazuka.org/en/category/features/24982



السياسي بين جماعات وتنظيمات التمرد المسلح الموجودة داخل الإقليم. ومن ثم فإن المقابلة بين الحالة الدارفورية وحالة الحرب في الجنوب تُظهر عدم وجود قيادة حقيقية أو رؤية واضحة تساعد في حدوث اختراق سياسي كبير ينهي أزمة التمرد الدارفوري، مقارنة بما كان عليه الحال مع الراحل جون جارانج، وحركة تحرير السودان. لقد أحصى بعض الكُتّاب ٢٥ جماعة مسلحة تعمل في دارفور، بالإضافة إلى الجماعات الأخرى التي تعلن عن نفسها من خلال الشبكة الدولية (الإنترنت)، وهو ما اصطُلح على تسميتهم باسم «جماعات الإنترنت». ولعل ذلك يُضفي المزيد من التعقيد في تسوية أزمة دارفور[١٢].

وتذهب حركة العدل والمساواة التي يتزعمها خليل إبراهيم منذ تأسيسها عام ٢٠٠٣م إلى ضرورة إقامة فيدرالية حقيقية في إطار سودان موحد، على أن يكون رئيس الدولة بالتناوب. أما حركة تحرير السودان التي يتزعمها عبد الواحد محمد نور فإنها تأثرت كثيرًا بخطاب الحركة الشعبية في الجنوب، وطرحه لمشروع السودان الجديد. وعليه فإنها تطالب بإنهاء التهميش من خلال معادلة جديدة لتقسيم السلطة والثروة، واعتماد العلمانية والمساواة كأساس للمواطنة في السودان الجديد.

وقد عانت هاتان الحركتان الرئيسيتان للتمرد من انشقاقات وانقسامات عديدة.[١٣] ففي يناير ٢٠٠٧م تمردت جماعة بقيادة إدريس أزرق على زعامة خليل إبراهيم، واتهمته بالانحياز إلى جماعته القبلية الزغاوة. بيد أن أخطر انقسام تعرضت له العدل والمساواة هو تأسيس الحركة الوطنية للإصلاح والتنمية عام ٢٠٠٤م بزعامة جبريل عبد الكريم باري، وهو من الزغاوة، وعمل لفترة من الوقت في الحرس الجمهوري للرئيس التشادي إدريس ديبي. وقد حدث انقسام مماثل في صفوف حركة تحرير السودان؛ استنادًا إلى أسس قبلية كذلك، ففي نوفمبر ٢٠٠٥م حدث صراع على السلطة بين منى أركون مناوي (وهو من الزغاوة ويقود الذراع العسكري للحركة) وعبد الواحد محمد النور (وهو من الفور، ويقود الذراع السياسي للحركة).

وقد قبل جناح منى بالتفاوض مع الحكومة، وقام بالتوقيع على اتفاق سلام دارفور عام ٢٠٠٦م بعد أن قبل تولي وظيفة حكومية رفيعة. بيد أن عددًا كبيرًا من مقاتلي جناح منى أركون قد انضم إلى جماعات التمرد الأخرى المعارضة لاتفاق سلام دارفور.

ويمكن القول بأن معظم فصائل التمرد قد تورطت في أعمال السرقة والسطو المسلح والقتل في دارفور، وهو الأمر الذي يعيق أعمال الإغاثة الإنسانية، كما أنه يدفع بالحكومة السودانية والميليشيات الموالية لها بالتحرك، واستخدام العنف كذلك. وعليه فإن جميع الأطراف الفاعلة في دارفور تسعى للوصول إلى أفضل صفقة مناسبة لها، سواء كانت عسكرية أم سياسية. يفضي ذلك إلى القول بأن اتفاق سلام دارفور قد وُلد ميتًا ويرفضه معظم أهل دارفور؛ لأنه جزئي وأسهم في تفتيت المعارضة الدارفورية.

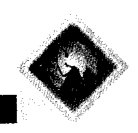
ثالثًا: الأبعاد الإقليمية:

لقد أدى التداخل القبلي بين دارفور وتشاد إلى انعكاس الصراع التشادي على طبيعة النسيج الاجتماعي لدارفور[١٤]. ألم يأت ثلاثة رؤساء لتشاد، وآخرهم إدريس ديبي إلى قصر نجامينا عبر بوابة السودان الغربية؟ لقد كان أول قائد ميداني لجيش تحرير دارفور الذي أطلق شرارة التمرد الأولى عام ٢٠٠٣م السيد عبد الله

(١٢) The international response to Darfur,12/05/2008 from: http://www.fride.org/publication/416/the-international-response-to-darfur

(١٣) Plaut, Martin, Who are Sudan>s Darfur rebels? 5 May 2006, from : http://news.bbc.co.uk/1/hi/world/africa/3702242. stmand see also : Tanner , Victor and Jérôme Tubiana, Divided They Fall: The Fragmentation of Darfur's Rebel Groups, Geneva: Small Arms Survey, Graduate Institute of International Studies, 2007.

(١٤) Marchal, Roland, Chad/Darfur: How two crises merge , Review of African Political Economy, Vol33, No 109, September 2006 , pp. 467-482 and Millard J. Burr and Robert O. Collins, The Long Road to Disaster in Darfur (Markus Wiener, Princeton, NJ, 2006



أبكر أحد قادة الهجوم الناجح الذي انطلق من دارفور عام ١٩٩٠م ليدفع بإدريس ديبي إلى سدة السلطة في تشاد. كما أن الصراع في جنوب السودان بعد تأسيس الجبهة الشعبية لتحرير السودان بزعامة الراحل جون جارانج قد ألقى هو الآخر بظلاله على الدارفوريين؛ إذ اعتادت الحركة أن تلج إلى الإقليم عبر بوابة إفريقيا الوسطى، وذلك من أجل تطويق الحكومة المركزية في الخرطوم.

ولعل بيئة الصراع تلك قد أضفت إلى واقع دارفور بُعدًا جديدًا يتمثل في سهولة الحصول على الأسلحة والمعرفة بها والتدريب على فنون القتال المختلفة. ونظرًا لعدم الاستقرار السياسي الحادّ في دول الجوار السوداني، ولا سيما تلك المتاخمة لدارفور، فقد استخدمت أراضي كل دولة لخوض حروب بالوكالة. فالميليشيات التشادية المسلحة تحتفظ بقواعد إسناد وإمداد في دارفور، كما أن قوات التمرد الدارفورية تحتفظ بعلاقات وثيقة مع الحكومة التشادية؛ حيث توفر لها المأوى والأسلحة. وقد دخل الرئيس ديبي، الذي ينتمي إلى قبائل الزغاوة، في حرب مفتوحة ضد نظام الرئيس عمر البشير في السودان.(١٥)

ففي أواخر يناير ٢٠٠٨م تعرض نظام الحكم في نجامينا إلى هجوم خانق من قبل قوات التمرد التشادية التي انطلقت من غرب دارفور، وتمكنت من محاصرة الرئيس ديبي في قصره. وإذا كانت هذه العملية العسكرية قد باءت بالفشل لأسباب عسكرية ولوجستية، ولوقوف فرنسا إلى جانب الرئيس ديبي؛ فإن النتيجة المهمة هي إضفاء مزيد من التعقيد على العلاقات التشادية السودانية. اتضح ذلك من خلال اتهام السودان للحكومة التشادية بأنها تقف وراء محاولة الهجوم الفاشلة التي قامت بها قوات من العدل والمساواة بزعامة خليل إبراهيم على مدينة أم درمان في مايو ٢٠٠٨م.

وليس بخافٍ أن اضطراب الأوضاع في جمهورية إفريقيا الوسطى قد أسهم بدوره في انتشار الصراع المسلح عبر منطقة الجوار في تشاد وغرب السودان. لقد كانت إفريقيا الوسطى وتشاد تاريخيًّا تكوِّنان إقليم أوبانجي شاري في مستعمرة إفريقيا الاستوائية الفرنسية. وبعد الاستقلال عانت الدولة من انقلابات متعاقبة حتى مجيء جان بيدل بوكاسو عام ١٩٦٥م والذي نصب نفسه إمبراطورًا على البلاد حتى تمت الإطاحة به على يد القوات الفرنسية عام ١٩٧٩م. ومع ذلك ظل عدم الاستقرار السياسي وضعف سلطة الدولة المركزية هو العنوان الأبرز للمشهد السياسي في جمهورية إفريقيا الوسطى. أدى ذلك إلى سهولة تدفق الأسلحة والمتمردين عبر أراضيها من وإلى مناطق الجوار الإقليمي.

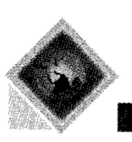
> أدى التداخل القبلي بين دارفور وتشاد إلى انعكاس الصراع التشادي على طبيعة النسيج الاجتماعي لدارفور

ومن الملاحظ أن ليبيا تمارس دورًا محوريًّا في محاولات تسوية الصراع الدارفوري؛ حيث استضافت محادثات للسلام على أراضيها، كما طالبت أكثر من مرة بضرورة عدم تدويل الأزمة الدارفورية. وإذا كانت مصر مهتمة بالشأن السوداني عمومًا؛ فإن دورها لم يخرج عن دعم الموقف السوداني، والمطالبة بتسوية سلمية للأزمة، وربما يعكس ذلك الموقف العربي الرسمي الذي عبرت عنه الجامعة العربية بشكل عام.

وعلى أية حال فإن الصراع في دارفور قد أعاد صياغة التفاعلات الإقليمية في دول الجوار العربي والإفريقي؛ حيث سعى كل طرف إقليمي إلى محاولة التأثير على مجريات هذا الصراع لتحقيق مآرب ومصالح خاصة. وللتدليل على ما نقول فإن نيجيريا التي احتضنت مفاوضات سلام دارفور عام ٢٠٠٦م، واجهت محاولات إريترية حثيثة لتجميع كافة الأطراف المعارضة لهذا الاتفاق، وتوفير الدعم المادي واللوجيستي اللازم لها.

ولا شك أن تلك التفاعلات الإقليمية تضفي مزيدًا من

(١٥) see Haggar, Ali 'The origins and organization of the Janjawiid in Darfur' in Alex de Waal (ed.), War in Darfur and the Search for Peace, (Harvard University Press, Cambridge, MA; Global Equity Justice, Cambridge, MA; and Justice Africa, London, 2007 pp. 113-39; and, Julie Flint, 'Darfur's armed movements' in ibid., pp. 140-72.



التعقيدات والتشابك على مجريات الأمور في دارفور. وتجدر الإشارة إلى أن الاتحاد الإفريقي حاول منذ البداية أن ينظر إلى الصراع في دارفور بحسبانه مشكلة إفريقية تتطلب حلاً إفريقيًا. وهو ما تمثل في إرساله لقوات لحفظ السلام في الإقليم عام ٢٠٠٤[١٦]، والتي تحولت بعد ذلك في أواخر ديسمبر ٢٠٠٧م إلى قوة هجين مشتركة من الأمم المتحدة والاتحاد الإفريقي، طبقًا للقرار الدولي ١٧٦٩ الصادر من مجلس الأمن في ٣١ يوليو ٢٠٠٧م.

ثالثًا: الأبعاد الدولية:

ثمة خطاب دولي مثير، ومتنوع في توجهاته وانحيازاته الفكرية والأيديولوجية بشأن طبيعة الصراع في دارفور، ومسارات تسويته وإدارته. إذ لا يخفى أن كثيرًا من تنظيمات المجتمع المدني والجمعيات الحقوقية والنشطاء في أمريكا الشمالية والدول الغربية عمومًا تطرح الأزمة باعتبارها تعبيرًا عن عمليات تطهير عرقي منظمة تقودها الحكومة السودانية في مواجهة السكان الأفارقة. وعليه فإن عبارات «أسوأ أزمة إنسانية»، وأخطر جرائم التطهير العرقي في القرن الواحد والعشرين، والتراجيديا الإنسانية [١٧] هي مفردات أساسية تميز هذا التدخل الدولي المكثف في الأزمة الدارفورية افتقد الرؤية الواضحة والتنسيق على حد تعبير ألكس دي وال Alex De Waal أحد أبرز الكتاب المدافعين عن ضرورة التدخل الدولي في دارفور.

لقد بالغ الغرب، ولا سيما الولايات المتحدة، في وصف حقيقة ما يجري في دارفور؛ حيث نُظر إليه على أنه صراع بين العرب والأفارقة، أو أنه حملات منظمة من أجل التطهير العرقي. ونسي هؤلاء أو تناسوا حقيقة ما جرى من مذابح وإبادة جماعية في رواندا عام ١٩٩٤م. يدفع ذلك إلى التأكيد على أن لأزمة دارفور وجهًا آخر غير إنساني. إنه يعكس حقيقة الأطماع الاستعمارية والتنافس الدولي في المنطقة بعد انتهاء سنوات الحرب الباردة. بل إنه في أحد أبعاده يشير إلى الصدام الموروث بين الإسلام والغرب، وعملية إعادة تشكيل الوعي الغربي تجاه قضايانا بعد أحداث ١١ سبتمبر. ويمكن أن نشير في هذا السياق إلى عدد من الوقائع والأحداث للتأكيد على ما نقول:

تأسيس منظمة «التحالف من أجل إنقاذ دارفور» في الولايات المتحدة؛ باعتبارها جهة غير حكومية معنية بالضغط على الإدارة الأمريكية للتدخل المباشر في الأزمة الدارفورية، واللافت للنظر أن أكثر من ٨٠٪ من مؤسسي هذه المنظمة من الجمعيات المسيحية والصهيونية المرتبطة بالدولة العبرية، وهو ما يثير الشكوك حول النوايا الحقيقية التي تقف وراء أهداف وأنشطة هذه المنظمة.

ولعل الصورة التي تحاول ترسيخها في أذهان الأمريكيين، ولاسيما المتدينين والمنحدرين من أصول إفريقية منهم، هي ممارسة العرب سياسة الاسترقاق والتمييز ضد الأفارقة في السودان. ولا شك أن مثل هذه الدعاوى تجد آذانًا صاغية لدى هؤلاء المستهدفين. وعادة ما تسعى منظمة إنقاذ دارفور إلى تزويد صناديق بريد أعضاء الكونجرس بالخطابات والمطالب والقيام بالتظاهر أمام الكونجرس. كما أنها تمد القنوات التلفزيونية والمحطات الإذاعية بإعلانات تدعو للتعاطف مع قضية دارفور من خلال نشر صور مكررة لسودانيين يتضورون جوعًا، وعادة ما يكتب تحتها تساؤل بارز: «كيف سيحكم علينا التاريخ؟»

قيام الحكومة الإسرائيلية بإعطاء حق اللجوء السياسي لنحو خمسمائة من لاجئي دارفور، والعمل على توطينهم في فلسطين المحتلة. وعلى الرغم من الجدل الذي ثار داخل الأوساط الإسرائيلية حول رشد وسلامة هذا الإجراء بالنسبة للدولة العبرية؛ فإن الحكومة

(١٦) Murithi, Timothy. The African Union: Pan-Africanism, Peacebuilding and Development. Aldershot, Hampshire, England: Ashgate Pub, 2005.

(١٧) Deans, N. A. "Tragedy of Humanity: The Issue of Intervention in the Darfur Crisis." EMORY INTERNATIONAL LAW REVIEW. 19. 3 (2005): 1653-1696.and Totten, Samuel, and Eric Markusen. Genocide in Darfur: Investigating the Atrocities in the Sudan. New York: Routledge, 2006.



الإسـرائيلية لها أيادٍ خفية تهدف إلى شد أطراف النظام الإقليمي العربـي[١٨]. وأحيانًا ما تفعل ذلك لإظهار الوجه الإنسـاني لسياسـتها الخارجيـة، أو محاولـة لتجميـل صورتهـا لدى الرأي العام الدولـي. وقد افتتحت حركة تحرير السودان -جناح عبد الواحد نور- مكتب اتصال لها في إسرائيل.

قيام منظمة فرنسـية بمحاولة اختطاف نحو مائة طفل دارفوري من ملجأهم بتشـاد لتسـليمهم لأسـر فرنسـية وبلجيكيـة نظيـر مبالـغ ماليـة ضخمـة. وقـد أظهرت التحقيقات التشـادية في تلك الواقعـة أن الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين عام واحد وثمانية أعوام ليسوا أيتامًا ولا مرضى. يطرح ذلك المسعى من قِبَل المنظمة الفرنسية أكثـر من تسـاؤل حـول الغرض مـن اختطـاف هؤلاء الأطفال. هـل الأمر يرتبـط بعمليات التبشـير والتنصير وسـط هذه المجتمعات المسـلمة؟ لقد أضحـت المنظمات الإنسـانية والمدنية العاملـة في دارفور على المحك!

إن محاولـة تجـاوز حقائـق التاريخ واستبعاد مكونات الصراع الحقيقية في أزمة دارفور تعكس حقيقة التدخل الدولـي «الـلا إنسـاني»، وتكشـف الوجـه الآخر للمنظمـات الغربية التي تحاول إيهامنا بأنها تسعى لإنقاذ دارفور.

الموقف الأمريكي:

في سـبتمبر ٢٠٠٤م أدلى وزيـر الخارجيـة الأمريكـي آنـذاك كولـن باول أمـام الكونجـرس بشـهادة حول الصـراع في دارفـور، مؤكـدًا علـى أن التحقيقـات أظهـرت ارتـكاب فظائع خطـيرة منها القتل والسـرقة والاغتصاب، قامـت بها القوات السـودانية الحكومية وميليشيات الجنجويد التابعة لها ضد القبائل غير العربية في الإقليـم[١٩]. وأضاف «بـاول» أن الخارجية الأمريكية توصلـت إلى نتيجـة مفادها أن ما يحـدث في دارفور هو «تطهير عرقي»، تتحمل مسئوليته الحكومة السودانية، ومن شايعها من القبائل العربية الدارفورية [٢٠].

واتسـاقًا مع هذا المنحى المتشـدد في انتقاد السودان، وتحميلـه مسـئولية ما يحدث في دارفور سـاندت الإدارة الأمريكية في يناير ٢٠٠٥م تقرير لجنة التحقيق الدولية بشـأن دارفور، والتي خلصت إلى اتهام النظام القضائي السـوداني بالعجز، وغياب الشـفافية وعدم القدرة على التعامـل مع الجرائم الـتي ارتُكبت في دارفـور. وأيدت الولايـات المتحدة إحالة ملف قضية دارفور إلى المحكمة الجنائية الدولية [٢١].

فما هي دوافع الموقف الأمريكي من أزمة دارفور؟ ولماذا أسرعت الإدارة الأمريكية إلى وصف ما يحدث بأنه تطهير عرقي؟ نستطيع أن نشير إلى عدد من الدوافع أبرزها:

> محاولـة تجـاوز حقائـق التاريخ واسـتبعاد مكونات الصـراع الحقيقية في أزمة دارفور تعكس حقيقة التدخل الدولي «اللا إنسـاني» وتكشف الوجه الآخر للمنظمات الغربية التي تحاول إيهامنا بأنها تسعى لإنقاذ دارفور

الاسـتجابة لضغـوط الداخـل الأمريكـي؛ إذ لا يخفـى أن ثمـة تأثـير واضـح لتنظيمـات الكنيسـة الإنجليكانيـة في الولايـات المتحـدة علـى عمليـة صنع القـرار الأمريكي تجـاه السـودان، وهو ما يـبرر إصدار الكونجـرس «قانـون سـلام السـودان» الـذي مثل قوة ضغط على الحكومة السـودانية طيلـة فترة مفاوضات السـلام في الجنوب، حتـى التوصل إلى اتفاقية نيفاشـا عام ٢٠٠٥م برعاية أمريكية خالصة.

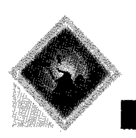
---

(١٨) Mualem, Mazal ,Israel to Grant Citizenship to Hundreds of Darfur Refugees, from: http://www.haaretz.com/hasen/spages/901138.html

(١٩) US. Secretary of state Colin Powell, written Remarks Before the Senate foreign Relations committee, 9 September 2004, http://www.state.gov./secertery/former/powell/remarks/36032.htm.

(٢٠) Ibid

(٢١) report of the international commission of Inquiry on Darfur to the united nations secretary General, 25 January 2005. http://www.ohchr.org/English/docs/darfurreport.doc. and Elsea, Jennifer K. U.S. Policy Regarding the International Criminal Court. CRS report for Congress, RL31495. [Washington, D.C.]: Congressional Research Service, Library of Congress, 2006. <http://www.fas.org/sgp/crs/misc/RL31495.pdf>.



وبخصوص المسألة الدارفورية أصدر الكونجرس -كما بيّنّا- قرارًا يعتبر فيه ما يحدث هناك حرب إبادة جماعية تستدعي التدخل العسكري من قِبَل الولايات المتحدة. وقد مارس المشرِّعون الأمريكيون من أصول إفريقية تأثيرًا واضحًا في الملف الدارفوري؛ حيث إنهم يميلون إلى توصيف الصراع باعتباره نزاعًا قبليًّا ذا طابع عنصري (عربي- إفريقي). وقد دعمت التنظيمات الحقوقية والمدنية الأمريكية، وعلى رأسها «تحالف إنقاذ دارفور»، هذه الرؤية في النظر إلى الصراع الدارفوري.

محاولة الخروج من المستنقع الآسيوي (الأفغاني والعراقي)، ومحاولة تضخيم جانب التدخل الإنساني في دارفور. وفي هذه الحالة لمصلحة المسلمين؛ حيث إن طرفي الصراع هناك هم من المسلمين. يعني ذلك أن الموقف الأمريكي يسعى من خلال تشدده في دارفور إلى تجميل صورة الولايات المتحدة في العالم الإسلامي، وإظهار وجهها الإنساني.

الصراع على النفوذ بين الولايات المتحدة والقوى الدولية الأخرى، ولا سيما الصين؛ حيث تشير التوقعات إلى أن منطقة غرب السودان غنية بالبترول والموارد الطبيعية الأخرى. يعني ذلك أن الإدارة الأمريكية تحاول تهيئة الظروف للانفراد باستثمار ثروة غرب السودان، ومواجهة النفوذ الفرنسي التقليدي في هذه المنطقة، فضلاً عن احتواء النفوذ الصيني المتنامي هناك.

الموقف الصيني:

أحسب أن القراءة الواعية لأبعاد الموقف الصيني من دارفور ينبغي أن تأخذ بعين الاعتبار الرؤية الكونية الجديدة للصين، والتي تسعى من خلالها إلى إعادة صياغة وبناء النظام الدولي الراهن وفقًا لأسس جديدة. فثمة اعتبارات ومصالح استراتيجية مهمة تحكم علاقة الصين ليس فقط بالسودان وإفريقيا، وإنما بالقوى الدولية الكبرى. ونستطيع في هذا السياق أن نشير إلى أمرين مهمين: أولهما: محاولة الصين مواجهة الضغوط الغربية المتزايدة، ولا سيما أن مراكز الأبحاث وكثير من المنظمات الحقوقية والمدنية الغربية تبدي انزعاجًا شديدًا من تنامي الدور الصيني في السودان وإفريقيا، والذي تحكمه بالأساس اعتبارات المصلحة والهيمنة، على حد قولهم، وبغض الطرف عن قضايا الديمقراطية وحقوق الإنسان[٢٢].

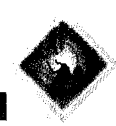
أما الأمر الثاني الذي يفسر الموقف الصيني؛ فإنه يرتبط بأهمية السودان وإفريقيا عمومًا في الشراكة الاستراتيجية مع الصين. فالسودان دولة نفطية واعدة، وهي تصدر أكثر من ٦٠٪ من إجمالي صادراتها النفطية إلى الصين. وقد استفادت الصين من الفراغ الذي تركته الشركات الغربية برحيلها من السودان في أوائل التسعينيات من القرن الماضي عندما أعلنت الولايات المتحدة أن السودان دولة عاصية وخارجة عن المفهوم الأمريكي للنظام الدولي!

واقع الأمر أن الصين تعد من القوى الدولية الصاعدة، وهناك من يحدوه الأمل في إعادة تشكل النظام الدولي الجديد، لكي يستوعب مراكز وقوى جديدة مثل الصين والهند وألمانيا وغيرها، وربما تمتلك الصين المقومات الموضوعية التي تؤهلها لتتبوأ هذه المكانة الدولية، فهي من أقدم الدول المركزية في العالم، حيث تضرب بجذورها أبعد من خمسة آلاف عام، كما تمتلك قوة سكانية هائلة تبلغ نحو ١,٤ مليار نسمة.

وقد أدهشت الصين الجميع بعودتها القوية إلى القارة الإفريقية في عام ٢٠٠٦م؛ حتى إنها أصبحت أكثر قدرة من أية دولة أخرى على إنفاق الأموال والاستثمار في الدول الإفريقية. ففي العام الماضي بلغ إجمالي ما أنفقته الصين على الاستثمار في إفريقيا نحو ٩ مليارات دولار، في حين لم يستطع البنك الدولي أن يضخ أكثر من ٢,٥ مليار دولار في مشروعاته الإفريقية، وهو ما جعله يتوسل للصين أن تشاركه في تمويل هذه المشروعات.

ومن الواضح أن الاحتياطي النقدي للصين، الذي يقدر بنحو ١,٥ تريليون دولار أمريكي، قد جعلها أكثر قدرة

(٢٢) Huang, Chin-Hao. "U.S.-China Relations and Darfur." Fordham International Law Journal. 31. 4 (2008): 827.



على ضخ الأموال في الأسواق الإفريقية، دون أية شروط تذكر، وتشير بعض التقديرات إلى وجود نحو ثمانمائة ألف صيني يعيشون ويعملون ويديرون بعض الشركات في إفريقيا، كما أن هناك ما يربو على ٨٠٠ شركة صينية تعمل في مجال التصنيع والإنشاءات، ولاسيما الموانئ والسكك الحديدية، والمستشفيات والمباني الحكومية وغيرها من مشروعات البنية الأساسية.

ومن الملاحظ أن العروض الصينية لا تقبل المنافسة من قبل الشركات الغربية واليابانية، نظرًا لرخص الأيدي العاملة الصينية، وامتلاك الدولة لمعظم الشركات العاملة في إفريقيا، فضلاً عن أن الخبراء الصينيين يقبلون بأجور وظروف معيشية إفريقية قد لا يتحملها نظراؤهم من الغربيين. أدى ذلك كله إلى إثارة مخاوف أصحاب المصالح والأعمال من الدول الغربية من الخطر الصيني الداهم.

ولعل ما يقلق دوائر صنع القرار ومراكز الفكر الاستراتيجي الغربية هو أن الصين تأتي إلى إفريقيا بنموذج للتنمية السياسية والاقتصادية أكثر قدرة على محاربة الفقر، وعلى تمكين الدول الإفريقية من إدارة مواردها الاقتصادية بفاعلية كبيرة، وربما يكون العامل النفسي أيضًا مسئولاً عن جاذبية النموذج الصيني في إفريقيا التي يتبنى معظم قادتها شعار «التوجه شرقًا». فالصين تعد دولة نامية، وليس لها تاريخ استعماري في إفريقيا، كما أنها في علاقاتها الخارجية لا تحكمها قضايا ومصطلحات من قبيل: «الدول المارقة»، أو «محاور الشر والتطرف» في النظام الدولي. وعليه، يصبح من المهم سياسيًّا واستراتيجيًّا لدول معينة مثل السودان وزيمبابوي وأنجولا، أن تطور علاقاتها مع الصين للتخفيف من غلواء المشروطية الغربية المفروضة عليها[٢٣].

> لعل ما يقلق دوائر صنع القرار ومراكز الفكر الاستراتيجي الغربية هو أن الصين تأتي إلى إفريقيا بنموذج للتنمية السياسية والاقتصادية أكثر قدرة على محاربة الفقر

ولا يخفى أن الصين قد كثَّفت من مجمل تفاعلاتها السياسية والدبلوماسية والاقتصادية مع إفريقيا خلال العقد الحالي. وقد رأى بعض المراقبين أن عام ٢٠٠٦م يمثل نقطة تحول فارقة في تاريخ العلاقات الصينية الإفريقية؛ حيث شهدت بكين انعقاد القمة الصينية الإفريقية بحضور ٤٣ رئيس دولة وحكومة إفريقية.

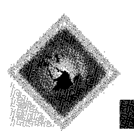
ومن اللافت للنظر حقًّا أن الدبلوماسية الصينية المتعلقة بالملف السوداني قد اتخذت منحًى جديدًا في التعامل مع الانتقادات الغربية، والضغوط المتزايدة عليها فيما يتعلق بقضية دارفور. ولعل العنوان الأبرز لهذا التوجه الصيني الجديد يتمثل في أن «الهجوم خير وسيلة للدفاع»؛ حيث اعتمدت الصين على عدد من التكتيكات الجديدة مثل:

١- إلقاء اللوم على الدول الغربية، ولاسيما فرنسا التي يقيم فيها عبد الواحد محمد نور، زعيم حركة تحرير السودان؛ إذ تشير وجهة النظر الصينية إلى أن أحد أبعاد أزمة دارفور يتمثل في رفض بعض القوى السياسية التي تحمل السلاح التفاوض، فضلاً عن عدم وضوح أجندتها السياسية، وتستطيع الدول الغربية أن تمارس نفوذًا إيجابيًّا علي قادة هذه القوى.

٢- رفض مقولة أن السلاح الصيني هو الذي يغذي نيران الصراع في دارفور. فمن المعلوم أن الولايات المتحدة وروسيا وبريطانيا تعد من أكبر مصدري السلاح للدول النامية ومن بينها السودان. وطبقًا لبعض التقديرات فإن السلاح الصيني لا يتجاوز٨٪ من إجمالي مشتريات الخرطوم من السلاح. فضلاً عن أن السودان تعد ثالث أكبر منتج للأسلحة التقليدية في إفريقيا بعد جنوب إفريقيا ومصر.

٣- التأكيد على الجانب الإنساني للدور الصيني في دارفور. فقد قدمت الصين ١١ مليون دولار، بالإضافة إلى قرض ميسر بقيمة ٩٠ مليون دولار لبناء مرافق إمدادات المياه في شمال دارفور. وتركز المساعدات الصينية

(٢٣) د. حمدي عبد الرحمن حسن، العلاقات الصينية الإفريقية، شراكة أم هيمنة، كراسات استراتيجية، العدد ١٧٢، بتاريخ ١٧، فبراير ٢٠٠٧م.



للإقليم على مشروعات البنية الأساسية، مثل بناء المدارس، وتمهيد الطرق، وتزويد السودان بالمضخات والمولدات الكهربائية.[٢٤]

موقف الأمم المتحدة:[٢٥]

لقد اتسم الفعل الدولي في الأمم المتحدة بالوقوع تحت تأثير القوى الغربية الضاغطة، وعلى رأسها الولايات المتحدة، وهو ما جعل التدخل الإنساني هدفًا بحد ذاته، وليس التوصل إلى تسوية سلمية في دارفور. أفضى ذلك إلى أمرين أساسيين: أولهما تشويه رؤى جماعات التمرد، وتشجيعها على رفع سقف مطالبها السياسية بشكل مبالغ فيه، يفوق قوتها الحقيقية على الأرض. وعلى سبيل المثال فإن عبد الواحد نور طالب بتدخل حلف شمال الأطلنطي كما فعل في الحالة البوسنية، وذلك قبل توقيعه على أي اتفاق سلام مع الحكومة السودانية. وثانيًا فإن الجماعات والتنظيمات الحقوقية الدولية جعلت نشر قوات دولية لحفظ السلام في دارفور على قائمة أولويات الولايات المتحدة ودول أخرى[٢٦].

ويلاحظ أن الأمم المتحدة، وبالتنسيق مع بعض المنظمات الأخرى، تشرف على أربع بعثات لحفظ السلام في المنطقة:

أولها بعثة الأمم المتحدة في السودان، والتي تراقب تنفيذ اتفاق السلام الشامل الذي تم التوصل إليه عام ٢٠٠٥م بين الحكومة السودانية والجهة الشعبية لتحرير السودان.

وثانيا بعثة الأمم المتحدة في دارفور التي حلت محل قوات الاتحاد الإفريقي في ديسمبر ٢٠٠٧م؛ إذ بعد سلسلة من المفاوضات بين الأمم المتحدة والسودان تم التوصل إلى إقرار نشر قوة هجين إفريقية ودولية، وذلك طبقًا لقرار مجلس الأمن ١٧٦٩ كما ذكرنا. وفي حالة تنفيذ هذا القرار يتم نشر نحو ٢٦١٠٠ من قوات حفظ السلام في دارفور، وهو ما يجعلها أكبر قوة حفظ سلام في العالم.

ثالثًا: أقرت الأمم المتحدة بعثة للمراقبة والسيطرة على الأوضاع الإنسانية المضطربة على طول الحدود الشرقية لتشاد والشمال الشرقي لإفريقيا الوسطى. وهي تضم جانبين أحدهما مدني تابع للأمم المتحدة، والآخر عسكري (اليوفور) تابع للاتحاد الأوروبي.

٤- موقف محكمة الجنايات الدولية:

يمكن القول بأن إحالة النزاع الدارفوري إلى محكمة الجنايات الدولية، طبقًا لقرار مجلس الأمن الدولي عام ٢٠٠٥م، يمثل تطورًا مهمًا وبالغ التأثير على تطور الأحداث في دارفور، ولاسيما بعد إصدار المدعي العام الدولي طلب مذكرة اعتقال بحق الرئيس عمر البشير[٢٧].

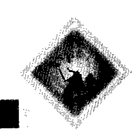
وأحسب أن ثمة عدد من الملاحظات تمثل مقدمة لازمة لقراءة وفهم هذا الحدث الخطير يتمثل أولها في وجود آليات جديدة للنظام الدولي تنال من سيادة واستقلال الدول، ولاسيما النامية منها. فمحكمة الجنايات الدولية التي خرجت إلى حيز الوجود عام ٢٠٠٢م تستطيع محاكمة أي شخص متهم بارتكاب جرائم حرب، أو إبادة جماعية، أو تطهير عرقي بغض النظر عن موقعه ومكانته، وبالتالي لا حصانة لأحد أمامها، كما أنها تسمو على المؤسسات والإجراءات القانونية الوطنية. وقد وافقت ثلاث دول عربية فقط على هذه الاتفاقية، وهي الأردن وجيبوتي وجزر القمر.

(٢٤) "Relief and Recovery: China's Proactive Role in Darfur." BEIJING REVIEW. 51. 11 (2008): 10-11.

(٢٥) حول دور الأمم المتحدة، انظر: هانئ رسلان، أزمة دارفور والقرار ١٧٠٦.. الأبعاد والتداعيات، السياسة الدولية، العدد ١٦٦، أكتوبر ٢٠٠٦م.

(٢٦) Quoted in de Waal, A., 'I will not Sign' in London Review of Book, 30 November 2006. Available from http://www.lrb.co.uk/v28/n23/waal01_.html De Waal, A., 'Dilemmas of Multiple Priorities and Multiple Instruments: the Darfur Crisis' in Accord, Issue 19, 2008. Available from http://www.c-r.org/our-work/accord/incentives/darfur_1.php

(٢٧) Natsios, A., 'Beyond Darfur: Sudan's Slide Toward Civil War', in Foreign Aff airs, 2008. Available from http://www.foreignaffairs.org/20080501faessay87306/andrew-s-natsios/beyond-darfur.html and Natsios, A., 'A Disaster in the Making', 12 July 2008. Available from http://www.ssrc.org/blogs/darfur/2008/07/12/a-disaster-inthe-making/



ثانيًا: تنعقد ولاية المحكمة بالنظر في أي قضية بعد إحالتها إليها من قبل مجلس الأمن الدولي. وهنا يختلط السياسي بالقانوني؛ إذ يمكن لنا أن نتساءل لماذا دارفور، وليست فلسطين أو العراق أو حتى كشمير؟ ولماذا البشير وليس جورج بوش أو إيهود أولمرت؟ كما أن المحكمة تحيل عملية تنفيذ قرارات الاعتقال والمثول أمامها إلى مجلس الأمن، أو أي من الدول الداخلة في عضويتها. ولا شك أن هذا الإجراء يؤثر على سيادة الدول وينال من استقرارها.

ثالثًا: تفتقر المحكمة إلى أجهزة التحقيق في مناطق النزاع، وعليه فإننا نجد في الحالة الدارفورية قيام السيد أوكامبو بالاعتماد على اتهامات مرسلة؛ استنادًا على بيانات استقاها من الإنترنت، ومن المنظمات الحقوقية والأهلية، سواء في الغرب أو حتى في الداخل السوداني، والمعروف عنها انحيازها الأيديولوجي الواضح لصالح أحد أطراف الصراع في دارفور. وعليه فإن قرار السيد أوكامبو يُعدّ غير متوازن، ولا يأخذ بعين الاعتبار حقيقة تعقد الأوضاع في دارفور، وتداخل الأبعاد الإقليمية والدولية.

ولعل الفهم الصحيح لقرار السيد أوكامبو يحتاج إلى التعقل، وإدراك جدية ما يحيق بالسودان وبالنظام العربي برُمّته. يعني ذلك ضرورة عدم تشخيص قرار إحالة البشير والنظر إلى أوكامبو باعتباره عميلاً للغرب أو عدوًّا للعرب. فالرجل يعمل وفقًا لآليات جديدة، وعليه فإن الموقف السوداني ينبغي أن يركز على فساد الإجراءات القانونية التي استند عليها المدعي العام الدولي. كما أن طبيعة وتعقد الصراع في إقليم دارفور قد تعلي من شأن السياسي على القانوني. ومن ثم ينبغي إعادة النظر في القرار للوصول إلى حل توافقي سياسي للمسألة الدارفورية.

أحسب أن أوكامبو لا يحسن فهم أوضاع الصراع في دارفور، ولا يدرك خطورة ما أقدم عليه من اتهام رأس الدولة السودانية. فهو حينما اتهم الوزير أحمد هارون وقائد الجنجويد علي كوشيب اعتبرهما الأخطر في كل ما يحدث من جرائم في دارفور. وها هو اليوم يرى أن البشير هو المسئول الأول عن كل ما يحدث؟

إن هذا القرار الدولي يعكس مدى تدخل الفعل الدولي في المسألة السودانية لتحقيق مآرب ومصالح قوًى بعينها. فقد جاء توقيت القرار في وقت استطاع فيه أهل السودان تحقيق نوع من التوافق السياسي وتجاوز عقبة قانون الانتخابات، كما أن شريكي الحكم تمكنا من تجاوز عقبة مسألة «أبيي» عن طريق اللجوء إلى التحكيم الدولي، وهنا يمكن للمتابع المحايد أن يقول بأن توقيت القرار لم يكن بأي حال لمصلحة السلم والأمن في الدولة السودانية، وإنما -وبعيدًا عن التفكير التآمري- يأتي في سياق سلسلة متصلة الحلقات لمحاولة تفكيك السودان والنَّيْل من سيادته.

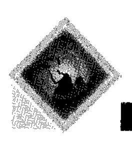
وإذا نظرت قوى الداخل السوداني إلى هذا القرار من منظور سياسي ومصلحي بحت، اعتمادًا على مفهوم «الاستقواء بالخارج»، كما عكسته بوضوح الخبرة العراقية؛ فإن الخاسر الأكبر هو الوطن والدولة السودانية. وعليه فإن على جميع القوى الوطنية الالتفاف والتوحد وعدم رفع سقف مطالبها السياسية؛ حتى يمكن تجاوز تلك الأزمة المحدقة لا أقول بالسودان فحسب، ولكن بالعرب جميعًا.

رابعًا: السيناريوهات والمآلات:

لعل الناظر لمآلات الصراع الدارفوري يستطيع استنادًا على التحليل السابق لمختلف أبعاده ومسبباته الأساسية أن يشير إلى ثلاثة سيناريوهات أساسية على النحو التالي:

١- سيناريو التفكيك والتقسيم:

إذ يمكن في حالة تزايد الضغوط الدولية على حكومة الخرطوم، واستخدام سلاح المحكمة الجنائية الدولية أن تنهار النخبة الحاكمة في الشمال لصالح تحالف المعارضة المتربص بها شمالاً وجنوبًا وغربًا. وعليه فإن نشر قوات دولية ضخمة في غرب السودان الغني بثرواته الطبيعية وفقًا للقرار الأممي ١٧٦٩ يضمن عزل منطقة دارفور عن قلب السودان النيلي الأوسط، ويدعم ذلك



وجـود قـوات أوروبية (اليوفـور) على الحدود التشـادية وحدود جمهورية إفريقيا الوسطى.

وطبقًا لهذا التصور يتم تفكيك السودان إلى كيانات مسـتقلة، أو شبه مستقلة في المحيط والوسط والجنوب؛ وذلـك بهـدف عـزل التأثـير العربـي الإسـلامي والتوكيـد علـى إفريقية وعلمانيـة الكيانـات السـودانية الجديـدة. وربمـا يدعـم ذلـك ثلاثـة اعتبارات أساسـية هي وجود البترول واليورانيـوم في السـودان، واحتـواء مصر من خلال السيطرة على عمقها الاسـتراتيجي في السـودان، وأخـيرًا النفـاذ إلى البحـر الأحمر بحسبانه بحرًا مائيًّا عالميًّا بالغ الأهمية.

وثمـة تباين واضح في الرؤى بين شـريكي الحكومة الوطنية في السـودان إزاء الصراع في دارفور، ولا سـيما نشـر القـوات الدوليـة، وهـو مـا يصنـع ضغوطًـا على حكومة البشـير للقبول بخطة التقسيم الدولي للسودان وفقًا لصيغة القرار ١٧٠٦.

سيناريو بقاء الأوضاع على ما هي عليه:

إذ يتـم وفقًـا لهذا التصور اسـتمرار تدهـور الأوضاع الإنسـانية في إقليم دارفور؛ حيث تعمد الفصائل المختلفة في ظـل حالـة الفوضى وغيـاب الأمـن إلى الانخراط في أعمال السـرقة والسـطو المسـلح والنهب. وهـو ما يؤدي إلى إطالـة عمر المأسـاة الإنسـانية في الإقليم. ولا يخفى أن تغيـير مثل هـذا الوضع الفوضوي يتطلـب ثلاثة أمور أساسـية: حتى يمكـن تفعيل دور قوات حفظ السـلام الدولية:

ضرورة وجود سلام حقيقي حتى يمكن المحافظة عليه.
وجود التزام وإرادة قوية من قِبَل كافة الأطراف للتسوية.
وحدة المواقف الدولية ولا سيما في مجلس الأمن.

ففـي ظـل حالـة الانقسـام والتمـزق السياسـي بـين جماعـات المعارضة السياسـية في دارفـور يصبح الهدف الذي تسـعى إليه كل جماعة هـو الحصول على أفضل صفقـة ممكنة، إمـا سياسـيًّا وإما عسـكريًّا. وعليه يصعـب الاتفاق، وهـو ما أظهـره الرفض العـام لاتفاق سلام دارفور الذي تم توقيعه عام ٢٠٠٦م مع فصيل مني أركون مناوي في حركة تحرير السودان، يعني ذلك أن عمليات حفظ السلام تصبح، والحالة هـذه، مسـتحيلة؛ لأنه لا يوجد سـلام يمكن الحفاظ عليه.

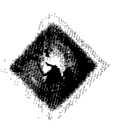
> في ظـل حالـة الانقسـام والتمـزق السياسـي بـين جماعـات المعارضـة السياسـية في دارفـور يصبـح الهدف الـذي تسـعى إليـه كل جماعـة هـو الحصـول على أفضـل صفقـة ممكنـة، إما سياسيًّا وإما عسكريًّا

وعلـى صعيـد آخـر؛ فـإن عمليـة الاسـتقواء بالخـارج مـن جانب كثير مـن أطـراف المعارضة، فالسـيد عبد الواحد نـور يقيم في فرنسـا، ويعتمد على تأليب المجتمع الدولي ضد نظام البشـير، كما أن خليـل إبراهيم تربطه علاقـات وثيقة بنظام إدريس ديبي في تشـاد، ويدفع ذلك كله إلى غيـاب الإرادة التوافقية لإحداث تسوية سلمية شاملة في دارفور. أما على الصعيد الدولـي؛ فـإن اختلاف المصـالح الدوليـة أدى إلى تباين مواقف القوى الكبرى بشأن التعامل مع الملف الدارفوري. يتضح ذلك من معارضة كل من الصين وروسيا للمواقف الغربية المتشددة إزاء السودان في مجلس الأمن.

سيناريو الإصلاح والتسوية:

من المفـترض، والحالة هذه، حدوث اختراق سياسـي كبـير يتـم بمقتضـاه التوصل إلى اتفاق سـلام شـامل لاقتسـام الثـروة والسـلطة في إقليم دارفـور، ولعل ذلك يُعلـي مـن خيـار السـودان الواحـد، وإن كان في إطار وجـود كيانات فيدرالية أكثر اسـتقلالاً عن المركز، ولعـل ذلك المنحى يرتبط ارتباطًا كبـيرًا بإرادة المجتمع الدولـي، والضغـط علـى كافـة الأطـراف الفاعلة في الصراع الدارفوري على قدم المساواة.

ولعل مسـألة طرح تعليق إجـراءات محاكمة الرئيس البشـير أمـام محكمـة الجـزاء الدولية مـن قبل بعض الدوائـر الغربيـة، ولا سـيما فرنسـا يشـير إلى الطبيعة السياسـية للمحكمة؛ نظـرًا لارتباطهـا بمجلس الأمن وتوازناته السياسية المختلفة.



الخيارات الاستراتيجية لحل أزمة دارفور

إصلاح النظام الأمني والقضائي

القسمة العادلة للثروة والسلطة

تحسين مشروعات البنية الأساسية

تبني رؤية متعددة الأبعاد ومتوازية للخروج من الأزمة الراهنة

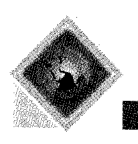
وعلى أية حال فإن المشابهة واردة بين نموذج الجنوب والغرب في الشأن السوداني. إذ على الرغم من وجود بعض المشكلات الاجتماعية والاختلالات الثقافية في الصراع الدارفوري، إلا أن الأبعاد السياسية والاقتصادية تشكل لُبّ القضية. يعني ذلك أن تحقيق القسمة العادلة في السلطة والثروة على نطاق السودان الواحد سوف يكون مدخلاً مهمًا لتسوية قضية دارفور.

والمتصور وفقًا لهذا الاتجاه الإصلاحي أن يتم الاتفاق على إقامة سودان ديمقراطي موحد قائم على الاعتراف بالتنوع العرقي الثقافي، وأن تكون المساواة هي أساس المواطنة في الدولة الجديدة مع الالتزام المطلق بحقوق الإنسان والتنمية الشاملة التي تضمن توزيعًا عادلاً في السلطة والثروة، كما يتم الاعتراف بالمساواة الثقافية والحرية في ممارسة العادات والتقاليد والطقوس الدينية للجميع. وأحسب أن ذلك كله يضمن بناء دولة سودانية جديدة تشمل وتحتوي جميع أبنائها على اختلاف ثقافاتهم وانتماءاتهم العرقية والدينية.

الخاتمة

الخيارات الاستراتيجية:

لقد أضحت الرؤية السائدة حول طبيعة الصراع في دارفور تدور حول مفاهيم الحرب العِرْقية بين المزارعين الأفارقة والبدو الرُّحّل من القبائل العربية، وذلك من أجل الحصول على المياه والكلأ. وعليه فإن المتمردين يمثلون القبائل الإفريقية، بينما وجدت القبائل العربية الدعم من الحكومة السودانية والميليشيات التابعة لها، والمعروفة باسم «الجنجويد». كما أن الصين التي تحصل على نحو ثلثي النفط السوداني لا تمارس أي ضغط حقيقي على الخرطوم من أجل وقف انتهاكات حقوق الإنسان في الإقليم.



ولا شك أن تلك النظرة معيبة ومبالغة في التبسيط الشديد الذي يجافي واقع الأزمة المعقد والمتشابك كما بيّنّا آنفًا. وقد ازدادت الأمور تعقيدًا في مايو ٢٠٠٨م حينما تمكنت مجموعة من متمردي العدل والمساواة من الوصول إلى العاصمة المثلثة، محاولين الاستيلاء على السلطة عنوة، ومن ثم نقل أرض المعركة لأول مرة إلى أم درمان. وأيًّا كان الأمر، فإن ملامح الأزمة الحقيقية تتمثل في وجود أكثر من ٢,٥ مليون شخص مشرد يعيشون في معسكرات للاجئين في دول الجوار، كما قتل نحو (٢٠٠) ألف أو يزيد؛ نتيجة لهذا الصراع الدامي، وهو ما يعني أننا أمام مأساة إنسانية حقيقية.

ويبدو أن الصورة سوف تظل قاتمة على الأمد المنظور؛ حيث يشهد الإقليم تدهورًا حادًّا في الأمن؛ نظرًا لحالة الانقسام الشديد بين الجماعات المسلحة، وعجز القوات الإفريقية والدولية عن حماية المدنيين في الإقليم؛ إذ كيف يتسنى لنحو تسعة آلاف شخص أن يراقبوا ويسيطروا على إقليم في حجم الدولة الفرنسية؟!

إصلاح النظام الأمني والقضائي

يلاحظ أن السودان يعاني أزمة في بناء الدولة الوطنية، وهو ما يعني فشل جهاز الدولة في القيام بالوظائف الأساسية، ولاسيما فما يتعلق منها بالتوزيع السلطوي للقيم وبتحقيق الأمن والنظام في سائر أنحاء إقليمها. وإذا كانت الدولة عاجزة وغير قادرة على السيطرة فإن إصلاح أجهزتها الأمنية والقضائية يعد أمرًا لازمًا للحديث عن تسوية شاملة وعادلة للصراع في دارفور. ولعل ذلك يطرح من الناحية الاستراتيجية قضايا الفساد والجرائم المختلفة، وتوفير إجراءات قضائية لمواجهتها والحد منها. كما أنه يشير كذلك إلى إشكاليات الشرعية السياسية، وضرورة تحقيق توافق سياسي عام بين أهل السودان جميعًا.

القسمة العادلة للثروة والسلطة

لعل أحد المطالب الأساسية لجماعات التمرد التي لجأت إلى حمل السلاح في مواجهة السلطة الحاكمة تمثَّل دائمًا في القسمة العادلة للثروة والسلطة، والحد من عمليات الإقصاء والتهميش التي مارستها النخبة الحاكمة في الخرطوم منذ الاستقلال بحق الأقاليم المختلفة في الجنوب والغرب والشرق. والسودان غني بثرواته الطبيعية والبشرية، ولكي يتم توجيهها لتحقيق التنمية المستدامة يصبح من الضروري توزيعها بشكل عادل بين جميع أبنائه.

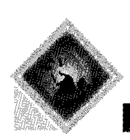
تحسين مشروعات البنية الأساسية:

إذ من المعروف أن السودان تشهد واحدة من أسوأ شبكات الاتصال في العالم. وهي بحاجة إلى تركيز الجهود، وتوجيه الثروة لبناء الطرق والجسور، وتوفير وسائل الاتصال بين مختلف المناطق، ولاسيما تلك التي عانت من التهميش.

تبني رؤية متعددة الأبعاد ومتوازية للخروج من الأزمة الراهنة

إن استراتيجية الخروج من هذا النفق المظلم الذي تسير فيه دارفور وبعض مناطق السودان يقتضي تحقيق إصلاح قضائي وأمني، وهو ما يعني إجراء إصلاحات هيكلية على الأجهزة الوطنية كالشرطة والجيش والقضاء. لكن ذلك يتطلب في ذات الوقت وجود إصلاحات سياسية واقتصادية مهمة، كما يتطلب دعم وتعاون المجتمع الدولي، ولاسيما العربي والإسلامي لإنجاح هذه التوجهات الاستراتيجية للخروج من الأزمة.

ومع ذلك يظل مسار الأزمة الدارفورية ومآلها مرتبطًا بالإرادة الواعية لأطراف الصراع في الداخل والخارج. فإذا كانت قوى الخارج تحاول تحقيق أجندتها السياسية ومصالحها الخاصة؛ فإن قوى الداخل تستطيع أن تواجه ذلك كله من خلال إعلاء الوطني على الخاص، والتأكيد على السودان الواحد؛ عوضًا عن المطالبات الطائفية والإقليمية. وأن يكون الهدف الأسمى للجميع هو الوحدة من خلال التعدد والتنوع.



معلومات إضافية

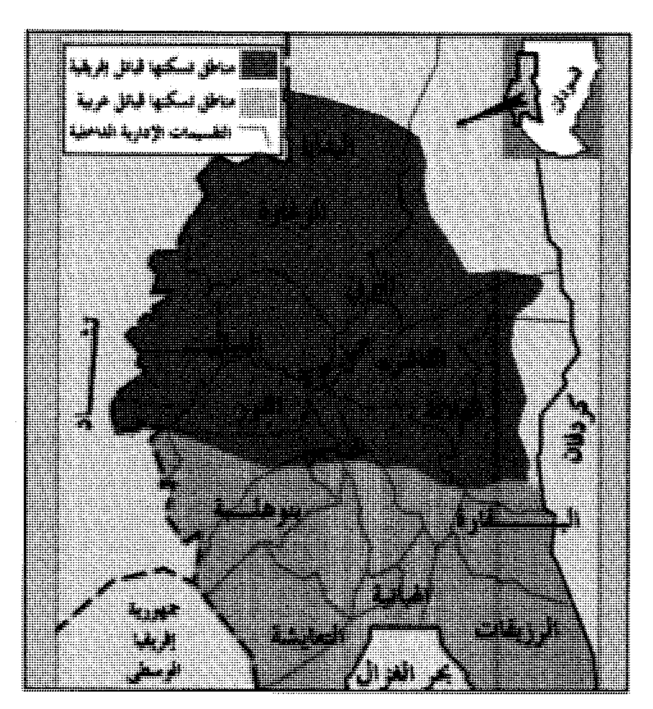
دارفور.. معلومات أولية

يقع إقليم دارفور في أقصى غرب السودان، وتحُدّ الإقليم ثلاث دول: من الشمال ليبيا، ومن الغرب تشاد، ومن الجنوب الغربي إفريقيا الوسطى، فضلاً عن متاخمته لبعض الأقاليم السودانية مثل بحر الغزال وكردفان من الشرق، وينقسم الإقليم إداريًا إلى ثلاث مناطق: شمال دارفور وعاصمته مدينة الفاشر، وجنوب دارفور وعاصمته مدينة نيالا، وغرب دارفور وعاصمته مدينة الجنينة.

تبلغ مساحة دارفور ٥١٠ ألف كم٢، وهي تقدر بخمس مساحة السودان، والغالب على إقليم دارفور كثرة المرتفعات الجبلية، وأهمها جبل مرة؛ حيث يوجد أكثر الأراضي الدارفورية خصوبة.

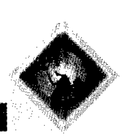
يبلغ عدد سكان الإقليم حوالي ستة ملايين نسمة تقريبًا، وقبائل دارفور متعددة، وتنقسم إلى أعراق زنجية وحامية وسامية، وغالبية سكانها مسلمون «سنّة»، ويقطن في الريف ٧٥٪ منهم وهم «مجموعات القبائل المستقرة» مثل: «الفور» و«المساليت» و«الزغاوة»، و«الداجو» و«التنجر» و«التامة»، بينما يمثل الرعاة الرُّحّل حوالي ١٥٪، وهم «مجموعات القبائل الرحل» مثل: «أبالة» و«زيلات» و«محاميد» و«مهريه» و«بني حسين» و«الرزيقات» و«المعالية»، والباقون يقيمون في بعض المدن، مثل الفاشر، ونيالا، وزالنجي.

وغالبية القبائل المستقرة من الأفارقة، ويتكلمون لغات محلية بالإضافة للعربية، وبعضهم من العرب، أما غالبية قبائل الرُّحّل فهم عرب ويتحدثون اللغة العربية، ومنهم أيضًا أفارقة.



خريطة تقريبية للتوزيع القبلي في دارفور (المصدر:Islamonline.net)

❖ ❖ ❖



دارفور.. من «المملكة الإسلامية» إلى «أرض الصراعات»

كانت دارفور في السابق مملكة إسلامية مستقلة تَعاقب على حكمها عدد من السلاطين، كان آخرهم السلطان علي دينار، وكان للإقليم عُملته الخاصة وعلَمه، ويُحكَم في ظل حكومة فيدرالية يحكم فيها زعماء القبائل مناطقهم، وكانت هذه الفيدراليات مستقلة تمامًا حتى سقطت في الحقبة العثمانية.

وقد اتجه أهل دارفور خلال الحكم العثماني الذي استمر نحو ١٠ سنوات لأسلوب المقاومة، وشكّل الأمراء والأعيان حكومات ظل كانت مسئولة عن قيادة جيش دارفور الموحد الذي كان يشن عمليات المقاومة ضد الجيش التركي.

كما شهد الإقليم عدة ثورات؛ من أشهرها ثورة السلطان هارون التي دحرها غوردون باشا عام ١٨٧٧م، وثورة مادبو بمدينة الضعين، وثورة البقارة. وعند اندلاع الثورة المهدية سارع الأمراء والزعماء لمبايعة المهدي ومناصرته حتى نالت استقلالها مجددًا.

ولم يدم استقلال الإقليم طويلاً؛ حيث سقط مجددًا تحت حكم المهدية عام ١٨٨٤م الذي وجد مقاومة عنيفة حتى سقطت المهدية عام ١٨٩٨م، فعاد السلطان علي دينار ليحكم دارفور.

وعند اندلاع الحرب العالمية الأولى أيد سلطان دارفور تركيا التي كانت تمثل مركز الخلافة الإسلامية؛ الأمر الذي أغضب حاكم عام السودان، وأشعل العداء بين السلطنة والسلطة المركزية، والذي كانت نتيجته الإطاحة بسلطنة دارفور وضمها للسودان عام ١٩١٧م.

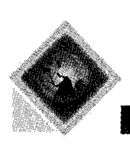
وقد تأثر إقليم دارفور بالثقافة الإسلامية قبل دخول المستعمرين؛ فأقيمت المدارس الدينية لتعليم القرآن والشريعة الإسلامية، وتم إرسال العديد من أبناء الإقليم إلى الدراسة في الأزهر الشريف؛ حيث خصص «رواق دارفور» منذ تلك الفترة، كما كانت هناك نهضة ثقافية وفكرية ساهمت في تلاحم القبائل.

ومما يذكره التاريخ عن السلطان علي دينار أنه كان يكسو الكعبة المشرفة سنويًا، ويوفر الغذاء لأعداد كبيرة من الحجاج فيما يعرف عند سكان الإقليم بـ«قدح السلطان علي دينار» أو «أبيار علي».

وقد مرت على إقليم دارفور الكثير من التطورات والتدخلات التي أثرت على اختلاف ثقافات المنطقة وتنوع أعراقها، خصوصًا مع توطن قبائل من الرُّحّل من غير سكان الإقليم، ومع ظهور الدول الإفريقية نتيجة التقسيم الجغرافي وتعاظم الصراعات المسلحة في المنطقة بدأت تظهر أنواع من الانعزال المكاني والانعزال الاجتماعي والانعزال الفكري.

ورغم أن هذا الإقليم عرف طوال تاريخه الصراعات القبلية على المرعى والأرض ومصادر المياه، لكن هذه الصراعات كانت محدودة، ولم يسمع أحد أن الاختلافات الإثنية والثقافية بين هذه المجتمعات التي تم استغلالها بصورة واسعة في هذا الصراع كان لها دور في أي خلافات بين مجموعتي القبائل المختلفة؛ حيث كان يتم حل النزاعات في مؤتمرات قبلية تنتهي بتوقيع اتفاقيات المصالحة بين أطراف النزاع، غير أن النزاعات والحروب القبلية اتسعت بصورة كبرى مع الوقت، وتشعب النزاع، وتدخلت أطراف دولية وإقليمية.

ونظرًا للمساحة الشاسعة للإقليم، وضعف الحكومات المركزية في الخرطوم، فقد انتشر السلاح في الإقليم،



وتفاقمت النزاعات القبلية، وأصبح أكثر من ٨٥٪ من الصراعات القَبَليّة في السودان يدور في دارفور «المملكة الإسلامية» السابقة.

ميليشيا «الجنجاويد»

هي ميليشيات مسلحة في إقليم دارفور يُنسب إليها القيام بعمليات قتل واغتصاب وتشويه ونهب وإحراق عشرات الآلاف من البيوت، وتشريد مئات الآلاف من الأشخاص في إقليم دارفور.

كلمة «جنجاويد» مكونة من ثلاثة مقاطع هي: «جن» بمعنى رجل، و«جاو» أو «جي» ويُقصد بها أن هذا الرجل يحمل مدفعًا رشاشًا من نوع «جيم ٣» المنتشر في دارفور بكثرة، و«ويد» ومعناها الجواد.. ومعنى الكلمة بالتالي هو: الرجل الذي يركب جوادًا ويحمل مدفعًا رشاشًا.

وهؤلاء غالبًا ما يلبسون ثيابًا بيضاء مثل أهل السودان، ويركبون الخيل، ويهاجمون السكان والمتمردين معًا في دارفور، وهناك روايات عن نهبهم أهالي دارفور، واستهدافهم قبيلة الزغاوة الإفريقية التي خرج منها أحد زعماء حركات التمرد في دارفور، وعن مطاردتهم في الوقت نفسه للمتمردين على حكومة الخرطوم.

وفي حين تتهم حركات التمرد في دارفور ووكالات الإغاثة الدولية «الجنجاويد» بأنهم أعوان الحكومة وتابعوها، وأنهم عرب يشنون هجمات عنيفة على الأفارقة السود من قبائل الفور والمساليت والزغاوة.. تنفي الحكومة السودانية ذلك بشدة، وتقول: إنها لا ولاية لها عليهم، وإنهم يهاجمون قواتها أيضًا.

ولا يعرف عدد أفراد هذه الميليشيا، وإن كانت بعض التقارير تشير إلى أن عددهم صغير جدًّا، ربما بضعة آلاف، لكنهم مسلحون تسليحًا جيدًا بالرشاشات، ويركبون الخيل والجمال، وأن هدفهم من مهاجمة القبائل الإفريقية هو طردهم من بيوتهم، وإجبارهم على التخلي عن موارد المياه والمراعي المهمة للقبائل الرُّحّل ذات الأصول العربية.

كما ذكرت بعض المصادر أن الجنجاويد يعيشون على الرعي، وأنهم تعرضوا لضرر كبير بسبب التصحر الذي قلّل من موارد المياه والمراعي في دارفور بشكل ضخم، وأنهم يهاجمون رجال القبائل الإفريقية؛ لأن منهم يخرج العدد الأكبر من مقاتلي حركات التمرد، وأن هدفهم بالتالي هو القضاء على التمرد من خلال ضرب هذه القبائل.

المصادر:

- محمد جمال عرفة، دارفور.. التاريخ والقبائل والجنجاويد، موقع «إسلام أون لاين»، ٢٠٠٤/٥/٩م.

- هانئ رسلان، دارفور: الأزمة.. والجهات المقاتلة والأدوار الخارجية، موقع «إسلام أون لاين»، ٢٠٠٤/٥/٩م.

- الجزيرة نت، إقليم دارفور ٢٠٠٤/١٠/٣م.

❖ ❖ ❖





أهل السنّة في لبنان

علي حسين باكير

كاتب وباحث سياسي

ملخص الدراسة

لعب سنّة لبنان دورًا مهمًّا في حياة الدولة اللبنانية منذ تأسيسها، فكانوا أكثر حرصًا من غيرهم على وحدة البلاد وتطورها، كما كانت لهم دومًا كلمتهم في مواجهة العدو الإسرائيلي. لكنّ وضعهم الداخلي لطالما اتّسم بالضعف؛ نتيجةً لاغتيال رموزهم ومرجعياتهم، ولعدم انتقال عدوى وحساسية «الطائفية» إليهم، لكنّ الطعنات المتتالية جعلتهم يشعرون أنّهم مستهدَفون، مع ما يترتب على ذلك من شعور بالقهر والظلم والخذلان وعدم النصرة.

وكان لعلاقة أهل السنّة بزعمائهم، وممثليهم على الصعيدين السياسي والديني، وضع خاص، ما دفعهم منذ وقت بعيد إلى السعي لتثبيت قوّة تمثيل مرجعياتهم السياسية والدينية. في وقت كانوا فيه في مرمى جميع القوى الدولية والإقليمية، خاصّة الولايات المتّحدة وإسرائيل وسوريا. وقد بقي سنّة لبنان خارج المعادلة بفعل المؤامرات الداخلية والخارجية إلى أن تم التوصل إلى اتفاق الطائف.

ورغم أن توقيع اتفاق الطائف أدى إلى تعديل صلاحيات رئيس الحكومة فيما بدا وكأنّ نصرًا سياسيًّا تحقق لصالح أهل السنّة، لكن سوريا عملت على تقويض هذه الصلاحيات، فعاد الصراع الداخلي من جديد، حتى مجيء رفيق الحريري إلى رئاسة الوزراء وتسليطه الضوء على موقع السنّي في التركيبة السياسية اللبنانية، بما يتمتع به من علاقات سياسة واقتصادية واسعة.

ومع وصول النفوذ الحريري إلى قمّته في لبنان وخارجه، تم اغتياله بعملية تفجيرية هائلة، لتجد الطائفة السنيّة نفسها تحت الأضواء؛ نتيجة فقدانها الرمز الذي طالما كانت تسعى إليه، ما أعاد إليها ذاكرة المؤامرات التي استهدفتها عبر اغتيال رموزها وأعمدتها السياسية والدينية، ما أدى لاشتداد العداء للنظام السوري، وبالمقابل ازدياد قاعدة تيار المستقبل السنية، وازدياد الوعي بعدم التفريط بالحقوق، والالتفاف حول مركز رئيس الوزراء كمرجعية سياسية، وإيلاء اهتمام أكبر بموقع مفتي الجمهورية.

إن السنّة يواجهون في المرحلة المقبلة تحدّيات جِسام ليس أقلّها اتسّاع دائرة الخطر التي تمثّلها على الصعيد الداخلي بعض القوى والأحزاب والطوائف التي تعمل على العبث بمصير ومقدّرات أهل السنّة والجماعة تحت شعارات متعدّدة ومختلفة، وبكافة الوسائل الإعلامية والمالية والتنظيمية، وحتى بالقوة العسكرية والسلاح، وهم يحتاجون إلى تعزيز وعيهم بهذا الخطر، والعمل على احتوائه.



أهل السنّة في لبنان

علي حسين باكير
كاتب وباحث سياسي

تمهيد

لطالما انعكس الوضع العربي على وضع الطائفة السنيّة في لبنان خلال العقود الماضية، وقد لعب سنّة لبنان الذين اعتبروا أنفسهم امتدادًا للعمق العربي والإسلامي دورًا مهمًّا في حياة الدولة اللبنانية منذ تأسيسها وحتى اليوم، كما كانت لهم كلمتهم في مواجهة العدو الإسرائيلي على الدوام. لكنّ وضعهم الداخلي لطالما اتّسم بالضعف؛ نتيجةً لاغتيال رموزهم ومرجعياتهم من جهة، ولعدم انتقال عدوى وحساسية «الطائفية» الموجودة في الطوائف اللبنانية الأخرى بقوّة، على اعتبار أنّ عمقهم العربي هو في نفس الوقت عمقهم السّني، لكنّ الطعنات التي تلقوها لاسيما خلال فترة الوجود السوري في لبنان وإثر اغتيال الحريري، قد ساهمت في تغيير بعض الخصائص المميزة لهم، فهم باتوا يشعرون أنّهم مستهدَفون؛ مع ما يترتب على ذلك من شعور بالقهر والظلم والخذلان وعدم النصرة.

من هذا المنطلق، نحاول في هذه الدراسة تسليط الضوء على وضع الطائفة السنيّة في لبنان، وذلك من خلال الاعتماد على «المنهج المتكامل»، والذي يقوم على المزج بين العمق الذي يتيحه المنهج التاريخي، والشمول الذي يعطيه المنهج الوصفي التحليلي، وذلك في محاولة للإحاطة بالدراسة موضوع البحث، من خلال الإحاطة بمختلف التطورات التي لحقت بها منذ استقلال لبنان، وحتى يومنا هذا. وتقسم الدراسة إلى أربع نقاط أساسية، يسبقها تمهيد، ويليها خاتمة، وذلك على الشكل التالي:

أولاً: دور أهل السنة تاريخيًّا في لبنان وعلاقتهم بمرجعياتهم:

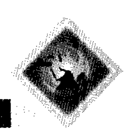
ويتضمن هذا المحور شرحًا لدور أهل السنة في لبنان وتوجهاتهم العامة منذ الاستقلال، بالإضافة إلى علاقة أهل السنّة بزعمائهم، وبممثليهم على الصعيدين السياسي والديني، وعددهم وتوزعهم الجغرافي.

ثانيًا: واقع أهل السنة في لبنان (قبل وبعد اتفاق الطائف ١٩٨٩م):

ويتضمن هذا المحور تسليطًا للضوء على على واقع أهل السنّة في لبنان قبل وبعد اتّفاق الطائف، وعلى موقعهم في الصراع على الصعيد الداخلي والخارجي خلال تلك الفترة، وفي أجندات القوى الدولية والإقليمية.

ثالثًا: التحولات التي طرأت على أهل السنة في لبنان بعد اغتيال الحريري:

ويتضمن هذا المحور شرحًا لأهم التحولات التي أصابت الطائفة السنيّة، والكيفية التي تبلورت عليها، ونتائجها على الوضع داخليًّا، وعلى نظرة الطائفة السنيّة لموقعها ودورها في لبنان، والهواجس والمخاوف التي طالتها إثر عملية الاغتيال لموقع وشخص ممثلها السياسي.



رابعًا: خلاصة عن عناصر الضعف والقوة لدى الطائفة السنيّة:

ويتناول هذا المحور هذه العناصر، والتي أظهرتها الأحداث الأخيرة، وسلّطت الضوء عليها، (منها اعتداء حزب الله في ٧ آيار على أهل السنّة أهل بيروت، واستهداف حلفائه للطائفة السنيّة) ليصار بالتالي إلى الإلمام بها ومحاولة معالجتها.

وأخيرًا الخاتمة.

أولاً: دور أهل السنة تاريخيًّا في لبنان وعلاقتهم بمرجعياتهم:

لم يكن لبنان، بحدوده الحالية، ومساحته البالغة ١٠٤٥٢ كيلو مترًا مربعًا، بلدًا معروفًا قبل ٣١ أغسطس ١٩٢٠م، تاريخ إعلان الجنرال «غورو» الفرنسي دولة لبنان الكبير، حيث ضمَّ إليه -وفق القرار الشهير ٣١٨- ولاية بيروت مع أقضيتها وتوابعها (صيدا وصور، ومرجعيون وطرابلس، وعكار) والبقاع مع أقضيته الأربعة (بعلبك، والبقاع، وراشيا وحاصبيا)، فاتسعت مساحته من ٣٥٠٠ كيلو مترًا مربعًا إلى ١٠٤٥٢ كيلو مترًا مربعًا، وازداد سكانه من ٤١٤ ألف نسمة إلى ٦٢٨ ألفًا.[1]

أما قبل ذلك التاريخ فكان هذا البلد جزءًا من أراضي سورية، يُطلق عليه اسم «جبل لبنان»، ويضمّ قسمًا من سلسلة جبال لبنان الغربية، امتدت من بلدة بشرى شمالاً حتى بلدة جزين جنوبًا. وقد شكّل هذا البلد الصغير مع سورية والأردن وفلسطين بأشكالها الحالية ما يُعرف في التاريخ الإسلامي ببلاد الشام، تلك الأرض الإسلامية التي مدحها رسول الله -صلى الله عليه سلم-، وذكر محاسنها إلى قيام الساعة.

تاريخيًّا لم يكن أهل السنة في لبنان يؤيدون انفصال المناطق العربية عن السلطنة العثمانية في أوائل القرن العشرين، بل طالبوا بإجراء إصلاحات داخلية تؤمن مشاركة أكثر للعرب في حكم هذه السلطنة.[2]

فالمسلمون أهل السنّة والجماعة هم الذين أقاموا نظام الدولة الإمبراطورية التي كانت تجمع مصر وبلاد الشام والمغرب العربي، وقد اعتاد السنيّ منذ أكثر من ١٤٠٠ سنة على هذا النظام الوحدوي، ولم يتخل عنه مطلقًا، وبالرغم من إعلان دولة لبنان الكبير عام ١٩٢٠م، ومن ثمّ إعلان الجمهورية اللبنانية عام ١٩٢٦م، فقد حرص السنة على إعلان رفضهم الشديد للانفصال عن سوريا الطبيعية، لذلك عقدوا بين عامي ١٩٢٠ و١٩٤٣م مؤتمرات الساحل والأقضية الأربعة الوحدوية؛ رفضوا من خلالها الانفصال عن سوريا الكبرى إلى أن جاءت التسوية عام ١٩٤٣م بين الرئيسين بشارة الخوري ورياض الصلح، متضمنة اعتراف المسلمين عامة، والسنّة خصوصًا، بهذا الكيان الجديد، بشرط تحقيق العدل والمساواة بين الجميع في الدولة اللبنانية.[3]

وعلى الرغم من أنّ ذلك لم يحصل نتيجة لاستئثار المسيحيين الموارنة بمفاصل الدولة آنذاك، إلاّ أنّ السنة أصبحوا أكثر حرصًا من غيرهم على وحدة البلاد وتطورها، واستمرارها على قاعدة أنها جزء من المحيط العربي الإسلامي السني، وأنّهم امتداد وجزء لا يتجزأ من الأمة العربية والإسلامية، وهذا ما يفسّر تفاعلهم مع قضايا هذه الأمة، فكانوا كلما أُوقدت نار للعروبة أو للإسلام في ديار العرب والمسلمين هبوا لنصرتها وتبني مبادئها.[4]

أ- علاقتهم مع مرجعياتهم:

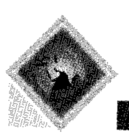
يتبع السنّة في لبنان، تقليدًا، مرجعيتين أساسيتين، الأولى سياسية تمثّلها بعض العائلات الشهيرة التي كان لها دور كبير في تمثيل السنّة على الساحة السياسية

(١) للتفاصيل عن إعلان دولة لبنان الكبير، انظر: غسان عيسى، العلاقات اللبنانية - السورية، بيروت، شركة المطبوعات للتوزيع والنصر، ط١، ٢٠٠٧م، ص٢٧.

(٢) نهى قاطرجي، طوائف لبنان والمشي فوق الألغام، النسخة الإلكترونية، ص٢-٣..

(٣) راجع: الطائفة السنيّة أمام عواصف المتغيرات، دولة الطوائف.. والرئاسة، المركز العربي للمعلومات، بيروت، العدد ٥٠، يناير ٢٠٠٨م، ص٦٢.

(٤) نهاد قاطرجي، مرجع سابق.



في لبنان منذ الاستقلال، وحتى اليوم، وغالبًا ما يمثلها موقع رئيس مجلس الوزراء. وهو أعلى منصب سياسي لتمثيل السنّة في لبنان، أُسند منصب رئيس الوزراء إثر الاستقلال إلى الطائفة السنيّة، حيث كرّس العُرف الدستوري والميثاق الوطني الذي اعتُمد في العام ١٩٤٣م منصب رئاسة الوزراء للسنّة، وهو يأتي ثالثًا في سلّم التراتبية في مناصب الدولة بعد منصب رئيس الجمهورية الذي أُسنِد إلى المسيحيين الموارنة، ومنصب رئيس المجلس النيابي التشريعي الذي أُسند إلى الشيعة.

> ساهم تعدد الولاءات والانتماءات في إضعاف السنّة داخليًا، وإن لم يكونوا يأبهون لذلك كثيرًا على اعتبار أن لهم عمقًا عربيًا وإسلاميًا على امتداد الوطن العربي

والثانية دينية ممثلة في مفتي بيروت، أو ما عرف فيما بعد بمفتي الجمهورية الدينية؛ حيث يدير شئون الطائفة من الناحية الدينية، ويمثلها ضمن هذا الإطار حاليًا المفتي محمد رشيد قباني الذي عيِّن في عام ١٩٨٤م أمينًا للفتوى إثر اغتيال المفتي الشهير حسن خالد، ثم تمّ انتخابه مفتيًا للجمهورية في ٢٨ كانون أول ١٩٩٦م.[٥]

وبين هذين الانتماءين هناك عدد من الانتماءات المتنوعة والمتعددة التي تختزلها الأحزاب السياسية أو الدينية التي لها وجودها وتمثيلها على الساحة السنيّة.

وقد ساهم تعدد الولاءات والانتماءات في إضعاف السنّة داخليًا، وإن لم يكونوا يأبهون لذلك كثيرًا على اعتبار أنّ لهم عمقًا عربيًا وإسلاميًا على امتداد الوطن العربي، كما أنّ كثيرين منهم كانوا من العائلات الغنية أو الميسورة، فلم تكن تعنيهم هذه الأمور كثيرًا، ولم يكن لديهم عقدة الأقلية أو التهميش، على الرغم من الظلم الذي تعرضوا له على مدى تاريخ الدولة اللبنانية.

ب- عددهم وتوزعهم الجغرافي:

يتوزع السنة في لبنان اليوم بين مناطق غير مرتبطة جغرافيًا ببعضها البعض، فيتمركزون في محافظة الشمال وبعلبك، والعاصمة بيروت، وشرق البقاع الغربي وصيدا.

(٥) نهاد قاطرجي، مرجع سابق.

والسنة هم الطائفة الأكثر عددًا بين الطوائف الـ١٨، وبحسب إحصاءات غير رسمية فهم يشكلون ما يزيد على ثلث سكان البلاد البالغ عددهم نحو ٤ ملايين نسمة.[٦]

من المعروف أن آخر إحصاء رسمي معلن في لبنان جرى في العام ١٩٣٢م، وتبين من خلاله أن عدد المسلمين هو ٤٦٩،٣٨٦ نسمة بينما بلغ عدد المسيحيين ٩٤٦،٣٩٦ نسمة.

لم يجر إحصاء رسمي بعد ذلك، ما سمح بطرح أرقام غير دقيقة وفق الحاجة السياسية لهذا الطرف أو ذاك، لكن المسلّم به عند الجميع أن لبنان بلد أقليات لا تشكل أية طائفة منفردة فيه أكثرية مطلقة، وأن عدد أبناء الطوائف المسلمة بات أكثر من مجموع الطوائف المسيحية خلافًا لما كانت عليه الحال أيام الانتداب الفرنسي.[٧]

صحيفة اللواء نشرت تحقيقًا في ٢٠٠٦/٧/١٣م للدكتور حسان حلاق أشار فيه إلى أن الطائفة السُنية هي أكبر الطوائف اللبنانية حاليًا، وبالعودة إلى نسبة التزايد السكاني فيها؛ فإنها ستبقى مبدئيًا كذلك حتى العام ٢٠١٥م.

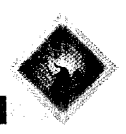
كما أشار التقرير إلى أن كافة الطوائف الأخرى في لبنان عدا السنة والشيعة في حالة جمود، أو تناقص سكاني نتيجة تركيبتها أو هجرة عائلاتها. أما صحيفة النهار فقد ذكرت غير مرة في العامين الأخيرين أرقامًا للمسيحيين بكافة طوائفهم لا تزيد عن حدود الـ٤٠٪.[٨]

واستنادًا إلى دراسة نشرتها العام الجاري مجلة «الشهرية» الصادرة عن «الدولية للمعلومات» المعنية بالإحصاءات واستطلاعات الرأي، يشكل المسلمون

(٦) تقرير عن السنّة في برنامج بانوراما على فضائية العربية، أزمة الطائفة السنيّة في لبنان؟ ٢٠٠٥/٨/١١م.

(٧) راجع مقال: فادية شامية، ماذا عن الأرقام غير المسئولة للطوائف اللبنانية؟ صحيفة الأمان، ٢٠٠٦/٩/١٥م.

(٨) نفس المرجع السابق.



السنّة ٢٩,٢٤٪ من سكان لبنان، فيما يشكّل المسلمون الشيعة ٢٩,١٧٪.[٩]

وفي غياب الإحصاءات الرسمية عن عدد كل طائفة في لبنان، يمكن اللجوء إلى الأرقام الرسمية المتعلقة بلوائح الشطب الانتخابية للاستدلال على حجم كل طائفة؛ حيث أشارت أرقام وزارة الداخلية في لبنان إلى أنّ الناخبين السنّة للعام ٢٠٠٥م يشكّلون ٢٦,٥٪ من مجمل الناخبين، يليهم الشيعة ٢٦,٢٪ وبعدهم الموارنة ٢٢,١٪.[١٠]

وحسب الجدول الرسمي الذي نشرته جريدة السفير آنذاك، فإن الناخبين السنّة يمثلون نحو ٥٢٪ من ناخبي الشمال و٤٣٪ من ناخبي بيروت، ولديهم وجود لا بأس به في البقاع بنحو ٢٤٪، أما في الجنوب فنسبة ناخبيهم هي ١١,٦٪ فقط، وحضورهم الأقل هو في جبل لبنان بنحو ٨,٢٪ من الناخبين.[١١]

ثانيًا: واقع أهل السنّة (قبل اتفاق الطائف، وبعد اتفاق الطائف)

أ- قبل اتّفاق الطائف:

١- في الصراع على الصعيد الداخلي

يفتخر السنّة أنّهم لم يدخلوا الحرب الأهلية اللبنانية على شاكلة باقي الطوائف، وقد كانت صفحتهم ناصعة، واكتفوا بموقف المدافع، خاصّة بعد أنّ تمّ اتهام الفلسطينيين بأنّهم جيش السنّة في لبنان، وذلك كذريعة للانقضاض عليهم وعلى مناطقهم، وحرمانهم من دورهم الريادي العروبي في لبنان. وإذا عدنا إلى الذاكرة نجد أنه عندما وُجدت محاولة جادة لإقامة تسوية قبل اتفاق الطائف كانت الأطراف المتناحرة في لبنان هي الموارنة والشيعة والدروز، وتمثل ذلك في الاتفاق الثلاثي. والسنة لم يكونوا على هذه المائدة؛ لأنهم لم يكونوا طرفًا في هذا النزاع المسلح، فهم طرف أساسي في الصراع مع إسرائيل، وهم حاضنون للمقاومة الفلسطينية ومؤيدون للوحدة الوطنية، ولم يكونوا في يوم من الأيام طرفًا داخليًا في النزاع، بمعنى أنهم يريدون العيش منفردين دون سواهم.

> يفتخر السنّة أنّهم لم يدخلوا الحرب الأهلية اللبنانية على شاكلة باقي الطوائف، وقد كانت صفحتهم ناصعة، واكتفوا بموقف المدافع

بالنسبة للسنّة تمثّل الصراع على الصعيد الداخلي اللبناني آنذاك في تثبيت قوّة تمثيل مرجعياتهم السياسية والدينية؛ فقد ظلّ موقع رئيس الحكومة منقوص الصلاحيات خلال فترة طويلة؛ نتيجة لاحتكار رئيس الجمهورية (المسيحي- الماروني) لكافة الصلاحية؛ حتى تلك العائدة لرئاسة الحكومة والتعيينات الأخرى، حيث كان يحق له تعيين رئيس الوزراء والوزراء، كما يحق له القيام بإقالتهم جميعًا، الأمر الذي أدّى إلى نشوب العديد من الخلافات في تلك الفترة، حتى قام عديدون بوصف الصلاحيات المعطاة لرئيس الحكومة بمثابة تلك الموجودة عند «الباش كاتب».

ولقد عانى كثيرٌ من رؤساء الوزراء السُنّة من هذا الأمر، ونذكر من هؤلاء رئيس الوزراء «سامي الصلح» الذي أطلق كلمة (باش كاتب) على رئيس الحكومة، وكان مما قاله[١٢] في مجلس النواب بتاريخ ١٩٥٢/٩/٩م: «إنهم يريدون أن يكون رئيس الوزراء آلة طيّعة في أيديهم لتنفيذ مآربهم، وتحقيق مطامعهم، وخدمة مصالحهم الخاصة، وبما أننا حاولنا أن نحكم ونعيد الحكم إلى السراي، قامت قيامتهم علينا ودبّروا المؤامرات في الغرف السوداء للحيلولة دون تحقيق الإصلاح المنشود».

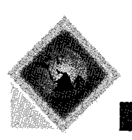
ومنهم أيضًا الرئيس «رشيد كرامي» الذي قال في بيان الاعتذار بتاريخ ١٩٦٩/١٠/٢٢م: «لكن ليس من

(٩) راجع مقال: أيمن المصري، لبنان منقسم.. حتى في الأعياد!، إسلام أون لاين. نت ٢٠٠٧/١٢/١٧م، على الرابط التالي:
www.islamonline.net/servlet/Satellite?c=ArticleA_C&pagename=Zone-Arabic-News/NWALayout&cid=1196786391375

(١٠) لمزيد من المعلومات حول انتخابات ٢٠٠٥م، راجع ملف الانتخابات النيابية ٢٠٠٥م، وزارة الداخلية اللبنانية، على الرابط التالي:
www.moim.gov.lb/UI/elections.html

(١١) راجع مقال: محسن صالح، السنّة في لبنان وانتخابات المجلس النيابي القادمة، موقع الجزيرة دوت نت، ٢٠٠٦/٢/١٣م، على الرابط التالي:
www.aljazeera.net/NR/exeres/B397EF9C-5AB44-CEE-BC153692-A57E943C.htm

(١٢) نهاد قاطرجي، مرجع سابق.



المعقول في شيء أن يحمل المرء مسئولية ما لا رأيَ له فيه، ومن باب أولى بأن لا يحمل مسئولية ما يختلف مع رأيه وتفكيره ومعتقده».[13]

٢- في الصراع على الصعيد الخارجي:

كان السنّة في مرمى جميع القوى الدولية والإقليمية آنذاك، خاصّة بالنسبة للولايات المتّحدة وإسرائيل وسوريا. ويمكن تلخيص العناصر التي وضعت أهل السنّة تحت مجهر هذه القوى في ذلك الوقت بما يلي:

١- سنّة لبنان هم الحاضن الأساسي لفكر ونهج وعقيدة المقاومة، وتحرير الأراضي المحتلّة التي تمثّلت بشكل رئيس آنذاك في المنظمات الفلسطينية الموجودة في لبنان، وقد تعرضّوا لضغوط كبيرة ليتخلوا عن هذا الدور وهذا الموقع.

٢-كون الطائفة السنيّة بمثابة رأس الحربة في مواجهة إسرائيل، وهي الطائفة الوحيدة كما ذكرنا التي لم تنخرط في الحرب الأهلية فيما بعد، ولم يشغلها ذلك عن العدو الأساس والرئيس لها، والمتمثّل بإسرائيل. أزعج ذلك عددًا من اللاعبين الإقليميين والدوليين. فإسرائيل أصبحت تخشى من نفوذ السنّة المتزايد في لبنان، ومن أنّ أي نجاح ممكن أن تحققه في هذا الإطار قد يطلق حملة مقاومة عربية وإسلامية على مستوى العالم العربي بأسره.

أمّا اللاعب الإقليمي الثاني وهو سوريا، فقد رأت أنّ حالة الصعود السنّي (والتي حُسب الفلسطينيون آنذاك من ضمنها) تعتبر حالة شاذة تضر بالأمن القومي السوري، وتشكّل -لأسباب عديدة- تهديدًا لمستقبل النظام السوري «العلوي»، ومستقبل التهدئة في الجولان مع إسرائيل بعد حرب ١٩٧٣م.

وقد خضع السنّة آنذاك لصفقة دولية وإقليمية، اقتضت إعطاء سوريا الضوء الأخضر للتدخّل في لبنان من أجل قمعهم. وهكذا التقت مصلحة إسرائيل وسوريا على حساب السنّة والمقاومة الفلسطينية، وشكّل الطرفان كمّاشة مميتة بعد دخول إسرائيل من الجنوب إلى بيروت عام ١٩٨٢م، ودخول سوريا من الشمال وهجومها على طرابلس عام ١٩٨٣م، وقد أدّى ذلك إلى تدهور كبير في موقع الطائفة السنيّة في لبنان بعد تدخل عسكري وسياسي ضدّها، وإلى انكماشها، ومن ثمّ طرد الفلسطينيين، واضطهاد أهل السنّة في لبنان.

وبعد تصفية السوريين للأرضيّة السنيّة الحاضنة للمقاومة الفلسطينية، أُوكل تنفيذ الاضطهاد، في شقه اللبناني، إلى حركة أمل الشيعية التي استهدفت المخيمات الفلسطينية وأيضًا المناطق البيروتية السنيّة، ومنها منطقة «الطريق الجديدة».

وتمّ محاربة مفتي الجمهورية اللبنانية الشيخ حسن خالد، والسعي إلى تقزيمه عبر إطلاق صفة «مفتي الطريق الجديدة» عليه قبل تعرضه للتصفية النهائية في عملية اغتيال تلت اغتيال رجل الدين السني «القوي» الشيخ الدكتور صبحي الصالح.[14]

وقد بقي سنّة لبنان خارج المعادلة بفعل المؤامرات الداخلية والخارجية إلى أن تم التوصل إلى اتفاق الطائف برعاية سعودية مباشرة لإنهاء الحرب الأهلية وإعادة توزيع السلطة.

ب- بعد اتفاق الطائف وحتى اغتيال الحريري

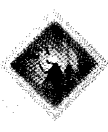
١- في الصراع على الصعيد الداخلي:

في العام ١٩٨٩م، تم توقيع اتفاق الطائف في المملكة العربية السعودية لإنهاء الحرب اللبنانية، وكان من ضمن هذا الاتفاق الذي شمل جميع الطوائف اللبنانية، تعديل صلاحيات رئيس الحكومة؛ لكي يخرج من كونه مجرد دمية يحرّكها رئيس الجمهورية، ويفرض عليها قراراته.

---

(١٣) نفس المرجع السابق.

(١٤) راجع: مقال: محمد سلام، مصارحة، موقع ناو ليبانون، على الرابط التالي: http://www.nowlebanon.com/Arabic/NewsArticleDetails.aspx?ID=60792.



صلاحيات رئيس الجمهورية قبل وبعد اتفاق الطائف (دور أكبر لرئيس الحكومة)[١٥]

المادة	النص السابق	النص الجديد النافذ
٥٢	يتولى رئيس الجمهورية المفاوضة في عقد المعاهدات وإبرامها ويُطلع المجلسين عليها حينما تمكنه من ذلك مصلحة البلاد وسلامة الدولة.	يتولى رئيس الجمهورية المفاوضة في عقد المعاهدات الدولية وإبرامها بالاتفاق مع رئيس الحكومة. ولا تصبح مبرمة إلا بعد موافقة مجلس الوزراء
٥٣	يعين رئيس الجمهورية الوزراء منهم رئيسًا ويقيلهم، ويولي الموظفين مناصب الدولة ما خلا التي يعين القانون شكل التعيين لها على وجه آخر، ويرأس الحفلات الرسمية.	يسمي رئيس الجمهورية رئيس الحكومة المكلّف بالتشاور مع رئيس مجلس النواب استنادًا إلى استشارات نيابية ملزمة يطلعه رسميًّا على نتائجها، يصدر بالاتفاق مع رئيس مجلس الوزراء مرسوم تشكيل الحكومة ومراسيم قبول استقالة الوزراء أو إقالتهم، يدعو مجلس الوزراء استثنائيًّا كلما رأى ذلك ضروريًّا بالاتفاق مع رئيس الحكومة.
٥٤	مقررات رئيس الجمهورية يجب أن يشترك معه في التوقيع عليها الوزير المختص	مقررات رئيس الجمهورية يجب أن يشترك معه في التوقيع عليها رئيس الحكومة والوزير المختص
٦٤	يتولى الوزراء إدارة مصالح الدولة ويُناط بهم تطبيق الأنظمة والقوانين، كلٌّ بما يتعلق بالأمور العائدة إلى إدارته، وبما خُصَّ به.	يرأس مجلس الوزراء. يوقع مع رئيس الحكومة جميع المراسيم ما عدا مرسوم تسميته رئيسًا للحكومة ومرسوم قبول استقالة الحكومة، أو اعتبارها مستقيلة، يدعو مجلس الوزراء إلى الانعقاد، ويضع جدول أعماله، ويُطلِع رئيس الجمهورية مسبقًا على المواضيع التي يتضمنها، وعلى المواضيع الطارئة التي ستبحث.

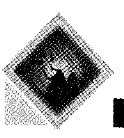
وهكذا، بدا وكأنّ نصرًا سياسيًّا تحقق لصالح أهل السنّة في تثبيت صلاحيات القيادة السياسة لهم في نظام الدولة السياسي، لكن الوجود السوري في لبنان كان له تأثير كبير على هذا الوضع؛ حيث عملت على تقويض هذه الصلاحيات، فعاد الصراع الداخلي إلى موقعه من جديد.

وقد جاء رفيق الحريري «فيما بعد إلى رئاسة الوزراء في الفترة من ١٩٩٢- ١٩٩٨م وخلال الفترة ٢٠٠٠- ٢٠٠٤م في محاولة لتغيير هذا الواقع وبطرق غير تصدامية، وقد مثّل الحريري الذي ينحدر من مدينة صيدا نموذجًا جديدًا للواقع السنّي؛ إذ إنه لم ينحدر من عائلة سياسية، بل خرج من عالم الأعمال، وكان يتميز بالذكاء والعلاقات الواسعة والشخصية المميزة.

كان الحريري يرى مشروعًا لبناء دولة تتخطى بحدودها الطوائف، يكون المحرك الأساسي لها الاقتصاد والعلم والمعرفة، حتى إنّ كثيرين من السنّة ألقوا عليه اللوم لعدم اهتمامه بالطائفة السنيّة على الشاكلة التي يقوم بها زعماء الطوائف الشيعية والدرزية بالخصوص. في المقلب السنّي كان هناك العديد من وجهات النظر تجاهه، البعض كان يرى أنّ دخوله الساحة السياسية يقلّص من نفوذ العائلات السنيّة السياسية العريقة كسلام، والصلح، وكرامي، البعض الآخر كان يرى فيه مشروع دولة؛ يمثّل الطموح السنّي العروبي الواسع.

وبغض النظر عن وجهات النظر هذه، فقد استطاع الحريري أن يسلّط الضوء على موقع السنّي في التركيبة السياسية اللبنانية، بما يتمتع به من علاقات سياسة واقتصادية واسعة مع العديد من زعماء العالم، وهو استطاع أن يشكّل في الداخل اللبناني تيارًا يضم شخصيات من مختلف الطوائف اللبنانية «تيار المستقبل»، وأن يخلق ظاهرة «الحريرية»؛ إذ لم تشهد الطائفة السنية في لبنان مثل هذا الامتداد عبر المناطقي

(١٥) انظر الدستور اللبناني بجميع تعديلاته على الرابط التالي:
WWW.lp.gov.lb/doustour/default.htm



«الموحد» الولاء إلا عبر الظاهرة «الحريرية» نسبة إلى تيار الرئيس الراحل رفيق الحريري، وأن تحظى في الوقت نفسه بتأييد قطاعات واسعة في أوساط الطوائف الأخرى في لبنان.(١٦)

فطوال السنوات السابقة شهدت الطائفة السنية زعامات محلية ومناطقية في بيروت، وفي طرابلس وفي صيدا تتنافس في ما بينها من دون أن يقدر أي زعيم على توحيد كل أبناء الطائفة تحت قيادته، أو أن يمد «نفوذه» إلى مناطق الزعيم الآخر، كما شهدت هذه الطائفة ديناميكية حزبية وسياسية واسعة ومتنوعة اتسمت طوال العقود الماضية بطابعها العروبي الإسلامي الذي عبّرت عنه ظواهر الناصرية، والبعث والقومية، والمقاومة الفلسطينية التي انتمى إليها أبناء هذه الطائفة قبل أن تنشط في داخلها أيضًا «الظاهرة الإسلامية» باتجاهاتها كافة، مثل ما حصل في أكثر من بلد عربي وإسلامي. والطائفة السنية لا تتسم بعصبية انغلاقية تدفعها إلى الدمج بين زعامة العائلة وزعامة الطائفة، فهي ذات امتداد عربي وإسلامي واسع يحقق لها توازنًا «داخليًا» وحماية طبيعية، خلافًا لطوائف أخرى أقلية تزداد انغلاقًا كلما شعرت بالذوبان في المحيط الأوسع.(١٧)

بعض الخصوم من الطائفة السنيّة والطوائف الأخرى أخذ يحرّض ضدّه تحت عناوين وشعارات مختلفة لما رأى بنفوذه خطرًا متزايدًا سياسيًّا وشعبيًّا، واجتماعيًّا واقتصاديًّا يرفع من دور السنّة، ومن دور لبنان على الخريطة الإقليمية والعالمية.

٢- في الصراع على الصعيد الخارجي:

بعد الاستقرار العسكري السوري في لبنان، التقت المصالح الإقليمية مع طوائف عديدة، خاصّة بين سوريا والطائفة الشيعية؛ لارتباط عضوي مصلحي يتعلّق بأهداف إقليمية ودولية، وقد جاء ذلك أيضًا على حساب الطائفة السنيّة من الناحية الاجتماعية والسياسية، وقد

عانى السنّة أثناء الوجود السوري مع شرائح كثيرة من الطيف اللبناني من الآثار السلبية لهذا الوجود، وعلى الرغم من ذلك فقد صبروا، إلاّ أنّ «التجارة» بالطائفة السنيّة -إذا صح التعبير- عادت من جديد مع دخول السوريين في صفقات مع الغرب، وغالبًا ما كان ذلك يتم على حساب أهل السنّة في لبنان، فهي لجأت إلى إلصاق صفة «الإرهاب والأصولية» بأهل السنّة، وكانت من هذا المنطلق تحاول أن تقضي على أيّ نفوذ لهم في لبنان تحت هذه الحُجّة، ومنها عمليات الضنّيّة والعمليات الأخرى في شمال لبنان وعكّار.

وتم لاحقًا استعمال هذا الملف بشكل قوي جدًّا، خاصة بعد أحداث ١١ أيلول ٢٠٠١م، ودخول الولايات المتّحدة في ما يسمى «الحرب على الإرهاب»، وقد عمدت سوريا إلى تصوير هذه الطائفة على أنها منبع الإرهاب، وأنّ مكافحتها أمر حيوي للبنان وللعالم، فزجّت سوريا عددًا كبيرًا من الإسلاميين السنّة في السجون، وعذّبت آخرين منهم حتى الموت، وقد استضعفتهم وليس لهم أيّ سند لإخراجهم من محنتهم، كما كانت تفعل ببقية الطوائف، وخاصة الشيعية إثر العلاقات المميزة بين ممثليها (حركة أمل وحزب الله) وبين سوريا.

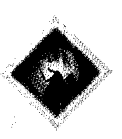
وقد جاء ذلك متماشيًا مع محاولة تحجيم الدور السياسي للمرجعية السنيّة المتمثلة في رفيق الحريري، وتقويض الدور الذي كان يتم من خلاله استرجاع قوّة السنة سياسيًّا واقتصاديًّا، إضافة إلى دورهم الريادي في مقاومة إسرائيل، وهو ما عمل الحريري على تأمينه -بعد استبعاد الطائفة السنيّة عن المشاركة في محاربة إسرائيل قسرًا، إثر الدخول السوري إلى لبنان- وذلك من خلال حماية المقاومة المتمثلة في حزب الله آنذاك (وقبل ارتدادها إلى محاربة اللبنانيين، ولاسيما أهل السنّة في داخل لبنان، وتحولها إلى ميليشيا طائفية وعصابة مغتصبة)(١٨) سياسيًّا ودبلوماسيًّا إقليميًّا ودوليًّا وعلى كافة المنابر.

---

(١٦) راجع مقال: طلال عتريسي، خلافة الحريري..مهمة عسيرة، إسلام اون لاين.نت، ٢٠٠٥/٣/٣م.

(١٧) المرجع السابق.

(١٨) اعتداءات ٧ آيار التي قام بها حزب الله وميليشياته والأحزاب الموالية له على أهل السنة أهل بيروت.



ثالثًا: التحولات التي طرأت على أهل السنة في لبنان بعد اغتيال الحريري:

تماشيًا مع وصول النفوذ الحريري إلى قمّته في لبنان وخارجه، تم اغتياله بعملية تفجيرية هائلة في وسط بيروت التجاري المكان الذي يمثّل رمزًا لإنجازاته الاقتصادية. لقد شكّل الاغتيال صدمة محليّة وإقليمية وعالمية غير مسبوقة، ووضعت الطائفة السنيّة تحت الأضواء نتيجة تيتّمها، وفقدانها الرمز الذي لطالما كانت تسعى إليه، ما أعاد إليها ذاكرة المؤامرات التي استهدفتها عبر اغتيال رموزها وأعمدتها السياسية والدينية.

واستتبع اغتيال الحريري تراجعًا لوضع الطائفة السنية الذي أعاد إلى الأذهان تراجع وضعها العام منذ سنة ١٩٨٢م أي منذ الاجتياح الإسرائيلي للبنان، وحتى ما قبل ذلك؛ منذ خروج مصر من دائرة الصراع العربي الإسرائيلي. فوضع الطائفة السنية كان انعكاسًا دائمًا للواقع العربي، فإذا كان الواقع العربي سيئًا؛ فإنّ وضعها غالبًا يكون سيئًا، وإذا كان الوضع العربي برمته مشرقًا كان الانعكاس على هذه الطائفة مشرقًا، وإذا رجعنا لهذه المراحل منذ استقلال لبنان وحتى اليوم نلاحظ تمامًا أن هذه المعادلة تنطبق على هذا الواقع.[١٩]

من هذا المنطلق، فإن استهداف الرئيس رفيق الحريري كان بالتأكيد استهدافًا للحجم الذي أعطاه في مرحلة معينة للطائفة السنية، ما ترك شعورًا لدى الطائفة بأنها مستهدَفة في الصميم؛ نظرًا لحالة الاستنهاض التي حقّقها رئيس الوزراء الذي تمّ اغتياله لواقع السنّة السياسي في البلاد، فقد كان الرئيس رفيق الحريري على سبيل المثال قادرًا على الاتصال في أيّ ساعة ووقت، أو حتى السفر مباشرة إلى أيّ رئيس دولة كبرى في ساعات قليلة ليكون مجتمعًا به، ويطرح له موضوع لبنان، ويؤثر في القرارات، ويمنع عنه الضرر، وهناك أطراف عديدة كانت متضررة من حجم وقوّة علاقاته الدولية، وتنتقد كبر حجمه أيضًا ليس على الصعيد الخارجي، وإنما الداخلي كذلك.[٢٠]، كما حاول الطرف المعتدي الإيحاء بأنّ المسألة صراع سنّي داخلي، وأنّ الأصوليين السنّة (في سياق صفة الإرهاب التي يريد خصوم الطائفة إلصاقها بها) قد قاموا باغتيال رفيق الحريري.

ويستطيع المراقب أن يلمس عددًا من المتغيرات التي طرأت على الطائفة بعد اغتيال الحريري أبرزها:

١- اشتداد العداء للنظام السوري: لقد صبّ السّنة، في معظمهم، جام غضبهم على النظام السوري، كونه المسئول المباشر عن الأوضاع في لبنان في ظل وجوده العسكري والسياسي الضخم على الأرض اللبنانية، سوء كان هو الطرف الذي اغتال الحريري أم لم يكن. ولطالما صبر السنّة على غيّ النظام السوري في لبنان وظلمه لهم؛ حيث تحمّلوا الويلات كي لا يعملوا على شقّ الصف في مواجهة العدو الإسرائيلي، وكي لا يقال عنهم إنّهم تخلّوا عن العروبة «مع ما في هذه الصفة المنسوبة إلى النظام السوري من مغالطات كبيرة ليس هذا محل نقاشها».

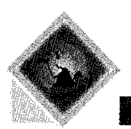
لقد استضعف السوريون الطائفة السنيّة طوال فترة وجودهم في لبنان، وتمّ تدمير مناطقهم، والتلاعب بتمثيلهم والضغط على ممثّليهم، واغتيال كبار قادتهم.

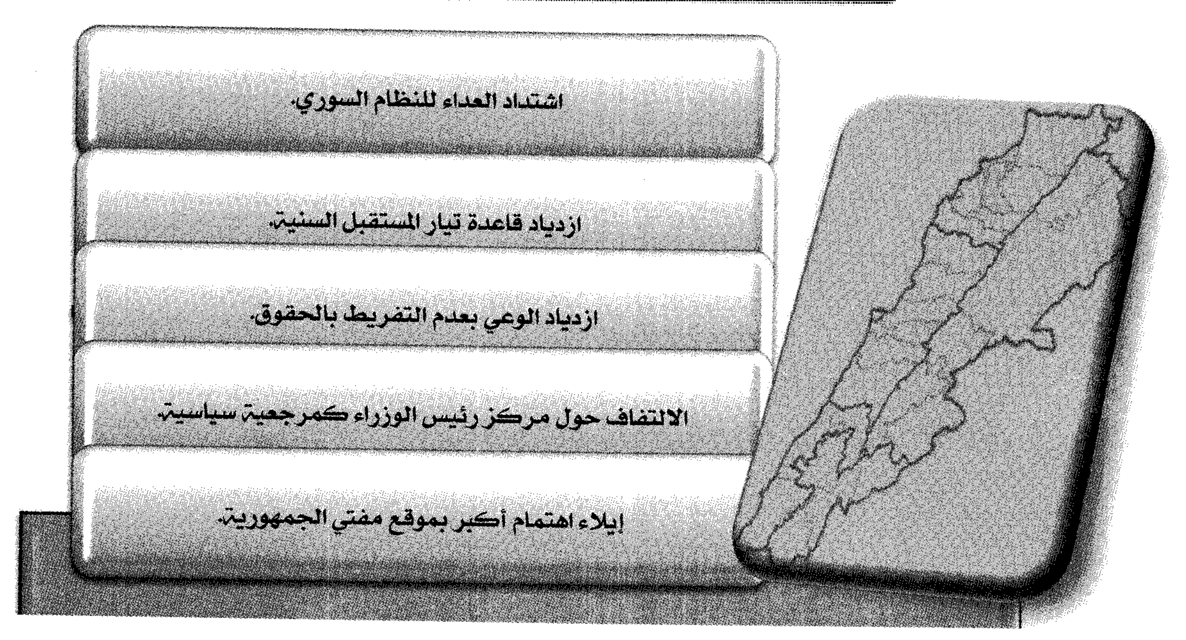
بعد اغتيال الحريري، شعر السنّة بأنّهم طُعِنوا في الظهر، بعد أن تحملوا طوال السنوات الماضية تبعات الوجود السوري الذي أتى على حسابهم بشكل خاص، وعلى حساب لبنان ككل. لكن ذلك لا يعني أنّ السنّة تناسوا العدو الصهيوني، كما حاول البعض أن يصوّر؛ وذلك لامتصاص النقمة على النظام السوري، وتحويل الطائفة السنيّة إلى موقف الدفاع عن النفس في ظل الاتهامات لها.

٢- ازدياد قاعدة تيار المستقبل السنية: وذلك كردة

(١٩) تقرير عن السنّة في برنامج بانوراما على فضائية العربية، مرجع سابق.

(٢٠) نفس المرجع السابق.





فعل على الاغتيال، حيث بدا واضحًا تحول عدد من المناصرين إلى التشدد في تأييد «تيار المستقبل» كممثّل للسنّة؛ نظرًا لعدم وجود ممثل حقيقي ذو تمثيل واسع إثر تشرذم القوى السنيّة الأخرى الوطنية والإسلامية، وتضارب الأجندات والأهداف.

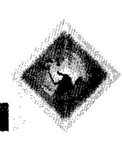
٣- ازدياد الوعي بعدم التفريط بالحقوق: إذ إنّ السنّة عادة ما كانوا يتجاهلون المطالبة بحقوقهم السياسية والاجتماعية والأمنية، طالما أنّ ذلك كان في مصلحة الوطن بالعموم، لكن تبيّن بعد الأحداث الأخيرة أنّهم أخطأوا في ذلك لدرجة أدّت إلى استباحتهم، كما حصل من قِبَل «حزب الله» الذي احتلّ بيروت بالقوة العسكرية فارضًا ما يراه مناسبًا عليها وعلى أهلها.

٤- الالتفاف حول مركز رئيس الوزراء كمرجعية سياسية: متمثّلة بحكومة الرئيس فؤاد السنيورة. وبدا الاتجاه نحو التصلب بالدفاع عن مركز رئيس مجلس الوزراء كممثل سياسي للسنّة؛ كردّة فعل على تعدّي الطوائف الأخرى على هذا المركز، في محاولة لاستضعاف الطائفة السنيّة بعد اغتيال الحريري، خاصة من قِبَل «حزب الله» الذي ما فتئ يطالب ويعمل على إسقاط ممثل السنّة السياسي بدعوى الخيانة والعمالة لإسرائيل وأمريكا[٢١]، إلى جانب ميشيل عون زعيم التيار الوطني الحر، وحليف حزب الله الأساسي، الذي توافق مع حزب الله على مهاجمة مراكز القرار السنيّة، وفي طليعتها رئاسة الحكومة التي يُكِنّ لها حقدًا كبيرًا على اعتبار أنّ مركز رئيس الحكومة السنّي قد حرم موقع رئاسة الجمهورية المارونية من العديد من الصلاحيات بعض اتّفاق الطائف.[٢٢]

٥- إيلاء اهتمام أكبر بموقع مفتي الجمهورية، لقد بدأ الاهتمام بمركز المفتي يقِلّ شعبيًّا منذ اغتيال المفتي الشهير الشهيد حسن خالد الذي لم يحظَ أحد من أقرانه بالشعبية الكبيرة التي حظي بها، والتي أدّت إلى اغتياله غدرًا عندما أصبح يشكّل خطرًا في استنهاض الطائفة السنية ودورها التاريخي سياسيًّا ودينيًّا. ومن أسباب فقدان الاهتمام أنّ المفتي، وبسبب طبيعة مركزه

(٢١) اليوم هم مشاركون في هذه الحكومة التي يرأسها فؤاد السنيورة، كما كانوا مشاركين من قبل!!! فكيف يستوي الكلام عن عميل يرأسهم في مجلس الوزراء؟!

(٢٢) انظر الجدول السابق بالتعديلات التي أدخلت على صلاحيات رئيس الجمهورية الماروني ورئيس الوزراء السنّي بعد اتفاق الطائف.



الشمولية «كمُفْتٍ للجمهورية»، أصبح عليه أن يعبّر عن توجه شمولي عمومي، وأن يبدو متسامحًا مع الآخرين، وبالتالي أن يصبح دوره مطّاطًا، وفي كثير من الأحيان يضطره إلى عدم الدفاع عن مصالح الطائفة السنيّة حفاظًا على رمزية المركز الذي يمثله، وخوفًا من أن يتّهم أيضًا بالتعصب والطائفية.

لكنّ الأحداث التي تلت اغتيال التمثيل السياسي للسنّة «عبر تفجير موكب الحريري» وما تلاه من تهجّم على التمثيل الديني للسنّة، ومهاجمة المفتي من قِبَل الطوائف الأخرى لاسيما الشيعية «حزب الله، وحركة أمل» وبعض المرتزقة الذين وظّفوهم لضرب هذا التمثيل، واختراقه لصالحهم -وعلى رأسهم الداعية فتحي يكن الذي كان يقود مشروع حزب الله الإيراني باسم السنّة، وحصلت انشقاقات كثيرة داخل صفوف جبهته «جبهة العمل الإسلامي».

وأعلن عدد من قادة الجبهة التي يرأسها انشقاقهم عنه؛ بعدما اكتشفوا الدور الخبيث الذي يقوم به في خدمة حزب الله، ومشروع إيران الخارجي، وضرب وحدة الصف السني[٢٣] - أدّت إلى رد فعل عكسي عند القيادة الدينية وحتى لدى الأوساط الشعبية السنيّة، في رفض التعدي على المقام الديني، وضرورة الرجوع إليه وإلى القيادة السياسية فيما يخصّ أمور الطائفة المصيرية في لبنان.

(٢٣) وصف المنشقون في بيان لهم قيادة جبهة العمل بأنها «لم تكن أكثر من واجهة لتجميع الشباب لصالح (حزب الله) في الشارع السنّي»، ولفتوا إلى تنظيم عمليات تدريب وإعداد وتعبئة، خاضعة بشكل مباشر لـ«حزب الله» والحرس الثوري الإيراني، في النبي شيت في البقاع، وفي إيران لتعبئة الشباب ضد كل من يخالف توجهات «حزب الله» والنظامين السوري والإيراني إلى درجة التكفير والإقصاء والإلغاء». وكشفوا، في مؤتمر صحافي، أن قيادة الجبهة «وضعت حوافز مالية لكل من نجح في افتعال إشكال، ويبرز قدرته على مواجهة قوى ١٤ آذار، ويتمكن من فرض الأمر الواقع في الشوارع والأحياء». واستغلت حب الشباب السنّي لمقاتلة إسرائيل، فقامت بتجنيدهم للتدريب لكن تبيّن أن الهدف كان مقاتلة السنّة للسنّة في الداخل، وفوجئنا بهذه الخدعة الكبيرة. انظر البيان المتلفز للمنشقين، ونصّه في صحيفة المستقبل- الخميس ٢٧ آذار ٢٠٠٨م - العدد ٢٩١٥ - شئون لبنانية - صفحة ٦، على الرابط التالي:
www.almustaqbal.com/stories.aspx?StoryID=281791

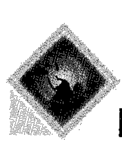
رابعًا: عناصر الضعف والقوة لدى أهل السنة في لبنان:

مما سبق نستطيع أن نلاحظ أن ثمّة عوامل تتّسم بها الطائفة السنية في لبنان من بينها:

أ- عناصر الضعف وتتمثل بـ:

١- تعدد الولاءات وتبعثر القوى: حيث يلاحظ أنّ الطائفة السنيّة لطالما كانت لا مركزية في انتمائها السياسي والديني، وعلى الرغم من أنّ ذلك يتيح حالة من التنوع والتعددية الإيجابية داخل الطائفة؛ إلاّ أنّه يُعدّ مظهر ضعف في مجتمع طوائفي متصلّب، لا يعني ذلك أننا ندعو إلى تصعب طائفي، لكن الضربات والطعنات التي تعرّضت لها الطائفة السنيّة من الطوائف الأخرى، والاستفزازات التي خضعت لها أيضًا دفعتها في هذا الاتجاه، مما جعلها تبحث عن شخص محوري يمثّلها، ويحفظ لها حقوقها، ويستعيد لها هيبتها في بلد تغلب عليه الزعامة الطائفية للطوائف.

٢- إهمال الواقع الاجتماعي ومناطق التوزيع الجغرافي: إذ يلاحظ في هذا الإطار أنّ السنة ينتشرون بشكل كثيف في ثلاث مدن ساحلية هي: صيدا وبيروت وطرابلس تمثّل أكبر ثلاث مدن في لبنان. وتضم هذه المدن من مختلف الطوائف كدليل على الانفتاح الذي تتيحه الطائفة السنيّة في أماكن تركّزها، وهو دليل على تعزيزها ثقافة التعايش والوحدة والأخوة، لكنّ هذه المفاهيم تمّ استغلالها بشكل بشع جدًّا من قبل بعض الطوائف لاسيما الشيعية؛ حيث باتت الطوائف الأخرى تزحف بشريًّا واقتصاديًّا، واجتماعيًّا مع عاداتها وتقاليدها وسلاحها أيضًا في كثير من الأحيان، جاعلين من «أهل البيت» رهينة يتم صلبها عند كل عملية ابتزاز سياسية أو دينية محلية أو خارجية تقوم بها هذه الطائفة أو تلك. واحتلال بيروت من قِبَل «حزب الله»، وتوابعه من حركة أمل، والقومي السوري، والبعثي ومن وقف معهم، وتهديد أهلها بالسلاح، لَخَيْر مثال على هذا الكلام، بل حتى وصل الأمر أن يشعر السنّة وكأنهم غرباء في مناطقهم.



٣- انعدام وسائل الدفاع عن النفس: على الرغم من أنّ السنّة يؤمنون بمشروع الدولة اللبنانية التي تحمي الجميع، والتي لا يعلو عليها وعلى سلاحها أحد، لكنّ الوضع أمسى خطيرًا جدًا في ظل بعض الدويلات المنتشرة على الأرض اللبنانية، وأشهرها «دولة حزب الله». لا يعني ذلك دعوة للتسلح، لكن أخذ الحيطة والحذر مطلوب، والإصرار على مشروع الدولة وحصرية سلاحها يشكّل مخرجًا ممتازًا لهذا الوضع؛ حيث يجب التركيز. لكنّ تفسير عدوان ٧ آيار الذي قام به حزب الله على أهالي بيروت يجب أن لا يتم صرفه في إطار إظهار أنّ الطائفة السنيّة ضعيفة وغير قادرة عن الدفاع عن نفسها، وإنما يجب أن يصبّ في خانة الخيار الأول الذي تحدّثنا عنه وهو مشروع الدولة اللبنانية وحصرية سلاحها؛ لأن ما حصل في ٧ آيار كشف الوجه الحقيقي لحزب الله داخليًا وعرّاه تمامًا، ولو استخدم السنّة سلاحًا «وهم لا يملكون أصلاً» لكان الوضع تغيّر وضاعت المسئولية، وشكّلت عذرًا جيدًا لحزب الله وتوابعه بالتهرب من المسئولية عمّا جرى. إذ لطالما أتحفنا المؤيدون لحزب الله بأنّه لم يستخدم سلاحه نحو الداخل، لكن هذه المرّة استخدمه أبشع استخدام ضد الأهالي العُزّل والنساء والشيوخ في محاولة لقطف ثمار سياسية، وتسجيل نقاط على حساب أهل السنّة!!

٤- قابلية الاختراق والانجرار: إذ أثبتت مجريات الأحداث خاصة خلال العقود الأخيرة أنّ السنّة أكثر قابلية للاختراق، على كافة المستويات الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ذلك أنّ العديد من الجهات تستغل سمات التسامح، والانفتاح والتعاون الذي يبديه السنّة تجاه غيرهم من الطوائف والمجموعات، كما يتم استغلال كراهيتهم لإسرائيل وقدسية القضية الفلسطينية في قلوبهم لدفعهم باتجاه خاطئ، والانجرار وراء زعامات خبيثة ومشاريع إقليمية مشبوهة.

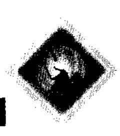
وعلى سبيل المثال، فقد استطاع حزب الله بعد اغتيال الحريري أن يقسم السنّة سياسيًّا بين موالٍ ومعارض؛ لخدمة أغراضه ومشاريعه الخاصة تحت شعارات مختلفة، وعبر استمالة بعض الزعامات السياسية السنيّة، وأبرزهم عمر كرامي. وقد شقّ هذا الموقف صفوف السنّة وشرذمهم، وزرع الخلاف فيما بينهم، وضرب تمثيلهم السياسي الرسمي الذي يعكسه موقع رئيس الحكومة، حيث بدا واضحًا أنّ الغاية من ذلك تكمن في ضرب وحدتهم، وإضعافهم واستغلالهم، وكانت النتيجة أن استُضعِف السنّة،

> أثبتت مجريات الأحداث خاصة خلال العقود الأخيرة، أنّ السنّة أكثر قابلية للاختراق على كافة المستويات الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية

وتمّ الهجوم عليهم بالسلاح على امتداد الساحة اللبنانية، وحتى في معاقلهم في بيروت على وجه التحديد وغيرها من المناطق. وكانت النتيجة أن تمّ استعمال كرامي، وعندما انتهى الدور الذي كان مطلوبًا منه لم نعد نسمع باسمه إلاّ نادرًا، وقد تمّ استبعاده من محور التجمعات واللقاءات التي تجري بين صفوف المعارضة خاصة.[٢٤]

كما استخدم حزب الله الجناح الإسلامي لدى أهل السنّة، فحاول بداية عزل «الجماعة الإسلامية» عن محيطها، وضمان حيادها على الأقل تحت شعار محاربة إسرائيل، ثمّ استمال بعد ذلك فتحي يكن وجبهة العمل الإسلامي التي يرأسها لتعميق الانقسام السنّي الداخلي. كما سعى حزب الله بعد اعتدائه على السنّة في ٧ آيار لعقد عدد من المصالحات المحليّة لتفادي إعادة اللُّحمة إلى الصف السّني من جهة، وللإيحاء بأنّ السنّة لا يعتبرون أن ما جرى من قِبَل حزب الله يمثّل اعتداءً عليهم، وللالتفاف عن تقديم اعتذر صريح واضح إلى أهل بيروت وطرابلس وإلى المرجعيات السنيّة السياسية والدينية، حتى لو اضطره ذلك إلى عقد اتفاقية مع

(٢٤) لمزيد من التفاصيل حول كيفية استخدام المعارضة اللبنانية، وتحديدًا حزب الله لورقة «السنّة المتمثلة بعمر كرامي» لبعثرة وحدة الصف السني، ومن ثمّ الاستغناء عنه، انظر تقرير: «لبنان: رسائل سورية قاسية إلى المعارضين السنة... وكرامي يعتكف»، صحيفة السياسة الكويتية، على الرابط التالي:
http://www.dar-al-seyassah.com/news_details.asp?nid=20262&snapt=تقارير



أطراف سلفية لطالما تفنن في الطعن بها وتكفيرها ووصمها بالإرهاب، حيث وقّع حزب الله اتفاقية مع «جمعية التراث الإسلامي» في ١٨ آب ٢٠٠٨م (٢٥)، وهي جمعية خدماتية سلفية ليس لها أي وزن شعبي في الجانب السني، وعلى الرغم من ذلك فقد سقط الاتفاق في غضون يوم؛ لأنّ غايته الاختراقية والالتفافية كانت واضحة للعيان.(٢٦)

عناصر القوة الآخذة في التشكل:

١- نحو محورية التمثيل: الخطر الداهم الذي تتعرّض له الطائفة السنّية في لبنان من استقواء الآخرين، وتطاولهم عليها وعلى رموزها، وعلى موقعها التمثيلي السياسي والديني عمل على دفع الشريحة الأكبر منها إلى التكاتف والالتفاف، رغم المرارة والإحساس بالقهر الذي تعرّضت له، ورغم دفع العديد من أبنائها إلى المطالبة بالسلاح للحماية الذاتية على الأقل، والدفاع عن النفس.

لكن ربما كان الآخرون يريدون من الطائفة السنّية أن تتحوّل إلى «كانتون» عصبي عسكري، حتى يبرروا «كانتوناتهم» هم ويشرعنوها تحت عنوان إنّ «السنة لديهم أيضًا كانتون»، ولديهم سلاح.

ومن الأفخاخ التي يحاول البعض نصبها للطائفة السنيّة أيضًا، دفعها نحو التعصب الديني لتبرير التدخل ضدّها بالقوة، سواء بإحداث فتنة بينها وبين الجيش اللبناني والطوائف اللبنانية، أو من خلال تسويق أو تبرير تدخّل خارجي ضدّها سوري أو أمريكي، تحت حجّة مكافحة الإرهاب والأصولية، وبالتالي تحويل الأنظار عن القضية المركزية المتعلّقة بهم، ونقل المشكلة إلى الطائفة السنيّة.

لكنّ الواضح أنّ الأغلبية الدينية السنيّة بكافة شرائحها، حتى التي كانت توصف من قبل البعض بالمتطرفة، أظهرت وعيًا مثيرًا للإعجاب وتفهمًا لخطّة الإيقاع بها، فراحت تبدي انفتاحًا كبيرًا واعتدالاً أكبر، وحتى تضامنًا مع المرجعية السياسية السنيّة «غير الدينية»، وذلك لتفويت الفرصة على المخطط الجهنمي المحاك ضدّها بشكل عام، وضدّ السنّة بشكل خاص.

٢- تغليب المصير المشترك: هناك إحساس جماعي بتغليب المصير المشترك تظهره تطورات الأحداث، وهناك وعي جماعي أيضًا من مختلف الشرائح السنيّة بعدد وحجم المؤامرات التي تُحاك لها، وقد ساهم هذا الوعي المرتفع في الفترة الأخيرة في تكاتف جميع أطياف الطائفة من مستقلّين وإسلاميين وليبراليين، لتفويت الفرصة على من يريد إحداث الانشقاق، والاستفادة منه.

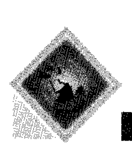
خاتمة:

يواجه السنّة في المرحلة المقبلة تحدّيات جِسام ليس أقلّها اتساع دائرة الخطر التي تمثّلها على الصعيد الداخلي بعض القوى والأحزاب والطوائف؛ التي تعمل على العبث بمصير ومقدّرات أهل السنّة والجماعة تحت شعارات متعدّدة ومختلفة، وبكافة الوسائل الإعلامية والمالية والتنظيمية، وحتى بالقوة العسكرية والسلاح، وهم يحتاجون إلى تعزيز وعيهم بهذا الخطر، والعمل على احتوائه على الأقل من خلال التركيز على وحدتهم، وتكاتفهم وتضامنهم، وعلى مَنَعَتهم الداخلية، بغضّ النظر عن الحسابات الضيّقة الشخصية أو الحزبية أو المناطقية، وأن يشددوا أيضًا على مفهوم الدولة والقانون، وعلى سلاح الدولة، وأن لا أحد يعلو فوق هذه الدولة، وأن يشاركوا في تحقيق هذا المفهوم الذي يريد البعض في لبنان ضربه وتسويفه لإبقاء المصالح العليا له قائمة، وعليه فإنّ الانتخابات النيابية المقبلة سيكون لها كلمة في الدفع باتجاه تحقيق هذه الأجندة أو عرقلتها، لا سمح الله.

---

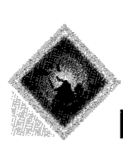
(٢٥) راجع نص الاتفاقية: www.islamonline.net/servlet/Satellite?c=ArticleA_C&cid=1218650325684&pagename=Zone-Arabic-News/NWALayout

(٢٦) انظر للتفاصيل: تجميد وثيقة التفاهم بين بعض الجمعيات السلفية وحزب الله:
www.aljazeera.net/NR/exeres/1BEFA9A8-F8A04357--A89B-7770F0C5822D.htm



وعلى السنّة أن يحضّروا أنفسهم من الآن لخوض هذه الانتخابات بشراسة، فهم يشكّلون قوة انتخابية كبيرة تستطيع تغيير المعادلات عبر السياسة، ولهذا نرى اليوم أنّ بعض الأطراف المعروفة في لبنان تحاول إشعال الفتن والاقتتال والحروب في المناطق السنّية داخل لبنان، وإبقاء وضعها متوترًا حتى الانتخابات المقبلة العام القادم؛ لضرب وتشتيت ما يمكن أن تفرزه هذه الانتخابات في حال عمّ الاستقرار والوحدة في هذه المناطق.

كما يجب عليهم عدم الانجرار إلى التطرف، وأن لا يسبب ما حصل لهم في ٧ آيار إثر احتلال «حزب الله» لمناطقهم عقدة ضعف، وأن ينظروا إلى الجانب الإيجابي الذي تحقق في هذا الإطار، والذي تحدثنا عنه سابقًا، وأن يفوّتوا الفرصة على من يريد تشتيت الأنظار عنه، وتحويلها إلى السنّة بداعي وجود متطرفين أو متعصبين لصرف هذا الرصيد في الحرب على الإرهاب، وإدخال السنّة في معارك داخلية مع بعضهم البعض بين متطرّف ومعتدل، أو بين السنّة والجيش اللبناني، أو حتى استجلاب تدخلات خارجية، أو دولية لمحاربتهم.



معلومات إضافية

نموذج لمحاولات اختراق السنة في لبنان

في مارس ٢٠٠٨م أعلنت مجموعة من العناصر والكوادر القيادية في «جبهة العمل الإسلامي» في لبنان عن تكوين «هيئة الطوارئ» برئاسة الشيخ «سيف الدين الحسامي»؛ لتكشف النقاب عن حقائق خطيرة حول المحاولات المستمرة لاختراق السنة في لبنان من قبل جماعات أخرى، واستغلال عناصر الجبهة لصالح توجهات إيرانية وشيعية متمثلة في حليف طهران في لبنان «حزب الله».

ففي الثامن من مارس ٢٠٠٨م أصدرت الهيئة أولى بياناتها، وجاء فيه: إنه «بعد محاولات متواصلة داخل جبهة العمل الإسلامي، وبعد اتضاح الكثير من الثغرات الخطرة التي حوّلت الجبهة إلى واجهة للاستغلال والاختراق لساحتنا الإسلامية، ومع انكشاف الموقف الحقيقي لقيادة هذه الجبهة من قضية المقاومة، وتعمدها توريط الشباب المسلم في أعمال ذات صبغة عسكرية وأمنية أبعد ما تكون عن نُبْل المقاومة وسموّها.

ومع اتساع شُقّة الخلاف داخل مواقع القرار للجبهة على خلفيات تنافسية ومالية انعكست بشكل فاضح على أداء الجبهة، وحولتها إلى وسيلة ارتزاق سياسية للمتصدرين، المتاجرين بتمسك الشباب بالفكرة الإسلامية والتوق إلى المقاومة والجهاد، ومع قناعاتنا بأن الأهداف التي سعينا إليها منذ اللحظة الأولى لتأسيس جبهة العمل الإسلامي هي أهداف سامية تستحق التضحية لأجلها.

بناء على ما تقدم، قررت مجموعة العمل والكوادر القيادية في جبهة العمل الإسلامي في طرابلس والشمال إعلان قيام هيئة الطوارئ رفضًا للاستغلال والتجيير المسيء للعمل الإسلامي، ورفضًا للاختراق الإيراني في طرابلس بعمقها الإسلامي وتاريخها الحضاري وامتدادها النضالي المتواصل».

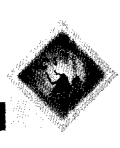
ولم يمر وقت طويل حتى أعلنت مجموعة جديدة من عناصر وكوادر الجبهة في ٢٦ مارس ٢٠٠٨م عن انضمامها إلى هيئة الطوارئ في الجبهة، لتشكيل فريق واحد للتصدي للاختراقات الخطرة التي يتم زرعها باسم العمل الإسلامي.

وأصدرت المجموعة الجديدة بيانًا خطيرًا احتوى على المزيد من المعلومات حول الاختراقات الشيعية للسنة في لبنان، وجاء في البيان: «انطلاقًا من تاريخنا في العمل الإسلامي منذ الأيام الأولى لقيام حركة التوحيد الإسلامي، وهو تاريخ يعرفه من دفعتنا أخطاؤهم المتواصلة إلى اتخاذ الموقف النهائي والحاسم مما يجري على الساحة الإسلامية..

فمنذ اللحظة الأولى لقيام «جبهة العمل الإسلامي» كانت أهدافنا منصبّة على طموح واحد، هو تحقق حلمنا في الجهاد ضد العدو الإسرائيلي، ونصرة شعب فلسطين، وتقوية واقع أهل السنّة والجماعة في لبنان.

كان حلمنا أن نحظى بفرصة لتقديم نموذج إيجابي للعمل الإسلامي؛ لاعتقادنا أن الذين خاضوا التجارب، ووقعوا في المصائب قد تعلموا من التجربة واستخلصوا العِبر، وأوقفوا المغامرات، وغادروا ساحات التفريط بالمصير والمصالح الإسلامية.

ولأن الشباب المسلم توّاق إلى ساحة الجهاد لمنازلة العدو الصهيوني، أقبلنا على دورات التدريب العسكري التي



أفهمتنا قيادة «جبهة العمل» أنها أنشأتها لهذه الغاية، لكننا فوجئنا بخدعة كبرى تجسّدت في النواحي الآتية:

١- اتضح أن «جبهة العمل الإسلامي» لم تكن أكثر من واجهة لتجميع الشباب لصالح «حزب الله» في الشارع السنّي، في حين أن كل عمليات التدريب والإعداد والتعبئة كانت خاضعة بشكل مباشر لـ«حزب الله» وللحرس الثوري الإيراني، مع الإشارة هنا إلى أن هناك نوعين من الدورات العسكرية:

- النوع الأول: يجري في البقاع في محيط بلدة النبي شيت والجبال المحيطة بها، وهي عبارة عن معسكرات كثيرة منتشرة ومموّهة بشكل متقن؛ حيث يبدو أن استصلاح الأراضي هو الوسيلة الأكثر استعمالاً في تلك المنطقة، وفي هذه المعسكرات يخضع أنصار قوى المعارضة المختلفة لتدريبات تستمر في الغالب أسبوعًا.

- النوع الثاني من الدورات هو ذلك الذي يتم في إيران، ويبدو من خلال المتابعة أن الدورات في البقاع تشكل عملية تحضير وغربلة للكوادر المؤهلة لاستكمال المراحل اللاحقة من التدريب العسكري والأمني.

وقد ظهرت مقاصد وأهداف هذه الدورات التدريبية من خلال تعبئة الشباب ضد كل مَن يخالف توجهات «حزب الله» والنظامين السوري والإيراني، إلى درجة التكفير والإقصاء والإلغاء، وكان الخطاب الأسهل اعتبار كل المخالفين أدوات أمريكية وإسرائيلية، وكان أخطر ما واجهناه هو مرحلة ما بعد التدريب والعودة إلى طرابلس؛ لأنها شكّلت الصدمة الكبرى بالنسبة إلينا، فخلال مراحل التوتر بين قوى ١٤ آذار وتحالف ٨ آذار، كانت الأوامر تصدر من قيادة «جبهة العمل الإسلامي» بضرورة النزول إلى الشارع واستعمال كل الوسائل المتاحة لخدمة أغراض حزب الله وأهدافه.

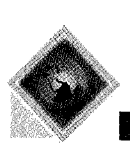
٢- لقد بلغ التحريض مراحل في غاية الخطورة، إلى درجة وضعت معها قيادة «جبهة العمل» حوافز مالية لكل مَن ينجح في افتعال إشكال، ويبرز قدرته على مواجهة الطرف الآخر، ويتمكن من فرض الأمر الواقع في الشوارع والأحياء.

وهكذا وجدنا أنفسنا ننزلق خطوة بعد أخرى نحو إشعال صراع سني- سني؛ لصالح النظامين السوري والإيراني، يحرق مناطقنا، ويخرق ساحتنا ويستهدف مرجعياتنا الدينية والسياسية.

- لقد جاءنا الشيخ فتحي يكن بنظرية يعتبر فيها أن رأس بلاد الشام التي تحدث عنها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هو النظام السوري، ورأس النظام السوري بشار الأسد، لذلك لا بد لنا أن يكون العمق الاستراتيجي في سوريا. ومن خلال التدريبات التي أقيمت لشبابنا في معسكرات حزب الله في منطقة البقاع في النبي شيت، وبعد انتهاء التدريبات كان الموجهون في الحزب يقولون لنا: نحن نحمي الجنوب من العدو الإسرائيلي، وأنتم عليكم حماية الداخل اللبناني بقتال عملاء اليهود في الشمال.

وإذا دققنا في حلفاء حزب الله في طرابلس والشمال نجد أن حلفاءهم هم الذين ارتكبوا المجازر في التبانة خاصة، وفي طرابلس عامة. وتبين لنا أنهم يريدون تجنيد الشباب المسلم السني لقتال أهلنا وإخوتنا وضرب الحاضنة التي ننتمي إليها.

وإذا دققنا في المنشورات والكتب التي تُوزّع على الشباب المنتمين إلى جبهة العمل الإسلامي نجد أنها تدعو إلى عصمة الأشخاص، مع أن العصمة للأنبياء فقط.



وإذا دققنا في التدريب في إيران، نتساءل هل التدريب لنكون جزءًا من مشروع الممانعة، وكيف نكون جزءًا من الممانعة وإيران تتعامل مع أمريكا في العراق وأفغانستان، والنظام السوري يفتح المفاوضات مع العدو الصهيوني سرًّا وعلانية، ثم نجدهم بعد ذلك يتحدثون عن الممانعة في لبنان!!

- بناء على ما تقدم نعلن رفضنا لتوجهات قيادة «جبهة العمل الإسلامي»، ونعلن أننا سنشكل مع إخواننا في هيئة الطوارئ فريقًا واحدًا للتصدي لهذه الاختراقات الخطرة التي يتم زرعها باسم العمل الإسلامي.

ومن هنا ندعو كل الشباب المغرَّر بهم إلى الخروج من دائرة خدمة أهداف أعداء أمتنا الإسلامية، وأن ينضموا إلى مسيرتنا الإصلاحية في إطار «جبهة العمل الإسلامي- هيئة الطوارئ»، مؤكدين التزامنا مبادئ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في وحدة الصف، ورفض الفتن وحفظ دماء المسلمين، ورفض التكفير.

كما نعلن تمسكنا بالسلم الأهلي في لبنان، وبالوحدة الوطنية، ورفض كل مظاهر السلاح خارج نطاق مؤسسات الدولة، وندعو إلى وضع استراتيجية وطنية للتصدي للتحديات الصهيونية، بالتنسيق مع الجيش اللبناني، وصولاً إلى قيام دولة العدل والحرية والمساواة والتنمية».

المصدر:

- صحيفة المستقبل اللبنانية، العدد ٢٩١٥، بتاريخ ٢٧ /٢٠٠٨/٣م، انظر :

http://www.almustaqbal.com/stories.aspx?StoryID=281791

- صحيفة الشرق الأوسط، العدد ١٠٦٩٥، بتاريخ ١٠ /٢٠٠٨/٣م، انظر:

http://www.asharqalawsat.com/details.asp?section=4&issueno=10695&article=462039&feature





كشمير.. والمتغيرات الإقليمية والدولية

محمد عادل
مدير تحرير التقرير الاستراتيجي لمجلة البيان

ملخص الدراسة

تشـهد قضية كشـمير -التي تحتل موقعًا جغرافيًّا استراتيجيًّا بين وسط وجنوب آسيا- تطورات عديدة، تبدو سلبية في مجملها، ألحقت بالقضية تراجعًا عما كانت عليه قبل عقود.

ويعتبر إقليم كشمير من الناحية السياسية منطقة متنازعًا عليها بتعريف القانون الدولي، وقد قامت الهند بضم الإقليم لها قسرًا في ٢٧ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٤٧م، وفرضت عليه حماية مؤقتة، برغم القانون الذي تم عليه تقسـيم المنطقة إلى دولتين، هما الهند ودولة باكسـتان الإسلامية، وبحسب قانون الاستقلال وخطة التقسيم في ٣ يوليو عام ١٩٤٧م، والتي أقرها البرلمان البريطاني، فإن المناطق ذات الأكثرية الهندوسية يتم ضمها إلى الهند، والمناطق ذات الأغلبية المسلمة تنضم لباكستان، وبالتالي كان لا بد أن تنضم ولاية جامو وكشمير ذات الأغلبية المسـلمة لباكسـتان. ولم يوافق الشعب الكشـميري على احتلال الهند للولاية، ومنذ اليوم الأول بدأ الجهاد ضد القوات الهندوسية.

ومنذ ذلك الحين وللآن دخلت القضية الكشـميرية في العديد من المسـارات بين الهند وباكستان، ما بين سياسي وعسكري؛ للوصول لحل نهائي لها، إلا إن كل تلك الجهود لم تنجح حتى الآن بسبب التعنت الهندي في إغلاق ملف القضية بصورة عادلة والوصول لحق تقرير المصير، الذي يطالب به الكشميريون، ونصت عليه القرارات الدولية.

وفضلاً عن الموقف الدولي الذي يصبّ بمجمله في صالح الهند، فقد شهدت القضية تراجعًا ملموسًا بسبب تغير الموقف الباكسـتاني الذي كان يُعتبر الداعم الرئيس للقضية ولحق الكشـميريين في تقرير المصير، فضلاً عن أجواء الحرب الدولية على ما يسمى بـ «الإرهاب»، والتي ألقت بظلالها السلبية على القضية.

واقع الحال أن حركة المقاومة الكشميرية تمر بموقف شديد الصعوبة، ومرحلة من أهم مراحل القضية وأشدها خطورة؛ إذ تواجه المحتل الهندي الذي ألقى بكل ثقله وكثّف تحركاته لإغلاق الملف الكشميري بلا رجعة.

وتبقى المقاومة بكافة أشـكالها ومسـتوياتها هي الخيار الأمثل للشـعب الكشـميري، وهي الطريق الوحيد لإجبار المحتل الهندي على الخروج من كشمير.





كشمير.. والمتغيرات الإقليمية والدولية

محمد عادل

مدير تحرير التقرير الاستراتيجي لمجلة البيان

مقدمة:

مثلث القضية الكشميرية على مدار ٦٠ عامًا -هي عمر النزاع الهندي الكشميري الباكستاني- واحدة من أكثر بؤر التوتر في منطقة جنوب آسيا بالغة الأهمية، وهي الآن تواجه تحديات عدة ترتبط بالأساس بتغير الوضع الدولي والإقليمي المحيط، والذي تبعه تغير واضح في قواعد الصراع والاستراتيجيات المستخدمة من الأطراف الفاعلة في القضية، في حين يبدو الحال على جبهة الاستراتيجية الكشميرية إلى حد كبير كما هو بلا تغيير، مما تسبب في تداعيات تبدو سلبية في مجملها، وألحق بالقضية تراجعًا عما كانت عليه قبل سنوات.

والدراسة تتلمس التحديات التي تواجه الكشميريين منذ نشأة قضيتهم، والعوائق التي تحول دون الوصول لحل قضيةٍ مر عليها أكثر من نصف قرن، ومحاولة استشراف مستقبل الصراع من خلال إلقاء الضوء على مكامن القوة ومواطن الضعف لدى كل طرف من الأطراف الثلاثة الفاعلة.

وتبرز أهمية البحث من خلال تعلقه بقضية شديدة التعقيد، ترتبط بأطراف هامة لها وزنها الإقليمي، ومنطقة شديدة الحساسية، تتنازع السيطرةَ عليها عدة قوى دولية كبرى، وقد ازدادت أهمية القضية الكشميرية في السنوات الأخيرة بعد التجارب النووية لطرفي الصراع: الهند وباكستان، مع ما قد يؤدي إليه استمرار الصراع وتطوره من تفجر نزاعات بين جارتين نوويتين، لا يُعلم كيف ستنتهي، ولا شك ستتجاوز آثارها مدى أبعد بكثير من منطقة النزاع، التي تضم تجمعًا بشريًّا تجاوز تعداده خُمس سكان العالم.

وتحاول الدراسة الاستفادة من القضايا الإسلامية ذات الطابع المقاوم قريبة الصلة بالقضية الكشميرية، خاصة القضية الشيشانية لتعدد أوجه التشابه الكبير بين القضيتين كـ«طول الصراع ودمويته- وتطرف المحتل في استخدام العنف- البعد العقدي- دور المقاومة- محاولة الإذابة- محاولات تغير البعد السكاني- الاستراتيجيات المستخدمة- إشكالات الحل- الموقف الدولي الصامت- الدور الإسلامي المتراجع ..»، وذلك باستحضار الدروس المستفادة، ونقاط القوة والضعف في كلتا القضيتين في ذهنية الباحث دون أن يربط بصورة مباشرة بينهما، مع اعتبار خصوصية كل قضية.

والدراسة تفيد من المنهج الوصفي لصيق الصلة بطبيعة القضية وخلفياتها التاريخية على مستوى طرفي الصراع، كما تفيد من المنهج التحليلي في المعالجة وفهم إشكالات وتحديات القضية وعناصر التأثير فيها، مستفيدة من هذا المنهج وذاك في الوصول إلى رؤية مستقبلية للقضية، وطرح مقترحات لتحريك الموقف الهندي المتصلب وتغييره.



القضية الكشميرية نشأة وتاريخ:

تحتل كشمير موقعًا جغرافيًا استراتيجيًا بين وسط وجنوب آسيا حيث تشترك في الحدود مع أربع دول هي: الهند وباكستان وأفغانستان والصين. وتبلغ مساحتها الكلية ٨٦٠٢٣ ميلًا مربعًا، يقسمها خط وقف إطلاق النار منذ عام ١٩٤٩م، وتبلغ مساحة الجزء الهندي ٥٣٦٦٥ ميلًا مربعًا، ويسمى جامو وكشمير، في حين تسيطر باكستان بطريقة غير مباشرة على ٣٢٣٥٨ ميلًا مربعًا يعرف باسم ولاية كشمير الحرة (آزاد كشمير)، وهناك مساحة صغيرة خاضعة للصين منذ عام ١٩٦٢م تسمى أكساي تشين.

واختلفت المصادر التي تتحدث عن تعداد السكان في كشمير ما بين المصادر الباكستانية والهندية. فطبقًا لإحصائية هندية أُجريت عام ١٩٨١ بلغ عدد سكان الولاية ٦ ملايين نسمة تقريبًا، شكّل المسلمون منهم ٦٤,٢٪ والهندوس ٣٢,٢٥٪ والسيخ ٢,٢٣٪ والبقية ما بين بوذيين ومسيحيين وأقليات أخرى. وتذكر بعض المصادر أن تعداد السكان قبل السيطرة الهندية كان ٤ ملايين نسمة تقريبًا، بلغت نسبة المسلمين فيهم ٧٧٪، والهندوس ٢٠٪، والسيخ والأقليات الأخرى ٣٪.

أما المصادر الكشميرية شبه المستقلة فتقدر تعداد الكشميريين في الجانبين الهندي والباكستاني وفي الدول الأخرى بـ١٣,٥ مليون نسمة، بواقع ٨,٥ ملايين نسمة في جامو وكشمير، و٢,٥ مليون نسمة في كشمير الحرة، ومليون نسمة في جلجت وبلتستان، و١,٥ مليون نسمة موزعين في الهند وباكستان ودول الشرق الأوسط وأوروبا والولايات المتحدة الأمريكية. غير أن الحقيقة المتفق عليها هي وجود أغلبية مسلمة في الإقليم.

ويعتبر إقليم جامو وكشمير من الناحية السياسية منطقة متنازعًا عليها بتعريف القانون الدولي، وقد قامت الهند بضم الإقليم لها في ٢٧ أكتوبر / تشرين الأول ١٩٤٧م، وفرضت عليه حماية مؤقتة بعد أن تعهدت للشعب الكشميري وللأمم المتحدة بمنح الكشميريين حق تقرير المصير. وقد تضمن قرار مجلس الأمن الدولي رقم ٤٧ الصادر في عام ١٩٤٨م النص على إعطاء الشعب الكشميري الحق في تقرير المصير عبر استفتاء عام حر ونزيه يتم إجراؤه تحت إشراف الأمم المتحدة، وهو ما لم يتم حتى الآن. [(١)]

«ويُعتبر يوم السابع والعشرين من أكتوبر أسود يوم في تاريخ كشمير، وذلك لقيام الجيش الهندي بمهاجمة كشمير في نفس هذا اليوم من عام ١٩٤٧م، واحتلال الولاية، حيث خرقت الهند القانون الذي تم سنه، والذي تم عليه تقسيم المنطقة إلى دولتين هما الهند ودولة باكستان الإسلامية، وحسب قانون الاستقلال وخطة التقسيم في ٣ يوليو عام ١٩٤٧م، والتي أقرها البرلمان البريطاني في ١٨ يوليو من نفس العام، فإن المناطق ذات الأكثرية الهندوسية يتم ضمّها إلى الهند، والمناطق ذات الأغلبية المسلمة تنضم لباكستان، وبالتالي كان لا بد أن تنضم ولاية جامو وكشمير ذات الأغلبية المسلمة لباكستان.

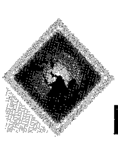
وقام الهندوس المتطرفون وقوات دوغر مهراجا هاري سينج بقتل ٣٠٠ ألف مسلم كشميري في شهرين فقط؛ وذلك في محاولة لتغيير تركيبة كشمير السكانية.

من جانبه لم يوافق الشعب الكشميري على احتلال الهند للولاية، ومنذ اليوم الأول بدأ الجهاد ضد القوات الهندوسية، ولما أحس الهندوس بأنهم سيُمْنَوْن بالهزيمة علي يد المجاهدين الكشميريين، وبمساعدة إخوانهم في باكستان، وأيضًا بمساعدة رجال القبائل، رفعت الأمر إلى مجلس الأمن والأمم المتحدة في أول يناير ١٩٤٨م. ورغم أن الهند هي التي دفعت النزاع حول كشمير إلى المنظمة الدولية؛ طالبةً دعمها إلا إنها لم تطبق قرارًا واحدًا من القرارات المتتابعة التي أصدرها مجلس الأمن. [(٢)]

---

(١) كشمير.. نصف قرن من الصراع، بتصرف، محمد عبد العاطي، الجزيرة، المعرفة، السبت ١٤٢٩/١/٥هـ - الموافق٢٠٠٨/١/١٢م.

(٢) ٢٧ أكتوبر اليوم الأسود للكشميريين، بقلم: محمد رضا ملك، موقع كشمير المسلمة، الاثنين ٢٧تشرين الأول ٢٠٠٨م.



تطورت الأحداث سريعًا، منذ اندلاع القتال المسلح بين الكشميريين والقوات الهندية عام ١٩٤٧م، والذي أسفر عن احتلال الهند لثلثي الولاية، ثم تدخلت الأمم المتحدة في النزاع، وأصدر مجلس الأمن قرارًا في ١٩٤٨/٨/١٣م ينص على وقف إطلاق النار، وإجراء استفتاء لتقرير مصير الإقليم. وبدأ يسود المجتمع الدولي منذ ذلك الحين اقتناع بأن حل القضية الكشميرية يأتي عن طريق اقتسام الأرض بين الهند وباكستان، فاقترحت الأمم المتحدة أن تنضم الأجزاء التي بها أغلبية مسلمة وتشترك مع باكستان في حدود واحدة (تقدر بحوالي ١٠٠٠ كم) لباكستان، وأن تنضم الأجزاء الأخرى ذات الغالبية الهندوسية ولها حدود مشتركة مع الهند (٣٠٠ كم) للسيادة الهندية، لكن هذا القرار ظل حبرًا على الورق، ولم يجد طريقه للتنفيذ على أرض الواقع حتى الآن.

عاد التوتر بين الجانبين، وحاول الرئيس الباكستاني دعم المقاتلين الكشميريين، لكن الأحداث خرجت عن نطاق السيطرة، وتتابعت بصورة درامية لتأخذ شكل قتال مسلح بين الجيشين النظاميين الهندي والباكستاني في سبتمبر/ أيلول ١٩٦٥م على طول الحدود بينهما في لاهور وسيالكوت وكشمير وراجستان، واستمر الصراع العسكري ١٧ يومًا لم يتحقق فيه نصر حاسم لأي من الدولتين، وانتهت الجهود الدولية بعقد معاهدة وقف إطلاق النار بين الجانبين في الثالث والعشرين من الشهر نفسه [٣].

> لم يوافق الشعب الكشميري على احتلال الهند للولاية، ومنذ اليوم الأول بدأ الجهاد ضد القوات الهندوسية

عاد القتال بين الجارتين ليتجدد مع مطلع السبعينيات إثر اتهامات باكستان للهند بدعم باكستان الشرقية (بنجلاديش) في محاولتها الانفصالية، وكان الميزان العسكري هذه المرة لصالح الهند، الأمر الذي مكّنها من تحقيق انتصارات عسكرية على الأرض غيرت من التفكير الاستراتيجي العسكري الباكستاني، وأدخلت البلدين في دوامة من سباق التسلح كان الإعلان عن امتلاك كل منهما للسلاح النووي أهم محطاته. وأسفر قتال ١٩٧١م عن انفصال باكستان الشرقية عن باكستان لتشكل جمهورية بنجلاديش.

دخل البلدان في مفاوضات سلمية أسفرت عن توقيع اتفاقية أطلق عليها اتفاقية شِملا عام ١٩٧٢م، وتنص على اعتبار خط وقف إطلاق النار الموقع بين الجانبين في ١٧ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٧١م هو خط هدنة بين الدولتين. وبموجب هذا الاتفاق احتفظت الهند ببعض الأراضي الباكستانية التي سيطرت عليها بعد حرب ١٩٧١م في كارغيل تيثوال وبونش في كشمير الحرة في حين احتفظت باكستان بالأراضي التي سيطرت عليها في منطقة تشامب في كشمير المحتلة.

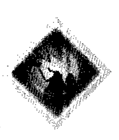
ومنذ ذلك الحين وللآن دخلت القضية الكشميرية في العديد من المسارات بين البلدين ما بين سياسي وعسكري للوصول لحل نهائي لها، إلا إن كل تلك الجهود لم تنجح للآن في إغلاق ملف القضية بصورة عادلة، والوصول لحق تقرير المصير الذي يطالب به الكشميريين، ونصت عليه القرارات الدولية.

الواقع الدولي والإقليمي وتأثيره على القضية

موقف الهيئات الدوليّة:

إذا نظرنا إلى موقف المجتمع الدوليّ من قضيّة كشمير نجد أنّ الهيئات الدوليّة، وعلى رأسها الأمم المتحدة، قد اهتمت اهتمامًا كبيرًا بالقضية الكشميريّة في بداياتها، وأصدرت العديد من القرارات الدوليّة التي جاءت كلّها في صالح المسلمين، وأهمّها قرار الأمم المتحدة الذي أعطى شعب كشمير حق تقرير المصير، وإجراء استفتاء حرّ في الولاية لتحقيق هذا الغرض، ولكنّ الهند وعلى مدى نصف قرن تماطل وتراوغ في تنفيذ هذه القرارات الدوليّة، كما أن الهيئات الدوليّة التي أصدرت هذه القرارات تراخت في تنفيذها، ولم

(٣) انظر نقاط الاشتعال في آسيا، د/ محمد صادق صبور، دار الأمين، الطبعة الأولى.



تمارس أدنى ضغط على الحكومات الهنديّة المتعاقبة حتى تحترم هذه القرارات وتلتزم بها.

وفضلًا عن الموقف المتخاذل للأمم المتحدة، فقد صدرت بعض الإدانات من هيئات دولية -على استحياء- مثل منظمة العفو الدولية التي دعت الحكومة الهندية إلى إدانة صريحة لعمليات الاختفاء القسري في جامو وكشمير، وتقديم أي شخص يشتبه بمسئوليته عن مثل هذه الجرائم إلى ساحة العدالة.

الموقف الأمريكي والصهيوني:

تأرجح موقف الولايات المتحدة من القضية الكشميرية، ولم تكن رغبة الكشميريين، أو الاتفاقات والقرارات الدولية الخاصة بالقضية، هي المؤشر الأهم في تحديد طبيعة الموقف الأمريكي من القضية الكشميرية، بل كانت المصلحة الأمريكية في آسيا هي المحرك الأول لهذا الموقف، وارتبط التغير والتقلب في الموقف الأمريكي تجاه كشمير تبعًا لتغير العلاقة المصلحية التي تربطها بكل من الهند وباكستان طرفي القضية الأساسيين.

فحين كانت أمريكا تدعو في البداية لتنفيذ قرارات مجلس الأمن والشرعية الدولية فيما يخص حق تقرير المصير للكشميريين، وفي الوقت الذي كانت باكستان تعتمد على «الحليف الأمريكي» بصورة كبيرة لمواجهة الفارق الكبير في الإمكانيات مع خصمها الهندي، إلا إن الدعم الأمريكي لم يكن في كثير من الأحيان على المستوى المأمول للدرجة التي تخلت فيها أمريكا عن الجيش الباكستاني في بعض مواجهاته مع الهند.

وتراجع الموقف الأمريكي وصار يدعو إلى بحث القضية والتعاون على حلها من خلال الحلول السلمية عن طريق اتفاقية شملا الموقّعة بين الهند وباكستان، ثم انقلب هذا الموقف مؤخرًا، وانحاز تمامًا إلى الهند بعد دخول العلاقة الأمريكية الهندية في طور التحالف الاستراتيجي؛ لما للهند من أهمية كبرى في الاستراتيجية الأمريكية، التي تعتبرها حجر الزاوية في جنوب آسيا؛ لثقل الهند الكبير في المنطقة، واشتراكها مع أمريكا في محاربة المد الإسلامي ومنع انتشاره، فضلاً عن وضع الهند كسوق ضخمة يمكن أن تستفيد منه أمريكا اقتصاديًا.

إذًا فلم تكن كشمير في التصور الأمريكي غير ورقة هامة تستفيد بها تبعًا لحاجتها لأطراف الصراع وحفظًا لمصالحها في المنطقة.

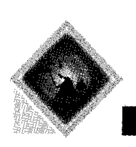
وتضغط أمريكا على باكستان لإقناعها بالتوقف عند حدود الوسائل السلمية، والتفاوض من أجل حل القضية الكشميرية، ووصل الأمر مؤخرًا -بعد تطور العلاقة الأمريكية الهندية لدرجة التحالف الاستراتيجي- إلى اعتبار النضال البطولي للشعب الكشميري والمساعدات التي تقدمها الجماعات الجهادية الباكستانية لإخوانهم في كشمير من قبيل أعمال الإرهاب.[٤]

وعلى الجانب الصهيوني؛ فإن الوجود الإسرائيلي في كشمير ليس شيئًا جديدًا، خاصة للمتابعين والمهتمين بما يدور في هذه الولاية المسلمة منذ أكثر من نصف قرن، فقد نشرت الصحف العربية عن التعاون الهندي الإسرائيلي لقمع الانتفاضة في كشمير، وكشفت وكالة الأنباء الباكستانية مؤخرًا أن وجود العامل اليهودي في كشمير قديم من حيث التعاون المعلوماتي، أو الإرهاب، والتدريب، بل أكدت مصادر المجاهدين في كشمير وجود أكثر من (٣٥٠) كوماندوز يهودي يتعاونون مع الهند لضرب الانتفاضة الكشميرية.

هذا التقارب الهندي الصهيوني يجب أن يُؤخذ في الاعتبار بخصوص القضية الكشميرية، وما يحدث بشأنها من توترات بين الهند وباكستان، فمنذ وقت ليس بالبعيد بدأت العلاقة بين الهند وإسرائيل في النمو، وخصوصًا بعد تربُّع اليمين في كلتا الدولتين على سدة الحكم.[٥]

(٤) باكستان ومآلات التحالف الأمريكي، محمد عادل، التقرير الاستراتيجي الخامس للبيان.

(٥) لماذا تغامر الهند بإشعال الحرب ضد باكستان؟! بتصرف - طلعت رميح، الإسلام اليوم، ٥/٦/٢٠٠٢م.



العالم الإسلامي والقضية الكشميرية:

حظيت القضية الكشميرية لعقود باهتمام بالغ في العديد من دول العالم العربي والإسلامي؛ بفعل التحركات الباكستانية الدبلوماسية الداعمة للقضية، فكان التأييد لحق الشعب الكشميري في تقرير المصير، وكانت التحركات الإعلامية الداعمة لباكستان بهذا الشأن، كما أخذت القضية حيزًا كبيرًا في مؤتمرات القمة الإسلامية والمؤتمرات الإسلامية لوزراء الخارجية التي نددت بالانتهاكات الهندية ضد الشعب الكشميري.(٦)

حظيت القضية الكشميرية لعقود باهتمام بالغ في العديد من دول العالم العربي والإسلامي

وتراجعت القضية كثيرًا من أجندات العالم الإسلامي بعدما تغير الموقف الباكستاني المبدئي الخاص بكشمير، فضلاً عن تداعيات الحرب الأمريكية على «الإرهاب»، وما رافقها من غارة على العالم الإسلامي، ألهت دوله عن القضية الكشميرية إلى حد بعيد، حتى إن مجرد دعوات التنديد بالأسلوب الدموي الذي تعالج به الهند المشكلة ضعفت.

كما لعبت منظمة المؤتمر الإسلامي دورًا نشطًا للوصول لتسوية سلمية للنزاع، وأصدرت العديد من البيانات الداعية لذلك، فضلاً عن تنديداتها بعمليات القمع التي تقوم بها القوات الهندية، بناء على لجان تقصّي حقائق تابعة للمنظمة، إلا إن كل محاولات المنظمة باءت بالفشل نتيجة التعنت الهندي.

كما تقلص دور المؤسسات الإسلامية الإغاثية بالنسبة لقضية كشمير، برغم أنه لم يتجاوز المساعدات الإغاثية، إلا إن هذا الدور تراجع بصورة ملحوظة بعد الحملة الشرسة التي تشنها أمريكا والغرب على المؤسسات الخيرية الإسلامية.

كما أن رغبة العديد من دول العالم الإسلامي في الاتجاه شرقًا، بعيدًا عن القطب الأمريكي في السنوات الأخيرة(٧)، دفعها إلى إعادة النظر في علاقتها مع الهند على نحو يشير إلى مزيد من الاهتمام والتقارب على حساب القضية الكشميرية، وهو التوجه الذي يحظي بتأييد إيجابي من الهند التي تسعى لإقامة علاقات متميزة خاصة مع دول الخليج.(٨)

ويبدو أن العالم الإسلامي المثقل بهمومه لن تتعدى مشاركته في القضية -في ظل الأوضاع الدولية المتأزمة والحرب التي تستهدف المسلمين- الإعراب عن القلق والمطالبة بتسوية سلمية، خاصة بعد تغيير الموقف الباكستاني الخاص بكشمير، والذي كان يحظى بتأييد إسلامي كبير ودعم عربي.

كشمير في الاستراتيجية الباكستانية:

مثلت كشمير للحكومات الباكستانية المتعاقبة منذ نشأة الدولة أهمية كبرى وقضية أمن قومي باكستاني، لم يستطع أي نظام باكستاني حتى أواخر القرن العشرين تجاوزها أو التفريط فيها، ويمكن تلخيص تلك الأهمية فيما يلي:

- تعتبرها باكستان منطقة حيوية لأمنها؛ وذلك لوجود طريقين رئيسيين وشبكة للسكة الحديد في سرحد، وشمالي شرقي البنجاب تجري بمحاذاة كشمير.

- ينبع من الأراضي الكشميرية ثلاثة أنهار رئيسة للزراعة في باكستان، مما يجعل احتلال الهند لها تهديدًا مباشرًا للأمن المائي الباكستاني.

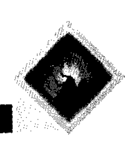
- تعتبر كشمير -ذات الأغلبية المسلمة- عمقًا استراتيجيًا هامًا لباكستان، خاصة أنها تملك حدودًا طويلة مع الهند العدو التقليدي لباكستان.

---

(٦) انظر مأساة كشمير منذ نشأتها حتى أحداث ١١ سبتمبر، منى حندقها، الدار الثقافية للنشر، الطبعة الأولى٢٠٠٣م.

(٧) تم استقبال الرئيس المصري في زيارته للهند في شهر ١١-٢٠٠٨ استقبالاً مبهرًا، الأمر الذي يشير للاهتمام -المتبادل- الكبير بدول العالم العربي والإسلامي، مما سيترك أثره لا شك على وضعية القضية الكشميرية.

(٨) انظر العلاقات الخليجية الهندية - التقرير الاستراتيجي الخليجي ٢٠٠٢-٢٠٠٣م.



وفضلاً عن المنطق العقدي والولاء السياسي الذي يربط كشمير بباكستان تاريخيًّا، إضافة للتضحيات التي قدمها الطرفان في سبيل الوصول لاستقلال كشمير أو التحاقها بباكستان؛ فإن القضية ترتبط في الحس الشعبي الباكستاني بالوجود الباكستاني ذاته، مما جعلها القضية الأهم على جدول السياسة الخارجية الباكستانية.

وقد لخص ظفر الله خان أحد وزراء الخارجية لباكستان أهمية كشمير الاستراتيجية لباكستان بقوله: «إن إلحاق كشمير بالهند لا يمكن أن يضيف شيئًا كثيرًا إلى اقتصاد الهند أو أمنها، بينما يمثل أمرًا حيويًّا لباكستان، فإذا ما انضمت كشمير إلى الهند؛ فإن باكستان سواء من الجانب الاستراتيجي أو الاقتصادي إما أن تصبح جزءًا خاضعًا للسلطة الهندية، أو ينتهي وجودها كدولة ذات سيادة مستقلة».[٩]

وللخلافات الحادة بين باكستان والهند منذ انفصالهما، والتي يأتي على رأسها قضية كشمير، فقد تدخلت باكستان عسكريًّا بصورة مباشرة في صراعات مع الهند كانت تأخذ أشكالاً متباينة في حدتها ومدى تأثيرها: تبدأ بمناوشات حدودية، واشتباكات عسكرية على خط الهدنة، كاد بعضها ينتهي بحروب مدمرة، لولا تدخل قوى دولية في الوقت المناسب والضغط على الطرفين لتهدئة الوضع، ووصلت النزاعات لذروتها في ثلاثة حروب نشبت بين الجارتين العدوتين منذ انفصالهما، وترتب عليها آثار ضخمة، وهو ما يؤشر لعمق الخلاف وحدته.

ودفع اختلال موازين القوى العسكرية والاقتصادية والبشرية لصالح الهند، باكستان لإنفاق الكثير من دخلها القومي لتقليص مساحة ذلك الخلل، خاصة من جهة الإنفاق العسكري، الأمر الذي كلّف خزينة الدولة مبالغ طائلة، أثرت سلبًا على التنمية الاقتصادية.

وفي إطار معالجة ذلك الخلل سعت باكستان لتطوير برنامجها النووي لتحقيق التوازن مع خصمها التاريخي؛ إذ إن النظام السياسي الباكستاني كان على قناعة بأنه يصعب تحقيق التوازن عن طريق المنافسة في مجال الأسلحة التقليدية التي تتفوق فيها الهند بمراحل، ومن أجل تطوير هذا البرنامج تحملت باكستان العقوبات الدولية وضحَّت بالكثير من أجل استكمال بنائه.

وبعد دخول البعد النووي في الصراع أصبح الدور العسكري الكبير والمباشر لدعم كشمير أكثر صعوبة؛ حيث مثَّل البعد النووي محورًا أساسيًّا في معادلة التوازن بين البلدين في السنوات الأخيرة، ولم يكن الخيار النووي يمثل لباكستان فيما يخص القضية الكشميرية أداة حسم الصراع لصالحها، وإنما أداة لضمان عدم الحسم العسكري لصالح الخصم الهندي.

دفع اختلال موازين القوى العسكرية والاقتصادية والبشرية لصالح الهند باكستان لإنفاق الكثير من دخلها القومي لتقليص مساحة ذلك الخلل، خاصة من جهة الإنفاق العسكري

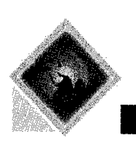
وفضلاً عن التدخل العسكري المباشر كان الدعم العسكري الذي قدمته الأنظمة الباكستانية المختلفة للفصائل العسكرية الكشميرية، والذي كان يعني لها استمرار القضية، وإرهاق المحتل الهندي واستنزافه، وتجنب دفع ثمن كبير في المواجهات المباشرة، فضلاً عن الهروب من الضغوط الدولية الداعية للتهدئة بين الطرفين.

ومن هنا لم يتوقف الدعم العسكري على مدار ما يقرب من نصف قرن للفصائل الكشميرية المقاومة، وتمثل ذلك الدعم في صور شتى من تدريب وإمداد، وإنشاء معسكرات للكثير من المجموعات الكشميرية المقاتلة على الأراضي الباكستانية.

ولمعرفة مدى الترابط بين باكستان وكشمير نجد أن معظم المقاتلين الكشميريين المنادين بالاستقلال عن الهند، والانضمام لإخوانهم الباكستانيين هم من

---

(٩) باكستان ومآلات التحالف الأمريكي، محمد عادل، التقرير الاستراتيجي الخامس (للبيان).



خريجي المدارس الدينية الباكستانية، كما أن دولة باكستان تستضيف العديد من مقاتلي كشمير، وتنشط فيها العديد من الجماعات الإسلامية المؤيدة لهذا الاستقلال.

وكما لعبت باكستان دورًا عسكريًا مهمًا لدعم القضية الكشميرية، فقد وازى هذا المسار العسكري مسار آخر لم يقل أهمية عن المسار الأول، والمتمثل في المسار السياسي، والعمل التفاوضي والإعلامي، والذي تبنته باكستان كاستراتيجية هامة تهدف بقوة لتدويل القضية، ونجحت بالفعل في بداية القضية- اعتمادًا على قوة موقفها القانوني- في استصدار قرارات دولية تخص القضية الكشميرية، والمتعلقة بحق تقرير المصير، «قرار الأمم المتحدة رقم ٣٨ لسنة ١٩٤٨م - قرار مجلس الأمن رقم ٤٧ لسنة ١٩٤٨م- قرار لجنة الأمم المتحدة رقم ١١٩٦ الصادر سنة ١٩٤٩م»، والتي تؤكد مضامينها قبول حكومتا الهند وباكستان في أن يتحدد الوضع المقبل لولاية جامو وكشمير بما يتفق وإرادة شعب الولاية، عبر استفتاء حر ونزيه.

وصاحب تلك التحركات عمل إعلامي واسع من الحكومات الباكستانية داخل المجتمع الدولي، وخاصة دول العالم العربي والإسلامي والمنظمات الإسلامية؛ لكسب الدعم والتأييد للقضية الكشميرية، والتي لاقت نجاحًا كبيرًا لعقود، حتى بدأت الأضواء تنحسر عن القضية مع تغيير الموقف الباكستاني وبداية حقبة جديدة من العلاقات الباكستانية الكشميرية على المستوى الرسمي بعد أحداث سبتمبر.

واستمرت باكستان خلال كثير من المناسبات في محاولة تدويل القضية؛ أملاً في تدخل أطراف دولية تساعد في وضع حد للصراع في كشمير، خاصة الطرف الأمريكي للضغط على الهند، إلا إن تلك المحاولات لم تنجح في التوصل لحل المشكلة؛ بسبب التعنت الهندي، ورفضها قبول القرارات الدولية، والميل الأمريكي للجانب الهندي، فضلاً عن تفوق الهند العسكري الذي لعب دورًا كبيرًا لصالحها في الخمسين سنة الأولى من عمر القضية.

التراجع الباكستاني

بناء على التحولات في استراتيجية أمريكا بالمنطقة، ووصول العلاقة الأمريكية الهندية إلى درجة التحالف الاستراتيجي، فقد تأثرت وضعية القضية الكشميرية بالنسبة لباكستان تأثرًا كبيرًا، مما أدى بالنظام الباكستاني تحت الضغوط الهندية وتصلب موقفها، إلى تراجع ملموس في موقفها من قضية كشمير المصيرية، حيث «فرضت أحداث سبتمبر ٢٠٠١م قيودًا شديدة على فُرَص عمل حركة المجاهدين في كشمير، من خلال ما أفرزته تلك الأحداث من تحولات مهمة في البيئة الأمنية الدولية بشكل عام، ومنطقة جنوب آسيا بشكل خاص، خاصة بعد انضمام باكستان إلى التحالف الدولي ضد الإرهاب». [(١٠)]

وبدأت باكستان شيئًا فشيئًا في عهد برويز مشرف في التخلي عن ثوابتها التاريخية المتعلقة بحقوق الكشميريين في تقرير مصيرهم، واتجهت خطوات التفاوض وجهة جديدة بعيدًا عن حل حقيقي للقضية إلى الاهتمام أكثر بعملية مد جسور التعاون بين الطرفين، ورفع مستوى التعاون الاقتصادي، وتأجيل التوصل لحل جذري للقضية حتى تتم عملية «بناء الثقة».

ونجحت الهند في تحقيق مكتسبات في موقفها من القضية، وتجاوز الثوابت الباكستانية والحقوق الكشميرية مستغلة الضعف الذي دبّ في الكيان الباكستاني، والذي كان أحد أسبابه التحالف مع أمريكا، والذي دخلت باكستان بسببه في دوامة من الاضطرابات غير المسبوقة، والشاهد أن السنوات الأخيرة من عمر القضية شهدت العديد من المباحثات المتبادلة بين الهند وباكستان، قدمت فيها باكستان كثيرًا من التنازلات، كان من أهمها تخلي الحكومة الباكستانية عن تأييد المجموعات الجهادية التي تقاتل للحصول على استقلال كشمير من الهند وضمها

---

(١٠) حركة المجاهدين في كشمير، دليل الحركات الإسلامية في العالم، العدد الأول، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية.

لباكستان، بل وبدأت تضيق عليها، وذلك بطلب من الهند، وبرغم ذلك لم تصل تلك المفاوضات لنتيجة حقيقية فيما يتعلق بحل القضية الكشميرية.

وتحولت القضية الكشميرية في حسّ بعض الساسة الباكستانيين إلى ورقة انتخابية تضمن الحشد الجماهيري لمن يرفع لافتتها، وتظهر بقوة وقت الانتخابات في صورة بيانات حماسية تؤيد بقوة حق تقرير المصير، ويبدو أن الرئيس الباكستاني الجديد آصف علي زرداري يسير على نفس نهج سلفه في التخلي التدريجي عن ثوابت القضية؛ حيث «اتهم حافظ محمد سعيد مؤسس جماعة عسكر الطيبة، وهي جماعة مسلحة رئيسة تقاتل في كشمير المحتلة الرئيس آصف علي زرداري بأنه مسالم أكثر مما ينبغي مع الهند؛ وانتقده لأنه يصف المسلحين في كشمير المحتلة بأنهم «إرهابيون»، ووصف حافظ محمد سعيد مؤسس تعليقات زرداري بأنها «انتهاك واضح وانحراف عن السياسة الثابتة لباكستان». (١١)

إلا إن تلك التحولات في السياسة الرسمية لباكستان تجاه القضية لم تغير في الحس الشعبي الباكستاني شيئًا؛ إذ إن القضية الكشميرية ما زالت تمثل لغالبية الباكستانيين وقطاعًا كبيرًا من الجيش والجماعات الإسلامية الباكستانية القضية المصيرية التي ترتبط بوجود باكستان ونشأتها واستمرارها.

كشمير في الاستراتيجية الهندية:

برغم أن كشمير تحوي أغلبية مسلمة، وبرغم الحروب المدمرة التي خاضتها واستنزفت من مواردها البشرية والاقتصادية الكثير، إلا إن الهند كانت وما زالت على مدار ستين عامًا شديدة التمسك بها؛ لما تمثله كشمير في الرؤية الهندية من قضية ذات أهمية استراتيجية، وتتلخص هذه الأهمية فيما يلي:

١- تعتبر الهند كشمير عمقًا أمنيًا استراتيجيًا لها أمام الصين وباكستان.

٢- تنظر إليها على أنها حاجز طبيعي وعمق أمني مهم في مواجهة الدولة الباكستانية الإسلامية التي نشأت على أسس دينية، الأمر الذي تعتبره يهدد أمنها الداخلي؛ لوجود عدد كبير من المسلمين في الهند.

٣- تخشى الهند في حال سمحت لكشمير بالاستقلال على أسس دينية أو عرقية أن تفتح بابًا من دعاوى الانفصال لا تستطيع أن تغلقه أمام الكثير من الولايات الهندية لنفس الأسباب الدينية أو العرقية.

الاستراتيجية الهندية في التعامل مع القضية الكشميرية

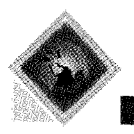
في سبيل غلق ملف كشمير لصالحها نهائيًا عمدت الهند لمجموعة من الاستراتيجيات منوعة الاتجاهات، متعددة التأثير (السحق العسكري- التوظيف- المواجهة- الاختراق ...) وغير ذلك من الاستراتيجيات التي استطاعت من خلالها كسب جولات كثيرة على المستوى السياسي والعسكري والإعلامي، حتى مالت الكفة بوضوح لصالحها مؤخرًا، وكادت لولا ثبات المقاومة الكشميرية وجهادها أن تغلق هذا الملف نهائيًا لصالحها، وتنهي صراعًا امتد لأكثر من نصف قرن ويمكن إجمال تلك الاستراتيجية في الآتي:

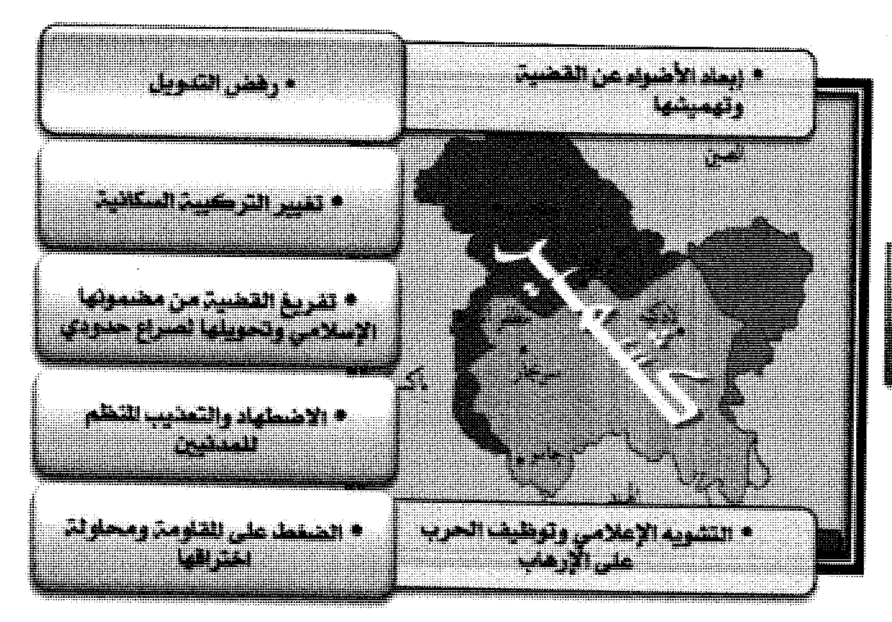
١- إبعاد الأضواء عن القضية الكشميرية وتهميشها:

وتحويلها من قضية سياسية وقضية حق استقلال إلى قضية إنسانية، واستخدمت الهند في ذلك مبررات وشعارات تعزيز الثقة أولاً بين الطرفين الهندي – الباكستاني كأولوية تسبق الملفات الشائكة بين البلدين، والاهتمام بتعزيز التبادل التجاري، والتعاون الاقتصادي، والذي ارتفع لمليار دولار مؤخرًا.

«وقد استطاعت الهند -بدهاء- استغلال خمس سنوات وأربع جولات في عملية السلام الجارية بينها وبين باكستان منذ يناير ٢٠٠٤م، دون تقديم أي شيء يُذكر لقضية كشمير، ففي كل مرة يتم إدراجها على جدول الأعمال، وفي كل مرة يتم تجاهلها، وعدم التطرق لها

(١١) رويترز ٦-١٠-٢٠٠٨م http://ara.reuters.com/article/worldNews/idARACAE٤٩٥١JF٢٠٠٨١٠٠٦





بوصفها شأنًا سياسيًّا يمكن التفاوض عليه، وبقيت نيودلهي ثابتة على موقفها من اعتبار كشمير جزءًا لا يتجزأ من أرضها الوطنية، في حين راحت باكستان تُبْدِي مرونةً، وتقدم مقترحاتٍ بعيدةً عن موقفها السابق المتبني لقرارات الأمم المتحدة كوسيلة للحل، وانتهى الأمر بتحويل القضية إلى شأن إنساني.(١٢)

٢- التشويه الإعلامي، وتوظيف الحرب على الإرهاب:

اجتهد الإعلام الهندي في تشويه صورة المجاهدين الكشميريين في عيون الرأي العام العالمي، ونجح بفضل خطته الإعلامية المحكمة -التي تقوم على التعتيم والانتقاء في البث والنشر- في منع وصول الحقيقة إلى العالم، وساعدت أحداث سبتمبر وما تلاها في تحويل قضية شعب يبحث عن الاستقلال وحق تقرير المصير إلى شعب إرهابي وقضية تمرد.

ولعبت الاستراتيجية الإعلامية الهندية دورًا بارزًا في تبرير عمليات السحق العسكري للمقاومة، وتهيئة الرأي العام الدولي لقبول المذابح وعمليات الانتهاك الشرسة التي تشنها القوات الهندية ضد المدنيين.

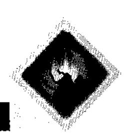
٣- رفض تدويل القضية:

بعد طلب الهند ولجوئها في بداية الأمر قبل نصف قرن للأمم المتحدة، وعرض النزاع عليها تحولت الاستراتيجية الهندية إلى إبعاد المنظمة الدولية وغيرها من المنظمات عن التدخل في القضية، على أساس أنها شأن داخلي، رافضة كل المقترحات والوساطات التي قامت بها باكستان في هذا الشأن، مما يشير إلى أن اتجاهها في بادئ الأمر للأمم المتحدة لم يكن سوى نوع من المناورة أو المشاغبات لكسب الوقت، وتثبيت الأمر الواقع، ومع مرور الوقت وضعف موقفها القانوني الذي يستند إلى حق الكشميريين في تقرير المصير، أعطت الهند ظهرها للمنظمة ورفضت أي تدخل دولي في القضية، ولم تنفذ للآن أيًّا من القرارات الدولية المتعلقة بالقضية.

٤- تغيير التركيبة السكانية:

للتغلب على واحدة من أهم العقبات التي تعوق المخطط الهندي في إغلاق الملف الكشميري نهائيًّا لصالحها، لجأت الهند مبكرًا في مخطط مدروس لتغيير الطبيعة السكانية في الإقليم التي تميل بوضوح للغالبية المسلمة، «فدفعت بموجات كبيرة من الهندوس، خاصة ممن خدموا في الجيش الهندي إلى الاستقرار في الإقليم، ومنحتهم الوظائف المختلفة، وأغلقت مئات المدارس

(١٢) كشمير.. الملف الضائع بين الهند وباكستان، سمير حسين، الإسلام اليوم، ٢٠٠٨/٦/٢٨م.



الإسلامية، وصادرت كثيرًا من الممتلكات، وأغلقت (٢٠٠) معهد إسلامي، وغيَّرت المناهج نحو التعليم الهندوسي، وبدأت في عمليات قمع رهيبة ضد المسلمين».[١٣]

وكان من نتائج هذه السياسة استقرار حوالي ٨٠٠ ألف عسكري هندي في كشمير المحتلة، وهو من أكبر التجمعات العسكرية في منطقة واحدة في العالم، تحت دعوى مكافحة التمرد، فضلاً عن فرار وتشريد ومقتل مئات الآلاف من الكشميريين، بسبب سياسات القمع الهندي، الأمر الذي أدى لاحقًا لتغيير ملحوظ في نسبة السكان المسلمين والهندوس بالولاية.

٥- تفريغ القضية من مضمونها الإسلامي ومحاولة تحويلها لصراع حدودي:

تبرز هذه السياسة بوضوح من خلال تصريحات المسئولين الهنود أنفسهم، فقد «اختزلت عضوة البرلمان الهندي نجمة هبة الله -في حديثها لصحيفة الرياض السعودية في عددها رقم ١٤٥٨١، الصادر يوم الاثنين ٢١ جمادى الأولى ١٤٢٩هـ الموافق ٢٦ مايو ٢٠٠٨م- قضية كشمير في أنها قضية حدودية لا أكثر، .. وتضيف هبة الله: لسوء الحظ هناك انطباع في المنطقة بأن قضية كشمير قضية إسلامية، ولكن هذا الانطباع خاطئ؛ لأن المسألة مسألة حدود، لأن باكستان تحتل ثلث أراضي كشمير، فهي مسألة أرض محتلة ولم ولن تكون قضية إسلامية. وباكستان تحاول أن تصور في منظمة المؤتمر الإسلامي، وفي العالم الإسلامي، بأن قضية كشمير قضية إسلامية، ولكني أقول: إنها مشكلة حدودية، وليست قضية إسلامية، كما تريد أن تصورها باكستان.

وتقول الناطقة باسم الخارجية الهندية -وقد صرحت بذلك منذ فترة طويلة-: «لا حق للمسلمين في العالم أن يتدخلوا في شئوننا الداخلية، وكشمير من أجزائنا، وإن كشمير قضية داخلية للهند، ولا حق لمنظمة المؤتمر الإسلامي أو غيرها من المنظمات الإسلامية العالمية أن تتدخل في الشئون الداخلية للهند».[١٤]

٦- الاضطهاد والتعذيب المنظم للمدنيين:

تحت لافتة محاربة الإرهاب بمفهومها الملتبس أُطلقت يد قوات الأمن الهندية في كشمير، بعيدًا عن مراقبة المنظمات الحقوقية التي مُنعت من دخول الأراضي الكشميرية، واعتمدوا في القضاء على المقاومة الكشميرية أساليب أدت إلى انتهاكات جسيمة لحقوق المدنيين.

وفي سبيلها لتقنين عمليات الاضطهاد المنظم سنَّت الهند قوانين في منتهى القسوة، تسمح لأفراد الجيش باحتجاز واغتصاب وتعذيب المدنيين، خاصة المتهمين بدعم المقاومة.

«وهذه القوانين السالبة للحريات تعطي القوات المسلحة الهندية وقوات الأمن مع سلطات الطوارئ الحق في إلغاء كافة الحقوق الأساسية للشعب الكشميري، والمسلمين في الهند.. وفي كشمير وخلال فترة المقاومة الإسلامية (١٩٨٩-٢٠٠٨م) قتلت قوات الجيش والأمن الهنديين أكثر من مائة ألف مسلم، واغتصبت عشرين ألف امرأة، ويتمت عشرات الآلاف من الأطفال، ورمَّلت آلاف النساء، ودمرت عشرات الآلاف من المنازل والمحال التجارية المملوكة لكشميريين، ووضعت في الحجز غير القانوني-وبدون محاكمة لمدة سنوات- آلاف الكشميريين الأبرياء الذين تتراوح أعمارهم بين سنتين إلى ٨٠ سنة».[١٥]

> في سبيلها لتقنين عمليات الاضطهاد المنظم سنَّت الهند قوانين في منتهى القسوة، تسمح لأفراد الجيش باحتجاز واغتصاب وتعذيب المدنيين، خاصة المتهمين بدعم المقاومة.

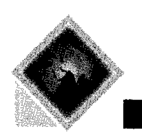
وتستهدف هذه الاستراتيجية الهندية -التي تعتمد على

---

(١٣) كشمير.. مأساة تغذيها الأطماع - مصطفى عاشور -إسلام اون لاين
/02/http://www.antomlife.net/arabic/history/1422 article02.SHTML

(١٤) سلام الهند وباكستان .. لا مكان لكشمير!! بتصرف، بقلم: سمير حسين، موقع كشمير المسلمة.

(١٥) عَهدُ الإرْهَابِ فِي كَشْمِير، بقلم: أئ . زيد خان، صحفي باكستاني، موقع كشمير المسلمة، السبت، ١٨تشرين الأول ٢٠٠٨م.



منظومة منوعة من الإجراءات الإجرامية- سحق النفسية الكشميرية، وفرض سياسة الأمر الواقع، ومحاولة إجهاض العمل المقاوم لدى الكشميريين، والضغط على المقاومة، وتحجيم عملها، وترهيب الداعمين لها.

وتثير هذه الإجراءات القمعية الهندية للمدنيين الكشميريين التساؤلات حول صحة الدعاوى الهندية بأحقيتها في الأراضي الكشميرية كجزء لا يمكن التفريط فيه من الأراضي الهندية، في حين أنها تتصرف في كشمير كقوة احتلال.

٧- الضغط على المقاومة ومحاولة اختراقها ووقف الدعم الباكستاني لها:

لم تتوقف أساليب الضغط الهندي على المقاومة الكشميرية على عمليات السحق العسكري المباشر للمجاهدين الكشميريين وإخوانهم الباكستانيين، وإنما تجاوز ذلك لعمليات قمع المدنيين لوقف الدعم الداخلي، وإضعاف الجبهة الداخلية المساندة للمقاومة، والضغط على المقاتلين الكشميريين لتخفيف وتيرة المقاومة التي سيدفع جزءًا من ثمنها المدنيون.

كما استغلت الهند جولات المفاوضات الثنائية مع باكستان للتركيز على ما أسمته مكافحة الإرهاب، ووقف أي دعم باكستاني لفصائل المقاومة على كافة المستويات العسكرية والإعلامية وغيرها كشرط لاستمرار المفاوضات، الأمر الذي ظهر أثره في وقف باكستان لجزء كبير من دعمها للفصائل الكشميرية المقاومة، ورفض بعض عمليات المقاومة على اعتبارها من أعمال الإرهاب.

وحاولت الحكومة الهندية اختراق المقاومة، وإحداث شروخ بين فصائلها، وبث الوقيعة بينها؛ لتشتيت الجهود وتسهيل عملية القضاء عليها، سواء كانت هذه المحاولات بطريقة مباشرة كما حدث في بداية القضية عندما «عمل الهندوس على الوقيعة بين الحزبين الرئيسين للمسلمين، وهما: حزب المؤتمر الإسلامي، وحزب المؤتمر الوطني».[١٦]

يضاف لذلك محاولاتها غير المباشرة لاختراق فصائل المقاومة عن طريق الضغط على باكستان للقيام بهذا الدور بالوكالة، وهذا ما يبدو أن باكستان وقعت فيه مؤخرًا؛ حيث «استطاعت الحكومة الباكستانية لأول مرة أن تُحدِث الشرخ بين اتحاد الأحزاب السياسية الكشميرية الذي يسمى بـ«مؤتمر الحرية لجميع الأحزاب الكشميرية» في كشمير المحتلة.

وكانت الهند قد عجزت عن ذلك مع كل المحاولات، وتمكنت الحكومة الباكستانية من تقسيم المؤتمر؛ لأن قائد المؤتمر (سيد علي جيلاني) الذي يتمتع بشعبية كبيرة في كشمير كان يعارض الخط الذي اختاره الجنرال برويز مشرف (والذي تخلى عن الموقف المبدئي الباكستاني من القضية، ودعا لتقسيم كشمير على أساس جغرافي، ولغوي، وديني، ثم يوافق البلدان: باكستان والهند على الأقاليم التي يمكن أن تكوّن دولة كشمير المستقلة، والأقاليم التي يمكن أن تكون تحت رعاية الأمم المتحدة، والأقاليم التي يمكن أن تبقى تحت سيطرة البلدين).

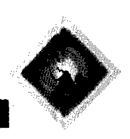
وكان الشيخ سيد علي جيلاني يعتبر ضم كشمير لباكستان الحل الأمثل حسب الموقف التاريخي القديم لباكستان.

وشجعت الحكومة الباكستانية الأحزاب الأخرى على تتبع الخطّ الذي اختارته حكومة الجنرال برويز مشرف، وبناء على ذلك اختلفت هذه الأحزاب، وانقسم (مؤتمر الحرية لجميع الأحزاب الكشميرية) إلى قسمين: قسم بقي تحت قيادة السيد علي جيلاني، وهذا القسم يمثل في حقيقة الأمر إرادة الشعب الكشميري، وقسم آخر سمي باسم (مؤتمر الحرية مجموعة عباس أنصاري)، وتجمعت فيه الأحزاب التي تتمتع بتأييد الحكومة الباكستانية الحالية لاختيارها خطّ الجنرال برويز مشرف لحلّ قضية كشمير.

وبدأ القسم الأخير من مؤتمر الحرية للأحزاب الكشميرية في خطّ إيجاد العلاقات المباشرة مع

---

(١٦) كشمير.. مأساة تغذيها الأطماع (مصدر سابق)



الحكومة الهندية، وحصل اللقاء الرسمي بينهم وبين الحكومة الهندية لأول مرة في يناير عام ٢٠٠٤م».[١٧]

استراتيجية الكشميريين لحل القضية:

للوقوف على حقيقة العمل الكشميري المقاوم، وأهم استراتيجيات الكشميريين لحل القضية لا بد من إلقاء الضوء سريعًا على أهم تقسيمات الحركات الكشميرية وفصائلها:

الفصائل والأحزاب الكشميرية:

تضم الساحة الكشميرية عشرات من الفصائل والأحزاب مختلفة الاتجاهات، تتنوع فيما بينها تنوعًا كبيرًا، وتمثل مواقفها من مسألة حق تقرير المصير والانضمام لأي من الطرف الهندي أو الباكستاني الفارق الأهم فيما بينها، والمحدد الرئيس لطريقة عملها الذي يتنوع بدوره ما بين العمل العسكري الجهادي، والمقاومة السياسية، والعمل الدعوي والتوعوي، أو الجمع بين كل ذلك.

ومن تلك الفصائل متعددة الاتجاهات والمشارب تمثل فصائل المقاومة ذات المرجعية الإسلامية بأطيافها المختلفة والمطالبة بالانفصال عن الهند أهم وأوسع الحركات انتشارًا في كشمير.

ويمكن تقسيم تلك الحركات التقسيم التالي:

«القسم الأول: الأحزاب السياسية:

- اتجاه يؤيد الانضمام إلى الهند.
- اتجاه يؤيد الاستقلال.
- اتجاه يؤيد الانضمام إلى باكستان.

القسم الثاني: الجماعات المسلحة:

القسم الأول: الأحزاب السياسية.

وهي ثلاثة اتجاهات:

أ- الاتجاه الأول: أحزاب تؤيد الانضمام إلى الهند، وهي أحزاب يغلب عليها الطابع القومي العلماني، وتهدف إلى الانضمام إلى الهند، ومن أهمها: المؤتمر القومي الكشميري - المؤتمر القومي الهندي: ويلاحظ على هذين الحزبين قلة الشعبية التي يتمتعان بها في الشارع الكشميري.

ب- الاتجاه الثاني: أحزاب ذات رؤية مستقلة، وتنادي بالاستقلال، وعدم الانضمام لا إلى الهند ولا إلى باكستان ومن أبرزها: جبهة تحرير جامو وكشمير- المؤتمر الشعبي- الجبهة الشعبية الديمقراطية.

ج- الاتجاه الثالث: أحزاب تؤيد الانضمام إلى باكستان، وتقوم برامجها السياسية على هذا الأساس، ويعتبر تجمع (تحالف) الأحزاب الكشميرية للحرية أهمها، ويضم هذا التجمع حوالي ٢٦ حزبًا منها:

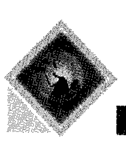
الجماعة الإسلامية: يترأسها السيد غلام محمد بت، وتركز -إضافة إلى نشاطها السياسي- على التربية والتعليم للحفاظ على الهوية الإسلامية للشعب الكشميري. ولها حضور عبر فروع نشيطة في معظم أنحاء كشمير. ومن أبرز قادتها محمد علي الجيلاني الرئيس السابق لتحالف جميع الأحزاب الكشميرية للتحرير، وعضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة.

مؤتمر مسلمي كشمير- حزب رابطة المجاهدين- الرابطة الشعبية (فاروق رحماني)، الرابطة الشعبية (شيخ عبد العزيز- اتحاد المسلمين: يترأسه السيد عباس أنصاري، وينتسب إليه مسلمون شيعة، وليس له جناح عسكري).

حركة تحرير جامو وكشمير- حركة المقاومة الشعبية: وبالرغم من توجهها العلماني إلا إنها تهدف إلى الانضمام إلى باكستان.

---

(١٧) كشمير تستلهم الاستقلال من كوسوفا! سمير حسين، الإسلام اليوم، ٢٥/٢/٢٠٠٨م.
http://www.islamtoday.net/articles/show_articles_content.cfm?id=37&catid=76&artid=11793



القسم الثاني: الجماعات المسلحة:

وهي تكوينات سياسية انتهجت أسلوب المقاومة العسكرية المسلحة للتخلص من الحكم الهندي والانضمام إلى باكستان. ويوجد لأغلبها قواعد ثابتة في باكستان للتدريب والإدارة، ومن أهمها:

حزب المجاهدين: أُسس عام ١٩٨٩م بقيادة سيد صلاح الدين، ويضم حوالي عشرة آلاف مسلح أغلبهم من الكشميريين.

جماعة عسكر طيبة: جماعة سلفية جهادية أسست عام ١٩٩٥م برئاسة البروفيسور حافظ سعيد، وتضم أكثر من ستة آلاف مقاتل، يطلق عليها أحيانًا «لشكر طيبة»، وبعد أن أدرجتها الولايات المتحدة ضمن قائمة الجماعات الإرهابية أعلنت عن انقسام العمل الداخلي بها إلى قسمين: الأول دعوي بقيادة البروفيسور حافظ سعيد، والآخر عسكري بقيادة عبد الواحد كشميري.

جيش محمد: يقودها مولانا مسعود أظهر، وتضم حوالي ثلاثة آلاف مقاتل، وأدرجتها الولايات المتحدة كذلك ضمن قائمة الجماعات الإرهابية.

حركة الأنصار: أسست عام ١٩٨٦م، وانشقت إلى جناحين.. حركة المجاهدين التي يقودها مولانا فاروق كشميري، تضم حوالي ثلاثة آلاف مقاتل، وحركة الجهاد الإسلامي التي يقودها السيد سيف الله أختر، وتعتبر أقل عددًا من الأولى.(١٨)

استراتيجية المقاومة الكشميرية

١- حروب العصابات:

الفارق العسكري الضخم بين القوات الهندية والمقاومة الكشميرية حتَّم على المقاتلين الكشميريين عدم الدخول في حرب نظامية ضد جيش بهذا العدد والعتاد؛ لذا فالخيار البديل كان اللجوء إلى حرب عصابات طويلة بهدف الوصول إلى نتيجة واحدة هي إحداث خسائر جسيمة في القوات الهندية، واستنزاف الآلة العسكرية، وقد ساعد على نجاح هذا الأسلوب معرفة فصائل المقاومة بالتركيبة الجغرافية للبلاد معرفة جيدة، والدعم المادي والمعنوي الكبير الذي يجده المجاهدون من بقية الشعب الكشميري.

٢- تنوع العمل المقاوم:

يتميز العمل الكشميري المقاوم بتنوع جبهات العمل، وتجاوز العمل العسكري المنفرد إلى شتى أنواع المقاومة: سياسية وإعلامية، ودعوية ودبلوماسية، وهو ما أثرى المقاومة الكشميرية، وكان أحد أهم أسباب الصمود البطولي للجهاد الكشميري ضد البربرية الهندية.

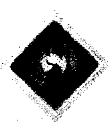
> تتميز المقاومة الكشميرية بطول الجبهة المقاومة، وامتدادها من العمق الكشميري إلى الداخل الباكستاني

٣- امتداد الجبهة المقاومة:

تتميز المقاومة الكشميرية بطول الجبهة المقاومة، وامتدادها من العمق الكشميري إلى الداخل الباكستاني؛ حيث تنقسم المقاومة الكشميرية في غالبها لقسمين رئيسين: مقاومة من داخل الأراضي الكشميرية، وهي في غالبها مقاومة سياسية تطالب بالاستقلال مدعومة بأذرع عسكرية، والجبهة الأخرى تنطلق من الأراضي الباكستانية «وهي موزعة بين عسكرية وسياسية، ودينية وعلمانية، وتتوزعها خريطة حزبية معقدة، ومتشابكة كتشابك الأعراق والقوميات والمذاهب الفكرية في باكستان.

وبصفة عامة يمكن القول: إن معظم الجماعات والمدارس الدينية الباكستانية لها امتداد بشكل أو بآخر داخل كشمير، فالجماعة الإسلامية الباكستانية لها حزب المجاهدين، والذي انشق عنه البدر، والسلفيون

(١٨) خريطة الأحزاب الكشميرية بتصرف -إعداد: مصطفى حميداتو، الجزيرة نت، ٢٠٠٤/١٠/٣
http://www.aljazeera.net/NR/exeres/D5C2021B-45F8-BF5A-DC579779A4CC.htm-6EF7



لهم جماعتا شكر طيبة وتحريك المجاهدين، والمدارس الدينية التقليدية لهم حركة المجاهدين بزعامة فاروق كشميري التي انشق عنها جيش محمد مؤخرًا، وهناك الصوفيون الذين بدءوا لأول مرة تأسيس حركة «انقلابي إسلامي» في كشمير. (١٩)

٣- توحيد الجبهة المقاومة:

نجحت المقاومة الكشميرية إلى حد كبير في اتخاذ خطوة شديدة الأهمية في المحافظة على استمرارية العمل المقاوم، والحفاظ على مكتسباتها، تمثلت في توحيد جهود عدد كبير من فصائل العمل المقاوم تحت مظلة واحدة بهدف تنسيق المواقف وتقوية الجبهة المقاومة، ولتفويت الفرصة على الاختراق، وتجنب حدوث أي تحركات فردية من شأنها إضعاف عمل المقاومة، ومن هنا ففي «سنة ١٩٩٣م اجتمعت الأحزاب الكشميرية على اختلاف توجهاتها في مظفر آباد بكشمير، وأنشأت تحالفًا يضم الأحزاب الكشميرية الداعية للتحرر، والمطالبة بحقوق الشعب الكشميري طبقًا لقرارات الأمم المتحدة، ويتألف التحالف من ٣٠ منظمة، لكن المجلس التمثيلي يتكون من سبعة أحزاب رئيسة فقط. أطلق على هذا التحالف اسم تحالف جميع الأحزاب لتحرير كشمير. ترأس الشيخ سيد علي التحالف سنة ١٩٩٨م في دورته الثالثة التي تستمر سنتين». (٢٠)

نتائج العمل المقاوم:

- لم تنجح السياسات العسكرية، الهندية -بفضل المقاومة البطولية للمجاهدين الكشمير- في القضاء على المجموعات المقاتلة، على الرغم من الفارق الضخم في العدة والعتاد بين طرفي الصراع، وبرغم ضخامة القوات البرية التي يمتلكها الجيش الهندي، إلا إنه فشل في إلحاق الهزيمة بالمقاتلين الكشمير الذين نجحوا في الاستمرار بالهجمات التي يشنونها، والحفاظ على معدل عملياتي مرهق للقوات الهندية؛ حيث تشهد الولاية عمليات مقاومة أخطر بكثير مما يصوره الإعلام الهندي والدولي.

- الاستنزاف العسكري والمادي والبشري للقوات الهندية المحتلة؛ حيث نجحت سياسة حرب العصابات في إلحاق خسائر ضخمة بالقوات الهندية، وتبدو آثار تلك الخسائر واضحة من خلال الضغوط الشديدة التي تمارسها الهند على باكستان لوقف الدعم المقدم للمقاتلين، «وفي كل جولةٍ من مفاوضات السلام مع باكستان تُرَكِّز الهند على مسألة مكافحة الإرهاب -تقصد المقاومة في كشمير-.

> لم تنجح السياسات العسكرية، الهندية -بفضل المقاومة البطولية للمجاهدين الكشمير- في القضاء على المجموعات المقاتلة، على الرغم من الفارق الضخم في العدة والعتاد بين طرفي الصراع

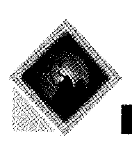
والسبب في ذلك هو حجم الخسائر التي مُنِي بها الهندوس في كشمير، فمنذ بدء المقاومة الإسلامية في كشمير في العام ١٩٩٠م حتى بدء مسيرة السلام بين نيودلهي وإسلام أباد، سقط على يد المقاومة أكثر من ٢٦ ألفًا من الجنود الهندوس، من بينهم أربعة جنرالات، إضافةً إلى تدمير العديد من المعدات العسكرية الهامة كالدبابات والسيارات العسكرية وذخائر الأسلحة، فيما تبتلع مواجهة المقاومة الكشميرية ٢٠٪ من الميزانية العسكرية للهندوس.

وهذا الأمر يُزْعِج الهنود أيّما إزعاج، وبالتالي؛ فإنهم دائمًا يركزون على بند مكافحة الإرهاب، ويتخذونه سبيلاً لوأد المقاومة في الولاية المسلمة، ووَقْفِ أي دعم باكستاني لها، سواء كان دعمًا إعلاميًّا أو دبلوماسيًّا أو أي دعم بأي شكل، بل تريد الهند أن تضرب المقاومة بسلاح باكستاني، وهذا هدف هندي لتطبيع العلاقات الهندية الباكستانية!! (٢١)

(١٩) كشمير.. نصف قرن من الصراع ، إعداد: محمد عبد العاطي، الجزيرة، المعرفة، السبت ١٤٢٩/١/٥ هـ - الموافق٢٠٠٨/١/١٢م.

(٢٠) أهم الوثائق والشخصيات المتعلقة بكشمير، إعداد: قسم البحوث والدراسات، الجزيرة نت، ٢٠٠٤/١٠/٣م.

(٢١) كشمير.. الملف الضائع بين الهند وباكستان، سمير حسين، الإسلام اليوم، ٢٠٠٨/٦/٢٨م.



استراتيجيات مطلوبة:

يحتاج الكشميريون لتطوير عملهم المقاوم، وتحريك القضية على كافة مستوياتها للوصول إلى حل جذري يتضمن حصول الشعب الكشميري على حق تقرير المصير -أن تُعالج المقاومة نقطة الضعف الأساسية المتمثلة في التراجع الباكستاني ماديًا ومعنويًا عن دعم وتبني القضية؛ نتيجة الظروف الدولية التي صبت في غالبها لصالح الهند، بجانب تطوير العمل الكشميري المقاوم، وضمان استمراره بوتيرة يتأكد من خلالها المحتل الهندي أن نزيف خسائره لن يتوقف، وأن كُلفة الإبقاء على القضية دون حل جذري يراعي حق الكشميريين في تقرير مصيرهم ستكون كلفته أعلى بكثير مما يتحملونها.

ويمكن للكشميريين التحرك على عدة مستويات لتحقيق تلك الأهداف:

أولاً: رفع مستوى التنسيق بين الجبهات المقاومة داخليًا وخارجيًا:

وذلك بتعظيم جهود التنسيق، واستمرارها بين تيارات المقاومة الأساسية التي تشترك في المطالبة بحق تقرير المصير، خاصة حزب المجاهدين المتميز عسكريًا، وجبهة تحرير جامو وكشمير البارزة سياسيًا، وغيرهما من الفصائل المقاومة، فضلاً عن تنسيق جبهة الداخل مع جبهة المقاومة الخارجية على كافة مستوياتها العسكرية والسياسية والإعلامية لضمان تعظيم مكاسب المقاومة، وإفشال المحاولات الهندية للإيقاع بين الفصائل المقاومة، وتفويت الفرصة لصنع جبهة جديدة موالية تعمل بالتسيق مع الهند على تمثيل الكشميريين، واختطاف القضية من أصحابها، واستلاب حق تمثيل الشعب الكشميري، وإسناد ذلك لجبهة عميلة، كما حاولت الهند دائمًا وكما نجحت في ذلك في بداية تفجر القضية منذ ما يقرب من نصف قرن، حين استقطبت رءوسًا كشميرية لضرب المقاومة، ومساعدة الهند في ترسيخ احتلالها لكشمير.

واستمرار تنسيق الجهود وتوزيع الأدوار بين التيارات لمقاومة من الأهمية بمكان لاستمرار المقاومة -وبرغم وجود بعض التباين بين بعض الفصائل المقاومة، إلا إن مساحات الاتفاق راسخة وواسعة، وعلى رأسها رفض الاحتلال، ورفض الانضمام القسري للمحتل الهندي، مع المطالبة بحق تقرير المصير، سواء أدى ذلك إلى الاستقلال دون الانضمام إلى باكستان أم الانضمام لباكستان.

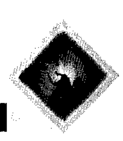
ثانيًا: تطوير أداء المقاومة العسكري:

تعتبر حرب العصابات هي الدعامة الأساسية التي تعتمدها المقاومة الكشميرية في مواجهة الجيش الهندي كثيف العتاد، وتقوم تلك الحرب على فكرة تكبيد قوات الاحتلال أكبر قدر من الخسائر، واستمرار نزيف القوات الهندية؛ لدفعه إلى مرحلة اليأس من الانتصار، أو القناعة بأن فاتورة الصراع أكبر من أن تتحملها الهند.

ولعل تجارب المقاومة الشبيهة والقريبة في الشيشان وأفغانستان تكون مفيدة في استخلاص دروس هامة لتطوير الأداء العملياتي العسكري للمقاومة من مثل تطوير مستوى الأداء للعمليات العسكرية، والتركيز على العمليات النوعية شديدة الأثر في نفسية الخصم، ومحاول الحصول على أسلحة حديثة لإحداث نقلة في مستوى المواجهة وحجم الخسائر لدى الاحتلال.

ثالثًا: المحافظة على بيئة داخلية متماسكة ودعم شعبي متميز:

لكي تنجح المقاومة في عملها وتصل لأهدافها، وتستمر في ظروف داخلية شديدة الصعوبة متمثلة في مئات الآلاف من الجيش الهندي يقومون بعمليات إبادة واغتصاب وقمع لا مثيل لها، وظروف خارجية لا تقل سلبية؛ بسبب أجواء الحرب على الإرهاب، فمع هذه الأجواء شديدة السلبية لا مفر من صناعة بيئة داخلية متماسكة تضمن بقاء أجواء المقاومة وفاعليتها وتطورها، ويكون ذلك بتغذية الشعور النفسي لدى الكشميريين بأهمية استمرار المقاومة، مهما بلغت التكاليف والتضحيات،



وصناعة بيئة شعبية داعمة للمقاومة ماديًا ومعنويًا، ففي مثل هذه القضايا المأساوية، والصراعات طويلة الأمد غير متكافئة الأطراف يصعب تصور استمرار جبهة المقاومة دون دعم والتفاف شعبي قوي، وتبدو أهمية التفات المقاومة لأهمية تجنيب المدنيين ويلات الصراع وخسائرها قدر المستطاع، وإنشاء خلايا تابعة للمقاومة لدعم البعد المعنوي والاجتماعي للكشميريين.

رابعًا: تنشيط العمل الإعلامي والدبلوماسي:

إحدى أهم الساحات التي شهدت تراجعًا على مستوى دعم القضية دوليًا هي الساحة الإعلامية التي نجحت الهند في كسب الجزء الأكبر منها؛ مستغلة للظروف الدولية والتراجع الباكستاني الذي كان يحمل الجزء الأكبر من الحرب الإعلامية لصالح القضية الكشميرية، ومن ثمَ تبرز أهمية تنشيط الجانب الإعلامي الذي خسرت كشمير بسبب فتوره الكثير، وتحولت في الحسّ الدولي إلى قضية هندية داخلية، أو على أحسن الفروض قضية ثنائية هندية باكستانية، لا يمكن للمجتمع الدولي التدخل لحلها.

ويمثل الإعلام في المرحلة القادمة للمواجهة أهمية خاصة للمقاومة على المستوى الداخلي والخارجي، لدعم ما حققته المقاومة من نجاحات والمحافظة عليها، وضمان تقديم غطاء شعبي ودولي للمقاومة في تحركاتها، فضلاً عن الكشف عن المجازر التي يقوم بها الاحتلال الهندي ضد المدنيين وسط تعتيم إعلامي كبير.

وتستطيع باكستان، بعلاقاتها المتميزة مع دول العالم الإسلامي، صناعة دور إسلامي أكثر إيجابية تجاه مأساة كشمير، وبرغم ضعف دور العالم الإسلامي المنهك حاليًا بالعديد من القضايا الكبرى، إلا إن وضع الدول الإسلامية بما يحتويه من أبعاد استراتيجية وقوة اقتصادية وعلاقات متميزة واسعة مع الهند، إذا أحسن استغلاله قد يكون بُعدًا محوريًا في التعجيل بتسوية سلمية، أو على الأقل وقف عمليات الإبادة والتعذيب المنظم ضد الشعب الكشميري.

خاتمة:

يبدو بوضوح في قضية كشمير أننا إزاء قضية تمتلك فيها الأطراف الأساسية رؤًى شديدة الاختلاف، ولا توجد مساحات تلاقٍ مشتركة، ولا أرضية كافية من الثقة وحسن النوايا، بما يسمح بتوقع التوصل لتسوية سلمية.

وواقع الحال أن حركة المقاومة تمر بموقف شديد الصعوبة، ومرحلة من أهم مراحل القضية وأشدها خطورة؛ إذ تواجه المحتل الهندي الذي كثف تحركاته لإغلاق الملف الكشميري بلا رجعة مستغلاً الوضع الدولي المعادي، فضلاً عن الموقف الذي لا تحسد عليه بعد أن فقدت أو كادت تفقد أحد أهم روافد دعم القضية، وهو الموقف الباكستاني المبدئي الذي كان يربط الوجود الباكستاني ذاته بقضية كشمير، وكان يسخّر كل إمكانياته من أجل حل القضية حلاً عادلاً يراعي حق تقرير المصير، إلا إن تحولاته الأخيرة أصابت قضية كشمير بضعف شديد.

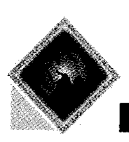
ويبدو صعوبة تصور حل جذري قريب للمشكلة، أو حتى تحرك حقيقي تجاه خطوات الحل، بل ربما يبدو أن مجرد وقف المأساة التي يعيشها الشعب الكشميري أمر بعيد المنال في ظل وضع دولي لا يشجع في إجماله على وقف الانتهاكات الهندية أو الدفع تجاه الوصول لحل يراعي حق الكشميريين في تقرير مصيرهم، مما دفع بالمحتل الهندي في مفاوضاته مع باكستان تجاه المزيد من التصلب في الرأي والتعنت في المواقف، التي نتلمسها من مجمل تحركاته وتصريحاته التي تصب في اتجاه ترسيخ الاحتلال، وإفشال أي محاولة يمكن من خلالها الوصول للحقوق المشروعة للشعب الكشميري في تقرير مصيره.

وبرغم صعوبة التحديات وقسوتها، ومع وجود بعض المعطيات القابلة للتغير في القضية الكشميرية مع تغير الوضع الدولي الذي يمكن أن يدفع بالقضية للحل النهائي، تبقى المقاومة بكافة أشكالها ومستوياتها



هي الخيار الأمثل للشعب الكشميري، وهي الطريق الوحيد لإجبار الهندوس على الخروج من كشمير.

ومع ما يبدو من ظلام في نهاية النفق الذي تسير فيه القضية الكشميرية إلى الآن، إلا إن إيمان الكشميريين بقضيتهم العادلة وحقهم في تقرير المصير، والتي لم تستطع ستون عامًا من عمر القضية أن تثنيهم عنها برغم التضحيات التي وصلت لـ٧٠ ألف قتيل كشميريّ، وأكثر من ٨٠ ألف مصاب، غير المهجَّرين والمعتقلين، يبقى هذا الإيمان والثبات على المبدأ هو الداعم الأكبر لاستمرار الصمود البطولي للمقاومة الكشميرية.



معلومات إضافية

أبرز المحطات التاريخية في الصراع الهندي الباكستاني

يزدحم تاريخ العلاقات الهندية الباكستانية بكثير من التوتر، كما اندلعت ثلاث حروب بين البلدين، وشهدت سنوات العلاقة العديد من المحادثات واجتماعات القمة التي يعتبر خط وقف إطلاق النار أهم نتائجها على الإطلاق، ومرت الأوضاع الداخلية لكلا البلدين بمنعطفات عديدة راح ضحيتها الكثير، وكان من بينهم مجموعة من زعماء البلدين السياسيين. وفيما يلي تسلسل بأهم الأحداث في العلاقات الثنائية بينهما منذ استقلالهما:

١٩٤٧م:

حصول باكستان والهند على استقلالهما عن بريطانيا في أغسطس/ آب، واندلاع أولى الحروب الهندية الباكستانية بسبب كشمير في أكتوبر/تشرين الأول.

١٩٤٩م:

إعلان وقف إطلاق النار بين البلدين في كشمير، بقرار من مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة في يناير/كانون الثاني، والهند تضع دستورًا للبلاد.

١٩٦٥م:

اندلاع الحرب الهندية الباكستانية الثانية، وإعلان وقف إطلاق النار في سبتمبر/ أيلول.

١٩٦٦م:

وفاة رئيس الوزراء الهندي لال بهادر شستري أثناء المحادثات الهندية الباكستانية المنعقدة في طشقند بالاتحاد السوفييتي سابقًا في يناير/كانون الثاني.

١٩٧١م:

اندلاع الحرب الهندية الباكستانية الثالثة في ديسمبر/كانون الأول؛ إثر الدعم الهندي للحركة الانفصالية في باكستان الشرقية (بنجلاديش فيما بعد)، واستسلام ما يقرب من ٩٠ ألفًا من القوات الباكستانية للجيش الهندي، واستقالة يحيى خان، وتولي ذو الفقار علي بوتو الرئاسة.

١٩٧٢م:

وقع رئيسا الوزراء في الهند وباكستان (أنديرا غاندي، وعلي بوتو) في يوليو/تموز على اتفاقية شِملا التي حددت خطًا للهدنة، يفصل بين كشمير الهندية، وكشمير الباكستانية.

١٩٧٤م:

أجرت الهند أولى تجاربها النووية؛ لتصبح بذلك سادس قوة نووية في العالم في مايو/ أيار.

١٩٧٦م:

استئناف العلاقات الدبلوماسية بين الهند وباكستان على مستوى السفراء.

١٩٨٢م:

وقع كل من رئيسة الوزراء الهندية أنديرا غاندي والرئيس الباكستاني الجنرال ضياء الحق اتفاقية عدم اعتداء واحترام الجوار بين البلدين في ١٨ مايو/أيار.

١٩٨٦م:

أظهر البلدان رغبة في الوصول إلى اتفاق سلام عقب المحادثات الهندية الباكستانية على مستوى وزراء الخارجية التي عقدت بإسلام آباد.

١٩٨٨م:

توقيع البلدين اتفاقية عدم الاعتداء على المنشآت النووية لكل منهما في ٣١ ديسمبر/كانون الأول.

١٩٨٩م:

قائد الجيش الباكستاني الجنرال ميرزا أسلم بيك أعلن نجاح التجارب الباكستانية في إطلاق صاروخها البالستي الأول حتف (١) وحتف (٢) في أكتوبر/تشرين الأول، وأجرت الهند تجارب لصواريخها البالستية المهيأة لحمل رءوس نووية، وحزب المؤتمر يمنى بهزيمة في الانتخابات العامة بالهند، وتشكيل حكومة أقلية بقيادة حزب جناتا دل.

١٩٩٢م:

أعلنت باكستان في فبراير/شباط امتلاكها للمعلومات والتقنيات الكاملة لتصنيع القنبلة النووية، لكنها عبرت عن عدم رغبتها في القيام بذلك، ومتطرفون هندوس مؤيدون لحزب بهارتيا جناتا يدمرون مسجد بابري التاريخي في ديسمبر/ كانون الأول.

١٩٩٤م:

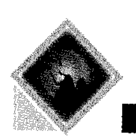
فشلت المحادثات الهندية الباكستانية المنعقدة في يناير/كانون الثاني، وباكستان تستبعد أي محادثات قادمة قبل توقف القوات الهندية عن انتهاك حقوق الإنسان في كشمير الهندية، ونواز شريف يعلن امتلاك باكستان للقنبلة النووية، لكن حكومة بينظير بوتو نفت ذلك.

١٩٩٦م:

رئيسة الوزراء بينظير بوتو تدعو الهند في يونيو/حزيران إلى استئناف المحادثات بين البلدين، بشرط أن تجري الهند انتخابات محلية في إقليم كشمير الهندي، وأقال الرئيس الباكستاني فاروق لغاري حكومة بينظير بوتو بتهمة الفساد.

١٩٩٧م:

في مارس/آذار عقدت جولة أولى من المحادثات الجديدة بين البلدين على مستوى وزارتي الخارجية في نيودلهي، والتقى وزيرا خارجية البلدين في نيودلهي في أبريل/نيسان من العام نفسه. وفي مايو/أيار التقى رئيس الوزراء الهندي إندر كومر كوجرال بنظيره الباكستاني محمد نواز شريف إبان اجتماعات رابطة جنوب آسيا للتعاون الإقليمي (سارك)، وتم الاتفاق على أجندة من ثماني نقاط كانت مسألة كشمير إحداها، وذلك في الجولة الثانية من



محادثات وزيري خارجية البلدين في إسلام آباد في يونيو/حزيران على أن يتم تحديد آليات تطبيق الأجندة في لقاءات لاحقة، والهند ترفض وساطة أمريكية لحل الخلاف على كشمير، وتؤكد أن المسألة الكشميرية تُحَلّ بمحادثات ثنائية مع باكستان.

١٩٩٨م:

باكستان تُجري تجارب ناجحة على صاورخها البالستي غوري في أبريل/نيسان، والهند تعلن في مايو/أيار إجراء تجارب نووية جديدة تحت الأرض، وباكستان ترد بإجراء تجارب نووية مماثلة في الشهر نفسه، ورئيس الوزراء الهندي أتال بيهاري فاجبايي يصرح بأن بلاده مستعدة لإنهاء خلافاتها مع باكستان عبر المحادثات الثنائية، كما صرح بإمكانية إجراء تجارب جديدة على الصاروخ البالستي أغني.

١٩٩٩م:

عقد رئيس الوزراء الهندي أتال بيهاري فاجبايي قمة تاريخية مع رئيس وزراء باكستان نواز شريف بمدينة لاهور الباكستانية في فبراير/ شباط، وفي يونيو/ حزيران اندلعت معارك شديدة بين الطرفين في مرتفعات كارغل.

٢٠٠٠م:

أعلن حزب المجاهدين الكشميري الموالي لباكستان وقف إطلاق النار في يوليو/تموز، وفي أغسطس/آب عقدت محادثات سلام بين الحزب والحكومة الهندية.

٢٠٠١م:

عقد الرئيس الباكستاني برويز مشرف قمة مع رئيس الوزراء الهندي أتال بيهاري فاجبايي في مدينة أغرا الهندية دون أن يصدر عن الزعيمين أي بيان مشترك، ووقع هجوم على البرلمان الهندي في نيودلهي أدى لمقتل ١٤ شخصًا من بينهم منفذو العملية، واتهمت الهند باكستان بدعم منفذي العملية.

٢٠٠٢م:

زاد التوتر بين البلدين، وأعيد نشر القوات العسكرية لكل طرف على خط الهدنة الفاصل بين كشمير الهندية وكشمير الباكستانية.

المصدر:

إسماعيل محمد، محطات في الصراع الهندي الباكستاني، الجزيرة نت، ٢٠٠٤/١٠/٣م، انظر الرابط التالي:

http://www.aljazeera.net/NR/exeres/79FBBB2F-49AD-4DD3-96E2-B6FF06A9E132.htm





أزمة الجنوب .. القديم الجديد في تقسيم اليمن

أنور قاسم الخضري
رئيس مركز الجزيرة العربية للدراسات والبحوث

ملخص الدراسة

تصاعدت أزمة الجنوب اليمني في الأونة الأخيرة، وصارت حالة الغليان التي تعيشها هذه المنطقة والدعوات المتزايدة لانفصالها عن الوطن الأم حديث وسائل الإعلام المختلفة، واتسعت لتعبّر عن نفسها في قالب سياسي وإعلامي واجتماعي وجماهيري وعمل مسلح، على الصعيدين المحلي والخارجي.

والأزمة الراهنة في الجنوب تشكل تراكمات عوامل سابقة أفرزت الواقع الذي يعاني منه الجنوبيون، والذي لا يجدون منه مخرجًا إلا بالانقلاب على هذا الواقع بالكلية !

وقد تباين تعاطي الأطراف السياسية والقوى الدينية والاجتماعية اليمنية مع الأزمة؛ فالقيادة السياسية حاولت منذ وقت مبكر أن تضع عددًا من المعالجات، تحت ضغط الحراك الجنوبي والضغوط الخارجية، ولكنها كانت معالجات ذات طابع أداء ارتجالي وغير مؤسسي وسطحي.

فيما حفلت مواقف أحزاب المعارضة من الأزمة بتناقضات عدة؛ نظرًا لاختلاف التوجهات بشأن الأزمة حتى داخل الحزب الواحد، فبينما يضم الحزب الاشتراكي في إطاره حاليًا ثلاثة تيارات رئيسة: أحدها انفصالي، وآخر يطالب بتصحيح مسار الوحدة، وثالث وحدوي معارض؛ فإن التجمع اليمني للإصلاح يتوزع بدوره على ثلاثة تيارات رئيسة: السلفي، والقَبَلِيّ، والعقلاني والسياسي.

وكما كان للتيار الشيعي في اليمن تاريخه في التحالف مع الحزب الاشتراكي، فقد أعلن الشيعة مساندتهم هذه المرة أيضًا للحزب الاشتراكي في مخطط الانفصال؛ في إطار تبادل المنافع القائم بين الطرفين.

وكأي أزمة دولية راهنة اليوم في الساحة العربية والإسلامية، تتخذ الأزمة طابعًا دراماتيكيًّا لها الآليات والمراحل ذاتها، بدءًا من مرحلة الحراك السلمي التي تعتمد على آليات دستورية وقانونية وإعلامية، ثم الانتقال إلى مرحلة العصيان المدني العام، ومخاطبة المجتمع الدولي بالتدخل لتنتقل إلى مرحلة الحراك دوليًا، أو الانتقال إلى مرحلة الحراك المسلح حال فشل تدويل القضية.

ولا يجب إغفال دور اللاعبين الدوليين، سواء إيران أو بريطانيا أو الولايات المتحدة، وتأثيرهم في الأزمة؛ فاليمن كانت محل أطماع قوى إقليمية ودولية منذ عهد بعيد؛ لكن هذه القوى استطاعت تحقيق نفوذها ومخططاتها بأيدٍ يمنية.. لذا فمن الضروري أن تبادر قوى جديدة حية ونقية، وذات ولاء حقيقي لمجتمعها، أمينة على مصالحه، ووفية لمبادئه، بتحمل مسئولية الإصلاح والتغيير، مهما كلفها الأمر من تضحيات وبذل.

أزمة الجنوب .. القديم الجديد في تقسيم اليمن

أنور قاسم الخضري
رئيس مركز الجزيرة العربية للدراسات والبحوث

مظاهر أزمة الجنوب اليمني:

نقصد بـ(أزمة الجنوب) في هذه الدراسة حالة الغليان التي بات يعيشها الجنوب اليمني، وتتحدث عنها وسائل الإعلام المختلفة، وتعبّر عن نفسها في قالب سياسي وإعلامي واجتماعي وجماهيري وعمل مسلح، على الصعيدين المحلي والخارجي.

ولهذه الأزمة عدة مظاهر، منها:

أولاً: المظاهر السياسية:

- تشكيل حركات معارضة جنوبية سياسية في الخارج، ووجود حراك سياسي معارض.

- عودة الحديث عن الجنوب والمطالبة بالعودة إلى الانفصال، أو إصلاح مسار الوحدة على أساس وثيقة «العهد والاتفاق»، الموقّعة بين شركاء الوحدة في عمّان عام ١٩٩٣م. وهذا الحديث أصبح يُدار في عدة أُطُر: إطار الحزب الاشتراكي، إطار الحراك الجماهيري في الجنوب، بعض أطر المعارضة في الخارج.

- الحراك النشط بين قيادات الجنوب الاشتراكية في الداخل والخارج، مع محاولة بعض هذه القيادات التغطية على خلفيتها الاشتراكية، وظهورها بمظهر غير المنتمي!

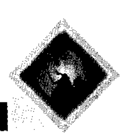
- تفعيل منظمات حقوقية ومدنية: جمعيات المتقاعدين برئاسة العقيد ناصر النوبة، جمعيات الشباب العاطلين عن العمل، حركة المتقاعدين العسكريين، ملتقيات المصالحة والتسامح كما في ردفان، ولقاءات الضالع ويافع، وحضرموت وأبين والمهرة، وجمعية المتقاعدين الدبلوماسيين، وحركة المتضررين في قضايا الأراضي بعدن والمكلا.

- القيام بالمظاهرات والاعتصامات، وعقد الدواوين (المجالس) التي يعبّر فيها عن قائمة المطالب والشعارات السياسية.

إبراز قيادات جديدة تدعو لانفصال الجنوب، وتتبنى الحراك لهذا الشأن خارج إطار الحزب الاشتراكي![1]

---

(١) في فبراير ٢٠٠٨م، وفي أثناء مهرجان لجمعية المتقاعدين، طالب العميد ناصر النوبة باستقلال الجنوب أسوة باستقلال إقليم كوسوفو! وتحدث في الوقت ذاته عن مشروع لفصل شبوة وحضرموت والمهرة! قائلاً: «رهانهم خاسر.. فحضرموت وشبوة والمهرة مع الجنوب». نيوز يمن، في ٢٠٠٨/٢/٢٤م.



ثانيًا: المظاهر الإعلامية:

إنشاء مواقع إلكترونية خاصة بالجنوب، تطرح قضيته بهذا الوصف، وانتشار الكتابات التي تتحدث عن وضع الجنوب ومطالب الجنوبيين، ناقدة نظام صنعاء وحكومة الشمال والشماليين بصفة عامة.

السعي لإنشاء قناة فضائية لخدمة الرموز المطالبة بالانفصال، فالدكتور عبد الله أحمد بن أحمد -رئيس التجمع الديمقراطي الجنوبي (تاج)- يرى أن إنشاء قناة فضائية باسم الجنوب «الحلقة المركزية» في نشاط المعارضة، و«أن قيامها سوف يُحدِث تحوُّلاً جذريًا في عملنا، وفي استيعاب العالم لقضية الجنوب العادلة.. أعطوني قناةً جنوبية أعطيكم وطنًا جنوبيًا محررًا». [٢]

الحديث في الصحف عن قضية الجنوب، وأوضاع الجنوب، ومساوئ الوحدة التي تُوصَف بأنها (وحدة ضم وإلحاق)، وآثار حرب ١٩٩٤م (التي توصف بأنها احتلال شمالي)! وإثارة الموضوع بصورة أو بأخرى!

رفع شعارات مناوئة للوحدة المفروضة بالقوة والدعوة للانفصال، وإخراج الشماليين، وعودة الجنوب للجنوبيين، وغيرها من اللافتات التي تُرفَع في المظاهرات، والتجمعات العامة ضد الدولة!

رفع علم الجنوب العربي، أو علم دولة جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية، في المظاهرات والمسيرات والفعاليات الجماهيرية.

التعبير بالمصطلحات التالية: «شعب الجنوب»، و«دولة الجنوب» و«قضية الجنوب» و«الجنوب المحتل».. بشكل يُمَحْور الاهتمام حول الجنوب في الخطابات والتصريحات والمقالات الصحفية.

ثالثًا: المظاهر الاجتماعية:

الدعوة إلى تجمع قبائل الجنوب، والتي تبناها مندعي العفيفي، وهي محاولة لرصّ صفوف أبناء الجنوب في إطار مناطقي.

أحاديث الجنوبيين التي تعبر عن تململهم من الأوضاع التي جاءت بها الوحدة، وتمنيهم لعودة أيام الحزب، والرجوع إلى سابق العهد!

تعبير الجنوبيين عن تذمرهم من هيمنة أبناء الشمال على المناصب الإدارية العليا، وأغلب الوظائف المهمة في الدوائر الحكومية، وانتشار الأيدي العاملة الشمالية في كافة المهن والأسواق، وهذا التعبير يأخذ عدة صور: منها النكت السياسية والاجتماعية الساخطة على الشماليين وعلى سلوكياتهم! ومنها القصائد والزوامل الشعبية! ومنها رفضهم لبقاء الشماليين في هذه الوظائف والمناصب والمهن، والمطالبة بإعادتها إلى الجنوبيين؛ عوضًا عن معاملتهم وفق سياسة (خليك في البيت)! الحديث عن (الدحابشة) [٣] كوصف منفّر للشماليين، والتندر بهم في المجالس.

تهديد بعض جهات الحراك الجنوبي لأبناء الشمال الذين عملوا أو توطنوا في الجنوب للعودة إلى الشمال.

رابعًا: المظاهر العسكرية:

بروز حركة سعيد بن شحتور، وهي حركة مسلحة تطالب بالانفصال والرجوع عن الوحدة، وطرد الشماليين عن الجنوب.

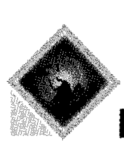
وجود حركة تسلّح غير مبررة، وتوزيع سلاح في الأوساط الاجتماعية الرافضة للواقع الراهن والمطالبة بالانفصال! إلى درجة أن هناك عروضًا على تيار الجهاد في هذا الشأن أيضًا!

هناك حديث عن تشكيل لجان عسكرية، وعمل سري مسلح (ميليشيات)! وهناك لقطات تُبَثّ على الشبكة الإلكترونية بهذا الشأن.

---

(٢) رسالة رئيس (تاج) إلى التجار والميسورين الجنوبيين، موقع صوت الجنوب، في ٢٠٠٧/١/١٥م.

(٣) وصف دحباشي مستقى من مسلسل يمني، قدمته الفضائية اليمنية، وكانت أبرز شخصية فيه (دحباش)، وهي شخصية تمثيلية ساخرة!



أسباب الأزمة ودوافعها:

الأزمة الراهنة في الجنوب لها أسباب عدة وهي تشكّل تراكمات عدة عوامل سابقة أفرزت الواقع الذي يعاني منه الجنوبيون، والذي لا يجدون منه مخرجًا إلا بالانقلاب على هذا الواقع بالكلية!

ومن هذه الأسباب:

اقتناع شريحة من أبناء الجنوب بأن حرب ١٩٩٤م كانت حربًا استأثر الشماليون بها على مقدرات الجنوب وممتلكاته، ومارسوا في ظل نتائجها سياسة الاحتلال؛ بإقصاء الجنوبيين وإحلال الشماليين في إدارة الجنوب، واستثمار مقدّراته. وهي قناعة أوجدتها ممارسات الحكومة تجاه الجنوب عقب حرب الانفصال في سبيل إقصاء كوادر الحزب، وتمكين الدولة من الأوضاع هناك؛ بحيث لا يتم الرجوع بها مرة أخرى إلى رفض الوحدة. وهذه السياسات فيما يبدو غالت في التخوف، وذهبت بعيدًا في الإجراءات التعسفية ضد أبناء هذه المناطق بدافع القلق.

> الأزمة الراهنة في الجنوب لها أسباب عدة وهي تشكّل تراكمات عدة عوامل سابقة أفرزت الواقع الذي يعاني منه الجنوبيون، والذي لا يجدون منه مخرجًا إلا بالانقلاب على هذا الواقع بالكلية!

ذهاب أحلام الكثير من أبناء الجنوب بشأن تحسُّن الأوضاع بعد حرب ١٩٩٤م اقتصاديًا، مع توقع عودة أراضيهم وممتلكاتهم التي أُمِّمَت زمنَ الحزب الاشتراكي أدراج الرياح، فقد أثقلت الحرب كاهل الدولة، ولم تفلح جهود الحكومة في حل الأزمات المتتالية، وتحسين مستوى المعيشة.

استهداف نظام صنعاء -حسب رؤية الجنوبيين- لقبائل الجنوب من خلال تهميشها وتفريقها، وإشعال فتيل الصراع بينها. فقد حاولت القيادة السياسية تذكير أبناء الجنوب بالصراعات التي جرت في السبعينيات والثمانينيات في إطار التنافس على السلطة؛ من خلال تنبيش بعض المقابر الجماعية التي اكتُشِفت في عدن، كما أعادت الحديث عن ملفات قديمة في وسائل الإعلام.

بطء وتيرة العمل في مجال تأسيس البنى التحتية، وقيام المشاريع الاستثمارية، وتوظيف عائدات البترول لصالح مناطق الاستخراج الجنوبية بالدرجة الأولى.

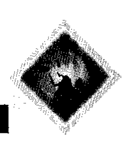
فقدان العديد من الرموز السياسية والاجتماعية والقَبَلِيّة الجنوبية لمصالحها، وتغييبها عن الشأن العام مقارنة برموز الشمال! حسب وصف بعض الجنوبيين.

ضياع حقوق الجنوبيين، والاعتداء على ممتلكاتهم، والتعدي عليهم، وممارسة المتنفذين الشماليين سلوكيات الإذلال والإهانة ضدهم - حسبما يردّد العديد من أبناء الجنوب، وهو ما عكس انطباعًا عن كون هذه الممارسات سياسة ممنهجة للحكومة ضدهم.

إفراط الحكومة في قمع الحريات، ونزع الثقة، والنظر إلى الجنوبيين بعين الريبة ومعاملتهم وفقًا لهذا الأساس. وذلك نتيجة ارتباط أغلب العناصر المتحركة بالحزب الاشتراكي، فعلى الرغم من ظهور (موج) و(حتم) و(تاج) وغيرها من الملتقيات والجمعيات إلا أنها لم تتوجه بخطاب حقوقي عام، بل اصطبغت في معظمها في حدود جغرافية الجنوب، مؤكدة بذلك -وفقًا لرؤى في السلطة- وجود نوايا حقيقية للانفصال تحت مبررات الحقوق والمطالب.

انفراد الشماليين بالقرار السياسي مع غياب الجنوبيين عنه، فحضورهم على مستوى سلطات الدولة: الرئاسية والنيابية، ومجالس الشورى، والوزراء والمحليات، والقضاء والدفاع الوطني ضعيف جدًّا أو مهمَّش -وفق رؤية الجنوبيين!

الحديث عن (عائلة حاكمة) و(توريث الحكم)، مع غياب مشروع (نظام ديمقراطي)، يأّس الكثير من تغيير الأوضاع وتصحيح المسار، مع قيام الحكومة المتكرر بتزوير إرادة الناخبين، ومقاومة جهود المعارضة والمستقلين للوصول للحكم أو المشاركة في السلطة.



التعبئة الإعلامية والسياسية لأحزاب المعارضة، والذي دفع المجتمع اليمني -والجنوبيين خاصة- للتطلع إلى التغيير والبحث عن مخرج. فقد استطاع الاشتراكي ترسيخ رؤية مغايرة لحرب عام ١٩٩٤م في أذهان الجنوب مستغلاً أخطاء الحزب الحاكم وسياساته تجاه الجنوبيين.

فشل المؤتمر في كسب ثقة المجتمع الجنوبي، وتفعيل نشاطه في مناطق الجنوب، بل على العكس من ذلك يعبّر الجنوبيون عن امتعاضهم من لغة الخطابات الدونية التي يتخاطب بها المؤتمريون مع أبناء الجنوب، والتي يسودها لغة المنّ والأذى! حسب تعبيرهم.

سوء أداء الدوائر الحكومية في الجنوب، وهيمنة الشماليين عليها! ورغم اعتماد حكومة المؤتمر على مبدأ انتخاب المحافظين ومديري المديريات كجزء من المعالجات، إلا أن ما جرى في هذا الجانب خيَّب آمال أبناء الجنوب.

إعلان القيادات الجنوبية في السلطة عن تذمّرها من تعمد سياسة تهميش دورها في المشاركة بالقرار والتخطيط، وإدارة البلاد في المحافل الخاصة مع أبناء الجنوب، وفقًا لبعض التسريبات.

فشل القيادة السياسية في الحفاظ على حلفائها، وممارسة سياسة الإقصاء إزاءهم: إسلاميين، قوميين، اشتراكيين، وطنيين[٤]! الأمر الذي أكسبها عداوة هؤلاء.

تعامل القيادة السياسية مع رموز وقيادات الجنوب وفق لغة الترغيب والترهيب للعمل لصالحها بعيدًا عن دورها السياسي والاجتماعي لمناطقهم!

لعب بعض الأطراف الإقليمية والدولية بملف الجنوب، وهناك حديث عن مساهمة إقليمية وبريطانية وأمريكية في تحريك الأزمة، وإبقائها فاعلة في الساحة. كما أن هناك حديثًا عن دور إيراني في سبيل التخفيف عن حركة الحوثي.

فشل الدولة في مواجهة تمرد الحوثي، والقضاء عليه، حفّز البعض لتبني العمل المسلح لنيل مطالبهم في الانفصال، والعودة إلى حكم مستقل، خاصة مع وجود دعم وتدخُّل خارجي في القضية، كما أسلفنا في النقطة السابقة.

غياب رموز بديلة عن رموز الحزب الاشتراكي تتبنى هموم المواطنين في الجنوب وتعمل لحلها بحق، مع الحفاظ على الوحدة الوطنية والألفة الاجتماعية، إسلاميين أو وطنيين!

هذه الأسباب وفَّرت أرضية خصبة لبذر روح التمرد، والثورة على الأوضاع في نفوس كثير من أبناء الجنوب، وهو ما دفع بتيار الانفصال في الحزب الاشتراكي للعمل على جني ثمار هذا الوضع من خلال إدارة وتوظيف الطاقات، وتنظيم القدرات، وتوفير الإمكانيات، والاتصال مع قوى الداخل والخارج، وترتيب الأدوار بين أطياف العمل الحالي، فالتيار الانفصالي يدفع بهذا الوضع باتجاه تحقيق أهدافه للعودة إلى السلطة من بوابة الثورة الأهلية، بعد أن خسر حرب ١٩٩٤م نتيجة غياب الدعم الأهلي له في حينها!

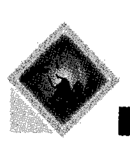
تعاطي الأطراف السياسية والقوى الدينية والاجتماعية مع الأزمة

موقف النظام الحاكم من الأزمة:

القيادة السياسية ومنذ وقت مبكر حاولت أن تضع عددًا من المعالجات لآثار حرب ١٩٩٤م، تحت ضغط الحراك الجنوبي، وضغوط خارجية بهذا الشأن. من ذلك الإعلان عن عفو عام عن قيادات الحزب الاشتراكي التي شاركت في الانفصال، ودعوة الفارين منهم للعودة إلى بلادهم، وفتح حوار مع قيادات الحزب الداخلية، وإعادة مقراته الرسمية وممتلكاته، في سبيل إغلاق أيّ مطالب للحزب.

كما أنها عملت على تعيين شخصيات جنوبية في مناصب قيادية في الوزارات والمحافظات وأجهزة الدولة، ومؤسساتها المختلفة لإظهار حسن النوايا تجاه أبناء الجنوب. إلا أنها لم تهتم بشأن إصلاح أوضاع القاعدة

(٤) عبّرت شخصيات ورموز عدة عن تهميش الرئيس لها، وتغييبهم عن صنع القرار من بينهم: الشيخ عبدالله بن حسين الأحمر، وسنان أبو لحوم، وغيرهم.



العريضة من منسوبي الجيش والأجهزة الحكومية من المدنيين الذين سُرِّحوا أو أُحيلوا إلى التقاعد؛ ومعظمهم كان يعتمد بالأساس على المرتبات التي يتقاضونها من الدولة؛ وهم في مقابل ذلك لا يجدون مصدرًا للدخل؛ نتيجة ندرة الوظائف الحكومية وضعفها في القطاعين العام والخاص، وعلاوة على ذلك فإن مناطقهم تعيش فقرًا مدقعًا، وغيابًا للبنى التحتية لأيّ تنمية اجتماعية.

وما يلاحظ على هذه المعالجات غلبة طابع الأداء الارتجالي وغير المؤسسي والسطحي، واستبداد القيادة السياسية في إدارة أزماتها السياسية والاقتصادية والأمنية والاجتماعية بشكل منفرد، ودون إشراك للقوى السياسية والاجتماعية الأخرى.

عمد النظام مؤخرًا إلى توزيع أموال وأراضٍ ووظائف حكومية في سبيل استقطاب عناصر المعارضة الداخلية وتغيير مواقفها.. لكنه فشل في استيعابها! كما عمد على نبش جراحات الماضي بين أبناء الجنوب وتيارات الحزب الاشتراكي اليمني؛ من خلال التذكير ببعض الأحداث والكشف عن مقابر جماعية، وهي محاولة فيما يبدو لزعزعة وحدة جبهة الجنوب، لكنها لم تفلح أيضًا!

عمد النظام مؤخرًا إلى توزيع أموال وأراضٍ ووظائف حكومية في سبيل استقطاب عناصر المعارضة الداخلية وتغيير مواقفها.. لكنه فشل في استيعابها!

ومن ذلك تعيين لجان حكومية واجتماعية لحل الإشكالات التي يطالب بها الجنوبيون لتسكين الحراك الجنوبي؛ من بينها لجنة حل مشاكل المتقاعدين، ولجنة حل مشاكل متضرري الأراضي والعقارات، ولجان حل أوضاع المؤسسات الصناعية المتردية، وغيرها.

أما من الناحية الاقتصادية فقد ظل النظام الحاكم عاجزًا أمام حل مشكلة البطالة والفقر التي يعاني منها كثير من أبناء الجنوب في ظل حركة الاستثمار البطيئة، وغياب فرص العمل والبنى التحتية للإنتاج الصناعي والزراعي والخدمي!

وتعمل الدولة حاليًا على تحسين البنى التحتية للكهرباء والهاتف، والطرق والماء إلى حد ما، كما أنها تحث المانحين وصناديق التنمية لبناء المدارس والمستوصفات الصحية، وحفر الآبار في المناطق الجنوبية، وإضافة إلى ذلك فقد تمَّ فتح فروع عديدة للمؤسسة الاقتصادية في مدن ومناطق الجنوب لتوفير السلع الغذائية الضرورية.

كما تسعى جاهدة لاستقطاب الاستثمار الأجنبي إلى الجنوب؛ لتشغيل وتوظيف القوى العاملة والكوادر الفنية في المشاريع المقامة. إضافة إلى سعيها في حلِّ القضايا العالقة بشأن الممتلكات والأراضي والعقارات والأحكام القضائية المتعلقة بالخلافات القائمة فيها -وهي من ميراث النظام الاشتراكي البائد. لكن هذه الحلول لا تزال تعاني من البطء وتلاعب المنفذين مما يؤدي إلى فشلها!

وقد وجَّه رئيس الجمهورية مؤخرًا بإعادة كافة المتقاعدين والمنقطعين عن العمل منذ عام ١٩٩٤م إذا كانوا قد أُحيلوا إلى التقاعد أو انقطعوا عن العمل بطريقة غير قانونية، مع منحهم كافة مستحقاتهم المالية أو الترقية، والاستفادة من كافة التخصصات الفنية في إطار القوات المسلحة والأمن، وبما يحقق المصلحة العامة. كما وجَّه بحل مشكلة الأراضي الخاصة بالعسكريين والأمنيين التي سبق منحها لهم.

إن توجّه الدولة للمعالجات الأمنية بشكل طاغٍ في مقابل الحراك الجماهيري، من خلال الاعتقالات التعسفية، وعسكرة المدن، ومنع المطالب الحقوقية، ومواجهة المظاهرات السلمية بالعنف والنار، مع تشكّي الناس من ظاهرة الفساد الإداري والمالي المتفشية في مرافق الدولة، أصّلت لنظرة كرهٍ وعداء، وغذّت حالة الغضب في الجنوب!

ومن ثمَّ فإن التعاطي الأمني والإعلامي والاقتصادي للنظام الحاكم مع الأزمة لا يرقى إلى مستوى المعالجة والحل لها، بل على العكس من ذلك هناك قصور وخلل

وتصعيد أحيانًا لأسباب الأزمة. ويبدو أن الحل المنظور للنظام الحاكم في الوقت الراهن هو الحل الأمني والعسكري، وفقًا لمعطيات ومؤشرات الواقع. فالمؤتمر حريص على إقرار «قانون حماية الوحدة»، وهو قانون بحسب المعارضين له سيكون سيفًا مصلتًا على أيّ حراك حقوقي ونشاط شعبي مدني في الجنوب. فهو يجرّم الإخلال بالوحدة الوطنية، أو الخروج عن الثوابت «أو الدعوة إلى السلالية والمناطقية وإثارة النعرات»، دون وضوح في توصيف هذه الجرائم!

ويتردد في الجنوب أن معسكرات الدولة تشهد حركة تنقل وإمداد، وشراء للأسلحة وتخزينها في مقابل ما تقوم به مجاميع المعارضة المسلحة -كحركة سعيد بن شحتور[5]، وهذا ما يثير المخاوف من اشتعال شرارة المواجهة ودخول البلاد في حرب استنزافية مدمرة!

البعض يتحدث عن وجود من يدفع القيادة السياسية والأوضاع للاشتعال، وأن هؤلاء يحققون من وراء ذلك إعادة هيكلة القوى التقليدية النافذة في الحكم.

البعض يتحدث عن وجود من يدفع القيادة السياسية والأوضاع للاشتعال، وأن هؤلاء يحققون من وراء ذلك إعادة هيكلة القوى التقليدية النافذة في الحكم، والتي أعاقت مشروع التحديث واللبرلة في اليمن! وهم يتوزعون على مؤسسات الدولة ومفاصل الحزب الحاكم!

موقف أحزاب المعارضة من الأزمة

الحزب الاشتراكي اليمني:

يضم الحزب الاشتراكي في إطاره حاليًا ثلاثة تيارات رئيسة:

تيار انفصالي: يدعو إلى الانفصال ويطالب بالرجوع عن الوحدة، ويترأسه الرموز الفارة منذ حرب ١٩٩٤م، والتي لا تزال ترفض العودة إلى الوطن. ويضاف إلى هذا التيار الداعون إلى إقامة الجنوب العربي والمدعومين من بريطانيا، وهم التيار الغالب في الحزب.

التيار المطالب بتصحيح مسار الوحدة وفق وثيقة العهد والاتفاق، ويرأسه حيدرة مسدوس وحسن باعوم.

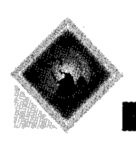
التيار الوحدوي المعارض: والذي يرأسه ياسين سعيد نعمان، إلا أنه التيار الأضعف، كما أن أغلب رموزه شمالية في الأصل.

وحاليًا هناك خلاف بارز بين هذين التيارين، فقد صرّح ياسين سعيد نعمان -لقدس برس- بأن حزبه سيتصدى لـ«كل المشاريع الصغيرة، والصغار الذين يحملونها»، موضحًا أن قصده بالصغار جناح الحزب الاشتراكي الذي ينتقد أداء قيادة نعمان للحزب، وأبرز رموزه حسن باعوم. وحمّل السلطة مسئولية تنامي هذا التيار داخل الاشتراكيين؛ متهمًا إياهم بأنهم «لا يدافعون إلا عن أنفسهم»، وأنهم يأخذون من معاناة الناس وسيلة لتحقيق مصالحهم، ويبتزون السلطة، في حين أن الحزب «يدافع عن قضايا هؤلاء في إطار خياراته الوطنية».

في المقابل سبق لحسن باعوم -عضو المكتب السياسي للحزب الاشتراكي اليمني- أن اتّهم في تصريح مماثل لـ«قدس برس» قيادة نعمان ومن معه بما أسماه «اختطاف الحزب الاشتراكي»، مشيرًا إلى أنه يعبّر عن قطاع عريض داخل الحزب الاشتراكي، وأنهم يدعون «إلى حوار بين جمهورية اليمن الديمقراطية والجمهورية اليمنية في صنعاء»! وأن يأخذ هذا الحوار بعين الاعتبار قرارات الأمم المتحدة التي صدرت عشية الحرب. مشيرًا إلى أن نعمان والقيادة التي حوله لا تمثّل إلا نفسها، وأن «هناك قيادات شرعية للحزب، أما هؤلاء الذين هم في الواجهة فلا يمثلون إلا أنفسهم»!

وهناك شخصيات ورموز اشتراكية أخرى في الداخل والخارج لها تأثيرها وحضورها في المشهد، إلا أن موقفها من الانفصال غامض، فالرئيس اليمني الجنوبي السابق علي ناصر، والمقيم في دمشق، له صلة ببعض الرموز

(٥) تشير بعض المصادر أنه سبق لابن شحتور، وهو من الضباط المتقاعدين، أن التحق بجهاز أمن الدولة، بعد أن قضى ثلاث سنوات في السجن بإيران على خلفية اختطاف طائرة سعودية إلى طهران إبان فترة حكم الشاه، بحجة أن السلطات السعودية كانت قد صادرت عليه شحنة دجاج ولم تعوضه عنها! الميثاق نت، في ٢٠٠٧/٦/٤م.



الداعيــة للانفصــال في الغــرب، إلا أنــه لا يعلــن موقفًا واضحًــا مــن القضيــة! كما أن ســالم صــالح محمد، القيادي الاشــتراكي البارز الذي عــاد من الخارج وعُيِّن مستشــارًا للرئيس صالح، لا يــزال يحتفظ بعضويته في الحــزب وصلتــه بقياداتــه، وإن كان قريبًا مــن النظام الحاكم، وهو ما يفسره البعض بدور «الطابور الخامس» لصالح المعارضة!

وبغـض النظـر عن هــذا التفصيل يجـب التذكير بأن الحزب له تاريخ من التآمر ودورات العنف المتكررة، وهو من أشـعل حرب الانفصال عام ١٩٩٤م، وأن غالبية رموز المعارضة في حركة (موج) و(حتم) و(تاج) وغيرها هم من كوادر الحزب السابقة، وبأن رموز الحراك الجماهيري والعمل المسلح اليوم هم أيضًا من المنتسبين للحزب!

فقيادات الحزب ورموزه لم تأتِ للوحدة طيّعة مقتنعة، وهــذا ما أشــار إليه حيدر أبــو بكر العطــاس -رئيس الوزراء الســابق والقيادي الاشــتراكي البارز- في حواره مــع قناة «الحرة»، وأعادت نشــره صحيفة الثوري، حين أشــار إلى أن الوحــدة تمــت بقرار سياســي لا باســتفتاء شعبي! وأنه عارض الوحدة الاندماجية في حينه!

ومن هذا المنطلق يرى البعض أن هذا التباين في الحزب ناشــئ عــن اختلاف المصــالح بين هذه التيــارات، ويرى آخــرون أن هــذا التباين ما هو إلا توزيــع للأدوار؛ وأن ما يؤكــد هذا بقاء هــذه التيارات رغــم تناقض أفكارها وآرائهــا بهذا الشــأن في إطار حزبي واحــد وتحت مظلة قيادة تنظيمية واحدة فيها كافة الأطياف!

يقول أبو بكر باذيب -الأمين العام للحزب الاشتراكي اليمني-: «الحزب الاشتراكي اليمني لم يدَّعِ أنه صاحب هذه الحركة، لكن لا شك في أنه مؤثر أساسي في هذه الحركة، مثله مثل غيره من الأحزاب، السمة الرئيسة في هذه الحركة هي السمة الجماهيرية، وهذه ميزة تنفرد بها هذه الحركة منذ وقت طويل، فنحن لم نشــهد مثل هذه الحركة، ونتمنى أن تستمر في هذا التوجه على أن تُرشِّـد من أهدافها وأساليبها مستقبلاً»؛ ويضيف: «هذا المزاج الحادّ موجود داخل الحزب الاشــتراكي أيضًا، لا أريد أن أغطّي على هذا الأمر». [٦]

إن الحــزب اليوم حاضر بقياداته وكوادره وشــعاراته ضمن حــراك الاحتجاجــات في الجنوب ظاهــرًا، كما أصبــح الحديــث عــن قضية جنوبيــة وجنوب متــأزم هو السمة الغالبة على عناصره. فأقل ما يمكن أن يكسبه الحــزب الاشــتراكي اليمني مــن هذا الحــراك هو بناء استحقاقات سياسية في ظل هذا الأزمة تحت ذريعة أن ما يجري اليوم في الجنوب هو انعكاس لنتائج حرب ١٩٩٤م التي يصفها بالإقصائية. فقد دعا ياسين سعيد نعمان إلى دعم احتجاجات الجنوب، وألَّا يفرض أشــخاص أنفسهم أوصياء عليها حتى لا يقتلوها، كونها ستفرض زعامتها مــن داخلها، وأن على المشــترك ألا يقف بعيدًا عنها، بل عليه أن يدعمها، وبدلاً من قيادتها بشــكل مباشــر، لا بد من تنســيق فعاليات مختلفة شعبية واجتماعية يكون المشترك طرفًا فيها!

ويضيــف وهو يعبر عــن اطمئنانه لـ«تماســك الحزب»: «أيــن هــي هذه الدولــة (الجنوبية)؟ وما الــذي جرى لها؟ حرب ٩٤ أرادت أن تنهيها من الذاكرة التاريخية بشكل عــام، وحوّلتها إلى مجرد جغرافيا. هذا ما دفع إلى طرح القضيــة الجنوبيــة من جديد، بمعنــى أن الدولة الوطنية الديمقراطيــة اليمنية التي نتطلع إليها لا بد أن تقوم على جناحين، ولا تســتطيع أن تقلع بجنــاح واحد».. ويضيف: «نحن في الاشتراكي والمشترك نرى اليوم أن حلّ القضية الجنوبية هو مفتاح الحل للإصلاح الشــامل. وأن الجنوب هو البوابة التي يجب أن يبدأ منها الجميع لإصلاح أحوال البلاد». [٧]

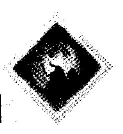
التجمع اليمني للإصلاح:

يتوزع التجمع اليمني للإصلاح على ثلاثة تيارات رئيسة:

---

(٦) أبو بكر باذيب -الأمين العام للحزب الاشتراكي اليمني، في حوار مع صحيفة «الخليج» الإماراتية، نقلاً عن www.alwatanye.net، في ٢٠٠٨/٤/١٠م.

(٧) ياسين سعيد نعمان الأمين العام للحزب الاشتراكي، في حوار مع صحيفة النداء، في ٢٠٠٨/١/٢٥م.



التيار السلفي: وهو تيار يقوده العلماء والدعاة. وهذا التيار مع بقاء الوحدة، ولا يزال يتبنى التصدي لأيّ نية للانفصال، وقد كان حاضرًا بفاعلية في حرب ١٩٩٤م، إلا أنه لم يعد هو الموجّه الحقيقي لفكر التجمع وقراره التنظيمي في الوقت الراهن.

التيار القَبَلِيّ: وهو يتخذ موقف المساندة للوحدة من منظور بقاء مصالح نفوذ هذه القبائل سياسيًّا واقتصاديًّا، وهو ما دفعها في حرب ١٩٩٤م للوقوف إلى جانب نظام صنعاء، حيث تعاملت مع قضية الجنوب من منطلق (ثقافة الفيد)!

التيار العقلاني والسياسي في التجمع: والذي تغيّرت لديه النظرة الإسلامية للحكم والسياسة والاجتماع، وأصبح يسيطر عليه منطق النظرة الغربية لهذه المسائل، فهو يحاول مسايرة الإرادة الدولية، وفي ظننا أن هذا التيار سوف يتبنى مواقف غير متصادمة معها، من باب إثبات حسن النوايا، والتماشي مع مقررات المجتمع الدولي، وهو يتعاطى مع قضية الانفصال وفق سياسة الممكن! وهناك تسريبات تفيد بأن القيادة التنظيمية للإصلاح أوعزت لقيادة التنظيم في الجنوب بترتيب أوضاعها؛ تهيئًا لأيّ تغيّر في واقع البلاد وتوجهها إلى الانفصال! وهذا الترتيب يعني اتخاذ التدابير اللازمة للتعامل مع الانفصال كواقع قائم!

وحاليًا تقف قيادة حزب «التجمع اليمني للإصلاح» إلى جانب بقية أحزاب اللقاء المشترك، وهي: الحزب الاشتراكي اليمني، وحزب الحق، وحزب اتحاد القوى الشعبية، والتنظيم الوحدوي الناصري، في موقفه من أزمة الجنوب.

يقول الدكتور محمد السعدي -الأمين العام المساعد لحزب «التجمع اليمني للإصلاح»: إن «أوضاع الجنوب الحالية هي نتيجة لتراكم سياسات الحكومات المتتالية للمؤتمر الشعبي العام».. ويضيف: وآراء الحزب في هذا الشأن واضحة ومعلنة، ولا تخرج عن موقف «اللقاء المشترك» الذي يمثل الإصلاح جزءًا منه. وإن رؤية الحزب لتهدئة الاحتقان القائم في الجنوب تقوم على «الاعتراف من قبل النظام بوجود أزمة»، و«دعوة القوى السياسية المؤثرة لتشخيص هذه الأزمة، ووضع الحلول بشراكة وطنية بين كل القوى المؤثرة بما فيها الأحزاب السياسية والقوى الاجتماعية».[٨]

لكن الإصلاح بدون شك لا يقر الدعوات القائمة للانفصال، يقول الأستاذ عبدالوهاب الآنسي، الأمين العام للتجمع اليمني للإصلاح: «نحن في التجمع اليمني للإصلاح، وكأحزاب اللقاء المشترك للمعارضة، نجرّم ونُدين وسنقف ضد أيّ تصرف تم في السابق، أو تصرفات قد تتم لاحقًا قد تؤدي إلى إخراج هذه القضية من إطارها الوطني إلى إطار خارجي، إقليميًّا كان أو دوليًّا».[٩] لكنه في المقابل لن يكرر موقفه الذي أبداه في حرب ١٩٩٤م بعد أن تنكّر الرئيس صالح لدماء مقاتلي التجمع وجهود رموزه الدينية والاجتماعية لتجييش الشعب إلى جانبه! وقد يحدث في وسط الإصلاح تصدّع جديد في حال كان لزامًا عليه اتخاذ موقف محدد من الأزمة إذا ما بلغت حدَّ السعي إلى الانفصال.

موقف الشيعة من الأزمة:[١٠]

للتيار الشيعي في اليمن تاريخه في التحالف مع الحزب الاشتراكي، فقد تبادلوا التأييد والنصرة في قضاياهم، ففي حين ساند الاشتراكيون الملكيين في حربهم ضد الجمهورية، وقف الشيعة إلى جانب الحزب الاشتراكي في أزمة عام ١٩٩٣م وحرب ١٩٩٤م.

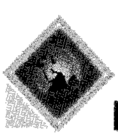
وعلى هذا الأساس فإن الشيعة يساندون الحزب الاشتراكي في مخطط الانفصال؛ لعدة أسباب:

- كونه سيُضعِف من قوة حكومة صالح، الأمر الذي يمدّهم بقدرة على التمرد، واستمرار مشروع الثورة الشيعية في اليمن.

(٨) الدكتور محمد السعدي الأمين العام المساعد للإصلاح، في حوار لصحيفة «الخليج» الإماراتية، نقلاً عن www.alwatanye.net في ٢٠٠٨/٤/١٠م.

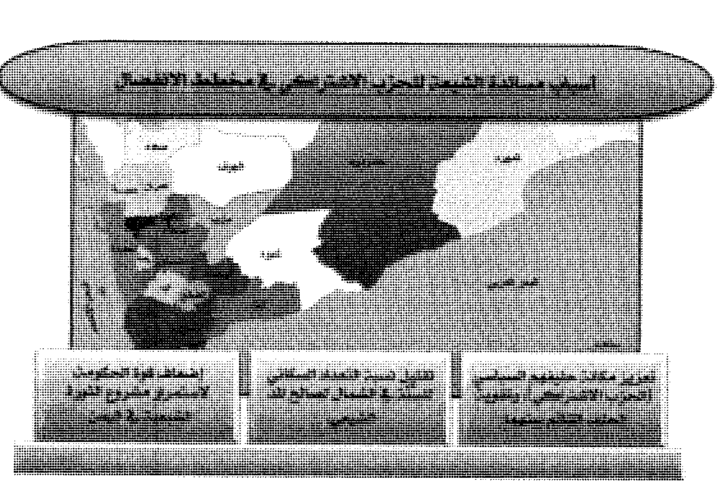
(٩) عبدالوهاب الآنسي، الأمين العام للإصلاح، في حوار مع صحيفة «الراية» القطرية، نقلاً عن www. al-islah.net، في ٢٠٠٧/٠٤/٢٧م.

(١٠) تجدر الإشارة هنا إلى أن نظام الجنوب الاشتراكي كان يقف إلى جانب إيران في حربها ضد العراق، في حين أنَّ نظام صنعاء كان يقف إلى جانب بغداد ويمدها بالمقاتلين!



- كونه سيقلّل من نسبة التعداد السكاني للسُّنّة في الشمال لصالح المد الشيعي، فالجنوبيون جميعهم سُنّة.
- كونه سيعزّز من مكانة حليفهم السياسي (الحزب الاشتراكي)، ومن ثمَّ سيقوّي من الحلف القائم بينهما.

هذه الحقيقة تؤكدها مواقف الحزب الاشتراكي المدافعة عن تيار الحوثي، ورؤيته للحرب في صعدة، وهي جميعًا تعكس تلاحمًا بين هذين التيارين؛ كما يؤكدها دخول الحزب الاشتراكي اليمني (جنوبي يساري) مع حزب الحق (شمالي مذهبي) مع اتحاد القوى الشعبية (شمالي مذهبي ليبرالي) في مظلة «اللقاء المشترك»، واتفاق هذه الأحزاب في ظل أزمة ١٩٩٣م على حكم اليمن بصيغة فدرالية أو كنفدرالية، وهذا الاتفاق قائم حتى اليوم، فقد أشار محمد عبدالملك المتوكل نائب الأمين العام لاتحاد القوى الشعبية، في مقابلة له مع صحيفة «الشارع»، في ٢٠٠٧/٨/٤م، إلى أن الحكم اللامركزي هو الطريق الأفضل لحماية وحدة اليمن من التمزق والتفتت.



آلية عمل الأزمة ومراحلها:

إن تفنن الحزب الاشتراكي في إدارة الأزمات أكسبه الخبرة والقدرة على تطوير أساليبه والتأني في قطف الثمرة، كما أنه تأكد له أن المراهنة على موقف القيادات الشمالية الحزبية والقبلية لن يجدي نفعًا في إعادته إلى السلطة والحكم، وأن الرهان الحقيقي هو البقاء على خط الجنوب الساخن، والذي يشكّل أرضية حاضنة للحزب.

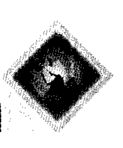
وكأي أزمة دولية راهنة في الساحة العربية والإسلامية حاليًا، تتخذ الأزمة طابعًا دراماتيكيًّا لها الآليات والمراحل ذاتها، وهو ما يلاحظه المتابع لقضية دارفور مثلاً في السودان!

أزمة الجنوب تعمل من خلال هذه المراحل تحديدًا:

مرحلة الحراك السلمي: وتعتمد على آليات دستورية وقانونية وإعلامية، فالمظاهرات والاعتصامات والخطابات والبيانات، وتشكيل الجمعيات واللجان الشعبية الداعية لنَيْل الحقوق والمطالبة بالحريات، ونقد الأوضاع والحديث عن ممارسات الدولة في الجنوب.. تشكِّل -في نظرنا- خطوة أولى في حراك الجنوب منذ عام ١٩٩٤م، وأصبحت أحزاب اللقاء المشترك -والحزب الاشتراكي بشكل أخص- تعتبر ما تقوم به الدولة ضد هذا الحراك بأنه مواجهة مسلحة لمطالب حقوقية وحراك سلمي! وقد اعتبر ياسين نعمان أن هذه الأساليب «باعث على اللجوء لخيارات أخرى لا يحتملها البلد الذي يواجه تداعيات في كل مكان».[11]

مرحلة العصيان المدني: وهنا يتم إعلان حالة العصيان المدني العام ومهاجمة السلطة عبر وسائل الإعلام بنبرة أعلى ومطالب سياسية أكبر مع مخاطبة المجتمع الدولي بالتدخل. يقول الدكتور صالح باصرة -وزير التعليم العالي: «هناك اتجاه الآن يريد أن يحرّف هذه المطالب ويحولها إلى شيء من العنف» ويضيف: «ويبدو أن هناك من يريد أن يدفع بالوطن إلى أتون صراع، ومن ثم يتحول

(١١) مأرب برس، في ٢٠٠٧/٨/٢م، كما أنه اعتبر في حوار له مع قناة «دبي»، أن هناك خيارين لا ثالث لهما: إما الحفاظ على الوحدة والنظر إليها «باعتبارها شراكة وطنية»، وإما مواجهة هذه الاحتجاجات، ما يعني تعقيد المشكلة وإكثار اللاعبين. نقلاً عن صحيفة «أخبار اليوم»، في ٢٠٠٨/١/٢٩م.



الصراع إلى حرب، بمعنى أن هذا الوطن سينتهي، وسيسقط في مستنقع الصراعات والتجزئة».[12]

مرحلة الحراك دوليًا: وفيها ستنشط المعارضة الخارجية في تصوير أيّ قمع قد تقوم به الدولة ضد العصيان المدني على أنها حرب، أو إبادة جماعية، أو ما إلى هنالك من الأوصاف التي قد تدفع بالمجتمع الدولي للتدخل في الوضع، واتخاذ قرارات أممية بشأنها! وقد يطرح الحكم المستقل كأحد الحلول، وقد يطرح حل الاستفتاء، وهو ما يراهن عليه رموز الأزمة [13]. وهذا ما هو جارٍ بالفعل في لندن ونيويورك وواشنطن من قبل حركة «تاج» والمعارضة الموجودة هناك. بل هي تصف ما يجري في صعدة بأنه «جرائم حرب»! و«إبادة جماعية»!

مرحلة الحراك المسلح: وهي مرحلة قد تضطر إليها رموز الأزمة في حال لم يتم تدويل القضية [14] بمجرد العصيان المدني، أو في حال ما إذا دُوِّلَت ولكن لم تستجب قيادة صنعاء للقرارات الدولية. وعندها بحسب عناصر في التيار الانفصالي سيعلن عن معسكرات وتشكيل مليشيات مسلحة، وسيتم تنفيذ حرب عصابات، والدخول في مواجهة شرسة مع معسكرات الدولة وأجهزتها الحكومية ومصالحها الرسمية. [15]

ورموز الأزمة حاليًا تجري استعدادها في هذا الشأن، فهناك ترتيب لوضع المعارضة الخارجية، وهناك تدفق للأموال لتحريك الناس للمطالبة بحقوقهم ونقد الأوضاع، وتشكيل حراك جماهيري منظم كاللجان والجمعيات وغيرها، وكذلك يجري العمل على شراء الأسلحة وتوزيعها، والتواصل مع الأطراف المحلية وجسّ مواقفهم من الانفصال[16]، ويجري حاليًا فتح المواقع الإلكترونية، والإعداد لإذاعة وقناة في الخارج، وكلها توحي بوجود إعداد نشط لمشروع الانفصال في المنظور القريب.

يقول الأستاذ فيصل بن شملان -مرشح الانتخابات الرئاسية ٢٠٠٦م عن أحزاب اللقاء المشترك-: «بالنسبة للجنوب، تعرف أن مجموعة في الاشتراكي تنشط تحت اسم (تيار إصلاح مسار الوحدة) أعلنت أن الانتخابات لا تعني لها شيئًا. هذا التيار موجود، والناس لم تقتنع بالنتائج، والمتقاعدون بدءوا بمطالب حقوقية، ثم أعلنوا مطالب سياسية؛ ولأن النظام سدَّ الطريقَ أمام التغيير بدأت حركة الاحتجاجات في الجنوب كنتيجة مباشرة لاهتزاز الثقة في الانتخابات».. ويضيف: «استمعت قبل يومين من قيادي في حركة الاحتجاجات عن تصورات قيد الإقرار، تمكن من تشكيل هيئة جنوبية عليا عبر تمثيل تصاعدي يبدأ من المديريات، مرورًا بالمحافظات، وبلوغًا إلى هيئة قيادية عليا يُناط بها تمثيل الجنوب».. وذلك بالطبع في حال اشتعال أزمة وغياب السلطة!

اللاعبون الدوليون وتأثيرهم في الأزمة:

يحاول اليمنيون في مجمل خلافاتهم تعليق أخطائهم على الخارج؛ بحيث يظن السامع لأحاديثهم أن ما يجري في اليمن إنما هو (قدر الخارج)! وينسى الجميع أن تدخل الخارج ما كان ليكون لولا إرادة داخلية وبيئة قابلة!

فاليمن كانت محل أطماع قوى إقليمية ودولية منذ عهد بعيد؛ لكن هذه القوى استطاعت تحقيق نفوذها ومخططاتها بأيدٍ يمنية..

يقول سالم صالح[17]: «نحن في اليمن بيئة عجيبة

(١٢) صحيفة الغد، في ٢٠٠٨/٤/١٣م.

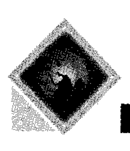
(١٣) في سبيل إقناع المجتمع الدولي بمسألة الاستفتاء على الوحدة، أعلن حيدر العطاس عن أن الاشتراكي أخطأ بإقدامه وتوقيعه على اتفاق الوحدة دون الرجوع إلى الشعب عبر استفتاء عام، وهو الشيء ذاته الذي أشار إليه سالم صالح محمد في برنامج (زيارة خاصة للجزيرة)، وتعلو حاليًا تصريحات زعامات الحراك الجنوبي النابذة للوحدة باعتبارها وحدة بين حزبين لم تكن فيها الإرادة الشعبية متوفرة!

(١٤) تطالب المعارضة الخارجية برعاية إقليمية ودولية لأي جهود لحل أزمة الجنوب، أو الحوار بشأنها مع السلطة، على غرار رعاية قطر للوساطة بين الدولة والحوثيين!

(١٥) سبق للنائب صلاح الشنفرة -قيادي جنوبي- أن هدّد -في اتصال هاتفي لأخبار الساعة- بإعلان الثورة والكفاح المسلح في كل جبال الضالع وردفان ويافع، في ظل الحصار الذي وقع عليها! انظر: www.soutalgnoub.com، في ٢٠٠٨/٤/٤م.

(١٦) إن أكثر ما يتخوف له الحزب الاشتراكي موقف الحركات الإسلامية السلفية والجهادية من إعلان أيّ بوادر عمل مسلح باتجاه الانفصال، وقد تواصل مع عناصر مختلفة من هذه التيارات لاستبانة مواقفها من القضية.

(١٧) برنامج زيارة خاصة، الجزيرة، في ٢٠٠٦/١/١٣م



في تقبّل أية أفكار جديدة، خذ حتى الواقع الحالي.. الديمقراطية؛ نحن مع الديمقراطية، ما هي؟ وكيف هي؟ نحن نتبنى كل شعاراتها، لكن ما هو الواقع؟!».. «اليمن تقبلت وتتقبل دائمًا الأفكار الجديدة وتتعامل معها، بعدين ما هو الذي ينطبق على الواقع؟ هذا موضوع آخر»!

وهذا ما عكسته قائمة الأحزاب التي تقدمت بطلب الترخيص لها عام ١٩٩٠م، والتي جاوزت الأربعين حزبًا، من أقصى اليمين وحتى أقصى اليسار!

وهنا يمكن أن نؤكد أن هذا التنوع في الأحزاب السياسية فتح المجال للقوى الخارجية للاصطياد في الماء السياسي العكر. بما فيها بالطبع القوى الإقليمية؛ فإيران استطاعت أن تجد لها قدماً عبر بوابة التشيع لـ(آل البيت).

التنوع في الأحزاب السياسية فتح المجال للقوى الخارجية للاصطياد في الماء السياسي العكر، بما فيها بالطبع القوى الإقليمية، فإيران استطاعت أن تجد لها قدماً عبر بوابة التشيع لـ(آل البيت)

وقد أشارت صحيفة «الشموع» شبه الرسمية، في ٢٠٠٧/٤/٢١م، إلى حصولها على معلومات خاصة تشير إلى وجود تحرك نشط لجهات إيرانية في الأوساط السياسية، من أجل إعادة فتح ملف الوحدة اليمنية عبر وسائل الإعلام، وتصوير الأوضاع الراهنة بأنها تمثل خطرًا يهدد مستقبل الوحدة، وأن هذا التوجه -حسب الصحيفة- يأتي في سياق «توافق عمل استخباراتي، وبتنسيق عالي المستوى بين الاستخبارات البريطانية والإيرانية من جهة والصهيو- أمريكية من جهة أخرى».. وأنه ورد إلى علم الصحيفة «من مصادر خاصة، أن السفير الإيراني عقد اجتماعًا مهمًّا بقيادي في تيار إصلاح مسار الوحدة احتضنته السفارة الليبية بصنعاء».

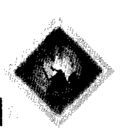
كما ذكرت بتاريخ ٢٠٠٧/٨/٤م عن مصادر في كل من العاصمة البريطانية لندن ومدينة ديترويت في ولاية ميتشجن الأمريكية، قولها: إن مجموعة من التجار الشيعة من دولة الكويت عقدوا سلسلة اجتماعات مع قيادات (تاج)، في لندن وديترويت وليبيا والبحرين وسوريا.. وأن تلك الاجتماعات صبّت في سياق مضامينها على ضرورة تحريك ملف ما يسمى (القضية الجنوبية وأبناء الجنوب)».

وإذا صحت هذه الأخبار؛ فإن إيران تهدف من وراء هذا الدعم إلى التخفيف من الحملة العسكرية على المتمردين الحوثيين، كما تهدف إلى معاقبة نظام صنعاء على وقوفه إلى جانب العراق في حربه مع إيران، وأخيرًا إلى إضعاف القوى السُّنّية في المنطقة من خلال غياب الاستقرار عن مناطقهم الآمنة، وإشغالهم بالصراعات البينية.

ولم يستبعد عبدالله غانم رئيس الدائرة السياسية للمؤتمر الشعبي العام، والعضو السابق في الحزب الاشتراكي، في حوار لصحيفة «الخليج» الإماراتية،(18) وجود قوًى خارجية ترتمي كوادر الحزب الاشتراكي المنفصلة عنه في أحضانها لتحقيق عودة الأمور إلى ما قبل ٢٢ مايو ١٩٩٠م كما هي رغبة هذه القوى. مؤكدًا أن نشاط المعارضة الخارجية مؤثر في توجيه الحراك الداخلي ومساندته بالمال؛ وأن هناك أدلة عديدة لا يريد المؤتمر الكشف عنها حاليًا. لكنه لم ينفِ في المقابل ارتباط دول كبريطانيا بما يجري في الجنوب. رغم تأكيده على وجود «مخطط خارجي» لإبقاء اليمن تغلي تحت موقد الأحداث.

إذن بريطانيا هي المتهم الثاني في تحريك ملف الجنوب، مستعمرتها السابقة، واليمنيون الشماليون ينظرون بعين الشك إليها، خاصة وأنها تستضيف حركة (تاج)، وتستضيف بعض قيادات الانفصال الهاربة، وترعى حاليًا أبناء المناطق التي كانت تحتلها سابقًا تحت غطاء تقديم الحقوق لعوائل وأبناء الأفراد الذين عملوا تحت ظل حكومة التاج الملكي في فترة الاستعمار! ورعاية شئونهم باعتبار الخدمات التي قدّمها أجدادهم لحكومة جلالة الملكة!

(١٨) صحيفة الميثاق، في ٢٠٠٨/٤/١١م.



كما أنها لا تزال تطالب باستعادة نفوذها في عدن بشكل أو بآخر! فعدن لا تزال تملك بريقًا جذابًا؛ نظرًا لموقعها المتميز، والذي يؤهلها أن تكون ميناءً عالميًا يجتذب إليه الاستثمارات، ويشكّل قاعدة متقدمة للاقتصاد البريطاني في المنطقة.(١٩)

بريطانيا ليست الدولة الغربية الوحيدة اللاعبة باليمن، فقد صرَّح السفير الأمريكي السابق بصنعاء «أدموند هول» في إحدى زياراته لحضرموت، وأثناء اجتماعه مع قيادات حزبية ووجاهات اجتماعية من المنطقة بأن حضرموت «تمتلك مقدرات دولة»! وهو ما اعتبره بعض المحللين ضوءًا أخضر لانطلاق المارثون باتجاه تصعيد القضية والسير بها في هذا المنحى!

سبق ذلك نشاط استخباراتي محموم للسفارة الأمريكية، وبصورة سافرة؛ حيث نشرت أكثر من مرة إعلانًا -في صحيفة (الأيام) الجنوبية- تدعو فيه الأشخاص الراغبين في التعاون معها للقبض على المطلوبين لها للاتصال بها وزيارة مقرّها في صنعاء. كما عملت على فتح مكتب لـ(سي آي أيه) والـ(إف بي آي) داخل مقرها في صنعاء.

وهي تستضيف كذلك قيادات اشتراكية معارضة، ونشاطًا لحركة (تاج). وتنتقد عبر تقاريرها الدورية الصادرة عن وزارة الخارجية ممارسات اليمن في مجال حقوق الإنسان، والتمييز ضد أبناء الجنوب!

ولا ينسى اليمنيون موقف الإدارة الأمريكية من حرب الانفصال، وأنه كان للولايات المتحدة رغبة في إقامة قواعد عسكرية باليمن؛ حيث تكررت مطالبها للقيادة السياسية بهذا الشأن عدة مرات؛ إلا أن القيادة السياسية أعلنت رفضها لمثل هذا الأمر.

إن نظرة بريطانيا والولايات المتحدة إلى الجنوب تأتي في إطار عدة ملامح منها أن:

الجنوب اليمني هو الأكثر مساحةً، والأقل سكانًا، والأوفر ثروة. فهو يمثل ثلثي مساحة اليمن تقريبًا، في حين يمثل سكانه الربع تقريبًا، ويمتلك مخزونًا مهولاً من النفط ومقومات المنطقة الحرة بعدن!

يمثل أبناء الجنوب نهجًا مختلفًا باعتبار غياب مظاهر التسلح عنهم وضعف البنية القبلية؛ بالإضافة إلى وجود أرضية اشتراكية (علمانية) صالحة لأن تكون شريكًا فاعلاً ضد الوجود الإسلامي أو للحدِّ من نموِّه وانتشاره.

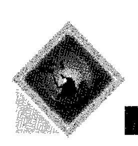
> فكفكة اليمن، وعزل الجنوب عن الشمال، سيُضعِف بنية التركيبة السكانية السنية التي باتت تمثل الغالبية العظمى في اليمن الموحد.

يقع الجنوب على امتداد الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية، وقريبًا من باب المندب، وهو ما قد يؤهله ليكون مستضيفًا جيدًا لقواعد عسكرية في المنطقة.. أمريكية أو بريطانية -تحت مسمى الاتفاقيات الأمنية والعسكرية، والتي باتت الغطاء السياسي للاحتلال العسكري في الوقت الراهن.

فكفكة اليمن، وعزل الجنوب عن الشمال، سيُضعِف بنية التركيبة السكانية السنية التي باتت تمثل الغالبية العظمى في اليمن الموحد. ومن المعلوم أن المجتمعات السنية محضن خصب لحركات المقاومة بكافة أطيافها: السياسية، والدعوية، والعلمية، والمسلحة.

ومن ثمّ فإن فتح ملف الجنوب والدعوة للانفصال يهدف إلى عدة أمور منها:

(١٩) لقد كانت اليمن على قائمة الدول المضيفة للإرهاب، وكانت فيما يبدو الهدف التالي لواشنطن بعد أفغانستان، فقد ذكرت صحيفة «صنداي تايمز» البريطانية في عددها الصادر بتاريخ ٢٠٠١/١١/٢٥م أن الولايات المتحدة وبريطانيا تنويان «توسيع حربهما ضد الإرهاب إلى الصومال والسودان واليمن، بعد انتهاء العمليات العسكرية في أفغانستان». ونقلت الصحيفة الأسبوعية عن مصادر رفيعة المستوى ومسئولين في واشنطن ولندن «أن أهدافًا ذات صلة بأسامة بن لادن في هذه البلدان تأتي على رأس القائمة السوداء المعرَّضة للضرب»، في حين ألمح وزير الدفاع البريطاني إلى احتمال شن هجوم على هذه الدول بالقول أمام لجنة الدفاع في مجلس العموم البريطاني: إنه في دولة لا تمارس سيطرة قوية داخل حدودها، قد يكون الرد العسكري ملائمًا!!



زيادة الضغط على نظام صنعاء، ودفعه إلى تقديم تنازلات أكبر في ملفات مختلفة: الحرب على الإرهاب، التطبيع مع إسرائيل، التغيير السياسي لصالح قوى أكثر ليبرالية، مكافحة القوى الإسلامية.

وضع السلطة في اليمن تحت التهديد الدائم، لتهميش أي دور إقليمي لليمن.

خلخلة البنى الاجتماعية بالمزيد من مظاهر الارتماء في أحضان الغرب والعمالة له.

إضعاف الدول المجاورة (خاصة السعودية) بما يسهل مستقبلاً توجيه أيّ تهديد لها في ظل غياب الحلفاء الأقوياء لها. مع ظروف الصراع مع إيران، واحتمال إغلاق خليج عُمان إذا نشبت الحرب، سيبرز جنوب اليمن والبحر العربي باعتباره المنفذ الأنسب لنفط الخليج.

ويذهب البعض إلى أن الجنوب لن ينفصل وأنه مجرد ورقة ضغط، يقول أحد قيادات اللقاء المشترك في معرض تحليله للأوضاع في البلاد: «إن الجنوب لن ينفصل، والحوثيون لن ينتصروا، فالقوى الخارجية التي تساند الطرفين ترغب في إبقاء الوضع ملتهبًا داخل اليمن؛ لأن عدم استقراره يؤثر سلبًا على المنطقة الإقليمية، كما أنه يحُدّ من تصدير خلايا الداخل إلى الدول المحيطة»[٢٠]

وهنا تجب الإشارة إلى أن النظام الحاكم في شمال اليمن، رغم تعامل الأطراف الدولية معه، إلا أنه غير مرغوب لعدة أسباب، منها: تشككها في طبيعة علاقته بالتيار الإسلامي، وهويته الاجتماعية المحافظة، وميوله القومية.

التقسيم كمطلب داخلي وخارجي:

نص القراران المتعلقان بحرب الانفصال عام ١٩٩٤م، واللذان صدرا عن مجلس الأمن (٩٢٤ في ١ يونيو- و٩٣١ في ٢٩ يونيو)، على استنكار ما وصفاه بـ«استخدام القوة»! في حل «الخلافات السياسية»! في حين وصف تقرير الأمين العام للأمم المتحدة المرفوع لمجلس الأمن في ٢٧ يونيو قيادات الانفصال بـ«زعماء الجنوب»! وأشار إلى أن مواقف الدول المجاورة والإقليمية متفقة على «أن الخلافات السياسية لا يمكن أن تحل بالقوة»، وأن موقفهم من الصراع «يتوقف على الشعب اليمني، وعلى زعمائه الذين هم أطراف في النزاع لكي يقرروا بأنفسهم عن طريق الحوار السلمي ما إذا كانوا سيعيشون في دولة موحدة أو يعودون إلى الحالة التي كانت قائمة قبل ٢٢ مايو ١٩٩٠م، عندما كانت هناك دولتان مستقلتان»!

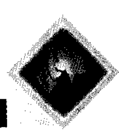
هذه العبارات في أعلى هيئة دولية، ومن أمينها العام، عكست رؤية دولية لليمن بفعل قوى كبرى ودول مؤثرة في صنع القرار. وهي رؤية ترسّخها تصريحات عدة لقوى الانفصال في الخارج والداخل. وسبق أن أشرنا إلى تصريح حيدر العطاس لقناة «الحرة»، أن فكرة الوحدة الاندماجية كانت من قِبَل نظام صنعاء، وأنها لم تكن طرحًا للحزب الاشتراكي في الجنوب![٢١]

والذي عاد ليقول في تصريحات أخرى: إنّ «أكبر خطأ ارتكبه الحزب أنه لم يستفت الشعب، أي على الوحدة!».. مشيرًا إلى أن الحزب تفرد بالقرار! وهو يستنكر رفض السلطة المطالبة بالفيدرالية كـ«نظام راقٍ من أنظمة الحكم، معمول به في أكثر الأنظمة تقدمًا، وكانت ستفضي إليه وثيقة العهد والاتفاق»، حسب تعبيره!

وفي بيان لحركة (تاج) بمناسبة الذكرى الأربعين للاستقلال الوطني للجنوب (٣٠ نوفمبر ٢٠٠٧م)، أكدت أن «الجنوب يقع تحت الاحتلال الكامل لنظام الجمهورية العربية اليمنية منذ ٧ يوليو ١٩٩٤م».. وأن المهمة المباشرة التي تقف أمام أبناء الجنوب هي العمل بكل أشكال وأساليب النضال السلمي للتخلص من الاحتلال، وتحرير الشعب منه، واستعادة السيادة، وإقامة الدولة الحرة المستقلة على أرض الجنوب؛ وفقًا لوثائق الاستقلال الأول عن بريطانيا في ٣٠ نوفمبر ١٩٦٧م. وأن (تاج) تتعاطى مع أيّ مشاريع مقدمة من أيّ فصيل جنوبي، طالما حافظ على استقلال الجنوب وهويته، وأن المشاريع المطروحة حاليًا أو في المستقبل كالفيدرالية وفيدرالية المحافظات، أو القبول بالحكم المحلي في إطار الجمهورية اليمنية؛

(٢٠) موقع القناة، في ١١/٧/٢٠٠٨م.

(٢١) صحيفة الأيام، في ١٨/٧/٢٠٠٧م.



هي تفريط بالوطن وبحقوق الشعب وحريته واستقلاله وأنها «جريمة لا تغتفر». وأن «أي مفاوضات تتم مع نظام الاحتلال لا بد أن تكون تحت إشراف دولي، وأن تضمن الحقوق الشرعية.. وفقًا لمواثيق الأمم المتحدة والقانون الدولي».[٢٢] وهناك عدة شخصيات تدعو للعودة بالوحدة اليمنية إلى نظام الفيدرالية، فقد طالب عبدالله الأصنج، المقيم في السعودية والمطلوب أمنيًا لليمن، في مقال له بصحيفة «الأيام» اليمنية بنظام فيدرالي يضمن حقوق أبناء الجنوب.[٢٣]

وأشار عبدالرحمن الجفري، رئيس رابطة أبناء اليمن (رأي)، في بلاغ صحفي في ٢٠٠٨/٤/١١م من مدينة هانوفر بألمانيا، إلى أنه اتفق مع الرئيس صالح في ١٤٢٨/٩/٩هـ على قضايا رئيسة من ضمن قضايا الإصلاحات الشاملة: اعتماد نظام الحكم الرئاسي الكامل- ونظام الحكم المحلي الكامل الصلاحيات- ونظام الانتخابات بالقائمة النسبية- ونظام السلطة التشريعية بمجلسين منتخبين- واستقلالية القضاء. وهو ما تقدم به حزب الرابطة كمقترح من شأنه حل الأزمة عبر تقسيم اليمن إلى عدة مخاليف كحل للاحتقانات القائمة.

كما أن عبدالله سلام الحكيمي، وهو سياسي كان في الحزب الناصري، وترشح عام ٢٠٠٦م للرئاسة، صرح لصحيفة «البلاغ»[٢٤] عن نيته لإقامة نظام اتحادي فيدرالي في اليمن؛ بحيث يتم تقسيم اليمن لعدة أقاليم لكل منها برلمان وحكومة محلية!

وفي ظل التهديد بالانفصال داخليًا وخارجيًا جاءت مبادرة رئيس الجمهورية لتعديل الدستور عام ٢٠٠٧م متضمنة وصفًا لحكم محلي واسع الصلاحيات، أشبه ما يكون بنظام فيدرالي. ما يعني أن القيادة السياسية قد تقبل بأنصاف الحلول، لكن من غير المعلوم ما إذا كانت ستقبل بحلول كاملة (انفصال)؟

(٢٢) صوت الجنوب، في ٢٠٠٧/١١/٢٥م.
(٢٣) اليمن ومعركة التمديد للرئيس... ثلاث رؤى تتصارع على المستقبل!، نقلاً عن صحيفة الأهالي، في ٢٠٠٧/١٠/٢٣م.
(٢٤) عدد ٦٥٥، في ٢٠٠٦/٢/٢٨م.

يقول العميد محمد صالح الحدي، قائد الميليشيات اليسارية في المناطق الوسطى، وذو الخبرة التاريخية في قضايا الصراع: «اليمن تتعرض لموجات من التآمر داخلية وخارجية تستهدف النَّيْل من وحدتها وأمنها واستقرارها.

وما يقلقنا أن المطالب الحقوقية التي يقف معها كل أبناء شعبنا خرجت عن طورها إلى حدّ رفع شعارات انفصالية، وترديد أن دم الجنوبي على الجنوبي حرام! علمًا أننا نبارك المصالحة وتصفية رواسب الماضي، لا على مستوى شطري، وإنما على مستوى اليمن الواحد. ليكن شعار الجميع أن دم اليمني على اليمني حرام. هناك مظلومون ومحرومون في مختلف المناطق، ومنها المناطق الوسطى ومأرب والبيضاء وذمار وريمة وإب وتعز والضالع؛ حيث حُرموا من أبسط حقوقهم المكتسبة وبتآمر من قبل البعض في صنعاء وعدن».[٢٥]

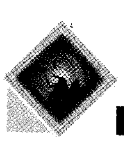
احتمالات سير الأزمة:

بالرغم مما سبق هناك عدة احتمالات لسير الأزمة:

الاحتمال الأول: بقاء هذه الأزمة بوتيرة واحدة قابلة للاشتعال والتصعيد، أو الانطفاء والتراجع، بحسب إرادة اللاعبين الكبار فيها، وذلك من أجل التأثير على القرار اليمني وممارسة الضغوط على القيادة السياسية، ومن ثمَّ ستظل الدولة عاجزة عن حل الأزمة بصورة حاسمة لعلمها المسبق بوجود جهات خارجية داعمة ولاعبة في الموضوع، وهذا الواقع بحد ذاته كفيل بالتأثير على الوضع الاقتصادي والسياسي، وسيحُدّ من قدرة الحكومة على المناورة تجاه مطالب الخارج في شأن التغيير وقضايا الإرهاب!

الاحتمال الثاني: تصعيد الأزمة إلى حدِّ المواجهة المسلحة، وقد ينشأ ذلك عن دعم خارجي أو فلتان داخلي من بعض الأطراف الموتورة في الجنوب؛ سعيًا وراء إبراز الأزمة وإحالتها إلى قضية حرب أهلية وجرائم إبادة، أو نتيجة ثوران شعبي عفوي!

(٢٥) صحيفة النداء، في ٢٠٠٧/١٢/١٣م.



وهذا الاحتمال له عدة سيناريوهات:

ترتيب عناصر من الحزب الاشتراكي لصفوفها في الداخل، وتشكيل جبهة مسلحة مماثلة لجبهة الحوثي، والبدء في مشروع تحرير الجنوب.

دخول الجنوب في حرب أهلية عارمة، وفوضى قتال داخلي خارجة عن السيطرة، بفعل بعض الأطراف المتربصة بالوضع.

وفي المقابل يتوقع أن:

يدخل النظام في مواجهة مسلحة جديدة مع التيار الانفصالي، والذي قد يجد له سندًا ودعمًا شعبيًّا في محافظات الجنوب، ومن ثمَّ دخول البلاد في حرب استنزافية. يقول محمد المتوكل -نائب الأمين العام لاتحاد القوى الشعبية، لصحيفة «الشارع»، في ٢٠٠٧/٨/٤م-: إن «استخدام هذا الأسلوب ضد أبناء الجنوب سيقود إلى حرب عصابات، كان لها دور في الماضي بهزيمة بريطانيا العظمى»، و«إن السلطة في عام ١٩٩٤م واجهت ثلث أبناء الجنوب لكنها في أيّ مواجهات قادمة سوف تواجه الجنوب كله».(٢٦)

يشكل النظام تحالفًا جديدًا وجبهة شعبية ضد حالة الحراك المسلح في الجنوب على غرار ما حدث في عام ١٩٩٤م، وإن بصورة أضعف!

أن يسعى النظام إلى تسكين الأمر بحلول تُبقي الجنوب في إطار الوحدة بحكم ذاتي! في حال شعر بوجود سند ودعم خارجي قوي لمشروع الانفصال! وهذا ما بدت بوادره تتجلى في قانون انتخاب المحافظين ومديري المديريات، وطرح تعديل الدستور وإعطاء صلاحيات أكبر للمحافظات.

الاحتمال الثالث: تراجع الأزمة وعودة الأمور إلى الاستقرار في حال تمَّ تلبية مطالب الخارج، واستحقاقات الداخل، وتقاسم المصالح مع القيادات الفاعلة في القضية.

ولكل من هذه الاحتمالات حظّ من الوجاهة وقدر من الواقعية، إلا أن الاحتمال الأقرب هو تصعيد الأزمة؛ كونه يخدم مصالح عدد من اللاعبين داخليًّا وخارجيًّا.

وهناك تخوّف من أن ينهار النظام السياسي بصنعاء بشكل مفاجئ، وبالتالي تتحول البلاد بصورة عامة إلى حالة من الفوضى والقتال، وضياع الأمن وانهيار الاقتصاد، كما حصل في بعض الدول الأخرى!

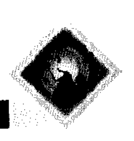
ختامًا..

فإن اللافت للنظر في أحوال اليمن غياب دور القوى الوطنية الحقيقية في تشخيص البلاء وتوصيف الواقع، والخروج بحزمة من الحلول والمعالجات التي يجب أن تتبناها القيادات السياسية والدينية والاجتماعية، وتحيلها إلى مشروع جماهيري يلتف حوله كافة أبناء الشعب اليمني، بحيث يراعي مصالحهم العامة ويدافع عن حقوقهم، ويرد المظالم إلى أهلها، ويفسح المجال لحياة كريمة آمنة، ومجتمع متحد يسوده العدل، وتحكمه الشريعة، ويكون الأمر فيه شورى.

اللافت للنظر في أحوال اليمن غياب دور القوى الوطنية الحقيقية في تشخيص البلاء وتوصيف الواقع، والخروج بحزمة من الحلول والمعالجات

إن جميع الأحزاب الحالية كانت جزءًا من الأزمات المتتالية، قديمًا وحديثًا، وهي التي أوصلت اليمن إلى هذا المستوى من التمزق والتشرذم الفكري والسياسي والمذهبي، وأضعفت أداء الدولة في ظل الكيد المتبادل، وأكلت مقدراتها في ظل التنافس المحموم بينها، وأفسدت عملية النمو والتطوير بصرف الطاقات البشرية إلى جهود عابثة وصراع لا نهاية له، وأدخلت البلاد في أزمات حصدها المجتمع كوارث وفقر ودماء.. ومن

(٢٦) الشورى نت، في ٢٠٠٧/٨/٥م.



غير المؤمل أن تكون جزءًا من الحل ما لم تتراجع عن أفكارها الماضوية وأساليبها العتيدة!

لذا فمن الضروري أن تبادر قوى جديدة حية ونقية، وذات ولاء حقيقي لمجتمعها، أمينة على مصالحه، ووفية لمبادئه، تتحمل مسئولية الإصلاح والتغيير، مهما كلفها الأمر من تضحيات وبذل.. وليس لديّ شك في أنها ستجد في أهل اليمن قلوبًا (لينة) وعقولاً (حكيمة).

ويمكن لهذه القوى القيام بما يلي:

الإعلان عن مبادرة جديدة تحمل بذور مشروع إصلاحي شامل وعميق، وتراعي الظروف التي تمر بها اليمن داخليًّا وخارجيًّا. وأن تعمل على إقناع صانعي القرار والنخب الاجتماعية والثقافية به ليحمل طابع الإجماع الوطني.

تقديم حلول مستعجلة للدولة تلامس القضايا الخطيرة المطروحة ضدها، كالفساد المالي والإداري والقضائي. من خلال تقديم رؤية موضوعية لحجم هذه الظواهر، وأسبابها والمتسببين فيها، وتحديد آلية مناسبة للمعالجة.

أن تمثل هذه القوى طرفًا موازنًا بين كافة الأطراف، بحيث تكون شاهدة على الجميع، مساندة للحق حيث كان ومع أيّ طرف، دون تحزّب مقيت أو عصبية عمياء.

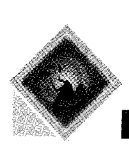
التأكيد في هذه الأثناء على الثوابت التي يجب أن يلتزم بها أطراف الأزمة جميعًا (سلطة، ومعارضة، وحراك شعبي)، وأن تشمل هذه الثوابت التصورات العقدية والأخلاقية والسلوكية والمنطقية. مع التأكيد على أهمية الوحدة والاجتماع، وتغليب المصالح المشتركة على المصالح الخاصة.

القيام بمخاطبة الأجهزة الحكومية للقيام بواجباتها وأمانة المسئولية مهما كلفها الأمر: فمجلس النواب، ومجلس القضاء، ومجلس الوزراء، والإعلام، والجيش، جميعها مؤسسات يجب عليها أن تُساهم في الحل لا في الأزمة!

التحذير من أيّ تدخل خارجي تحت أيّ غطاء وفوق أيّ مبرر، والإشارة إلى خطر الأعداء على الأمة وطبيعة التآمر الذي يحيكونه بها لنيل مصالحهم.

إعداد خطة عمل (تستند لنظرة شرعية) تواجه أيّ خلل قد يقع في البلاد، ويؤدي إلى زوال السلطة وفراغ الدولة، بحيث يكون المجتمع قادرًا على التلاحم، وإدارة ظروفه في الفتنة بشكل آمن وسليم، وبعيد عن الانجرار إلى صراعات دموية، وعنف طائفي أو مناطقي أو سياسي.

والله يتولى أهل اليمن بحفظه وعنايته من كل سوء ومكروه.



معلومات إضافية

تاريخ التآمر الدموي لليساريين في اليمن:

قامت الثورة الشعبية ضد الاستعمار البريطاني في جنوب اليمن في ١٤ أكتوبر ١٩٦٣م، وبدعم من نظام الشمال، وبمشاركة يمنيين شماليين. وعقب تضحيات كبيرة وجهاد متواصل نال الجنوب استقلاله في ٣٠ نوفمبر ١٩٦٧م، بعد احتلال بريطاني دام لأكثر من ١٢٠ عامًا.

مع إعلان الاستقلال، الذي شاركت فيه قوى سياسية وفكرية مختلفة، أُعلن عن قيام «جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية»، وعاصمتها عدن. إلا أن البلاد دخلت في صراعات دامية بين تياري الثورة: «الجبهة القومية» - وهي ذات توجه يساري متطرف - و«جبهة التحرير»، حُسمت لصالح الأولى، حيث عملت حكومة بريطانيا على تسلميها مقاليد الحكم وتهميش جبهة التحرير.

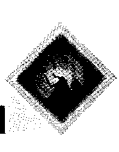
أدارت «الجبهة القومية» البلاد بفكر يساري، لكن سرعان ما دبَّ الصراع داخلها وأطيح بأول رئيس للبلاد (قحطان الشعبي) في ٢٢ يونيو ١٩٦٩م، بقيادة سالم ربيع علي (سالمين). بعد ذلك بسنوات قُتل (سالمين) من قبل الرفاق في ٢٦ يونيو ١٩٧٨م؛ وهو العام ذاته الذي أعلن فيه عن قيام الحزب الاشتراكي اليمني.

ولم ينته الصراع بين الرفاق على السلطة، حتى توج بأحداث ١٣ يناير ١٩٨٦م الدموية، والتي قُتل فيها الآلاف من قيادة الحزب وكوادره، في مقدمتهم عبدالفتاح إسماعيل، وعلي عنتر، وعلي شايع هادي، في حين غادر علي ناصر محمد وزمرته الجنوب نازحًا مع كافة العناصر الموالية له إلى الشمال الذي استضافهم، وقدَّم لهم التسهيلات. وكانت التصفيات الدموية خلال الأحداث تتم وفق فرز مناطقي. ولا يزال أبناء الجنوب في عدن يحتفظون بصور في ذاكرتهم لهذه المجزرة الوحشية التي قُتل فيها ما يزيد عن ١٢ ألف قتيل بما فيهم من المدنيين! (لا توجد إحصائيات رسمية معلنة حتى الآن، وإنما هي تقديرات لبعض من شاركوا في هذه المجزرة أو حضروها. انظر: تصريح سالم صالح محمد لبرنامج زيارة خاصة، الجزيرة، في ٢٠٠٤/١/١٣م.)

لم يكن الصراع فقط على مستوى الداخل، بل كان التيار اليساري يسعى إلى تصدير الثورة في المنطقة، من ذلك عُمان والسعودية، الأمر الذي وتَّر علاقة جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية بدول الجوار، وعزَّز من قبول المملكة العربية السعودية بنظام صنعاء الجمهوري والاعتراف به.

الأمر ذاته لم يتوقف على دول الخليج، بل توسع ليشمل نظام صنعاء الشمالي؛ فقد سعت قيادة الجنوب لدعم الثورة ضد النظام الجمهوري الذي تشكل في الشمال، باعتباره عميلاً لليبرالية الغربية؛ بغية إسقاطه، وضم الشمال إلى الجنوب في كيان يساري واحد؛ وكانت هذه هي نظرة قادة الحزب الاشتراكي للوحدة «وحدة ضم وإلحاق»، وهو ما ينتقدونه اليوم على حرب ١٩٩٤م!

بدأ الصراع منذ عام ١٩٧٢م واستمر إلى منتصف الثمانينيات، رغم محاولات الوساطة العربية في أكثر من مرة لحل الأزمة، والعمل على لقاء النظامين في دولة واحدة. وعاشت المناطق الوسطى خلال تلك الفترة فصول صراع دموي. وعملت القوى اليسارية في الشمال بدعم من النظام الجنوبي بأعمال تخريب وتفجير وقتل روّعت الآمنين، وقوضت استقرار الأمن، وهددت في فترة من فترات عنفوانها العاصمة صنعاء، ومن ثمَّ السلطة الحاكمة.



وبلغ الأمر أن هددت القوى اليسارية مدعومة بقوات جنوبية العاصمة صنعاء عام ١٩٧٩م؛ حيث استطاعت هذه الميليشيات والقوات المسلحة التوغل في عدد من المحافظات والوصول إلى قرب العاصمة، إلا أنَّ تدخل دول عربية وتوسطها حال دون ذلك، فجرى إيقاف الحرب، واستضافة قيادة البلدين في الكويت عام ١٩٨١م، حيث وُقِّعَت اتفاقية على توحيد البلدين بين علي عبدالله صالح وعبدالفتاح إسماعيل. وهو الاتفاق الثاني عقب اتفاق طرابلس (١٩٧٢م) بهذا الشأن.

لقد كان الحزب الاشتراكي اليمني يبشر بحراك ثوري على صعيد الجزيرة العربية، وبِقُربِ سقوط الأنظمة (الرجعية) (البائدة) المتمثلة في الإمارات والممالك والسلطنات، وقيام ثورات شعبية مسلحة هنا وهناك. وهذا ما حدا بالمملكة العربية السعودية وبعض دول الخليج بمساندة اليمن الشمالي في صراعه مع نظام الجنوب الاشتراكي والقوى اليسارية الشمالية الموالية له. خاصة مع ارتماء الحزب الاشتراكي في أحضان المعسكر الشرقي، وإنشاء أكبر قاعدة عسكرية في المنطقة في حينه قرب عدن (قاعدة العند)، والتي مثلت تهديدًا لأمن الدول المجاورة.

أما الأوضاع في الجنوب فقد كانت غاية في السوء من حيث البنى التحتية وحركة التنمية، فقد عمل الحزب الاشتراكي وفقًا لمبادئه وفلسفته السياسية والاقتصادية على محاربة ما يوصف بالطبقة البرجوازية، والقضاء على رجال الدِّين ومشايخ القبائل، باعتبارهم يمثلون زعامات «رجعية»، كما أمم الممتلكات الخاصة والعقارات والأراضي وحارب الملكية الخاصة. هذه الظروف دفعت بأبناء الجنوب للهروب والفرار باتجاه اليمن الشمالي الذي كان أفضل حالاً، فقد شهد نموًا اقتصاديًا وتغيرًا في تطور البنى التحتية، وحراكًا اجتماعيًا ودينيًا وتنوعًا في المناشط الاقتصادية.

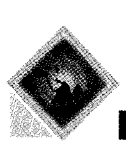
الاتجاه إلى الوحدة:

مع نهاية الثمانينيات وسقوط الاتحاد السوفييتي، وتفكك المعسكر الشرقي، وجد الحزب الاشتراكي نفسه مكشوفًا في العراء، فهو منبوذ اجتماعيًا وإقليميًا، ولا يمتلك الموارد الكافية لإدارة الدولة ومعالجة الأوضاع التي بدت متأخرة بالنسبة للشمال. كما أنه خرج من أحداث ١٩٨٦م الدموية خائر القوى، ومحملاً بثارات قبلية واجتماعية نتيجة موجات الصراع التي أدارها في البلاد.

هذا الحال عزَّز رغبة قيادة الحزب في التعجيل بوحدة سياسية مع الشمال.

وقامت الوحدة في ٢٢ مايو ١٩٩٠م، في حين كانت القوى المحافظة والدينية والقبلية تمانع من قيام وحدة كهذه مع نظام دموي بحجم الحزب الاشتراكي اليمني، دون أن يقدم أي تراجع عن أفكاره اليسارية ومبادئه الشيوعية، ويبدي اعتذارًا عن تاريخه، إلا أن الرئيس علي عبدالله صالح ضرب صفحًا عن هذا الرأي.

وكانت الوحدة للحزب الاشتراكي بمثابة استراحة المحارب الذي لا تزال في جعبته بقايا تآمر، وفي صدره تعطّش للدماء؛ فلم تمض ثلاث سنوات على الوحدة حتى شهدت الساحة اليمنية مجددًا صراعًا بين أطراف الحكم، وأزمة سياسية حادة انتهت بمؤامرة للانفصال والعودة بالجنوب إلى قيادة الحزب، التي مثلت قوة علمانية بإمكانها الوقوف أمام المدِّ الإسلامي الأصولي الذي بات يتنامى في اليمن على خلاف قيادة الشمال التي ظهرت كحليف معه!



فوضى الفترة الانتقالية واندلاع «حرب الانفصال»

شهدت الفترة الانتقالية فوضى سياسية وانفلاتًا أمنيًا، وغلاء في الأسعار. وبرز على السطح خلاف سياسي بين شريكي السلطة المؤتمر الشعبي العام، والحزب الاشتراكي اليمني. فقد بدأ الحزب الاشتراكي باتهام المؤتمر الشعبي العام بتحالفه مع التيارات الإسلامية الأصولية المتطرفة التي يتهمها الحزب باغتيال كوادره القيادية في ظل غطاء القيادة السياسية له.

واندلعت المواجهات المسلحة بين قوات الطرفين واستمر التوتر حتى شهر أبريل ١٩٩٤م حيث خاض الطرفان مواجهات عسكرية شاملة عُرفت بحرب الانفصال. وقد وقف التجمع اليمني للإصلاح في هذه الحرب إلى جانب المؤتمر الشعبي العام ضد خصمه التقليدي.

وفي ٢١ مايو ١٩٩٤م أعلن علي سالم البيض -نائب الرئيس اليمني في ذلك الوقت- من عدن عن انفصال الجنوب وقيام «جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية». كما جرى الإعلان عن تشكيل مجلس رئاسة وحكومة مؤقتة.

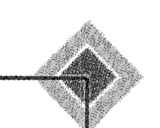
وشهدت الحرب شراسة في القتال، وعكست عن إرادة لدى الحزب الاشتراكي شعارها غير المعلن: «الانفصال أو الموت»!

لكن ورغم قرار الأمم المتحدة الذي اعتبر عدن خطًّا أحمر لقوات الشمال، إلا أن القيادة السياسية التي أعلنت التزامها بالقرار علنًا دفعت على أرض الواقع لحسم المعركة، وإنهاء الانفصال، لكي لا تظل القضية ورقة معلقة بيد أطراف خارجية يتم مقايضة النظام السياسي بها. وبالفعل استطاعت قوات الحكومة اليمنية، والتي عرفت حينها بقوات الشرعية، من دخول عدن، ومن ثمَّ المكلا، وإنهاء الانفصال كليًا في يوليو ١٩٩٤م. وبذلك عطلت مشروع الانفصال.. وربما أخَّرته!

تدويل قضية الانفصال

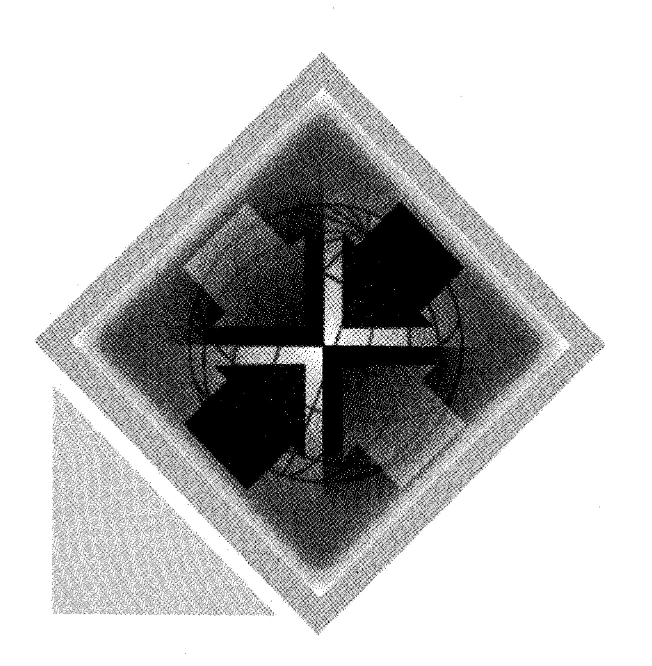
لقد أُريد لقضية الانفصال بفعل دول عربية وأجنبية أن تُطرح للتدويل عبر تبني طرحها للنقاش في مجلس الأمن، تحت إلحاح من قيادة الحزب الاشتراكي للتدخل الدولي لإيقاف الحرب. إلا أن مسيرة الحرب التي كانت لصالح الحكومة الشرعية أثرت في طرح قرار دولي مؤيد للانفصال أو مجرم لصنعاء.

إن اليمن الموحد بكثافته البشرية وأرضه الشاسعة وسواحله الممتدة لأكثر من ٢,٤٠٠كم على بحر العرب وخليج عدن والبحر الأحمر، وتنوع ثرواته وموقعه الجغرافي، وتنامي القوى الإسلامية فيه، لا يُطمئِن بعض القوى الدولية والإقليمية، كما أن مواقفه السياسية تجاه قضايا قومية وإسلامية لا تريح القوى الصهيونية والمعادية للأمة، وترى فيها تجاوزًا للحدود المرسومة للأنظمة. وعليه فإن الانفصال يمثل عامل إضعاف وإشغال، وخطوة نحو تهديد دول أخرى لن تجد لها في ظل الدول المجاورة الضعيفة حليفًا يقف إلى جانبها.

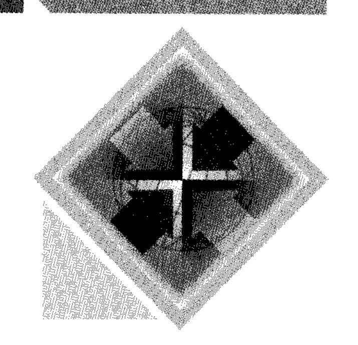


الباب الخامس

علاقات دولية







مستقبل العلاقات الأوروبية الأمريكية وأثرها في العالم الإسلامي

أ.د. عدنان الهياجنة

أستاذ العلوم السياسية - الجامعة الهاشمية - الزرقاء -الأردن

ملخص الدراسة

تشكل الحكومات الأوروبية الصديقة لأمريكا الأغلبية العظمى للدول المسيطرة على النظام الدولي، وتتفق هذه العواصم الأوروبية مع الولايات المتحدة الأمريكية في تشخيص القضايا الدولية الهامة؛ خاصة القضايا المرتبطة بالعالم الإسلامي، لكن يُلاحظ وجود بعض الاختلافات في مناهجها لتحقيق أهدافها.

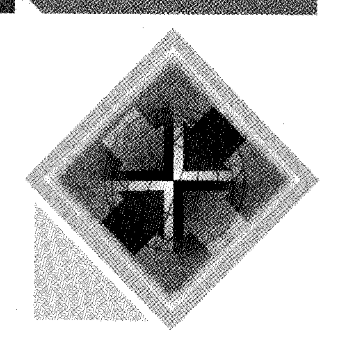
ويظهر ذلك واضحًا في الملف العراقي، فالمنهج الأمريكي استخدم الأحادية في التعامل، وأهمل دور الأمم المتحدة، والقانون الدولي، والمؤسسات الدولية، بينما أوروبا لم تكن ضد الحرب كفكرة، وإنما ضد المنهج، ولذلك لم تحرك ساكنًا لوقف الحرب، ورفضت التدخل في عمليات السلام، وإعادة البناء، وانسحبت الكثير من القوات الأوروبية من العراق.

ثاني هذه القضايا هي قضية الملف النووي الإيراني؛ فهناك اختلاف واضح بين الرؤيتين الأمريكية والأوروبية حول الملف النووي الإيراني، فبينما تركز أوروبا على منهج الحوار الشامل، وأن لا تصل العلاقات مع إيران إلى مرحلة الأزمة، ركّز المنهج الأمريكي على التهديد باستخدام الخيار العسكري.

ويأتي ملف الصراع العربي الإسرائيلي ليمثل نقطة اختلاف أخرى بين الجانبين -من حيث المنهج فقط- حيث الموقف الأوروبي يعتبر حل الصراع أولوية استراتيجية، بينما يعتمد المنهج الأمريكي على محادثات السلام التي لا نهاية لها، والتي فشلت في الوصول إلى شيء حقيقي وملموس على الواقع. من ناحية أخرى اعتمدت أوروبا وأمريكا على سياسات متشابهة في المنطقة منذ الحادي عشر من سبتمبر.

إن الاختلاف الموجود في العلاقات الأوروبية - الأمريكية يعود لقضايا ومنهجيات بالنسبة لمصالح ذاتية للطرفين، وليس في ما يهم الشرق الأوسط، ولعل ما يدلل على ذلك ازدحام أجندة الطرفين بأشياء لا تهم العالم العربي والإسلامي. ولكن رغم ذلك فإن هذه الاختلافات الأوروبية الأمريكية في منهج التعامل مع القضايا المختلفة تعطي فرصة استراتيجية للعالم العربي والإسلامي لإعادة صياغة العلاقات مع الدول الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية.

ففي حين أدرك العالم الإسلامي أهمية الارتباط مع أمريكا، ولم يهتم استراتيجيًا بالعلاقات مع أوروبا، كانت النتائج كارثية على المنطقة. وبناء على ذلك، فإن العالم الإسلامي يجب أن يوسع من خياراته بالانفتاح على أكثر من فاعل دولي مهم في العلاقات الدولية.



مستقبل العلاقات الأوروبية الأمريكية وأثرها في العالم الإسلامي

أ.د. عدنان الهياجنة
أستاذ العلوم السياسية -الجامعة الهاشمية- الزرقاء -الأردن

مقدمة:

تشكل الحكومات الأوروبية الصديقة لأمريكا الأغلبية العظمى للدول المسيطرة على النظام الدولي، وتتفق هذه العواصم الأوروبية مع الولايات المتحدة الأمريكية في تشخيص القضايا الدولية الهامة؛ خاصة القضايا المرتبطة بالعالم الإسلامي، مثل ما أطلقوا عليه «الحرب على الإرهاب»، لكن يلاحظ الاختلاف في المنهج لتحقيق أهدافها؛ فاجتماع مارسليا الذي عُقد قبل إعلان نتائج الانتخابات الأمريكية يشير إلى أهمية إعادة صياغة العلاقات الأوروبية – الأمريكية، خاصة الملفات الدولية الساخنة، وعلى رأسها الملف المالي، بعد الأزمة المالية التي تعصف بالاقتصاديات الرأسمالية.

وتعرض الورقة التي قدمها قادة أوروبا ونشرت مقتطفات منها صحيفة (واشنطن بوست) في الخامس من نوفمبر ٢٠٠٨م أهم القضايا التي يجب التركيز عليها، وأهمية إعادة النظر في المنهج الأمريكي في العلاقات الدولية، خاصة استخدام القوة العسكرية، وإهمال المنظور الأوروبي الذي يركز على الدبلوماسية المتعددة (Cody 2008, Selden,2008).

وستناقش هذه الورقة أثر العلاقات الأوروبية – الأمريكية على العالم الإسلامي خلال العقد الماضي؛ من أجل طرح البدائل لمستقبل التعامل مع هذه الملفات، وستركز على محاور هامة تتضمن ما يلي:

أولاً: الملف العراقي.

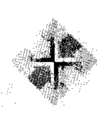
ثانيًا: الملف النووي الإيراني.

ثالثًا: ملف الصراع العربي – الإسرائيلي.

رابعًا: الحرب على الإرهاب.

خامسًا: محددات مستقبل العلاقات الأوروبية – الأمريكية والعالم الإسلامي.

سادسًا: استراتيجية التعامل مع تطورات العلاقات الأوروبية – الأمريكية من منظور العالم العربي الإسلامي.



أولاً: الملف العراقي:

هنـاك اختـلاف وتباين بين أوروبـا وأمريكا في منهج التعامـل مـع القضية الأهم في العلاقـات الدولية (انظر Calleo, 2007, Fakiolas, 2006)، وهـي الحرب على العراق، فالمنهـج الأمريكي أهمل الأممية، واسـتخدم الأحاديـة في التعامل مع أزمة العراق، وبالتالي أهمل دور الأمـم المتحدة، والقانون الدولي، والمؤسسـات الدولية، بينما أوروبا لم تكن ضد الحرب كفكرة، وإنما ضد المنهـج، وكانت تختلف مع أمريـكا في المنهج، ودعت إلى اسـتخدام المنهج الأممي دون الأُحادي، لكن أوروبا رغم الاختلاف في المنهج واعتراضها على قرارات الولايات المتحـدة، إلا إنها لم تحرك سـاكنًا لوقف الحرب على العراق (هياجنة، ٢٠٠٣م).

لكن الوضع لم يتغير كثيرًا بعد الحرب على العراق؛ حيث رفضت أوروبا التدخل في عمليات السلام، وإعادة البناء في العراق، إلا بعد أن تستقر الأمور الأمنية، كما أن كثيرًا من القوات الأوروبية قد انسحبت من العراق، وتركت أمريكا وحدها فيه، خاصة بريطانيا الحليف الأكبر لأمريكا.

والموقف الأوروبي كان يركز كثيرًا على الابتعاد عن الموقف الأمريكـي في العراق، وهذه نقطة مهمة فهناك علاقـة من عدم الثقة بين الطرفين الأوروبي والأمريكي في مسـتويات متعددة كما يقـول الباحث (Calabrese, 2005:58-59)، وهـي تحتاج وقتًا وجهدًا كبيرين؛ من أجـل إعادة الثقـة إلى العلاقات الثنائية، ويتسـاءل كل طـرف في مـا يتعلـق بالحرب علـى العراق عـن الدوافع الحقيقية لسلوكه تجاه العراق.

فالمنهـج الأوروبي يقـوم على المبـدأ التدرجي، ولذلك تسـاءل الأوروبيـون إذا كانـت أمريـكا مازالت تعتمد المنهـج غـير التدرجـي والعسـكري أحيانًـا في التعامل مـع العالم، بينمـا أمريكا وبعـض دوائر صنـع القرار يتسـاءلون عـن ما إذا كانـت أوروبا تنافـس أمريـكا، وتحاول أن تكون بديلاً عنها في المنطقة.

إن الصورة الأمريكية في المنطقة مقلقة جدًا لأوروبا، خاصـة أنهـا مرتبطـة بالاحتـلال الأمريكـي للعراق، وانتهـاكات حقـوق الإنسـان، وعـدم احـترام القانون الدولـي، وإهمـال ملـف الصـراع العربي الإسـرائيلي، والذي ستناقشه الورقة لاحقًا.

وانتخـاب الرئيس (باراك أوبامـا) في الولايات المتحدة الأمريكية سـيفتح باب الحـوار الأمريكي - الأوروبي حـول هذا الملـف الهام، والـذي كانت نتائجـه التباعد الأوروبي - الأمريكي، وتشويه سمعة أمريكا والغرب في المنطقـة؛ نتيجـة لعـدم وجـود أي ربـط بـين العـراق والإرهـاب، أو بين العراق والأسـلحة النوويـة، والنتائج السـلبية على الواقع العراقي وعلـى دول الجوار، وتزايد عـدم الاسـتقرار في المنطقـة، وتراجع أجنـدة الإصلاح السياسـي، وظهـور سياسـات معادية للعرب والإسـلام في داخل المجتمعات الأوروبيـة (للمزيد انظر Romero 2008).

وخطـة (أوباما) التي أعلنها خـلال الحملة الانتخابية، والتي تتضمن انسحابه من العراق خلال ١٦ شهرًا ستجد المصاعـب في التطبيـق علـى الأرض، بعـد أن يسـتمع لمستشاريه العسكريين، ونظرًا لانشغاله بملفات كبيرة على رأسـها ملف الكسـاد الاقتصادي؛ لـذا فإن أوروبا ستسـعى من أجل وضع سياسـة أوروبية - أمريكية في مـا يتعلق بالعراق تأخذ بعين الاعتبار سياسـات (أوباما) المتوقعـة، وكيفيـة مسـاعدة العـراق في عمليـة إعادة البناء، لكن الطرف الأوروبي يرى أن الملف العراقي هو مـن صنع أمريـكا، وعليها أن تتحمـل نتائجه وحدها، لكـن الإدارة الجديدة قد تجد متسـعًا من الحركة في علاقتهـا مع أوروبا، بالتعاون مع أمريكا في التعامل مع الملف العراقي.

ثانيًا: الملف النووي الإيراني:

تعود السياسـة الأوروبية في التعامل مع إيران إلى عقد الثمانينيـات مـن القرن الماضـي على يد الألمـان، والتي أطلقـوا عليهـا (Constructive Dialogue)، والـتي



تعتمد على الافتراض بأن النظام يستطيع أن يصحح ذاته بطرق سلمية، لكن التجربة الأوروبية في التفاوض مع إيران قد فشلت بعد أن تم تحويل الملف النووي إلى مجلس الأمن، والذي سيزيد من التعنت الإيراني. لكن البعض من الساسة (البراجماتيين) يشير إلى أهمية متابعة المفاوضات مع إيران؛ حيث يقول (هاملتون) وهو المشارك الرئيس في كتابة تقرير (بيكر-هاملتون): إنه لا بد من الاعتماد على التفاوض مع إيران في حل المشكلة النووية، «وإن الدبلوماسية الناجحة تتطلب التحضير الجدي والمتابعة الحثيثة» في إشارة منه إلى كيفية التعامل مع الملف النووي الإيراني. (انظر:Copper, 2007).

بينما يشير مرشح الانتخابات الفرنسية ساركوزي (تم فوزه في الانتخابات يوم ٦ مايو ٢٠٠٧م) بأن إيران هي القضية الأكثر إلحاحًا، والتي ستكون أول القضايا التي يواجهها في حال انتخابه، ويقول: «إن فكرة إيران بتملك سلاح نووي غير مقبولة» (ينظر: Sciolino, 2001). ونجد أن (أوباما) يعيد نفس الكلمات في أول مؤتمر صحفي له. لنجد التلاقي الأوروبي- الأمريكي حول الملف النووي الإيراني، لكن هذه المرة قد تختلف السياسات عن سلفه جورج بوش. (انظر هياجنة، ٢٠٠٧م).

ولا بد من القول: إن المفاوضات قد يُنظر إليها من وجهة نظر إيرانية على أنها شراء وقت، خاصة إذا كانت مصممة على برنامجها النووي، وتشير متابعة السياسة الإيرانية إلى أنه لا يمكن أن تتخلى إيران عن البرنامج النووي حتى لو قدمت أوروبا كل المساعدات التي هي بحاجة إليها؛ لذا فإن ذلك يصبّ في قبول إيران كدولة نووية أو حرمانها من ذلك بطرق عسكرية، وكل خيار له كلفته الاقتصادية والسياسية والاستراتيجية. وهذا ما ستشهده الأيام المقبلة بعد تولي (أوباما) الحكم الرسمي في منتصف يناير من عام ٢٠٠٩م.

وهناك اختلاف واضح بين الرؤيتين الأمريكية والأوروبية حول الملف النووي الإيراني، فبينما تركز أوروبا على منهج الحوار الشامل الذي تأسس منذ عام ١٩٩٨م، الذي يركز في المراحل الأخيرة على الملف النووي الإيراني؛ حيث سعت السياسة الأوروبية إلى أن لا تصل العلاقات مع إيران إلى مرحلة الأزمة، ركز المنهج الأمريكي على التهديد باستخدام الخيار العسكري، وصرح نائب الرئيس الأمريكي (ديك تشيني) بأن كل الخيارات على الطاولة.(هياجنة، ٢٠٠٧م).

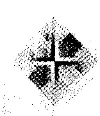
وقد صرح (باراك أوباما) في أول مؤتمر صحفي له عقب انتخابه رئيسًا لأمريكا بأن تطوير سلاح نووي من قِبل إيران غير مقبول، وأن دعم إيران للإرهاب يجب أن يتوقف، وقد رد عليه المستشار الإيراني علي لاريجاني بأن هذه التصريحات تعيد أمريكا إلى نفس منهج (بوش) في التعامل مع الملف النووي الإيراني، وفي حين تتخوف إسرائيل من تصريحات (أوباما) في ما يتعلق بمنهجه من سياسات الحوار والضغط الدبلوماسي؛ فإن أوروبا تشكل مخرجًا قويًا له في أن يعطى الملف النووي الإيراني للدبلوماسية الأوروبية، والتي تقوم على الدبلوماسية المتعددة والضاغطة على إيران.

> تشير متابعة السياسة الإيرانية إلى أنه لا يمكن أن تتخلى إيران عن البرنامج النووي حتى لو قدمت أوروبا كل المساعدات التي هي بحاجة إليها لذا فإن ذلك يصب في قبول إيران كدولة نووية أو حرمانها من ذلك بطرق عسكرية

وإذا فكرت أوروبا بالخيار العسكري؛ فإن ذلك سيكون قرارًا تشاوريًا مع الولايات المتحدة الأمريكية التي فشلت في العراق، ونشأ عن ذلك وضع استراتيجي أعطى قوة إقليمية إضافية لإيران، مما هدد أنظمة عربية في منطقة الخليج العربي. حيث يقول عبدالله الشايجي في دراسته: «فعدم قدرة الولايات المتحدة على تحقيق الهدف الاستراتيجي من الحرب، وتراجع وتقلّب استراتيجيتها في العراق، سمح لإيران بالتجرؤ والاستفادة من الفراغ الاستراتيجي».(الشايجي، ٢٠٠٨م: ٣٦)

ثالثًا: ملف الصراع العربي الإسرائيلي:

إن الموقف الأوروبي تجاه الصراع العربي الإسرائيلي هو -من وجهة نظرهم- يعتبر أن حل الصراع أولوية



استراتيجية (Strategic Priority)، كما أن هذا الصراع يحتل أهمية بارزة بالنسبة لكل الدول الأوروبية، وعلى العكس في ذلك ترى أمريكا أن أوروبا منغمسة جدًّا بالصراع العربي - الإسرائيلي، وهو ما يشير إلى أن الموقف الأوروبي أكثر تقدمًا من الموقف الأمريكي وأكثر واقعية، بينما يعتمد المنهج الأمريكي على محادثات السلام التي لا نهاية لها، خاصة مع عجز الإدارة الأمريكية طيلة الثماني سنوات لإدارة (جورش بوش) عن الوصول إلى شيء حقيقي وملموس على الواقع، وتوقف الموقف الأوروبي عند سياسة دفع (الشيكات) في ما يتعلق بعملية السلام والتحيز لطرف ضد طرف آخر.

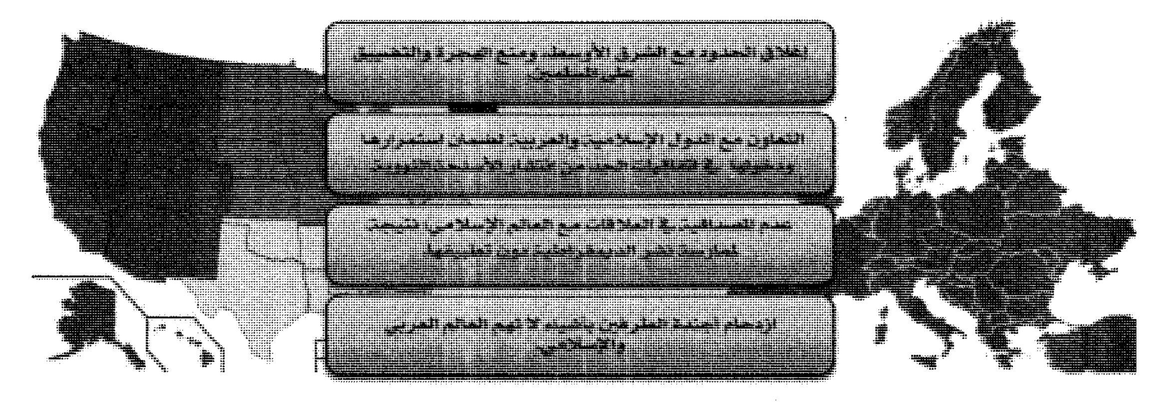
لكن الموقف الأوروبي تأثر بالموقف الأمريكي وبالعلاقات الأمريكية - الأوروبية بعد فوز (حماس)؛ حيث تبنت أوروبا موقفًا موحدًا مع الإدارة الأمريكية في وإعادة الحسابات لسياساتهم في منطقة الشرق الأوسط (Calabrese, 2005 : 46).

ويمكن القول: إن المرحلة القادمة ستشهد تدخلاً ودفعًا أوروبيًّا تجاه حل الصراع العربي الإسرائيلي، إلا إن ذلك سيتوقف على الموقف الأمريكي تجاه الصراع ومدى قدرة الدول العربية والإسلامية على دعم الموقف الأوروبي لوضع الملف على سلم أولويات الإدارة الأمريكية الجديدة، خاصة أن زيارة (رايس) الأخيرة إلى المنطقة قد فشلت في إعطاء ضوء أمل لأي حل في ظل العجز الأمريكي في الضغط على إسرائيل، وتوقف الحوار الفلسطيني الذي ترعاه مصر.

رابعًا : الحرب على الإرهاب:

منذ الحادي عشر من سبتمبر اعتمدت أوروبا وأمريكا على سياسات متشابهة في المنطقة تتضمن:

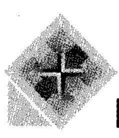
بعض السياسات الأوروبية الأمريكية المتشابهة في المنطقة منذ 11 سبتمبر



مقاطعة حماس، ووقف المساعدات وسياسة (الشيكات) للفلسطينيين، إلا ما يتم عن طريق السلطة الوطنية في رام الله. (هياجنة، ٢٠٠٣م).

ويعتقد جون كالبرس أن ردود الفعل الأمريكي تجاه أحداث الحادي عشر من سبتمبر وفشل مؤتمر (كامب ديفيد) بعد انتفاضة الأقصى، دفعت المسئولين الأوروبيين والأمريكيين إلى إعادة التفكير، وتقدير

١- إغلاق الحدود مع الشرق الأوسط، ومنع الهجرة والتضييق على المسلمين، وهي مشكلة كبيرة في أوروبا - ويمكن أن تتفاقم في ظل حدود الأزمة المالية- على الجاليات العربية والإسلامية والحد من الحرية المتعلقة بالمواطنين من الأصول العربية والتوجهات الإسلامية، خاصة ما حصل من تعديل على قوانين الحجاب في المدارس والجامعات الفرنسية، والاعتداء على صورة



الرسول - صلى الله عليه وسلم - في كثير من الدول الأوروبية، والسماح لوسائل الإعلام خاصة في أوروبا - وفي ظل الحديث عن العدالة والديمقراطية- بتشويه صورة الإسلام والمسلمين من خلال الأفلام والرسومات، مما أوجد شرخًا كبيرًا في المجتمعات الأوروبية، وأساء إلى العلاقات مع هذه المجتمعات (انظر Calabrese, 2005).

٢- التعاون مع الدول الإسلامية والعربية من أجل ضمان استمرارها ودخولها في اتفاقيات الحد من انتشار الأسلحة النووية، وبالتالي فإن ذلك أبقى على سياسات الاعتماد على الأمن قبل تطوير أية علاقات جدية في مجالات اقتصادية واجتماعية وغيرها، وبقيت نفس العقلية الأمريكية – الأوروبية في التفكير بالشرق الأوسط من منظور المنهج الأمني.

٣- عدم المصداقية في العلاقات بين العالم الإسلامي والأوروبي وأمريكا؛ نتيجة لممارسة نشر الديمقراطية دون تطبيقها؛ لذلك فإن الفجوة في اتساع.

إن سياسة أمريكا تجاه نشر الديمقراطية في الشرق الأوسط كانت بسبب الحصول على الدعم في حربها ضد العراق، بينما الموقف الأوروبي كان بسبب متصل بأوروبا الجديدة التي ضمّت دولاً جديدة ذات عهد قريب بالديمقراطية، وكون أوروبا تعتمد على جاراتها في الشرق الأوسط محاولة أن تكون في الموجة الثالثة للديمقراطية، والتي ضمت دولاً أوروبية كثيرة خاصة شرق أوروبا، وانضمت إلى الاتحاد الأوروبي، واعتمدت أوروبا على تقرير التنمية في العالم العربي من أجل الارتقاء به.

٤- ورغم أن أمريكا وأوروبا كانتا متفقتين على دعم الديمقراطية في الشرق الأوسط، إلا إنهما لم تتعاونا مع أجل ذلك، فكانت الأهداف مختلفة، وهذا مؤشر على اختلاف في العلاقات الأوروبية – الأمريكية (انظر، Michta 2006).

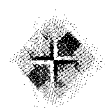
رغم أن أمريكا وأوروبا كانتا متفقتين على دعم الديمقراطية في الشرق الأوسط، إلا إنهما لم تتعاونا مع أجل ذلك، فكانت الأهداف مختلفة، وهذا مؤشر على اختلاف في العلاقات الأوروبية – الأمريكية

٥- كما أن الاهتمام الأمريكي بالنواحي الأمنية قد خفف من حماس أوروبا فيما يتعلق بالإصلاح في العالم العربي، وبالتالي أدى إلى تراجع دورها بالمنطقة. وإن معادلة (Security- Democracy tradeoff) هو ما يسيطر على منهجية السياسات الأوروبية والأمريكية في المنطقة، رغم الاختلاف العميق في المنهج، وتحديدًا الذي أبعد كلاً من أوروبا وأمريكا عن بعضهما البعض بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، إلا إن لديهما مصالح مشتركة في المنطقة يمكن أن تؤدي إلى انعكاس في المصالح، والتي تصنع روابط مشتركة أكبر بكثير (Kaye, 2003-04). وعليه يمكن القول: إن الاختلاف الموجود في العلاقات الأوروبية – الأمريكية يعود لقضايا ومنهجيات بالنسبة لمصالح ذاتية للطرفين، وليس في ما يهم الشرق الأوسط.

٦- ازدحام العلاقات الأمريكية – الأوروبية والعالم العربي الإسلامي. بالإضافة إلى الميزة الأساسية في العلاقات الأوروبية الأمريكية في ما يخص العالم الإسلامي، وهي غياب المصداقية؛ فإن أجندة الطرفين الأمريكي والأوروبي مزدحمة بأشياء لا تهم العالم العربي والإسلامي ومنها:

أ- الأزمة الاقتصادية العالمية:

فأمريكا وأوروبا بالإضافة إلى المعاناة الاقتصادية الكبرى، والتي تهدد بكساد اقتصادي جديد يعيد ما كانت عليه هذه الدول في نهاية عشرينيات القرن العشرين، فإن نهاية العقد الأول من القرن الواحد والعشرين تتوج بشيء مماثل إلى حد كبير، وهذا يقود إلى استنتاج مفاده عدم قدرة هذين الطرفين على ممارسة أي دور إيجابي في المنطقة. بالإضافة إلى استنتاج فشل النموذج الرأسمالي الذي يروّج له في العالم



العربي والإسلامي؛ وإذا ما أضيف ذلك إلى فشل نشر الديمقراطية، وإن كانت كل من أمريكا وأوروبا غير صادقتي النوايا، فإن التاريخ كما يدعي المحافظون الجدد كـ(فرانسيس فوكوياما) لم ينته بعدُ، وهذا يجب أن لا يطرب الآذان في الشرق الأوسط، بل يجب أن يشكل دافعًا للاعتماد على الذات، ونسيان هذه التوقعات التي خرج الأوروبيون – الأمريكيون فاشلين في منهجها.

ب- ازدحام إدارة (بوش) وإدارة (أوباما) القادمة بنتائج سياسات (جورج بوش)، وإهمال ملفات الشرق الأوسط، إلا فيما يتعلق بالرد العسكري على سلوكيات بعض الدول والجماعات في العالم الإسلامي؛ حيث تعاني أمريكا من أزمات داخلية متعلقة باقتصادها كما ذكر، وانقسام داخلي بين الرئيس والكونجرس ومعارضة شديدة من الرأي العام الأمريكي لسياسات (بوش) الداخلية والخارجية، وإن كان ذلك قد يتغير مع سيطرة حزب الرئيس الجديد (أوباما) على الكونجرس.

فشعبية الرئيس الأمريكي المنصرم في انخفاض مستمر وصلت إلى ٢٨٪ ومعارضة الحرب على العراق والحرب على الإرهاب في زيادة مستمرة في ظل عدم وجود نتائج إيجابية لهذه الحروب، وتوقع استمرار الوجود الأمريكي في العراق، وانعكاسات القرارات العسكرية ذات الكلفة الاقتصادية العالية وصلت في بعض تقديراتها إلى أكثر من (٦٠٠) مليار دولار على الاقتصاد الأمريكي، وهو يساوي حجم ما قُدم لإنقاذ الشركات المالية الأمريكية، كما أن أمريكا مثقلة بملفات نووية وعسكرية تمر بها في كوريا الشمالية وإيران وغيرها من الملفات مثل لبنان، والصراع العربي الإسرائيلي الذي أهملته إدارة (بوش) في الثماني سنوات فترة رئاسته، كما تم مناقشته آنفًا.

وفي الجهة الأخرى تعاني أوروبا من مشكلات فيما يتعلق بالقيادات السياسية نتيجة الحرب على العراق، واتباع السياسات الأمريكية؛ حيث تبدلت معظم القيادات في (ألمانيا) و(فرنسا) و(إيطاليا) و(بريطانيا)، وبدأت هذه الدول بالانسحاب من العراق. كما تعاني هذه الدول من مشكلات اقتصادية ودستورية في ما يتعلق بالاتحاد الأوروبي التي ترفض دخول أي دولة إسلامية مثل تركيا، مما يشير إلى عدم اهتمام بالعالم العربي والإسلامي.

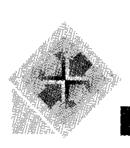
تعاني أوروبا من مشكلات فيما يتعلق بالقيادات السياسية نتيجة الحرب على العراق واتباع السياسات الأمريكية؛ حيث تبدلت معظم القيادات في (ألمانيا) و(فرنسا) و(إيطاليا) و(بريطانيا)، وبدأت هذه الدول بالانسحاب من العراق.

خامسًا: محددات مستقبل العلاقات الأوروبية – الأمريكية والعالم الإسلامي:

يمكن القول: إن هناك عدة عوامل تؤدي دورًا هامًا في قراءة مستقبل أثر العلاقات الأوروبية-الأمريكية في العالم الإسلامي تتضمن الآتي (انظر للمزيد بعضًا مما اعتمدت هذه الدراسة عليه في: (Calabrese,2005 Cody,2008, Fakiolas,2006).

- تراجع الدور الأمريكي / والمشروع الأمريكي في الحديقة الخلفية لأمريكا (أمريكا اللاتينية)، التي تحولت فيها معظم الأنظمة السياسية إلى أنظمة مناهضة للمشروع الأمريكي، ومن الجدير بالذكر أن (فنزويلا) مثلًا تنفق على الدعم الخارجي لدول أمريكا اللاتينية (٥ أضعاف) ما تنفقه الولايات المتحدة الأمريكية في عام ٢٠٠٨م (Halbrooke, 2008)؛ لذا تتصدر (فنزويلا) دور المؤثر أكثر بكثير من أمريكا. وهذا ما قد يدعو أمريكا إلى إعادة النظر بدورها وعلاقاتها مع أوروبا بعد أن فقدت حديقتها الخلفية.

- مستقبل المشروع الأمريكي في منطقة الشرق الأوسط «في العالم العربي والعالم الإسلامي»، والمتضمن: الحرب على الإرهاب، واحتلال العراق وأفغانستان، والضغط على إيران ودول الخليج العربي، واستمرار الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين بدعم أمريكي، وتهديد الأمن



القومي للدول العربية، ومنها خيار الوطن البديل الذي يهدد الأمن القومي الأردني ويهدد الهوية الفلسطينية.

وهنا لا بد من الإشارة إلى فشل وضع المشروع الأمريكي، والذي سيُحدِث مشكلة المصداقية لأي مبادرات أمريكية أوروبية في المنطقة، ويمكن لأوروبا أن تبتعد عن أمريكا في هذا المجال حتى لا تحسب عليها. فتصريحات بعض زعماء العالم الأخيرة منذ بدء الأزمة المالية الأمريكية التي تهدد بنهاية الليبرالية؛ خاصة في ظل سيطرة جماعات النفط على الحكومة الأمريكية، وهو السبب الأساسي لهذا الأزمة، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر: حديث الرئيس الروسي في مؤتمر السياسة العالمية (World Policy Conference) بأن النظام العالمي أحادي القطبية لم يعد مجديًا في التعامل مع مشكلات العالم، وتصريح الرئيس الفرنسي في المؤتمر نفسه بأن العالم أصبح دون بوصلة مع نهاية الحرب الباردة، خاصة في ظل النظام أحادي القطبية. وتعبّر هذه التصريحات عن عدم رضا القيادات الدولية في العالم عن الدور الأمريكي في العلاقات الدولية، ويضيف الناشط السياسي جسي جاكسون بأن «الاحتلال الأمريكي أفقد أمريكا المصداقية لقيادة العالم»، أضف إلى ذلك الكلفة المالية المرتفعة للحرب الأمريكية على العراق والتي تكلف (٣٧١ ألف دولار) في كل دقيقة منذ بدء العام ٢٠٠٨م، وأثر ذلك في الاقتصاد الأمريكي.

- إمكانية تغيير المنهج الأمريكي الذي اعتمد الأحادية في التعامل، والوسيلة العسكرية لتحقيق أهدافه، بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر الذي يتلخص فيما يلي:

١- الحرب الأمريكية على أفغانستان التي شارك فيها الناتو على استحياء، والتي تسير في طريق وعْر، ولا بصيص لأي أمل في النجاح، حسب تقارير الاستخبارات الأمريكية.

٢- الحرب الأمريكية على العراق التي رفضها العالم، وأدت إلى تدمير العراق وتمزيق النسيج الوطني، بالإضافة إلى انعكاساتها السلبية على المستوى الوطني، والمستوى العربي.

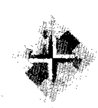
٣- أمريكا والمواجهة العسكرية المحتملة مع إيران.

٤- الحرب على الإرهاب وهي الحرب الناعمة، وأحيانًا الخشنة مع الدول العربية التي تعتبرها أمريكا دولاً مارقة، والناعمة مع كل الأنظمة العربية.

٥- استمرار الدعم الأمريكي للاحتلال الإسرائيلي لفلسطين، وتجميد عملية السلام في قضية الصراع العربي-الإسرائيلي، واستمرار تهديد الأمن القومي للدول العربية مثل الأردن؛ وذلك بالتلويح بحل الوطن البديل.

٦- الحرب الناعمة في المشروع الأمريكي للشرق الأوسط الجديد لتفكيك بنية المجتمع العربي والإسلامي بوسائل نشر الديمقراطية وحقوق المواطنين، وقضايا البيئة والمرأة والطفل ... إلخ، ورغم فشل هذه الأدوات وحربتها الإعلامية (قناة الحرة) في ظل التناقض الأمريكي بين المعلن وغير المعلن، وبين القول والفعل أدى كل ذلك إلى إحراج كثير من الأنظمة السياسية الموالية للغرب وأمريكا؛ بحيث بدت في موقف لا تشعر فيه بالرغبة في الدفاع العلني عن أمريكا.

وبالتالي فإن هيمنة الأمن على سياسات أمريكا المدعومة أوروبيًّا فشلت ولا بد من أن تتغير، ويمكن القول: إن دور أوروبا وحتى الصين، وروسيا، واليابان أخذ المنحنى الأمريكي من حيث الموافقة الحتمية «المكرهة» للدور الأمريكي، الذي ذهب إلى منطقة الشرق الأوسط بأحادية أمريكية دون موافقتها أو الموافقة الأوروبية، ما عدا (بريطانيا) التي تتمسك بعلاقات ثنائية مع الولايات المتحدة الأمريكية بدأت بالتراجع منذ أصبحت (بريطانيا) تحضر اجتماعات (الاتحاد الأوروبي)، كما أن مواقف الدول الغربية والدول العظمى تجاه المشروع الأمريكي في المنطقة- وإن اتفقت في الهدف الاستراتيجي- لا تتفق من حيث



الوسائل، كما أن الموقف الأوروبي والروسي جاء بعد بدء المشروع الأمريكي، ولم يستمر هذا الدعم لوقت طويل، بما في ذلك (بريطانيا)؛ حيث قامت كل الدول بالانسحاب من المشروع الأمريكي في العراق.

وكذا تختلف الرؤية في التعامل مع أفغانستان وإيران، وهناك اختلاف في قضية التعامل مع الصراع العربي الإسرائيلي؛ لذا يمكن الافتراض بأن أمريكا وحيدة في الشرق الأوسط، وليست أحادية فهي لا تستطيع الاستمرار في ظل سياسة العالم (wait and see)، وبناء على هذه الافتراضات خاصة في ظل تراجع العلاقات الأمريكية - الأوروبية وتراجع دور الولايات المتحدة في أمريكا اللاتينية، والتغيير في القيادات الأوروبية المتضمن اختلافات جوهرية في وجهات النظر حول الكثير من القضايا الدولية، ومنها منطقة الشرق الأوسط مع أمريكا، ومنهج التعامل وتركيز أمريكا على أحادية تدعو أوروبا والعالم إلى اعتماد المنهج الأمني، مما يعطي فرصة استراتيجية للعالم العربي والإسلامي لإعادة صياغة العلاقات مع الدول الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية.

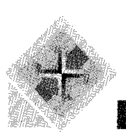
ب- الوضع الاقتصادي الأمريكي المتراجع في المشروع الأمريكي في المنطقة:

لا بد من أخذ الواقع الاقتصادي - الاجتماعي في أمريكا بعين الاعتبار، فبعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر تصدرت في الولايات المتحدة الأمريكية الحرب على الإرهاب كقضية استراتيجية تهم الرأي العام، وجاءت القضايا الاجتماعية والاقتصادية في المرتبة الثانية، وهذا يعبر عن تغير جوهري في فكر الولايات المتحدة الأمريكية، كما أن فترة إدارة بوش خلال الثماني سنوات الماضية شهدت تصدّر تحديات السياسة الخارجية بما في ذلك الحرب على الإرهاب، والحرب على العراق سلّم الأولويات، واكتشف الأمريكيون أنهم يعيشون في حالة اقتصادية يرثى لها، خاصة في ظل الأزمة المالية التي زادت من البطالة، وبالتالي تراجع الأوضاع الاقتصادية للمجتمع الأمريكي، وهذه الحالة في التجربة الأمريكية عادة ما تدعو إلى سياسة الانكفاء على الذات والعزلة. كما أن الأزمة المالية تشمل جميع الجوانب الاقتصادية والاجتماعية، وهي تضم: أزمة في قروض الطلبة، وأزمة في الإسكان/ الرهونات العقارية، وأزمة في الصحة (أكثر من ٤٠ مليون أمريكي دون تأمين صحي)، وأزمة في العمل (زيادة البطالة)، وأزمة في الدَّيْن الخارجي (١٠ تريليونات دولار)، وعجزًا في الموازنة (٤٣٨ مليارًا حتى سبتمبر ٢٠٠٨م). وعجزًا في ميزان التجارة الخارجية. (Imperial overstretch). (انظر Washington Post and The New York Times Polls, October, 2008)

> اكتشف الأمريكيون أنهم يعيشون في حالة اقتصادية يرثى لها، خاصة في ظل الأزمة المالية التي زادت من البطالة، وبالتالي تراجع الأوضاع الاقتصادية للمجتمع الأمريكي

ويجدر بالذكر أن هذه الأزمات يغذي بعضها بعضًا، خاصة بزيادة مستوى البطالة، وبالتالي التأثير في مستوى الاستهلاك الذي سيؤدي إلى خفض الإنتاج، وإعادة هيكلة الاقتصاد الأمريكي، كما لا بد من المقارنة بين الإنفاق العسكري والإنفاق المدني في الاقتصاد الأمريكي، ومدى قابلية نظرية (بول كنيدي) في انهيار أمريكا التي تفترض مصدره من الداخل، بسبب سيطرة الاقتصاد العسكري على الاقتصاد المدني.

لذا فإذا كان تأثير الأزمة الأمنية المتمثلة في الحادي عشر من سبتمبر التي أدت إلى تقييد الحريات السياسية، فإن غياب المحددات الأساسية الاجتماعية التي أدت إلى الأزمة المالية، وهي: العقيدة، والقيم، والقوانين، فإن الأزمة المالية ستؤدي إلى إعادة النظر بالقضايا الاقتصادية؛ لإعادة تنظيمها بناء على أسس قانونية كانت أمريكا بحاجة إليها منذ أن كتب (ثيودور لوي) (Lowi) كتابه في نهاية السبعينيات «نهاية الليبرالية». فهل يمكن أن تطلب أمريكا من أوروبا دورًا ومساهمة عسكرية في ما يتعلق بأمن العالم الذي حصلت عليه



مجانًا منذ خطة (مارشال)، علمًا بأن أوروبا مرشحة لدخول مرحلة كساد اقتصادي مشابه لما يحصل في أمريكا.

كما أن العالم يدفع إلى الدول النفطية حسب دراسة هوبروك (Holbrooke,2008) (٢,٢) تريليون دولار سنويًا، تدفع منها أمريكا (١,٣) مليار دولار يوميًا للدول المنتجة للنفط، أي ما يقدر بحوالي (٤٧٥) مليار سنويًا، مما يشكل تحديات إضافية للاقتصاد الأمريكي، خاصة التعامل مع سياسات الولايات المتحدة الأمريكية تجاه الدول النفطية، وهذا يرشح توتر العلاقات الأوروبية والأمريكية مع دول الخليج العربي في ظل استغلال إيران للفراغ الاستراتيجي؛ مما سيشكل معضلة للعلاقات الأوروبية الأمريكية من جهة والعلاقات الأوروبية-الأمريكية مع العالم العربي من جهة أخرى.

والأزمة المالية والسياسية الدولية قد تدعو البعض إلى التركيز على ما بعد الهيمنة، وأهمية التعاون الأوروبي-الأمريكي في المنطقة، ودور دول الخليج العربي في مساعدة الدول الأوروبية وأمريكا ماليًا. فهل يمكن أن تتخلى أوروبا عن أمريكا في ظل هذه الأزمة وتدعو أوروبا إلى تحالفات جديدة؟

النتائج:

تشير الورقة إلى عدد مهم من النتائج التي لا بد أن يأخذها صانع القرار في العالم العربي والإسلامي بعين الاعتبار، أثناء التخطيط الاستراتيجي؛ للعلاقات مع أوروبا وأمريكا، وكيفية استثمار العلاقات الأوروبية الأمريكية ودورها في المنطقة:

أولاً: يلاحظ افتقار الدول العربية والإسلامية للمبادرة وأخذ زمام الأمور، فهي تنتظر ما يحدث في العالم الخارجي، وقد توجت الانتخابات الأمريكية والاهتمام الأوروبي والعربي فيها هذا الأمر، خاصة أن العالم لا يستطيع أن يعيش دون أمريكا، وهذا تعبير واضح عن الدور الاستراتيجي للولايات المتحدة الأمريكية، وفقدان المبادرة والقيادة لدى أوروبا، ولدى الدول العربية والإسلامية.

ثانيا: عدم جدية القيادات العربية والإسلامية في إيجاد علاقات استراتيجية مع أوروبا، فنقطة الانطلاق لها هي أمريكا، وكل الدول العربية والإسلامية تعتبر أمريكا هي محور العلاقات الدولية، وأن العلاقات مع أوروبا ذات قيمة تكتيكية وغير مهمة مقارنة بالولايات المتحدة الأمريكية، وتصر على الاهتمام بالعلاقات معها.

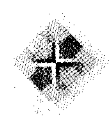
ثالثا: إن الخارطة السياسية في المنطقة التي تشمل نتائج السياسات الأمريكية قد أبقت أوروبا في دور الشاهد غير الفاعل؛ لذا فإنه يمكن القول: إن العلاقات الأوروبية-الأمريكية ستبقى محكومة بالتبعية الأوروبية للسياسات الأمريكية في المنطقة.

ومستقبل العلاقات الأوروبية-الأمريكية، سيرتبط بالمنهج الذي ستتخذه الإدارة الجديدة، فرغم أن أوروبا تنتقد المنهج الأمريكي، لكنها لا تمتلك البديل أو الاستقلال في منهج التعامل في العلاقات الدولية.

والمنهج الذي ستستخدمه الإدارة الجديدة سيحدد طبيعة العلاقات الأوروبية-الأمريكية، وإذا ما اختارت إدارة (باراك أوباما) المنهج الأممي؛ فإن ذلك سيؤدي إلى تقارب أوروبي-أمريكي يصلح كثيرًا من التشوهات التي شابت العلاقات الأوروبية-الأمريكية في فترة إدارة (بوش).

ومن هنا، فإن ذلك سينعكس على العالم الإسلامي بالتخفيف من وطأة الحروب التي شنّتها أمريكا عليه، مما سيدخل العلاقات -إذا استغلت الأنظمة العربية والإسلامية ذلك- إلى نوع من التوازن للتركيز على القضايا التي تهم المواطن العربي والمسلم، إذا ما صدقت أوروبا في وعودها للعالم الإسلامي.

والمحددات التي نوقشت في الدراسة ستؤدي دورًا مهمًا في صياغة أثر العلاقات الأوروبية-الأمريكية




وانعكاساتها على العالم الإسلامي، ففي حين أدرك العالم الإسلامي أهمية الارتباط مع أمريكا، ولم يهتم استراتيجيًا بالعلاقات مع أوروبا، كانت النتائج كارثية على المنطقة. وبناء على ذلك، فإن العالم الإسلامي يجب أن يوّسع من خياراته بالانفتاح على أكثر من فاعل دولي هام في العلاقات الدولية.

المراجع :

Calabrese, John. 2005. Freedom on the March in the Middle East-and Transatlantic Relations on a New course? Mediterranean Quarterly. Fall: .64-42

Calleo, David P. 2007. The Atlantic Alliance in -a Global System. Asia-Pacific Review. 14(1) : 72 .89

Cody, Edward. 2008. E.U. offers Road Map Policy with U.S. Washington Post. (November, .4): A3

Copper, Helene. 2007. "In U.S. Overtures to Foes, New Respect for Pragmatism." The New .(York Times (March 1, 2007

Fakiolas, Tassos E. and Efstathios T. Fakiolas. 2006. Europe's , Division Over the war in Iraq . Perspectives on European Politics and Society. .311-7(3): 298

Bound to .2004/Kaye Dalia Dassa. 2003 Cooperate ? Transatlantic Policy in the Middle .195-East. The Washington Quarterly. 27(1): 179

Holbrooke,Richarl. 2008. " The Next President. .(Foreign Afairs"." (Sept./Oct

Michta, Andrew A. 206. Transatlantic Troubles. .66-National Interest. 86: 62

Romero, Frederico. 2008. A Discussions of public opinion Trends in Transatlantic Relations. .83-Social Europe. Winter: 79

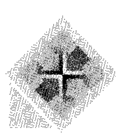
Sciolino, Elaine. 2007. "Sarkozy Outlines Foreign Policy for France." ." The New York .(Times (March 1, 2007

Selden, Zachary. 2008. "Stabilization and Democratization: Renewing the Transatlantic .98-Alliance. Parameters. Winter :85

- الشايجي، عبدالله. ٢٠٠٨م. حرب الولايات المتحدة الأمريكية على العراق وأمن منطقة الخليج العربي: المراحل- التداعيات- المستقبل. المجلة العربية للعلوم السياسية. ١٩ : ٣١-٥٠.

- هياجنة، عدنان. ٢٠٠٧م. أزمة الملف النووي الإيراني وسيناريوهات الموقف الأمريكي المحتمل. مجلة دراسات شرق أوسطية. مركز دراسات الشرق الأوسط. عمان الأردن. رقم ٤٠-٤١.

- هياجنة، عدنان. ٢٠٠٣م. الحرب على العراق وتوازن القوى الدولي. في كتاب احتلال العراق: الأهداف- النتائج- المستقبل. سلسلة كتب المستقبل العربي (٣٢). مركز دراسات الوحدة العربية.



معلومات إضافية

خريطة الطريق الدبلوماسية الجديدة للعلاقات الأوروبية الأمريكية

بعد عدد من اللقاءات والمشاورات الأوروبية التي بدأت في سبتمبر ٢٠٠٨م، واستمرت حتى ٣ نوفمبر ٢٠٠٨م أقر وزراء خارجية الاتحاد الأوروبي السبع والعشرين، وثيقة ما يُعرف بخريطة الطريق الدبلوماسية الجديدة للتعامل بين التكتل الأوروبي والولايات المتحدة.

وتتضمن خطة العمل الأوروبي المقترحة مع الإدارة الأمريكية الجديدة -والتي من المفترض أن تكون قد أُرسلت للرئيس الأمريكي الجديد باراك أوباما- خمسة محاور رئيسة وهي:

المحور الأول: إصلاح مؤسسات التعامل المتعدد الأطراف، مثل الأمم المتحدة، وصندوق النقد الدولي.

المحور الثاني: الموقف في الشرق الأوسط، الذي يشمل الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، والموقف في العراق، والملف النووي الإيراني.

المحور الثالث: إدارة الوضع في أفغانستان، والعلاقات مع باكستان.

المحور الرابع: العلاقات مع روسيا، والحوار مع آسيا، وهو عنصر تم إضافته مؤخرًا؛ بسبب تداعيات الأزمة النقدية والمالية العالمية.

المحور الخامس: توظيف انتخاب السيناتور باراك اوباما رئيسًا جديدًا في البيت الأبيض لإعادة هيكلة مختلف جوانب العلاقات بين ضفتي الأطلسي، والتأكيد على قدرة واستعداد الأوروبيين لإطلاق مبادرات محددة للمشاركة في إدارة الشئون الدولية.

وقال وزير خارجية فرنسا برنار كوشنر عند الإعلان عن هذه الوثيقة -التي تتكون من ست صفحات-: إن الاتحاد الأوروبي يأمل في توثيق العلاقات مع الإدارة الجديدة، وأن «ثمة حاجة لفتح صفحة جديدة في تآلف عالمي، وتوازن عالمي، وتغير عالمي».

وفي إشارة إلى أهمية التعاون بين الجانبين، والتخلي عن الأحادية، قال كوشنر: «لقد تغيرت العصور. أعتقد أن القرارات أحادية الجانب التي تحاول تسوية مشكلات العالم ستكون أكثر صعوبة في اتخاذها... الطبيعة المتطورة بسرعة للعولمة، بالإضافة إلى الأزمة المالية أظهرتا أنه لا يمكن لأي دولة أن تفرض إرادتها على العالم... ستبقى الولايات المتحدة دولة مهمة للغاية. لا أقول قوة مسيطرة لكن قوة عظمى».

وذكرت مصادر أوروبية أن الأوروبيين يهدفون في هذه المرحلة إلى استقراء موقف الإدارة الأمريكية الجديدة إدراكًا منهم بضخامة التحديات التي تواجه الرئيس الأمريكي المنتخب داخليًا وخارجيًا؛ بسبب تداعيات الأزمة المالية، وصعوبة الموقف في أفغانستان.

العلاقات الأوروبية الأمريكية على ضوء نتائج الانتخابات الأمريكية:

ظهر بوضوح في تصريحات الزعماء الأوروبيين تعليقًا على فوز باراك أوباما في الانتخابات الأمريكية أن استمرار وزيادة التعاون الأمريكي الأوروبي من الأولويات المنتظرة من الإدارة الأمريكية الجديدة.



وفيما يلي بعض تصريحات المسئولين الأوروبيين:

الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي:

«في وقت تحيق فيه الاضطرابات والشكوك بالعالم عبَّر الشعب الأمريكي.. المخلص للقيم التي حددت دومًا الهوية الأمريكية.. بقوة عن إيمانه بالتقدم والمستقبل».

«وفي الوقت الذي علينا أن نواجه فيه تحديات هائلة معًا زاد انتخابكم الأمل في فرنسا وأوروبا وما ورائهما».

وزير الخارجية الفرنسي برنار كوشنير:

إن «فرنسا وأوروبا والمجتمع الدولي تحتاج حيوية (أوباما)، ورفضه للظلم، وتصميمه على المضي قُدمًا لبناء عالم أكثر أمنًا، أكثر عدلاً وأكثر استقرارًا... إن فرنسا والاتحاد الأوروبي على استعداد للعمل عن كثب مع باراك أوباما وإدارته ضمن إطار تجديد الشراكة عبر الأطلنطي؛ لمواجهة القضايا العالمية الأهم في الوقت الراهن».

رئيس الوزراء البريطاني جوردون براون:

«خاض باراك أوباما حملة ملهمة أعطت مزيدًا من الطاقة للسياسة بقِيَمه التقدمية، وبرؤيته المستقبلية. أعرف باراك أوباما، ونتشارك في كثير من القيم. لدينا تصميم لإثبات أن الحكومة يمكن أن تعمل لمساعدة الشعب على نحو ملائم في تلك الأوقات الصعبة التي تواجه الاقتصاد العالمي».

المستشارة الألمانية أنجيلا ميركل:

«العالم يواجه تحديات ملموسة مع بداية فترتكم. وأنا مقتنعة تمامًا بأن أوروبا والولايات المتحدة ستعملان معًا عن كثب، وبروح ثقة متبادلة؛ لمواجهة المخاطر والأخطار الجديدة، وستنتهزان الفرص التي يتيحها عالمنا».

نائب وزير الخارجية الروسية جريجوري كاراسين:

«الأنباء التي تصلنا عن الانتخابات الرئاسية الأمريكية تظهر أن للكل حق الأمل في توجهات أمريكية جديدة بشأن كل القضايا الأكثر تعقيدًا، بما في ذلك السياسة الخارجية، ومن ثم العلاقات مع روسيا الاتحادية أيضًا».

رئيس المفوضية الأوروبية جوزيه مانويل باروزو:

«نحن بحاجة إلى تغيير الأزمة الراهنة، وتحويلها إلى فرصة جديدة. نحن بحاجة إلى اتفاق جديد لعالم جديد. آمل بكل إخلاص أنه بقيادة الرئيس أوباما ستضم الولايات المتحدة الأمريكية جهودها إلى أوروبا لدفع هذا الاتفاق الجديد قدمًا. من أجل مصلحة مجتمعاتنا ومصلحة العالم».

رئيس وزراء هولندا يان بيتر بالكننده:

«الحاجة إلى تعاون أوروبا والولايات المتحدة أكبر من أي وقت مضى. بالتعاون فقط بين ضفتي المحيط نتمكن من مواجهة تحديات العالم».

وزير الخارجية الإيطالي فرانكو فراتيني:

«أوروبا التي تحتفل (بفوز) أوباما يجب أن تعرف أنها ستكون مطالَبة بأن تكون منتِجة للأمن لا مستهلِكة له

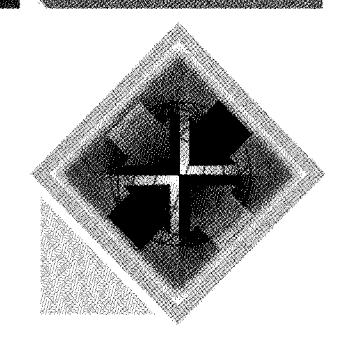
فقط. أعتقد أن أوباما سيدعونا وعن حق لأن نتحمل مسئولياتنا بجدية أكبر».

وتشير تصريحات وزير الخارجية الإيطالي إلى الاعتقاد السائد بأن الإدارة الأمريكية الجديدة ستسعى إلى مقايضة أي تنازلات محددة للأوروبيين بحجم المساهمة الأوروبية المباشرة على الصعيد المالي في إدارة الأزمة المالية، وعلى الصعيد العسكري في إدارة عدد من الملفات الحيوية.

المصادر:

- وكالة الأنباء السعودية (واس)، خمس أولويات تواجه العلاقات الأوروبية الأمريكية، ١ نوفمبر ٢٠٠٨م.
- وكالة أنباء رويترز، الاتحاد الأوروبي يصوغ خطابًا للرئيس الأمريكي الجديد، ٤ نوفمبر ٢٠٠٨م.
- وكالة أنباء رويترز، ما قاله زعماء العالم عن فوز أوباما، ٥ نوفمبر ٢٠٠٨م.





مستقبل النظام الدولي في ضوء أزمة أوسيتيا الجنوبية

د. نورهان الشيخ
أستاذ مساعد العلوم السياسية، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة

ملخص الدراسة

مثلت أزمة أوسيتيا الجنوبية وتفاعلات الأطراف الدولية والإقليمية المختلفة في إطارها ترجمةً واضحة لمقولات المدرسة الواقعية، واهتمامها المبالَغ فيه بمفهوم القوة، وهي النظرية التي أحيتها السياسة الأمريكية في فترة ما بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، وازدادت بعد أحداث ١١ سبتمبر، والاحتلال الأمريكي لأفغانستان والعراق.

إن المتتبع لنمط توزيع القوة في النظام الدولي يلحظ مروره بمراحل عدة، تغير خلالها هيكل النظام والقوى الفاعلة فيه، فما بين حقبة من سيطرة الإمبراطورية العثمانية الإسلامية إلى حقبة تميزت بسيطرة أوروبية واضحة في إطار نظام دولي متعدد القوى، ثم تراجع الهيمنة الأوروبية، وتبلور نظام ثنائي القطبية بعد الحرب العالمية الثانية، حتى مطلع التسعينيات وانتهاء الحرب الباردة بين القوتين العظميين، وانهيار الاتحاد السوفييتي لينتهي الأمر بالتحول إلى نظام عالمي جديد أحادي القطبية.

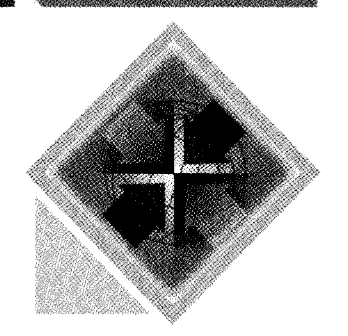
وبدا واضحًا في ظل هذا النظام اختفاء التناقض الأيديولوجي، وتطوير مظلة من التفاهم الاستراتيجي بين القوى الكبرى فيما تراجع دور الأمم المتحدة كفاعل مستقل في القضايا الدولية والإقليمية، وبرز الدين كأحد عوامل الصراع الدولي، وعاد الاستعمار في صورته التقليدية، وتسارعت سباقات التسلح على المستويين الإقليمي والدولي.

ومع تنامي القدرات العسكرية لروسيا والصين، ترسخ الاعتقاد بأن التفوق النووي الأمريكي سوف يتراجع بوضوح خلال العقدين القادمين، الأمر الذي سيؤثر حتمًا على ميزان القوى العالمي، ويضع قيودًا تحد من قدرة الولايات المتحدة على فرض إرادتها على الصعيد الدولي.

وجاءت المواجهة الروسية الجورجية الأخيرة لتمثل نقطة تحول مفصلية وكاشفة في النظام الدولي وعلاقات القوى فيه؛ لما لها من دلالاتها السياسية، لاسيما فيما يتعلق بمستقبل النظام الدولي والقوى الفاعلة فيه.

فقد جاء السلوك الروسي حاسمًا دبلوماسيًّا وعسكريًّا على نحوٍ لم تتوقعه القيادة الجورجية، وحقق المصالح والأهداف التي حددتها القيادة الروسية، وفي مقدمتها تأكيد وضع روسيا كقوة كبرى قادرة على الدفاع عن مصالحها.

وأكدت هذه المواجهة أن روسيا قد عادت من جديد إلى مصافّ القوى الكبرى الفاعلة في النظام الدولي، وبدأت تظهر إرهاصات توازن جديد للقوى في إطار نظام دولي تعددي؛ حيث تتراجع الهيمنة الأمريكية، وتلعب روسيا وربما الصين وعدد من الدول الأوروبية دورًا مهمًّا وفعالاً في الشئون الدولية والإقليمية.



مستقبل النظام الدولي
في ضوء أزمة أوسيتيا الجنوبية

د. نورهان الشيخ
أستاذ مساعد العلوم السياسية، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة

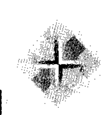
مقدمة:

تتفق أدبيات العلاقات الدولية على تعريف النظام الدولي بأنه ذلك الترتيب البنيوي للفاعلين الدوليين المتمثلين في الدول بالأساس، وفقًا لقدراتهم المختلفة (الاقتصادية، والعسكرية والسياسية، والجغرافية والديموجرافية، والثقافية)، ويحكم العلاقات والتفاعلات فيما بينهم مجموعة من القواعد القانونية والأعراف التي تم الاتفاق عليها، واستقر العمل بها.

ورغم تعدد النظريات والمقاربات التي حاولت فهم وتحليل النظام الدولي والتفاعلات فيما بين الفاعلين الرئيسيين فيه، فإن السياسة الأمريكية في فترة ما بعد انهيار الاتحاد السوفييتي مطلع التسعينيات من القرن الماضي أدت إلى إحياء النظرية الواقعية في دراسة العلاقات الدولية بقوة. فقد ظهرت مجموع من الأدبيات التي أعادت طرح النظرية الواقعية ومقولاتها الأساسية، لاسيما في تفسير السياسة الخارجية الأمريكية، ودورها على الصعيد الدولي. وقد ازداد هذا التوجه بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وتدخّل الولايات المتحدة عسكريًا في أفغانستان ثم احتلالها للعراق.[1]

---

(1) W. David Clinton (ed.), The Realist tradition and Contemporary International Relations, (Baton Rouge: Louisiana State University Press), 2007.
Michael C. Williams, The Realist Tradition and the Limits of International Relations, (Cambridge: Cambridge University Press) 2005.
Jack Donnelly, Realism and international relations, (Cambridge: Cambridge University Press), 2000.
Condoleezza Rice, Rethinking the National Interest: American Realism for a New World, Foreign Affairs, vol. 87, no. 4, July/August 2008.
Ethan B. Kapstein and Michael Mastanduno (eds.), Unipolar Politics: Realism and State Strategies after the Cold War, (New York: Columbia University Press), 1999.
John A. Vasquez, The Power of Power Politics : From Classical Realism to Neotraditionalism, (Cambridge: Cambridge University Press), 1998.
Diana Schaub, Machiavelli>s realism, The National Interest, no. 53, Fall 1998.
Benjamin Frankel (ed.), Realism: Restatements and Renewal, (Portland: Frank Cass), 1997.
Michael W. Doyle, Ways of War and Peace: Realism, Liberalism, and Socialism, (New York: W. W. Norton), 1997.
Roger D. Spegele, Political Realism in International Theory, (Cambridge: Cambridge University Press, 1996.
Benjamin Frankel (ed.), Roots of Realism, (London: Frank Cass), 1996.
Charles W. Kegley, Jr. (ed.), Controversies in International Relations Theory : Realism and the Neoliberal Challenge (New York: St. Martin's Press), 1995.
Dan Reiter, Learning, Realism, and Alliances: The Weight of the Shadow of the Past, World Politics, vol. 46, no. 4, July 1994.



وترجع النظرية الواقعية بجذورها إلى كتاب ثوسيددس في القرن الرابع قبل الميلاد عن الحرب بين آثينا وإسبرطة، وتوازن القوى وتأثيره على العلاقات فيما بينهما، ومقولته الشهيرة في هذا الإطار: «القوي يفعل ما تتيحه له قوته، والضعيف يقبل ما يجب أن يقبله». كما يعتبر كتاب ميكافيللي «الأمير» في مطلع القرن السادس عشر، وفصله بين السياسة من ناحية والأخلاق والدين من ناحية أخرى، رافدًا فكريًا أساسيًا للمدرسة الواقعية. أما على الصعيد الممارسة السياسية فقد كان بسمارك، مؤسس دولة الوحدة الألمانية والمستشار الألماني (١٨٦٢ – ١٨٩٠م)، أول من طرح مفهوم Real Politik من خلال سياساته وسلسلة الأحلاف البسماركية التي دشنها خلال سبعينيات وثمانينيات القرن التاسع عشر.

وقد تطورت النظرية الواقعية، وسيطرت على دراسة وتحليل العلاقات الدولية في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، وكان ذلك بفضل إسهامات مجموعة من المفكرين الأوروبيين كان في مقدمتهم Edward Hallett Carr الذي انتقد التيار المثالي في دراسة العلاقات الدولية، وتركيزه على القانون الدولي، والأخلاقيات، والمنظمات الدولية.[٢] كذلك Hans Morgenthau، وكتابه «Politics Among Nations» عام ١٩٤٨م، والذي أرسى فيه مفاهيم ومقولات المدرسة الواقعية، ويعتبر التأصيل الأول الحقيقي لها.[٣] أيضًا كتابات المفكر الفرنسي Raymond Aron الذي رأى أن الصراع من أجل القوة هو السمة المميزة للنظام الدولي، وأكد على شرعية هذا الاستخدام في ظل غياب السلطة المحتكرة للاستخدام الشرعي للقوة في النظام الدولي، كما طرحها ماكس فيبر على صعيد الدولة.[٤]

وتتمثل المقولات الأساسية للنظرية الواقعية فيما يلي:

١- أن السياسة الدولية هي صراع من أجل القوة، فيما اصطلح على تسميته Power Politics. ويتضمن ذلك الحفاظ على قوة الدولة القائمة، والسعي لتعظيم هذه القوة وزيادتها. ولا شك أن التنافس بين الدول لزيادة قوتها يجعل منهم أعداء محتملين، إن لم يكونوا فعليين. كما يتضمن ذلك استخدام قوة الدولة وتوظيفها للتأثير على فاعلين آخرين، ودفعهم إلى تبني موقف أو سلوك ما أو الامتناع عن فعلٍ ما.

٢- أن العلاقات بين الدول يحكمها توازنات القوى القائمة بينها. ومستوى قوة الدولة يتحدد بمستوى القدرات التي تتمتع بها (عسكرية، اقتصادية، سياسية، جغرافية، وديموجرافية). وتُقاس قوة الدولة بمجمل هذه القدرات، وتظل العبرة بالرغبة أو الإرادة السياسية في استخدامها وتوظيفها. ويرى مفكرو النظرية الواقعية أن الدولة يجب أن تكون هجومية، وأن توسعها الخارجي لا يجب أن يوقفه سوى التوازنات مع القوى الأخرى في النظام الدولي. وربما الحرب الاستباقية أو الوقائية الأمريكية ترجمة واضحة لهذه المقولة.

٣- أن النظام الدولي نظام فوضوي؛ حيث لا توجد سلطة عليا تضبط حركة الدول والتفاعلات فيما بينها.

٤- أن الدول هي الفاعل الأساسي في النظام الدولي؛ حيث تميل النظرية الواقعية إلى التقليل من أهمية الفاعلين الآخرين، لاسيما المنظمات الدولية والإقليمية.

Robert Jervis, Hans Morgenthau, Realism, and the Study of International Politics, Social Research, vol. 61, no.4, .Winter 1994

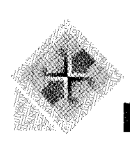
John P. McCormick, Addressing the Political Exception: Machiavelli>s «Accidents» and the Mixed Regime, American Political Science Review, vol. 87, no. 4, .December 1993

Roland S. Homet, Jr., The New Realism: A Fresh Beginning In U.S.-Soviet Relations, (New York: Harper .Collins), 1990

(٢) E. H. Carr, The Twenty-Years Crisis, 1919-1939: An Introduction to the Study of International Relations, (London: Macmillan), 1939.

(٣) Hans J. Morgenthau, Politics Among Nations, (New York: Knopf) 1948.

(٤) Raymond Aron, What Is a Theory of International Relations?, Journal of International Affairs, vol. xxi, no.2, 1967



٥- أن كل دولة فاعل رشيد Rational؛ حيث تحكم السياسات التي تتبعها سعيها لتحقيق مصالحها الوطنية. وأن الهدف الأساسي لأي دولة هو تحقيق أمنها. فالسياسة لا تحددها الأخلاق وإنما المصلحة، وأنه لا يوجد عداء دائم ولا صداقة دائمة، وإنما مصلحة دائمة.

٦- أن التناقض في المصالح بين الدول أمر لا مفر منه، ومن ثم فإن النزاع بينها أيضًا لا مفر منه. وأنه لا وجود لانسجام دائم في المصالح كما يدّعي المثاليون، وتؤكد التجارب التاريخية ذلك. وإنما قد يحدث تلاقٍ للمصالح في مرحلة ما، الأمر الذي يؤدي إلى قيام تحالفات بين الدول، واستمرار هذا التحالف رهن باستمرار الانسجام في المصالح.

ومن الواضح اهتمام المدرسة الواقعية المبالَغ فيه بمفهوم القوة، والاعتماد عليه كمتغير واحد في تفسير العلاقات الدولية. فهي تقدم تفسير شبه أحادي الأبعاد للعلاقات الدولية، وتهمل متغيرات أخرى، منها صانع القرار وإدراكه، وبيئته النفسية وغيرها من العوامل.

وقد مثلت أزمة أوسيتيا الجنوبية وتفاعلات الأطراف الدولية والإقليمية المختلفة في إطارها ترجمة واضحة لمقولات المدرسة الواقعية.

وتسعى هذه الدراسة إلى فهم وتحليل تأثير أزمة أوسيتيا الجنوبية على النظام الدولي ومستقبله، وذلك في ضوء المفاهيم الثلاثة التي طرحتها المدرسة الواقعية، على النحو السابق بيانه تفصيلاً، وهي: القوة، وتوازن القوى، والمصلحة الوطنية. ويتضمن ذلك ثلاثة محاور أساسية:

أولاً: تطور النظام الدولي مع التركيز على واقع النظام الدولي الحالي.

ثانيًا: أزمة أوسيتيا الجنوبية في ضوء أهمية منطقة القوقاز، ومصالح القوى الكبرى بها.

ثالثًا: مستقبل النظام الدولي في ضوء أزمة أوسيتيا الجنوبية.

أولاً: تطور النظام الدولي:

إن تتبع نمط توزيع القوة في النظام الدولي يُظهر مروره بمراحل عدة، تغير خلالها هيكل النظام والقوى الفاعلة فيه. فعقب حقبة من سيطرة الإمبراطورية العثمانية الإسلامية، التي وصلت حدودها وسط أوروبا، على السياسة الدولية خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلادي؛ كان صلح وستفاليا عام ١٦٤٨م إيذانًا ببدء حقبة جديدة تميزت بسيطرة أوروبية واضحة في إطار نظام دولي متعدد القوى، لعبت فيه فرنسا دورًا محوريًّا خلال القرن الثامن عشر، وحتى مؤتمر فيينا عام ١٨١٥م. فقد أدت تسويات فيينا إلى تحجيم فرنسا في مقابل صعود دور القوى الأوروبية الأخرى: بريطانيا والنمسا، وروسيا وبروسيا. بل إن الأخيرة اكتسبت دورًا مهيمنًا في السياسة الدولية بعد نجاح قائدها بسمارك في توحيد الممالك الألمانية تحت لوائها، وإعلان قيام ألمانيا الموحدة في عام ١٨٧١م.(٥)

> كان صلح وستفاليا عام ١٦٤٨ إيذانًا ببدء حقبة جديدة تميزت بسيطرة أوروبية واضحة في إطار نظام دولي متعدد القوى.

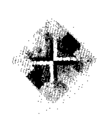
ورغم استمرار النظام الدولي متعدد القوى خلال النصف الأول من القرن العشرين إلا إن هذه الهيمنة الأوروبية على الشئون الدولية تراجعت نسبيًّا مع صعود دور كل من اليابان والولايات المتحدة، وبروزهما كقوتين فاعلتين في النظام الدولي، وهو الأمر الذي تأكد خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية.(٦)

ولقد أدى مسار الحرب العالمية الثانية وتداعياتها إلى خروج ألمانيا واليابان وإيطاليا من حلبة التنافس الدولي، وتبلور نظام ثنائي القطبية برز فيه الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة كقوتين قائدتين وقابضتين على

---

(٥) لمزيد من التفاصيل انظر:
J.A.R. Marriott, A History of Europe, from 1815 to 1939, London: Methuen, 1963

(٦) لمزيد من التفاصيل انظر:
Jerome Blum, Rondo Cameron, and Thomas G. Barnes, The European World, (Boston: Little, Brown and Company), 1966



مقاليد هذا النظام، في إطار تناقض أيديولوجي حادّ بينهما، وتنافس استراتيجي، وسباق تسلح نووي وتقليدي فيما عُرف بالحرب الباردة. وخلال تلك الفترة انقسمت أوروبا إلى معسكرين أساسيين: الأول شرقي اشتراكي يقوده الاتحاد السوفييتي، والثاني غربي رأسمالي تقوده الولايات المتحدة، هذا إلى جانب الجمع الأكبر من الدول النامية الصغيرة والمتوسطة التي انضم معظمها إلى حركة عدم الانحياز، التي تأسست في الخمسينيات من القرن الماضي، وإن تأرجحت سياساتها وتحالفاتها الفعلية ما بين المعسكرين.[٧]

ومنذ مطلع التسعينيات تضافرت عوامل عدة أدت إلى انتهاء الحرب الباردة بين القوتين العظميين، الأمر الذي دفع الكثيرين إلى الاعتقاد بميلاد نظام عالمي جديد. ففي أغسطس ١٩٨٩م بدأ سقوط النظم الشيوعية في دول أوروبا الشرقية الواحد تلو الآخر. وفي عام ١٩٩٠م أُعيد توحيد الألمانيتين بمقتضى اتفاقية موسكو في سبتمبر، ثم إعلان نيويورك في أكتوبر. وفي ١٩ نوفمبر من نفس العام وقّع أعضاء حلفي وارسو والأطلنطي معاهدة خفض الأسلحة التقليدية في أوروبا (CFE)، والتي اعتُبرت آنذاك شهادة وفاة الحرب الباردة.

> منذ مطلع التسعينيات تضافرت عوامل عدة أدت إلى انتهاء الحرب الباردة بين القوتين العظميين، الأمر الذي دفع الكثيرين إلى الاعتقاد بميلاد نظام عالمي جديد.

كما شهدت القضايا الإقليمية تعاونًا غير مسبوق بين القوتين العظميين، لاسيما في أزمة الخليج الثانية التي تفجرت باجتياح العراق للكويت في مطلع أغسطس ١٩٩٠م. وساد الاعتقاد، خطأً، بأن الأمم المتحدة أصبحت تلعب دورًا فاعلاً ومؤثرًا في القضايا الدولية. ثم جاء انهيار الاتحاد السوفييتي في ديسمبر ١٩٩١م ليكلل كل هذه التطورات، وليدعم الاعتقاد بالتحول إلى نظام عالمي جديد.

وقد اختلف محللو العلاقات الدولية حول طبيعة هذا النظام. فالبعض أفرط في التفاؤل، واعتبره مولد نظام متعدد القوى أكثر ديمقراطية وتمسكًا بمبادئ العدالة والقانون الدولي، وتسوده قيم الليبرالية السياسية والاقتصادية، وتساعد ثورة الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات في التقريب بين أرجائه، وتجاوز الحدود الجغرافية والثقافية بين الأمم والشعوب ليصير الحوار هو الآلية الأساسية للتفاعل بين حضاراته، في إطار ما اصطُلح على تسميته بالعولمة. والبعض الآخر كان أكثر واقعية؛ حيث رأى أن النظام العالمي الجديد يتجه نحو أحادية قطبية طاغية، وأن صدام الحضارات أمرٌ لا مفر منه.[٨]

والواقع أن هذا الاختلاف كان طبيعيًا، فكل ما شهدته حقبة التسعينيات ومطلع الألفية الثالثة لم يكن سوى مرحلة انتقالية في النظام العالمي تبلورت ملامحها، ووضحت بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م، وتأكدت باحتلال الولايات المتحدة للعراق،[٩] وتتمثل أهم هذه الملامح في مجموعة من السمات:

أولها: يتعلق بهيكل النظام الدولي، والذي بدا

---

(٧) لمزيد من التفاصيل انظر:
Paul Kennedy, The Rise and Fall of the Great Power, (London: Fontana Press, 1989).

(٨) Anne-Marie Slaughter, A New World Order, (Princeton: Princeton University Press), 2004.
Stephen Gill, Power and Resistance in the New World Order, (New York: Palgrave Macmillan), 2003.
Hélio Jaguaribe and Alvaro de Vasconcelos(eds.), The European Union, MERCOSUL, and the New World Order, (London: Cass), 2003.
Gordana Yovanovich (ed.), The New World Order: Corporate Agenda and Parallel Reality, (Montréal : McGill-Queen's University Press), 2003.
Hafeez Malik (ed.), The Roles of the United States, Russia, and China in the New World Order, (New York : St. Martin's), 1997.
K.R. Dark and A.L. Harris, The New World and the New World Order: US Relative Decline, Domestic Instability in the Americas, and the End of the Cold War, (New York: St. Martin's Press), 1996.

(٩) Francis A. Boyle, Destroying World Order : U.S. Imperialism in the Middle East before and After September 11, (Atlanta, GA: Clarity Press), 2004.



واضحًا أنه أحادي القطبية. فهناك قوة عظمى واحدة، وهي الولايات المتحدة، تحتل مكان الصدارة بين القوى الكبرى، وذلك بفعل عوامل عدة: فمن ناحيةٍ تمتلك الولايات المتحدة قدرات كبيرة ليس فقط جغرافيًّا وديموجرافيًّا، وإنما اقتصاديًّا وعسكريًّا أيضًا. ومن ناحية أخرى، لديها رؤية وإرادة سياسية للعب دور محوري وحاسم في كافة القضايا الدولية والإقليمية، وأن تكون هي الفاعل الأوحد أو على الأقل الأساسي والحقيقي في هذه القضايا.

يلي القطب الأوحد عدد من القوى الكبرى، التي ربما لا تقل كثيرًا من حيث القدرات والإمكانات عن الولايات المتحدة، بل إن بعضها يفوقها في بعض القدرات الجغرافية والديموجرافية، ولكن ليس لديها الإرادة السياسية اللازمة لترجمة هذه القدرات إلى نفوذ دولي مهيمن. ولعل النموذج الواضح على ذلك هو الاتحاد الأوروبي الذي يُعتبر بدوله السبعة والعشرين عملاقًا اقتصاديًّا له سياساته ونظمه المشتركة الواضحة والمحددة على الصعيد الاقتصادي، إلا إنه يفتقد إلى الرؤية والإرادة المشتركة على صعيد السياستين الخارجية والدفاعية. ورغم الخطوات التي تم اتخاذها في هذا الاتجاه؛ فإن الاتحاد الأوروبي مازال بعيدًا عن كونه فاعلاً دوليًّا واحدًا على الصعيد الدولي، وذلك فيما يتعلق بالقضايا ذات الأبعاد السياسية والاستراتيجية والأمنية.

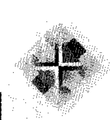
ولقد برز ذلك واضحًا في أزمة الاحتلال الأمريكي للعراق؛ حيث انقسمت دول الاتحاد الأوروبي على نحو حادّ بين مؤيد بل ومشارك في العمليات العسكرية والاحتلال، وهو التوجه الذي تزعمته بريطانيا؛ وفريق آخر معارض ومندّد بهذا الاحتلال، وهي الحملة التي قادتها فرنسا وألمانيا. وبرز هذا الانقسام أيضًا خلال أزمة أوسيتيا الجنوبية ما بين متفهم لموقف روسيا ومعارض له.

وهذا القول ينطبق أيضًا على روسيا الاتحادية قبل أزمة أوسيتيا الجنوبية؛ نظرًا لحدود دورها على الصعيد الدولي، وحدود سقف المواجهة التي كانت قائمة بينها وبين الولايات المتحدة، والتي عادة ما كانت تقتصر على السلوك اللفظي والدبلوماسي دون أن تتجاوزه إلى المواجهة المباشرة عسكرية كانت أو غير عسكرية.

أما العملاقان الآسيويان: الصين واليابان؛ فإن جُل اهتمامهما ينصرف إلى محيطهما الإقليمي ومجالهما الحيوي المباشر، ولم تمارس أيّ منهما على مر التاريخ دورًا فاعلاً إلا في هذا الإطار. وسوف تتركز المواجهة بينهما وبين الولايات المتحدة مستقبلاً على مصالحهما الاقتصادية والتجارية، والقضايا الإقليمية التي تمسهما مباشرة.

ثانيها: اختفاء التناقض الأيديولوجي، وتطوير مظلة من التفاهم الاستراتيجي بين القوى الكبرى، واستمرار توازنات القوى كمحدد أساسي للعلاقات والتحالفات القائمة بين القوى الكبرى في النظام الدولي، إلى جانب المصالح المتبادلة التي أصبح لها دور محوري أيضًا في هذا الإطار. فمما لا شك فيه أن تزايد الاختلافات ووضوح التناقضات بين القوى الكبرى يعطي الدول المتوسطة والصغرى في النظام حرية أكبر للحركة، وقدرة أكبر على المناورة، إلا إنه في ظل النظام الدولي القائم لا توجد مثل هذه التناقضات بين الولايات المتحدة والقوى الكبرى الأخرى. فجميعها، بما في ذلك روسيا والصين، لها مصالحها وتفاهماتها مع الولايات المتحدة.

صحيح أن هذا أوضح ما يكون في حالة الاتحاد الأوروبي الذي يرتبط عضويًّا واستراتيجيًّا بالولايات المتحدة، وكذلك اليابان التي مازالت تحت النفوذ الأمريكي المباشر منذ الحرب العالمية الثانية. إلا إن روسيا والصين ورغم ما يبديه البلدان من آنٍ لآخر من استياء من الهيمنة الأمريكية واختلاف في المواقف مع الولايات المتحدة تجاه بعض القضايا الدولية والإقليمية، بل وإصدارهما بيانين مشتركين الأول عام ١٩٩٧م، والثاني في يوليو ٢٠٠٥م تضمنا نقدًا صريحًا ومباشرًا لمحاولة دولة واحدة الهيمنة والانفراد بزعامة العالم، والتأكيد على أهمية تعدد القوى في النظام العالمي



الجديد، إلا إن هذا يأتي في إطار توجه عام حاكم لعلاقات البلدين بالولايات المتحدة أكثر ميلاً إلى التعاون والاتفاق منه إلى التناقض والاختلاف. كما أنه عادة ما يأتي دفاعًا عن مصالح مباشرة لهذه الدول اقتصادية كانت أو أمنية.

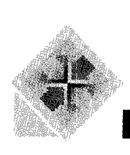
ثالثها: التراجع الواضح في دور الأمم المتحدة كفاعل مستقل في القضايا الدولية والإقليمية. وقد ارتبط هذا ارتباطًا وثيقًا بالهيمنة الأمريكية، وتجاوز الولايات المتحدة لكل ما قد يعيق تنفيذ مخططاتها وسياساتها، حتى وإن كانت الأمم المتحدة ذاتها التي من المفترض أن تمثل إرادة المجتمع الدولي والشرعية الدولية بمعناهما الواسع. ولعل النموذج الصارخ لذلك هو احتلال الولايات المتحدة للعراق بقرار منفرد أحادي الجانب بعد فشلها في استصدار قرار من مجلس الأمن يتيح لها التدخل العسكري في العراق؛ نتيجة معارضة كل من روسيا وفرنسا والصين لذلك. وبدلاً من أن تنصاع الولايات المتحدة لرأي الأغلبية في مجلس الأمن تجاهلت ذلك تمامًا، وقامت باحتلال العراق بقرار منفرد. صاحب ذلك انتهاكات صريحة ومعلنة لحقوق الإنسان وللقانون الدولي الإنساني، الأمر الذي مثّل ردَّة وصدمة لأطروحات حقبة التسعينيات التي سادها التفاؤل بشأن مزيد من الالتزام الدولي بالمواثيق الخاصة بحقوق الإنسان في وقتي السلم والحرب، لاسيما أنها صدرت من الولايات المتحدة التي ارتدت طويلاً عباءة النضال دفاعًا عن حقوق الإنسان.

> بدلاً من أن تنصاع الولايات المتحدة لرأي الأغلبية في مجلس الأمن تجاهلت ذلك تمامًا، وقامت باحتلال العراق بقرار منفرد

رابعها: بروز الدين كأحد عوامل الصراع الدولي بعد غياب دام قرونًا طويلة. فمنذ حرب الثلاثين عامًا والتي بدأت بثورة البروتستانت ضد حاكمهم الكاثوليكي في إحدى الولايات الألمانية، وامتدت لتصبح حربًا دولية بين النمسا وأسبانيا من جانب، وفرنسا والسويد من جانب آخر، وانتهت بصلح وستفاليا عام ١٦٤٨م الذي كان علامة فارقة في تطور العلاقات الدولية. فلم تشهد البشرية منذ ذلك الحين حروبًا أو صراعات ذات أسباب أو صبغة دينية مباشرة. إلا إن وصف الرئيس الأمريكي جورج بوش الاحتلال الأمريكي للعراق على أنها «حرب صليبية جديدة»، وتأكيد وزير خارجيته كولين باول هذا الوصف في مناسبة أخرى، ثم إعلان رئيس الوزراء الإيطالي بيرلسكوني «أنها حرب على الإسلام» الذي لا يلبي - من وجهة نظره- حقوق الإنسان والتعددية والديمقراطية.

كذلك أزمة الرسوم الدنماركية المسيئة للرسول -صلى الله عليه وسلم-، ووصف جورج بوش لمحاولة تفجير طائرات في بريطانيا تم إحباطها في أغسطس ٢٠٠٦م بأنها جزء من الحرب مع «الفاشيين الإسلاميين الذين يستخدمون أي سبيل لتدمير من يحبون الحرية منا، من أجل إيذاء أمتنا». ثم اقتباس بابا الفاتيكان في محاضرة له في سبتمبر من نفس العام بجامعة ريجينسبورج الألمانية لحوارٍ دار في القرن الرابع عشر بين إمبراطور بيزنطي ومثقف فارسي حول دور «نبي الإسلام»، ووصفه للرسول -صلى الله عليه وسلم- فيها بأنه «لم يأت إلا بما هو سيئ وغير إنساني؛ زاعمًا نشر الدين الإسلامي بحد السيف، وأن العقيدة المسيحية تقوم على المنطق، لكن عقيدة الإسلام تقوم على أساس أن إرادة الله لا تخضع للعقل أو المنطق».

مثل هذه التصريحات والمقولات أثارت في كل مرة احتجاجات واسعة في العالم الإسلامي، تضمنت أعمال عنف أعادت للأذهان بعضًا من مشاهد الصراعات والحروب الدينية في أوروبا، وأثارت العديد من التساؤلات حول مدى القدرة على احتواء حالة الغضب في الشارع الإسلامي، وإمكانية تطورها إلى ما هو أعمق وأخطر من الغضب والاستياء الشعبي، لا سيما مع إصرار بعض قيادات الغرب على التعامل مع الإسلام كأيديولوجية وليس كدين سماوي يتبعه ١,٥ مليار شخص في جميع أنحاء العالم.



كمـا أنهـا دعمت لـدى البعض فكـرة الصدام بين الحضـارات التي طرحهـا صموئيل هنتنجتـون،[10] وأن الإسـلام أصبـح هـو العـدو الأول للغـرب بعد سـقوط الشـيوعية، وهزيمتها بانهيار الاتحاد السـوفييتي، وأن الصراع في النظام الدولي الحالي والمسـتقبلي سـيكون صراعًا بين الحضارتين الإسلامية والغربية.

خامسـها: عودة الاسـتعمار في صورته التقليدية. فعلى مـدى نصف قـرن منذ بـدء حـركات التحـرر الوطني مطلع الخمسينيات من القرن العشرين، وحتى الاحتلال الأمريكي للعراق ساد الاعتقاد بأن الاحتلال العسكري المباشـر كان مرحلـة تاريخيـة انقضـت دون عودة، إلا إن احتـلال الولايـات المتحدة للعراق عـام ٢٠٠٣م بهدف أساسـي وهو السـيطرة علـى ثرواته النفطيـة، وتأمين احتياجاتهـا من الطاقـة، كان إيذانًا بعودة الاسـتعمار الغربي على نحو سافر، وإن حروب وصراعات المستقبل سـوف تتمحور حول إمـدادات النفط والغـاز، وتتركز حيث مناطق إنتاجهما وتصديرهما.

سادسـها: عـودة سـباقات التسـلح علـى المسـتويين الإقليمـي والدولـي، رغـم الحديـث عـن التطـور غـير المسـبوق في محادثـات نزع السـلاح، والحد من انتشـار الأسلحة النووية. فالتفجيرات النووية التي أجرتها الهند، ثم باكسـتان في أواخر التسـعينيات، ثم إعلان كوريا الشـمالية عن امتلاكها السـلاح النووي، وسعي إيران لامتـلاك قدرات نووية قد تؤهلها لامتلاك أسـلحة نووية في المسـتقبل القريب يؤكد الاتجاه نحو عودة سـباقات التسـلح بصورة واضحة بين القوى الإقليمية الكبرى. بل وأيضًا ولكـن على نحو أقل تصعيدًا وأكثر هدوءًا بين القوى الدولية الكبرى.

ولعل الاتفاقات التي أبرمتها الولايات المتحدة في ٨ يوليو و١٤ أغسطس ٢٠٠٨م مع كل من التشيك وبولندا بشأن إقامة الدرع المضاد للصواريخ، ورد فعل روسيا الاتحادية على ذلك، وتطويرها التكنولوجيا العسـكرية القادرة على تفريغ المشروع الأمريكي من جدواه؛ حيث تمكنت روسيا في أبريل ٢٠٠٤م من إطلاق صاروخ توبول-إم (إس إس -٢١م٢) ثم (أر إس ٢٤) متعددة الرءوس في ٢٩ مايو ٢٠٠٧م القـادر علـى اخـتراق الـدرع الأمريكـي المزمع إنشاؤه.

على صعيد آخر، تشهد القدرات العسكرية الصينية طفرات ملحوظة، واتجاهًا متزايدًا لتطوير التكنولوجيا العسـكرية بالتعاون مع روسـيا، وبدرجة أقل إسرائيل الـتي تعتـبر البوابة الخلفية لحصول الصـين على التقنية الغربية.

وقد عبر بعض المحللين الأمريكيين عن قلقهم من تنامي القدرات العسكرية لروسيا والصين، وأشار البعض إلى أن التفوق النووي الأمريكي على وجه الخصوص سوف يتراجـع بوضوح خـلال العقدين القادمـين، الأمر الذي سيؤثر حتمًا على ميزان القوى العالمي، ويضع قيودًا على قـدرة الولايات المتحدة على فـرض إرادتها على الصعيد الدولي.[11]

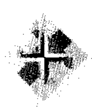
ورغم كون المواجهة الروسـية الجورجية في أغسطس ٢٠٠٨م أزمـة إقليمية، إلا إنها تعتبر نقطة تحول مفصلية وكاشـفة في النظام الدولي وعلاقـات القوى فيه، ولها دلالاتها السياسـية، لاسيما فيما يتعلق بمستقبل النظام الدولي والقوى الفاعلة فيه.

ثانيًا: أزمة أوسيتيا الجنوبية:

أوسيتيا الجنوبية هي جمهورية ذات حكم ذاتي ضمن جمهورية جورجيا، إحدى جمهوريات الاتحاد السوفييتي السـابق التي اسـتقلت عنه مع تفككه في عام ١٩٩١م. وتبلـغ مسـاحتها ٣٩٠٠ كـم٢ (حوالي ٧,٥ من مسـاحة جورجيـا)، ويقطنها حوالي ٧٠ ألف نسـمة معظمهم من الـروس. وتقع أوسـيتيا الجنوبية في قلـب منطقة القوقاز

(١٠) Samuel P. Huntington, The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order, (London : Free) 2002.

(١١) Bradley A. Thayer and Thomas M. Skypek, Russia Goes Ballistic, The National Interest, no. 97, September/October 2008



ذات الأهمية الجيواستراتيجة والنفطية المتزايدة.[12]

وترجع قضية أوسيتيا الجنوبية بجذورها إلى عام ١٩٨٨م عندما تكونت الجبهة الشعبية لأوسيتيا الجنوبية التي أعلنت استقلالها عن جورجيا في ٢٨ نوفمبر ١٩٩١م، وأجرت الاستفتاء الأول على هذا الاستقلال عام ١٩٩٢م لتأكيد الإرادة الشعبية في الاستقلال، الأمر الذي أدى إلى نشوب الصراع المسلح بين القوات الأوسيتية الطامحة في الاستقلال والقوات الجورجية المتمسكة بالإقليم كجزء من جورجيا. ولم تستطع القوات الجورجية إخضاع جمهورية أوسيتيا الجنوبية لسيطرة جورجيا، وظلت تتمتع بدرجة عالية من الاستقلال أكده الاستفتاء الثاني الذي أُجري عام ٢٠٠٦م، وأيد فيه ٩٩٪ من سكان أوسيتيا الجنوبية الاستقلال عن جورجيا. إلا إن جورجيا رفضت هذا الاستفتاء واجتاحت وادي كودوري الأوسيتي، ثم عادت والتزمت باتفاق وقف إطلاق النار بين الجانبين.[13]

وقد اندلعت الأزمة الأخيرة إثر القصف المفاجئ الذي قامت به جورجيا لأوسيتيا الجنوبية، والذي أدى إلى تدمير شبه كامل لعاصمتها تسخينفالي في ليل الثامن من أغسطس ٢٠٠٨م. ويمكن تفهم هذه الخطوة من جانب الرئيس الجورجي ميخائيل ساكاشفيلي بالنظر إلى عدة اعتبارات:

أولاً: الاعتقاد بأهمية إخضاع أوسيتيا الجنوبية ثم أبخازيا في مرحلة تالية للسيطرة الجورجية بالكامل، وإغلاق ملف القضايا الانفصالية في جورجيا، وإثبات تمتعها بالاستقرار كشرط ضروري لانضمامها إلى حلف شمال الأطلنطي، وذلك قبل إعادة طرح الموضوع في قمة الحلف المقررة في ديسمبر ٢٠٠٨م؛ حيث تمت الإشارة إلى ذلك في قمة الحلف في أبريل ٢٠٠٨م التي ناقشت قبول جورجيا في عضويته. فقد اعترض عدد من الدول الأوروبية، وفي مقدمتهم ألمانيا على انضمام جورجيا للحلف ليس فقط لعدم إثارة غضب روسيا، وإنما لعدم تمتع جورجيا بمقومات الانضمام للحلف، وأهمها التمتع بالاستقرار الداخلي، حتى لا يتورط الحلف حال انضمامها مستقبلاً في صراع داخلي.

ثانيًا: الاعتقاد بأن القدرات العسكرية الجورجية التي تطورت على نحوٍ ملحوظ في السنوات الأخيرة بالتعاون مع الولايات المتحدة وإسرائيل أصبحت كافية لمواجهة القوات الأوسيتية الجنوبية والدعم الروسي لها. ففي ٢٩ أبريل ٢٠٠٢م أعلنت الولايات المتحدة عن بدء برنامج GTEP لدعم القدرات الجورجية في مواجهة «الإرهاب»، وتضمن ذلك التزويد بالأسلحة والمعدات العسكرية المختلفة، وتدريب الضباط والجنود. هذا إلى جانب المناورات المشتركة بين الجانبين، ومنها تلك التي عُقدت قبل القصف الجورجي لأوسيتيا مباشرة؛ حيث بدأت في ١٤ يوليو ٢٠٠٨م لمدة ثلاثة أسابيع، وشارك فيها ١٢٠٠ جندي أمريكي، و٨٠٠ جندي جورجي، انطلاقًا من قاعدة فازيان Vaziani قرب العاصمة الجورجية تبليسي. ولا شك أن وجود القوات الأمريكية في جورجيا على هذا النحو، وكذلك التطمينات التي ربما حصل عليها ساكاشفيلي من وزيرة الخارجية الأمريكية خلال زيارتها لتبليسي في ٩ و١٠ يوليو ٢٠٠٨م، أعطت القيادة الجورجية انطباعًا خاطئًا بأن روسيا لن تتدخل بقوة لدعم أوسيتيا الجنوبية، حرصًا على علاقاتها مع الولايات المتحدة.[14]

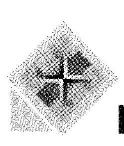
> في ٢٩ أبريل ٢٠٠٢م أعلنت الولايات المتحدة عن بدء برنامج GTEP لدعم القدرات الجورجية في مواجهة «الإرهاب»، وتضمن ذلك التزويد بالأسلحة والمعدات العسكرية المختلفة، وتدريب الضباط والجنود

فقد أخطأ الرئيس الجورجي في تقديره لحجم الدعم

(١٢) القوقاز إقليم جبلي يقع بين البحر الأسود في الغرب وبحر قزوين في الشرق، وكان يقع بالكامل ضمن الاتحاد السوفييتي، ولكن بعد انهياره تقاسم الإقليم حاليًا أربع دول هي: روسيا، وجورجيا، وأذربيجان، وأرمينيا. والقوقاز هو الاسم الشائع للمصطلح الروسي «القفقاس Kaвkaz». وهي منطقة غنية بموارد الطاقة، وأهمها النفط والفحم والغاز الطبيعي. بالإضافة إلى المعادن مثل الحديد والمنجنيز والنحاس والرصاص والتنجستن والزنك.

(١٣) Civil Georgia (online magazine), November 13th,. 2006

(١٤) Civil Georgia (online magazine), July 14th, 2008



الأمريكي المتوقع، وكذلك، والأهم، رد فعل روسيا ومدى دعمها لأوسيتيا الجنوبية. فقد جاء السلوك الروسي حاسمًا دبلوماسيًا وعسكريًا على نحو لم تتوقعه القيادة الجورجية. واستطاعت القوات الروسية إجلاء القوات الجورجية من الأراضي الأوسيتية بل وإقامة منطقة أمنية عازلة حولها داخل الأراضي الجورجية بعمق ١٠ - ١٥ كم.

ورغم أن المحللين الغربيين[١٥]، ووسائل الإعلام الغربية حاولت تصوير الأزمة على أنها اجتياح روسي لجورجيا، فإن واقع تطور الأحداث يشير إلى أن السلوك الروسي كان رد فعل للقصف الجورجي لعاصمة أوسيتيا الجنوبية، والذي اعتبرته روسيا تهديدًا مباشرًا لها ولمصالحها في المنطقة، وذلك بالنظر إلى الاعتبارات التالية:

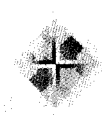
أولاً: الهوية الروسية لأوسيتيا الجنوبية والروابط الإثنية والعرقية بين روسيا والإقليم، فرغم أن أوسيتيا الجنوبية تعتبر من الناحية القانونية جزءًا من جورجيا التي تضم جمهوريتين أخرتين تتمتعان بحكم ذاتي، وتطمحان إلى الاستقلال وهما أبخازيا وأدجاريا، إلا إنها عمليًا، ومن الناحية الفعلية تتمتع بدرجة عالية من الاستقلال، فلها رئيس جمهورية وحكومة وبرلمان وغيرها من المؤسسات السيادية للدولة المستقلة. وهي أكثر ارتباطًا اقتصاديًا واجتماعيًا بموسكو منها بتبليسي. فحوالي من ٧٠- ٨٠٪ من سكان أوسيتيا هم من الروس الذين يحملون بطاقات هوية وجوازات سفر روسية، وتعتبر اللغة الروسية لغة رسمية في أوسيتيا الجنوبية إلى جانب اللغة الأوسيتية، كما أنها تستخدم العملة الروسية، الروبل، في تعاملاتها المالية. ويعتبر الإقليم امتدادًا طبيعيًا لجمهورية أوسيتيا الشمالية الروسية، وكانت الجمهوريتان وحدة واحدة في ظل روسيا القيصرية قبل تقسيمهما إلى جمهوريتين تتبع الشمالية روسيا، وتتبع الجنوبية جورجيا، وذلك في إطار الاتحاد السوفييتي السابق. ومن ثم جاء التدخل الروسي لحماية المواطنين الروس في أوسيتيا الجنوبية انطلاقًا من أن الاعتداء عليهم اعتداء على مواطنين روس.

ثانيًا: اعتبار يتعلق بهيبة الدولة الروسية، ومكانتها إقليميًا ودوليًا. فمن المعروف أن أوسيتيا الجنوبية كانت تحت المظلة الأمنية لقوات حفظ السلام الروسية التي دخلت الإقليم بناء على طلب الرئيس الجورجي السابق إدوارد شيفرنادزة في نوفمبر ١٩٩٣م، الذي منح روسيا أيضًا خمس قواعد عسكرية بعد احتدام الصراع في جورجيا وزيادة سيطرة قوات المتمردين. ولم يكن اعتداء جورجيا على أوسيتيا الجنوبية اعتداءً على المواطنين الروس بها فقط، وإنما اعتداء على قوات حفظ السلام الروسية بالإقليم أيضًا. ومن ثم كان رد فعل روسيا دفاعًا عن قواتها وهيبة ومكانة مؤسستها العسكرية، بل وهيبتها كدولة. كما كانت الأزمة فرصة سانحة لتلقين الرئيس الجورجي ميخائيل ساكشفيلي درسًا و«تأديبه» من وجهة النظر الروسية؛ لمعارضته الصريحة والمعلنة لروسيا وتحديه الواضح لها، ولهفه الشديد للانضمام إلى حلف شمال الأطلنطي، والسماح لقوات الحلف التي هي بالأساس قوات أمريكية بأن تقف على الحدود الروسية في استخفاف واضح بروسيا.

ثالثًا: مقتضيات الأمن القومي الروسي في منطقة القوقاز. فأوسيتيا الجنوبية وكذلك أبخازيا هي منطقة ملاصقة لعدد من الجمهوريات الروسية في منطقة القوقاز ذات النزعات الانفصالية والطامحة للاستقلال عن روسيا ذاتها، وفي مقدمتها الشيشان. ورغم نجاح روسيا في تحقيق الاستقرار في تلك المنطقة، إلا إن استمرار هذا الاستقرار مقترن بإحكام النفوذ الروسي فيما وراء الحدود الروسية، لاسيما في جورجيا التي اتهمتها روسيا دومًا بدعم الانفصاليين في الشيشان.

رابعًا: أمن الطاقة بالنسبة لروسيا وضرورة السيطرة على خطوط نقل البترول والغاز من آسيا الوسطى وبحر قزوين عبر الموانئ الجورجية على البحر الأسود إلى أوروبا، وضمان بقائها تحت النفوذ الروسي. فالصراع

(١٥) Charles King. The Five-Day War: Managing Moscow After the Georgia Crisis, Foreign Affairs, vol. 87, no. 6, November/December 2008.



الدولي الحالي والمستقبلي هو صراع على مصادر الطاقة، وتحديدًا النفط والغاز الطبيعي. وإزاء النفوذ النفطي المتزايد لروسيا في الأسواق الأوروبية أعلن الاتحاد الأوروبي مرارًا عزمه على تقليص دور شركة «غاز بروم» الروسية في إمداد أوروبا بالغاز من خلال اللجوء إلى مصادر أخرى من آسيا الوسطى والقوقاز وإيران.

وتعتبر أذربيجان أقوى المنافسين لروسيا في هذا الصدد؛ حيث تم إنشاء خط أنابيب الغاز «باكو - تبليسي - جيهان» ليس فقط لنقل الغاز الآذري، ولكن القوقازي والتركماني أيضًا إلى ميناء جيهان التركي عبر الأراضي الجورجية إلى أوروبا. وقد أنشئ هذا الخط بمباركة ودعم أمريكي واضح، ورغم المعارضة الروسية القوية له. وقد تردد أن روسيا قامت بقصفه خلال الأزمة الأخيرة في أوسيتيا، وهو ما نفته روسيا. ولا شك أن روسيا تهدف إلى تأكيد وجودها ونفوذها في المنطقة، وتسعى إلى أن تكون أي مشاريع مستقبلية لنقل الطاقة عبر أراضيها، أو على أقل تقدير بالتنسيق معها. يؤكد هذا أيضًا مجموعة الاتفاقات التي انتهى إليها الرئيس الروسي بوتين خلال زيارته لكل من قازاخستان وتركمانستان في مايو ٢٠٠٧م بشأن التنسيق في مجال نقل نفط الدولتين عبر الأراضي الروسية من خلال مشروعات مشتركة مع روسيا.

في ضوء الاعتبارات السابقة يمكن تفهم السلوك الروسي تجاه القصف الجورجي لأوسيتيا الجنوبية، والذي جاء حاسمًا وفعّالاً ومحققًا للمصالح الروسية والأهداف التي حددتها القيادة الروسية، وفي مقدمتها تأكيد وضع روسيا كقوة كبرى قادرة على الدفاع عن مصالحها. ويمكن أيضًا تفهم اعتراف روسيا باستقلال كلٍّ من أوسيتيا الجنوبية وأبخازيا في ٢٦ أغسطس ٢٠٠٨م رغم تباطؤ روسيا وترددها بشأن هذه الخطوة لسنوات طويلة.

فاعتراف روسيا بالجمهوريتين أتاح لروسيا فرصة إقامة قواعد عسكرية، والاحتفاظ بقوات حفظ السلام الروسية فيهما دون الحاجة لموافقة الحكومة الجورجية، وهو الأمر الذي تم بالفعل بمقتضى الاتفاق الذي وقعته روسيا مع أوسيتيا الجنوبية في ٢ سبتمبر ٢٠٠٨م. والذي أصبح نافذًا بعد تصديق البرلمان الروسي (الدوما) على معاهدة الصداقة والتعاون بين روسيا وكل من أوسيتيا الجنوبية وأبخازيا في ٢٩ أكتوبر ٢٠٠٨م. يضاف إلى هذا أن اعتراف الولايات المتحدة وعدد كبير من الدول الأوروبية باستقلال كوسوفو أعطى شرعية للموقف الروسي ومثّل سابقة دولية انطلقت منها روسيا في مواجهة الانتقادات الجورجية والأمريكية لاعترافها بأوسيتيا الجنوبية.

كما كانت المبادئ الستة التي تضمنتها خطة السلام التي تم توقيعها بين روسيا وجورجيا، بوساطة الرئيس الفرنسي الذي تترأس بلاده الاتحاد الأوروبي في الثاني عشر من أغسطس ٢٠٠٨م، انعكاسًا واضحًا للشروط التي وضعتها روسيا، وتمسكت بها داخل مجلس الأمن لوقف إطلاق النار حيث شملت: عدم اللجوء إلى استخدام القوة، والإيقاف التام لجميع العمليات العسكرية، وتأمين وصول المساعدات الإنسانية إلى المحتاجين، وعودة القوات الجورجية إلى مواقع مرابطتها الدائمة، في مقابل خروج القوات الروسية إلى الخط الذي كانت عليه قبل بداية العمليات العسكرية، وبدء مناقشات دولية حول وضع أوسيتيا الجنوبية وأبخازيا المستقبلي[١٦].

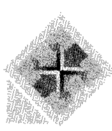
وهو ما يعني أن روسيا، وإن كانت قد أوفت بالتزاماتها؛ حيث انسحبت روسيا بالفعل من المنطقة الأمنية العازلة في الثامن من أكتوبر ٢٠٠٨م، فإنها استطاعت فرض إرادتها ليس فقط على جورجيا، ولكن على الولايات المتحدة حليفها الأساسي التي بدت مكتوفة الأيدي أمام الهيمنة الروسية على إدارة الأزمة. وهو ما يعني أن نظامًا دوليًا جديدًا في طور التشكيل.

ثالثًا: مستقبل النظام الدولي في ضوء أزمة أوسيتيا الجنوبية:

يحفل تاريخ العلاقات الدولية بأزمات مفصلية عديدة مثّلت نقطة تحول في النظام الدولي وعلاقات القوى فيه.

---

(١٦) Novosti Press, August 12th, 2008.



روسيا

جورجيا

عدم اللجوء إلى استخدام القوة.

الإيقاف التام لجميع العمليات العسكرية.

تأمين وصول المساعدات الإنسانية إلى المحتاجين.

عودة القوات الجورجية إلى مواقع مرابطتها الدائمة.

خروج القوات الروسية إلى الخط الذي كانت عليه قبل بداية العمليات العسكرية.

بدء مناقشات دولية حول وضع أوسيتيا الجنوبية وأبخازيا المستقبلي.

المبادئ الستة التي تضمنتها خطة السلام بين روسيا وجورجيا

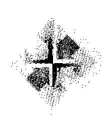
ولم تكن هذه النقاط المفصلية وليدة اللحظة، ولكنها كانت دومًا نتاج عملية تطور للأحداث والتفاعلات وتوازنات القوى. ومنها على سبيل المثال حرب الثلاثين عامًا التي انتهت بصلح وستفاليا عام ١٦٤٨م، وكذلك الحرب الألمانية الفرنسية والهزيمة الموجعة لفرنسا عام ١٨٧٠م، وفي العصر الحديث الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥م)، ثم ما يُعرف بانتهاء الحرب الباردة بانهيار الاتحاد السوفييتي عام ١٩٩١م.

ورغم أن المواجهة الروسية الجورجية التي اندلعت إثر القصف الذي قامت به جورجيا لأوسيتيا الجنوبية في ليل الثامن من أغسطس ٢٠٠٨م، تبدو أزمة إقليمية ولا ترقى بالمعايير العسكرية إلى الأزمات الدولية السابق الإشارة إليها، إلا إنها لا تقل عنها من حيث دلالاتها السياسية، لاسيما فيما يتعلق بمستقبل النظام الدولي والقوى الفاعلة فيه، والتي يمكن إيجازها في بُعدين أساسيين:

(١) عودة روسيا إلى مصافّ القوى الكبرى الفاعلة في النظام الدولي:

عقب حقبتي الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين، واللتين شهدتا انهيارًا سريعًا في القدرات الروسية الاقتصادية والعسكرية، ودرجة حادة من عدم الاستقرار السياسي لم تشهدها روسيا منذ انتهاء الحرب الأهلية، وإعلان قيام الاتحاد السوفييتي مطلع العشرينيات من القرن الماضي، أوضحت الأزمة أن روسيا استعادت مكانتها كقوة كبرى قادرة على الدفاع عن مصالحها وحلفائها، وفرض إرادتها في هذا الخصوص.

فلقد التزمت روسيا الصمت طويلاً إزاء التدخل الأمريكي في المجال الحيوي لها، والمتمثل في جمهوريات الاتحاد السوفييتي السابق، والذي اتخذ أبعادًا ليس



فقط اقتصادية، ولكن وهو الأهم والأخطر التدخل العسكري المباشر في صورة قواعد عسكرية، وتعاون عسكري واسع النطاق مع عدد من هذه الدول، وفي مقدمتها جورجيا. فلم تكن روسيا في ذلك الوقت في وضع يسمح لها بمواجهات عنيفة، ولو دبلوماسية، مع الولايات المتحدة. ولم تكن قد تعافت بعدُ من كبوتها على النحو الذي تتيح لها قدراتها الاقتصادية والعسكرية وعلاقاتها مع القوى الأوروبية الكبرى مثل هذه المواجهة مع الولايات المتحدة.

في هذا الإطار، اتسم السلوك الروسي على الصعيد الخارجي لاسيما منذ وصول الرئيس بوتين إلى السلطة عام ٢٠٠٠م بالحذر، وعدم إطلاق التهديدات أو الدخول في مواجهات غير محسوبة أو مأمونة النتائج مع الولايات المتحدة. ومن ثم فإن الموقف الروسي من الأزمة في أوسيتيا الجنوبية إنما يعكس تغيرًا حقيقيًا له دلالاته فيما يتعلق بالسياسة الروسية من ناحية وتوازن القوى الدولية من ناحية أخرى.

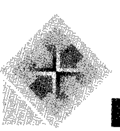
> الموقف الروسي من الأزمة في أوسيتيا الجنوبية إنما يعكس تغيرًا حقيقيًا له دلالاته فيما يتعلق بالسياسة الروسية من ناحية، وتوازن القوى الدولي من ناحية أخرى

فرغم تصاعد حدة السلوك اللفظي من جانب الولايات المتحدة، وتهديدها ووعيدها بمعاقبة روسيا وعزلها عن العالم، فإن شيئًا من هذا لم يحدث، ولم تفلح هذه التهديدات في إثناء روسيا عن موقفها. فإزاء التهديد الأمريكي بضم جورجيا إلى حلف الأطلنطي مستقبلاً، وما صاحبه من مناورات أمريكية أوكرانية في البحر الأسود، والمضي قدمًا في مشروع الدرع المضاد للصواريخ مع بولندا والتشيك، الذي تعتبره روسيا موجهًا إليها وتهديدًا مباشرًا لأمنها القومي، وكذلك السلوك اللفظي المتغطرس للرئيس الأمريكي ووزيرة خارجيته تجاه روسيا والذي لم يعد مقبولاً ليس فقط من جانب روسيا، بل ومن العالم أجمع؛ ثبتت روسيا على موقفها بل وصعّدت من ردود أفعالها هي الأخرى، وذلك بتوعد بولندا بإمكانية استخدام السلاح النووي ضدها، وتعليق تعاون روسيا مع حلف الأطلنطي، ثم الاعتراف باستقلال كل من أوسيتيا الجنوبية وأبخازيا في خطوة كانت بعيدة تمامًا عن كافة التقديرات والتوقعات.

فقد عكست الأزمة رغبة القيادة الروسية في التأكيد على كون روسيا لاعبًا دوليًا لا يمكن تجاوزه، أو اختراق دائرة أمنه القومي، وهي محاولة من جانب روسيا لاستعادة بعض مواقع النفوذ التي فقدتها منذ سقوط الاتحاد السوفييتي، وتصحيح الخلل في توازن القوى مع الولايات المتحدة إلى علاقة أكثر تكافؤًا بين شريكين على قدم المساواة في إطار نظام متعدّد القوى ينهي الاحتكار والانفراد الأمريكي في إدارة الشأن الدولي.

وكما كانت جورجيا هي أول موطئ قدم للولايات المتحدة في منطقة الكومنولث، ومنها انتقلت الثورة الوردية كأول ثورة ملونة بدعم أمريكي في نوفمبر ٢٠٠٣م، ليس فقط ضد النظم التسلطية، ولكن ضد النفوذ الروسي، إلى أوكرانيا عام ٢٠٠٤م ثم قيرجيزستان عام ٢٠٠٥م، فإن تحجيم النفوذ الأمريكي بها سيكون بداية الانحصار والانكسار الأمريكي في المنطقة بأسرها. وقد عبر وزير الخارجية سيرجي لافروف صراحة عن ذلك في قوله: «إننا ندرك أن جورجيا الحالية وليدة لمشروع الولايات المتحدة الخاص، كما ندرك أن الولايات المتحدة قلقة على مصير هذا المشروع».

ساعد على ذلك التحسن الملحوظ في أداء الاقتصاد الروسي منذ عام ٢٠٠٠م، والذي وصل إلى حد الطفرة؛ حيث حقق الاقتصاد الروسي معدل نمو بلغ حوالي ٧٪ سنويًا منذ عام ٢٠٠٣م، وفائضًا في الميزان التجاري على مدى السنوات الأخيرة وصل خلال الفترة من يناير - مايو ٢٠٠٨م فقط إلى ٨٤٫١ مليار دولار، وفائضًا في الميزانية الفيدرالية بلغ ٧٥ مليار دولار عام ٢٠٠٧م. كما تحتفظ روسيا بثالث أكبر احتياطي عالمي من الذهب والعملات



الصعبة (٥٩٧,٣ مليار دولار في أغسطس ٢٠٠٨م).[١٧] كذلك، استعادت المؤسسة العسكرية الروسية هيبتها وانضباطها، وتطورت قدراتها العسكرية بشكل ملحوظ، واستعادت مكانتها كأكبر مُصدر للسلاح في العالم. فاستطاعت روسيا إعادة طرح نفسها كقوة «أوروبية» كبرى ذات عمق آسيوي كما كان عليه الحال في العهد القيصري. وقد كان انضمام روسيا إلى مجموعة الدول الصناعية الكبرى لتتحول إلى مجموعة الثمانية في يونيو ٢٠٠٢م، واستضافتها ورئاستها لقمة المجموعة عام ٢٠٠٦م دلالة واضحة على استعادة روسيا لمكانتها في مصافّ القوى الكبرى، وهو الهدف الذي سعى إليه الرئيس بوتين منذ توليه السلطة.

في هذا الإطار جاء رد الفعل الروسي على الهجوم الجورجي على أوسيتيا الجنوبية حاسمًا إلى حد أذهل الكثيرين. فروسيا لأول مرة منذ سبعينيات القرن الماضي في مواجهة مباشرة مع النفوذ الأمريكي، وفي إصرار وعزم واضح على حماية مصالحها في منطقة كانت جزءًا منها حتى زمن ليس ببعيد، مؤكدة قدراتها ومكانتها كقوة كبرى.

(٢) إرهاصات توازن جديد للقوى في إطار نظام دولي تعددي:

إن تحدّي روسيا الواضح للضغوط الأمريكية، والذي بدا غير متوقع، ليس فقط من جانب جورجيا بل والولايات المتحدة ذاتها، واستمرار التصعيد بين البلدين، يشير إلى بداية الانكسار الأمريكي، وانتهاء الهيمنة الأمريكية على الشئون الدولية والإقليمية، ربما لأسباب أخرى لا علاقة لها بالأزمة في أوسيتيا، منها مشكلاتها الداخلية الاقتصادية والاجتماعية، والتي بدأت تطفو على السطح تدريجيًا إلى جانب فشلها في إدارة حملاتها العسكرية في أفغانستان والعراق. وهو أمر يبدو طبيعيًا، فتتبع تاريخ العلاقات الدولية وتطورها يؤكد على أن سيطرة أي قوة على قمة النظام الدولي مهما طالت مدتها إلى زوال.

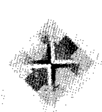
ولعل أزمة أوسيتيا الجنوبية في ذلك تشبه إلى حد كبير أزمة العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦م، والتي كشفت بوضوح التغير في النظام الدولي آنذاك، وكانت إحدى علامات هذا التغير، وذلك بانتقاله من نظام تعددي إلى نظام ثنائي القطبية. فضغط القوتين العظميين، الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة، على فرنسا وبريطانيا لوقف القتال والانسحاب من مصر كان أول مؤشر واضح على أن الدولتين لم تَعُدا على قمة النظام الدولي، ولا سيدتا قرارهما، وأنهما صارا قوًى «من الدرجة الثانية» إذا جاز التعبير، وليسوا قوى كبرى مستقلة كما كان عليه الحال في فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية، وأنهما أصبحتا «تابعتين» بدرجة أو أخرى لنفوذ قوة عظمى تحتل قمة المعسكر الغربي، وهي الولايات المتحدة.

فأزمة أوسيتيا الجنوبية تعتبر هي أيضًا أزمة كاشفة ونقطة تحول مفصلية، تشير إلى بدء تغير حقيقي في هيكل النظام الدولي، نحو نظام متعدد القوى على غرار ذلك الذي ساد العلاقات الدولية في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين.

وتعتبر روسيا فاعلًا محوريًا في هذا النظام، فرغم أن التناقض الأيديولوجي انتفى بين الولايات المتحدة وروسيا بانهيار الاتحاد السوفييتي، ورغم وجود مصالح وتفاهمات مشتركة بين البلدين، إلا إن التناقض الحضاري والمصلحي مازال قائمًا بينهما. ومن ثم فإن الصراع الدولي سوف يستمر بينهما وسوف يكون أكثر وضوحًا في منطقة المجال الحيوي لروسيا المتمثلة في جمهوريات الاتحاد السوفييتي السابق؛ حيث ثاني أكبر احتياطي نفطي بعد منطقة الشرق الأوسط في منطقة بحر قزوين. فالصراع في المستقبل هو صراع على مصادر الطاقة. ولم يكن وجود الولايات المتحدة في الخليج واحتلالها للعراق، وتدخلها في منطقة الكومنولث إلا لهذا الهدف.

كما بدا واضحًا أيضًا أن تقاربًا متزايدًا وربما تحالفًا مستقبليًا بدأ في التطور بين روسيا وعدد من الدول

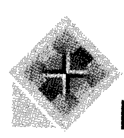
(١٧) Novosti Press, August 22nd, 2008.



الأوروبية التي تشهد نموًا في القوى اليمينية الطامحة لدور أوسع نطاقًا وأكثر استقلالية عن الولايات المتحدة، وفي مقدمتها ألمانيا وفرنسا وإيطاليا وربما أسبانيا أيضًا. وفي أثناء قمة حلف الأطلنطي في أبريل ٢٠٠٨م عند بحث انضمام أوكرانيا وجورجيا إلى الحلف عارضت ألمانيا وفرنسا وأسبانيا وإيطاليا والبرتغال وهولندا وبلجيكا ولوكسمبورج ضم الدولتين إلى خطة العمل لنيل العضوية، التي تعتبر مرحلة إلزامية على طريق الانضمام إلى الحلف؛ تجنبًا لإفساد علاقاتها مع روسيا. وهو أمر يدل على تنامي التناقضات بين أوروبا والولايات المتحدة من ناحية، وعلى التقارب بين روسيا وعدد من الدول الأوروبية الهامة والمؤثرة على الساحة الأوروبية من ناحية أخرى.

فالاتحاد الأوروبي، وعلى خلاف ما يتوقعه الكثيرون، لن يتمكن من لعب دور سياسي يعتد به كفاعل دولي للاعتبارات السابق الإشارة إليها، وربما يستمر كعملاق اقتصادي إلا إنه لن يستطيع الوصول إلى رؤية موحدة وأولويات مشتركة فيما يتعلق بشئونه الخارجية والأمنية، وستظل للأولويات الوطنية الغلبة في هذا الصدد، خاصة مع التوسع المطرد في عضويته، وفي هذا الإطار سوف يحدث حتمًا تقارب وتفاهم بين روسيا وعدد من الدول الأوروبية الكبرى.

إن المواجهة التي بدأت بين روسيا والولايات المتحدة خلال أزمة أوسيتيا الجنوبية هي إيذان ببدء حقبة جديدة في العلاقات الدولية تتسم بتعدد القوى؛ حيث تتراجع الهيمنة الأمريكية، وتلعب روسيا وربما الصين وعدد من الدول الأوروبية دورًا مهمًا وفعالاً في الشئون الدولية والإقليمية. وسوف تتضح معالم هذا التغيير، وتتأكد خلال السنوات القادمة، وما تنطوي عليه من تفاعلات لاسيما بين روسيا والولايات المتحدة.



معلومات إضافية

أهم الأحداث منذ اندلاع الحرب، وحتى اعتراف موسكو باستقلال أوسيتيا الجنوبية وأبخازيا:

الجمعة ٨ أغسطس ٢٠٠٨م:

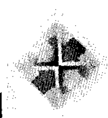
- هجوم جورجي على أوسيتيا الجنوبية. ومعارك عنيفة بين القوات الأوسيتية والجورجية حول العاصمة تسخينفالي شارك فيها الطيران.
- عمليات قصف روسية لمدينة غوري الجورجية ومطار مارنيولي العسكري بشرق جورجيا.
- موسكو تندد بحالات «التطهير العرقي».
- نداءات دولية لوقف الأعمال العسكرية.
- اجتماع غير ناجح لمجلس الأمن الدولي للتوصل لقرار بشأن الأزمة.

السبت ٩ أغسطس:

- اندلاع معارك عنيفة في أوسيتيا الجنوبية وروسيا تقصف غوري ومرفأ بوتي الجورجي على البحر الأسود.
- جورجيا تعتبر نفسها في «حالة حرب»، وتأمر بسحب جنودها البالغ عددهم ٢٠٠٠ جندي من العراق.
- هجوم قوات أبخازيا على ممرات كودوري الجزء الوحيد في المنطقة الانفصالية الخاضع لسيطرة الجورجيين.
- رئيس الوزراء الروسي فلاديمير بوتين يبرر التدخل الروسي «بالسياسة الإجرامية» التي تنتهجها جورجيا.
- جورجيا تطلب «مساعدة دولية عاجلة».
- الاتحاد الأوروبي يحذر روسيا مؤكدًا أن استمرار العمليات العسكرية «سيؤثر» على علاقاتهما.
- فرنسا تدعو إلى اجتماع وزراء خارجية الاتحاد الأوروبي الأربعاء، وترسل وزير خارجيتها برنار كوشنر في مهمة وساطة للخروج من الأزمة.
- دول البلطيق الثلاث، ليتوانيا وأستونيا ولاتفيا مع بولندا تطالب الاتحاد الأوروبي والحلف الأطلسي بمعارضة «السياسة الإمبريالية» لروسيا.
- فشل اجتماع جديد لمجلس الأمن الدولي، والأمين العام للأمم المتحدة يدعو إلى إنهاء العمليات العسكرية.
- أذربيجان تعلق صادراتها النفطية عبر المرافئ الجورجية.
- الرئيس الجورجي ميخائيل ساكاشفيلي يقترح وقفًا لإطلاق النار على روسيا التي تطالب بانسحاب القوات الجورجية من منطقة النزاع.

الأحد ١٠ أغسطس:

- استمرار المعارك العنيفة في أوسيتيا الجنوبية وعمليات قصف روسية لممرات كودوري على مرفأ بوتي، ولمطار عسكري قرب تبليسي.
- تبليسي تعلن إرسال ١٠٠٠ جندي روسي إضافي وسفن حربية إلى جورجيا.
- السلطات الأوسيتية الجنوبية تعلن سقوط ١٦٠٠ قتيل في تسخينفالي، والسفارة الروسية في تبليسي تقول: إن «ما لا يقل عن ٢٠٠٠ مدني» قتلوا. وتبليسي تقدر الخسائر الجورجية بـ٩٢ قتيلاً.
- تسخينفالي تخضع لسيطرة الجيش الروسي، وجورجيا تسحب قواتها من أوسيتيا الجنوبية وتطالب بوساطة الولايات المتحدة.



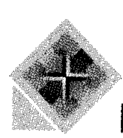
- اتفاق بين روسيا وجورجيا على إقامة ممرات إنسانية لإجلاء الجرحى واللاجئين.
- البيت الأبيض يحذر روسيا من أن «تصعيدها غير المتكافئ والخطير» للنزاع في أوسيتيا الجنوبية سينعكس بشكل كبير على علاقاتهما.
- مرسوم صادر عن الرئيس الأبخازي سيرغي باغابش يعلن أبخازيا في «حالة حرب» على جزء من أراضيها الأحد لمدة عشرة أيام.
- ميدفيديف يندد بما وصفه بـ«إبادة» في أوسيتيا الجنوبية.
- ساكاشفيلي يدعو الحلف الأطلسي والأمم المتحدة والولايات المتحدة إلى مساعدة بلاده. وتبليسي تدعو روسيا إلى الشروع في مفاوضات، وتأمر قواتها بوقف إطلاق النار. وفي المقابل موسكو تؤكد أن القوات الجورجية تابعت إطلاق النار.
- أبخازيا تقول: إن جورجيا حشدت ٤٠٠٠ جندي على امتداد حدودهما، وسلطات جورجيا تتهم موسكو بقصف مطار تبليسي الدولي وروسيا تنفي.
- اتصال مباشر بين وزيري خارجية روسيا وجورجيا.
- تبليسي تسحب ١٠٠٠ جندي من العراق على أن تستكمل سحب سائر جنودها لاحقًا.
- واشنطن تتهم موسكو بالسعي لإسقاط النظام الجورجي، وشن حملة «ترهيب» في جورجيا، وموسكو ترفض هذه الاتهامات.
- وزارة الدفاع الروسية تعلن إغراق سفينة حربية جورجية قاذفة للصواريخ كانت تحاول مهاجمة سفن حربية روسية.
- اللجنة الدولية للصليب الأحمر تعلن نزوح حوالي ٤٠ ألف شخص عن ديارهم جراء النزاع.
- رئاسة الأركان الروسية تعلن أن جورجيا تسحب قواتها من تسخينفالي عاصمة أوسيتيا الجنوبية التي بسطت قوات حفظ السلام الروسية سيطرتها على «القسم الأكبر منها».
- وزير الخارجية الفرنسي برنار كوشنر يصل تبليسي، ويدعو إلى إيجاد وسائل من أجل وقف إطلاق النار فورًا في النزاع القائم بين جورجيا وروسيا، ويقدم خطة سلام من ثلاث نقاط يدعمها الاتحاد الأوروبي.

الاثنين ١١ أغسطس:

- مقتل وإصابة عدة جنود روس في قصف جورجي لعاصمة أوسيتيا الجنوبية.
- الطيران الروسي يقصف قاعدة عسكرية في ضاحية العاصمة الجورجية تبليسي. وأكثر من ٥٠ طائرة للقوات الروسية تحلق فوق الأراضي الجورجية.
- وزارة الداخلية الجورجية تعلن أن مدينة غوري الجورجية تتعرض لقصف «كثيف» من المدفعية والطيران الروسيين، وأن قوات برية تستعد لشن هجوم عليها.
- الرئيس ميدفيديف يعلن انتهاء العملية العسكرية الروسية.
- القيادة العسكرية الروسية تعلن توقف تقدم قواتها، لكنها ستبقى في المواقع التي تتمركز فيها.
- روسيا وجورجيا تقبلان خطة السلام التي عرضها الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي، وتنص على انسحاب كامل من جانب القوات الروسية والجورجية، مع رفض تبليسي مفاوضات لاحقة حول وضع أبخازيا وأوسيتيا الجنوبية.

الثلاثاء: ١٢ أغسطس:

- الدبابات والمدرعات الروسية تقوم بدوريات في غوري، وسكان في المدينة يتحدثون عن أعمال نهب.



الأربعاء ١٣ أغسطس:

- الرئيس الأمريكي جورج بوش يؤكد تمسكه بوحدة وسلامة أراضي جورجيا.

الجمعة ١٥ أغسطس:

- الرئيس الجورجي يوقع اتفاق وقف إطلاق النار مع روسيا خلال زيارة وزيرة الخارجية الأمريكية كوندوليزا رايس التي حملت إليه توضيحات من الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي حول بعض بنود الاتفاق.

السبت ١٦ أغسطس:

- الرئيس الروسي يوقع خطة وقف إطلاق النار.
- القوات الروسية تعزز وجودها في الأراضي الجورجية، وتتمركز على بعد حوالي ثلاثين كيلو مترًا من العاصمة تبليسي.

الأحد ١٧ أغسطس:

- الغرب يصعّد لهجته حيال موسكو؛ لتنهي وجودها العسكري في جورجيا، والمستشارة الألمانية أنجيلا ميركل تؤكد أن جورجيا «ستصبح عضوًا في حلف شمال الأطلسي».

الاثنين ١٨ أغسطس:

- موسكو تؤكد أنها بدأت سحب قواتها، وتبليسي تتهمها بانتهاك شروط وقف إطلاق النار والتوغل أكثر داخل أراضيها.

الثلاثاء ١٩ أغسطس:

- اجتماع طارئ لحلف شمال الأطلسي على مستوى وزراء الخارجية في العاصمة البلجيكية.
- موسكو تنتقد إعلان الحلف الأطلسي الذي أكد أنه لا يستطيع مواصلة علاقاته مع روسيا «وكأن شيئا لم يكن».

الأربعاء ٢٠ أغسطس:

- موسكو تعلن استمرار سحب قواتها من روسيا وسط تشكيك غربي، وتجمد تعاونها العسكري مع الناتو.

الخميس ٢١ أغسطس:

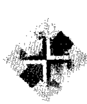
- أبخازيا وأوسيتيا الجنوبية تطلبان من روسيا الاعتراف باستقلالهما.

الجمعة ٢٢ أغسطس:

- روسيا تعلن استكمال سحب قواتها من جورجيا، وتبليسي تنفي، وواشنطن وباريس تتهمان موسكو بعدم الالتزام بخطة وقف إطلاق النار.

السبت ٢٣ أغسطس:

- هيئة الأركان الروسية تعرض خريطة بالمواقع التي ستحتفظ بها القوات الروسية على الطريق الاستراتيجي الواصل بين العاصمة تبليسي والبحر الأسود، وتتهم جورجيا بالإعداد لعمليات عسكرية جديدة ضد أوسيتيا الجنوبية.



الأحد ٤٢ أغسطس:

- الرئيس الفرنسي يدعو نظيره الروسي إلى سحب قواته سريعًا من مرفأ بوتي الجورجي المطل على البحر الأسود.
- انفجارات عنيفة في عاصمة أوسيتيا الجنوبية تسخينفالي قيل: إنها لذخيرة جورجية صودرت أثناء الحرب.

الاثنين ٢٥ أغسطس:

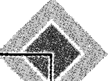
- البرلمان الروسي بمجلسيه يؤيد بالإجماع الاعتراف باستقلال جمهوريتي أبخازيا وأوسيتيا الجنوبية.
- جورجيا تندد بقرار البرلمان الروسي، وتحذر من نتائجه «الكارثية».
- ميدفيديف يهدد بقطع العلاقات مع حلف شمال الأطلسي.

الثلاثاء ٢٦ أغسطس:

- الرئيس الروسي يوقع مرسومين فيما يتعلق باعتراف الاتحاد الروسي باستقلال إقليمي أبخازيا وأوسيتيا الجنوبية عن جورجيا.

المصدر:

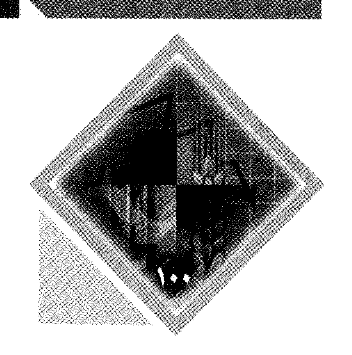
موقع «الجزيرة نت» http://www.aljazeera.net



الباب السادس
قضايا اقتصادية







الأزمة المالية العالمية المعاصرة والنظام الإسلامي البديل

أ. د. رفعت السيد العوضي

أستاذ الاقتصاد بكلية التجارة - جامعة الأزهر

ملخص الدراسة

إن النظام الرأسمالي هو نظام الأزمة الاقتصادية. وإذا راجعنا على وجه التحديد تاريخ النظام الرأسمالي منذ عام ١٩٢٩م؛ حيث حدثت الأزمة الكبرى، وإلى اليوم حيث وقعت الأزمة التي يعيشها العالم، فإن هذه المراجعة تكشف عن أن النظام الرأسمالي يولّد دائمًا أزمة، وهذا يبرر أن نطلق عليه أنه نظام الأزمة.

ولا يمكن أن نقول: إن الأزمة المالية العالمية المعاصرة وُلدت فجأة في هذا العام ٢٠٠٨م، بل القول الصحيح المؤسس على فهم صحيح هو: أن هذه الأزمة في اتصال مباشر مع الأزمات التي يعيشها النظام الرأسمالي طوال تاريخه.

إن للأزمة أسبابًا كثيرة ومتداخلة ومعقدة، والتشابك فيها واضح وكبير، حتى إنه في أحيان كثيرة يصعب التمييز بين السبب والنتيجة، وبين المؤثر والمتأثر، ولعل من أهم أسبابها الخلل في أداء مؤسسات التمويل في الولايات المتحدة الأمريكية، والفساد الذي انتشر في المؤسسات الاقتصادية في الولايات المتحدة، بجانب (الشلل) الذي أصاب مجموعة البنوك التي تقوم بوظيفة البنك المركزي. ومع أن الركود أصبح نتيجةً للأزمة المالية ولكن يمكن القول: إن الركود نفسه كان من أسباب الأزمة المالية.

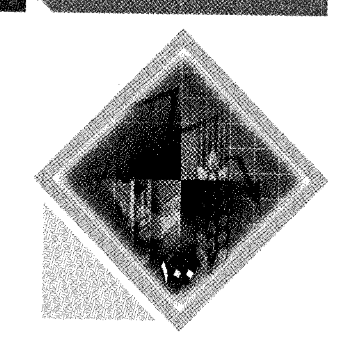
ورغم أن أسباب الأزمة على صلة مباشرة بالواقع الأمريكي، لكن الأزمة انتشرت في العالم كله؛ نتيجة التشابك المخيف بين اقتصادات دول العالم الذي أقامته العولمة الرأسمالية والمنظمات الاقتصادية الدولية.

وإذا انتقلنا إلى تقويم فعالية آراء المدارس الاقتصادية في تكوين التراكم الرأسمالي، وبحثنا في مدى فعالية نظام الفائدة؛ فإن ما يشوبهما من مشكلات سيقودنا إلى طرح النظام الإسلامي كبديل فاعل للنظام الرأسمالي الذي تسبب في الأزمة.

وعندما ننتقل إلى الحديث عن الإسلام؛ فإنه يجب أن ندخل إلى ذلك من المدخل الصحيح؛ وهو أن الإسلام لا يقدم علاجًا للأزمة، بل إن الإسلام يقدم نظامًا بديلاً؛ بحيث إن هذا النظام لا يولّد الأزمة.

ومن ذلك أن الإسلام يقدم المشاركة كنظام بديل لنظام الفائدة -الذي كان أحد الأسباب الرئيسة للأزمة المالية-؛ حيث اشتراط المشاركة في المعاملات الإسلامية، وهو الاشتراط الذي يستلزم توجيه رأس المال النقدي إلى النشاط الإنتاجي الحقيقي، هذا الاشتراط يستهدف الإنتاج، والإنتاج بدوره هو أحد الأدوات التي تُستخدم لتحقيق تقدم الاقتصاد، وكذا استقراره.





الأزمة المالية العالمية المعاصرة والنظام الإسلامي البديل

أ. د. رفعت السيد العوضي
أستاذ الاقتصاد بكلية التجارة - جامعة الأزهر

تمهيد:

هذا البحث دراسة في الأزمة الاقتصادية التي تجتاح العالم الآن، ويطلقون عليها اسم الأزمة المالية. وفي رأيي أن هذه الأزمة لها تكييفان، وبعبارة أخرى يجب التعامل معها من مدخلين: المدخل الأول أنها أزمة مالية، والمدخل الثاني أنها أزمة نظام اقتصادي، وأعني به نظام الرأسمالية الذي يطبّق منذ عام ١٩٨٩م باسم العولمة.

هذا البحث يقتصر على تناول الأزمة من حيث كونها أزمة مالية. ولكن لأهمية التعامل مع الأزمة على أنها أزمة نظام اقتصادي، وهو النظام الرأسمالي – لأهمية ذلك التكييف للأزمة أشير إليه في هذا التمهيد – مجرد إشارة – وذلك للتعريف به.

الارتباط بالاقتصاد الإسلامي أرشد منذ اللحظة الأولى إلى أنها أزمة نظام اقتصادي؛ أي أزمة في النظام الاقتصادي الذي يشتمل في مكوناته على نظام التمويل الذي انطلقت منه الشرارة الأولى للأزمة.

مع تداعيات الأزمة تأكدت رؤى المشتغلين بالاقتصاد الإسلامي من أن الأزمة هي أزمة نظام اقتصادي، ومن الأحداث التي أكدت ذلك حديث ساركوزي رئيس فرنسا عن أن العالم يحتاج إلى رأسمالية رحيمة، وهذه الكلمة (رحيمة) حبلى بكل مساوئ الرأسمالية، والوصول إليها يعني تغييرًا جوهريًّا في الرأسمالية.

وأيضًا من الأحداث التي أكدت أنها أزمة تصريح بوش رئيس الولايات المتحدة الأمريكية من أنه لا يجوز أن نجعل الأزمة سببًا في سحب الثقة من نظام الحرية الاقتصادية، وهذا الحديث تناقلته وكالات الأنباء مرات كثيرة، ويعني كلام رئيس الولايات المتحدة الأمريكية أن هناك ربطًا بين الأزمة وكفاءة النظام الرأسمالي[1].

مما يؤكد أن الأزمة هي أزمة نظام اقتصادي بعضُ الإجراءات التي اتُّخِذَت في العالم الغربي لمواجهة الأزمة، من ذلك تأميم بنوك، وضمان الودائع بالبنوك.

أيضًا مما يؤكد أنها أزمة نظام اقتصادي إعادة الاهتمام ببعض الكتابات التي ظهرت سابقًا عن مساوئ نظام الحرية الاقتصادية، ومن ذلك كتابات المفكر الأمريكي ناعوم تشومسكي، ومن آرائه أن سياسة الجشع والعدوان المتأصلتين في المجتمع الأمريكي من أسبابها نظام الحرية.

---

(١) انظر: فرنسيس فوكوياما، نهاية التاريخ والإنسان الأخير، ترجمة.



ختامًا لهذا التمهيد يمكن القول: إن النظام الرأسمالي هو نظام الأزمة الاقتصادية. وإذا راجعنا على وجه التحديد تاريخ النظام الرأسمالي منذ عام ١٩٢٩م؛ حيث حدثت الأزمة الكبرى وإلى اليوم حيث وقعت الأزمة التي يعيشها العالم، فإنه هذه المراجعة تكشف عن أن النظام الرأسمالي يولد دائمًا أزمة، وهذا يبرر أن نطلق عليه أنه نظام الأزمة.

على نحو ما سبق إليه الإشارة؛ فإنني أقتصر في بحث هذه الأزمة على أنها أزمة مالية، وليس الهدف من هذا البحث هو مجرد التعريف بهذه الأزمة، وإنما التعريف بالنظام الإسلامي الذي إذا طُبّق لا ينتج أزمة، ولذلك سوف يتضمن البحث تعريفًا بهذا النظام البديل. ومن البداية أرى أن يكون واضحًا أنني لا أقدم علاجًا إسلاميًا للأزمة في إطار النظام الرأسمالي، وإنما أقدم نظامًا إسلاميًا بديلاً.

بناء على ما سبق فإن الخطة المقترحة للبحث ستكون على النحو الآتي:

القسم الأول: الأزمة المالية العالمية المعاصرة

أولاً: في أسبابها وتداعياتها.

ثانيًا: في تكييف الأزمة.. أزمة نظام تمويل.

ثالثًا: في علاج الأزمة (المالية) في إطار الفكر المعاصر.

رابعًا: آلية التراكم الرأسمالي.. رؤية تحليلية انتقادية.

خامسًا: مناقشة حول صلاحية نظام الفائدة.

سادسًا: علاقة الادخار - الدخل.

سابعًا: نظريات ادخار المنشأة.

القسم الثاني: البديل الإسلامي في إطار علاج الأزمة المالية العالمية المعاصر:

أولاً: التراكم الرأسمالي في الاقتصاد الإسلامي.

ثانيًا: مقابلة بين نظرية التراكم الرأسمالي في الاقتصاد الإسلامي وفي الاقتصاد الوضعي.

ثالثًا: المشاركة.. النظام البديل لنظام الفائدة.

القسم الأول

الأزمة المالية العالمية المعاصرة

تمهيد:

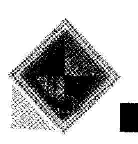
أحاول في هذا القسم مناقشة عناصر في الأزمة المالية العالمية المعاصرة. والمتتبع للكتابات عن هذه الأزمة يجد أنها تتناول عناصر كثيرة، ولكني سوف أقتصر على دراسة عناصر في هذه الأزمة بالقدر الذي يعطي تعريفًا بها: أسبابًا وتداعيات واقتراحات للعلاج، كما سأحاول التعريف بأدبيات اقتصادية تتعلق بهذا الموضوع.

أولاً: في أسباب الأزمة وتداعياتها:

الأزمة التي يعيشها العالم، والتي اصطُلح على تسميتها باسم الأزمة المالية العالمية المعاصرة، لم تولد فجأة؛ بحيث يقال: إنها وُلدت في هذا اليوم أو هذه اللحظة وهكذا. هذه الأزمة وأمثالها لا يتلاءم معها مثل هذا التكييف البسيط؛ ذلك أن الأمور في هذه الأزمات تكون معقدة بل شديدة التعقيد؛ حيث تتداخل فيها أمور اقتصادية مع أمور سياسية مع أمور عسكرية. (الإنفاق على الحروب التي تشنها الولايات المتحدة الأمريكية على العالم الإسلامي)، بل تذهب بعض التحليلات للأزمة إلى دخول أمور تتعلق بالعِرْق أو الجنس والحضارة الغربية المسيطرة الآن في مقابل حضارات أخرى يمكن أن تصبح لها السيطرة.

ترتيبًا على ما سبق؛ فإنه لا يقبل القول بأن الأزمة المالية العالمية المعاصرة وُلدت فجأة في هذا العام ٢٠٠٨م، بل القول الصحيح المؤسَّس على فهم صحيح هو أن هذه الأزمة في اتصال مباشر مع الأزمات التي يعيشها النظام الرأسمالي طوال تاريخه[٢]، وخاصة منذ العقد الرابع من القرن العشرين، وعلى وجه التحديد أزمة عام ١٩٨٧م. والمهتمون بالإحصاء الرقمي يصلون بعدد أزمات الرأسمالية في النصف قرن الأخير إلى أكثر من مائة أزمة، وسواء كان عدد الأزمات أكثر من هذا الرقم أو

(٢) يمكن القول: إن أول أزمة كُتب عنها في تاريخ النظام الرأسمالي كانت في عام ١٨١٢م.



أقل منه؛ فإن الأمر يعني أن النظام الرأسمالي هو نظام الأزمة. بل إن الأمر يصل إلى أبعد من هذا؛ فإذا كان أي أمر ترسم له صورة وتحدد له هوية في عقول الناس بل في عواطفهم؛ فإن صورة النظام الرأسمالي وهويته في عقول الناس وعواطفهم أنه نظام الأزمة واقتصاد الأزمة.

يصح القول: إن عام ٢٠٠٨م منذ بدايته كان حاملاً بالأزمة، وما دام الأمر كذلك فإنه كان على العالم أن ينتظر لحظة ميلاد هذا المولود الأزمة. يعني ذلك أن ادعاء الفجاءة في ميلاد الأزمة أو ظهورها ليس صحيحًا؛ حيث تنقضه أحداث كثيرة في الولايات المتحدة الأمريكية وفي غيرها. مثل هذه الأمور الأزمة، بتعقيداتها الشديدة تغذيها وتعمل عليها أمور كثيرة، ولذلك فإنها تتشكل عبر مساحة زمنية وكذلك مساحة مكانية. استصحابًا للنظام الرأسمالي أنه نظام الأزمة واستدعاء للأحداث السياسية والاقتصادية والعسكرية، وكذا الدينية في الولايات المتحدة الأمريكية؛ استدعاء واستصحابًا لذلك ولغيره انفجرت الأزمة مع بدايات الربع الأخير من عام ٢٠٠٨م، وقد ولدت في مؤسسة التمويل العقاري في الولايات المتحدة الأمريكية، والقول الصحيح أو الفهم الصحيح أنها كان من الممكن أن تولد في أي نشاط آخر، أو أي مؤسسة اقتصادية أخرى.

في أسباب الأزمة:

التعرف الصحيح على أسباب هذه الأزمة يجب أن ينطلق من الظاهرة العنكبوتية، يعني ذلك أن للأزمة أسبابًا كثيرة ومتداخلة ومعقدة، وأن التشابك فيها واضح وكبير، وأنه في أحيان كثيرة يصعب التمييز بين السبب والنتيجة، وبين المؤثر والمتأثر. انطلاقًا من فهم الأزمة على هذا النحو؛ فإنه يمكن ذكر الأسباب التالية كمجموعات سببية:

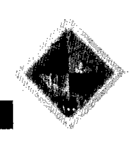
- الخلل في أداء مؤسسات التمويل في الولايات المتحدة الأمريكية، وعلى وجه الخصوص في مجال التمويل العقاري (حيث انطلقت الشرارة الأولى)، وكان الخلل في هذا المجال خطيرًا. ويدخل في مؤسسات التمويل: البنوك وشركات التأمين وأسواق الأوراق المالية. ومن صور الخلل إفراط البنوك في الإقراض بنظام الفائدة، واستخدام المشتقات في أسواق الأوراق المالية.

من مظاهر الخلل في مؤسسات التمويل وفي غيرها من المؤسسات الاقتصادية ما قاله المسئولون في الولايات المتحدة الأمريكية وغيرهم من أصحاب الرأي عن الفساد الذي انتشر في المؤسسات الاقتصادية في الولايات المتحدة الأمريكية، وخاصة فيا يتعلق بالتقويم المالي للشركات واعتماد حساباتها. وهذا الأمر على وجه خاص مُثَار بحدة منذ فترة في العالم الغربي على وجه العموم، وفي الولايات المتحدة الأمريكية على وجه الخصوص، وبسبب هذا الفساد ظهرت فكرة الحوكمة.

التعرف الصحيح على أسباب هذه الأزمة يجب أن ينطلق من الظاهرة العنكبوتية يعني ذلك أن للأزمة أسبابًا كثيرة ومتداخلة ومعقدة، وأن التشابك فيها واضح وكبير، وأنه في أحيان كثيرة يصعب التمييز بين السبب والنتيجة وبين المؤثر والمتأثر.

من مظاهر الخلل في مؤسسات التمويل ما قاله الخبراء في الولايات المتحدة الأمريكية عن (الشلل) الذي أصاب مجموعة البنوك التي تقوم بوظيفة البنك المركزي. ومما عُرف أنه لمدة ست سنوات (على الأقل) لم تقم هذه البنوك بالوظيفة الرئيسة التي تقوم بها البنوك المركزية في العالم كله، وهي وظيفة الإشراف على البنوك؛ لأنه من المعروف أن البنك المركزي وراء هذا (الشلل) تفعيلاً لسياساتهم في نظام الحرية الاقتصادية.

الركود أصبح نتيجة للأزمة المالية، ولكن الركود نفسه كان من أسباب الأزمة المالية، ذلك أنه قبل انفجار هذه الأزمة كان هناك حديث في الولايات المتحدة الأمريكية عن حالة ركود يمر بها الاقتصاد، ومن الأسباب التي ذُكرت لهذا الركود: الإنفاق الحربي الضخم الذي أنفقته الولايات المتحدة الأمريكية على الحروب التي شنّها المحافظون الجدد، وينبغي أن تقال هنا كلمة: إن هذه الحروب يشنها المحافظون الجدد على العالم الإسلامي.



من الممكن القول: إن الأسباب السابقة للأزمة لها صلة مباشرة بالواقع الأمريكي، ولكن انتشار الأزمة في العالم كله يرجع إلى التشابك المخيف بين اقتصاديات دول العالم الذي أقامته العولمة الرأسمالية والمنظمات الاقتصادية الدولية، ويتضح هذا التشابك على نحو خاص في البنوك وشركات التأمين وأسواق الأوراق المالية.

صراع الحضارات، ويتمثل في الفلسفة التي تتبناها الولايات المتحدة الأمريكية خاصة منذ عام ١٩٨٩م، حيث انهارت الاشتراكية نظامًا وإمبراطورية، وانفردت العولمة الرأسمالية بالعالم، وهذا الأمر فيه تفصيلات، ولكن ما أذكره هنا هو أن كلا من العالم الغربي على وجه العموم، والولايات المتحدة الأمريكية على وجه الخصوص، قد اتخذا إجراءات عملية لتطبيق الفلسفة التي تبنتها، وهي فلسفة صراع الحضارات، ومن صور تطبيق هذه الفلسفة الحرب العسكرية المباشرة ضد العالم الإسلامي والحرب الاقتصادية ضد الصين وروسيا والعالم الإسلامي أيضًا.

ثانيًا: في تكييف الأزمة.. أزمة نظام تمويل:

فَهْم هذه الأزمة ينبغي أن يتأسس على تكييف صحيح لها، وسوف أبدأ هذا التكييف بأول تكييف أُعطي لها، وهي أنها أزمة مالية أصيبت بها مؤسسات التمويل في الولايات المتحدة الأمريكية، وانطلقت منها إلى العالم كله، وهذا التكييف هو الذي سنناقشه في هذا البحث.

تأسيسًا على ما سبق ذكره عن أسباب الأزمة وتداعياتها يمكن تكييف الأزمة على أنها أزمة نظام تمويل على النحو الآتي:

جاءت نقطة بداية الأزمة مع إعلان بعض المؤسسات المالية الأمريكية إفلاسها، أي عدم قدرتها على توفير السيولة اللازمة لسداد التزاماتها؛ لما تكبدته من خسائر مالية كبيرة نتيجة توسعها الكبير في توظيف أموالها في مجال الرهن العقاري بدون ضمانات كافية، وبالرغم من المحاولات التي قُدمت لعلاج هذه المشكلة إلا إن آثارها استمرت تتداعى وتتفاقم... وانتقلت المشكلة إلى مؤسسات أخرى مما عرَّض السوق لهزات كبيرة ارتفاعًا وانخفاضًا، أو ما يُعرَف بظاهرة الفقاعة.

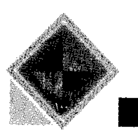
أسهم أيضًا في ذلك الممارسات المالية غير السليمة والتطبيقات المالية المستحدثة التي أدت إلى تفاقم المشكلة؛ حيث حولت المؤسسات المالية قروضها إلى سندات طرحتها في أسواق المال، الأمر الذي ترتب عليه أن أصبحت قيمة الأصول تقل كثيرًا عن حجم الديون. وضاعف من ذلك أنه مع التوسع في عرض الكثير من العقارات لتسييلها انخفضت قيمتها السوقية كثيرًا جدًّا عن قيمة ما عليها من مديونية، وهذا الأمر أدى إلى إفلاس بعض المؤسسات المالية؛ نتيجة تعثرها في سداد التزاماتها لجهات تمويل أخرى (بنوك أو شركات)، الأمر الذي أثَّر في قدرتها المالية هي الأخرى، وهكذا... وبالتتابع ينهار البنيان المالي بكامله، وقد أدت المضاربة في الأسواق المالية إلى تكريس المشكلة وتفاقمها وسرعة انتشارها، وخاصة المضاربات قصيرة الأجل التي تحركها دوافع المقامرة طمعًا أو جشعًا.

الاعتماد الكلي على نظام الفائدة كآلية جوهرية لإدارة النظام المصرفي، وما رتّبه ذلك من اضطرابات متعددة في النظام المصرفي. وبالجملة فقد حدث انحراف كامل بعمليات الائتمان عن القيام بدورها الجوهري (تنمية عمليات الإنتاج والاستثمار). وقد ترتب على سيطرة نظام الفائدة كآلية أساسية لإدارة النظام المصرفي أن أغرقت البنوك في تمويل عمليات بعيدة عن مجال الإنتاج والاستثمار.

ضعف الضمانات المقدمة مقابل عمليات الائتمان الممنوحة، مما ترتب على ذلك تزايد مبالغ الديون المعدومة.

ضعف عمليات الرقابة على عمليات الائتمان الممنوحة، سواء كان ذلك من ناحية الكمية أو الكيفية.

ضعف ممارسة البنك المركزي لدوره في رقابة البنوك، فضلاً عن ضعف استخدام الأدوات الفنية المتاحة



للبنوك المركزية، وعدم تفعيلها على النحو الكافي مثل عمليات السوق المفتوحة وسعر الخصم والاحتياطي.

تركيز منح الائتمان بشكل واضح في مجالات محدودة (مجال التمويل العقاري) وبالتالي ترتب على اضطراب هذا القطاع اضطراب الاقتصاد كله، مما يعكس التأثير المتبادل بين السياسة النقدية والسياسة الاقتصادية.

ثالثًا: في علاج الأزمة (المالية) في إطار الفكر المعاصر:

بناء على تكييف الأزمة بأنها أزمة مالية؛ فإن العلاجات التي اقتُرحت لمواجهتها تبنت السياسات التالية:

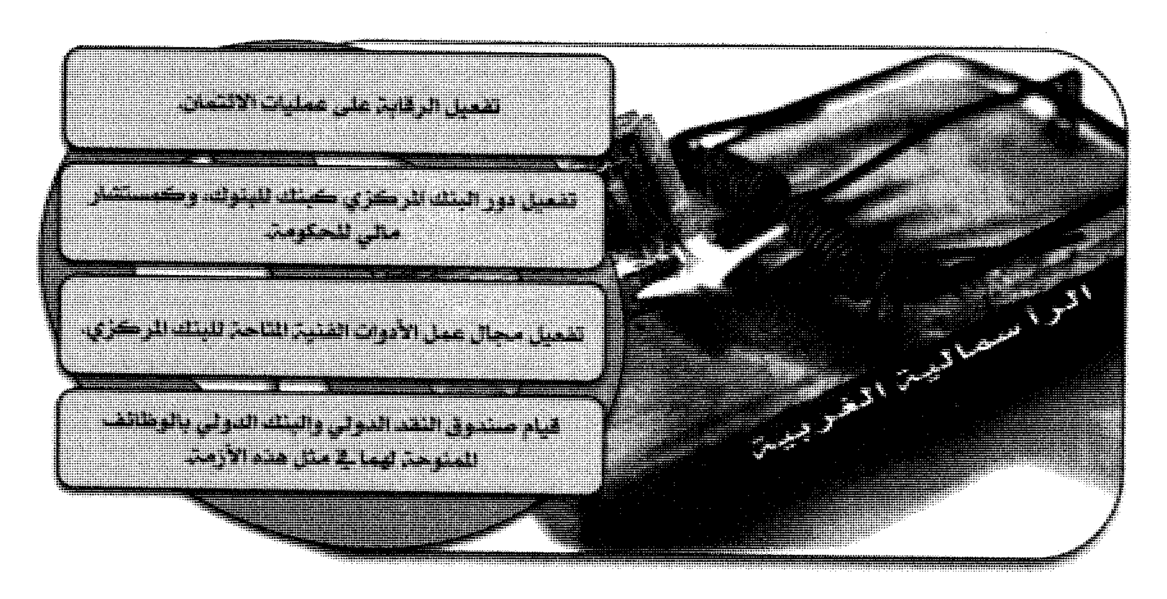
- ضرورة تفعيل الرقابة على عمليات الائتمان، سواء كان ذلك من الناحية الكمية أو الكيفية.

- ضرورة قيام صندوق النقد الدولي والبنك الدولي بالوظائف الممنوحة لهما في مثل هذه الأزمة.

رابعًا: آلية التراكم الرأسمالي (رؤية تحليلية انتقادية)

يتأسس اقتصاد الكلاسيك على أن مفتاح فهم الآلية الاقتصادية يكمن في توزيع الدخل وفي التراكم الرأسمالي، ويمكن اعتبار مصطلح التراكم مرادفًا لمصطلح الادخار. أما في المدرسة الماركسية فإن الاهتمام بالتراكم يأخذ درجة أعمق؛ إذ كارل ماركس وصل بالرأسمالية إلى مرحلة الأزمة بآلية التراكم الرأسمالي. فيما يتعلق بالكلاسيك الجدد الذين انتقلوا بالاقتصاد من التحليل الكلي إلى التحليل الجزئي؛ فإن الاهتمام المباشر بالتراكم الرأسمالي كان غائبًا، ولكن مع الاقتصاديين الذين يُطلق عليهم جدد الكلاسيك الجدد

السياسات التي تبنتها العلاجات المقترحة لمواجهة الأزمة المالية



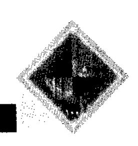
- ضرورة تفعيل دور البنك المركزي كبنك للبنوك، فضلاً عن قيامه بوظيفته كمستشار مالي للحكومة.

- ينبغي تفعيل مجال عمل الأدوات الفنية المتاحة للبنك المركزي على نحو يلائم مستوى المشكلة المثارة، مثل استخدام السوق المفتوحة وسياسات سعر الخصم والاحتياطي.

عاد الاقتصاد إلى الاهتمام بالتراكم الرأسمالي خاصة بعد الحرب العالمية الثانية(٣).

---

(٣) نموذج هارود - دوما - (١٩٤٦م) من أدلة عودة الاهتمام إلى التراكم الرأسمالي.



تتفاوت المدارس الاقتصادية من حيث الآلية التي يتحدد بها التراكم الرأسمالي. عند المدرسة الكلاسيكية يوزع الدخل على الربع والأجور والأرباح؛ حيث يتحدد الريع على أساس قاعدة الإنتاج الحدي، والباقي يكون لكل من الأجور والأرباح، ولافتراضات افترضها الكلاسيك فإن الأرباح تتوقف على مدفوعات الأجور، وافتراض الكلاسيك أن الأجور سوف تثبت عند مستوى الكفاف.

أقترح أن نتوقف مع المدرسة الكلاسيكية لنمسك هنا أمرين: أحدهما فكرة، والثاني قضية. الفكرة هي أن الكلاسيك يربطون الأرباح بالدخل، وعندهم الأرباح هي دخل لصاحب رأس المال والمنظم؛ حيث تعامل الفكر الكلاسيكي معهما على أنهما عامل واحد من عوامل الإنتاج. هذه الفكرة أرى من المفيد إبرازها، والتأكيد عليها؛ لأنها تعطي دليلاً على أن الاقتصاد مع رواده الأوائل في العالم الغربي ربط حصة رأس المال أو العائد على رأس المال بتوزيع الدخل، هذه هي الفكرة، أما القضية فهي أن الكلاسيك وهم مع النظام الرأسمالي ومن رواده الأوائل المؤسسين له، وبسبب ذلك فإن فكرهم عبّر عن مصالحهم أو انتمائهم المذهبي، ولذلك فإنهم يرون أن هناك تناقضًا وتعارضًا بين الأجور التي هي دخل العمل، والأرباح التي هي دخل كل من رأس المال والتنظيم، ولذلك افترضوا -محاباة لانتمائهم المذهبي- أن الأجور سوف تثبت عند مستوى الكفاف.

ماركس -مؤسس المدرسة الماركسية- وظّف لصالح مذهبه فكر الكلاسيك الذين ينتمون إلى النظام الرأسمالي، وجاء توظيفه على أساس أن التراكم الرأسمالي كله الذي تحصل عليه الطبقة الرأسمالية هو في حقيقة الأمر مقتطع من الدخل المستحق للطبقة العاملة.

مع الكلاسيك الجدد دخل الاقتصاد إلى مسارات جديدة، والعامل المشترك أو المؤسس لهذه المسارات أنهم يعتبرون التحليل الجزئي وليس التحليل الكلي، ومن هذه المسارات أنهم يتكلمون عن الادخار وليس التراكم الرأسمالي، ومن أدبياتهم الاقتصادية في هذا السياق:

الادخار من عمل الأفراد.
وأنه اختياري.

وأن بواعثه ثلاثة: الاستهلاك في المستقبل، والاحتياط للطوارئ، والحصول على دخل.

كانت لنا وقفة مع المدرسة الكلاسيكية، ولنا وقفة مع مدرسة الكلاسيك الجدد؛ الكلاسيك الجدد هم الذين ربطوا الادخار وكذا الاستثمار بمعدل الفائدة، وقولبوه في قالب التحليل الجزئي الذي يعتبر الفرد هو وحدة التحليل، وهذا أمر له أهمية في فهم الأزمة المالية العالمية المعاصرة، بل في فهم غيرها من أزمات النظام الرأسمالي.

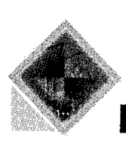
> الكلاسيك الجدد هم الذين ربطوا الادخار وكذا الاستثمار بمعدل الفائدة، وقولبوه في قالب التحليل الجزئي الذي يعتبر الفرد هو وحدة التحليل.

بعد الكلاسيك الجدد جرت مياه كثيرة في علم الاقتصاد، وفي عالمه لها تفصيلاتها الكثيرة.

خامسًا: مناقشة حول صلاحية نظام الفائدة

عند الكلاسيك الجدد التراكم في نظريتهم يتأسس على أن الادخار دالة متزايدة في معدل الفائدة. وهنا نتساءل عن مدى صلاحية معدل الفائدة ليعمل أو ليقود التراكم الرأسمالي، دراسة معدل الفائدة هي دراسة في السوق النقدي. وهذا يعني أن دراسة الصلاحية التطبيقية لمعدل الفائدة حتى يقود التراكم الرأسمالي لا بد لها من دراسة هذا السوق.

في دراسة السوق النقدي، فإنه يميز بين نوعين من الأسواق: السوق النقدي المنظم، والسوق النقدي غير المنظم. وللتعرف على كل من هذين السوقين وكذلك



للتمييز بينهما؛ فإن الاقتصاديين يستخدمون المؤشرين التاليين:

أ- علاقة النقود المودعة إلى العرض النقدي.

ب- علاقة حقوق النظام البنكي: (قروض وسلف وكمبيالات) على القطاع الخاص إلى الدخل القومي.

وتسمى العلاقة الأولى بنهج السيولة. أما العلاقة الثانية فتسمى بنهج المبالغ القابلة للإقراض.

دون الدخول في تفصيلات معروفة؛ فإن هناك دراسات اقتصادية ترى أن فاعلية معدل الفائدة لقيادة عملية التراكم الرأسمالي يجب أن يوضع في ضوء أنه لا يمكن الاعتماد على معدل الفائدة لعمل التراكم الرأسمالي[4].

بالنسبة للبلاد النامية على وجه الخصوص؛ فإن هيكل معدل الفائدة يكون مرتبطًا مع الموجود في البلاد المتقدمة، وهذا الربط مسبب عن السيطرة المصرفية للبلاد المتقدمة التي تضع نماذج التطبيقات المصرفية في البلاد النامية. فكيف يمكن قيادة الادخارات في البلاد النامية بمثل هذه النماذج.

إذا كانت دراسة السوق النقدي المنظم تكشف عن خصائص ملازمة لهذا السوق؛ بحيث إن هذه الخصائص تعوق الفاعلية المتصورة نظريًا لمعدل الفائدة؛ فإنه من المعروف أن السوق النقدي غير المنظم يسيطر على جزء كبير من نشاط الاقتراض في البلاد النامية. إن دراسة هذا السوق الأخير أيضًا تكشف عن مجموعة أخرى من الخصائص تعمل ضد الفاعلية المتصورة لمعدل الفائدة.

من هذه الخصائص:

السوق النقدي غير المنظم يسود في مجالات معينة، والأشخاص الذين يعملون في هذا السوق هم أفراد طبيعيون، وليسوا أشخاصًا معنويين، مثل البنوك. وهذه الخاصية كما كشفت دراسة صندوق النقد الدولي السابق الإشارة إليها تجعل (العلاقة بين المقرضين والمقترضين لا تكون علاقة دائنين بمدينين فحسب، وإنما تكشف أيضًا عن هيكل اقتصادي واجتماعي معين هو جزء من حياة القرية)[5].

ب- تحليل هذا السوق غير المنظم يكشف كذلك عن خاصية أخرى، وهي أن جانب العرض هو المسيطر في هذا السوق، وذلك لسببين:

أ- الهيكل الاقتصادي والاجتماعي الذي يربط المقرضين.

ندرة رءوس الأموال. وكنتيجة لسيطرة المقرضين، فإن معدل الفائدة في هذا السوق يكون أعلى عن المعدل الموجود في السوق المنظم، ومثل هذه الزيادة لا تكون في معظمها انعكاسًا لمتغيرات حقيقية في السوق النقدي.

ب- المقارنة بين السوق المنظم والسوق غير المنظم تكشف عن خاصية ثالثة وهي أن السوق الأخير بطبيعته أقل تجانس عن السوق الأول.

استنتاج

في ضوء ما قدمناه من خصائص عن السوق النقدي، سواء المنظم أو غير المنظم، في البلاد النامية يمكن استنتاج الآتي:

إن معدل الفائدة الذي يوجد في البلاد النامية يجب أن يُنظر إليه على أنه يملك طبيعة خاصة عن مثيله الموجود في البلاد المتقدمة، فالأخير قد يملك بعض خصائص (السعر) أو كثيرًا منها. فإذا قبلنا مقولة: صلاحية معدل الفائدة يزيد التراكم في البلاد المتقدمة، ويؤدي إلى تساوي الادخارات مع الاستثمار؛ فإن مثل هذه المقولة يجب أن تُراجع في البلاد النامية؛ حيث إن معدل الفائدة في هذه البلاد لا يملك فاعلية مشابهة لفاعليته في البلاد المتقدمة. ومثل هذه المراجعة لهذا النوع من التحليل تتأكد لسببين هما:

(4) Tun Wai ,M" .interest Rates in the Organisation money markets of Underdeveloped Countries 'International monetary Fund ,Staff paper ,Vol .7/1956 4 ,.P.240 .

(5) Tun Wai, M. "Les Taux d'Interet dans les Pays Peu Developers en Dehors des Narches monetaires. Banque Internationale pour la Reconstruction et le Developpement, Paris, 1963 P.3.



أن معدل الفائدة في البلاد النامية الذي يتكون في السوق النقدي المنظم لا يعكس متغيرات اقتصادية داخلية وحدها؛ ذلك أنه يكون محكومًا بالسيطرة المصرفية للبلاد المتقدمة.

أ- معدل الفائدة في السوق النقدي غير المنظم لا يعكس متغيرات اقتصادية فقط، وإنما يتأثر أو يعكس متغيرات اجتماعية، وهذا بسبب الطبيعة الاقتصادية والاجتماعية التي تربط المقرضين بالمقترضين.

نتيجة ثانية، وهي أنه بالإحالة إلى نظرية الكلاسيك الجدد؛ فإنه إذا قبلنا فكرة أن التراكم الرأسمالي في البلاد المتقدمة الذي يعتمد على معدل الفائدة هو قرار اختياري وغير مُقَاد؛ وذلك بسبب أنه يقال: إن معدل الفائدة يملك خصائص (السعر) بما يعكسه من تفاعل قوى العرض والطلب؛ فإن مثل هذا التحليل لا يملك صلاحية تطبيقية لإيجاد أو لقيادة عملية التراكم في البلاد النامية؛ حيث إن معدل الفائدة في هذه البلاد لا يملك خصائص (السعر) بما يعكسه من تفاعل قوى العرض والطلب، وكنتيجة فإن التراكم الرأسمالي ينبغي أن يكون مقادًا بواسطة الدولة، أو بواسطة قوى اقتصادية أو غير اقتصادية أخرى غير معدل الفائدة.

إذا كنا ننتقد الاعتماد على معدل الفائدة ليقود التراكم الرأسمالي في البلاد النامية؛ لكونه لا يملك خصائص (السعر)، فهل يمكن أن نقول: إن هذا المعدل يُقَدَّر أن يقود عملية التراكم الرأسمالي في البلاد المتقدمة؛ وحيث يقال هناك: إنه يملك خصائص السعر؟ لقد تعرض Keynes للإجابة على هذا السؤال. ولقد (هز) التحليل الكينزي تحليل الكلاسيك الجدد، ذلك أنه اقترح إدخال علاقة الادخار -الدخل بدلاً من الادخار- ضمن معدل الفائدة، وهذا الاقتراح الكينزي هو موضوع الفقرة التالية.

سادسًا: علاقة الادخار - الدخل

انتقد Keynes النظرية الكلاسيكية(٦) بسبب إهمالها علاقة الادخار - الدخل. وبنص عبارته فإنه: «عندما نجيء إلى الميل للاستهلاك، وملازمة الميل للادخار؛ فإننا نكون قريبين جدًا من الاختلاف في الرأس مع الكلاسيك؛ إذ إن الاقتصاديين الكلاسيك يصرون أكثر منا على الدور المؤدَّى بواسطة معدل الفائدة في تقلبات الميل للادخار. لكن بدون شك، فإنه لا يؤمل أن ننكر أن مستوى الدخل يملك أيضًا تأثيرًا معتبرًا على الادخار.

ومن جانب آخر فإنه لا يتوقع أن ننكر أن معدل الفائدة يُقَدَّر أن يملك تأثيرًا ربما مختلفًا من وجه آخر عن هذا الذي يفكرون فيه على الادخار في إطار دخل معطًى»(٧)، ولقد وجد هذا النقد صداه عند كثير من الاقتصاديين حتى ممن يعدون من جدد الكلاسيك الجدد.

ومع الاهتمام بالتنمية زاد الاهتمام أكثر بهذه العلاقة؛ ذلك أن كثيرًا من الاقتصاديين يعتقدون أن المشكلة الرئيسة أمام التنمية الاقتصادية في البلاد النامية تتمثل في نقص المدخرات؛ أي أن مشكلة التنمية تقع في جانب العرض. وإن كنا لا نشاركهم هذا الرأي، إلا إن هذا لا يعني أننا نقلل من أهمية التراكم الرأسمالي لعمل التنمية الاقتصادية. لقد تعددت الدراسات التي بحثت علاقة الادخار - الدخل في البلاد النامية. ومن الدراسات الجيدة في هذا الصدد التي نشرتها جامعة Harvard عن أمريكا اللاتينية. ومن أهم النتائج التي انتهت إليها هذه الدارسة(٨).

---

(٦) في هذا الصدد، فإنه من المعروف أن Keynes لم يفرق بين الكلاسيك وبين الكلاسيك الجدد.

(7) Keynes ,J.M' ,.theorie Generale de l'Emploi ,de l'interet ,et de la Monnaie ,Traduction de Kean de la fargentaye ,Petite Bibliotheque Payot ,Paris ,1968 ,P.189 .

(8) Landau ,Lewis' ,Savings Function For Latin American." Studies in Development Planning 'Harvard Economic Studies ,1967 ,P.303 .

- عند مستوى مخفض جدًا للدخل، فإن الادخار الإجمالي يكون عند مستوى صفر.

- وعندما يرتفع الدخل إلى ما فوق المستوى الكفافي؛ فإن الادخار الإجمالي يرتفع بمعدل متزايد، طالما أن عملية التنمية تتقدم. وقد سجل عن هذه المرحلة أن معدل نمو الادخار يكون فوق معدل نمو الدخل.

- مع مراحل أخرى في التقدم الاقتصادي، فإن معدل الادخار يبدأ في التناقص. وهذا التناقص يمكن أن يوضح بنضج القطاع الرأسمالي، ولخصائص أخرى ترتبط بالمتغيرات في المجتمع المتقدم. والنقص في معدل نمو الادخار يستمر حتى المرحلة التي عندها يتوقف معدل الادخار عن النمو.

- فيما وراء هذه المرحلة من مراحل النمو؛ فإن مستوى دخل الفرد لن يصبح محددًا مهمًا لمعدل الادخار. أي يقل الارتباط بين دخل الفرد ومعدل الادخار.

إجمالي هذه النتائج يعني أن علاقة معدل الادخار والدخل الحقيقي ليست خطية.

إن نتائج هذه الدراسة التطبيقية تثير من وجهة نظرنا مجموعة من الملاحظات:

- أنها تؤكد علاقة الادخار – الدخل. وهي العلاقة التي ضمّنها Keynes نظريته، وانتقد بسببها النظرية الكلاسيكية التي تعتمد وتعتبر معدل الفائدة.

- هذه النتائج تتضمن فكرة على جانب كبير من الأهمية، وقد تكون على جانب كبير من الخطورة الاجتماعية والاقتصادية، هذه الفكرة هي أن عدم تساوي أكبر في توزيع الدخل يحابي معدل ادخار أعلى في المراحل الأولى للنمو. ولقد تعلق كثير من الاقتصاديين بهذه الفكرة[٩].

واستطرادًا فإننا نعتقد أن النتائج التوزيعية التدميرية للدخل التي سجلتها الدراسات التطبيقية عن البلاد النامية لا يمكن فصلها عن هذه الفكرة التي تربط معدل ادخار أعلى بمعدل أكبر من سوء توزيع الدخل.

النتيجة الأهم في إطار دراستنا هي أنه ثبت قطع الصلة بين الادخار ومعدل الفائدة، أي قطع الصلة بين التراكم الرأسمالي ومعدل الفائدة، ويعني هذا أنه ليس لمعدل الفائدة فاعلية في تحريك الادخارات على النحو الذي يقال.

ثبت قطع الصلة بين الادخار ومعدل الفائدة، أي قطع الصلة بين التراكم الرأسمالي ومعدل الفائدة، ويعني هذا أنه ليس لمعدل الفائدة فاعلية في تحريك الادخارات على النحو الذي يقال

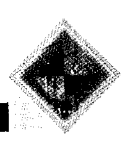
سابعًا: نظريات ادخار المنشأة

لم يقدم أوائل الكلاسيك الجدد تمييزًا واضحًا بين ما يُعرف بنظرية ادخار العائلة ونظرية ادخار المنشأة، ولكن عند متأخري الكلاسيك الجدد بدأ يظهر هذا التمييز واضحًا. وهذا الموضوع نظرية ادخار المنشأة يدرس في المؤلفات الاقتصادية تحت عنوان The Theories of Corporate، وهذا النوع من الادخار هو موضوع اهتمام واضح بين الاقتصاديين، وخاصة الاقتصاديين الذي يكتبون عن اقتصاديات الدول المتقدمة. ذلك أن استثمار الشركات الكبيرة في هذه البلاد يتوقف بدرجة كبيرة على مدخراتها الخاصة، ومن هنا جاء الاهتمام بدراسته.

نظريات ادخار المنشأة تحاول الإجابة على السؤال التالي: كيف يمكن تحديد المستوى المرغوب لمخزون رأس المال؟... عرض الاقتصاديون نظريات يحاولون بها الإجابة على السؤال وهي:

نظرية الكلاسيك الجدد.
نظرية الربح المتوقع.
نظرية السيولة.
نظرية المضاعف.

(٩)Brutin ,H.J".Growth Models and Underdeveloped Countries ,"The Economics of Underdevelopment "Galax Book ,١٩٦٣,L.P.٤٣٠ .



ولقد اختلفت هذه النظريات المتبادلة اختلافًا واسعًا في كيفية تحديد المستوى المرغوب لمخزون رأس المال. ولعمل هذه التحديد استخدمت نماذج رياضية متقدمة ومعقدة. لهذا فإن دراسة هذا الموضوع تقع في نطاق ما يُعرف بالاقتصاد القياسي. وسوف أحاول أن أعطي فكرة مبسطة عن نظرية الكلاسيك الجدد كمثال على هذا النظريات.

وسوف أنحي أي عرض أو استخدام رياضي. وهذه المحاولة ليست سهلة، كما قد تجعل العرض ذا إمكانية محدودة.

نظرية الكلاسيك الجدد:

نظرية الكلاسيك[10] مؤسسة على الأسعار النسبية للطلب على عوامل الإنتاج. وفيما يتعلق برأس المال؛ فإن ثمن رأس المال، أو بعبارة أخرى إيجار رأس المال، وهو السعر الظلي يعتمد على العوامل الآتية:

سعر السلع الرأسمالية.

معدل الاستهلاك.

معدل الفائدة.

معدل الضرائب المباشرة.

معدل الصرف النسبي لسعر السلع الرأسمالية، ويقصد بهذا المصطلح ربح رأس المال.

بعض المعاملات الأخرى.

السلوك الادخاري للمنشأة، أو بعبارة أخرى سلوك الاستثمار المنظم.

اختبرت هذه النظرية تطبيقيًا بواسطة بعض الاقتصاديين. وما أسجله أن نتائج الدراسات التطبيقية تكون متناقضة. دراسة Jorgenson و Stephenson التي استخدمت بيانات خمس عشرة صناعة أمريكية استنتجت أن نظرية سلوك الاستثمار المنظم المؤسس على نظرية الكلاسيك الجدد للتراكم الرأسمالي يمكن أن تزود بتفسير مُرْضٍ للإنفاق الاستثماري المالي[11].

وفي المقابل، فإن Nadiri, Eisner اختبرا أيضًا هذه النظرية، وقد استخدما نماذج رياضية أخرى كأدوات تحليلية. توصلا إلى نتائج تناقض Jorgenson وStephenson.

> إن نتائج الدراسات التطبيقية توضح أن الاقتصاديين لا يملكون حتى الآن نظرية ذات قبول واسع وإثبات متيقن إلى حد ما تشرح السلوك الادخاري للمنشأة.

لقد استنتجا: أنه لم تثبت أية حالة للمرونة المقدرة لمخزون رأس المال المعمولة باستخدام الأسعار النسبية التي تختلف اختلافًا ذا معنى عن الصفر. وفي المعادلات الأكثر توافقًا، فإن المرونات المقدرة لمخزون رأس المال بواسطة الأسعار النسبية تكون في نطاق ٠,٠٥ وبصفة عامة، فإن هذا يبدو أن يكون تأييدًا تطبيقيًا غير كافٍ لفاعلية نموذج الكلاسيك الجدد للتراكم الرأسمالي[12].

وهكذا، فإن نتائج الدراسات التطبيقية توضح أن الاقتصاديين لا يملكون حتى الآن نظرية ذات قبول واسع وإثبات متيقن إلى حد ما تشرح السلوك الادخاري للمنشأة.

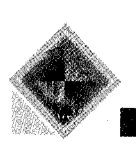
وربطًا لهذه النتائج بدراستنا فإنها تعني أن معدل الفائدة ليست له فاعلية في ادخار المنشأة أو التكوين الرأسمالي بالمنشأة. وهكذا تنتقد فاعلية نظام معدل الفائدة في سلوك المنشأة كما انتقدت في سلوك الأفراد.

---

(10) Jorgenson, D.W. Siebert, C.D., "A Comparison of Alternative theories of Corporate Investment Behavior", the American Economic Review, Vol LVIII, No. 4, Sep. 1968, P. 683710-.
Jorgenson, D.W. & Stephernson, J.A. "Investment Behavior in U.S. manufacturing: 1947 – 1960", Econometrica, Vol 3, No. 2, April, 1967 PP. 169 – 215.

(11) Ibid, P. 216.

(12) Eisner, R. & Nadiri, M.I., "Investment Behavior and Neo-Classical Tjeory", The Review of Economics and Statistics Vol. L., No. 3, August, 1968, P. 375.



القسم الثاني

البديل الإسلامي

في إطار علاج الأزمة المالية العالمية المعاصرة

تمهيد

هذا هو القسم الثاني في هذه الدراسة التي أقدمها عن الأزمة المالية العالمية المعاصرة. وربطًا لهذا القسم بما قبله أشير إلى أن القسم الأول تضمن تعريفًا بالأزمة من حيث أسبابها وتداعياتها، ثم عرضًا لبعض السياسات التي اقتُرحت لعلاج الأزمة في إطار النظام التمويلي القائم، والذي وقعت فيه الأزمة وبسببه، وختم هذا القسم بمناقشة موضوعين لهما أهمية؛ الأول تقويم فعالية آراء المدارس الاقتصادية في تكوين التراكم الرأسمالي، والثاني عن فعالية نظام الفائدة.

في هذا القسم الثاني أحاول تقديم تعريف بالنظام الإسلامي البديل للنظام الذي تسبب في الأزمة. وسوف أقتصر على مناقشة الموضوعين اللذين ختم بهما القسم الأول، وهما موضوع التراكم الرأسمالي، وموضوع البديل لنظام الفائدة.

عندما ننتقل إلى الحديث عن الإسلام؛ فإنه يجب أن ندخل إلى ذلك من المدخل الصحيح؛ وهذا المدخل الصحيح هو أن الإسلام لا يقدم علاجًا للأزمة، ذلك أنه لو تم التعامل مع الأمر على هذا النحو؛ فإنه يعني أن الإسلام يقبل نظام الفائدة ويكون دوره أنه يعالج التداعيات السلبية لهذا النظام. المدخل الصحيح يتمثل في اعتبار أن الإسلام يقدم نظامًا بديلاً؛ بحيث إن هذا النظام لا يولد الأزمة.

ومهمتنا في هذه الفقرة هي التعريف بهذا النظام الإسلامي الذي نعتبره بديلاً لنظام الفائدة. أضيف إلى ما سبق أن الأديان السماوية، أي دين، لا تجيء لتعالج أخطاء نظام وضعه البشر، وإنما تجيء الأديان بنظام لا ينتج أخطاء، وإسلامنا هو رسالة الله الخاتمة، ويجب أن نتعامل معه على أنه يقدم نظامًا - تمويليًا موضوع بحثنا - لا ينتج الأزمات التي أنتجها النظام الذي وضعه البشر.

التمويل في الإسلام مؤسس على نظام المشاركة، وهذا هو النظام الذي نعتبره بديلًا لنظام الفائدة. يعني ذلك أننا أمام نظامين: نظام الفائدة، ونظام المشاركة.

بعد هذا التمهيد لهذه الفقرة الذي رأيته ضروريًا أقدم تعريفًا مختصرًا بالنظام الإسلامي، وهو نظام المشاركة الذي هو البديل لنظام الفائدة، وهذا التعريف سوف يبين أن نظام المشاركة لا ينتج أزمة، وإنما هو نظام مبرأ من الأزمة.

أولاً: التراكم الرأسمالي في الاقتصاد الإسلامي:

دراسة الإسلام من حيث اقتصاده تبين أن التراكم الرأسمالي نوعان:

النوع الأول: تراكم رأس مال الإنتاج على مستوى الأفراد (القطاع الخاص).

النوع الثاني: تراكم رأس مال الإنتاج على مستوى الدولة (القطاع العام).

وأحاول تقديم تعريف مختصر بهذين النوعين من التراكم.

النوع الأول: تراكم رأس مال الإنتاج على مستوى الأفراد (القطاع الخاص):

النوع الأول في التراكم هو تراكم رأس مال الإنتاج على مستوى الأفراد، والإسلام يجعل التراكم هنا يتأسس داليًا على زيادة الإنتاج بدفع كل عوامل الإنتاج إلى النشاط الاقتصادي كواجب ديني بجانب أنه ضرورة اقتصادية، وفي نفس الوقت يعمل على ترشيد الاستهلاك.

وبهذا يكون هناك فائض يُستخدم للتراكم، ويكمل الإسلام تشريعه في هذه المرحلة بتأثيم الاكتناز. ويعني هذا أن ما يُدَّخر يلزم توجيهه إلى الاستثمار بمفهومه الإسلامي، وهو أن يكون في سبيل الله أي استثمار



يشمل الجوانب الاجتماعية والاقتصادية. أما العلاقة الدالية لتراكم رأس مال الإنتاج؛ فإن الإسلام يجعل التراكم هنا دالة في معدل الربح.

ولأجل أن يؤمن الإسلام مالك رأس المال الذي يستثمر مدخراته في مقابل حصة من الربح؛ فإنه وضع مجموعة من الضوابط المنظمة للصيغ الاقتصادية التي أباحها في الاستثمار. وهذه الضوابط تجعل التنبؤ عن الربح المستقبل تنبؤًا إيجابيًا.

النوع الثاني: تراكم رأس مال الإنتاج على مستوى الدولة (القطاع العام):

النوع الثاني هو تراكم رأس مال الإنتاج على مستوى الدولة، ولتحقيق هذا الهدف، وهو تراكم رأس مال الإنتاج على مستوى الدولة شرع الإسلام ثلاث أدوات هي:

الملكية العامة.

التوظيف (الضرائب).

مبدأ الضمان الاجتماعي.

وتنفيذ هذه الأدوات الثلاث مسئولية الدولة كجهاز قائم محدد. أما العلاقة الدالية في هذا النوع من التراكم فكما يلي:

الملكية العامة في الإسلام دالة في ضمان حد أدنى من الدخول لأفراد المجتمع الإسلامي، وأيضًا دالة لأوضاع دخلية توزيعية معينة، كما أن النمو الاقتصادي هو أحد العناصر التي تتأسس عليها هذه الدالة.

التوظيف (الضرائب) في الإسلام يرتبط داليًا بأوضاع طارئة. ومن استعراض هذه الأوضاع نجد أنها تتعلق بالمسلمين عامة، وهذا أعمّ من أن يكونوا فقراء. ومن هذه الأوضاع حالة الحروب وحالة التخلف الاقتصادي.

الضمان الاجتماعي دالة في أوضاع الفقراء. وإن مقداره يقدر بحاجة هؤلاء الفقراء، ومواجهة الفقر كفقر عام هي مسئولية الدولة.

ثانيًا: مقابلة بين نظرية التراكم الرأسمالي في الاقتصاد الإسلامي وفي الاقتصاد الوضعي:

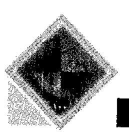
المقارنة بين نظريات التراكم الرأسمالي في الاقتصاد الإسلامي ونظريات التراكم في الاقتصاد الوضعي تكشف عن الآتي:

في المقابلة مع نظرية الكلاسيك فإنه وإن كان هناك اتفاق بين النظريتين في أن تراكم رأس مال الإنتاج يرتبط داليًا بمعدل الربح؛ إلا إنه بعد هذا الاتفاق فإن الإسلام يختلف، بامتياز، جوهريًا عن المدرسة الكلاسيكية؛ وذلك لأن الإسلام لا يربط معدل الأجر عند مستوى الكفاف كما تفعل المدرسة الكلاسيكية حتى تحقق أعلى معدل للتراكم.

في المقابلة مع النظرية الماركسية، الإسلام يختلف كلية مع هذه المدرسة، ذلك أن ماركس يؤسس التراكم على معدل الاستغلال، وهي فكرة غير موجودة كلية في الإسلام.

في المقابلة مع نظرية الكلاسيك الجدد، الإسلام لا يجعل التراكم دالة في معدل الفائدة كما تفعل هذه المدرسة. واعتماد التراكم على معدل الفائدة هو أحد أسباب الأزمات الاقتصادية. كما أن الإسلام لا يجعل التراكم يعتمد على الدخل، وبالتالي، فإنه يتطلب درجة من التفاوت في توزيع الدخل حتى يتحقق الادخار. بل إن الإسلام يجعل درجة أكبر من المساواة في الدخول هي أحد مصادر التراكم، وذلك لأن الإسلام يأخذ في الاعتبار الجانب الاجتماعي؛ حيث تخلو نظرية الكلاسيك الجدد من أي ارتباط بهذه العناصر.

النظرية الإسلامية تتفوق من حيث إنها تؤسس دالة لتراكم رأس مال الشخص العام في مقابل أن نظرية الكلاسيك الجدد في أصلها ترفض كلية مثل هذه الدالة.



ثالثًا: المشاركة: النظام البديل لنظام الفائدة:

نظام التمويل في الإسلام قائم على أساس المشاركة، وصيغ المعاملات التي بيّنها الإسلام هي التي تحقق هذا الهدف وهو المشاركة. يمكن تقديم تحليل اقتصادي للمشاركة من خلال أوجه كثيرة، ولكني أقتصر على وجه واحد هو المتمثل في الآتي: نظام مشاركة رأس المال كأحد عوامل الإنتاج مع عوامل الإنتاج الأخرى يستهدف تحقيق الإنتاج بطريقة مباشرة، وليس مجرد الحصول على دخل. هذا الأمر وهو استهداف تحقيق إنتاج بطريقة مباشرة يعتبر ضمن الإلزامات التي يضعها الإسلام على رأس المال عندما يشارك في الإنتاج.

عندما نحلل المعاملات التي يسمح بها الإسلام لاستغلال رأس المال، نجد أن مجرد الملكية ليس هو السبب الأصلي وراء حق الحصول على دخل من هذه الملكية، وإنما نكتشف أن حق الحصول على دخل يرتبط بتشغيل المال في عمل منتج، ولنحاول أن نبين ذلك من خلال المعاملات التي يبيحها الإسلام لمالك المال.

نظام مشاركة رأس المال كأحد عوامل الإنتاج مع عوامل الإنتاج الأخرى يستهدف تحقيق الإنتاج بطريقة مباشرة، وليس مجرد الحصول على دخل.

إن اشتراط الإسلام على مالك رأس المال النقدي أن يدخل به شريكًا في مقابل حصة من الربح، هذا التشريع يوجه إلى أن الإسلام جعل حق الحصول على دخل من الملكية في شكلها النقدي مربوطًا بأن تُستغل هذه الملكية في نشاط اقتصادي منتج، كيف يكون هذا؟

الأمر واضح، ذلك أنه لو كان الإسلام أعطى لصاحب المال الحق في إقراضه للغير مقابل فائدة محددة؛ فإنه قد يحدث أن الذي يقترض لا يستغل ما يقترضه في نشاط إنتاجي، وإنما يستخدمه للاستهلاك الشخصي، ولكن الإسلام حرّم هذه الصورة بما تحتمله من استخدام المال المقترَض في غير نشاط إنتاجي حقيقي، وفي مقابل ذلك أباح الإسلام لصاحب المال النقدي أن يشارك في الربح والخسارة، ويتضمن هذا بالقطع أن المال يستخدم في نشاط إنتاجي حقيقي، قد يقال: إن الإسلام ربما يكون قد ضيّق على صاحب الحاجة، بمعنى أنه ربما يكون هناك شخص محتاج للاقتراض للإنفاق على استهلاكه الشخصي لحاجته لذلك، وأجيب أن الإسلام قد شرع من التنظيمات المالية ما يسد به حاجة المحتاج، ولم يجعل الإسلام هذا المحتاج يسد حاجته بواسطة قرض يدفع عنه فائدة.

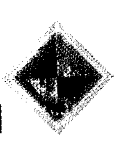
بالنسبة لاستغلال النوع الثاني من رءوس الأموال، وهو رأس مال أدوات الإنتاج، الإسلام أجاز الإجارة في هذا النوع من الأموال، ويعني هذا أن صاحبه يحصل على عائد محدد. ولنحاول أن نتعمق في هذا التشريع، فاحتمال أن يأخذ المقترض رأس المال المتمثل في أدوات إنتاج ليستخدمه في استهلاكه الشخصي، هذا الاحتمال غير وارد كلية. إن إعطاء رأس المال المتمثل في أدوات الإنتاج لن يحمل إلا معنى واحدًا، وهو أن يستخدمه آخذه في نشاط اقتصادي منتج. وإذن فإن إعطاء صاحب رأس المال الحق في الحصول على دخل لملكيته يكون مراعًى فيه أن سبب ذلك هو أن هذا المال يكون منتجًا حقيقة.

من الضروري أن أشير هنا إلى عظمة التشريع الإسلامي في تناسقه وهو يشرع لاستغلال رأس المال، إن الحالة التي من المحتمل أن آخِذ المال يمكن أن يستخدمه للاستهلاك الشخصي، وهي حالة رأس المال النقدي يمنع فيها الإجارة، أي الحصول على عائد محدد، وإنما يشرع هنا المشاركة.

أما الحالة الأخرى التي لا يوجد فيها احتمال أن آخِذ المال يمكن أن يستخدمه مباشرة للاستهلاك الشخصي وهي حالة رأس مال أدوات الإنتاج؛ فإن الإسلام يجيز هنا الإجارة. وفي كلتا الحالتين نجد أن سبب إعطاء صاحب رأس المال الحق في الحصول على دخل من ماله الذي يعطيه للغير هو أن هذا المال يكون منتجًا، وأنه يستخدم في الإنتاج. وحديثًا تنبه الاقتصاديون إلى هذا المعنى الذي سبق به الإسلام، وهو أن تبرير الحصول على دخل لرأس المال يجب أن يربط بأن له إنتاجية. [١٣]

---

(١٣) الدكتور يحيى أحمد نصر (المدخل إلى علم الاقتصاد)، دار الكتاب الجامعي القاهرة ١٩٨٠م ص ٢٤٠ - ٢٤٢.



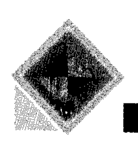
ما هو المعنى الاقتصادي الذي يستنتَج من استهداف الإنتاج بواسطة أشكال معينة من المعاملات كأحد أدوات التقدم الاقتصادي في المنهج الإسلامي؟ إجابة هذا السؤال تربطنا اقتصاديًّا بأوضاع كثير من المجتمعات والدول التي عرفت في أحد عصور تاريخها غنًى في شكل امتلاكها رأس مال سائل، وهو رأس المال النقدي. وبالرغم من ضخامة ما امتلكته هذه الدول من رءوس أموال إلا إن حضارتها أو دورها التاريخي في المساهمة في القيادة وصنع الحضارة كان قصيرًا، وكان محدودًا جدًّا، أو يكاد يكون منعدمًا؛ وذلك لأن هذه الدول احتفظت بثروتها في شكل رأس مال سائل، وقد استتبع ذلك إن كان النشاط في إقراض واقتراض رأس المال هو النشاط الاقتصادي الرئيسي والسائد، وصاحَب ذلك إهمال النشاط الاقتصادي المنتج في شكل سلع مادية وخدمية. ويمكن أن نأخذ أسبانيا، كمثال، في الفترة التاريخية المسماة بعصر الرأسمالية التجارية. في هذه الفترة كانت أسبانيا أغنى دولة أوروبية، أو أغنى دولة في العالم بسبب ما تمتلكه من نقود في شكل ذهب وفضة، وقد استجلبت هذه المعادن من الدول التي احتلتها. وبسبب أنها لم توجه رءوس الأموال إلى النشاط الاقتصادي الإنتاجي بالمعنى الذي نقصده للإنتاج وهو تحويله إلى رأس مال صناعي أو زراعي أو تجاري؛ فإن دورها القيادي للاقتصاد العالمي كان قصيرًا جدًّا، وكان أثرها في الحضارة الإنسانية منعدمًا، وذلك بالرغم من غناها في إحدى فترات التاريخ.

في ضوء هذا التحليل التاريخي، تصبح إجابة سؤالي السابق عن المعنى الاقتصادي لاستهداف الإنتاج بواسطة أشكال معينة من المعاملات واضحة، ذلك أن الإسلام وهو يستهدف إقامة مجتمع إسلامي قوي ودولة إسلامية مستقرة وحضارة إسلامية حقيقية استخدم لذلك كثيرًا من الأدوات والوسائل والأساليب، ومن الأدوات والأساليب أنه في مجال المعاملات الاقتصادية ربط استخدام رأس المال بواسطة الغير والتعاون معه بأشكال من المعاملات الاقتصادية.

وقد استلزم في هذه الأشكال أن يكون أسلوب المشاركة هو أساس التعاقد. وبهذا الشرط، يكون الإسلام قد ضمن أن توجَّه رءوس الأموال السائلة وأن تتحول إلى نشاط اقتصادي منتج حقيقة بالمعنى الذي شرحته. ويكون الإسلام بهذا قد خلّص المجتمع الإسلامي من داء حصر النشاط الاقتصادي لأصحاب رءوس الأموال في الاتجار بالنقد: بيعًا وشراءً وسمسرة إلى آخر صور التعامل في النقد، والتي نعرفها في المجتمعات المعاصرة من خلال دراسة نشاط البورصات، ونشاط المصارف.

استهداف الإسلام تحريم الربا وتحريم الاتجار بالنقد هو استهداف أصيل، وتشريعه التعامل بالمشاركة هو تشريع مقصود به تحقيق غايات ومقاصد معينة محددة. وأريد أن أعود وأكرر أن المجتمعات التي تعتمد على الاتجار بالنقد، وتجعله النشاط الاقتصادي الرئيس فيها هي مجتمعات هشة اقتصاديًّا، ولا يمكن أن ننخدع بمظاهر الرواج الاقتصادي الذي تبدو به هذه المجتمعات. ذلك أن أية أزمة اقتصادية عالمية مثل القائمة الآن سوف تعصف باقتصاديات هذه المجتمعات، وتأتي على الأخضر واليابس فيها. ولنحفظ ولنعِ درس التاريخ في مجتمعات مماثلة لها سابقة مثل حالة أسبانيا التي أشرت إليها. وهناك غير أسبانيا الكثير. وبجانب أن هذه المجتمعات هشة اقتصاديًّا فإنها هشة أخلاقيًّا، وهذا الجانب الأخلاقي يكثر عنه الحديث الآن في سياق الحديث عن الأزمة المالية العالمية المعاصرة.

وهكذا يكون اشتراط المشاركة في المعاملات الإسلامية، وهو الاشتراط الذي يستلزم توجيه رأس المال النقدي إلى النشاط الإنتاجي الحقيقي، هذا الاشتراط يستهدف الإنتاج، والإنتاج بدوره هو أحد الأدوات التي تستخدم لتحقيق تقدم الاقتصاد، وكذا استقراره.



معلومات إضافية

أبرز الأزمات التي مر بها الاقتصاد الأمريكي قبل الأزمة الحالية

أزمة الكساد العظيم (١٩٢٩- ١٩٣٣م):

يكاد يُجمع الاقتصاديون على أن أكبر مشكلة مرت على الاقتصاد الأمريكي هي مشكلة الكساد العظيم بين عامي ١٩٢٩ -١٩٣٣م، ولقد كانت فعلاً أزمة من العيار الثقيل، واتخذت بعدها الحكومة الأمريكية حزمة من التغييرات والتحسينات على سياسات وإجراءات المؤسسات المالية الحكومية والتجارية.

وقد أدت الأزمة إلى انهيار سوق الأسهم؛ بسبب ضخامة المبالغ المستثمرة في مضاربات السوق، خاصة بعد تقديم البنوك التجارية قروضًا لتلك المضاربات، وانهار معها ٩٠٠٠ بنك تجاري، وبلغت البطالة في الشعب الأمريكي أكثر من ٤٠٪، ومن اهم الحلول التي طُرحت لحل تلك الأزمة: تقوية صلاحيات البنك المركزي الأمريكي، وإنشاء شركة عام ١٩٣٩م لإدارة الموجودات الضعيفة التي تعود لآلاف من مؤسسات الادخار والإقراض والبنوك الفاشلة في الولايات المتحدة، كذلك أُنشئت شركة التأمين على ودائع البنوك التجارية (بحد أقصى مائة ألف دولار أمريكي لكل شخص في كل بنك)، وفُصلت أعمال البنوك التجارية عن البنوك الاستثمارية، فمُنِعَ البنك التجاري من التعامل مع ديون الشركات إصدارًا وضمانًا وتغطية، وسُمح لها فقط في البيع الأَوَّلِي للديون الحكومية (سندات الخزانة قصيرة الأجل)، وترك للبنوك الاستثمارية كل ذلك.

وسمح لها أيضًا بالوساطة في عمليات الأسهم والسندات، وإنشاء الصناديق الاستثمارية المختلفة في الأسهم والسندات والسلع والعقار وغيره.

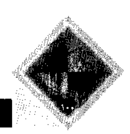
بالإضافة إلى ذلك مُنعت البنوك التجارية من فتح فروع لها في غير المنطقة التي توجد فيها؛ وذلك بسبب أن كثيرًا من المنظِّرين والمحللين الاقتصاديين للأزمة في تلك الحقبة عزا سقوط البنوك التجارية إلى عدة أسباب منها:

أنها ذات فروع منتشرة؛ فحيث سقط فرع أو اختل فرع أثّر في الفروع الأخرى، وأدى ذلك إلى أزمة على مستوى البلد، فرُئي جعل البنوك التجارية بدون فروع؛ بحيث تقلص تأثر بعضها ببعض.

أزمة تساقط البنوك التجارية (١٩٨٥-١٩٩٢م):

الأزمة الثانية الكبيرة هي أزمة تساقط البنوك التجارية في الولايات المتحدة بين عامي ١٩٨٥-١٩٩٢م، فقد سقط ما معدله ١٠٠ بنك سنويًا في تلك الحقبة، (من سمات أمريكا كثرة البنوك التجارية، خاصة بعد قرار منع الفروع، ففيها تقريبًا عشرة آلاف بنك، مقابل ألف بنك في المتوسط للدول الصناعية، بينما في اليابان ١٠٠ بنك فقط).

وقد كان أهم سبب في ذلك: كثرة السيولة من جراء ودائع الدول البترولية التي تمتعت بفوائض بعد زيادة أسعار البترول غير المسبوقة في تلك الحقبة، وهو ما جعل البنوك التجارية الأمريكية تقدم كثيرًا من التسهيلات إلى دول أمريكا الجنوبية، والتي ما لبثت أن عجزت عن السداد، وهو ما أربك النظام المالي في الولايات المتحدة الأمريكية، ونشأت معه حالة من التساقط البنكي الكبير.



أزمة الأسواق المالية للأسهم (١٩٨٧م):

الأزمة الثالثة هي أزمة الأسواق المالية للأسهم عام ١٩٨٧م، وقد خسر مؤشر (داو جونز) ٢٢٪ في يوم واحد، كذلك تراجعت مؤشرات البورصات الأخرى؛ نتيجة تداخل الأسواق المالية، وبلغت خسائر ذلك اليوم في أسواق أمريكا وحدها ٥٠٠ مليار دولار.

ومرة أخرى أنشأت الحكومة الأمريكية في عام ١٩٨٩م جهازًا خاصًا اسمه «مؤسسة تسوية الائتمان»؛ بهدف شراء الموجودات الرديئة وتصفيتها، وتحويلها إلى سيولة (حلت الحكومة الجهاز المذكور في عام ١٩٩٦م).

من الجدير بالذكر أن التسعينيات الميلادية التي مضت شهدت محاولات قوية من النافذين في القطاع المالي من الليبراليين الاقتصاديين لإسقاط قانون الفصل بين البنوك التجارية والاستثمارية.

أزمة «فقاعة الإنترنت» (٢٠٠٢م):

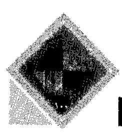
الأزمة الرابعة عام ٢٠٠٢م، وهي ما سميت بفقاعة الإنترنت، ولازمتها أزمة شركات الاستشارات وشركات الحسابات، وفيها أفلست مجموعة كبيرة من الشركات الضخمة، منها شركة «إنرون»، وشركة «ورلد كوم» وغيرهما، وقد أصدر الكونجرس بعد ذلك نظامًا متشددًا في الجوانب المالية سُمِّي «قانون ساربانس - أوكسلي».

المصدر:

من حوار د. محمد العصيمي لمجلة البيان، «النظام الليبرالي يقود إلى مجزرة اقتصادية عالمية»، العدد ٢٥٥، ذو القعدة ١٤٢٩هـ، نوفمبر ٢٠٠٨م.

أبرز المحطات في الأزمة المالية الحالية

التاريخ	الحدث
فبراير ٢٠٠٧م	- عدم تسديد تسليفات الرهن العقاري (الممنوحة لمدينين لا يتمتعون بقدرة كافية على التسديد) يتفشى في الولايات المتحدة، ويسبب أولى عمليات الإفلاس في مؤسسات مصرفية متخصصة.
أغسطس ٢٠٠٧م	- البورصات تتدهور أمام مخاطر اتساع الأزمة، والمصارف المركزية تتدخل لدعم سوق السيولة.
من أكتوبر إلى ديسمبر ٢٠٠٧م	- عدة مصارف كبرى تعلن انخفاضات كبيرة في أسعار أسهمها بسبب أزمة الرهن العقاري.
٢٢/١/ ٢٠٠٨م:	- الاحتياطي الاتحادي الأمريكي (البنك المركزي) يخفض معدل فائدته الرئيسة ثلاثة أرباع النقطة إلى ٣,٥٠٪ وهو إجراء له حجم استثنائي، ثم جرى التخفيض تدريجيًا إلى ٢٪ بين يناير ونهاية أبريل.
١٧/٢/٢٠٠٨م:	- الحكومة البريطانية تؤمم بنك نورذرن روك.
١١/٣/٢٠٠٨م:	- تضافر جهود المصارف المركزية مجددًا لمعالجة سوق التسليفات.
١٦/٣/٢٠٠٨م:	- جي بي مورجان تشيز يعلن شراء بنك الأعمال الأمريكي بير ستيرنز بمساعدة مالية من الاحتياطي الاتحادي.



٢٠٠٨/٩/٧م: - وزارة الخزانة الأمريكية تضع المجموعتين العملاقتين في مجال تسليفات الرهن العقاري «فريدي ماك» و«فاني ماي» تحت الوصاية طيلة الفترة التي تحتاجانها لإعادة هيكلة ماليتهما، مع كفالة ديونهما حتى حدود ٢٠٠ مليار دلار.

٢٠٠٨/٩/١٥م: [illegible]

٢٠٠٨/٩/١٦م: - الاحتياطـي الاتحادي والحكومة الأمريكية تؤممان أكبر مجموعة تأمين في العالم «أي آي جي» المهددة بالإفلاس عبر منحها مساعدة بقيمة ٨٥ مليار دولار، مقابل امتلاك ٩,٧٩٪ من رأسمالها.

٢٠٠٨/٩/١٧م: [illegible]

٢٠٠٨/٩/١٨م:
- البنك البريطاني «لويد تس أس بي» يشتري منافسه «إتش بي أو إس» المهدد بالإفلاس.
- السلطات الأمريكية تعلن أنها تعد خطة بقيمة ٧٠٠ مليار دولار لتخليص المصارف من أصولها غير القابلة للبيع.

٢٠٠٨/٩/١٩م: [illegible]

٢٠٠٨/٩/٢٣م: - الأزمة المالية تطغى على المناقشات في الجمعية العامة للأمم المتحدة في نيويورك.

٢٠٠٨/٩/٢٦م: [illegible]

٢٠٠٨/٩/٢٨م: خطـة الإنقـاذ الأمريكية موضع اتفاق في الكونجرس، وفي أوروبا يجري تعويم «فورتيس» من قبل سـلطات بلجيكا وهولندا ولوكسمبورج، وفي بريطانيا جرى تأميم بنك «برادفورد آند بينغلي».

٢٠٠٨/٩/٢٩م: [illegible]

٢٠٠٨/١٠/١م: - مجلس الشيوخ الأمريكي يقر خطة الإنقاذ المالي المعدلة.

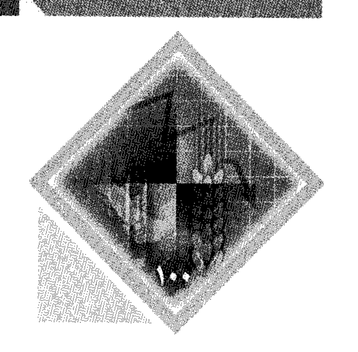
المصدر:

الجزيرة نت، أبرز المحطات في الأزمة المالية، ٢٠٠٨/١٠/١٢م، على الرابط:

http://www.aljazeera.net/NR/exeres/E380642F-4129-424F-A70D-B40238E99057.htm







العملة الخليجية الموحدة.. احتمالات النجاح وتداعيات التطبيق

د. رجا مناحي المرزوقي البقمي

أستاذ الاقتصاد المساعد والمشرف على مركز الدراسات الآسيوية

معهد الدراسات الدبلوماسية - الرياض

ملخص الدراسة

يُعتبر الاتحاد النقدي أعلى مراحل التكامل الاقتصادي، ونظرًا لتشابك المصالح الاقتصادية لدول مجلس التعاون الخليجي، والتشابه الكبير بين هياكلها الاقتصادية، ومع رغبتها في نقل العلاقات الاقتصادية بينها إلى مرحلة التكامل الاقتصادي، فقد أبرمت اتفاقية اقتصادية تحدد جدولاً زمنيًا لتحقيق التكامل الاقتصادي، وإصدار العملة الموحدة عام ٢٠١٠م.

وبالنظر إلى واقع الاقتصاد الخليجي نجد أن قطاعي النفط والغاز يشكلان العنصر الأساس لمكونات الناتج المحلي الإجمالي في دول المجلس، حتى إن القطاع النفطي يعتبر المحرك الأساس للنمو الاقتصادي، ويرتبط الفائض في الميزان التجاري بعلاقة طردية مع العائدات النفطية.

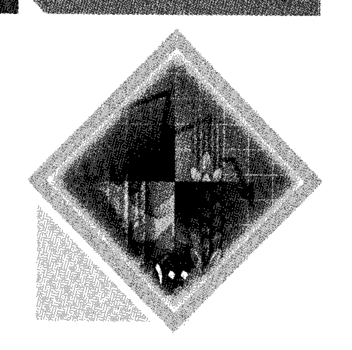
وإذا ما طبقنا شروط المنطقة المثلى للعملة التي وضعها خبراء الاقتصاد، على واقع الاقتصاد الخليجي نجد أن دول المجلس تتسم بتشابه الهياكل الاقتصادية ما يحقق شرط تشابه مصادر التأثير، بجانب أن القيود بين هذه الدول منخفضة بصورة عامة، كما أن شرط التبادل التجاري غير متوفر حاليًا.

بالإضافة إلى العوامل السابقة؛ فإن دول مجلس التعاون تشترك في العديد من السمات التي تؤهلها لتكوين وحدة اقتصادية؛ حيث تجتمع في لغة مشتركة، ودين واحد، وعادات وتقاليد متماثلة، ومستويات متقاربة من الدخل، وأنظمة اقتصادية وسياسية متشابهة، ويجمعها محيط جغرافي واحد.

إن إقامة الاتحاد النقدي له فوائد اقتصادية متوخاة على جميع دول المجلس؛ إذ ستجعل منها سوقًا واحدة ذات جاذبية أعلى للاستثمار المحلي والأجنبي، وللعملة الموحدة أثر إيجابي في زيادة التبادل التجاري بين دول المجلس، كما أنه سوف يقود إلى التنافسية بين المنتجين للسلع المتشابهة، ما يرفع الكفاءة الاقتصادية للمنتجين، ويخفض الأسعار النهائية للسلع، بالإضافة إلى تحسين الجودة والخدمات المقدمة.

وعلى الجانب الآخر، فإن الآثار السلبية للاتحاد النقدي قد تنحصر في التنازلات السيادية، بجانب تقييد السياسة المالية؛ لذا فإن الإعداد الجيد والدقيق للاتحاد ضرورة قصوى تمليها المصلحة الوطنية لكل دولة من دول المجلس.

إن الفوائد الاقتصادية التي يمكن أن يحققها الاتحاد النقدي كثيرة، ولكنها مشروطة بتوفر البيئة الاستثمارية والبنية التحتية، وتنسيق السياسات الاقتصادية لتحقيق فوائد الاتحاد النقدي.



العملة الخليجية الموحدة.. احتمالات النجاح وتداعيات التطبيق

د. رجا مناحي المرزوقي البقمي
أستاذ الاقتصاد المساعد والمشرف على مركز الدراسات الآسيوية
معهد الدراسات الدبلوماسية - الرياض

مقدمة:

يعتبر الاتحاد النقدي أعلى مراحل التكامل الاقتصادي؛ حيث يسبقه تهيئة الاقتصاد المحلي لدول الاتحاد النقدي، من خلال التدرج في مراحل التكامل التي تبدأ بمنطقة التجارة الحرة، وتنتهي بالاتحاد النقدي؛ لتكثر الفوائد الاقتصادية المتحققة لدول الاتحاد.

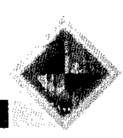
ويقصد بالاتحاد النقدي إعداد وتنفيذ، ومراقبة السياسة النقدية بواسطة مؤسسة نقدية مركزية (البنك المركزي)، واستبدال عملات الدول الأعضاء في الاتحاد بعملة واحدة. وقبل البدء في مراحل التكامل الاقتصادي حتى الوصول للاتحاد النقدي يجب التأكد من وجود آثار اقتصادية إيجابية على الاقتصاد الوطني من إقامة هذا الاتحاد النقدي، وكذلك وجود الإرادة السياسية لذلك.

ونظرًا لتشابك المصالح الاقتصادية لدول مجلس التعاون الخليجي، والتشابه الكبير بين هياكلها الاقتصادية، والذي شجّع على توقيع الاتفاقية الاقتصادية في إطار المجلس فور نشأته؛ حيث تشكل الاتفاقية الاقتصادية التي وقعت دول مجلس التعاون عليها في شهر محرم ١٤٠٢هـ (نوفمبر ١٩٨١م) النواة التي أسست للعلاقات الاقتصادية فيما بينها داخل منظومة مجلس التعاون لدول الخليج العربية، وأنشئت بموجبها منطقة التجارة الحرة لدول المجلس، وتناولت بإجمال متطلبات السوق المشتركة والاتحاد الاقتصادي والنقدي. ونظرًا لرغبة دول المجلس في نقل العلاقات الاقتصادية بين دول المجلس من مرحلة التعاون والتنسيق، كما نصت عليها الاتفاقية الاقتصادية في ١٩٨١م إلى مرحلة التكامل الاقتصادي، فقد تم التوقيع في ١٦ شوال ١٤٢٢هـ (٣١ ديسمبر ٢٠٠١م) على الاتفاقية الاقتصادية الجديدة، والتي نصت على وضع جدول زمني لتحقيق التكامل الاقتصادي، وإصدار العملة الموحدة في ٢٠١٠م.

وقد وافق المجلس الأعلى لمجلس التعاون في دورته الثانية والعشرين سنة ٢٠٠١م على البرنامج الزمني للاتحاد النقدي؛ حيث وجّه لجنة محافظي مؤسسات النقد والبنوك المركزية إلى تطبيق قرار المجلس الأعلى بشأن اعتماد الدولار مثبتًا مشتركًا لعملات دول المجلس في موعد أقصاه نهاية عام ٢٠٠٢م، كما وجّه لجنة التعاون المالي والاقتصادي ولجنة المحافظين إلى الاتفاق على معايير الأداء الاقتصادي اللازمة لنجاح الاتحاد النقدي، وذلك في موعد أقصاه نهاية ٢٠٠٥م تمهيدًا لإطلاق العملة الموحدة في موعد أقصاه الأول من يناير ٢٠١٠م (مجلس التعاون، ٢٠٠٧م).

واقع الاقتصاد الخليجي:

بلغ الناتج المحلي الإجمالي لدول الخليج ٧١٥ مليار دولار في ٢٠٠٧م تبلغ نسبة مساهمة المملكة العربية السعودية ٥١٪،



تليها دولة الإمارات العربية المتحدة بحوالي ٢٢٪، ثم دولة الكويت بحوالي ١٣٪، وقطر ٧٪، وسلطنة عمان ٥٪، وتعتبر مملكة البحرين أقل الدول مشاركةً في الناتج المحلي الإجمالي بحوالي ٢٪ (انظر الشكل [١]).

وتتشابه دول المجلس في مصدر مساهمة كل قطاع في إجمالي الناتج المحلي؛ حيث إن قطاعي النفط والغاز يشكلان العنصر الأساس لمكونات الناتج المحلي الإجمالي، فالقطاع النفطي يمثل ٤٤٪ في المتوسط من الناتج المحلي الإجمالي، في حين يشكل القطاع الصناعي والزراعي ١٠٪ و٤٪ على التوالي، ما عدا دولة البحرين التي يشكل القطاع البنكي فيها في حدود ١٨٪ من إجمالي الناتج المحلي، والذي يشكل -بجانب القطاع النفطي، الذي يمثل في المتوسط ٢٤٪- المحرك الأساس للاقتصاد.

وتأتي أهمية دول الخليج من الناحية الاستراتيجية من حيث كونها تمتلك ٤٠٪ من احتياطيات النفط المعروفة عالميًّا، و٢٣٪ من احتياطيات الغاز. ومن المتوقع أن تزداد الأهمية النسبية لدول الخليج في أسواق النفط العالمية، في العقود القليلة القادمة؛ لوجود الاحتياطيات الضخمة من النفط والغاز في أراضيها، الأمر الذي يؤهلها لتكون أحد مصدري الطاقة القلائل مع حلول عام ٢٠٥٠م.

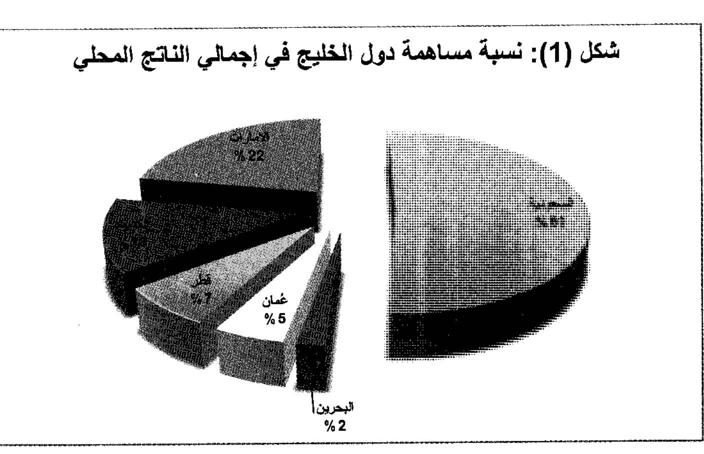
ويعتبر القطاع النفطي المحرك الأساس للنمو الاقتصادي في دول المجلس والمملوك بالكامل لحكومات دول المجلس. ولذا فإن الحركة الاقتصادية في دول المجلس معتمدة على الإنفاق الحكومي الذي يتأثر بشكل حاد بالتقلبات التي تشهدها السوق البترولية، فالعائدات النفطية تحدد الإنفاق الحكومي؛ حيث تنتعش ميزانيات هذه الدول في حال ارتفاع أسعار النفط، كما حدث في الأعوام الأخيرة بعد ارتفاع أسعار النفط، والتي بلغت على سبيل المثال ١٢٥,٩ مليار دولار في سنة ٢٠٠٦م، في حين أنها تحقق عجزًا في حال تراجع أسعار النفط كما حدث خلال فترة الثمانينيات، وحتى نهاية التسعينيات تقريبًا .

وبالنسبة للتجارة الخارجية، فإن دول المجلس تعتبر ذات اقتصادات مفتوحة مع العالم الخارجي. فالصادرات والواردات تمثل ٤٣٪ من إجمالي الناتج المحلي، كما حققت فائضًا في الميزان التجاري بلغ في المتوسط ١٠٪ من إجمالي الناتج المحلي خلال العقد الأخير، ويرتبط الفائض في الميزان التجاري بعلاقة طردية مع العائدات النفطية، وتتركز صادرات دول المجلس في النفط والغاز. فالصادرات النفطية تمثل أكثر من ٨٠٪ من إجمالي الصادرات، وتزيد النسبة لتتجاوز ٩٠٪ في فترة ارتفاع أسعار النفط، في حين أنها تستورد معظم احتياجاتها من السلع والخدمات من الخارج؛ نظرًا لضعف القطاع الصناعي والزراعي والذي يشكل في المتوسط ١٠٪ و٤٪ على التوالي من إجمالي الناتج المحلي.

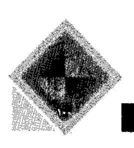
جدول (١) نسبة مساهمة القطاع النفطي في الناتج المحلي الإجمالي

السنة	الإمارات العربية المتحدة	مملكة البحرين	المملكة العربية السعودية	عمان	قطر	الكويت	المتوسط
٢٠٠٤	٣٢٪	٢٣٪	٤٥٪	٤٢٪	٥٤٪	٤٥٪	٤٠٪
٢٠٠٥	٣٦٪	٢٥٪	٥٢٪	٤٩٪	٦٠٪	٥٣٪	٤٦٪
٢٠٠٦	٣٧٪		٥٤٪	٤٨٪	٦٣٪	٥٥٪	٥١٪
المتوسط	٣٥٪	٢٤٪	٥١٪	٤٦٪	٥٩٪	٥١٪	٤٤٪

شكل (1): نسبة مساهمة دول الخليج في إجمالي الناتج المحلي



المصدر: التقرير السنوي ومواقع الإنترنت للبنوك المركزية الخليجية.



وفيما يتعلق بهيكل الصادرات والواردات في دول المجلس، فمعظم صادرات دول مجلس التعاون حوالي ٦٠٪ تقريبًا يذهب إلى آسيا (الصين، اليابان، سنغافورة، كوريا الجنوبية)، في حين أن ١١٪ من إجمالي الصادرات يتم تصديره إلى الولايات المتحدة، و١١٪ تقريبًا يُصدَّر إلى دول الاتحاد الأوروبي، ولا تشكل صادرات دول المجلس فيما بينها سوى ٦٪ فقط. وعلى الجانب الآخر؛ فإن معظم واردات دول مجلس التعاون تأتي من آسيا وأوروبا بمقدار الثلث تقريبًا لكل قارة، في حين يأتي ما نسبته ١١٪ من هذه الواردات من الولايات المتحدة الأمريكية، أما واردات دول المجلس فيما بينها فتمثل ٦٪ من إجمالي الواردات. وقد انعكس هذا الفائض في الميزان التجاري على زيادة احتياطيات البنوك المركزية من النقد الأجنبي، والتي تجاوزت ١.٤ تريليون دولار.

أما القطاع المالي في دول مجلس التعاون فيعتمد بشكل كبير على قطاع البنوك، أما أسواق الأسهم فلازالت ناشئة، ومن المتوقع أن تلعب دورًا أكبر في المستقبل، وتؤثر على آليات التمويل والنظام المالي في دول المجلس. وترتكز أعمال البنوك أساسًا على قبول الودائع ومنح التسهيلات الائتمانية. أما بالنسبة لأسواق الأوراق المالية، والتي شهدت مؤخرًا تطورات ملموسة من حيث القيمة السوقية للشركات المدرجة، وعدد تلك الشركات، ومؤشرات الأسعار والأنظمة الخاصة بها، إلا أنها لا تزال تحتاج إلى عمل مكثف في تحسين البيئة الاستثمارية وسن التشريعات اللازمة لرفع كفاءتها.

وعلى صعيد معدلات التضخم في دول مجلس التعاون، فإنها تتأثر بالعائدات النفطية، وقد كانت خلال فترة العقدين السابقين في حالة استقرار؛ حيث لم تتجاوز ٤٪، وهي ترتبط مع أسعار النفط بعلاقة طردية مباشرة؛ فمع ارتفاع أسعار النفط في السنوات الأخيرة وتدفق العائدات النفطية ارتفع معدل التضخم ليتجاوز ١١٪ في السعودية والإمارات وقطر، وتجاوز ٤٪ في بقية الدول، وهي تعتبر نسب عالية مقارنة بما كان سائدًا في دول المجلس خلال الثمانينيات والتسعينيات الميلادية.

أما أسعار الفائدة فتُحدَّد بقرارات الاحتياطي الفيدرالي الأمريكي؛ بسبب ربط عملات دول المجلس بالدولار الأمريكي. والعملات الخليجية ظلت لعقود طويلة مرتبطة بالدولار الأمريكي؛ إما على نحو مباشر (جميع دول المجلس باستثناء الكويت)، أو ضمن سلة من العملات المتعددة والتي يهيمن عليها الدولار الأمريكي (الكويت)، وبالتالي ظلت أسعار الفائدة المعمول بها في دول المجلس مرتبطة بأسعار الفائدة التي يحددها الاحتياطي الفيدرالي الأمريكي، ومن ثم لم يكن للسلطات النقدية في تلك الدول دور كبير في رسم السياسات النقدية لتفادي الأضرار الناشئة عن انخفاض سعر صرف الدولار، والذي يؤدي بطبيعة الحال إلى إضعاف العملات الخليجية، وارتفاع كُلْفة الواردات، ورفع معدلات التضخم، وفقدان قدر كبير من الثروة؛ بسبب الاحتفاظ بأرصدة احتياطية بالعملة الأمريكية.

دول المجلس ومنطقة العملة المثلى:

تعتبر الدراسة التي أعدها مانديل (Mundell, 1961) عن العملة الموحدة ومنطقة العملة المثلى هي الأساس الذي اعتمدت الدراسات اللاحقة عليه في دراسة العملة الموحدة، والشروط الواجب توفرها في منطقة العملة المثلى. بعد دراسة مانديل بفترة قصيرة توسع (McKinnon,1963) في دراسة منطقة العملة المثلى، وتبعه (Kenen,1969)، وقد تتابعت الدراسات النظرية والتطبيقية بعد ذلك خلال فترة الستينيات والسبعينيات عن منطقة العملة المثلى، والتي كانت تركز على شروط منطقة العملة المثلى، ومدى توفرها، والتي كانت مبنية على افتراضات المدرسة الاقتصادية للنيوكينزيين (neo-Keynesian).

خلصت هذه الدراسات إلى أن منطقة العملة المثلى يجب أن تتوفر فيها الشروط التالية: درجة التبادل التجاري بين الدول المشتركة عالية القيود منخفضة بين هذه الدول، وتشابه مصادر التأثير الاقتصادي (Symmetric Shocks). في نهاية السبعينيات وما بعده ركزت الدراسات الاقتصادية المتعلقة بالاتحاد



النقدي على الآثار الاقتصادية الإيجابية والسلبية للدول من انضمامها للاتحاد النقدي، وافترضت أن أي دولة مهيأة للانضمام للاتحاد النقدي إذا كانت تستطيع التقيد بالمعايير الاقتصادية لمنطقة الاتحاد النقدي، وتحقق فوائد اقتصادية (Horvath et al,2002). وقد انتقدت هذه الدراسات افتراضات مانديل، واعتبرتها غير فاعلة، وأنها جزء من أدبيات الاقتصاد التي سادت في نهاية السبعينيات، والتي شككت في افتراضات المدرسة الكينزية.

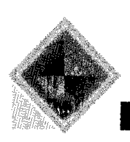
وبالنظر لشروط المنطقة المثلى للعملة التي يشترط مانديل توافرها، نجد أن شرط تشابه مصادر التأثير من أهمها. ودول الخليج تتسم بتشابه الهياكل الاقتصادية، مما يجعل مصدر التأثير الاقتصادي متشابهًا؛ حيث القطاع النفطي هو القطاع المحرك للاقتصادات الخليجية، ولذا تشكل العوامل الخارجية التي تؤثر على الطلب على النفط وأسعاره أهم المؤثرات على الاقتصاد الخليجي. وعلى الرغم من أنه خلال العقد القادم قد ينضب النفط في كل من سلطنة عمان ومملكة البحرين، إلا أن قيام الاتحاد النقدي وتشابك اقتصاديات دول المجلس والعلاقة بين هاتين الدولتين ودول المجلس الأخرى سيوجد اعتمادية لعمان والبحرين على بقية دول المجلس الأخرى؛ وذلك لصغر حجم عمان والبحرين، والذي يبلغ ٥٪ و٢٪ على التوالي من إجمالي الناتج المحلي لدول المجلس، مما يجعل مصادر التأثير مستمرة على الرغم من نضوب النفط فيهما.

أما شرط التبادل التجاري فغير متوفر حاليًا في دول المجلس؛ وذلك لضعف التبادل التجاري بين دول المجلس، لتصديرها سلعًا متشابهة، وهي النفط والبتروكيماويات، وهذا الشرط قد يكون مطلبًا في حالة دول صناعية اكتمل بناء هياكلها الاقتصادية، ومن الصعوبة تغييرها لزيادة التبادل التجاري، وبالتالي تنخفض الفائدة من الانضمام للاتحاد النقدي، أما دول المجلس فهي دول نامية لازالت في مرحلة بناء لهياكلها الاقتصادية، لذا فإن إقامة الاتحاد النقدي سوف توسّع حجم السوق، وتساهم في قيام صناعات في هذه الدول تلبي الطلب المحلي، وتستطيع أن تنافس على المستوى الدولي؛ مستفيدة من اقتصاديات الحجم الكبير، مما يرفع معدل التبادل التجاري بين دول المجلس في المستقبل بعد قيام الاتحاد.

القيود بين دول المجلس منخفضة بصورة عامة، فلا يوجد قيود على حركة رأس المال والاستثمارات. العمالة المواطنة حركتها مرنة بين دول المجلس، وتعتبر القيود الوحيدة هي على حركة العمالة الأجنبية بين دول المجلس، والتي تشكل في المتوسط ٧٠-٨٠٪ من إجمالي العمالة في دول المجلس. وتعتبر حركة العمالة أحد أهم أدوات إعادة التوازن لاقتصاديات دول الاتحاد. بالإضافة إلى العوامل السابقة؛ فإن دول مجلس تشترك في العديد من السمات التي تؤهلها لتكوين وحدة اقتصادية؛ حيث إنها تجتمع في لغة مشتركة ودين واحد، وعادات وتقاليد متماثلة، ومستويات متقاربة من الدخل، وأنظمة اقتصادية وسياسية متشابهة، ويجمعها محيط جغرافي واحد. كما أن هناك فوائد اقتصادية متوخاة من إقامة الاتحاد النقدي على جميع دول المجلس، والسلبيات محدودة تكاد تنحصر في التنازلات السيادية.

الوضع الراهن للاتحاد النقدي الخليجي:

أقر المجلس الأعلى في دورته الثانية والعشرين إصدار العملة الموحدة في موعد أقصاه الأول من يناير ٢٠١٠م. وقد وافق المجلس الأعلى لمجلس التعاون في دورته الثانية والعشرين سنة ٢٠٠١م على البرنامج الزمني للاتحاد النقدي؛ حيث وجه لجنة محافظي مؤسسات النقد والبنوك المركزية إلى تطبيق قرار المجلس الأعلى بشأن اعتماد الدولار مثبتًا مشتركًا لعملات دول المجلس في موعد أقصاه نهاية عام ٢٠٠٢م، كما وجه لجنة التعاون المالي والاقتصادي ولجنة المحافظين إلى الاتفاق على معايير الأداء الاقتصادي اللازمة لنجاح الاتحاد النقدي، وذلك في موعد أقصاه نهاية ٢٠٠٥م تمهيدًا لإطلاق العملة الموحدة في موعد أقصاه الأول من يناير ٢٠١٠م (مجلس التعاون، ٢٠٠٧م).



أصدرت جميع الدول الأعضاء قرارات بربط عملاتها الوطنية بالدولار الأمريكي قبل نهاية ٢٠٠٢م حسب توجيه المجلس الأعلى. كما اعتمد المجلس الأعلى في قمة أبو ظبي ديسمبر ٢٠٠٥م ما أوصت به لجنة التعاون المالي والاقتصادي ولجنة المحافظين بشأن معايير الأداء الاقتصادي التي يلزم تقاربها لنجاح الاتحاد النقدي. ووجه لجنة التعاون المالي والاقتصادي ولجنة المحافظين إلى استكمال بحث كيفية حساب هذه المعايير ومكوناتها والنسب المتعلقة بها، والاتفاق على ذلك ورفعه إلى المجلس الأعلى في دورته القادمة.

اتفقت لجنة المحافظين على مهام السلطة النقدية المشتركة في ظل قيام الاتحاد النقدي، وأن تكون هذه السلطة مستقلة في قراراتها، وأن تبدأ على شكل مجلس نقدي يتحول إلى بنك مركزي خليجي. وفي القمة الأخيرة للمجلس الأعلى في قطر وجَّه المجلس الأعلى إلى متابعة المعايير الاقتصادية، ومدى التزام الدول بها، ووضع برنامج مفصل لتحقيق متطلبات الاتحاد النقدي وعرضه على القمة القادمة ٢٠٠٨م.

معايير التقارب الاقتصادي:

بناءً على البرنامج الزمني للاتحاد النقدي فقد تم الاتفاق بين الدول الأعضاء على معايير التقارب ومكوناتها، والنسب المراد تحقيقها، وكيفية حسابها والوصول إليها. وقد أقرّ المجلس الأعلى في دورته السادسة والعشرين (أبو ظبي، ديسمبر ٢٠٠٥م) معايير التقارب النقدي، وتتمثل في معدلات التضخم ومعدلات الفائدة، ومدى كفاية احتياطيات السلطة النقدية من النقد الأجنبي، ومعايير التقارب المالي، وتتمثل في نسبة العجز السنوي في المالية الحكومية إلى الناتج المحلي الإجمالي، ونسبة الدين العام إلى الناتج المحلي الإجمالي.

أما طريقة حساب هذه المعايير فقد فوّضها المجلس الأعلى في دورته السابعة والعشرين (ديسمبر ٢٠٠٦م) للجنة التعاون المالي والاقتصادي؛ حيث جاء في البيان الختامي للمجلس الأعلى أن المجلس: «كلف لجنة التعاون المالي والاقتصادي ولجنة محافظي مؤسسات النقد والبنوك المركزية باستكمال بحث كيفية حساب معايير تقارب الأداء الاقتصادي، والنسب المتعلقة بها، وفوض وزراء المالية في الاتفاق عليها» (بيان المجلس الأعلى، ٢٠٠٦م).

> اتفقت لجنة المحافظين على مهام السلطة النقدية المشتركة في ظل قيام الاتحاد النقدي، وأن تكون هذه السلطة مستقلة في قراراتها

وقد ناقشت لجنة المحافظين في عام ٢٠٠٥م وفي اجتماعها في أبريل ٢٠٠٦م طريقة حساب وقياس هذه المعايير، كما ناقشت البدائل المقترحة للسلطة النقدية المشتركة التي ستتولى مهام إصدار العملة الخليجية الموحدة، وإدارة السياسة النقدية الموحدة. وبناء على تفويض من المجلس الأعلى في دورته السابعة والعشرين، اعتمدت لجنة التعاون المالي والاقتصادي توصيات لجنة المحافظين في مايو ٢٠٠٧م (موقع الأمانة العامة على الإنترنت).

وقد وجه المجلس الأعلى في دورته الثامنة والعشرين إلى استكمال تحقيق المعايير المالية والنقدية لتقارب الأداء الاقتصادي بين دول المجلس، كما كلف وزراء المالية ومحافظي مؤسسات النقد والبنوك المركزية، بوضع برنامج مفصل، لاستكمال جميع متطلبات الاتحاد النقدي، ورفعه إلى الدورة القادمة للمجلس الأعلى (بيان المجلس الأعلى، ٢٠٠٧م). بناء على اعتماد لجنة التعاون المالي والاقتصادي؛ فإن المعايير النقدية والمالية وكيفية حسابها التي تم الاتفاق عليها هي:

معدل التضخم: يحسب معيار التضخم باستخدام الأرقام القياسية لأسعار المستهلك، والذي يجب أن لا يزيد في أي دولة من دول المجلس عن المتوسط المرجح لمعدلات التضخم في جميع دول المجلس زائد نقطتين مئويتين (٢٪).

سعر الفائدة: يحسب معيار أسعار الفائدة باستخدام متوسط سعر الفائدة قصير الأجل (لمدة ثلاثة أشهر)،



وذلك باستخدام سعر الفائدة بين البنوك لمدة ثلاثة أشهر، وفي حالة عدم توفر هذه الأداة لدى أيّ من الدول الأعضاء تستخدم أقرب أداة مماثلة. وينبغي أن لا يزيد سعر الفائدة في أيّ من دول المجلس عن متوسط أدنى ثلاثة أسعار الفائدة قصيرة الأجل (لمدة ثلاثة أشهر) في دول المجلس زائد نقطتين مئويتين (٢٪).

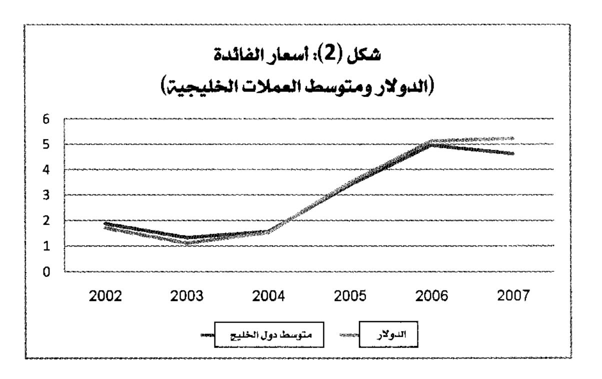
كفاية احتياطيات النقد الأجنبي: لحساب احتياطيات السلطة النقدية من النقد الأجنبي، يعمل بتعريف دليل ميزان المدفوعات (الطبعة الخامسة) الصادر من صندوق النقد الدولي، بحيث تشمل الذهب النقدي وحقوق السحب الخاصة، والاحتياطي لدى صندوق النقد الدولي، و«احتياطيات» النقد الأجنبي. لقياس مدى كفاية احتياطيات السلطة النقدية من النقد الأجنبي يجب أن تكون هذه الاحتياطيات في كل دولة من دول المجلس كافية لتغطية تكلفة وارداتها السلعية لمدة لا تقل عن أربعة أشهر.

نسبة عجز المالية الحكومية إلى الناتج المحلي الإجمالي: على دول المجلس أن لا تزيد نسبة العجز السنوي فيها عن ٣٪ من الناتج المحلي الإجمالي (بالأسعار الجارية) طالما سعر نفط سلة أوبك ٢٥ دولارًا أو أكثر، وفي حالة انخفاض سعر النفط عن ذلك يصبح السقف الأعلى لنسبة العجز السنوي مساويًا لـ ٣٪ زائد ثلاثة أضعاف التغير النسبي المئوي المطلق.

نسبة الدين العام إلى الناتج المحلي الإجمالي: يجب أن لا تتجاوز نسبة الدين العام للحكومة العامة ٦٠٪ من الناتج المحلي الإجمالي (بالأسعار الجارية)، ولا تتجاوز نسبة الدين العام للحكومة المركزية ٧٠٪ من الناتج المحلي الإجمالي (بالأسعار الجارية). وقد استخدم تعريف صندوق النقد الدولي للحكومة المركزية والحكومة العامة. (جريدة الرياض، ٤ أبريل ٢٠٠٧م).

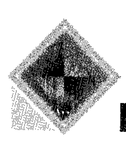
السياسات الاقتصادية :

تتشابه السياسات النقدية والمالية لدول المجلس، فالسياسة النقدية لدول المجلس معتمدة سعر الصرف الثابت، ما عدا دولة الكويت التي تبنت الربط بسلة عملات يهيمن عليها الدولار. حيث يشكل أهم أهداف السلطات النقدية الفعلية في دول المجلس المحافظة على سعر الصرف مقابل الدولار. إن سياسة سعر الصرف الثابت التي تبنتها دول المجلس أدت إلى عدم فاعلية السياسة النقدية وتأثرها بقرارات الاحتياطي الفيدرالي الأمريكي. كما أدى إلى استقرار أسعار الصرف التقاطعية لعملات دول المجلس، الأمر الذي ساهم في سهولة اتخاذ القرار في ٢٠٠٣م لتثبيت أسعار الصرف مقابل الدولار. ولذا نرى أسعار الفائدة في دول المجلس تتأثر بأسعار الفائدة على الدولار كما في الشكل (٢)



حيث يلاحظ من الرسم البياني تأثير سعر فائدة الدولار على أسعار الفائدة لعملات دول المجلس، وقد حافظت أسعار الفائدة الخاصة بعملات دول المجلس على هامش أعلى من سعر الفائدة على الدولار، بعكس المخاطرة التي يتحملها المستثمر في العملات الخليجية مقارنة بالدولار، بينما بداية من ٢٠٠٤م تقلص هذا الهامش لارتفاع أسعار النفط، والذي انعكس على توفر السيولة في المنطقة والثقة باستقرار العملات الخليجية. وبداية من ٢٠٠٥م أصبح الفرق بين أسعار الفائدة على العملات الخليجية والدولار لصالح العملات الخليجية؛ بسبب توفر السيولة مع محافظة أسعار الفائدة الخاصة بالعملات الخليجية على متابعة أسعار الفائدة على الدولار.

إن عدم فاعلية السياسة النقدية لدول المجلس بسبب ربطها بالدولار يسهّل قيام الاتحاد النقدي، ويجعل تنازلات دول المجلس عن السياسة النقدية لتُدَار من قبل بنك خليجي مركزي تشارك الدول فيه ممكنًا، ولا



ينطوي على تنازلات اقتصادية. وقد أدت سياسة سعر الصرف الثابت دورًا بارزًا في المحافظة على ثبات العملة خلال العقدين الماضيين، وخاصة خلال انخفاض أسعار الصرف، وعجز ميزانيات دول المجلس.

أما السياسة المالية في دول المجلس فهي معتمدة على الإنفاق الحكومي، بينما الضرائب غير مفعَّلة. فالقطاع النفطي في دول المجلس مملوك للحكومات، ويشكل في المتوسط ٩٠٪ من الإيرادات الحكومية. لذا فالإنفاق الحكومي متأثر بالعائدات النفطية، ففي فترة انخفاض أسعار النفط تعاني ميزانيات دول المجلس من العجز، كما في الثمانينيات ونهاية التسعينيات، بينما في فترة انتعاش الطلب على النفط وارتفاع أسعاره تحقق ميزانيات الدول فائضًا، كما في السنوات الأخيرة (شكل ٢).

وبما أن الطلب على النفط تحدده عوامل خارجية ودول المجلس متلقية -على الرغم من إنتاجها- لما يربو على ٢٣٪ من الإنتاج العالمي من النفط، فإن السياسة المالية تحكمها التقلبات في أسواق النفط العالمية؛ مما يحدّ من قدرة دول المجلس على وضع سياسة مالية طويلة الأجل. وعمليًا لا يوجد سياسة مالية واضحة الأهداف لدول المجلس، وتكتفي السلطات المالية في دول المجلس بالسياسة المالية قصيرة الأجل المعتمدة على التدفقات المالية.

وحيث إن الإنفاق الحكومي مرهون بالعائدات النفطية، والضرائب غير موجودة، وتم الاستغناء عنها بفرض ضريبة ١٠٠٪ على القطاع النفطي، ولم تنشئ الدول صناديق يتم من خلالها توزيع تأثيرات الانخفاض والارتفاع في العائدات النفطية لسنوات عدة، بدلاً من زيادة الإنفاق الضخمة في حالة زيادة العائدات النفطية، وتحميل الميزانية عجزًا في حالة هبوطها؛ فإن الأدوات المالية لمتخذ القرار الاقتصادي محدودة.

إن هذا التشابه في السياسة النقدية والمالية لدول المجلس، ومحدودية أدواتها، يجعل التنسيق فيما بينها لمنطقة العملة الموحدة مهمة سهلة وغير مكلفة. وحتى ينجح الاتحاد النقدي، وتحقق اقتصاديات المجلس معدلات نمو أعلى، وترفع من مستوى التنمية؛ فإنه لا بد من توحيد السياسة النقدية في سلطة نقدية مركزية ودرجة عالية من التنسيق للسياسة المالية والاقتصادية. فالعملة الموحدة لا تقبل تجزئة السياسة النقدية، بل يجب أن يضطلع بها بنك مركزي يُدَار من قبل مجلس إدارة يتم تمثيل الدول فيه.

أما السياسة المالية؛ فإن المعايير المالية التي تم اعتمادها من قبل المجلس الأعلى كافية لتحقيق الاستقرار المالي، والتي تضع حدودًا عليا على الدَّيْن الحكومي، لكي لا تصبح ديون دولة من دول الاتحاد على حساب قيمة العملة الموحدة. فالتزام جميع دول الاتحاد بالمعايير المالية التي تم الاتفاق عليها ضرورة لنجاح الاتحاد النقدي، والمحافظة على قيمة العملة الموحدة.

الآثار الاقتصادية للاتحاد النقدي:

ينطوي إقامة اتحاد نقدي على العديد من الآثار الاقتصادية الإيجابية والسلبية المباشرة وغير المباشرة على مستوى الاقتصاد الكلي والجزئي، وتتركز غالب التكاليف الاقتصادية من إقامة الاتحاد النقدي على إدارة الاقتصاد الكلي، بينما المنافع الاقتصادية للاتحاد تتركز في الاقتصاد الجزئي، والتي ينعكس أثرها على رفع مستوى الكفاءة الاقتصادية، وتحقيق معدلات نمو اقتصادي أعلى.

تتكون دول المجلس من اقتصاديات ذات أحجام اقتصادية صغيرة ما عدا السعودية التي تتمتع بحجم اقتصادي أكبر، والتي تمثل ما يعادل ٥٢٪ من إجمالي الدخل المحلي الإجمالي لدول المجلس. وبإنشاء الاتحاد النقدي؛ فإن دول المجلس ستصبح سوقًا واحدة ذات جاذبية أعلى للاستثمار المحلي والأجنبي. فكبر حجم السوق وإلغاء مخاطر العملات الوطنية، وتقاسم دول المجلس لمخاطر العملة الموحدة يساهم في تقليل مخاطر العملة على المستثمرين.

فالعملة الخليجية سوف تلغي مخاطر العملات الوطنية،



وتستبدلها بمخاطر العملة الخليجية الجديدة. فلكل عملة من عملات دول الخليج مخاطر تنعكس على رغبة المستثمرين في اقتنائها، أو الاستثمار طويل الأجل في المنطقة. فالمستثمر ينظر إلى استقرار العملة المحلية والتي هي انعكاس للاستقرار السياسي والاقتصادي للبلد، وتتمتع دول المجلس باستقرار سياسي واقتصادي انعكس على استقرار العملات الوطنية، والتي تم تثبيت سعرها مقابل الدولار، وحافظت السلطات النقدية على هذه العلاقة لعقود من الزمن. ولكون دول الخليج دولاً صغيرة؛ فإن هناك مخاطر لكل عملة من عملات دول المجلس.

وعند المقارنة بين مخاطر كل عملة من عملات دول المجلس على حدة والعملة الخليجية الموحدة، نجد أن العملة الخليجية سوف تكون أقل مخاطرة لاتحاد دول المجلس في تحمل هذه المخاطر سويًا، وكبر الحجم الاقتصادي لدول المجلس مع بعض مقارنة بكل دولة على حدة، والتي بعد اتحادها ستكون من أهم التكتلات الاقتصادية على مستوى العالم. فالعملة الموحدة يدعمها ما يعادل ٤٠٪ من الاحتياطي العالمي من النفط، و٢٣٪ من الاحتياطي العالمي من الغاز، والتي من المتوقع أن تزداد أهميتها الاستراتيجية مع تناقص إمدادات الطاقة من الدول الأخرى.

إن مخاطر العملة وعدم اليقين تجاه مستقبل العملة (Uncertainty) يؤثر على قدرة المستثمرين في التنبؤ بالعوائد المستقبلية لاستثماراتهم، وخاصة المستثمرين الذين يرغبون في الاستثمار في إحدى دول الاتحاد، بينما سوق الطلب على منتجاتهم في دولة أخرى من دول الاتحاد. هذا الأمر يدفع المستثمرين لطلب عائد أعلى على استثماراتهم مقابل عدم اليقين؛ مما ينعكس سلبًا على أسعار المنتجات أو يلغي قيام بعض الاستثمارات لعدم جدواها في هذه الحالة.

بالإضافة إلى ما سبق؛ فإن إلغاء تكاليف تحويل عملات دول الاتحاد فيما بينها، والتي تعتبر من أبرز الفوائد المباشرة التي ناقشتها الدراسات الاقتصادية، سوف تخفض التكاليف المباشرة من جراء تحويل العملة على المستثمرين. فالرسوم التي يدفعها المستهلك للبنك مقابل تحويل عملة بلد إلى عملة أخرى سوف يتم إلغاؤها؛ لأن جميع دول الاتحاد تتعامل بعملة واحدة مقبولة في جميع دول الاتحاد تحل مكان عملات الدول.

وتشكل هذه التكاليف هدرًا للموارد الاقتصادية المحلية لدول الخليج العربي؛ حيث يمكن أن يتم توفيرها سنويًا. فالحركة التجارية والسياحية بين دول المجلس في تزايد مما يحتم عليهم تحويل العملة إلى عملة البلد الآخر، ودفع الرسوم وفارق السعر بين البيع والشراء للعملة.

وقد تم تقدير هذه التكاليف للاتحاد الأوروبي من ١٣ إلى ٢٠ بليون يورو للسنة، والتي تعادل ١٪ من إجمالي الدخل المحلي الإجمالي لمنطقة الاتحاد الأوروبي (EC Commission 1990).

هذه الفائدة التي يجنيها المجتمع من إلغاء رسوم التحويل، والتي كانت تُدفَع في السابق للبنوك المحلية هي خسارة للبنوك التي تشكل هذه الرسوم جزءًا من مصادر أرباحها، ولكنها على مستوى المجتمع ككل تعتبر فائدة.

كما يؤدي إلغاء العملات الوطنية، واستبدالها بالعملة الخليجية إلى سهولة المقارنة بين الأسعار على مستوى المنطقة. حيث يؤدي استخدام عملات مختلفة إلى صعوبة المقارنة وتقليل المنافسة. فالمستهلك يسهل عليه المقارنة بين الأسعار في حالة التسعير بعملة واحدة.

فالحدود الجغرافية بين الدول واستخدام عملات مختلفة تُوجِد فروقات في الأسعار بين المنتجات المتشابهة. ففي دراسة (Engel and Rogers, 1995) لمقارنة فروقات الأسعار بين الولايات المتحدة وكندا في المدن المتجاورة كديترويت (الولايات المتحدة) وويندسر (كندا) والتي يفرق بينهم الحدود فقط، وجدت الدراسة أن هناك اختلافًا في الأسعار لنفس المنتَج مما يدل على أثر اختلاف العملات والحدود بين الدول في تقسيم الأسواق.



ولكــن الأثر الإيجابــي للعملة الموحــدة مرهون بتوفر المعلومات للمستهلكين، وسهولة الحركة التجارية بين دول الاتحاد، ووجود خطوط سريعة تساهم في النقل بين الــدول، ووجود تكاليف منخفضــة، وإلغاء جميع أنواع العوائق الجمركية المباشــرة وغير المباشــرة بين الدول، مما يشجّع على التنافسية لتخفيف فروقات الأسعار.

ومع هــذه الأهمية لتوحيد العملة لإيجاد الشــفافية في الأســعار، إلا أن التجــار في الغالب يعملون على تقســيم الأســواق حتى في البلد الواحد، وتمييز الأســعار حسب القوة الشــرائية والطلب في كل منطقة، والتي يمكن ملاحظتها في البلد الواحد. فالعملة الواحدة لن تلغي فروقات الأسعار، ولكنها تخففها لتصبح الفروقات مشابهة للفروقات في البلد الواحد.

كمــا أن الاتحاد النقــدي يوفر فرصًا للمستثمرين للاستثمار في إنشاء صناعات محليــة لتغطية الطلب المحلي الــذي يتم توفيره من خلال الــواردات، وبالتالــي زيــادة التبــادل التجــاري بــين دول المجلس. فالتبادل التجاري بين دول الخليج ٦٪، وهو آخذ في الزيــادة بعد الاتحــاد الجمركي والســوق الخليجية المشــتركة. وبما أن دول الخليج هي دول نامية يشــكل النفط في المتوسط ٨٠٪ من إجمالي صادراتها، وتستورد احتياجاتهــا من العالم الخارجي، فــإن التبادل التجاري بينها ضعيف؛ بسبب تصديرها لنفس السلعة.

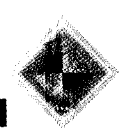
وللعملــة الموحدة أثر إيجابي في زيــادة التبادل التجاري بــين دول المجلس، كمــا أثبتته الدراســات الاقتصادية. لقد كانت نتائج الدراســات الاقتصادية في الثمانينيات عــن العلاقة بــين التبادل التجاري والاتحــاد النقدي غير مشــجعة، والــتي خلصت إلى أن العلاقــة ضعيفة جدًّا أو غير معنوية (IMF, 1984). لكن دراسة (Rose,2000) اســتطاعت أن تثبــت أن هنــاك علاقة قوية بــين التبادل التجاري والاتحاد النقدي؛ حيث وجد أن الدول الأعضاء في الاتحاد التي تستخدم نفس العملة زاد التبادل التجاري بينها في المتوسط ١٠٠٪ أعلى من الدول التي ليست عضوًا في الاتحاد النقدي.

وقد تتابعت الدراسات الاقتصادية بعد ذلك لتصل لنفس النتيجة التي وصلت لها دراسة (Rose) بوجود علاقة قوية بــين التبــادل التجــاري والاتحــاد النقــدي، ولكن حجم التأثير في الدراســات اللاحقــة كان أقل (Rose,٢٠٠٢). ولذا من المتوقع أن تســاهم العملة الموحدة في زيادة التبادل التجــاري بــين دول المجلس. فبإنشــاء الاتحــاد النقــدي يتســع حجم الســوق المحلي، وتصبح إقامة بعض المشاريع الاســتثمارية لتغذية الطلــب المحلي مجدية، في ظل انفتاح أســواق دول المجلس على بعضها، وتحولها بحكم العملة الواحــدة وانفتاح الحدود وإلغاء العوائق الجمركيــة لســوق اقتصاديــة واحدة تحتضن أكثر من ٣٢ مليون نسمة.

> الاتحــاد النقــدي يوفــر فرصًــا للمستثمرين للاستثمار في إنشاء صناعات محليــة لتغطية الطلب المحلي الذي يتم توفيره من خلال الــواردات، وبالتالي زيــادة التبادل التجاري بين دول المجلس.

كما أنه ســوف يقود إلى التنافســية بــين المنتجــين للســلع المتشــابهة لزيادة حصتهــم مــن الســوق الخليجــي؛ مما يرفع الكفــاءة الاقتصادية للمنتجين، ويخفض الأســعار النهائية على المســتهلكين للســلع التي كانــت تعانــي من احتــكار المنتج المحلــي، أو احتكار القلة، بالإضافة إلى تحسين الجودة والخدمات المقدمة.

ولا شك أن قدرة السوق الواحدة على الاستيعاب وإحلال الواردات ســوف يحقق أحد أهم الأهــداف التنموية لدول المجلــس لتنويع القاعــدة الاقتصادية بعيدًا عــن الاعتماد على النفط. فدول المجلس لازالت دولاً نامية تبلغ مساهمة القطــاع الصناعــي في إجمالي الناتج المحلي في المتوســط ٩٪، بينما القطاع النفطي تتجاوز مســاهمته في المتوسط ٤٠٪، وبإنشــاء الاتحــاد النقدي واندماج أســواق الســلع والخدمات لــدول المجلس؛ فإن المتوقع أن تنشــأ اعتمادية تبادلية بين اقتصاديات دول المجلس؛ وذلك بســبب اعتماد الطلــب النهائــي أو الوســيط على صناعــات وخدمات في الدولــة المجــاورة، كمــا يحــدث في الدولــة الواحدة من الاعتمادية بين المدن داخل الدولة نفســها، وقد يؤدي ذلك إلى تركــز الاســتثمارات حسب الميزة التنافسية لكل دولة في قطاع معين.



وهذا الأمر يساعد السلطة النقدية في إدارة السياسة النقدية؛ لتشابه الهياكل الاقتصادية، واعتمادها على بعض مما يُوحِّد مصادر التأثير الاقتصادي. ويرفع من الكفاءة الاقتصادية بسبب التنافسية، وانخفاض التكاليف وتوجيه الموارد الاقتصادية غير المميزة إلى استثمارات أكثر كفاءة؛ مما يحقق مستوى نمو اقتصادي أعلى، ويحسن مستوى الرفاهية الاقتصادية. وبما أن دول المجلس هي دولة نامية، والهيكل الاقتصادي لكل منها لازال تحت البناء، فإننا نتوقع أن يحدث تركز للاستثمارات حسب التخصص والميزة النسبية لكل دولة.

يؤدي الاتحاد النقدي إلى اندماج الأسواق المالية، وزيادة درجة العمق فيها وسيولتها؛ حيث يؤدي إنشاء الاتحاد وزيادة الحركة التجارية، وانفتاح الأسواق على بعض إلى سهولة الحصول على المعلومات للمستثمرين، وتوجيه السيولة بشكل أكثر كفاءة للمشاريع ذات العائد الأعلى وإلغاء ما يسمى التحيز للبلد؛ حيث أثبتت الدراسات التطبيقية أنه على الرغم من أن نظريات الاستثمار تفترض تنويع المستثمرين لمحافظهم على مستوى العالم، للاستثمار في دول أخرى لتقليل مخاطر الدولة، إلا أن المستثمرين يميلون للاستثمار في دولهم لسهولة الحصول على المعلومات ومعرفة الشركات المدرجة في السوق المحلي (country biase) .

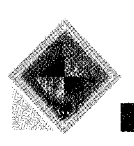
بما أن دول المجلس هي دولة نامية والهيكل الاقتصادي لكل منها لازال تحت البناء، فإننا نتوقع أن يحدث تركز للاستثمارات حسب التخصص والميزة النسبية لكل دولة

تنتج دول المجلس أكثر من ٢٣٪ من الإنتاج العالمي من النفط، وهذه الحصة سوف تزداد بزيادة الطاقة الإنتاجية لدول المجلس، وتقلص العرض من المصادر الأخرى، ولديها ما يعادل ٤٠٪ من الاحتياطي العالمي من النفط و٢٣٪ من الاحتياطي العالمي من الغاز. وتزداد أهمية المنطقة الاستراتيجية بتركز المخزون النفطي فيها. وفي حالة استخدام العملة الخليجية لتسعير النفط أو استلام عائدات النفط، بدلاً من الدولار؛ فإن هذا سوف يساهم في زيادة الطلب عليها عالميًّا، واحتفاظ البنوك المركزية بها كجزء من الاحتياطيات لتغطية فاتورة النفط من دول المجلس.

كما أن الاحتياطي الضخم من النفط والغاز لدى دول المجلس سوف يُوجِد ثقة لدى المستثمرين لاقتناء هذه العملة؛ لتخفيف المخاطر بتنويع العملات في محافظهم، خاصة إذا كانت العملة معومة وأثبت البنك الخليجي -المزمع إقامته- قدرته على إدارة السياسة النقدية لتحقيق الاستقرار الاقتصادي، والسيطرة على التضخم. بالإضافة إلى أن دول الشرق الأوسط التي تستخدم عملات أخرى إلى جانب عملتها المحلية، وبحكم أن السياح الخليجيين في هذ الدول يمثلون النسبة الكبرى من السياح، فإن ذلك سوف يشجّع على استخدام العملة الخليجية في تلك الدول إلى جنب العملة المحلية والعملات الأخرى. ولا شك أن الطلب على العملة الخليجية من خارج منطقة دول المجلس سوف يحقق عوائد إضافية لدول المجلس من سك العملة، كما سيدعم قوة العملة والمحافظة على قيمتها.

تنعكس العوامل السابقة، والتي تمثل في غالبها فوائد على مستوى الاقتصاد الجزئي في رفع كفاءة الاقتصاد الخليجي، وتحسين أدائه، مما يرفع من معدل النمو الاقتصادي، ويحقق رفاهية اقتصادية أعلى لمواطني دول المجلس، ففي دراسة (Edwards, 2003) وجد أن اشتراك مجموعة من الدول في عملة واحدة أدى إلى زيادة نمو الدخل المحلي للفرد، مقارنة بالدول التي احتفظت بعملتها في العينة التي خضعت للدراسة.

وفي الجانب الآخر، فإن الآثار السلبية للاتحاد النقدي قد تنحصر في التنازلات السيادية. فعند الدخول في الاتحاد النقدي لا بد من تقديم تنازلات سيادية على مستوى الدول؛ حيث تتنازل الدول عن السياسة النقدية لسلطة مشتركة فوق القومية تساهم الدول فيها، فبدلاً من التحكم الكامل في السطلة النقدية، وقدرة الدول على تغييرها للتأثير على الاقتصاد الوطني؛ فإن



السلطة فوق القومية هي المعنية في هذه الحالة، وتنظر إلى مصلحة المنطقة ككل، ولكن السياسة النقدية لدول الخليج، كما تم شرحه في السابق غير مفعَّلة؛ لارتباطها بالدولار والسياسة المالية هي المحرك الأساس للاقتصاد الخليجي، فدول المجلس بتنازلها عن السلطة النقدية لن تخسر شيئًا من الأدوات الفعلية التي اعتادت على استخدامها، بل يؤدي تركز السلطة النقدية لدول المجلس بيد بنك مركزي خليجي إلى قدرة أعلى في تفعيل السياسة النقدية لصالح المنطقة؛ فعلى الرغم من أن البعض يرى بأن ذلك من سلبيات الاتحاد النقدي إلا أن وضع دول المجلس يجعل ذلك من الإيجابيات التي قد تتحقق في حالة تفعيلها.

ومن السلبيات تقييد السياسة المالية، فيجب على الدول الأعضاء في الاتحاد النقدي الالتزام بالمعايير المالية، والتي تقيد السياسة المالية للدول، وقد تم ذكرها في المعايير المالية للدخول والاستمرار في الاتحاد النقدي. ويشكل التقيد بهذه المعايير إيجابية في حالة دول المجلس، والتي تعتبر السلطة التنفيذية هي السلطة المرجعية لبقية السلطات (القضائية والتشريعية)، فهذه المعايير مقيدة للسلطة التنفيذية، والتي قد تتمادى في زيادة العجز في الميزانية وارتفاع نسبة الديون المتراكمة، وتحميلها للأجيال القادمة في حالات انخفاض العائدات النفطية مما يؤثر على مستقبل الاقتصاد الوطني، ويدخله في مصيدة الديون التي يصعب الانفكاك منها، كما حدث في التسعينيات والتي أدت إلى ارتفاع نسبة الدين العام إلى الناتج المحلي الإجمالي أكثر من ١١٠٪ في السعودية.

كما أن مخاطرة الدخول في الاتحاد النقدي وإلغاء العملات الوطنية، ثم التراجع بعد فترة من الزمن لأي سبب اقتصادي أو سياسي ينطوي على تكاليف مباشرة وغير مباشرة تتحملها الدول، لذا فإن الإعداد الجيد والدقيق للاتحاد ضرورة قصوى تمليها المصلحة الوطنية لكل دولة من دول المجلس؛ بحيث لا تدفع الشعوب تكاليف الاتحاد النقدي وتحرم فوائده.

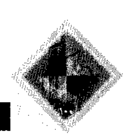
وعلى الرغم من أن قرار الدخول في الاتحاد النقدي يجب أن يُبنَى على مدى ما تجنيه الدول من فوائد اقتصادية للاقتصاد القومي، إلا أن القرار السياسي الموافق على تقديم هذه التنازلات السيادية هو المحدد الأساس للدخول في الاتحاد النقدي.

شروط تحقيق الفوائد الاقتصادية للاتحاد النقدي:

إن الفوائد الاقتصادية التي تم التطرق لها في الفصل السابق مشروطة بتوفر البيئة الاستثمارية والبنية التحتية، وتنسيق السياسات الاقتصادية لتحقيق فوائد الاتحاد النقدي. فالبيئة الاستثمارية لجميع دول المجلس يجب أن تكون متشابهة وإلا أدى ذلك إلى هروب الاستثمارات للدول الأفضل في خدمات الاستثمار، مما يؤثر سلبًا على التنمية الاقتصادية في الدول التي تعاني بيئة الاستثمار فيها من مشاكل بيروقراطية أو تعقيدات إدارية.

مما يحتم أهمية تنسيق السياسات الاقتصادية بين دول المجلس، حتى لا يكون هناك تنازلات في تقديم الإغراءات للمستثمرين على حساب رفاهية المواطن. كما أن توفر الطرق السريعة وخطوط السكك الحديدية وسهولتها بين الدول الأخرى يساهم في خفض تكاليف النقل والمواصلات، ومن ثم تخفيض القيمة النهائية للسلع والخدمات، وتحفيز الحركة التجارية بين دول المجلس.

كما تشكل العوائق الجمركية المباشرة وغير المباشرة وصعوبة الانتقال بين الدول تكاليف إضافية تتحملها شعوب المنطقة، وتعيق تحقيق الكفاءة الاقتصادية للاقتصاد الخليجي. لذا فإن تطبيق الاتحاد الجمركي بالكامل شرط ضروري لتحقيق الفوائد الاقتصادية من الاتحاد النقدي. كما أن توفر طرق المواصلات البرية والجوية والحديدية، وانخفاض تكاليفها يشجع الحركة التجارية، والسياحة البينية بين دول المجلس. كما يعتبر توفر المعلومات وسهولة الحصول عليها عن أسواق دول المجلس من الشروط الضرورية لتعظيم المنافع



الاقتصادية من الاتحاد النقدي؛ حيث تساعد المعلومات في اتخاذ القرار الاقتصادي السليم للمستهلك والتاجر.

إن صعوبة الحصول على المعلومات عن أسواق دول المجلس لسكان المنطقة أو ارتفاع تكلفة الحصول عليها يؤدي إلى فصل الأسواق عن بعضها، وعدم اندماجها، وتنعكس هذه التكاليف الإضافية في قيمة الخدمة أو المنتج وتضعف القدرة التنافسية. لذا يجب -حتى يتحقق فوائد الاتحاد النقدي- إنشاء السوق المشتركة بدون أي استثناءات (ما عدا الاستثناءات للسلع المحرمة شرعًا)، وإلغاء القيود على حركة الأفراد ورأس المال، وتنسيق التشريعات في هذا الخصوص، وخاصة ما يتعلق بالتأمينات الاجتماعية على العمالة؛ لتسهيل حركة العمالة بين دول المجلس حسب الظروف الاقتصادية، وتحقيق مبدأ المواطنة الكاملة بدون أي استثناءات لمواطني دول المجلس.

التحديات التي تواجه الاتحاد النقدي:

يمثل الاتحاد النقدي أعلى مراحل التكامل الاقتصادي، وعند الدخول فيه لا بد من تقديم تنازلات سيادية على مستوى الدول؛ حيث تتنازل الدول عن السياسة النقدية لسلطة مشتركة فوق القومية. كما يجب على الدول الأعضاء في الاتحاد النقدي الالتزام بالمعايير المالية، والتي تقيد السياسة المالية للدول.

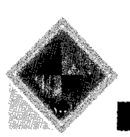
وعلى الرغم من أن قرار الدخول في الاتحاد النقدي يجب أن يبنى على مدى ما تجنيه الدول من فوائد اقتصادية للاقتصاد القومي، إلا أن القرار السياسي الراغب في تقديم هذه التنازلات السيادية هو المحدد الأساس للدخول في الاتحاد النقدي.

ودول مجلس التعاون هي دولة نامية يتسم القرار السياسي فيها بالأحادية، والسلطة التنفيذية هي المرجعية لبقية السلطات (القضائية والتشريعية)، مما يجعل اتخاذ القرارات المصيرية في يد السلطة التنفيذية، ويتأثر بمدى رغبتها في تقديم التنازلات السيادية للصالح العام. كما يتأثر قرار الاتحاد النقدي بالعلاقة السياسية بين الدول. ولذا فإن نجاح الاتحاد النقدي وقيامه في الوقت المحدد حسب الجدول المتفق عليه يعتمد على قدرة القرار السياسي على تجاوز هذه النقاط والنظر للمصلحة العامة في الأجل الطويل. ومن الملاحظ أن بداية الاتحاد النقدي كان بدافع من القرار السياسي، وذلك بتوقيع الاتفاقية الاقتصادية ٢٠٠٢م من قبل المجلس الأعلى لمجلس التعاون، والتي تعتبر أعلى سلطة سياسية، ولذا فإن من الضروري استمرار الدعم السياسي القوي لإنشاء الاتحاد النقدي.

وتعتبر الاتفاقية التي وقّعتها البحرين مع الولايات المتحدة من التحديات التي تواجه الاتحاد النقدي، حيث يستلزم ذلك إبقاء الجمارك بين دول المجلس والبحرين أو توقيع بقية دول المجلس نفس الاتفاقية مع الولايات المتحدة. وإبقاء الجمارك يمثل عائقًا يحول دون تعظيم المنافع الاقتصادية من الاتحاد النقدي.

كما يمثل تحويل الكويت من الربط بالدولار إلى الربط بسلة عملات، وارتفاع قيمة العملة الكويتية خلال الفترة الماضية أمام بقية عملات دول المجلس عائقًا آخر. والخيار المتاح أمام دول المجلس إما أن تتراجع الكويت عن الربط بالسلة، والذي قد لا يناسب الاقتصاد الكويتي في الوقت الحالي، أو أن تربط بقية دول المجلس عملاتها بنفس السلة، وتفك الارتباط بالدولار الأمريكي.

ومن المتوقع أن يواجه الاتحاد النقدي ضغوطًا سياسية من بعض الدول الكبرى، وبالذات من الولايات المتحدة الامريكية إذا توقعت أن العملة الخليجية الموحدة ستؤثر على مستقبل الدولار كعملة تسعير للنفط. وهذا الأمر يحكمه تقديرات الإدارة الأمريكية لمدى تأثير العملة الخليجية الموحدة، وقدرتها على الدخول في تنافس مع الدولار على تسعير النفط؛ نظرًا لضخامة الاحتياطيات النفطية لدول المجلس، وتقلص العرض من المصادر الأخرى مما يتيح لدول المجلس استخدام العملة الموحدة في التسعير لتحقيق الفوائد الاقتصادية في المستقبل.



المراجع:

- الأمانــة العامــة لمجلــس التعــاون لــدول الخليــج العربية ٢٠٠٧م. البيانــات الختامية لدورات المجلس الأعلى من الدورة الأولى إلى السابعة والعشرين، الرياض.

- موقــع الأمانــة العامة علــى الإنترنــت (www.gcc-sg.org).

- التقارير السنوية للبنوك المركزية الخليجية.

Rose,2000, "One Money One Market: Estimating the Effect of Common Currencies on Trade", Economic Policy; 30.

Rose,2002, "The Effect of Common Currencies on International Trade: A Meta-Analysis", mimeo, Haas School Business, University of California, Berkeley, CA.

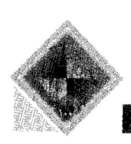
IMF, 1984," Exchange Rate Volatility and World Trade: A Study by the Research Department of IMF", Occasion Papers, No.28.

Engel and Rogers, 1995, "How Wide is the Border?" International Finance Discussion Paper, No.498, Board of Governors of Federal Reserve System.

EC Commission 1990, "One Market, One Money" European Economy, 44.

Edwards, 2003

Horvath, Roman and Lubos Komarek 2002, "OPTIMUM CURRENCY AREA THEORY: AN APPROACH FOR THINKING ABOUT MONETARY INTEGRATION". WARWICK ECONOMIC RESEARCH PAPERS, university of Warwick.



معلومات إضافية

التعاون التجاري بين دول مجلس التعاون الخليجي

اهتمت دول مجلس التعاون ومنذ إنشاء المجلس بالمجال التجاري، وعملت على تعزيزه وتطويره بما يعود بالنفع على دول ومواطني دول المجلس، ويعزز المناخات الاستثمارية والتجارية. وتبنّى مجلس التعاون سياسة تجارية موحدة في إطار التعامل مع العالم الخارجي ومنظمة التجارة العالمية، والمنظمات الدولية والإقليمية الأخرى كوحدة اقتصادية واحدة لتنشيط التبادل التجاري والاستثماري مع العالم الخارجي، وتوسيع أسواق صادرات دول المجلس وزيادة قدرتها التنافسية.

كما عمل المجلس على تحسين شروط نفاذها إلى الأسواق العالمية، وتشجيع المنتجات الوطنية والدفاع عنها في الأسواق الخارجية، وحماية الأسواق المحلية، وكذلك تفعيل دور القطاع الخاص في تنمية صادرات دول المجلس من السلع والخدمات. كما تهدف هذه السياسة أيضًا إلى تبني دول المجلس سياسة تجارية داخلية موحدة تضمن تسهيل انسياب تنقل المواطنين والسلع والخدمات ووسائط النقل، وتأخذ في الاعتبار المحافظة على البيئة وحماية المستهلك.

القوانين والأنظمة الموحدة التي أقرها المجلس لتحقيق هذا التعاون:

لتحقيق هذه الأهداف أقر المجلس الأعلى عددًا من القوانين والأنظمة الموحدة اللازمة لتوحيد وتقريب سياسات دول المجلس التجارية الخارجية والداخلية، والتي منها :

١ ـ اعتماد وثيقة السياسة التجارية الموحدة التي تهدف إلى توحيد السياسة التجارية الخارجية لدول المجلس بموجب قرار المجلس في دورته السادسة والعشرين (أبو ظبي، ديسمبر ٢٠٠٥م).

٢ ـ اعتماد قانون (نظام) العلامات التجارية بدول المجلس بموجب قرار المجلس في دورته السابعة والعشرين التي عقدت بالمملكة العربية السعودية عام ٢٠٠٦م.

٣ ـ اعتماد النظام الأساسي لهيئة المحاسبة والمراجعة لدول مجلس التعاون، وذلك بموجب قرار المجلس في دورته التاسعة عشرة (أبوظبي، ديسمبر ١٩٩٨)، وقد بدأت الهيئة في ممارسة نشاطها بعد إنهاء مرحلة التأسيس.

وفي إطار تعزيز المواطنة الاقتصادية، وتمكين أبناء دول المجلس من ممارسة النشاط التجاري في الدول الأعضاء، قرّر المجلس الأعلى ما يلي:

٤ ـ السماح لمواطني الدول الأعضاء بمزاولة تجارة التجزئة في أي دولة عضو، ومساواتهم بمواطني الدولة اعتبارًا من أول مارس ١٩٨٧م، وكذلك السماح لمواطني الدول الأعضاء بمزاولة تجارة الجملة في أي دولة عضو ومساواتهم بمواطني الدولة اعتبارًا من أول مارس ١٩٩٠م، وذلك تنفيذًا لقرار المجلس في دورته السابعة (أبو ظبي، ديسمبر ١٩٨٦م).

٥ ـ تطبيق المساواة التامة في المعاملة بين مواطني دول المجلس في مجال تملك وتداول الأسهم وتأسيس الشركات، وإزالة القيود التي قد تمنع من ذلك في موعد أقصاه نهاية عام ٢٠٠٣م، وذلك تنفيذًا لقرار المجلس في دورته الثالثة والعشرين (الدوحة، ديسمبر ٢٠٠٢م).

٦ ـ السماح للمؤسسات والوحدات الإنتاجية في دول المجلس بفتح مكاتب لها للتمثيل التجاري في أي دولة عضو،

وذلك تنفيذًا لقرار المجلس في دورته الثانية عشرة (الكويت، ديسمبر ١٩٩١م)، وكذلك السماح باستيراد وتصدير المنتجات الوطنية من وإلى دول المجلس دونما الحاجة إلى وكيل محلي.

٧- الموافقة على إقامة مركز التحكيم التجاري لدول المجلس وعلى نظام المركز، وذلك بموجب قرار المجلس في دورته الرابعة عشرة (الرياض، ديسمبر ١٩٩٣م). وقد أقيم المركز في مملكة البحرين، وأعلن عن قيامه رسميًا في مارس ١٩٩٥م.

٨- إنشاء هيئة التقييس لدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية، وذلك بموجب قرار المجلس في دورته الثالثة والعشرين (الدوحة، ديسمبر ٢٠٠٢م).

٩- العمل على تحويل عدد من القوانين والأنظمة التجارية من استرشادية إلى إلزامية، واستكمال إعداد مشروعات قوانين وأنظمة جديدة أخرى.

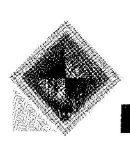
الواردات البينية لدول مجلس التعاون الخليجي من عام ٢٠٠٠ م إلى ٢٠٠٥ م

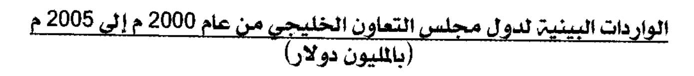
(بالمليون دولار)

السنة	٢٠٠٠ م	٢٠٠١ م	٢٠٠٢ م	٢٠٠٣ م	٢٠٠٤ م	٢٠٠٥ م
الإمارات العربية المتحدة	١٢٣٦,٦	١٤٧٨,٩	١٨١٧,٢	٢٠٢٣,٨	٢٥٤٦,٨	٢٩٠٦,٨
مملكة البحرين	٣٧٧,٧ ❖	٣٩٨,٩ ❖	٤٩٧,٣ ❖	٥٧٨,٧ ❖	٦٩٦,٥ ❖	٧٣٧,٩٥❖
المملكة العربية السعودية	١٠٧٨,٦	١٢١٤,١	١٤٨٣,٠	١٦٨٨	٢٢٧٦,٥	٢٧٢٨,٨
سلطنة عمان	١٦٧٣,٠	١٩٢٤,٦	١٩٩٣,١	١٨٢٦,٠	٣٠١٠,٨	٢٧٨٨,٨
دولة قطر	٤٨٣,٤	٤٥٧,٢	٦٢٣,٧	٧٣٠,٩	١١٠٢,٦	١٤٠٨,٠
دولة الكويت	٨٥١,٤	٨٧٧,٩	٩٨٨,٤	١٢٥٧,٨	١٦٨٥,٥	١٧٤٣,٠❖❖
المجموع	=SUM(ABOVE) ٥٧٠٠,٧	٦٣٥١,٦	٧٤٠٢,٧	٨١٠٥,٣	١١٣١٨,٧	١٢٣١٣,٣

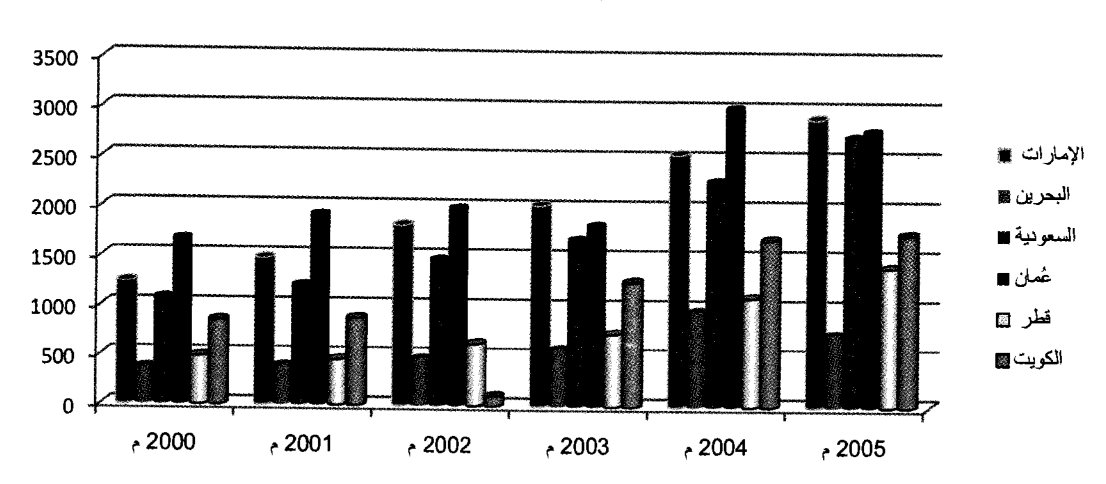
❖ لا تشمل النفط.

❖❖ وفقًا لبيانات صندوق النقد الدولي.





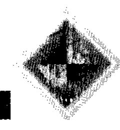
الواردات البينية لدول مجلس التعاون الخليجي من عام 2000 م إلي 2005 م
(بالمليون دولار)

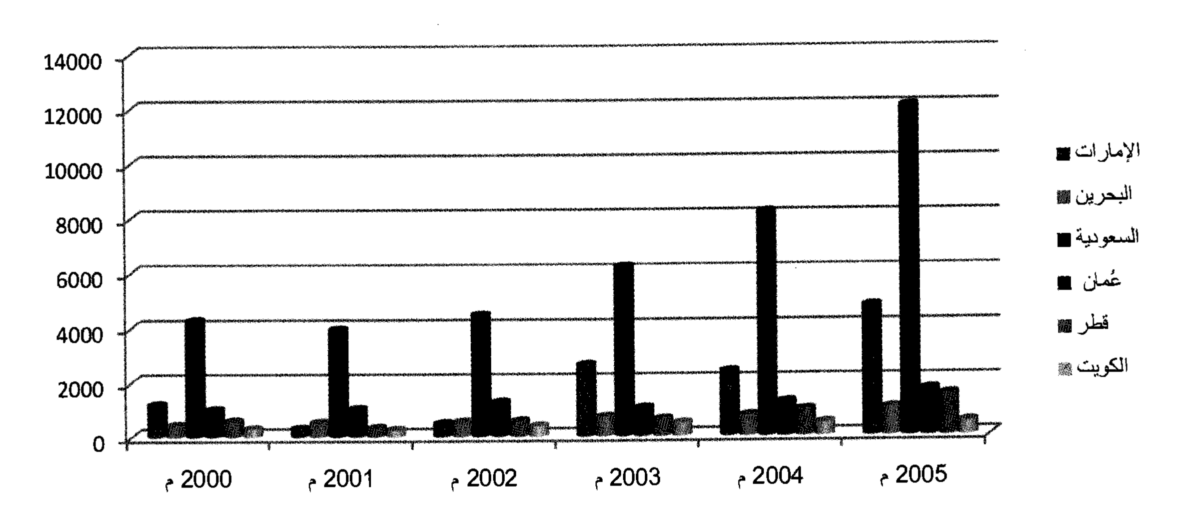


الصادرات البينية لدول مجلس التعاون الخليجي من عام ٢٠٠٠ م إلى ٢٠٠٥م

(بالمليون دولار)

السنة	٢٠٠٠ م	٢٠٠١ م	٢٠٠٢ م	٢٠٠٣ م	٢٠٠٤ م	٢٠٠٥ م
الإمارات العربية المتحدة	١١٨٩,٩	٣١٤,٧	٤٩٠,٣	٢٦٣٣,٧	٢٣٩٧,١	٤٧٦٣,٧
مملكة البحرين	٤٢٨,٧	٥٢٣,٠	٥٤٢,٠	٧٣١,٦	٧٧٤,٧٤	١٠٤٥,٧
المملكة العربية السعودية	٤٢٧٠,٢	٣٩٣٧,١	٤٤٦٣,٤	٦٢١٥,٧	٨٢٠٣,٧	١٢٠٥٧
سلطنة عمان	١٠٠٣,٢	١٠٣١,١	١٢٧٢,٠	١٠٦٢,١	١٢٥٧,٤	١٧١٨,٦
دولة قطر	٥٧٨,٤	٣٣٤,١	٥٧٣,٢	٦٤٨,٠٩	٩٨٣,١٣	١٥٢٦,٩
دولة الكويت	٣٠٦,٥	٢٥٤,٦	٣٩٣,٥	٤٨٨,٨٤	٤٨٩,٣١	٥١٨,٤٩
المجموع	٧٧٧٦,٩	٦٣٩٤,٧	٧٧٣٤,٤	١١٧٨٠,٠	١٤١٠٥,٤	٢١٦٣٠,٥

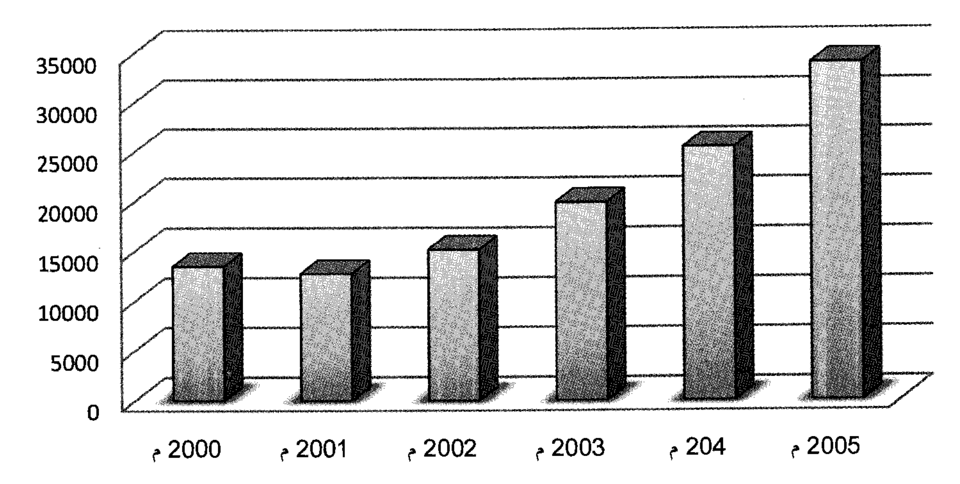




إجمالي التجارة البينية لدول مجلس التعاون الخليجي (صادرات - واردات)

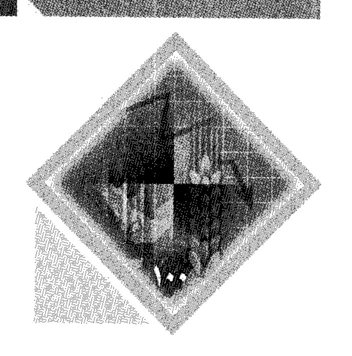
(بالمليون دولار)

السنة	٢٠٠٠ م	٢٠٠١ م	٢٠٠٢ م	٢٠٠٣ م	٢٠٠٤ م	٢٠٠٥ م
القيمة	١٣٤٧٧,٦	١٢٧٤٦,٣	١٥١٣٧,١	١٩٨٨٥,٣	٢٥٤٢٤,١	٣٣٩٤٣,٨



المصدر:

موقع الأمانة العامة لمجلس التعاون لدول الخليج العربية http://www.gcc-sg.org



مشكلة الغذاء وتأثيرها استراتيجيًّا على العالم الإسلامي

عبدالحافظ الصاوي

خبير اقتصادي

ملخص الدراسة

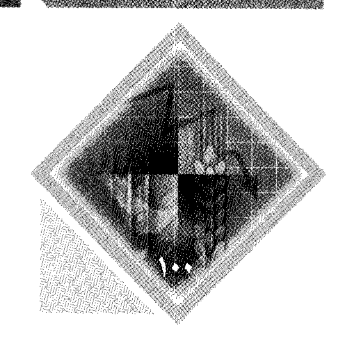
في ظل ارتفاع أسعار السلع الغذائية المتزايد في السوق العالمي، منذ عام ٢٠٠٦م وحتى النصف الثاني من عام ٢٠٠٨م، أحاطت أزمة الغذاء بعنق العديد من البلدان، وانضم نحو ٥٠ مليون فرد إلى قائمة الجياع، ليصل عددهم قرابة المليار فرد، وكان وقع الأزمة على البلدان النامية أشد؛ لاعتبار أن هذه البلدان مستوردة لكميات كبيرة من احتياجاتها من الغذاء.

ولم تكن هذه الأزمة هى الأولى من نوعها، فالتاريخ يرصد أنها وقعت غير مرة. ومع ذلك لم تستوعب كثير من الدول الإسلامية الدرس. فكانت عرضة لتقلبات السوق في الأسعار والكميات، وكان لذلك أثره على استقرار الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في العديد منها.

ولم تختلف مشكلة الغذاء الحالية عن سابقتها من حيث كونها أزمة من صنع الإنسان، إما بسوء التدبير، وتفضيل احتياجات الأغنياء على المتطلبات الأساسية للفقراء، أو نتيجة استغلال هذه الظروف من قبل المضاربين والمحتكرين لتحقيق أكبر قدر من الأرباح، وإن كانت هناك بعض العوامل الطبيعية مثل التغييرات المناخية ساعدت على تفاقم الأزمة. ولكن الحقيقة الواضحة أن الدول المتقدمة تعاملت مع مشكلة الغذاء بمنطق ماديّ بحت، بعيد كل البعد عن الجانب الإنساني الذي يحيط بالمشكلة من كل جوانبها.

وتكمن خطورة مشكلة الغذاء في البلدان الإسلامية في بُعدها الاستراتيجي والحضاري، فالمفترض أن هذه البلدان تمثل أمة لها رسالة. ولا شك أن عجزها عن توفير متطلباتها من الغذاء أدعى لنكوصها عن تقديم رسالتها للآخر، ما يستدعي وضع حلول عاجلة وفاعلة للنهوض من هذه الأزمة.

ويهدف هذا البحث إلى التعرف على مشكلة الغذاء على الصعيدين العالمي والإسلامي، من حيث مظاهرها وأسبابها، والجهود التي بذلت لمواجهتها، سواء من قِبَل المنظمات الدولية أو الإقليمية، كما تتناول الأثر الاستراتيجي للمشكلة في إطار سيناريوهين، هما: بقاء آلية التعامل مع المشكلة على ما هي عليه. والثاني تبني استراتيجيات بديلة تجمع أدوار الدول والمنظمات الأهلية والأفراد، بما يمكّن البلدان الإسلامية من الوصول إلى حل لهذه المشكلة وعدم الوقوع فيها، على الأجل الطويل، بالحجم والصورة الحاليتين.



مشكلة الغذاء وتأثيرها استراتيجيًّا على العالم الإسلامي

عبدالحافظ الصاوي
خبير اقتصادي

مقدمة:

في ظل ارتفاع أسعار السلع الغذائية المتزايد في السوق العالمي، منذ عام ٢٠٠٦م وحتى النصف الثاني من عام ٢٠٠٨م، أحاطت أزمة الغذاء بعنق العديد من البلدان، وكان وقع الأزمة على البلدان النامية -ومن ضمنها البلدان الإسلامية- أشد؛ لاعتبار أن هذه البلدان مستوردة لكميات كبيرة من احتياجاتها من الغذاء.

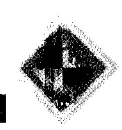
وعلى الرغم من وجود أسباب ظاهرة لهذه المشكلة، إلا أن الأيدي الخفية كان لها دور في افتعال المشكلة بشكل أكبر، فقد صرَّح الأمين العام للأمم المتحدة بان كي مون أن «مشكلة الغذاء من صنع أيدينا». ويظهر بوضوح دور الأيدي الخفية من خلال إصرار الدول المتقدمة على استخدام السلع الزراعية، وخاصة الغذائية منها، في إنتاج الوقود الحيوي.

وقد تعاملت الدول المتقدمة مع مشكلة الغذاء بمنطق ماديّ بحت، بعيد كل البعد عن الجانب الإنساني الذي يحيط بالمشكلة من كل جوانبها، فدون مواربة صرحت المستشارة الألمانية بقولها: «اذهبوا إلى الهند ستجدون نحو ٣٠٠ مليون فرد يطالبون بتناول الوجبة الثانية يوميًّا!»، وهو ما ردده لاحقًا الرئيس الأمريكي. وقد أتت هذه التصريحات في سياق الحديث عن حق الدول المتقدمة في عدم التنازل عن إنتاج الوقود الحيوي من السلع الغذائية التي تمثل احتياجات أساسية للبشر. وهو ما يكشف بوضوح عن وجه حضارة الغرب، حضارة حقوق الإنسان!! في القرن الحادي والعشرين.

ومن هنا ندرك ذلك الفرق الكبير بين تلك الحضارة وبين مقومات الحضارة الإسلامية، التي أعلت من شأن الإنسان، وكفلت له حقه في احتياجاته الأساسية - المأكل، والمشرب، والملبس، والمسكن، والدابة - في إطار يحفظ عليه كرامته الإنسانية، وبما يكفل له حياة كريمة، وهو ما اصطُلِحَ عليه في الأدبيات الشرعية بحق الكفاية، فالحق -تبارك وتعالى- يقول: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾(الإسراء: ٧٠).

مشكلة البحث:

تضم منظمة المؤتمر الإسلامي ٥٦ دولة، من بينها نحو ٢٦ دولة تُصَنَّف ضمن مجموعة البلدان الأشد فقرًا في العالم (تضم هذه المجموعة ٥٢ دولة على مستوى العالم، أي أن نصف هذه المجموعة من البلاد الإسلامية)، وقد أُضيرت هذه الدول بشكل كبير من جرّاء ارتفاع أسعار الغذاء، وتشير التقديرات لانضمام نحو ٥٠ مليون فرد إلى قائمة



الجياع، ليصل عددهم قرابة المليار فرد. ويأتي هذا الوضع على الرغم من أن بلدان العالم الإسلامي تضم أكثر من نصف مليار فرد يعملون في الزراعة، وتتوافر للعالم الإسلامي نحو ١٨٪ من الأراضي الصالحة للزراعة في العالم، وهناك ثروات طائلة للمسلمين، من ضمنها على سبيل المثال الاستثمارات العربية في الخارج، والتي تقدر بـ١,٥ تريليون دولار، وأيضًا ذلك العجز في الميزان التجاري الزراعي لدول العالم الإسلامي.

وتأتي أهمية دراسة مشكلة الغذاء بالنسبة للعالم الإسلامي من كونها تشكّل أحد جوانب العجز لجميع بلدانه، الفقيرة منها والغنية، وأيضًا ما يرتبط بالغذاء بسبب كونه سلعة استراتيجية؛ فعدم تأمين الغذاء مشكلة لها تداعياتها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والإنسانية.

منهج البحث:

يستخدم الباحث المنهج الوصفي التحليلي المكتبي، من خلال استخدام ما ورد من بيانات ومعلومات عن مشكلة الغذاء على الصعيد العالمي بشكل عام، وما ورد عن بلدان العالم الإسلامي بوجه خاص، وذلك من أجل التعرف على المشكلة وحجمها، وسبل التعامل والخروج منها، ورصد تأثيرها الاستراتيجي على بلدان العالم الإسلامي.

وتأتي مشكلة الغذاء منهجيًا في إطار مفهومي: الاكتفاء الذاتي غذائيًا، والأمن الغذائي. وهو ما يستتبع أن نعرف كلاً منهما في إيجاز:

الاكتفاء الذاتي من الغذاء: هناك نوعان من الاكتفاء الذاتي غذائيًا، وهما: الاكتفاء الكلي، والاكتفاء الجزئي، ويقصد بالاكتفاء الذاتي «قدرة المجتمع على تحقيق الاعتماد الكامل على النفس والموارد والإمكانيات الذاتية في إنتاج كل احتياجاته الغذائية محليًا». ويطرح هذا التعريف مجموعة تساؤلات منها: ما طبيعة الاكتفاء الذاتي المستهدَف؟ ومدى إمكانية تحقيقه عمليًا؟ والمفاضلة بين تحقيق الاكتفاء الذاتي في حدود الموارد والإمكانيات المتاحة؟ وينظر البعض إلى مفهوم الاكتفاء الذاتي على أنه مفهوم طوباوي في ظل الميزة النسبية للتجارة، وطبيعة التبادل التجاري العالمي، والبدائل المتاحة.

أما الأمن الغذائي فهو أرحب من حيث الانفتاح على الآخر، ويقصد به «قدرة المجتمع على توفير احتياجاته الغذائية الأساسية لأفراد الشعب، وضمان حد أدنى من تلك الاحتياجات بانتظام»، ويشير هذا المفهوم إلى ثلاثة عناصر أساسية هي: وفرة السلع الغذائية، استقرار السلع من حيث احتياجات وإمداد السوق بها، إمكانية المواطنين المادية للحصول على السلع.

والفارق بين المفهومين هو أن الأمن الغذائي يصلح في حالة الاستقرار والأمن العالميين، وهذا غير متاح في عالمنا اليوم؛ حيث إن الفائض لدى الدول المصدّرة للحبوب في عالم اليوم أصبح أداة تُستغل للضغط الاقتصادي والسياسي على دول العجز الغذائي.

بينما الاكتفاء الذاتي يؤمن للدولة أو التجمع الإقليمي عدم الخضوع لتلك الضغوط، ويمكّنه من الاستقلال فيما يتعلق بوجوده، وأمنه القومي. فحتى الذين روّجوا لمفهوم الأمن الغذائي أشاروا إلى أهمية تأمين السلع الأساسية لأيّ قُطْر، وهذه السلع هي: (القمح، الأرز، الذرة) كمستوًى أول، ثم (السكر، اللحوم، البيض، السمك) كمستوى ثانٍ.

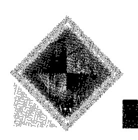
ولكن بإنزال هذه المفاهيم على واقع بلدان العالم الإسلامي نجد أنها تفتقد بشكل كبير إلى تحقيق أيّ من المفهومين، سواء الاكتفاء الذاتي أو الأمن الغذائي.

المقصود ببلدان العالم الإسلامي في هذا البحث:

الدول الأعضاء في منظمة المؤتمر الإسلامي، والبالغ عددها نحو ٥٦ دولة.

محتوى البحث:

أولاً: مظاهر أزمة الغذاء عالميًا، وموقف الدول الإسلامية منها.



ثانيًا: أسباب أزمة الغذاء.
ثالثًا: تأثير الأزمة استراتيجيًّا على العالم الإسلامي.
رابعًا: الجهود التي بُذِلَت لمواجهة الأزمة.
خامسًا: حلول لمواجهة الأزمة.
خاتمة.
الجدول والمصادر.

أولاً: مظاهر أزمة الغذاء عالميًّا وموقف الدول الإسلامية منها

تدني مستويات المخزون الاستراتيجي من الغذاء:

أظهرت أزمة الغذاء وجود انخفاض في المخزون العالمي من الحبوب لم يصل إليه منذ ٣٠ سنة، فقد انخفض المخزون العالمي من الحبوب خلال عام ٢٠٠٨م بنسبة ٥٪ عما كان عليه في عام ٢٠٠٧م، وهو ما يكفي فقط احتياجات سكان العالم من الحبوب لفترة من ٨ - ١٢ أسبوعًا.

الارتفاع المستمر في أسعار الغذاء:

شأن أزمات الغذاء التي مر بها العالم من قبل، كان ارتفاع أسعار الغذاء قرين ارتفاع أسعار الطاقة كما حدث في أزمة ١٩٧٤م. وكذلك أزمة الغذاء التي تفجرت مع أواخر عام ٢٠٠٧م وأوائل عام ٢٠٠٨م، لم تكن وليدة التوّ واللحظة[1].

ولكن الأسواق الدولية كانت تشهد إرهاصاتها منذ عام ٢٠٠٣م؛ حيث كانت بدايات ارتفاع أسعار النفط والمواد الأولية الأخرى، ثم تبع ذلك أسعار السلع الزراعية والغذائية. كما كان لارتفاع أسعار النفط أثره المباشر على ارتفاع أسعار العديد من السلع الزراعية والغذائية؛ نظرًا لارتفاع تكلفة النقل والشحن، فضلاً عن ارتفاع تكلفة السلع الغذائية المصنَّعة، والتي تعتمد في التشغيل على النفط في توليد الطاقة اللازمة لعملها. أو ما ترتب على ارتفاع أسعار النفط من وجود موجات تضخمية ساهمت بدورها في ارتفاع أسعار السلع الزراعية والغذائية، ويتوقع البنك الدولي أن تستمر موجة ارتفاع أسعار الغذاء خلال عامي ٢٠٠٨م و٢٠٠٩م، وأن تستمر حتى عام ٢٠١٥م، وعلى أية حال لن تقل أسعار الغذاء بصفة عامة عما كانت عليه في عام ٢٠٠٤م.

ويوضح الجدول التالي ارتفاع أسعار السلع الغذائية، وبعض السلع الأساسية الأخرى، وتشير بيانات البنك الدولي إلى أن أسعار السلع الغذائية شهدت خلال السنوات الثلاث (بداية ٢٠٠٥م – نهاية ٢٠٠٧م) ارتفاعًا نسبته ٨٥٪، عما كانت عليه في بداية الفترة، وأن القمح وحده شهد ارتفاعًا قدره ١٨١٪ خلال نفس الفترة[2].

التطور في أسعار بعض السلع الأساسية في الأسواق العالمية[3] خلال الفترة ٢٠٠٦ – ٢٠٠٨م

السلعة	سعر الطن بالدولار		
	عام ٢٠٠٦م	عام ٢٠٠٧م	عام ٢٠٠٨م
القمح	١٥٠,٦	١٨٨,٨	٣٧٥,١
الذرة الصفراء	١٠٤,٤	١٦٢,٤	١٩٩,٢
زيت فول الصويا	٥٣٨,٦	٧١٣,٦	١٢٤٠,٤
السكر	٣١٥,٨	٣٤١,٥	٣٥٧,٤
سماد اليوريا	٢٣٥,٢	٢٩٧,٣	٤٠٠,٣

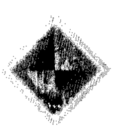
وتوضح البيانات المذكورة في الجدول السابق أن أسعار القمح خلال الفترة من فبراير ٢٠٠٦م إلى فبراير ٢٠٠٧م، ومن فبراير ٢٠٠٧م إلى فبراير ٢٠٠٨م قد زادت بنسبة ٢٤,٤٪ ثم ٩٨,٧٪ على التوالي، وكانت الزيادة في أسعار زيت فول الصويا خلال نفس الفترة ٣٢,٥٪ و٧٣,٨٪ على التوالي، وكانت الزيادة في أسعار الذرة الصفراء بنسبة ٥٥,٦٪ و٢٢,٦٪.

أما سماد اليوريا فقد شهد زيادة في أسعاره خلال

(١) د. محمد عبدالبديع، «أزمة الغذاء ماضيها وحاضرها»، جريدة الأهرام المصرية ٧/٨/٢٠٠٨م.

(٢) موقع البنك الدولي، http://web.worldbank.org/WBSITE/con,,٠/EXTERNAL/EXTARABICHOME/NEWSARABIC theSi~٤٣٧٣٧٦:piPK~٦٤٢٥٧٠٤٣:pagePK~٢١٧٢٣٢٠٢:tentMDK tePK:١٠٥٢٢٩٩,٠٠.html تاريخ الزيارة ٥/٨/٢٠٠٨م.

(٣) مركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار، نشرة المؤشرات الاقتصادية والاجتماعية لجمهورية مصر العربية المجلد ١٦، مارس ٢٠٠٨م ص ٤.



نفس الفترة بلغت نسبتها ٢٦,٤٪ و٣٤,٦٪ على التوالي[٤].

وقد أدى ارتفاع أسعار السلع الزراعية والغذائية إلى وجود العديد من الاضطرابات السياسية والاجتماعية في بلدان العالم الإسلامي، الغنية منها والفقيرة، فخرجت المظاهرات للاعتراض على ارتفاع الأسعار في اليمن والمغرب، وإندونيسيا ومصر وبنجلاديش وباكستان والسودان. وهناك ٣٦ دولة تواجه أزمات بسبب ارتفاع أسعار الغذاء، وتضم إفريقيا وحدها نحو ٢١ دولة من هذه الدول، وتشكل البلدان الإسلامية جزءًا لا يُستهان به من الدول التي تواجه أزمات.

تزايد عدد الجوعى والفقراء من جراء استمرار أزمة الغذاء:

خلال الفترة بين ١٩٧٠ - ١٩٩٧م انخفض عدد الجوعى في العالم بنحو ٧٠ مليون نسمة؛ نظرًا للجهود التي بُذِلَت في كل من الهند والصين لمكافحة الجوع، إلا أن منتصف عقد التسعينيات شهد بدء تزايد أعداد الجوعى في العالم مرة أخرى، فوصل عددهم في عام ٢٠٠٥م نحو ٨٥٤ مليون نسمة [٥]. ومع حلول أزمة الغذاء في نهاية عام ٢٠٠٧م ومطلع عام ٢٠٠٨م أشارت التوقعات إلى انضمام ما يقدر بـ ٥٠ مليون إلى ١٠٠ مليون إلى عدد الجوعى؛ نظرًا لارتفاع أسعار الغذاء، وعدم مقدرتهم على تلبية احتياجاتهم الغذائية.

وإذا كانت أسباب الجوع قبل منتصف السبعينيات ترجع إلى الفيضانات والأعاصير والحروب؛ فإن الأزمة منذ منتصف التسعينيات عرفت تداعيات العولمة على هذه المشكلة، من خلال سيطرة الشركات متعدية الجنسية على مقدرات إنتاج الغذاء في العالم. فتشير إحدى الدراسات [٦] إلى أن عشر مؤسسات تسيطر على ٣٢٪ من السوق التجاري للبذور، وتقدر قيمتها بـ٢٣ مليار دولار أمريكي، هذا بالإضافة إلى سيطرتها على نسبة ١٠٠٪ من البذور المعدلة وراثيًا، وتسيطر هذه الشركات على الكيماويات والمبيدات، وتوجد أيضًا خمس شركات تسيطر على التجارة العالمية للحبوب، وقد شاركت كبرى هذه الشركات «كارجيل» و«مونسانتو» في تشكيل اتفاقيات جولة أرجواي، والتي تمخّض عنها ميلاد منظمة التجارة العالمية.

ثانيًا: أسباب أزمة الغذاء

أ - أسباب عالمية:

التغيرات المناخية السالبة:

أشار تقرير التنمية البشرية العالمي لعام ٢٠٠٧م إلى أن المخاطر المتوقعة من استمرار انبعاثات ثاني أكسيد الكربون سوف تؤدي إلى انهيار أنظمة الزراعة؛ نتيجة الجفاف والفيضانات، وارتفاع دراجات الحرارة، وتقلُّب مواسم نزول الأمطار، وهو ما سينبني عليه تعرّض نحو ٦٠٠ مليون شخص لسوء التغذية. كما أن مناطق جنوب الصحراء في إفريقيا -والتي تعاني من أعلى تركيز لنِسَب الفقر في العالم- من المتوقع أن تفقد المنتجات الزراعية فيها ما نسبته ٢٦٪ بحلول عام ٢٠٦٠م. كما ستتعرض مناطق أخرى بالعالم في كل من بنجلاديش وفيتنام ومصر للفيضانات الناتجة عن الاحتباس الحراري، خاصة وأنها من المناطق المنخفضة، ويقدّر العدد المتوقع للمضارين بهذه البلدان بـ٧٠ مليونًا، و٢٢ مليونًا، و٦ ملايين، على التوالي [٧].

وقد شهدت مناطق عدة من العالم تغيرات مناخية سالبة، أدت إلى التأثير على حجم إنتاج الغذاء، وقد عاشت هذه التغيرات بلدانٌ متقدمة وأخرى نامية، وكان تأثيرها بلا شك على الدول النامية أشدّ، ففي إندونيسيا مثلاً كانت ندرة الأمطار وطول موسم الجفاف سببًا في تعرض سكان نحو ١٣٧ قرية في شرق

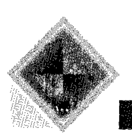
---

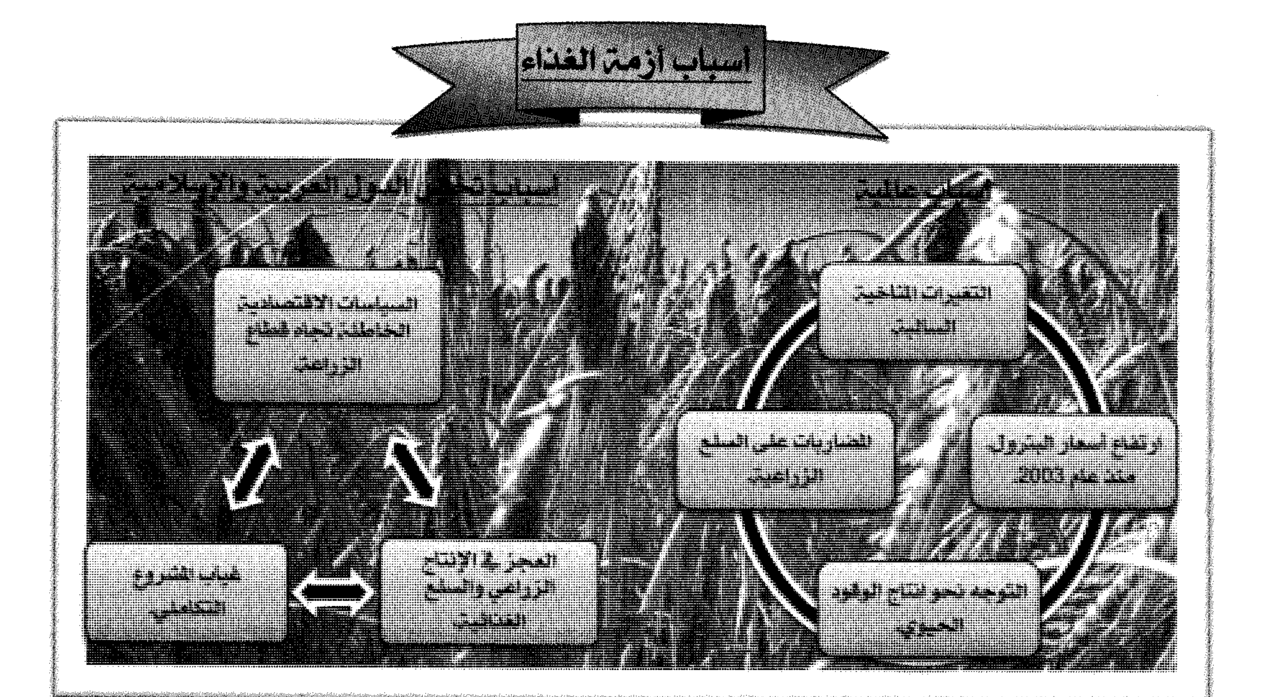
(٤) وزارة التنمية الاقتصادية، خطة التنمية الاقتصادية والاجتماعية لعام ٢٠٠٨/٢٠٠٩م، ص ٩.

(٥) برنامج الغذاء العالمي: http://www.wfp.org/Arabic/?ModuleID=131&Key=6http://www.wfp.org/Arabic/?ModuleID=131&Key=6 تاريخ الزيارة ٣٠/٧/٢٠٠٨م.

(٦) ابتسام محمد الخضراء (مترجم)، فاندانا شيفا، «الحصاد المسروق.. سرقة مصدر الغذاء العالمي»، مؤسسة العبيكان، الرياض ٢٠٠٣م، ص ١٩ .

(٧) عبدالحافظ الصاوي، التغيرات المناخية... فعلها الأغنياء فتورط بها الفقراء، http://www.islamonline.net/servlet/Satellite?c=ArticleA_C&cid=1196785952054&pagename=Zone-Arabic-HealthScience%2FHSALayout تاريخ الزيارة ١٦/٨/٢٠٠٨م.





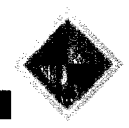
البلاد للتعرض لشبح المجاعة، وفي أستراليا -ومع أنها من الدول المتقدمة، وتعتبر أكبر ثاني مُصدِّر للقمح في العالم- أثَّرت الأحوال المناخية المتقلبة على حجم إنتاجها من القمح في عام ٢٠٠٧م.

وتسببت الأعاصير التي شهدتها الصين في يونيو ٢٠٠٨م في إتلاف ٩٢ ألف هكتار من المحاصيل الزراعية. وكانت هذه الأحداث من دواعي زيادة الطلب على الغذاء، ويكفي أن نشير إلى أن الصين تحقّق جانبًا كبيرًا من الاكتفاء الذاتي من الغذاء، ويتخوف الخبراء من أن التغيرات المناخية إذا دفعت بالصين لاستيراد الغذاء فستكون الأزمة أشد ضراوة مما هي عليه الآن، وفي أمريكا بسبب التغيرات المناخية تناقصت المساحات المزروعة قمحًا من ٨٨ مليون هكتار إلى ٤٦ مليون هكتار، ومن البلدان الإسلامية المضارة بشكل كبير بنجلاديش التي تضربها الأعاصير والفيضانات كل عام، وتدمر المحاصيل الزراعية بها، وفي مدينة التيجر الأرجنتينية كذلك حيث تنتشر بها.

ارتفاع أسعار البترول منذ عام ٢٠٠٣ م:

منذ عام ٢٠٠٣م بدأت أسعار البترول في اتجاه تصاعدي من نحو ٤٠ دولارًا للبرميل حتى ٧٠ دولارًا في عام ٢٠٠٧م، إلا أن الزيادة الكبيرة حدثت خلال عام ٢٠٠٨م؛ إذ اقتربت أسعار البرميل من حاجز ١٥٠ دولارًا للبرميل، وكانت هناك توقعات بأن يصل سعر البرميل إلى نحو ٢٠٠ دولار، إلا أن بداية شهر أغسطس من عام ٢٠٠٨م شهدت عمليات هبوط في أسعار البترول، فوصل إلى نحو ١١٢ دولارًا للبرميل، ثم واصلت الارتفاع مرة أخرى لتتجاوز ١٢٠ دولارًا للبرميل، بعد توقيع اتفاقية الدرع الصاروخي بين كل من أمريكا وبولندا.

ورغم هذا التذبذب في أسعار البترول، إلا أنها لازالت مرتفعة، والأهم في هذه الزيادة تداعياتها التي أحدثت زيادات مضاعفة في أسعار العديد من السلع والخدمات. وترجع هذه الزيادة في أسعار البترول إلى مجموعة من الأسباب من أهمها: ذلك التوتر السياسي الذي تشهده أهم مناطق إنتاج البترول، مثل منطقة الشرق الأوسط، ومنطقة القوقاز، وكذلك بعض بلدان أمريكا اللاتينية المنتجة للنفط. وذلك كله بسبب السياسة الخارجية الأمريكية، ودخولها في سلسلة من الحروب الخارجية، واحتلال كل من أفغانستان والعراق، وعدم وجود نوايا



حقيقية لحل مشكلة الشرق الأوسط الرئيسة، وهي احتلال إسرائيل للأراضي الفلسطينية.

وأيضًا من ضمن هذه الأسباب المضاربات التي تشهدها أسواق البترول على نطاق واسع. وثمة أمر آخر في هذا الصدد، وهو استمرار تحقيق معدلات نمو مرتفعة بالبلدان الصاعدة (الصين والهند) لم تقلّ عن ١١٪ خلال السنوات الماضية، مما ساعد على استمرار الزيادة في الطلب على النفط [٨].

التوجه نحو إنتاج الوقود الحيوي:

تخطط الولايات المتحدة الأمريكية لتشغيل نحو ١٤٢ مصنعًا لإنتاج الوقود الحيوي، وذلك من أجل مضاعفة إنتاجها منه ثلاثة أضعاف ما هو عليه الآن [٩]. كما يخطط الاتحاد الأوروبي كي يصل عدد السيارات التي تستخدم الوقود الحيوي لنسبة ١٠٪ بحلول عام ٢٠٢٠م.

وتتصدر الولايات المتحدة الأمريكية إنتاج الوقود الحيوي في العالم بنحو ٤٣٪ من حجم الإنتاج العالمي، تليها البرازيل بنسبة ٣٢٪، ثم الاتحاد الأوروبي ١٥٪ [١٠]، كما تمتلك دول صاعدة ونامية تكنولوجيا إنتاج الوقود الحيوي، ولكن تنتج منه كميات ضئيلة لا تُذكر. ومن المقدَّر أن يذهب نحو ثلث إنتاج أمريكا في عام ٢٠٠٨م من الذرة لمصانع إنتاج الوقود الحيوي.

> من المقدَّر أن يذهب نحو ثلث إنتاج أمريكا في عام ٢٠٠٨م من الذرة لمصانع إنتاج الوقود الحيوي

وعلى الرغم من المخاطر المترتبة على إنتاج هذا الوقود فيما يتعلق بتوفير السلع الغذائية، إلا أن هناك جوانب أخرى لم يُشَر إليها بعدُ، وهو احتياج هذا النوع من الوقود لكميات كبيرة من المياه، فإنتاج لتر واحد من الوقود الحيوي يتطلب ٥٠٠٠ لتر من الماء. وقد أشار جيفري ساكس الخبير بالأمم المتحدة إلى أن الوقود الحيوي تسبب في ارتفاع أسعار السلع الأساسية (القمح – الذرة – فول الصويا) بنحو ٧٠٪ في السوق العالمي.

تتعلل الدول المتقدمة بإنتاجها الوقود الحيوي بسبب حالة الانبعاث الحراري التي يُحدثها استخدام الوقود الأحفوري (النفط – الفحم)، ولذلك تعمل على توليد الطاقة من سلع ومحاصيل غذائية، مثل القمح والذرة، وفول الصويا وقصب السكر، وهذه السلع من السلع الأساسية للاستهلاك الآدمي.

ولكن خطورة الأمر أن سلوك الدول المتقدمة تسبَّب في ارتفاع أسعار الغذاء عالميًا، وكذلك مزاحمة الفقراء في الحصول على طعامهم الأساسي، وهو ما حذَّر منه الأمين العام للأمم المتحدة، من أنه في حالة استمرار الدول المتقدمة في سياستها في إنتاج الوقود الحيوي، فسوف يزيد الطلب على الغذاء في عام ٢٠٣٠م بنحو ٥٠٪ مما هو عليه الآن. وأن الدول النامية وفق هذا السيناريو مُطالَبة بزيادة أراضيها الزراعية بنحو ١٢٠ مليون هكتار من أجل توفير الغذاء لسكانها.

المضاربات على السلع الزراعية:

في ظل الأزمات التي شهدتها الأسواق المالية، وكذلك أزمة الرهن العقاري التي تحيط بعنق الاقتصاد الأمريكي، وأيضًا مع تقلبات أسعار النفط بصورة غير مأمونة، اتجه المضاربون لأسواق السلع الزراعية ليعوِّضوا بعض خسائرهم في أسواق أخرى، ولم يقتصر الأمر على صناديق الاستثمار، بل شمل الصناديق السيادية، والتي من المفترض أنها تعمل في مجال الأسهم والسندات، ومن أجل ذلك لُوحِظ وجود أموال بكميات كبيرة تتدفق إلى أسواق السلع الزراعية، مما ساعد على زيادة معدلات الطلب في ظل العرض المحدود، وهو ما نتج عنه ارتفاع أسعار السلع الزراعية في السوق العالمي [١١].

---

(٨) وزارة التنمية الاقتصادية المصرية، مرجع سابق، ص ٩.

(٩) مكرم محمد أحمد، طاقة نور، الأهرام ٢٢/٧/٢٠٠٨م.

(١٠) الوقود الحيوي طاقة الغذاء، http://www.aljazeera.net/NR/exeres/D9568FC0-E780-4613-B360-E54B9817E793.htm تاريخ الزيارة ١٣/٨/٢٠٠٨م.

(١١) بعد مضاربات قوية رفعت أسعار الحبوب .. الصناديق الاستثمارية المتهم الثالث في أزمة الغذاء العالمية. http://www.banquecentrale.gov.sy/Archive/archive-ar/archive2008/news06-15/news-ar/news11-ar.htm تاريخ الزيارة ١٠/٨/٢٠٠٨م.



ب - أسباب تخص الدول العربية والإسلامية: السياسات الاقتصادية الخاطئة تجاه قطاع الزراعة:

باعتبار أن بلدان العالم الإسلامي تقع في مصاف الدول النامية؛ فإن هناك مجموعة من السياسات الاقتصادية التي اتُّبِعَت منذ منتصف القرن العشرين، ساعدت على تدهور القطاع الزراعي، وذلك من خلال تبني نماذج للتنمية تحابي القطاعين الصناعي والخدمي على حساب القطاع الزراعي[١٢]. فسياسات الاستثمار ركّزت على القطاع الصناعي، وقامت الحكومات بضخ استثمارات هائلة في هذا القطاع من خلال تصوُّر تنمويّ يعتمد على أن الصناعة هي أساس التنمية، ومن هنا انصرفت الاستثمارات عن القطاع الزراعي.

وأيضًا ساهمت سياسات التسعير -من خلال التوريد الإجباري من قبل الفلاحين للمحاصيل الزراعية إلى الحكومات من خلال أسعار محددة، وعادة ما كانت متدنية، ولا تعكس أسعارها الحقيقية- في انصراف الأيدي العاملة في قطاع الزراعة إلى القطاعات الأخرى؛ بغية الحصول على أجر أفضل، كما نتج عن ذلك أيضًا زيادة معدلات الهجرة من الريف إلى المدن والحضر.

وخططت السياسات التجارية على أساس حماية الصناعات المحلية، وفرض ضرائب عالية على الواردات الصناعية، مما ساعد على توجيه الاستثمارات للقطاع الصناعي، سواء كان القائم به قطاع عام أو خاص. وزاد من مشكلات القطاع الزراعي أنه مع انصرف الحكومات عن تبني نظام الاقتصاد الموجه أو المخطط إلى اقتصاديات السوق، وجد هذا القطاع نفسه فريسة لمنافسة عالمية لا قبل له بها، خاصة وأن معظم الزراعات كانت تعتمد على الوسائل البدائية، وكذلك وجود سياسات عالمية تهدف إلى تلبية احتياجات السوق العالمي قبل السوق المحلي، ومن هنا لم تعد السلع الأساسية التي تحتاج إليها أسواق الدول النامية محل اهتمام قطاع الزراعة.

وافتقرت غالبية البلدان النامية، ومنها البلدان الإسلامية، إلى وجود استراتيجية لقطاع الزراعة في ظل الاندماج في الاقتصاد العالمي، والدخول في اتفاقيات منظمة التجارة العالمية، والتي لازالت تحافظ على حقوق الدول المتقدمة في دعم القطاع الزراعي بها في حين فرَّطت الدول النامية في هذا الحق بنِسَب مختلفة، لكن معظمها أهدر حقه في دعم قطاع الزراعة. ويُعدّ مطلب الدول النامية الآن برفع الدعم عن القطاع الزراعي في كل من أمريكا ودول الاتحاد الأوروبي أحد أسباب فشل المؤتمر الوزاري لمنظمة التجارة العالمية منذ عام ١٩٩٩م وحتى ٢٠٠٨م .

ومن أكبر المشكلات التي لم تعالجها السياسات الزراعية في البلدان النامية هي أزمة تفتيت الحيازات الزراعية إلى ملكيات صغيرة تحول دون استخدام وسائل الزراعة الحديثة، أو الدخول في اقتصاديات الحجم الكبير.

العجز في الإنتاج الزراعي والسلع الغذائية في العالم العربي والإسلامي:

توضح الأرقام المنشورة بتقرير منظمة الزراعة والأغذية[١٣] مجموعة من المؤشرات التي تمكّننا من الوقوف على أداء دول العالم الإسلامي في الإنتاج الزراعي، ومقدار العجز الذي تعاني منه في هذا الجانب؛ حيث تبين هذه المؤشرات الآتي:

١- تبلغ الأراضي الصالحة للزراعة في بلدان العالمي الإسلامي مقدار ٢٥٢٩٣٥ ألف هيكتار، وهو ما يمثل نسبة ١٨٪ من الأراضي الصالحة للزراعة على مستوى العالم، والبالغة ١٣٩٧٦٥٦ ألف هيكتار.

٢- يبلغ إجمالي السكان الزراعيين في العالم الإسلامي نحو ٥٣٥٢٩٤ ألف مزارع، وهو ما يمثل نسبة ٢٠,٥٪ من عدد السكان الزراعيين على مستوى العالم،

(١٢) د.أحمد محمد مندور، ود. أحمد رمضان نعمة الله، «اقتصاديات الموارد والتنمية» مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ١٩٩٥م، ص ٢٣١ - ٢٤٨.

(١٣) لمزيد من التفصيل أنظر الجدول رقم (١) .



والبالـغ عددهم نحو ٢٦٠٠٣٠١ ألف مزارع. ويُلاحظ هنا أن مقارنـة عـدد المزارعـين في العالم الإسـلامي بالعدد الإجمالـي لسـكانه تُظهِر أن قرابة ٥٠٪ من السـكان يشـتغلون بالزراعة. وتزيد هذه النسـبة بمعدلات كبيرة إذا ما قُورنت بالسكان في سن العمل.

٣- الناتج المحلي الزراعي للفرد من المزارعين في العالم الإسـلامي تفـاوت بمعدلات كبـيرة، ويجـب أن نأخذ فيـه الأرقام بحذر شـديد، فهو يرتفـع في بلدان الخليج مثـلًا بمعدلات عالية جدًّا، ليصـل إلى ٥٥ ألف دولار في البحرين، و٢٨ ألـف دولار في الإمارات، و١٢ ألف دولار في ليبيا، و١١ ألف دولار في لبنان، بينما ينخفض بشـدة في بلدان أخرى مثل السـودان التي تمثل أدنى متوسط في هذا المؤشر، ليصل إلى ٦٠ دولارًا فقط، بينما في النيجر يصـل إلى ٧٦ دولارًا، ثـم تتفاوت فيما بعدُ المتوسـطات في باقـي البلـدان. ولكن هذه النتائج تُلزِم أن نشـير إلى أن ارتفـاع هذا المؤشـر في بلدان الخليـج يرجع إلى صغر عدد المشـتغلين بالزراعة بها، بينما في كل من السودان والنيجـر يرجـع إلى حالـة الفقر التي يعيشـها المزارعون هناك، وضعـف إمكانيات الزراعـة، وقد يكون هذا الأمر مبررًا في حالة النيجر التي تعاني من حالة تصحّر، بينمـا الأمر في السـودان غير مقبـول في ظل إمكانيات الزراعـة الهائلـة، والـتي يعتبرهـا الكثـير سـلة الغذاء العالمي، وليس العالم العربي فقط.

٤- إجمالـي إنتـاج دول منظمة المؤتمر الإسـلامي من الحبـوب يصـل إلى ٣١٤٤٧٨ ألف طن في عـام ٢٠٠٤م، وهـو ما يمثل نسـبة ١٣,٨٪ تقريبًا مـن الإنتاج العالمي من الحبوب، والبالغ في نفس العام ٢٢٧٠٣٦٠ ألف طن.

٥- بلغت الصادرات الزراعية للعالم الإسـلامي في عام ٢٠٠٤م مقـدار ٤٥٠٣١ مليون دولار، وهو ما يمثل نسـبة ٧,٤٪ مـن حجم الصادرات الزراعية على مسـتوى العالم لنفس العام، والبالغة ٦٠٤٣٢٩ مليون دولار.

٦- أمـا الواردات الزراعية في بلدان العالم الإسـلامي فقد بلغـت في عام ٢٠٠٤م مقـدار ٦٢٥٤٥ مليون دولار، وبما يمثل نسـبة ٩,٨٪ من حجم الـواردات الزراعية على مسـتوى العالم، والبالـغ قيمتهـا ٦٣٤٥٠٨ مليون دولار. وإذا كانت هذه الأرقام تعبر عن عام ٢٠٠٤م؛ فإن الأمر مختلـف تمامًا عنـه في عـام ٢٠٠٧ و٢٠٠٨م؛ إذ ارتفعت الأسـعار في أسـواق السـلع الزراعية والغذائية بمعدلات فاقت نسبة ٢٠٠٪ لبعض السلع.

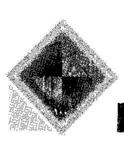
٧- تفاوتت نسـبة ناقصي التغذية كنسبة من إجمالي السـكان بين بلدان العالم الإسـلامي خـلال الفترة من ٢٠٠١ - ٢٠٠٣م؛ إذ ترتفع هذه النسـبة بمعدلات كبيرة فتصل إلى ٦١٪ في طاجكسـتان، و٥٠٪ في سـيراليون، و٤٥٪ في موزمبيق، و٣٠٪ في بنجلاديش، بينما انخفضت في بلدان أخرى، مثل الإمارات وتونس لأدنى المسـتويات في هذا المؤشر بنسبة أقل من ٢,٥٪ لكل منهما.

ومـا يمكن قوله في ظـل هذه المؤشـرات والأرقام أن الإنتـاج الزراعـي في بلـدان العالم الإسـلامي متواضع، في ظل هـذا العدد الهائل من المزارعين، ونسـبة أراضي صالحة للزراعة تصل إلى نحو ١٨٪ من إجمالي الأراضي الزراعيـة في العـالم، كمـا أن نسـبة ناقصـي التغذية تعكس حالة اللا تكامل بين بلدان العالم الإسلامي.

غياب المشـروع التكاملي على الصعيدين العربي والإسلامي:

تشـير الأدبيـات الخاصـة بالتعـاون بين بلـدان العالم العربي والإسـلامي، إلى قدم أهمية الإشـارة إلى حتمية وجـود هـذا التعـاون، وعلـى الرغـم من تحقيـق بعض النجاحـات في تكوين مؤسسـات وكيانـات اقتصادية على الصعيد الإسـلامي (بنك التنمية الإسلامي بجدة، منظمـة المؤتمـر الإسـلامي، غرفـة التجـارة والصناعة الإسـلامية، مجموعـة الثمانية الإسـلامية، والتي تغير اسمهـا فيما بعد بمجموعـة الثمانية للتنمية ... إلخ)، إلا أن المـردود الملمـوس لهـذه المؤسسـات كان محدودًا في تحقيـق أيّ من صـور التعاون أو التكامل، أو التنسـيق بين اقتصاديات العالم الإسلامي.

وهناك العديد من الدلالات التي تؤكد هذه النتيجة،



وأهمها غياب التنسيق بين الدول الإسلامية في اجتماعات المنظمات الاقتصادية الدولية، مثل منظمة التجارة العالمية، ففي الوقت الذي يوجد فيه الاتحاد الأوروبي كتجمع إقليمي، ويتمتع بعضوية كاملة، لا يوجد أيّ تجمع مماثل للدول الإسلامية ولو بصفة مراقب.

والشاهد الثاني: هو تدني معدلات التجارة بين بلدان العالم الإسلامي؛ حيث تشير الإحصاءات إلى أن حجم التجارة البينية بين هذه الدول لا يتجاوز نسبة ٨,٤٪ من حجم تجارتها الخارجية، وأن الصادرات البينية للعالم الإسلامي تصل إلى ١٦٥,٨ مليار دولار، بما يمثل نحو ١٢,١٪ من حجم صادراتها للعالم الخارجي، وذلك بحسب بيانات عام ٢٠٠٦م [١٤].

ونجد أن هذا الحجم الضئيل للتعامل التجاري لا يعكس حجم موارد العالم الإسلامي ولا تعاملاته، وتظهر الصورة بشكل أكبر إذا ما تبين لنا أن حجم التبادل التجاري بين دول الاتحاد الأوروبي يصل لنحو ٦٥٪ من تجارته الخارجية.

والعبرة هنا أن تنشيط التعاملات البينية بلا شك يقوّي من أداء الاقتصاديات الإسلامية، ولكن الواقع يعكس حالة الضعف الذي تعانيه الاقتصاديات الإسلامية في هذا الجانب.

وهناك العديد من المعوّقات التي ساعدت على غياب المشروع التكاملي العربي والإسلامي، من أهمها: غياب الإرادة السياسية، وضعف نظام الشورى والديمقراطية داخل النظم العربية والإسلامية، مما ساعد على عدم تحقيق رغبة الشعوب الإسلامية في تحقيق التكامل الاقتصادي، واعتماد خيارات الحكام والنظم السياسية في توثيق علاقاتها الاقتصادية خارج نطاق الدول الإسلامية، وكذلك كثرة النزاعات والاختلافات بين بلدان العالم الإسلامي، سواء على الحدود، أو الخلافات المذهبية الإسلامية، أو حتى الأيديولوجيات الاقتصادية والسياسية السائدة في البلدان الإسلامية.

ومؤخرًا ذوبان معظم -إن لم يكن كل- البلدان الإسلامية في إطار اقتصاد العولمة دونما تمييز، سوى أنها في مصافّ البلدان النامية أو الأقل نموًّا.

ثالثًا: تأثير الأزمة استراتيجيًّا على العالم الإسلامي

تكرست أزمة الغذاء على مدار سنوات عدة، وساهمت فيها عوامل عديدة داخلية وخارجية، ومن هنا فأبعادها سيكون لها تأثير استراتيجي على واقع العالم الإسلامي، ويمكننا قراءة هذه الآثار في ضوء سيناريوهين:

تكرست أزمة الغذاء على مدار سنوات عدة، وساهمت فيها عوامل عديدة داخلية وخارجية، ومن هنا فأبعادها سيكون لها تأثير استراتيجي على واقع العالم الإسلامي.

التعامل في ظل الآليات الحالية:

يقوم هذا السيناريو على بقاء وضع أزمة الغذاء في البلدان الإسلامية على ما هي عليه، من: سياسات خاطئة، وتبعية للاقتصاد العالمي؛ بحيث تكون عرضة للتقلبات العالمية من حيث كميات وأسعار الغذاء، وسوف يترتب على هذا السيناريو النتائج التالية:

١- من أخطر الآثار استراتيجيًّا في ظل هذا السيناريو: تعميق حالة الفقر التي قد تفضي إلى عدم التمسك بالدين، وتفتّ في عضد وحدة الأمة، فقد شهدت الأشهر الماضية وقوع نماذج لهذا الأمر، ففي كينيا، مارست النساء الدعارة بغية الحصول على الطعام [١٥].

كما أن الفقراء في بنجلاديش تدافعوا لاستخدام الأرز المتعفن لسد الرمق، ومواجهة ارتفاع أسعار المواد الغذائية [١٦].

---

(١٤) دعوات إلى تقريب السياسات الاقتصادية للدول الإسلامية 550D--http://www.aljazeera.net/NR/exeres/DB3F7BF1 474F79018B0E.htm-4CE6-B362 تاريخ الزيارة ٢٠٠٨/٨/١٩م.

(١٥) خبراء: الجوع يدفع الفقيرات لبيع أجسادهن مقابل الغذاء، http://www.masrawy.com/News/World/Reuters/2008/ aspxh.551987/August/5 تاريخ الزيارة ٢٠٠٨/٨/٦م.

(١٦) بنجلاديش تمنع الفقراء من جمع الأرز المتعفن: -9234-http://www.aljazeera.net/NR/exeres/59016914 0885FA6EC614.htm-44B2-B570 تاريخ الزيارة ٢٠٠٨/٨/١٣م.



فوقوع مثل هذه السلوكيات يجعل الفقراء يفتقدون لوجود رباط ملموس مع بقية أبناء الأمة، خاصة القادرين منهم وأصحاب الثروات. وتُعدّ مجالات نقص الغذاء والفقر والجوع حقلاً خصبًا لعمل المنظمات التنصيرية في البلدان الإسلامية الفقيرة[17]، كما تساعد هذه الحالة على انتشار أنشطة الاقتصاد الأسود.

٢- زيادة الضغوط الخارجية على الصعيدين السياسي والاقتصادي، على الحكومات الإسلامية، خاصة وأن مناطق الصراع العالمي ومفاصل أزمات إقليمية عديدة تقع في محيط العالم الإسلامي.

٣- ستكون هناك قلاقل قطرية داخل البلدان الإسلامية، من خلال ارتفاع أسعار الغذاء، خاصة وأن معدلات التضخم تتوالى بمعدلات سريعة، ولم تواكبها زيادات مناسبة في دخول الأفراد، وهو ما عبَّرت عنه بعض البلدان بمظاهرات تعترض فيها على أداء الحكومات تجاه الأزمة، وتعليق الحكومات أسباب الأزمة على الأسعار العالمية والأسباب الخارجية.

٤- سوف تضطر هذه البلاد إلى قبول السلع الزراعية والغذائية المهجَّنة أو المعدَّلة وراثيًا، خاصة وأن البعض يرى أن أزمة الغذاء مفتعلة من أجل أن تجد البلدان النامية نفسها مجبرة على قبول المنتجات الأمريكية والأوروبية المعدلة وراثيًا لسدّ احتياجات أفرادها من الغذاء، مع ما يعتري ذلك من مخاطر صحية جمَّة يحذِّر منها المتخصصون[18].

٥- سوف تزداد ظاهرة التسرب من التعليم للأطفال الصغار؛ نظرًا لعجز آبائهم عن توفير نفقات التعليم والطعام، ومطالبتهم هؤلاء الصغار بالخروج مبكرًا لسوق العمل، مما سيزيد من معدلات الأمية المرتفعة في عالمنا الإسلامي.

تبني آليات جديدة:

السيناريو الآخر هو التخلص من سمات الأداء الحالي في المجال الاقتصادي بشكل عام، وفي المجال الزراعي بشكل خاص، وولوج هذا الطريق سوف يؤدي إلى تحقيق الاستقلال الاقتصادي، والاعتماد على الذات، ويستلزم ذلك عدة أمور منها:

١- وضع هدف تحقيق الوحدة الإسلامية اقتصاديًا في حيز التنفيذ: فعلى الرغم من أن الحديث عن أهمية وجود وحدة اقتصادية إسلامية مكرر، إلا أن تكرره لا يعني إهماله أو التقليل من شأنه، خاصة وأنه يُعدّ من الأصول الثابتة في الشريعة الإسلامية، ومن المسلَّم به أن هذا الهدف يُعتبر من الأهداف طويلة الأجل أو الاستراتيجية، خاصة وأن مقوّمات هذه الوحدة متوافرة، ويمكن إنجاز خطوات مهمة على طريقها، إن خلصت الإرادة السياسية.

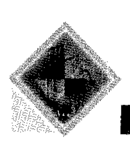
على الرغم من أن الحديث عن أهمية وجود وحدة اقتصادية إسلامية مكرر، إلا أن تكرره لا يعني إهماله أو التقليل من شأنه، خاصة وأنه يُعدّ من الأصول الثابتة في الشريعة الإسلامية.

٢- أن تخرج الحلول والمعالجات المطروحة من قِبَل بعض الأقطار، مثل الدول الخليجية، أو المؤسسية مثل منظمة المؤتمر الإسلامي من الإطار القطري، أو المواجهة الآنية إلى حلول تعتني بمواجهة المشكلة مستقبلاً على صعيد الأمة.

ويستلزم هذا الدفع بشكل أكبر مما هو عليه الآن، فتقديم نصف مليار دولار من قِبَل المملكة العربية السعودية، ونحو ١,٥ مليار من قِبَل البنك الإسلامي للتنمية، أو بعض المساهمات من الكويت والإمارات غير كافية لمواجهة المشكلة، كما أن الإطار الذي أتت فيه هذه المساهمة يميل لمعالجات آنية، وإن كان

(١٧) بالمال والوظيفة.. التنصير ينشط في بنجلاديش:
http://www.islamonline.net/servlet/Satellite?c=ArticleA_C&pagename=Zone-Arabic-News/NWALayout&cid=1218650328340&utm_source=rss&utm_medium=rss&utm_campaign=rss
تاريخ الزيارة ١٨/٨/٢٠٠٨م.

(١٨) محمد السماك، «أزمة غذاء أم أزمة احتكار»، موقع العربية نت http://www.alarabiya.net/views/2008/05/02/49240.
http://www.alarabiya.net/views/2008/05/02/49240.html تاريخ زيارة ٤/٨/٢٠٠٨م.



لها أهميتها الآن، إلا أنها لا تحقق حلاً للمشكلة على المدى البعيد، ولا تمنع وقوع الأمة تحت ضغوط سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية من جرّاء استمرار أزمة الغذاء.

٣- أن تتم إعادة صياغة مدركات الأفراد ومؤسسات المجتمع الأهلي؛ لكي يعيدوا التفكير من أجل المساهمة في توفير الغذاء بالقدر والسعر المناسبين لأفراد الأمة الإسلامية.

رابعًا: الجهود التي بُذلت لمواجهة الأزمة قمة الغذاء العالمي ودور منظمة الأغذية والزراعة:

انعقدت قمة الغذاء في مدينة روما خلال الفترة من ٣ – ٥ يونيو ٢٠٠٨م، وقد شهدت هذه القمة حضورًا كبيرًا من خلال مشاركة ١٨١ دولة، وذلك في إطار اهتمام تلك الدول بالتداعيات التي أحدثتها زيادة أسعار السلع الغذائية على مدار عامي ٢٠٠٧م و ٢٠٠٨م. وكانت القمة تستهدف جمع ٤٠ مليار دولار لمواجهة أزمة ارتفاع أسعار السلع الغذائية، إلا أن ما تحقّق كان مخيّبًا للآمال، فلم تحصد المنظمة إلا وعود بتقديم نحو ٦,٥ مليار دولار، وهو ما قُدِّر بتلبية ٥٠٪ فقط من تكاليف الأزمة خلال عام ٢٠٠٨م. ولكن الأهم هنا ما أسفرت عنه إجمالاً نتائج هذه القمة، وهو ما يمكن رصده من خلال قراءة البيان الختامي للقمة [١٩]:

- كانت قضية إنتاج الوقود الحيوي من قبل الدول المتقدمة، والتوسع في إنتاجه على حساب الدول النامية، واحدةً من القضايا التي كان يُنتَظر أن يكون للقمة فيه موقف حازم، خاصة وأن إنتاج هذا الوقود يعتمد على استخدام سلع زراعية وغذائية، إلا أن ما تمخضت عنه القمة هو إجراء مزيد من الحوار حول إنتاج هذا الوقود، دون إدانة الدول المتقدمة على إصرارها على هذا المسلك في ظل ارتفاع عدد الجوعى في العالم.

- طالب البيان الدول النامية بتحسين السياسات الزراعية الخاصة بها، وضخ استثمارات جديدة بهذا القطاع، وهو ما يشبه التوبيخ للدول النامية، على الرغم من أن جزءًا كبيرًا من هذه السياسات أتى كمحصلة لوصايا منظمات دولية للبلدان النامية، وفي ضوء ممارسات الشركات متعدية الجنسية للسيطرة على أسواق الزراعة والغذاء في العالم.

- طالب البيان بأهمية دعم البلدان الفقيرة للحصول على احتياجاتها من الغذاء، من خلال تقديم الدعم لإنتاج الغذاء بهذه الدول، خاصة تلك التي تعاني بشكل حادّ من أزمة الغذاء، والتي قُدِّر عددها بنحو ٣٧ دولة.

- طالب البيان الدول النامية بفتح أسواقها، وتحرير سياساتها التجارية، والعمل على نجاح جولة مفاوضات الدوحة بمنظمة التجارة العالمية. ويُعدّ هذا المطلب مؤيدًا لمصالح الدول المتقدمة؛ إذ إن الدول النامية مستوردة بشكل كبير للسلع الغذائية، وإن من يضع الحواجز والقيود الجمركية وغير الجمركية، ويقدم الدعم بشكل كبير للقطاع الزراعي هو الدول المتقدمة، وعلى رأسهم أمريكا والاتحاد الأوروبي.

- تعهد البيان بإنجاز أهداف الألفية بخصوص تخفيض عدد الفقراء في عام ٢٠١٥م بنحو النصف ليصل إلى نحو ٤٠٠ مليون فرد، ولكن من غير المتصور تحقيق ذلك في ظل تنبؤات البنك الدولي بأن تظل أسعار السلع الغذائية مرتفعة حتى عام ٢٠١٢م.

وفي ضوء نتائج قراءة بيان قمة الغذاء يرى الباحث أن أداء القمة كان من قبيل إبراء الذمة، وغلب عليه الطابع الإعلامي أكثر من وجود آليات حقيقية تسعى لحل الأزمة على الأجل الطويل.

جهود المنظمات الدولية والإقليمية:

تفاعلت المنظمات الدولية مع أزمة الغذاء، فكانت هناك جهود ملموسة من قِبَل كل من البنك الدولي، وبرنامج الغذاء العالمي، خاصة على صعيد الدول الفقيرة التي تضررت بشكل كبير من الأزمة، ولكن هذه

---

(١٩) منظمة الأغذية والزراعة، إعلان المؤتمر الرفيع المستوى المعنيّ بالأمن الغذائي العالمي: تحديات تغير المناخ والطاقة الحيوية
http://www.fao.org/fileadmin/user_upload/foodclimate/HLCdocs/declaration-A.pdf تاريخ الزيارة ٢٢/٨/٢٠٠٨م.



الجهود تصبّ بشكل رئيس على الأجل القصير، فقد رصد البنك الدولي مبلغ ٢,١ مليار دولار لمواجهة أزمة الغذاء، وتبنى البنك مجموعة برامج من أهمها [٢٠]:

- زيادة معدلات الإقراض لقطاع الزراعة في البلدان الإفريقية ليصل إلى ٨٥٠ مليون دولار، بدلاً من ٤٥٠ مليونًا خلال الفترة الماضية.

- تقديم الدعم لبرامج الواردات الزراعية للبلدان الأشد تضررًا من أزمة الغذاء (بوركينا فاسو، مدعشقر، مالي، النيجر، غانا، كوت ديفوار، بوروندي).

- تم تخصيص ٣٢٠ مليون دولار لدعم برامج مساندة لبنجلاديش من أجل مواجهة احتياجاتها من الغذاء.

أما برنامج الغذاء العالمي فقد شرع في تنفيذ مجموعة أخرى من البرامج، منها: تقديم مساعدات نقدية للمضارين في البلدان الأشد فقرًا، تقديم الوجبات الغذائية للأطفال بشكل عام، ولتلاميذ المدارس بشكل خاص.

كما تبنى البرنامج حملات إعلامية لجلب المزيد من التبرعات لبرامج مواجهة الجوع الناجمة عن الأزمة[٢١]. كما عمدت منظمات في إفريقيا وأمريكا اللاتينية إلى تكوين صناديق لدعم الزراعة بالدول المضارة بها.

جهود البنك الإسلامي للتنمية:

تبنى البنك الإسلامي للتنمية مبادرة لتقديم ١,٥ مليار دولار، لمساعدة نحو ٢٦ دولة فقيرة أُضيرت من أزمة الغذاء العالمية، وهذه الدول تحظى بعضوية منظمة المؤتمر الإسلامي وهي:
(أفغانستان، بنجلاديش، بنين، بوركينا فاسو، الكاميرون، تشاد، جزر القمر، جيبوتي، غامبيا، غينيا، غينيا بيساو، قرغيزستان، المالديف، مالي، موريتانيا، النيجر، موزمبيق، فلسطين، السنغال، سيراليون، الصومال، السودان، طاجيكستان، توغو، أوغندا، اليمن).

وتضمنت المبادرة تقديم حلول في الأجل القصير لتوفير الغذاء وواردات الحبوب لهذه الدول، وأيضًا تقديم البذور المحسَّنة والسماد من أجل دعم قطاع الزراعة بهذه الدول. كما أعلن البنك عن إنشاء صندوق لمكافحة الفقر في البلدان الإسلامية بحجم تمويل يبلغ ١٠ مليارات دولار[٢٢].

> تبنى البنك الإسلامي للتنمية مبادرة لتقديم ١,٥ مليار دولار لمساعدة نحو ٢٦ دولة فقيرة أضيرت من أزمة الغذاء العالمية

خامسًا: حلول لمواجهة الأزمة

الحلول المتصوَّرة على المستوى القُطْرِيّ:

فرضت أزمة الغذاء نفسها على صانع القرار في البلدان الإسلامية؛ نظرًا لتداعياتها الاجتماعية والسياسية، التي أشرنا إلى بعضها من خلال المظاهرات والاحتجاجات في العديد من الدول، وفي إطار البحث عن حلول لمواجهة أزمة الغذاء على المستوى القطري يُقترَح الآتي:

١- مراجعة الممارسات التي انتُهِجَت خلال الفترة الماضية نحو الأراضي الزراعية من: تجريف، وتغوّل في البناء عليها، والتركيز على جهود حقيقية في مسألة استصلاح أراضٍ جديدة للزراعة.

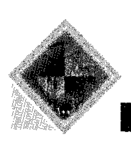
٢- إعادة النظر في السياسات الزراعية التي اتُّبِعَت من قبل، والتي عوَّلت بشكل كبير على الاندماج في الاقتصاد العالمي، وخاصة اتفاقيات منظمة التجارة العالمية، ومراجعة ما اتُّخِذَ من قرارات وتشريعات حَرَمَت قطاع الزراعة من الدعم الحكومي في العديد من البلدان الإسلامية.

٣- زيادة الاستثمارات الوطنية في قطاع الزراعة، سواء

(٢٠) التدابير التي يقوم بها البنك الدولي، http://www.albankaldawli.org/foodprices تاريخ الزيادة ٢٠/٨/٢٠٠٨م.

(٢١) تقديم مساعدات نقدية للمناطق الأكثر تضررًا، http://www.wfp.org/Arabic/?NodeID=4 تاريخ الزيادة ١٧/٨/٢٠٠٨م.

(22) البنك الإسلامي للتنمية يطلق مبادرة لتعزيز الغذاء لأعضائه http://www.aljazeera.net/NR/exeres/96FC48D1-D4BC-488F-A317-7BB680101B51.htm تاريخ الزيارة ٢١/٨/٢٠٠٨م.



كانت من الحكومة أو القطاع الخاص، ويفضل أن تأخذ الحكومات المبادرة في هذا الشأن؛ نظرًا لاعتبار أن الغذاء من السلع الاستراتيجية، وأصبح قضية تتعلق بالأمن القومي للعديد من البلدان الإسلامية.

٤- اعتماد سياسة التركيب المحصولي في البلدان الإسلامية بما يتناسب والموارد المتاحة من مياه وأراضٍ زراعية، وبما يُحدِث نوعًا من التوازن لتلبية الاحتياجات الأساسية من الغذاء لأبناء القُطْر الواحد.

٥- توجيه انتباه المواطن تجاه مشكلة الغذاء، بالنظر في العادات الغذائية الخاطئة، وترشيد الاستهلاك من السلع الغذائية، وأهمية الفصل بين غذاء الإنسان والحيوان.

٦- الاستفادة من جهود بعض الجمعيات الأهلية التي تحضّ على الزراعات المنزلية في الشرفات والأسطح، بما يؤدي إلى وجود زيادات حقيقية في الإنتاج الزراعي، ويشعر المواطنون بأنهم شركاء في حل الأزمة.

الحلول المتصوّرة في ظل تعاون عربي إسلامي:

لم يحدث بعدُ أن اتُّخِذَت خطوات في مجال التعاون الزراعي بين بلدان العالم الإسلامي أو العربي، وحتى بعد وقوع أزمة الغذاء، كانت الجهود التي تمت في إطار التصرف الفردي لبعض الدول التي اتخذت قرارات بالاستثمار في بلدان عربية وإسلامية أخرى تتوافر فيه مقومات الاستثمار الزراعي.

وهو ما نلمسه في تصرُّف بعض بلدان الخليج ومصر بالاستثمار الزراعي في السودان، أو في بعض البلدان الإسلامية وغير الإسلامية الأخرى.

ويُقترح في هذا الشأن ألا يُكتفَى في هذا باجتماع المسئولين والمنظمات فقط، ولكن ينبغي من وجود استراتيجية واقعية لإحداث تكامل بين إمكانيات دول العالم العربي والإسلامي، ولا مانع من مشاركة القطاع العام والخاص في تنفيذ هذه الاستراتيجية؛ بحيث يستفاد مما أطلق عليه مثلثات النمو (المال – القوة العاملة – الموارد الطبيعية)، وهو ما ينطبق على الأراضي السودانية، ورأس المال الخليجي، والأيدي العاملة من مصر وغيرها من البلدان ذات الكثافة السكانية العالية.

ولكن نجاح هذه الصورة يرتبط بالعوامل الآتية:

١- أن تتوافر الإرادة السياسية لتنفيذ وإنجاح هذه التجربة، وأن تجنّب الخلافات والنزاعات السياسية.
٢- أن يُدَار مشروع التكامل أو التعاون في المجال الزراعي على أسس اقتصادية، بعيدًا عن العواطف.
٣- أن يتوافر لرءوس الأموال المستثمَرة في هذه المشروعات عامل الأمان الذي كان فقده سببًا في هروبها إلى أوروبا خلال العقود الماضية.
٤- أن تُفَعَّل المؤسسة العلمية من جامعات ومراكز بحوث في العالم العربي والإسلامي للاستفادة بها في هذا الشأن.
٥- يُستفاد من عامل الأخوة الإسلامية كمحرك للأفراد والمجتمع الأهلي لنجاح التجربة، والدفع بها نحو التنفيذ الواقعي، وليس مجرد التأصيل النظري.

٦- أن يتجه العمل الخيري الإسلامي إلى مجالات العمل التنموي، من خلال إنشاء جمعيات ومؤسسات يقتصر نشاطها فقط على تقديم الدعم لصغار المزارعين، وتيسير سبل حصولهم على مصادر لتمويل المشروعات الزراعية، كما تجعل هذه الجمعيات مسألة تطوير العمل الزراعي من خلال البحث العلمي مجالاً لها.

الحلول المتصورة في ظل التعاون مع المنظمات الدولية:

على الرغم من أهمية الدور الذي تقوم به المؤسسات الدولية، إلا أنها في أزمة الغذاء كان دورها محدودًا؛ نظرًا لقلة الإمكانات المتاحة لديها، واعتمادها بشكل واضح على المِنَح والمساعدات، وقد أظهرت الأزمة حالة الشح التي تتميز بها البلدان المتقدمة، وتعاملها مع الأزمة بسلوك أبعد ما يكون عن النظرة الإنسانية.

وزاد من قلة الدور الذي يمكن أن تلعبه هذه



المنظمات أن غالبية الدول -إن لم يكن كلها- تعاملت مع الأزمة بشكل منفرد، دون أن يُنتظَر دور لهذه المنظمات، نظرًا لخطورة المشكلة، ويُضعِف دور هذه المنظمات أيضًا أنها لا تمتلك آلية لإلزام الدول بالتصرف بشكل ما، وهو ما وضح بشكل كبير في بيان منظمة الزراعة والأغذية في قضية استخدام السلع الغذائية التي يحتاج إليها البشر، وتستخدمها الدول المتقدمة في إنتاج الوقود الحيوي. ونحسب أن ما يمكن أن تلعبه هذه المنظمات هو تقديم الجانب الفني للدول النامية -ومنها الدول الإسلامية- لتطوير أداء القطاع الزراعي بها.

خاتمة

الغذاء من الضرورات الخمس التي كفلتها الشريعة الإسلامية للإنسان، ولا ينبغي أن يكون مجالاً للعبث به، أو أن يجعل منه البعض مأربًا لتحقيق مصالحه السياسية والمادية الضيقة. فالإسلام جعل المال في خدمة الإنسان، بينما حضارة الغرب جعلت من المال سيدًا على الإنسان، فضاعت الأولويات، واختلت المقدمات والنتائج.

والإسلام لا يحرّم الكسب والعمل الاقتصادي، ولكنه وضع له من الضوابط والشروط ما يجعل منه عملاً يضيف للمجتمع، فوضع قواعد لكل مرحلة من مراحل عمليات النشاط الاقتصادي، فحرّم الاحتكار، وأتاح المنافسة المنضبطة التي تؤدي إلى التعايش وليس الانفجار، ولا يسمح الإسلام بمستوى للفقر دون حد الكفاية، فكل الناس في تحقيق مستوى الكفاية سواء، وما زاد عن ذلك فهو جهد الأفراد وتفاوت إمكاناتهم وقدراتهم التي تعمل في إطار مفهوم إعمار هذا الكون، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ (هود: ٦١).

وكما ذكرنا خلال البحث، فإن المشكلة تأتي في إطار الأداء الاقتصادي العالمي غير العادل، وفي ظل ظروف سياسية واقتصادية واجتماعية في غير صالح دول العالم الإسلامي، ويتطلب مواجهة المشكلة على الصعيد الإسلامي مجموعة من الإجراءات منها :

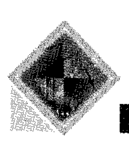
- إنهاء حالة الخلاف واللاتعاون بين بلدان العالم الإسلامي، في إطار من الهدي القرآني، فالله عز وجل يقول: ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (المائدة: ٢)، كما أمر الله عز وجل بوحدة هذه الأمة، فقال: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (آل عمران: ١٠٣).

- يجب أن تكون مشكلة الغذاء دافعًا لتحقيق تنمية حقيقية في بلدان العالم الإسلامي، فمن غير المعقول أن تُصنَّف ٢٦ دولة إسلامية في مجموعة الدول الأشد فقرًا، فالفقر بلا شك يُقعِد الأمة عن أداء رسالتها، ولذلك فقد استعاذ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من الكفر والفقر، وقديمًا قالوا: «إذا ذهب الفقر إلى بلد؛ قال له الكفر: خذني معك».

ولن يتحقق ذلك إلا من خلال وعي قوي لدى جميع أفراد الأمة، ممن مَنَّ الله عز وجل عليهم بنعمة المال بأن يجعلوه في وظيفته الصحيحة، ويعلمون أن الملكية الحقيقية لهذا المال لله -عز وجل- وأن ملكيتهم هي ملكية استخلاف، وأنهم محاسبون عليه.

وإذا ما استمر الوضع على ما هو عليه الآن؛ فسوف تزيد حالة الضعف التي يعيشها العالم الإسلامي، من خلال انتشار حالة الفقر والتخلف، مما يجعلهم خارج حسابات القوة والتأثير، أو يجعلهم تحت سيطرة القوى الأخرى، وهو ما عشناه تاريخيًّا لفترات، فكان العداء للإسلام شديدًا، فنمى الجهل والمرض والفقر في العالم الإسلامي، ولا زالنا نجني الثمار المُرّة لهذه الفترة من وجود مفاهيم غير صحيحة للتعامل مع الشرع الحنيف.

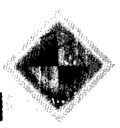
- يجب أن يتسع نطاق مواجهة مشكلة الغذاء لجهود الحكومات والمنظمات الإسلامية الحكومية، والمجتمع




الأهلي، وعلى الجميع أن يعمل في إطار متوازٍ، ولا ينتظر أحد الأطراف أن يقوم بدوره حتى يستكمل هو المطلوب منه.

ولعل الوقت يسمح الآن بدور أكبر لمنظمات المجتمع الأهلي، على ألا تفهم هذه المنظمات أن دورها مجرد توزيع بعض المأكولات على الفقراء، فالعمل الخيري يتطلب إعادة ترتيب أجندته وأولوياته، فإطعام الجائع من خلال الإغاثة العاجلة هو واجب الوقت في الأجل القصير من أجل الحفاظ على حياة الإنسان، التي أمر الله عز وجل بحفظها، بينما دور هذه المنظمات في الأجل المتوسط والطويل المشاركة الجادة في التنمية من أجل القضاء على الفقر والجوع، وأن تسترجع الأمة دورها في هداية العالمين.

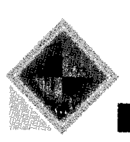
- يجب أن يتم التوسع في تجربة قيام الدول الغنية الإسلامية بزراعة بعض الأراضي في البلدان الفقيرة، والتي يتوافر بها مقومات زراعية جيدة، ولكن ينبغي ألا يكون حظ الدول الفقيرة مجرد توفير الأرض فقط، ولكن تأخذ التجربة في حسبانها النهوض بهذه الشعوب، وانتشالها من مستنقع الفقر، فتساهم في توفير فرص عمل، وتطوير البنية الأساسية للأراضي الزراعية بحيث يستفيد منها صغار المزارعين.



جدول رقم (١)

بيانات أساسية عن الزراعة والغذاء في بلدان العالم الإسلامي

البلد	الأراضي الصالحة للزراعة بآلاف الهيكتارات	السكان الزراعيين بالألف عام ٢٠٠٤م	الناتج المحلي الزراعي للفرد من المزارعين بالدولار	إنتاج الحبوب بالألف طن عام ٢٠٠٤م	الصادرات الزراعية بالمليون دولار عام ٢٠٠٤م	الواردات الزراعية بالألف طن عام ٢٠٠٤م	ناقصي التغذية من مجموع السكان ٢٠٠١ - ٢٠٠٣م
اذربيجان	١٧٦٠	٢١١٨	٥٢٤	٢٠٨٧	١٨٩	٤١٩	١٠
الأردن	٢٤٢	٥٦٧	٣٧٤	٥٣	٥٦٣	١٢٧٩	٧
ألبانيا	٥٧٨	١٤٥٧	٧٩٥	٤٩٩	٢٥	٢٨٩	٦
الإمارات	٦٠	١٢٢	٢٨٢٥٤		١٤٠٤	٤٨٢٥	أقل من ٢,٥
إندونيسيا	٢٠٥٠٠	٩٢٢٧٦	٣٥٢	٦٥٣١٤	٩٤٠١	٥١٨١	٦
أوزبكستان	٤٤٧٥	٦٦٢٦	٧٥١	٥٨٥٥	٨٣٥	١٦٦	٢٦
أوغندا	٥٠٦٠	٢٠٥٢٣	١١٥	٢٦٢٥	٣٥٩	٢٨١	١٩
إيران	١٤٣٢٤	١٧١٥٧	٩٨٣	٢١٨١٠	١٤٢٧	٣٠٥٥	٤
باكستان	٢١٣٠٢	٦٧٩١٧	٢٤٢	٣٠٣١١	١٢٥٤	٢٢٠٨	٢٢
البحرين	٢	٦	٥٥١٦٧		٤٣	٥٤٥	
بروناي	٩	٢		١	١	١٩٣	٣
بنجلاديش	٨٠٨٤	٧٧٤٥٤	١٦٤	٤١٠٤٤	١١٤	١٩٨٤	٣٠
بنين	٢٣٨٠	٣٤٦٣	٢٩٥	١١٠٩	٢٨٨	٣٨١	١٤
بوركينا فاسو	٤٠٤٠	١٢٣٤٥	٨٨	٢٩٠٢	٣١٤	١٥٢	١٧
طاجكستان	٩٢٠	١٩٦١	١٧٨	٨٦٠	٢٠٤	١١١	٦١
تركيا	٢٢٨٢٦	٢٠٤٨٤	١٢٢٩	٣٤٠٥٠	٥٩٥٨	٤٦٥٩	٣
تركمنستان	١٨٥٠	١٥٧٢	٩٦٤	٢٧٨٥	٨٦	٩٩	٨
تشاد	٣٥٢٠	٦٣١٩	٢٠٢	١٢١٢	١٢٢	٧٤	٣٣
توجو	٢٥١٠	٢٨٧٣	١٧٦	٧٨٧	١٣١	٨٩	٢٥
تونس	٢٨٦٤	٢٢٩٩	١٢٠٩	٢١٥٥	٩٧٤	١١٨١	أقل من ٢,٥
الجزائر	٧٦٦٢	٧٤٠٦	٨٢٥	٣٩٩٨	٥٥	٤٠٥٠	٥
السعودية	٣٥٩٢	١٨٤٤	٤٥٦٩	٢٧٩٢	٢٧٢	٦٢٠٢	٤
السنغال	٢٢٥٥	٧٤٨٨	١٢٦	١٠٨٥	١٨٢	٨٤٧	٢٣
السودان	١٦٢٢٢	١٩٧٠٨	٦٠	٣٦٤٣	٣٥٩	٦٣٨	٢٧
سوريا	٤٥٤٢	٤٧٧١	١٠٠٠	٥٢٤٩	٩٨٣	١١٩٣	٤
سيراليون	٤٩٠	٣١٠٢	١٧٧	٣٠٩	١٤	١٥٣	٥٠
الجابون	٢٢٥	٤٤٤	٨٧٤	٣٢	١٧	٢٢٦	٥
جامبيا		١١٣٧					
غينيا	٩٧٥	٧٠٩٥	١٦٨	١١٤٢	٥١	٢١٦	٢٤
غينيا بيساو	٣٠٠	١٢٥٧	١٠٢		٦٢	٤١	٢٧
فلسطين	١١١	٢٤٨	٦٣٠	٦٢	٥٤	٥٢٨	١٦
جزر القمر		٥٦٨					
قطر	١٨	٦		٧	٢٠	٤٤٨	
كازاخستان	٢١٥٢٥	٢٧٧٢	٦٦٢	١٢٢٣٤	٩٦٣	٩٣٤	٨
الكاميرون	٥٩٦٠	٧٨٠٧	٦٢١	١٦٨٤	٦٥٤	٤٠١	٢٥
الكويت	١٠	٢٧		٣	١٦	١٠٩٣	٥
لبنان	١٩٠	١٠٥	١١٠٩٥	١٤٥	٢٥٢	١٣٤٦	٣



ليبيا	١٨١٥	٢٦٣	١٢٢٧٠	٢١٣	١٢	١١٤٨	أقل من ٢,٥
مالي	٤٦٣٤	١٠٥٤٩	١٠٧	٢٨٤٥	٣٢٦	١٤٨	٢٨
ماليزيا	١٨٢٠	٣٩٢٩	٢٢٥٩	٢٢٦٨	١٠٩١٧	٥٨٤٢	٣
مصر	٢٨٠١	٢٤٩٥٤	٧١٠	٢١٣١٥	١٣١٤	٣٠١٤	٣
المغرب	٨٧٦٧	١٠٤٠٨	٧٢٥	٨٦٠٤	٩٦٤	٢٠٥٨	٦
موريتانيا	٤٨٨	١٥٤٦	١٢٢	١٢٥	١٨	٣٤٥	١٠
موزمبيق	٣٩٠٠	١٤٥٢٨	٨٥	٢٠٠٧	١٢٤	٣٤٢	٤٥
النيجر	١٤٤٨٢	١٠٧٨٣	٧٦	٢٦٧٢	٢٧	١٣٦	٣٣
نيجيريا	٢٨٢٠٠	٣٧٨٢٧	٢٦٤	٢٢٧٨٣	٤٨٧	٢٢٦٤	٩
اليمن	١٥٤٥	٩٦١٠	١٦٩	٤٩٧	١٠٣	١٠٥٠	٣٧
كود دي فوار	٣١٠٠	٧٥٧١	٢٣٨	٢٢٠٥	٣٠٩٣	٧١١	١٦
إجمالي العالم الإسلامي	٢٥٢٩٣٥	٥٣٥٢٩٤		٣١٣٣٧٨	٤٥٠٣١	٦٢٥٤٥	
العالم	١٣٩٧٦٥٦	٢٦٠٠٣٠١		٢٢٧٠٣٦٠	٦٠٤٣٢٩	٦٣٤٥٠٨	

المصدر: تم تجميع بيانات هذا الجدول من خلال الملحق الإحصائي لتقرير: حالة الأغذية والزراعة ٢٠٠٧م، الملحق الإحصائي، ص ١٣٩ - ١٩٨.

المصادر:

١- مركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار، نشرة المؤشرات الاقتصادية والاجتماعية لجمهورية مصر العربية، المجلد ١٦، مارس ٢٠٠٨م.

٢- وزارة التنمية الاقتصادية، خطة التنمية الاقتصادية والاجتماعية لعام ٢٠٠٨/٢٠٠٩م.

٣- ابتسام محمد الخضراء (مترجم)، فاندانا شيفا، «الحصاد المسروق.. سرقة مصدر الغذاء العالمي»، مؤسسة العبيكان، الرياض ٢٠٠٣م.

٤- د.أحمد محمد مندور، ود. أحمد رمضان نعمة الله، «اقتصاديات الموارد والتنمية»، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ١٩٩٥م.

٥- جريدة الأهرام، أعداد مختلفة.

٦- مواقع الإنترنت:

www.albankaldawli.org

www.wfp.org

www.islamonline.net

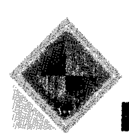
www.masrawy.com

www.fao.org

www.aljazeera.net

www.alarabiya.net

http://www.banquecentrale.gov.sy



معلومات إضافية

الوقود الحيوي

هو مادة الإيثانول، ويُنْتَج من أيّ محصول يحتوي على نشويات أو سكر بشكل أساسي، ويتم إضافته حاليًا إلى بنزين السيارات بنسب تتراوح بين ١٠٪ إلى ٢٠٪، ويمكن زيادة النسبة إلى ما يزيد على ٨٠٪ في حالة تعديل طريقة صناعة محركات السيارات، وفي السنوات الأخيرة اقتصر مصطلح الوقود الحيوي على الإيثانول والديزل المستخرَجَيْن من المحاصيل الزراعية مثل الذرة وقصب السكر وفول الصويا.

والوقود الحيوي هو أحد أهم مصادر الطاقة المستقبلية المستمدة من الكائنات الحية سواء النباتية أو الحيوانية منها. وهو أحد أهم مصادر الطاقة المتجددة خلافًا لغيره من الموارد الطبيعية مثل النفط والفحم الحجري، وكافة أنواع الوقود الأحفوري والوقود النووي.

وقد بدأت مناطق معينة بزراعة أنواع معينة من النباتات لاستخدامها في مجال الوقود الحيوي، منها الذرة وفول الصويا في الولايات المتحدة، وأيضًا اللفت في أوروبا، وقصب السكر وزيت النخيل في جنوب شرق آسيا.

ويمثل حطب الوقود مع الفحم النباتي وغيرها من أنواع الوقود الحيوي ما نسبته ١٠٪ من مجموع الاستهلاك العالمي للطاقة الأولية.

أبرز منتجي الوقود الحيوي:

تعتبر البرازيل والولايات المتحدة أبرز منتجي الوقود الحيوي في العالم.

تنتج البرازيل الإيثانول من قصب السكر منذ عام ١٩٧٥م لاستخدامه وقودًا لسياراتها، فيما تنتج الولايات المتحدة هذا الوقود الكحولي من الذرة.

ويشكل الإيثانول الذي يُستخلَص أساسًا من قصب السكر والذرة أكثر من ٩٠٪ من مجمل إنتاج الوقود الحيوي في العالم، أما البيوديزل المستمد من زيوت نباتية فهو النوع الرئيس الثاني من الوقود الحيوي، وقد قفز إنتاجه عام ٢٠٠٥م بنسبة ٦٠٪.

ولا يتجاوز الإنتاج العالمي من الوقود الحيوي ٤٠ مليون طن نفط مكافئ، وهذه الكمية تحتاج إلى ما يزيد على مائة مليون طن من المواد الغذائية والأعلاف لإنتاجها، وهو ما أدى إلى حدوث خلل كبير في السوق العالمية لهذه المواد.

أظهرت بيانات صادرة في عام ٢٠٠٧م أن نحو ٩٠٪ من إنتاج الوقود الحيوي العالمي يتركز في الولايات المتحدة والبرازيل وأوروبا، كما هو موضح على النحو التالي:

- الولايات المتحدة ٤٣٪.
- البرازيل ٣٢٪.
- الاتحاد الأوروبي ١٥٪.
- الصين ٣٪.



- الهند ١٪.
- أوسيانيا ١٪.
- دول أمريكا الشمالية والوسطى الأخرى ٢٪.
- دول أمريكا الجنوبية ١٪.
- بلدان آسيا الأخرى ١٪.

أضرار الوقود الحيوي:

١- أضراره على الغذاء:

أبرز أضرار هذا النوع من الوقود هي التسبب في أزمة الغذاء العالمي الراهنة. ويقدر نصيب الوقود الحيوي في سوق الطاقة العالمية حاليًا بنحو ١,٥٪، لكنه مسئول عن ٧٠٪ من ارتفاع الأسعار الذي شهدته بعض السلع، خاصة القمح والذرة وقصب السكر الذي يستخرج منه الإيثانول.

اعتبر صندوق النقد الدولي أن المضي في إنتاج الوقود الحيوي هو السبب الرئيس وراء ارتفاع أسعار الغذاء، وخصوصًا الذرة ومنتجاتها بين عامي ٢٠٠٦، و٢٠٠٧م.

ووفق البيانات التي أصدرتها الأمم المتحدة في أكتوبر الماضي فمن المنتظر أن يواجه العالم أزمة غذائية خطيرة؛ بسبب التوسع في تخصيص مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية لإنتاج الوقود الحيوي؛ حيث تشير الدراسات إلى أن عدد الجياع في العالم فاق المليار نسمة، يموت منهم نحو ١٥ مليون فرد سنويًا؛ بسبب عدم توافر الغذاء، وهذا العدد قابل للزيادة خلال الفترة القليلة المقبلة.

وقد سجلت أسعار الحبوب على المستوى العالمي ارتفاعًا خطيرًا، بلغت نسبته ١٠٠٪ خلال الاثني عشر شهرًا الماضية، وارتفعت أسعار السلع الغذائية بمعدل ١٠٪، كما قفزت أسعار القمح الأوروبي إلى ١٩٠ يورو للطن مقارنة بـ ١٣٠ يورو خلال ديسمبر الماضي.

ووفق تقديرات «جون زيجلر» المقرر الخاص لحق الغذاء بالأمم المتحدة؛ فإن ارتفاع أسعار المواد الغذائية بمعدل ١٪ يضيف ١٦ مليون إنسان إلى قائمة الجياع على مستوى العالم.

وقد برز ارتفاع أسعار المحاصيل الزراعية بسبب الطلب عليها لإنتاج الوقود الحيوي إلى صدارة النقاش الدائر بشأن الصراع المحتمل بين الغذاء والوقود. فالحبوب اللازمة لملء خزان سيارة رياضية رباعية الدفع بالإيثانول (٢٤٠ كيلو جرامًا من الذرة لإنتاج ١٠٠ لتر من الإيثانول) يمكن أن تكفي لتغذية شخص واحد لمدة سنة؛ ولذلك فإن المنافسة بين الوقود والغذاء منافسة حقيقية.

وحذَّر جيفري ساكس المستشار الخاص للأمم المتحدة من أن ثلث إنتاج الولايات المتحدة من الذرة في عام ٢٠٠٨م سيذهب إلى خزانات الوقود، ما يمثل ضربة قوية لإمدادات الغذاء في العالم.

وقالت المنظمة الخيرية البريطانية أوكسفام: إن زيادة إنتاج الوقود الحيوي قد أدى إلى زيادة عدد الفقراء في العالم بحوالي ٣٠ مليون إنسان.

ودعت المنظمة الدول الأوروبية إلى إلغاء خططها في اعتماد مصادر طاقة متجددة في ١٠٪ من مجمل عمليات النقل بحلول عام ٢٠٢٠م.

واعتبرت «سالمة الغزاوي» المنسق العام لمنظمة غذاء بلا حدود أن الدول الغربية الكبرى بقيادة الولايات المتحدة

الأمريكيـة تقـود حملة إبادة جماعية للتخلص من شـعوب دول العالم الفقيرة، مسـتخدمة في ذلك سـلاح التجويع، وإهـدار المحاصيل الزراعية الاسـتراتيجية، مثل القمح والذرة في إنتاج الوقود الحيـوي كبديل للبترول الذي ارتفعت أسعاره بصورة ملحوظة خلال السنوات القليلة الماضية.

ب. أضراره على البيئة:

على صعيد البيئة؛ فإن اسـتخدام الوقود الحيوي من قصب السكر والذرة كبدائل عن بنزين السيارات باستعمال الإيثانول يشكل بديلاً صعبًا ومضرًا بالبيئة، وسيكلف أكثر من سعر بنزين السيارات على المدى الطويل، إضافة إلى كلفتـه البيئية نتيجة قطع الأشـجار، والإضـرار بالغابات، والزيادة في الانبعاثات الغازيـة الضارة بالبيئة وصحة الإنسان، وخصوصًا مادة غاز ثاني أكسيد الكربون.

وأظهرت دراسة علمية أن التحول من استخدام البنزين إلى الإيثانول قد يساهم في تلوث الهواء، ويزيد حالات الموت الناجمة عن الدخان الأسود الكثيف.

وأصـدرت منظمـة التعاون الاقتصادي والتنمية (أويسـد) تقريرًا يدعو لوقف الدعم للوقود الحيوي، مشـيرة إلى أن الاتجاه العالمي المتسـارع نحو الديزل الحيوي والإيثانول أدى إلى ارتفاع أسـعار الغذاء، وإلى إلحاق دمار بالبيئة أكثر من الفائدة المكتسبة.

وذكر تقرير للمنظمة أن الاندفاع الراهن صوب الوقود الحيوي أوجد ضغوطًا على التنمية المسـتدامة، ومن شـأنه أن يربك الأسواق دون أن يعود بمنافع كبيرة على البيئة. وأشار التقرير إلى أن الآثار البيئية للإيثانول والديزل الحيوي تتجـاوز في مجملهـا الآثـار الناجمة عن البنزيـن والديزل عندما نضع في الاعتبار الخسـائر في مجـال التنوع الحيوي والسموم الناتجة عن استخدام المبيدات.

المصادر:

- الوقود الحيوي يسرق الغذاء من أفواه الفقراء، مجلة «المجلة»، العدد ١٤٧٣، بتاريخ ٤ـ ٢٠٠٨/٥/١٠م.

- الوقود الحيوي طاقة الغذاء، موقع الجزيرة نت، ٢٠٠٨/٦/٢م:

http://www.aljazeera.net/NR/exeres/D9568FC0-E780-4613-B360-E54B9817E793.htm

- الوقود الحيوي ينشر الفقر في العالم، موقع هيئة الإذاعة البريطانية (BBC)، ٢٠٠٨/٦/٢٥م

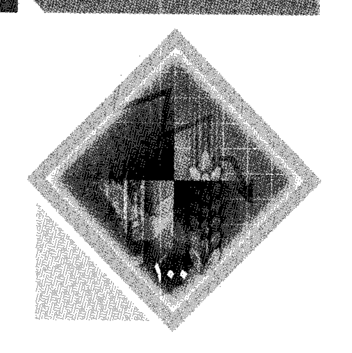
http://news.bbc.co.uk/hi/arabic/world_news/newsid_7472000/7472570.stm

- الوقود الحيوي: نعمة أم نقمة؟، موقع إذاعة دويتشه فيله الألماني، ٢٠٠٧/٩/٢٧م

html.٠,٢١٤٤,٢٧٩٩٧٠٤,٠٠/http://www.dw-world.de/dw/article

- الوقود الحيوي – الفرص والمخاطر، تقرير عن التنمية في العالم ٢٠٠٨م: الزراعة من أجل التنمية، الصادر عن البنك الدولي.

http://web.worldbank.org/WBSITE/EXTERNAL/EXTARABICHOME/EXTDECINARA/EXTRESINARA/EXTWDRINARA/EXTWDR2008INARA/0,,contentMDK:21515445~pagePK:64168445~piPK:64168309~theSitePK:4164741,00.html



الثروة النفطية العراقية في السياسة الأمريكية

د. حسين الرشيد
باحث وأكاديمي عراقي

ملخص الدراسة

جاءت قوات الغزو لاحتلال العراق، ومعها أجندات وخطط عديدة تريد تنفيذها على أرض الرافدين، مستغلةً في ذلك الظروف المواتية والمناخ الملائم، الذي وفَّر لها غطاء واضحًا؛ لتنفيذ كل المخططات التي تقف وراءها أطماعٌ ورغباتٌ خبيثة؛ لاستغلال الثروات، ونهب الخيرات التي يتمتع بها العراق.

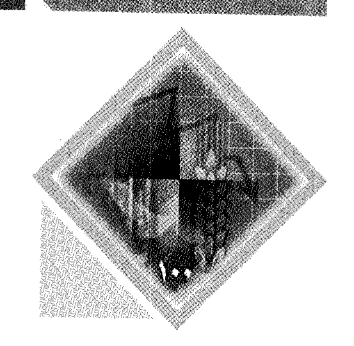
ويقف في مقدمة تلك الثروات النفيسة (النفط) الذي يعدُّ الثروة الأغلى في بلاد الرافدين.. تلك الثروة التي يرتكزُ عليها حاضر العراق، ومستقبله.. وتطور العراق اقتصاديًا، وتقدّمه اجتماعيًّا مرهونٌ بالمحافظة على هذه الثروة العظيمة، التي يسميها الخبراء بـ «الثروة النقدية النابضة»، ويسميها الاقتصاديون بـ«رأس المال المتحرك»، وهي ثروة تستخدم -بعد إعطاء حقوق الأفراد فيها، والدفاع عنهم، وتوفير الخدمات لهم- لبناءِ الثروات الدائمة التي لا تنقطع.

إنَّ العراق -الذي يمتلك ثاني أكبر خزين من النفط العالمي، ومرشح لأن يتصدر قائمة الدول التي تنتج النفط وتصدّره على مدى السنين القادمة- صار محطّ أنظار الطامعين، وكعبة يقصد الانتفاع منها كل الدول التي تطمح لتحقيق رفاهية معيشية وقفزة اقتصادية، بما يعود عليها بالمنافع الهائلة.

لقد جاءت هذه الدراسة لتؤكد حقائق مهمة، في مقدمتها حقيقة الأسباب التي تقف وراء غزو العراق واحتلاله، وما رافقها وتبعها من تداعيات وتطورات انعكست على حاضر البلد ومستقبله، ومستقبل المحيط العربي والإسلامي، فضلاً عن محاولة إيضاح الدور الأمريكي الذي تلعبه الإدارة الأمريكية تجاه الثروة النفطية العراقية الهائلة، وكان من أهم تلك الأدوار المشبوهة التي لعبها صقور البيت الأبيض ما يسمى «قانون النفط والغاز».

ولقد أوضحت الدراسة أيضًا بالأدلة والشواهد الدور المشبوه الذي يقوم به سياسيو أمريكا لتحقيق رغباتهم الخاصة لصالح شركاتهم الكبرى، التي صار العراق وثروته الطبيعية الهائلة عمودها الفقري، فضلاً عن استغلال مناصبهم في توقيع العقود لصالح شركات يملكها سياسيون ومسعّرو الحرب في العراق.

إنَّ ثروة العراق النفطية تتعرض لمستقبل خطير في ظل الوجود والتدخل الأمريكي في وقت يجب فيه إدراك حقيقة مهمة، وهي أن البيت الأبيض لن يفرِّط بنفط العراق مهما كلفه ذلك من تنازلات وتضحيات.. لأنَّ ذلك هو السر المكنون لتحكمه بمصير العالم ومستقبله.



الثروة النفطية العراقية في السياسة الأمريكية

د. حسين الرشيد
باحث وأكاديمي عراقي

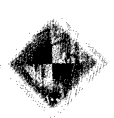
مقدمة:

الحديثُ عن الثروة النفطية العراقية متسع ومتشعب، ويحتاجُ إلى مزيدٍ من الإيضاحِ والتفصيل والبيان، وربما يستغرق الحديث عن هذا الموضوع -بعمومه- مئات الصفحات، حتى تُغطّى جميع جوانبه، وتتضحُ جميع جزئياته.

غير أنَّ النقطة التي صارت واضحة للمتابعين والمراقبين هي أنَّ الثروة النفطية العراقية تحتل أولوية مهمة في الاستراتيجية الأمريكية التي تبني عليها أمريكا علاقاتها مع دول العالم، بما في ذلك الدول التي تحتل أراضيها، أو لها وجود عسكري عليها، وخاصة العراق، وما يترتب على ذلك من منافع ومصالح وفوائد تعود بالنفع على المؤسسات الأمريكية عمومًا والاقتصادية خصوصًا.. ومن المهم هنا الوقوف على حيثيات الاستراتيجية الأمريكية، ومعرفة طريقة التفكير التي تتصف بها إدارة البيت الأبيض تجاه ثروة العراق الهائلة، التي سيعتمد عليها العالم بأجمعه في يومٍ من الأيام.

هذا ما ستتناوله هذه الدراسة بالطرح والتحليل، وضرب الشواهد التي تدل على وجاهة الأفكار والآراء المطروحة في ثنايا الصفحات اللاحقة، التي تعد الأولى مما وقفت عليه في طرقِ هذا الموضوع المهم؛ حيث اقتضت الدراسة إيضاح جوانب مهمة من جزئيات هذا الموضوع معتمدًا في ذلك على منهجٍ وصفي يعتمد كثيرًا على التحليل والتدقيق، وترجيح الرأي الذي يحمل مزيدًا من الوجاهة.

وقد تطرقتُ إلى مفاصل مهمة مما يتعلق بهذا الموضوع؛ إذ تناولتُ في المحور الأول من هذه الدراسة ما لا يسع المتابع جهله من حقائق مهمة عن الثروة النفطية العراقية بالشواهد والأرقام، يليه المحور الثاني الذي خصصته للحديث عن موقع النفط بين أسباب غزو العراق واحتلاله قبل أكثر من خمس سنوات، ثم تحدثتُ عن الثروة النفطية العراقية في عيون الولايات المتحدة الأمريكية، متناولاً الدور الأمريكي في استغلال الخزين النفطي العراقي الهائل، ودور أمريكا في سنِّ قانون النفط والغاز الجديد، ودورها في عقود النفط لصالح شركاتها الكبرى، فضلاً عن جهودها الحثيثة لضمان إيصال النفط العراقي للكيان الصهيوني، وخصصت المحور الرابع للحديث عن مستقبل الثروة النفطية في العراق، وأشرت في هذا الصدد إلى نقاط مهمة ينبغي تأملها والوقوف عندها بتدبر وتأنٍّ، وسنتعرف عليه من خلال ما يأتي:



المحور الأول

حقائق عن النفط العراقي

وصف بعضُ الخبراء نفطَ العراق بأنه «كنزُ القرن الحادي والعشرين»[1].. ويعود اكتشاف النفط في العراق إلى منتصف العشرينيات، إبان الاحتلال البريطاني، وساعد هذا الاكتشاف في تلك الفترة على وضع الثروة النفطية بيد بريطانيا، التي احتكرت ثروة العراق لسنوات طويلة.

وتتمركز حقول النفط بكثافةٍ في أجزاء العراق الجنوبية، وبعض الأجزاء الشمالية.. ويصدّر العراق عبر مرافئه الجنوبية بين مليون ونصف إلى مليون و٦٥٠ ألف برميل -وقد يزيد العدد وينقص- من النفط الخام يوميًّا، حسب أرقام نشرتها وزارة النفط العراقية.

ومن المؤكد عند خبراء النفط وكبار علماء الاقتصاد أنّ احتياطي العراق الثابت من النفط والمكتشف إلى الآن يقدّر بـ(١١٥ مليار برميل) بضمنها الحقول المستغلّة وغير المستغلّة، وبحسب تقديرات الخبراء فإنّ الاحتياطيات المتوقعة في العراق عالية جدًّا، وقد يصل احتياطي البلد بعد إكمال التحريات إلى ما يقرب من (٢٥٠ مليار برميل).. ومن المعلوم أن كمية الاحتياطي الثابتة المقدرة بـ(١١٥) مليار برميل، تعود إلى تقديرات (٧١) حقلاً نفطيًّا، منها (٢٤) حقلاً نفطيًّا غير مستغل، وإن الاحتياطي المثبت والمكتشف وغير المستغل يصل إلى ما يقرب من ٧٠٪ من مجمل الاحتياطي النفطي.

وقد أكد «كال لوفت» أحد مدراء معهد تحليل الأمن العالمي في مقالٍ بعنوان «كم يملك العراق من النفط؟!» على أنّ العراق يعتبر أقل دولة نفطية تمت فيها التحريات المطلوبة، ولذا فإنّ هناك احتمالات لاحتياطيات إضافية عالية[2].

وذكر وزير النفط العراقي الأسبق عصام الجلبي بأنّ العراق مع امتيازه بحجم ثروته النفطية الهائلة، فإنه يمتاز أيضًا بأن كُلَف استكشاف نفطه تُعدّ الأقل في العالم كله؛ حيث تبلغ تكاليفه بحدود نصف دولار للبرميل الواحد، وتتراوح كلفة الاستخراج ما بين دولار إلى دولار ونصف للبرميل الواحد[3]، وتبلغ كلفة التشغيل ما بين دولار ودولارين أيضًا.. إضافة إلى أنّ جزءًا كبيرًا منها يمكن استخراجه من أماكن ليست عميقة جدًّا.

ويتم تصدير معظم إنتاج العراق من النفط إلى الخارج عبر حقوله الشمالية المربوطة بخطوط أنابيب تمر في تركيا إلى ميناء جيهان، بينما يتم تصدير النفط في المناطق الجنوبية عبر ميناء «أم قصر» المطلّ على الخليج العربي، وهناك خطوط أنابيب تربط العراق بكل من سوريا، والأردن، وفلسطين، ولكن معظمها مهجورٌ ومهمل.

ويعتقد بعض المحللين أن قدرة العراق على إنتاج النفط ستصل في غضون السنوات الخمس القادمة إلى نحو (١٠) ملايين برميل نفط يوميًّا؛ إلا أنّ العمليات العسكرية وما يلحق المنشآت النفطية من تخريب أدت إلى خسائر تتجاوز قيمتها (٦) مليارات دولار في عام (٢٠٠٦م) وحده.

المحور الثاني

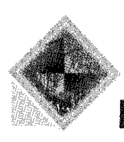
موقع النفط بين أسباب غزو العراق

هناك حقيقة مهمة تقف وراء إدراك الولايات المتحدة لأهمية الثروة النفطية العالمية عمومًا، وثروة الشرق الأوسط خصوصًا؛ وهي: أنّ إجمالي الاحتياطيات الأمريكية من النفط لا يتجاوز (٢١) مليار برميل في الوقت الراهن، في حين يبلغ الاستهلاك الأمريكي الصافي نحو (١٧) مليون برميل يوميًّا، وهذا يعني أنّ كل الاحتياطيات الأمريكية من النفط يمكن أن تنفد خلال ما يقل عن ثلاثة أعوام ونصف العام فقط، فيما لو اعتمدت أمريكا على نفطها بالكلية.. ومن هنا فهي

(١) ينظر: سيطرة الولايات المتحدة على النفط العراقي: الدوافع والأهداف، للأستاذ علي حسين باكير، مجلة البيان، العدد (٢٣٠) وهي منشورة على شبكة الإنترنت على الرابط التالي http://www.albayan-magazine.com/iraq-file/144.htm

(٢) ينظر: ثلاثية النفط العراقي، لخبير النفط العراقي الأستاذ فؤاد قاسم الأمير ص٢٤، دار الغد للنشر، الطبعة الأولى، عام ٢٠٠٦م.

(٣) وقد أشارت إلى ذلك أيضًا «مجلة النفط والغاز» في كانون الأول من عام ٢٠٠٢م، وقالت: إنها الأرخص في العالم.



تعتمد على استيراد البترول بدلاً من الاستنفاد السريع لاحتياطياتها النفطية.. ولا يسعها هنا -وهي تواجه خشية حقيقية من العجز عن تحقيق التوازن بين الإنتاج والطلب المتعاظم على النفط- سوى التحرك للسيطرة على حركة السوق النفطية، من حيث توزيع الكميات وسقف الأسعار، وهي سيطرة لا تأتي بدون احتلال فعليّ لمنابع النفط ليس في العراق فحسب، بل في دول الخليج[٤]. يرادف ذلك حذر كبير؛ لأنَّ عدم حرص الحكومة الأمريكية على ضمان الإمدادات النفطية لأمريكا وأوروبا يمكن أن يهدّد الأمن القومي والسلام العالمي، حسبما أكدته لجنة العلاقات الخارجية لمجلس النواب الأمريكي منذ عام ١٩٧٩م.

وهذا ربما يكون مدخلاً مهمًّا لاستيضاح النفط، وكونه سببًا رئيسًا في غزو العراق، بعيدًا عن الأهداف الدعائية المعلنة حول نزع أسلحة الدمار الشامل التي يمتلكها العراق، أو محاولة إسقاط النظام السابق، وبناء نظام ديمقراطي، وغيرها من الادعاءات التي تدرك الإدارة الأمريكية قبل غيرها بطلانها وعدم صحتها[٥].

يقول «مايكل كلير»[٦]: إنه على مدى عشرات السنين ترسّخ مبدأ لدى كبار صناع السياسة الأمريكية، وتحول إلى عقيدة لا يتزحزح الإيمان بها، وهو أنَّ الولايات المتحدة الأمريكية تستطيع استخدام قوتها العسكرية من أجل فرض سيطرتها على موارد البترول في دول العالم.. ويضيف قائلاً: إنَّ أيّ رئيس أمريكي لن يتردد في استخدام القوة العسكرية أو التلويح باستخدامها من أجل حماية المصالح النفطية الأمريكية في منطقة الخليج... وقد كان هذا المبدأ حاضرًا بقوةٍ لدى مسئولي إدارة الرئيس الأمريكي «جورج بوش» أثناء التفكير في غزو العراق في مارس عام ٢٠٠٣م[٧].

وقد كشف برنامج (بي بي سي – نيوزنايت) أنَّ إدارة الرئيس جورج بوش دبرت خططًا للحرب على العراق، والاستيلاء على نفطه قبل هجمات الحادي عشر من سبتمبر، مما فجّر خلافًا متعلقًا بالسياسة بين المحافظين الجدد وأصحاب شركات النفط الكبرى.. وقد أوضحت مصادر وزارية أمريكية لهذا البرنامج أنَّ التخطيط بدأ في غضون أسابيع من تولي بوش الرئاسة في ٢٠٠١م[٨].

كشف برنامج (بي بي سي – نيوزنايت) أنَّ إدارة الرئيس جورج بوش دبرت خططًا للحرب على العراق، والاستيلاء على نفطه قبل هجمات الحادي عشر من سبتمبر.

وفي عام (٢٠٠٢م) صرح «لورانس ليندساي» -الذي كان يعمل مستشارًا اقتصاديًّا للرئيس الأمريكي- بأنَّ النفط هو الهدف الرئيس لمساعي الولايات المتحدة لشنِّ هجومٍ عسكري ضد العراق[٩]. وقد أوضح تقريرٌ نشره معهد «بلاتفورم» بالتعاون مع خمسة معاهد ومؤسسات غير حكوميةٍ في أواخر تشرين الثاني من عام ٢٠٠٥م أنَّ الهدف من غزو العراق الثروة النفطية[١٠].

وتوصل «معهد بيكر للسياسة العامة» -الذي يشرف عليه جيمس بيكر وزير الخارجية والخزانة الأمريكية الأسبق في دراسة له- إلى أنَّ إحدى النتائج البعيدة المدى لأحداث الحادي عشر من سبتمبر هي وعي الولايات

(٤) ينظر: حروب البترول الصليبية، والقرن الأمريكي الجديد ص٧٦، تأليف الأستاذ عبد الحي زلّوم، الناشر: المؤسسة العربية للنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.

(٥) ينظر: الأبعاد الاقتصادية للغزو الاستعماري الأمريكي للعراق، للكاتب أحمد السيد النجار، خبير الاقتصاد بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، موقع (إسلام أون لاين) على الرابط التالي http://www.islamonline.net/Arabic/In_Depth/iraq_maps/2003/article02.shtml

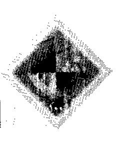
(٦) هو أستاذ الدراسات الأمنية الدولية في كلية «هامبشاير كوليدج» الأمريكية، وله العديد من المؤلفات منها: «الدماء والنفط» و«مصادر الحروب» و«خريطة الصراعات الدولية».

(٧) ينظر: هل خسرت واشنطن الرهان على نفط العراق؟ للأستاذ أشرف البربري، مجلة الجزيرة السعودية، العدد (١٤٨) ١٥/رمضان/١٤٢٦هـ، على الرابط التالي http://www.al-jazirah.com/magazine/18102005/almlfsais8.htm

(٨) ينظر: خطط أمريكا السرية لنفط العراق، تقرير منشور على موقع (BBC) في ١٨/مارس/ ٢٠٠٥م، على الرابط التالي http://news.bbc.co.uk/hi/arabic/world_news/newsid_4360000/4360103.stm

(٩) ينظر: الأبعاد الاقتصادية للغزو الاستعماري الأمريكي للعراق، مصدر سابق.

(١٠) ينظر: سيطرة الولايات المتحدة الأمريكية على النفط العراقي: الدوافع والأهداف، مصدر سابق.



المتحدة بضرورة الاتجاه لتكثيف البحث عن مصادر جديدة لوارداتها النفطية[11].

يقول نائب وزير الدفاع «بول وولفوتز» في مقابلة في سنغافورة: «دعونا ننظر إلى الأمر ببساطة، فالفرق الأهم بين كوريا الشمالية والعراق يكمنُ في الناحية الاقتصادية، ولم يكن أمامنا خيار آخر في العراق، فتلك البلاد تطفو على بحر من النفط!!»[12].

فالواضح إذن أنَّ مخططي السياسة استقرّوا على أنَّ غزو العراق هو الحل الذي يمكن من خلاله الهيمنة على الثروة النفطية التي يتمتع بها هذا البلد.. بما يمكّنها من التحكم في حجم الإنتاج العالمي من النفط، من خلال مضاعفة الإنتاج النفطي العراقي، وخفض أسعاره بشكلٍ كبير، بما يحقق مصلحة الولايات المتحدة كأكبر دولة مستهلكة ومستوردة للنفط في العالم[13].

إنَّ أسبابًا استراتيجيةً تقف وراء اهتمام ساسة أمريكا بالثروة النفطية، بل خوض الحروب بسببها.. منها: أنَّ النفط أصبح مجالاً واسعًا لمافيا نفطية عالمية تضمُّ بين أفرادها رموزًا سياسية في أمريكا، ومن بينهم الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش الأب، وديك تشيني، وجيمس بيكر، وغيرهم.. فهؤلاء يهمهم بشكلٍ شخصي استمرار السياسة النفطية التي تضمنُ ضخَّ أكبر الكميات النفطية بأسعارٍ متدنية لكسب موارد مالية كبيرة.. ونظرًا لموقع هؤلاء في صنع القرار السياسي والعسكري على المستوى الدولي أصبحت الحروب تُخاض أحيانًا بمنطلق نفطيّ بحت.

ومنها: ظاهرة الطمع الأمريكي الزائد، خصوصًا في دائرة الإنتاج النفطي، ومطالبتها بالمشاركة في تسمية الاستثمارات النفطية، وذلك بطرح مشاريع وهمية لـ«تطوير الحقول النفطية» التي تستدعي رؤوس أموال عملاقة من الشركات النفطية الأمريكية، وتفرض على الدول المنتجة مشاركتها في العائدات النفطية.

ويجري الآن الإعداد لمشاركة شركات الولايات المتحدة الأمريكية في حقول النفط العراقية بحجة تطويرها[14].

ومما ينبغي التنبه إليه أنَّ إدارة البيت الأبيض أنكرت أن يكون الهدف من غزو العراق هو السيطرة على ثروته النفطية ومخزونه الاستراتيجي، غير أنَّ مما لا يمكنها إنكاره هو سعيها الحثيث لحماية وزارة النفط العراقية بعد دخولها العاصمة «بغداد» مباشرة، في الوقت الذي تركت فيه تلك القوات كل المرافق العراقية العامة والخاصة وكل الدوائر والوزارات والمؤسسات عُرضةً للسلب والنهب والحرق والتخريب والتدمير.. قال أحد كبار مسئولي وزارة الدفاع الأمريكية: «من الأمانة القول: إنَّ قائد قواتنا البرية وفريق التخطيط العامل معه وضعوا الاستراتيجيات التي تسمح لنا بتأمين وحماية هذه الحقول في أسرع وقتٍ ممكن»[15].

لقد تأكد أنَّ هناك مقترحات عدة، كانت الإدارة الأمريكية قد طرحتها، وتداولتها بين أوساطها لاستغلال النفط العراقي، وهي تتراوح بين ثلاثة مقترحات:

أولها : أن يتم استخدام عائدات النفط بعد السيطرة على العراق؛ من أجل تغطية النفقات العسكرية لجيش الاحتلال الأمريكي فيه..

يقول «مايك أنتون» المتحدث باسم مجلس الأمن القومي الأمريكي: «إنَّ البيت الأبيض وافق على أن تلعب عائدات البترول العراقي دورًا مهمًّا خلال فترة الوجود العسكري

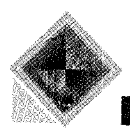
(١١) ينظر: الأبعاد الاقتصادية للغزو الاستعماري الأمريكي للعراق، مصدر سابق.

(١٢) هذا القول بتاريخ ٣١/آيار/٢٠٠٣م.. ينظر: حروب البترول الصليبية والقرن الأمريكي الجديد ص ٧٨، مصدر سابق.

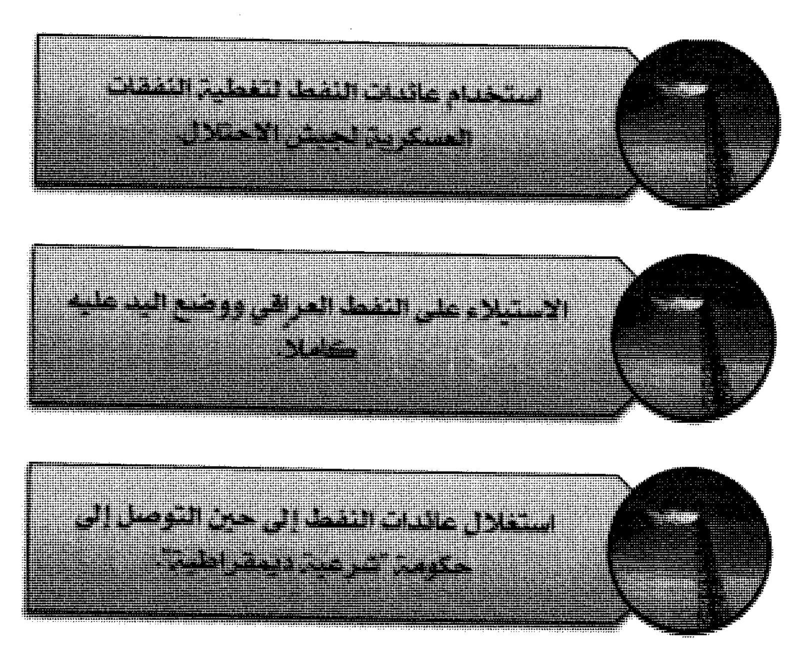
(١٣) ينظر: الأبعاد الاقتصادية للغزو الاستعماري الأمريكي للعراق، مصدر سابق.

(١٤) ينظر: النفطُ، العنوان (الخفي – الظاهر) في السياسة الأمريكية، للدكتور سعيد الشهابي، موقع العرب نيوز الإخباري، على الرابط التالي http://www.alarabnews.com/alshaab/GIF/٢٢-٠٨-٢٠٠٣/a٢٢.htm

(١٥) جاء هذا التصريح قبل أقل من ثلاثة شهور من احتلال العراق في عام ٢٠٠٣م.



المقترحات التي روجتها واشنطن لاستغلال النفط العراقي بعد الاحتلال



الأمريكي في العراق، وأن عائدات البترول العراقية سيتم استخدامها في حالة الحرب والوجود العسكري الأمريكي في العراق...» حسب ما نقلته صحيفة «نيوز - داي» الأمريكية في ١/١/٢٠٠٣م.

وثانيها : أن يتم الاستيلاء على النفط العراقي، ووضع اليد عليه كاملاً، وذلك من خلال عقود تقوم بموجبها الشركات الأمريكية باحتكار الصناعة النفطية في العراق، أو من خلال الوجود العسكري المباشر في هذه المنطقة، أو قرب آبار النفط لتأميمها، والتحكم بتدفق النفط وعائداته[١٦].

وثالثها : استغلال عائدات النفط العراقية، إلى حين التوصل إلى حكومة شرعية ديمقراطية، على أن يتم توزيع جزء من هذا العائد على مشاريع وجهود إعادة الإعمار[١٧].

المحور الثالث

النفط العراقي في عيون أمريكا

(١) الدور الأمريكي في استغلال خزين النفط العراقي الهائل:

يعود اهتمام أمريكا بالنفط العراقي إلى سنوات طويلة.. فأمريكا التي تذرَّعت بالحجج الواهية لغزو العراق، ونهب خيراته وثرواته، كانت من أولى الدول المستوردة لنفط العراق بمقدار ١,٢ مليون برميل يوميًا، في الوقت الذي كانت تستورد أوروبا كلها ما يقرب من نصف مليون برميل، ونحو ١٥٠ ألف برميل لقارة آسيا كلها[١٨].. وإذا اتضحت تلك الحقيقة، فلا عجب أن نرى اهتمامها بنفط العراق ومحاولة استغلال خزينه الهائل.

لقد سال لعاب سادة البيت الأبيض على ثروة العراق النفطية منذ زمن بعيد!! ففي عام (١٩٩٩م) ألقى «ديك تشيني» الذي يرأس «شركة هاليبرتن» النفطية الشهيرة، محاضرة في «معهد النفط» في واشنطن بيّن فيها حاجة الولايات المتحدة في عام (٢٠١٠م) إلى خمسين مليون

---

(١٦) ينظر: أمريكا وصفقة النفط العراقي، للكاتب نعوم تشومسكي، مجلة العرب الإلكترونية الأسبوعية، بتاريخ ٢٠٠٨/٧/٢٥م، على الرابط http://arabmag.blogspot.com/٢٠٠٨/٠٧/blog-post_٢٩١٢.html.

(١٧) ينظر: سيطرة الولايات المتحدة الأمريكية على النفط العراقي : الدوافع والأهداف، مصدر سابق.

(١٨) ينظر: المصدر السابق.



برميل من النفط يوميًّا.. وتساءل: كيف لهم أن يحصلوا عليه إذا كانت الحكومات تسيطر على ٩٠٪ من احتياطي العالم، ثم ذهب إلى القول: إنّ الشرق الأوسط فيه ثلثا نفط الكرة الأرضية، وبكلفة إنتاج منخفضة، لذا فهو «موطن الجائزة».

وبعد دخول «تشيني» البيت الأبيض نائبًا للرئيس، وضع في آذار (٢٠٠١م) «السياسة الوطنية للطاقة» مع مجموعة التطوير، التي شكّلها سابقًا من كبريات شركات الطاقة الأجنبية، وورد في مقدمة توصيات هذه المجموعة: «ضرورة أن يضغط البيت الأبيض على حكومات الشرق الأوسط بفتح أسواقها للاستثمارات الأجنبية»[١٩].. وقد سمّت الـ«السنداي ستار تايمز» نفط العراق وثرواته بأنه «الجوهرة غير الممسك بها في تاج الشرق الأوسط»[٢٠].

ومن هنا نجد أنّ الغرب قد اهتم بدراسة ثروتنا أكثر من اهتمامنا نحن بها، ولهم وجهات نظر أخرى في إثبات الاحتياطي النفطي، من خلال دراسات قامت بها مراكز أبحاث متنوعة.. فعلى سبيل المثال يعطينا «معهد تحليل الأمن العالمي» أرقامًا مهمة عن الاحتياطي النفطي العراقي؛ إذ يذكر أنّ مجلة «اقتصاديات البترول» أوصلت الاحتياطي إلى (٢٠٠) مليار برميل.. وأوصلته دراسة «اتحاد العلماء الأمريكيين» إلى (٢١٥) مليار برميل[٢١].

أما الدراسة المشتركة التي قدمتها «هيئة العلاقات الخارجية» و«معهد جيمس بيكر في جامعة رايس» فقد أوصلت الاحتياطي إلى (٢٢٠) مليار برميل..ويرتفع الاحتياطي النفطي المتوقع في العراق في دراسة قدمها «مركز دراسات الطاقة العالمية» إلى (٣٠٠) مليار برميل[٢٢].

وقد قدّم مجلس العلاقات الخارجية بالكونجرس عام (٢٠٠٢م) دراسة للإدارة الأمريكية حول نفط العراق، وقد أكّدت الدراسة على مجموعة من الجزئيات المهمة، التي تتمثل بما يأتي:

(١) إنَّ البنية الأساسية لقطاع النفط تعيش حالة متدهورة للغاية، وتحتاج إلى إعادة إعمار لإنقاذ الإنتاج النفطي الذي يتدهور سنويًّا بنسبة ١٠٠,٠٠٠ برميل يوميًّا.

(٢) إنَّ إعادة إعمار القطاع النفطي العراقي يحتاج إلى استثمارات تقدّر بمليارات الدولارات، وتحتاج إلى فترة طويلة حتى تتحقق حالة جيدة من الإنتاج والتصدير[٢٣].

> إعادة إعمار القطاع النفطي العراقي تحتاج إلى استثمارات تقدّر بمليارات الدولارات وتحتاج إلى فترة طويلة حتى تتحقق حالة جيدة من الإنتاج والتصدير.

لقد تجلت هذه الحقائق فعليًّا في المساهمة الأمريكية، والتدخلات الظاهرة التي سنتعرف عليها في الصفحات القادمة من خلال التدخل الأمريكي في سنّ قوانين العراق وتشريعاته في زمن الاحتلال، منذ ما يسمى «قانون إدارة الدولة» برعاية السفير الأمريكي «بول بريمر» وحتى «قانون النفط والغاز».

إنَّ العراق في ظل هذه الحقائق التي تقدمت قبل قليل سيكون الأغنى بين دول العالم بثرواته، وسيصبح سيِّد دول النفط العالمية بامتياز.

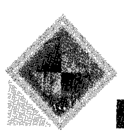
وهذه هي الحقيقة التي أدركها مسئولو الإدارة الأمريكية، فهم يؤكدون على أنَّ الاحتياطات النفطية العراقية تفوق ما يعلن عنه خبراء العراق بكثير.

وقد صرح «جون هارنجتون» وزير الطاقة الأمريكي الأسبق منذ عام (١٩٨٧م) بأنَّ العراق يسبح على بحيرة من النفط، وأنَّ احتياطياته ربما تفوق احتياطيات السعودية الضخمة التي تبلغ نحو ربع الاحتياطيات النفطية العالمية المؤكدة[٢٤].

---

(١٩) ينظر: ثلاثية النفط العراقي، ص٢٣، مصدر سابق.
(٢٠) في افتتاحية العدد الصادر في ٢٠٠٢/٢/١٨م.
(٢١) ينظر: ثلاثية النفط العراقي، ص ٢٤، مصدر سابق..
(٢٢) يذكر أنّ الخبير النفطي طارق شفيق قدّر الاحتياطي العراقي بـ(٣٣٠) مليار برميل.. وبذلك تكون هي النسبة الأعلى في التقديرات التي اطّلعت عليها.

(٢٣) ينظر: سيطرة الولايات المتحدة الأمريكية على النفط العراقي، : الدوافع والأهداف، مصدر سابق.
(٢٤) ينظر: الأبعاد الاقتصادية للغزو الاستعماري الأمريكي للعراق، مصدر سابق.



(٢) الدور الأمريكي في سنّ قانون النفط والغاز وغيره:

إنَّ أولى بوادر التطبيق العملي لتوجه أمريكا في استغلال نفط العراق يتضح في سعي السفير الأمريكي «بول بريمر» لتحقيق طموحات المستثمرين الأجانب، الذي تم تأصيله في الدستور العراقي الجديد، من خلال تأكيده على إصلاح الاقتصاد العراقي في إطار أسس الاقتصاد الحديث، بطريقة تضمن الاستثمار الكامل لكل ثرواته، وتنويع هذه الثروات، وتطور القطاع الخاص[٢٥].

يؤكد «أندرو سيمس» مخطط السياسات بمؤسسة «الاقتصاديات الجديدة» أنَّ الدستور العراقي الجديد قد أعطى صلاحيات واسعة لشركات النفط الأجنبية، وسمح لها بتحقيق أرباح هائلة على حساب الشعب العراقي، خاصة وأنَّ هذا الدستور يعطي سلطة التعاقد مع الشركات النفطية الأجنبية للأقاليم المحلية[٢٦].

أما تشريع قانون جديد للنفط والغاز العراقي فقد كان مقصدًا أمريكيًّا منذ فترةٍ ليست بالقصيرة، وهو هدف أسمى كانت تطمح إلى تحقيقه إدارة البيت الأبيض، وبعض الشخصيات المالكة لشركات النفط، بما يمكن أن يدّره النفط العراقي عليها من أرباح طائلة.

وقد بدأ الحديث عن القانون قبل الاحتلال الأمريكي للعراق، وكانت أمنية غالية طالما تمناها كثير من مسعِّري الحرب، وكان الحديث في بداية الأمر -كما يقول بعض الخبراء- عن ضرورة خصخصة قطاع النفط، وتوزيع مبالغ نقدية من إيرادات الثروة النفطية على المواطنين العراقيين، غير أنّ العمل الفعلي لترسيخ هذا القانون بدأ بعد زيارة بوش إلى العراق، وتولّي نوري المالكي رئاسة الحكومة التي تشكلت في حزيران (٢٠٠٦م)، وتصريح بوش بعد عودته من تلك الزيارة -في ندوة صحفية عقدها في حديقة البيت الأبيض- بأنّ هناك ثلاثة أمور ينبغي على حكومة المالكي القيام بها، وهي «توفير الأمن» و«التيار الكهربائي» و«موضوع النفط»، ودعا آنذاك إلى إصدار قانون جديد يساعد على الاستثمارات، وإعادة تطوير الصناعة النفطية.

ويؤكد بعض الباحثين أنّ قانون النفط والغاز وضعه باللغة الإنكليزية ثلاثة خبراء عراقيين وهم: فاروق قاسم، وطارق شفيق، وثامر غضبان في حزيران عام ٢٠٠٦م، ثم عُرض على الشركات الأجنبية، وصندوق النقد الدولي، وبعد مناقشات متمعنة صيغ في مسوّدة باللغة العربية في ١٥/شباط/٢٠٠٦م مذيلة بملاحق.. وقد عدّلت دون علم فاروق قاسم، وطارق شفيق، ودون إقرارهما لمضمونها، كما صرحا في مذكرة مشتركة!!

وحسب تقرير «إندبندنت أون صنداي»؛ فإنَّ ثلاث جهات خارجية أُتيح لها فرصة تمحيص مسوّدة قانون النفط أكثر مما أتيح لمعظم العراقيين -بما فيهم السياسيون المشاركون في الحكم الحالي- فقد اطلّع على التشريع الحكومة الأمريكية، وشركات النفط الكبرى، وصندوق النقد الدولي، قبل أن تُطرَح على الحكومة العراقية والبرلمان الحالي!![٢٧].

وقد كلفت وزارة الخارجية الأمريكية القانونيَّ «رونالد جانكر» بمتابعة تمرير القانون.. ولما سُئِل المتحدث الرسمي باسم الخارجية الأمريكية عن مساهمة الأمريكيين في قانون النفط العراقي الجديد، قال: «إنَّ رجالنا يساعدون العراقيين في كتابة وتمرير القانون»[٢٨].

وتؤكد «منظمة عمال الولايات المتحدة ضد الحرب» في إحدى أدبياتها في الخامس من شهر حزيران من عام ٢٠٠٧م أنّ مكتب الولايات المتحدة للتطوير العالمي

---

(٢٥) ينظر على سبيل المثال المادة (١١٠) في الدستور العراقي الجديد.

(٢٦) ينظر: سيطرة الولايات المتحدة الأمريكية على النفط العراقي، : الدوافع والأهداف، مصدر سابق.

(٢٧) ينظر: من كوبونات النفط إلى نهب النفط العراقي، للدكتور فيصل القاسم، صحيفة الحقائق اللندنية، بتاريخ ٢/١١/٢٠٠٧م، وهي على شبكة الإنترنت على الرابط التالي http://www.alhaqaeq.net/?rqid=٢&secid=٥&art=٦٩٦٩٦

(٢٨) ينظر: ثلاثية النفط العراقي، ص٢٦، مصدر سابق.



خصص (٢٤٠) مليون دولار لشركة «بيرنك بوينت» لتساهم في صياغة قانون النفط العراقي، والدعاية له، وتمريره!![٢٩].

إنّ ملخص النظرة الأمريكية عن العراق: أنه «يطفو على بحيرة من النفط»!! لذا فهو أمنية وغنيمة يجب استغلالها.

ولم تكُ هذه الأمنية مقصورة على الجانب الأمريكي، بل كانت أمنية البريطانيين، الحليف الأقوى لأمريكا في احتلال العراق، فتصريح بوش عشية اندلاع الحرب على العراق، الذي وعد به أصحاب الشركات العملاقة في أمريكا وبريطانيا في أن يكونوا شركاء في نفط العراق، رادفه تصريح لوزير الخارجية البريطانية «جاك سترو» الذي قال: «إنّ روسيا وفرنسا لن يكون لهما نصيب من حصة العراق»!!، مؤكدًا أنه يقصد «مجال الاستثمارات النفطية» من خلال عقود تقاسم الإنتاج، ذات الأرباح الباهظة[٣٠].

ثم كانت تحركات واسعة النطاق لبلورة هذه الفكرة، فقد زار -على سبيل المثال- وزيرُ الطاقة الأمريكي «سان بودمان» العراقَ، في تموز عام (٢٠٠٦م) من أجل متابعة القانون -الذي كانت تحيطه سرية تامة- والتقى المسئولين هناك، وشدّد أكثر من مرة على أهمية جلب الاستثمارات الأجنبية إلى العراق[٣١].. وتلا ذلك زيارة رئيس الحكومة العراقية الحالية لواشنطن، وتخلّلها عقد بعض اللقاءات مع مجموعةٍ من الشركات الأجنبية النفطية، وتم التأكيد على إصدار قانون جديد للنفط[٣٢].

لقد صدر في بداية الاحتلال تقرير تحت عنوان: «النفط جائزة الاحتلال الكبرى»، وكان فحواه -كما أشار إلى ذلك خبير الاقتصاد كمال القيسي-: أنّ أمريكا تبحث عن قاعدة عسكرية، تطفو على احتياطيات هائلة من النفط؛ لأسبابٍ جيوسياسية، وذكر التقرير: أنّ دخول القوات مرهون بإقرار القانون، حتى طلبت الشركات النفطية تقديم إقرار قانون النفط على موضوع الأمن، وحُدد عام (٢٠٠٨م) موعدًا لتحقيق هذا الهدف.

إنّ قرار «جورج بوش» رقم ٣٠٣/١٣ الصادر في ٢٢/آذار/٢٠٠٣م الذي منح بموجبه الحصانة لجميع الشركات النفطية في العراق، وقوانين «بريمر» المكملة لذلك، وما تبعه من دستور يفتقر إلى العدالة والتوازن، ترادفه أفعال مشبوهة للمحتل كانت تحدث على الأرض هنا وهناك، لتؤكد بكل بوضوح: أنّ المحتل يهدفُ من وراء هذا القانون إلى فتح الاحتياطي النفطي للعراق بكامله؛ من أجل استغلالٍ واسع النطاق؛ لدعم هيمنته في القرن الحادي والعشرين، كما دفع باتجاه عقود «مشاركة الإنتاج»، والتي استبدل اسمها في المسوّدة الأخيرة بـ«عقود الإنتاج والتنمية»، والتي تتيحُ للشركات النفطية الغربية نسبة ٧٥٪ من الأرباح النفطية، والتوصية بإعادة النظر لكل ما كان عليه في زمن دكتاتورية التأميم.

كل ذلك يشير إلى إصرار المحتل وأعوانه[٣٣] على سرقة العراق وثروته، وإعادته إلى ما كان عليه بداية القرن

(٢٩) ينظر: الفقرة المقيتة في قانون النفط، د. جاسم إلياس، موقع مركز النور الثقافي في ٢٩/٥/٢٠٠٨ م، على الرابط التالي http://www.alnoor.se/article.asp?id=٢٥٢١٣، وثلاثية النفط العراقي ص٢٦، مصدر سابق.

(٣٠) ينظر: معركة قانون النفط والغاز في العراق، للأستاذة ليلى البحراني، كتاب دراسة على الإنترنت، مصدر سابق.

(٣١) ينظر مزيدًا من التوضيح في ثلاثية النفط العراقي ص٢٥.

(٣٢) بالمقابل نجد عكس ذلك تمامًا في مواقف الأمريكيين أنفسهم، وإن كانت في حقيقتها ضعيفة وخافتة وغير مؤثرة.. فعلى سبيل المثال، نجد معارضة أحد النواب الديمقراطيين الأمريكيين الذي شكك في نزاهة قانون النفط الجديد، وقد كشف النائب الديمقراطي «دينيس= كيسينيش» آنذاك أنه ينوي التقدم بطلب للكونجرس لإعادة النظر في العواقب المترتبة على فرض جدول زمني على الحكومة الحالية لإجراء إصلاحات، أهمها: سنّ قانون جديد يفتح الباب للشركات الأجنبية للاستثمار في مجال النفط.. وقال النائب الديمقراطي لصحيفة «نيويورك تايمز» في عددها الصادر في ١٤/٣/٢٠٠٧م: إنّ قانون النفط الجديد يشمل بندًا يضمنُ لشركات النفط الأجنبية معاملة مماثلة للشركات العراقية، ولا يعطي أيّ أفضلية للشركات العراقية، سواء كانت خاصة أم حكومية.. وقال أيضًا: لا يجب على الولايات المتحدة أن تجبر العراق على فتح حقوله النفطية أمام الشركات الأجنبية، كشرط لإنهاء الاحتلال، وإن إصرار الولايات المتحدة على سن قانون جديد للنفط ليس له أيّ علاقة بمصلحة الشعب العراقي.. فتأمل!!

(٣٣) صدر عن مكتب المحاسبة الحكومي الأمريكي التابع للكونجرس الأمريكي في آيار من عام ٢٠٠٦م أن تهريب النفط وسرقته في العراق ربما يحرمان البلاد من نحو خمسة عشر مليون دولار يوميًا، وإنّ ما يصل إلى (٣٠٠) ألف برميل نفط يختفي يوميًّا في العراق!!



العشرين، بل إنه يسعى لربط مستقبل العراق ومستقبل أجياله، باستغلال وهيمنة الشركات الأجنبية[٣٤].

لقد ضغطت الإدارة الأمريكية على الحكومة الحالية لسنّ قانون النفط والغاز، واشترطت في أكثر من مناسبة أنّ مساعداتها للحكومة العراقية مشروطة بالتطور السياسي، وفي مقدمته تمرير قانون النفط والغاز.. واشترط الكونجرس الأمريكي الشرط ذاته؛ من أجل تمويله للعمليات العسكرية في العراق.. مع أنّ الاعتقاد الراجح عند شريحة كبيرة من الشعب الأمريكي بأنّ قانون النفط -الذي يسميه بعض ساسة أمريكا قانون عدالة تقاسم الثروة النفطية- قانون مجحف وظالم، حتى قال المرشح الجمهوري للرئاسة الأمريكية المقبلة: «لقد أُعطيتُ صورة عن قانون النفط تختلف عن الواقع»[٣٥].

الاعتقاد الراجح عند شريحة كبيرة من الشعب الأمريكي أنّ قانون النفط الذي يسميه بعض ساسة أمريكا قانون عدالة تقاسم الثروة النفطية- قانون مجحف وظالم

(٣) الدور الأمريكي في توقيع عقود النفط لصالح شركاته الكبرى:

لم تكتفِ أمريكا بالتدخل في كتابة، ومحاولة تمرير قانون النفط العراقي، بل سعت سعيًا حثيثًا وتدخلت تدخلاً مباشرًا لتوقيع العقود لصالح شركاتها الكبرى، التي تعود ملكية أغلبها لساسة البيت الأبيض والمقربين منهم.

ومما يدلل على صحة هذا القول ما كشفت عنه صحيفة «ستريت جورنال الأمريكية» في بداية شهر أغسطس من عام ٢٠٠٨م أنّ المسئول السابق في وزارة الدفاع الأمريكية وأحد مخططي الحرب على العراق «ريتشارد بيرل» يطمع في الحصول على عقود للتنقيب على النفط -فيما يسمى «إقليم كردستان» بالعراق .

وأكدت الصحيفة وجود وثائق ومصادر مطلعة إلى احتمال التوصل إلى اتفاقٍ في هذا المجال مع مسئولين في كردستان من بينهم «قباد طلباني» نجل الرئيس العراقي الحالي[٣٦].

وقد أشرنا سابقًا إلى التقرير الذي نشره «معهد بلاتفورم» في أواخر شهر تشرين الثاني من عام ٢٠٠٥م بعنوان «نهب ثروة العراق النفطية»، ومما كشفه التقرير وجود أجندة سياسية نفطية للولايات المتحدة الأمريكية يتم التحضير لها عبر وزارة الخارجية ليتم تنفيذها في العراق.. وتخصص هذه السياسة معظم حقول النفط العراقية لما يسمى «عمليات تطوير» تقوم بها شركات نفط دولية.. وتقول ذات الدراسة: إنَّ هناك خطة بين الحكومة الأمريكية وحليفتها بريطانيا من جهةٍ ومجموعة من السياسيين العراقيين المتمكنين من جهة أخرى على اتباع أسلوب العقود طويلة الأجل مع الشركات النفطية، مما يحول دون تدخل المحاكم والرقابة الديمقراطية على هذه العملية فيما بعد؛ لأنها تكون قد تمت في ذلك الوقت..

وتؤكد الدراسة على أنَّ التوقعات الاقتصادية المنشورة لأول مرة في هذا النطاق تبين أنَّ نماذج التطوير المقترحة ستكلف العراق خسائر بمليارات الدولارات، في حين ستدرّ أرباحًا لا يمكن تصورها للشركات الأجنبية التي سيتم التعاقد معها، وغالبها -طبعًا- يعود لساسة البيت الأبيض ومسعِّري الحرب في العراق[٣٧].

وقبل الاحتلال -وبعده أيضًا- شكّلت وزارة الخارجية الأمريكية «مجموعات عمل» من بينها مجموعة عمل «النفط والطاقة» شارك فيه خمسة عشر خبيرًا عراقيًّا وأجنبيًّا، وقد عقد الفريق أربعة اجتماعات ما بين كانون (٢٠٠٢م) ونيسان (٢٠٠٤م)، وخلصوا في تقريرهم إلى أنّ العراق لا بد أن يفتح الباب على مصراعيه للشركات الأجنبية العالمية، مع تهيئة الأجواء المناسبة لاستقطاب الاستثمارات الأجنبية، في قطاع البترول وفق عقود

(٣٤) ينظر: مستقبل الثروة النفطية في العراق ص٤٩ - ٥٠، إعداد مجموعة من المؤلفين، إصدار المركز العراقي للدراسات الإستراتيجية، الأردن- عمان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م.

(٣٥) ينظر: ثلاثية النفط العراقي ص١٩، مصدر سابق.

(٣٦) ينظر: موقع «الإسلام اليوم» و «الهيئة نت» على شبكة الإنترنت، في يوم ٢٠٠٨/٨/٢م.

(٣٧) ينظر: سيطرة الولايات المتحدة الأمريكية على النفط العراقي، مصدر سابق..

المشاركة في الإنتاج، وبصيغ مرنة تجذب المستثمرين الأجانب[٣٨].

وفي عام (٢٠٠٤م) أيضًا أصدر المركز الدولي للضريبة والاستثمار دراسة بعنوان «النفط ومستقبل العراق» متضمنة توصيات تعتبر عقود المشاركة بالإنتاج النموذج القانوني والمالي هي الحل المناسب لتسهيل عملية النهوض بالصناعة النفطية العراقية!! وتوصلت الدراسة إلى أنّ الاستثمار الأجنبي من قبل الشركات التي يحتضنها المركز الدولي للضريبة، والبالغ عددها (١١٠) شركات من كبريات الشركات العالمية، يعتبر خطوة مهمة في تفعيل الاقتصاد العراقي[٣٩].

لقد تضافرت جهود المعارضين للنظام العراقي السابق مع جهود الأمريكيين لغرض الاستيلاء على ثروات النفط العراقي، وإعطاء الأولوية للشركات الأمريكية في الإنتاج والتصدير.. فقد التقى أحمد الجلبي -الذي تسلم بعد احتلال العراق مسئولية ملف البنية الأساسية لصناعة العراق النفطية- قبل الغزو بكبار المسئولين في شركات النفط الأمريكية، ووعدهم بدور مهم في تطوير صناعة النفط العراقية، وقال الجلبي قبل ستة أشهر من احتلال العراق: «الشركات الأمريكية سيكون لها نصيب كبير في النفط العراقي!!»[٤٠].

> لقد تضافرت جهود المعارضين للنظام العراقي السابق مع جهود الأمريكيين لغرض الاستيلاء على ثروات النفط العراقي، وإعطاء الأولوية للشركات الأمريكية في الإنتاج والتصدير

ولعل آخر حلقات المؤامرة على نفط العراق من خلال منح الامتيازات لشركات الغرب، ما كشفت عنه صحيفة «نيويورك تايمز» في ٢٠٠٨/٦/٣٠م نقلاً عن مسئولين مطلعين أنَّ مجموعة من المستشارين الأمريكيين، يقودهم فريق صغير من وزارة الخارجية الأمريكية لعبوا دورًا كبيرًا في ترتيب عقود بين حكومة المالكي وخمس شركات نفطية كبرى؛ بزعم تطوير عدد من أكبر الحقول النفطية في العراق.. ويتزامن هذا التطور مع إعلان وزير النفط العراقي الحالي حسين الشهرستاني عن تنافس ٣٥ شركة نفطية على عقود تطوير الحقول النفطية العراقية.. في وقتٍ توقعت فيه «نيويورك تايمز» أن تُمنَح هذه العقود لخمس شركات عملاقة من بينها شركتان أمريكيتان، وأخرى بريطانية، ورابعة هولندية، وخامسة فرنسية.

(٤) الدور الأمريكي في ضمان تصدير نفط العراق إلى الكيان الصهيوني:

لم يكن لأحد أن يدرك مدى الحيطة التي كانت يتعامل بها الكيان الصهيوني تجاه ملف العراق إبان الحرب الأمريكية العراقية، وغزو العراق واحتلاله عام ٢٠٠٣م، حيث اتبعت «إسرائيل» استراتيجية المراقبة عن بعد!! متحرية في الوقت ذاته عن الأهداف التي يمكن أن تقوم بها عقب إعلان النصر الأمريكي في العراق.. الذي بانت من خلال إعلانه نوايا إسرائيل وخرجت إلى العلن، وصار التصريح بالمصالح الإسرائيلية أمرًا مباحًا بل ومنطقيًا، في ظل العلاقة التي تربط بين صقور واشنطن ومتطرفي تل أبيب!! وظهر أول تعبير عن الخطط والنوايا الإسرائيلية تجاه العراق حين أعلن وزير البنية التحتية الإسرائيلي «يوسف باتريسكي» عن طلبه إجراء دراسة مفصّلة حول إعادة الروح لأنبوب النفط بين الموصل وحيفا.. والذي أُسِّس في عهد الانتداب البريطاني، وأُوقف العمل به عقب اغتصاب فلسطين، وإعلان الكيان الصهيوني عام ١٩٤٨م[٤١].

وأعلن «بنيامين نتنياهو» في ٢٠/حزيران/٢٠٠٣م لمجموعة من المستثمرين «أنه لن يطول الوقت حتى تروا

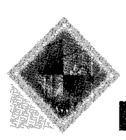
---

(٣٨) ينظر: ثلاثية النفط العراقي ص١٩.

(٣٩) ينظر: وجهة نظر معارضة لمسوّدة قانون النفط والغاز، ، جريدة العرب اليوم الأردنية اليومية بتاريخ ٢٠٠٨/٢/٢٤ م، على الرابط التالي http://www.alarabalyawm.net/pages.php?news_select&٧٥٥٥٧=id

(٤٠) ينظر : هل خسرت واشنطن الرهان على نفط العراق؟ ، مصدر سابق

(٤١) كشف هذه الحقيقة «مركز صقر للدراسات العسكرية والأمنية والاستراتيجية» في دراسة نشرها على موقعه على الإنترنت.. وينظر: دور إسرائيل في إعمار العراق، دراسة مختصرة على شبكة الإنترنت، للأستاذ خليل العناني. موقع الجزيرة نت (المعرفة) بتاريخ ٢٠٠٤/١٠/٣ م، على الرابط http://www.aljazeera.net/NR/exeres/ ٨٧٩D-F٧AACE٨٢٧D٢٨-٤F٩٨-A٨BE٥٩٣B-CF٥١.htm



النفط العراقي يتدفق إلى حيفا.. وإنها مسألة وقت حتى يُعَاد تدفق النفط العراقي إلى البحر المتوسط!!»[٤٢].

ويبدو لي -والله أعلم- أنَّ هذه التصريحات لم تأتِ من فراغ، بل تقف وراءها خطط ومشاريع، واتفاقيات وعهود، ومواثيق قطعتها أمريكا على نفسها لتقديم كل ما يدعم اقتصاد الكيان الصهيوني.. ففي عام ١٩٧٥م وقّعت الولايات المتحدة الأمريكية مذكرة تفاهم مع الكيان الصهيوني -تجدد كل خمس سنوات-، ومن ضمن ما جاء فيها: ضمان أمريكا لكل احتياجات إسرائيل النفطية في حال حدوث أزمة.. وتلتزم الولايات المتحدة بموجب هذه الاتفاقية بإنشاء خزين احتياطي استراتيجي إضافي لإسرائيل بقيمة تعادل ثلاثة مليارات دولار عام ٢٠٠٢م.. في وقتٍ أقرت فيه واشنطن تشريعًا خاصًا يعفي إسرائيل من القيود المفروضة على صادرات النفط من الولايات المتحدة، ما جعل أمريكا تضطر إلى وضع خطة بديلة للتخلص من أعباء هذا الالتزام الثقيل، فكانت أن فكَّرت بإحياء خط الموصل- حيفا النفطي، الذي تم إجراء بالونات اختبارية له في الأشهر الأولى من احتلال العراق[٤٣].

إنَّ إسرائيل التي تُعدّ من أبرز اللاعبين الاستراتيجيين في المنطقة.. يتلخص دورها في ثلاثة أمور مهمة، هي:

(١) السيطرة على المنطقة العليا للبحر الأبيض المتوسط.

(٢) إضعاف دور الدول المنافسة لأمريكا (روسيا والصين)، وعزلهما عن مصادر النفط في الشرق المتوسط.

(٣) المساعدة في تحويل جزء من العرض النفطي عند تعرّض مصادر التجهيز في منطقة الشرق الأوسط للانقطاع.. ومنذ بداية ستينيات القرن الماضي كان لإسرائيل هدف تسعى لتحقيقه، بأن تجعل من كردستان العراق أنموذجًا إسرائيليًّا توسعيًّا يخدم المصالح الأمريكية – الإسرائيلية[٤٤].

ومن منطلق هذه الحقائق المتراكمة تسعى أمريكا كي تجعل من إسرائيل (الدولة المدللة) خزانًا لحفظ النفط من أجل انتفاعها به، والاستفادة منه عند الحاجة فيما لو تعرضت لانتكاسة اقتصادية، في ظل التطورات المفاجئة التي قد تحدث في مناطق النفط في الشرق الأوسط.

المحور الرابع

مستقبل الثروة النفطية في العراق

بعد ما تقدم ذكره لا بد من التأكيد على أنَّ الثروة النفطية العراقية تتعرض لمستقبل خطير في ظل التدخل الأمريكي الذي اتضحت معالمه وآثاره مما ذكرناه من شواهد خلال ما مضى من الصفحات، في وقتٍ يجب علينا إدراك حقيقة مهمة لا يمكن غضّ الطرف عنها بحالٍ من الأحوال، مفادها: أنَّ أمريكا لا يمكن لها أن تفرِّط بثروة العراق النفطية مهما كلّفها ذلك من تضحيات؛ لأنَّ المحافظة على تلك الثروة تحقق لأمريكا جملة من المكاسب والمنافع الاستراتيجية التي تتدخل بشكل مباشر في صدارتها، وتحكمها بمصير العالم ومستقبله.. ومنها:

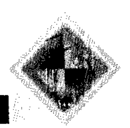
(١) أنَّ أمريكا أصبحت تُدرك تمام الإدراك بأنها ليست وحدها في الساحة، بل لها منافسون من الناحية الاقتصادية -على الأقل- لا يمكن تجاهلهم بحال.. وهؤلاء المنافسون يسعون للوصول إلى ما وصلت إليه أمريكا، بل ويطمحون في التفوق عليها، وبناءً على ذلك كان لا بد للولايات المتحدة أن تعمل على إفشال وصول الآخرين إلى مستواها، أو التحكم بمصير وصولهم إلى ذلك الطموح، ومن هنا كان نفط العراق والخليج وسيلة

---

(٤٢) ينظر: النفط العراقي في الاستراتيجية الأمريكية، مقالة مختصرة للأستاذ علي حسين باكير، على موقع الجزيرة نت (المعرفة)، على الرابط التالي
http://www.aljazeera.net/NR/exeres/54DFD03B-57D2-4B06-80E6-D1C532D18F35.htm

(٤٣) ينظر: المصدر السابق.

(٤٤) ينظر: ما وراء مشروع المعاهدة الأمريكية للعراق، للأستاذ كمال القيسي، مقالة منشورة بتاريخ ٢٠٠٨/٦/١٤م على شبكة الرافدين الإخبارية على الرابط التالي
http://www.alrafdean.org/modules.php?name=News&file=article&sid=98113.



التحكم بذلك.. في وقت يعلم فيه المتخصصون بأن منافسي أمريكا كدول أوروبا والصين والهند واليابان تستورد نفطها من دول الخليج!!

(٢) في ظل ما تشهده الساحة العراقية من تدهور أمني.. فإنَّ أمريكا وشركاتها تطمح -في حال استقرار الوضع في العراق- في الحصول على أعلى مستويات الإنتاج النفطي العراقي.. ومن هنا فإن الولايات المتحدة تعرف أن السيطرة على ثروة العراق النفطية تعني الحصول على ما يقرب من ربع نفط العالم، في وقت تقدر فيه الاحتياطيات النفطية العراقية بـ(١١٥) مليار برميل، على أقل التقديرات كما سبق.

(٣) إنَّ مما يُغري أمريكا أيضًا هو معرفتها لتكلفة إنتاج النفط العراقي، وأنه الأدنى بين دول العالم على الإطلاق؛ إذ يقدر بحوالي (١,٥) دولار ونصف الدولار.. ومن هنا فإنَّ الأرباح ستكون هائلة في ظل هذه الحقيقة.

(٤) سيطرة الولايات المتحدة على نفط العراق ودول الخليج سيمنع من إمكانية التفكير في استخدام سلاح النفط ضدها، وضد حليفها المدلل (الكيان الصهيوني)، ومن هنا فإنَّ السيطرة على منابع النفط والبقاء بالقرب منها سيكون عاملاً مهمًّا لتحقيق الطمأنينة الأمريكية، في وقت يؤكد فيه الخبراء على أنَّ آخر قطرة من نفط العالم ستكون في العراق[٤٥].

لقد نشر «معهد بلاتفورم» تقريرًا في أواخر شهر تشرين الثاني من عام ٢٠٠٥م بعنوان «نهب ثروة العراق النفطية» تقدم الإشارة إلى بعض ما تضمنه من مخاطر سابقًا.. غير أنَّ ما تتضح من خلاله معالم مستقبل ثروة العراق النفطية فيما جاء في هذا التقرير تتمثل بجملة من الحقائق التي لا يمكن التغاضي عنها أبدًا.. فالتقرير يؤكد على حقيقتين مهمتين، ملخصهما:

الحقيقة الأولى: أنَّ العراق سيخسر ما بين ٧٤ – ١٩٤ مليار دولار طيلة فترة العقود، فيما يخص اثني عشر حقلاً نفطيًّا يتم تطويرها فقط، وهذا الحساب في وقت قدّر فيه سعر برميل النفط الواحد بـ(٤٥ دولارًا للبرميل)، أمَا وقد تخطى سعر البرميل في وقتنا الحاضر عتبة الـ (١١٦ دولارًا يوم كتابة هذه السطور) فإنَّ الخسارة ستتضاعف، مما سيلقي مزيدًا من الخسارة والعجز في ميزانية الإيرادات النفطية العراقية.

الحقيقة الثانية: أنَّ أرباح شركات النفط وعائداتها من الاستثمار في العراق، في هذه العقود وبهذه الشروط، ستتراوح بين ٤٢ و١٦٢٪، وهو ما يزيد عن المعدّل الطبيعي للأرباح المعتادة في مثل هذه الحالة والتي تبلغ ١٢٪[٤٦].

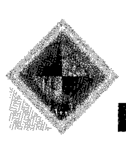
إنَّ مستقبل الثروة النفطية العراقية في ظل التدخل الأمريكي سيأخذ عددًا من المشاهد المهمة.. فأمريكا تسعى إلى مضاعفة إنتاج العراق من النفط، بما يصبّ في صالح اقتصادها العالمي.. ولعلّ القاسم المشترك بين ساسة البيت الأبيض يتمثل في افتراض أنَّ غزو العراق واحتلاله يعني زيادة كميات النفط التي ينتجها البلد ويضخها في الأسواق العالمية، وهو ما سينعكس بشكلٍ إيجابي على الاقتصاد الأمريكي.. وهذه الرؤية بشأن مستقبل إنتاج النفط العراقي بعد الغزو كانت ملموسة جدًّا في واشنطن خلال الأشهر التي سبقت الغزو، فقد ذكرت «وزارة الطاقة الأمريكية» في تقريرها الدوري عن النفط العراقي في عام ٢٠٠٢م أنه في حالة وجود استثمارات أجنبية -أمريكية- كافية فإنَّ العراق يمكنه مضاعفة إنتاجه النفطي بسرعة بعد الإطاحة بنظام البعث، وربما يصل إلى خمسة ملايين برميل يوميًّا[٤٧].

ولم يكتفوا بذلك، بل صار تفكير بعض المسئولين في إدارة البيت الأبيض يتجه نحو سيناريو يعتبر أكثر تفاؤلاً بشأن استغلال النفط العراقي بعد الاستيلاء عليه، وهذا السيناريو يقول: إنَّ الاستيلاء على حقول النفط العراقية وإدارتها سوف يؤدي إلى زيادة عائدات

(٤٥) ينظر: سيطرة الولايات المتحدة الأمريكية على النفط العراقي، مصدر سابق..

(٤٦) ينظر: المصدر السابق.

(٤٧) ينظر: هل خسرت واشنطن الرهان على نفط العراق؟ مصدر سابق.



النفط، والتي يمكن استخدامها لتمويل الحرب الجارية في العراق، وسداد تكاليف عملية الغزو ذاتها.. وقد اعترف المستشار الاقتصادي للبيت الأبيض «لاري ليندساي» بإمكانية تحمل أمريكا تكاليف الغزو والاحتلال؛ لأنَّ زيادة إنتاج العراق من النفط بعد ذلك سوف يساعد على إنعاش الاقتصاد الأمريكي.. وقال(٤٨): «عندما نغيّر نظام الحكم في العراق يمكننا زيادة إنتاج هذا البلد بما يتراوح بين ثلاثة وخمسة ملايين برميل يوميًا من النفط، وهذا يعني أنَّ الحرب المنتظرة ستكون مفيدة للاقتصاد الأمريكي».

ثم ازداد هذا الطموح ليرتقي إلى المطالبة بالمشاركة الفعلية في إنتاج النفط العراقي، تحقيقًا لدراسات أجريت هنا وهناك.. وقد أصدر «المركز الدولي للضريبة والاستثمار» الذي تأسس عام ١٩٩٣م ويضم في عضويته شركات النفط العالمية دراسةً تحت عنوان «النفط ومستقبل العراق» متضمنة توصية مهمة مفادها: أنّ عقود المشاركة بالإنتاج تعتبر النموذج القانوني والمالي المناسب لتسهيل عملية النهوض بالصناعة النفطية العراقية.. وإن مشاركة الشركات الـ(١١٠) المنضوية تحت هذا المركز تعتبر خطة مهمة لتفعيل الاقتصاد العراقي!!(٤٩).

ولعل ما ينذر بالخوف على مستقبل الثروة النفطية العراقية هو ذلك الغموض الكبير الذي يلف مصير مبالغ كبيرة تُصرَف على عمليات تطوير قطاع النفط.. سواء تلك الأموال التي تخصصها الولايات المتحدة الأمريكية من ميزانيتها الخاصة، أو تلك الأموال التي تُخصَّص من عائدات النفط العراقي لرعاية وتطوير هذا القطاع.. ويؤكد الخبراء بأنَّ مخصصات النفط لعام ٢٠٠٦م -مثلاً- بلغت ٢,٦٩٣ دولارًا من ميزانية أمريكا مضافًا إليها ٢,٨٠٤ دولارات من مبالغ عراقية.. غير أنَّ وزارة النفط لم تستطع أن تصرف أكثر من ٣٪ من تلك المبالغ؛ ويعزون أسباب ذلك إلى التدهور الأمني، وعدم الكفاءة في العمل، وضعف الأجهزة الحسابية والتخطيط(٥٠).

ومما يعكس مستقبلاً سلبيًا للثروة النفطية العراقية هي حالة السرقات الكبرى لمادة النفط الخام، وتهريبها إلى دول الجوار.. وقد كتبت صحيفة «الغارديان» اللندنية في ٢٠٠٧/٦/٩م تقريرًا مفصلاً حول عملية تهريب النفط ومشتقاته في البصرة -على وجه الخصوص- تحت عنوان «التهريبُ، يصبحُ الاقتصاد الحقيقي للعراق».. وذكر التقرير أنَّ عائلات متنفذة مشهورة قد تحصل على خمسة ملايين دولار أسبوعيًا كعائدات لهذه الاختلاسات والسرقات!! وقد قدّرت صحيفة «نيويورك تايمز» الأمريكية -استنادًا إلى مسوّدة تقرير أعده مكتب محاسبة الحكومة الأمريكية- أنَّ حجم النفط الذي تم الاستيلاء عليه من قبل الميليشيات -المتنفّذة في الحكومة الحالية بمشاركة السياسيين- من إنتاج العراق اليومي المقدّر بمليوني برميل، ما يتراوح بين ١٠٠-٣٠٠ ألف برميل!! وعلى هذا تقدّر الأموال التي تباع بها هذه الكميات بـ ٥-١٥ مليون دولار يوميًا، في حال احتساب سعر البرميل الواحد بخمسين دولارًا فقط.. وكيف وسعر البرميل يوم كتابة هذه السطور (١١٦) دولارًا(٥١).

> مما يعكس مستقبلاً سلبيًا للثروة النفطية العراقية هي حالة السرقات الكبرى لمادة النفط الخام، وتهريبها إلى دول الجوار.

هذا في الوقت الذي يجب أن لا ننسى فيه السعي الحثيث لأمريكا ومؤسساتها في سنّ ما يسمى «قانون النفط والغاز» الذي سيوفر لهم غطاءً شرعيًا لنهب ثروة العراق أمام مرأى ومسمع العراقيين، في صفقات مشبوهة تنذر بمستقبل خطير ومرير يلف ثروة العراقيين.

هذا في الوقت الذي يجب أن لا ننسى فيه السعي الحثيث لأمريكا ومؤسساتها في سنّ ما يسمى «قانون

(٤٨) نقلت القول صحيفة «جورنال الأمريكية» في سبتمبر عام ٢٠٠٢م.
(٤٩) ينظر: ثلاثية النفط العراقي ص٢٢، مصدر سابق.

(٥٠) ينظر: المصدر السابق ص ١٤.
(٥١) ينظر: التغيرات الاجتماعية في العراق، لحسين الرشيد، التقرير الاستراتيجي السنوي الخامس، المركز العربي للدراسات الإنسانية، ص ٢٥٤.



النفط والغاز» الذي سيوفر لهم غطاءً شرعيًا لنهب ثروة العراق أمام مرأى ومسمع العراقيين، في صفقات مشبوهة تنذر بمستقبل خطير ومرير تلف ثروة العراقيين.

وقد يرد تساؤل وجيه للغاية؛ بأنَّ الولايات المتحدة الأمريكية دولة غنية جدًا، وهي تمسك بزمام اقتصاد العالم، وبإمكانها شراء النفط من السوق العالمية، كما فعلت دومًا.. في وقتٍ ترغب فيه الدول المنتجة للنفط -ومنها العراق- ببيع نفطها لكي تستفيد منه، فلماذا تريد أمريكا السيطرة على نفط العراق، وهو غير ممنوع عنها أصلاً؟!

والجواب: أنّ السيطرة التي ترومها أمريكا على ثروة العراق النفطية هي سيطرة استراتيجية، ويتم ذلك بواسطة شركات النفط العالمية، عن طريق «عقود المشاركة بالإنتاج طويلة الأمد»، وكذلك بواسطة التمركز بالعراق بقوات عسكرية.

إنَّ الدافع لكل هذا هو أن العالم مقبلٌ على شحّ في الإمدادات النفطية من خارج «منظمة أوبك»، ومن خارج منطقة الخليج العربي بالذات.. وفي الوقت الذي يتراجع الإنتاج النفطي في العديد من مناطق العالم التي كانت غنية بالنفط -ومنها أمريكا- نرى أنّ ما يربو على (٦٠٪) من الاحتياطي النفطي العالمي يقع في منطقة الخليج العربي، وأن (٣٨٪) من صادرات النفط العالمية تخرج من هذه المنطقة بالذات، ويُقدّر لهذه النسبة أن تزداد بالمستقبل. وبالمقابل فإنّ هناك ازديادًا متوقعًا للطلب العالمي على النفط من (٨٧) مليون برميل يوميًا في الوقت الحاضر إلى نحو (١١٧) مليون برميل يوميًا بحلول عام (٢٠٣٠م) بزيادة (٣٠) مليون برميل يوميًا، في غضون الـ (٢٢) سنة القادمة.

وهنا تكمن الحقيقة القائلة: من أين ستأتي الإمدادات النفطية الإضافية لتسد الطلب العالمي المتزايد، إذا علمنا أنّ الطاقات البديلة كالوقود الحيوي وغيره من الطاقات المتجددة لا تسد أكثر من (٥٪) من سلة الطاقة العالمية في الوقت الحالي، ولا يُتوقع لها الازدياد بصورة مؤثرة بالمستقبل المنظور.. فضلاً عن أنَّ الطاقة هي أساس الحياة، وإن (٣٦٪) من هذه الطاقة تأتي من النفط في الوقت الحاضر، و(٦٠٪) منها يأتي من النفط والغاز الطبيعي معًا.. في الوقت الذي يسيطر الشرق الأوسط، والخليج العربي بالذات، على أكثر من (٤٠٪) من الاحتياطي العالمي للغاز الطبيعي، علمًا بأن الغاز الطبيعي يجهّز حاليًا نحو (٢٤٪) من الطلب العالمي على الطاقة، وإن هذه النسبة آخذة في الازدياد.

إنّ أغلب مصادر الطاقة المتنافس عليها تقع في مناطقنا التي تلهث دول الغرب وراء استغلالها ونهبها.. وكل هذا يؤكد حقيقة ناصعة -عرفها أعداؤنا-: أنّ من يسيطر على منطقة الشرق الأوسط، ويسيطر على أهم بلدانها -وهو العراق- سيسيطر على مقدرات العالم[٥٢].

الخاتمة
التوصيات و المقترحات

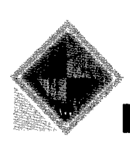
فيما يلي أهم المقترحات والتوصيات التي أراها مناسبة للقيام بدور حقيقي تجاه ما تتعرض له الثروة النفطية العراقية من مؤامرات.. ومنها:

أولاً: الدعوة إلى إلغاء ما يسمى قانون النفط والغاز الذي يحاول العراق تشريعه من خلال مصادقة مجلس النواب الحالي في العراق عليه، بعد إقرار الحكومة الحالية له بضغط أمريكي واضح.

ثانيًا: الدعوة إلى تأهيل المؤسسات والشركات النفطية العراقية، وإصلاح كادرها، وتأهيل العاملين فيها للقيام بدورهم في التنقيب عن النفط وتكريره وإنتاجه، كبديلٍ حقيقيٍّ لما يسمى بعقود المشاركة بالإنتاج التي ستُعطى للشركات الأمريكية والأجنبية.

ثالثًا: الدعوة إلى مركزية القرار النفطي، والحد من التصرفات الفردية والشخصية التي تعكس منافع

(٥٢) ينظر: ما وراء مشروع المعاهدة الأمريكية، مصدر سابق.



جهات ومؤسسات وأقاليم على حساب باقي الشعب العراقي الذي يعاني من الفقر والحرمان منذ عشرات السنين.

رابعًا: تطهير المؤسسات النفطية بما فيها وزارة النفط من العناصر المسيئة المشتبه بتورطها في إهدار النفط، وتهريبه بشكل غير مشروع عبر موانئ العراق البحرية والبرية.

خامسًا: الدعوة للقيام بحملة توعوية تثقيفية لكافة شرائح المجتمع العراقي بضرورة الاهتمام بالثروة النفطية التي تتمتع بها بلادهم والمحافظة عليها، تشمل كافة فسيفساء الشعب من سياسيين ومثقفين وكُتّاب، وباحثين وأكاديميين وطلبة وعوام.

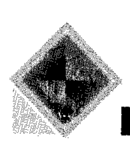
سادسًا : ضرورة قيام المؤسسات الإعلامية والبحثية بواجبها الذي يتمثل بالآتي:

(١) إيضاح أبعاد ومخاطر إهدار الثروة النفطية العراقية، وجعلها ألعوبة بيد الغزاة وحلفائهم.

(٢) رصد الانتهاكات التي تُرتكب بحق الثروة النفطية العراقية، وما ينتج عنها من إهدار فاضح في النفط من خلال تهريبه، أو بيعه بأسعار متدنية، أو بتوقيع عقود غير شرعية، أو الاستيلاء على عائدات النفط المالية وتضييعها.

سابعًا: دعوة فصائل المقاومة والقوى المناهضة للاحتلال للقيام بدورها في المحافظة على النفط العراقي من خلال الضغط على المحتلين وحلفائهم عندما تتوفر الأجواء الملائمة للتفاوض، واستخدام ذلك كورقة مهمة في استعادة حقوق الشعب العراقي.





معلومات إضافية

حقول النفط والغاز في العراق

تبلغ الحقول النفطية العراقية المكتشفة ٧١ حقلاً، ولم يستغل منها سوى ٢٧ حقلاً من بينها عشرة عملاقة.

وتتركز حقول النفط والغاز المنتجة حاليًا في محافظتي البصرة وكركوك. وتأتي بعدها في الأهمية حقول محافظات ميسان وبغداد، وصلاح الدين، وديالي ونينوى.

أما الحقول غير المكتشفة وغير المطورة فتوجد في أغلب محافظات العراق، ما عدا أربع هي: القادسية وبابل، والأنبار ودهوك.

الحقول الجنوبية:

يتركز الجزء الأعظم من الاحتياطي النفطي العراقي في الجنوب أي بمحافظة البصرة؛ حيث يوجد ١٥ حقلاً منها عشرة حقول منتجة، وخمسة ما زالت تنتظر التطوير والإنتاج. وتحوي هذه الحقول احتياطيًا نفطيًا يقدّر بأكثر من ٦٥ مليار برميل، أي نسبة ٥٩٪ تقريبًا من إجمالي الاحتياطي النفطي العراقي.

ويشكل الاحتياطي النفطي لمحافظات البصرة وميسان وذي قار مجتمعة حوالي ثمانين مليار برميل، أي نسبة ٧١٪ من مجموع الاحتياطي العراقي.

ومن أبرز حقول الجنوب العراقي:

حقل الرميلة الشمالي: عملاق الحقول العراقية، ويمتد من غرب مدينة البصرة متجهًا جنوبًا حتى يدخل جزؤه الجنوبي في دولة الكويت. وأكثر آباره في العراق. وهو تاسع أعظم حقل نفطي عالمي، وبطبقاته أجود أنواع النفط.

حقل مجنون: وهو حقل عملاق بمحافظة البصرة، وينتج مؤقتًا حوالي ١٠٠ ألف برميل يوميًا، مع أن طاقته الإنتاجية لو طُوِّر قد تبلغ ستمائة ألف برميل يوميًا.

حقل نهر عمر: وهو بمحافظة البصرة أيضًا، وله مكامن عديدة غير مطورة، وما زال إنتاجه متواضعًا؛ حيث يبلغ حوالي ألف برميل يوميًا. وقد تصل طاقته بعد التطوير إلى حدود ٥٠٠ ألف برميل يوميًا.

حقل غرب القرنة: من أكبر حقول النفط العراقية، وهو بمحافظة البصرة، يمثل هذا الحقل الامتداد الشمالي لحقل الرميلة الشمالي، يعتقد أنه يحتوي على مخزون يقدر بـ٢٤ مليار برميل على الأقل. وينتج ثلاثمائة ألف برميل يوميًا، ويمكن لو طُوِّر أن يصل إلى حدود سبعمائة ألف برميل يوميًا.

ومن الحقول الجنوبية في البصرة أيضًا: حقل الرميلة الجنوبي، وحقل الزبير وينتج بحدود ٢٢٠ ألف برميل يوميًا. وحقل اللحيس غرب مدينة البصرة. وحقل الطوبة. ويقع حقل الحلفاية العملاق قرب مدينة العمارة بمحافظة ميسان جنوبي غربي العراق، وفيه أكثر من ٣،٨ مليار برميل من الاحتياطي النفطي. ويوجد بنفس المحافظة حقل أبو غرب وحقل البزركان، ويطلق على نفطه نفط البصرة الثقيل. وحقل فكة.



حقول النفط الوسطى والشمالية:

يقدر الاحتياطي النفطي الموجود في كركوك بحوالي ١٣ مليار برميل، أي أنه يشكل حوالي ١٢٪ من إجمالي الاحتياطي العراقي من النفط.

حقل كركوك: وهو خامس أكبر حقل في العالم من حيث السعة، وهو عبارة عن هضبة يقطعها نهر الزاب الصغير، ويبلغ طولها حوالي ٩٦,٥ كم في عرض يبلغ حوالي أربعة كم. ويحتوي على أكثر من ٣٣٠ بئرًا منتجة، وعددها في ازدياد. ويتراوح عمق آبار حقل كركوك بين ٤٥٠ مترًا إلى ٩٠٠ متر. ومعدل إنتاج البئر الواحدة ٣٥ ألف برميل يوميًا.

حقل باي حسن: يقع غرب حقل كركوك. لكن آباره أعمق من آبار حقل كركوك، وعمقها يبلغ بين ألف وخمسمائة متر إلى ثلاثة آلاف متر.

حقل جمبور: شمال شرق مدينة كركوك، وهو موازٍ لحقلي كركوك وباي حسن.

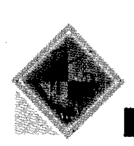
حقل شرق بغداد: وكان يُعتقد أن كميات النفط فيه متواضعة، غير أن الحفر بيَّن أن حجمه يزيد عن التقديرات الأولية. وله امتدادات شمالية في محافظة صلاح الدين وجنوبية في محافظة واسط. ويبلغ إنتاجه حدود عشرين ألف برميل يوميًا، بينما يقدر إنتاجه الكلي لو طُوِّر بحدود ١٢٠ ألف برميل يوميًا.

ومن حقول النفط الشمالية: حقل خبار بمحافظة التأميم، وحقل عين زالة الناضب بمحافظة نينوى، وقريب منه حقل بطمة الواقع في منطقة جبلية، وحقل صفية المتاخم للحدود السورية، وحقل القيارة بمحافظة نينوى.

ومن حقول الشمال حقل تكريت وحقل عجيل وحقل بلد، وكلها بمحافظة صلاح الدين. كما يقع حقل نفطخانة بمحافظة ديالي في وسط البلاد.

ويوضح الجدول التالي توزيع حقول النفط المنتجة بدءًا بمحافظات الجنوب فالوسط فالشمال:

المحافظة	الحقل	العدد
البصرة	الرميلة الشمالية، الرميلة الجنوبية، مجنون، الزبير، نهر عمر، غرب القرنة، اللحيس، الطوبة، الصبة، الحلفاية.	١٠
ميسان	البزركان، أبو غرب، فكة، العمارة.	٤
بغداد	شرق بغداد	١
ديالى	نفطخانة	١
صلاح الدين	تكريت، عجيل، بلد.	٣
التأميم	كركوك، جمبور، باي حسن، خباز.	٤
نينوى	عين زالة، القيارة، صفية، بطمة.	٤



المصدر:

سيدي أحمد ولد أحمد سالم، حقول النفط العراقي، موقع الجزيرة نت، ٢٠٠٧/١٠/٢٤م.

على الرابط: http://www.aljazeera.net/NR/exeres/1B6FE67A-4AC3-40E9-893A-DF87F600AB93,frameless.htm

❖ ❖ ❖

الفتوى الشرعية لهيئة علماء المسلمين في العراق بشأن قانون النفط

أصدر قسم الفتوى في هيئة علماء المسلمين بالعراق في الرابع من يوليو عام ٢٠٠٧م فتوى شرعية حول مشروع قانون النفط والغاز -الذي تصر قوات الاحتلال والحكومة الحالية على إقراره- حرمت فيها تصويت نواب البرلمان العراقي على مشروع هذا القانون، واعتبرت أن من يفعل ذلك فإنه يبوء بغضب الله، ويرتكب جريمة التواطؤ مع العدو في غصب الأموال العامة، مما يترتب عليه آثار الغصب، إضافة الى تلبسه إثم الخيانة لله ورسوله والمسلمين.

وكان نص الفتوى:

فتوى شرعية

حول قانون النفط والغاز

صادرة عن قسم الفتوى في هيئة علماء المسلمين في العراق

أحيل هذه الأيام مشروع قانون النفط والغاز إلى أعضاء البرلمان العراقي الحالي، بعد ضغط متواصل من قوات الاحتلال الأمريكي والبريطاني؛ بغية التصويت عليه من أجل إقراره.

وإن هيئة علماء المسلمين بعد أن أصدرت بيانها السياسي بهذا الصدد بالرقم (٣٨٢) في ١٦/صفر١٤٢٨هـ الموافق ٢٠٠٧/٣/٦م وأكدت فيه أن هذا القانون يأتي في سياق صفقات مع المحتل -يبرمها الساسة الذين جاءوا معه- من شأنها هدر أكبر ثروة وطنية يملكها أبناء البلد، نظرت إلى هذا القانون من الناحية الشرعية وأصدرت هذه الفتوى.

الفتوى

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(الأنفال: ٢٧).

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد:

فإن المال في الأصل لله سبحانه، فهو مالك الملك، قال الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (آل عمران: ١٧٩)، وقال سبحانه: ﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ﴾(النور: ٣٣).

ولقد أقر الشرع الحنيف للإنسان بحيازة المال وفق كيفية معينة تعرف بأسباب التملك، فعرف أنه لا يثبت حق التملك إلا بإقرار الشرع واعترافه به؛ لأن الشرع هو مصدر الحقوق، ولا يعرف الحق إلا بالشرع، وكذا فإن الحق



في الشريعة ليس حقًا طبيعيًا بالعقل، وإنما هو استخلاف من الله للإنسان وفقًا لأدلة الشرع بذلك.

وقد جعل الشرع الملكية على ثلاثة أنواع: ملكية الفرد، ملكية عامة، ملكية الدولة.

والذي يعنينا في هذه الفتوى الملكية العامة، فنقول وبالله التوفيق:

الملكية العامة هي ما جعل الشارع حق الاشتراك في الانتفاع بعينه، والأعيان التي تتحقق فيها الملكية هي الأشياء التي دل الشارع على أنها للجماعة مشتركة بينهم، لقوله صلى الله عليه وسلم: «الناس شركاء في ثلاث الماء والكلأ والنار»، ومنع الشارع من أن يحوزها فرد أو جهة أو دولة، فهي ملك للجماعة لا محالة، فلا تدخل في إثرة الملكية الفردية، ولا في إثرة ملكية طائفة أو قومية، ولا في إثرة ملكية الدولة، وإنما تعنى بشأنها الدولة على الوجه المطلوب شرعًا، فهي مشرف ولاية على الحق للناس في هذا المال العام، وتتحقق الملكية العامة في ثلاثة أشياء:

المعادن التي لا تنقطع (غير المحدودة) كالنفط والغاز والكبريت والفوسفات وغيرها.
كل ما هو من مرافق الجماعة كساحات البلد.
الأشياء التي طبيعتها تمنع اختصاص الفرد بحيازتها كالأنهار.

وفي ضوء ما تقدم نسجل ما هو آت:

أولاً: النفط من الأموال العامة؛ لأنه من المعادن التي لا تنقطع (غير المحدودة) وما كان كذلك فهو ملكية عامة لا محالة، بمعنى أنه ملك للناس كافة من مواطني بلاد المسلمين، وليس لأحد التصرف به إلا وفق الإقرار الشرعي، وضوابطه الفقهية.

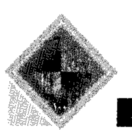
وعلى هذا الأساس يحرم أن تمتد إليه اليد أيًا كانت إلا في وجهها الشرعي.

والدليل على تحريم التصرف في الملكية العامة إلا على هذا الوجه قوله تعالى: باحث وأكاديمي عراقي ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ ﴾ (النساء: ٢٩)، وبيانه من السنة قوله عليه الصلاة والسلام: «لا يحلّ مال امرئ مسلم إلا بطيب نفسه»، وقوله عليه الصلاة والسلام: «إنما أموالكم ودماؤكم عليكم حرام» وهذا التحريم يشمل الدولة وغيرها.

ثانيًا: جعل الله الحاكم الشرعي هو المسئول الأول عن شئون الرعية، وأن توكل الأمور إليه، في شئون الفرد العاجز أو في شئون الأموال العامة، وغير ذلك لقوله صلى الله عليه وسلم: «إن الله سائل كل راع عما استرعاه أحفظ أم ضيع»، وفي الحديث أيضًا «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته»، وكما جاء أيضًا في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم: «السلطان ولي من لا ولي له».

ففي دلالة هذه النصوص إرشاد يأمر الراعي أن ينصف رعيته، ولا يغشهم فيتولى الأمور بما يخدم مصالحهم، أما من لا يملك السلطة بإرادة حرة فليس له أن يوقع عن الأمة عقدًا أو عهدًا، كأن يكون تحت ظل الاحتلال أو القوى الغاشمة المحتلة، أو في أوضاع سياسية غير مستقرة لا يستطيع الناس فيها أن يعبّروا عن إرادتهم.

وفي كل الأحوال لا يصح لمن كان هذا حاله أن يمضي عقدًا أو عهدًا، وفعله حرام لا يعتد به شرعًا ولا عقلاً؛ لقوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ ﴾ (المائدة: ١) فمقتضى النص وجوب أن يفي الراعي بحق الأمة بما تعهده لها حين اختيارها له حاكمًا بمقتضى إرادتها الشرعية.



ثالثًا: يجب على الراعي أن يعمل على إيجاد إدارة موثوقة مؤتمنة تقوم على هذه الأموال العامة، وبإشراف الأمة ورضاها، وألا يتخذ أي قرار منفرد بهذا الشأن، وألا يوظف إلا المؤتمنين الثقات على إدارة هذه الأموال، بما يجعلها بحسابات مكشوفة للرعية.

رابعًا: يحرم على الراعي أن يمكّن الكفار المحتلين، أو الناس الفاسدين من هذه الأموال؛ لأنها حق لرعايا بلاد المسلمين في سلطتهم الشرعية.

خامسًا: يجب أن يقر أهل الاختصاص أن في هذا القانون، وما يتمخض عنه من عقود يُراد إبرامها، مصلحةً للناس.

وقد درس قانون النفط والغاز المزمع عرضه على أعضاء البرلمان العراقي الحالي خبراء نفط عراقيون مشهود لهم بالكفاءة، فأكدوا -عبر ندوات ومحاضرات عقدت بهذا الصدد بثتها وسائل إعلامية على الملأ- أن قانون النفط والغاز الحالي، فيه هدر لهذه الثروة النفيسة، وتمكين للشركات العظمى للدول المحتلة وغيرها من الهيمنة عليها، فضلاً عن مفاسد كثيرة تترتب على إقراره، من شأنها إضعاف البلد، وزعزعة أمنه واستقراره.

سادسًا: مما يجب اعتقاده على كل مسلم أن التصويت أو الأخذ بأغلبية الآراء لا يكون في الأمور المنصوص عليها شرعًا؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾(الأحزاب: ٣٦).

ومن هنا، وبالنظر لما أسلفناه؛ فإن موافقة أعضاء مجلس الوزراء على هذا القانون إجراء محرم شرعًا وباطل عقدًا، ويستوجب فعله هذا الخضوع للمساءلة والمحاسبة.

كما يحرم على أعضاء البرلمان الحالي التصويت أصلاً على هذا القانون تحت أي ذريعة، فضلاً عن إقراره، ومن يفعل ذلك فإنه يبوء بغضب الله، وجريمة التواطؤ مع العدو في غصب الأموال العامة، مما يترتب عليه آثار الغصب، إضافة الى تلبسه إثم الخيانة لله ورسوله والمسلمين.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قسم الفتوى

هيئة علماء المسلمين في العراق

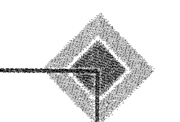
١٩ جمادى الآخرة ١٤٢٨ هـ _ ٢٠٠٧/٧/٤ م

المصدر:

الموقع الرسمي لهيئة علماء المسلمين في العراق

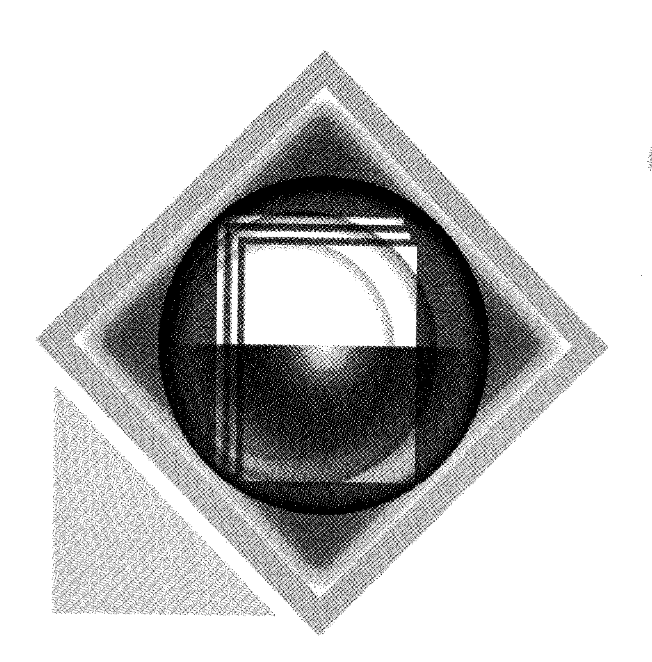
http://www.iraq-amsi.org/news.php?action=view&id=18055&d057f75c18e6d784b4d59a1bfc4eaaaa



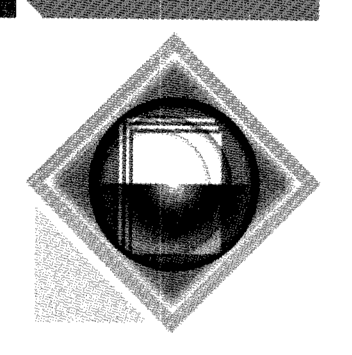


الباب السابع

مشاريع ارتيادية







مقترح فكرة تأسيس معهد دراسات بيت المقدس في إحدى البلاد العربية أو الإسلامية

البروفيسور/ عبد الفتاح محمد العويسي

مؤسس الحقل المعرفي الجديد «دراسات بيت المقدس»

ملخص الدراسة

من خلال المتابعة والدراسة والعمل الأكاديمي في عدد من الجامعات العربية والمسلمة والأوروبية، ولاسيما في المملكة المتحدة، ثبت قلة أو ندرة البحوث والدراسات المتوفرة عن بيت المقدس، التي تتناول وجهة النظر العربية والمسلمة الأكاديمية. كما أن دراسات بيت المقدس قد تعرضت للتشويه والتزييف، بل والتحريف.

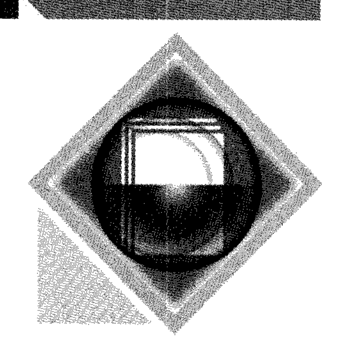
فالدراسات المتوفرة عن بيت المقدس تنقسم إلى قسمين، الدراسات الاستشراقية والإسرائيلية التي تهدف إلى إلغاء الحقائق وكتابة تاريخ بيت المقدس من وجهة نظر أحادية متعصبة، والقسم الثاني هو الدراسات العربية والمسلمة ولكن معظمها للأسف دراسات عاطفية تنقصها المنهجية في البحث والتمحيص، وهي تشخيص لواقعنا الأليم في هذا المجال.

رغم هذا الواقع الأليم، فقد تم تأسيس الحقل المعرفي الجديد لدراسات بيت المقدس كمشروع أكاديمي معرفي حضاري حوَّل الأحلام إلى حقائق خلال الثلاث عشرة سنة الماضية.

كان تأسيس هذا الحقل المعرفي الجديد لدراسات بيت المقدس رحلة استغرقت عقدًا من الزمان، وقد كان للحقل المعرفي الجديد ثلاث سياسات أساسية: الأولى هي صناعة الفعل؛ بحيث يتجنب تشتيت الجهود والوقوع في شَرَك الاستجابة لأطروحات الآخرين والانشغال في «رد الفعل». والثانية التخصص والتكامل حيث يتم الفصل بين العمل البحثي المعرفي الأكاديمي والعمل السياسي، وثالث هذه السياسات هي التعاون بين «المعرفة» و«السلطة».

إن دراسات بيت المقدس في واقع الأمر حقل معرفي جديد يشتمل على عدة فروع معرفية، وهي فرع جديد من المعرفة الإنسانية القائمة على منهجية الحقول المعرفية المتداخلة والمتعددة لدراسة إقليم بيت المقدس، يعمل على إنتاج المعرفة المتعلقة بهذا الإقليم وتصنيعها، وتشكيل وتخريج نواة من المختصين الأكاديميين المحترفين على المستوى الدولي، وتطوير قدرات وكفاءات أكاديمية على مستوى عالٍ.

وبعد عقد من تأسيس هذا الحقل المعرفي كان ولابد من تطوير استراتيجية جديدة له، وتحديد أولوياتها في العقد الثاني من تاريخه، لذا فقد تم رسم خطة استراتيجية جديدة تتمثل في التعريف و«نقل» الحقل المعرفي لدراسات بيت المقدس إلى العالمين العربي والمسلم، على أن تكون الخطوة القادمة اختيار الشريك الذي سيتم التعاون معه لتأمين الدعم المتواصل لإنجاح هذا المشروع، واختيار البلد المناسب لتأسيس معهد دراسات بيت المقدس.



مقترح فكرة تأسيس معهد دراسات بيت المقدس في إحدى البلاد العربية أو الإسلامية

البروفيسور/ عبد الفتاح محمد العويسي

مؤسس الحقل المعرفي الجديد «دراسات بيت المقدس»

في ذكرى ٦٠ عامًا على النكبة، ولاسيما «النكبة المعرفية»

الدعوة لتعاون «المعرفة» و«السلطة» في داخل العالم العربي والمسلم

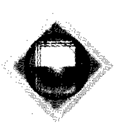
توطئة:

من خلال تواصلي ودراستي وعملي الأكاديمي في عدد من الجامعات العربية والمسلمة والأوروبية، ولاسيما في المملكة المتحدة، كنت في غاية القلق نتيجة لقِلَّة أو نُدْرَة البحوث والدراسات المتوفرة عن بيت المقدس، التي تتناول وجهة النظر العربية والمسلمة الأكاديمية. ووجدت أن دراسات بيت المقدس قد تعرضت للتشويه والتزييف، بل والتحريف.

فمعظم الدراسات المتوفرة عن بيت المقدس هي دراسات تركز على جانبها اليهودي أو النصراني، مع قلة أو انعدام الدراسات الأكاديمية الرصينة عن بيت المقدس. فمعظم البحوث الأكاديمية الغربية والإسرائيلية اقتصرت على الدراسات التوراتية أو الاستشراقية التي تميل إلى التعامل مع الموضوع بطرق متعصبة، أو أقل ما يقال عنها: إنها وجهات نظر خارجية متحيزة، وينقصها التوازن، وليس من المتوقع أن تقدم لنا دراسات حقيقية وأمينة عن منطقة مقدسة لها مكانة بيت المقدس وأهميتها، حيث تتلاقى مطالب وادعاءات الديانات الثلاث والأطماع الدولية وتتصادم. كما أن البحوث والدراسات المتوفرة عن بيت المقدس التي تتناول وجهة النظر العربية والمسلمة الأكاديمية هي بحوث قليلة أو نادرة. ويمكن تقسيم الدراسات المتوفرة عن بيت المقدس إلى قسمين.

أولاً: الدراسات الاستشراقية والإسرائيلية:

فضمن محاولاتهم للتقليل من أهمية المصادر الإسلامية المتعلقة ببيت المقدس بعد تحرير المسلمين الأول لها، أو للتقليل من أهميتها ومكانتها في الإسلام، تأتي دراسات بعض المستشرقين والأكاديميين الإسرائيليين بهدف إلغاء الحقائق وكتابة تاريخ بيت المقدس من وجهة نظر أحادية متعصبة. ويعود هذا في حقيقته إلى أسباب دينية وسياسية مرتبطة بمعركة المؤسسة السياسية الحاكمة في إسرائيل للسيطرة على بيت المقدس، ولاسيما من خلال إكساب دولتهم واحتلالهم لبيت المقدس شرعية تاريخية وأثرية.



ثانيًا: الدراسات العربية والإسلامية:

على الرغم من أن بعض الباحثين العرب والمسلمين قد وضعوا بحوثًا قليلة في نواحٍ متعددة عن بيت المقدس، تتفاوت قيمتها من الناحية الأكاديمية، فلازلنا فقراء ومتأخرين في ميدان البحوث المتعلقة ببيت المقدس بالمعنى الأكاديمي للبحث. فمعظم الدراسات العربية والمسلمة عن بيت المقدس هي دراسات عاطفية تنقصها المنهجية في البحث والتمحيص.

فمعظم الباحثين قد توقفوا عن تطبيق المنهج العلمي في بحوثهم، أو حتى تحرِّي الدقة فيها؛ وذلك نظرًا لما قد يلاقونه في البحث من مشقة وعناء، أو لأن بعضهم نهج طريق السرعة في دراسته، وفضَّل أسلوب النقل عن المرجع دون نقد وتحليل، إما لأن هذه هي طبيعته في تجنب بذل المجهود المطلوب في البحث، وإما لأنه مضطر أو متأثر بالواقع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي الذي يعيشه الباحث، أو المثقف العربي والمسلم -في الوطن العربي والمسلم بصفة عامة- والذي يكبله ويمنعه من إطلاق إمكاناته.

واقعنا الأليم:

وفي ظل انحسار حضورنا الثقافي وشهودنا الحضاري، وغيابنا الأكاديمي الرصين من جهة، وانصراف المستشرقين والإسرائيليين للتصنيع والإنتاج الأكاديمي والتسويق في بلادنا العربية والمسلمة الخالية من إنتاجنا الأكاديمي من جهة أخرى، أضحى إنتاجهم - الذي يملأ الساحة الأكاديمية اليوم- يشكِّل المصدر والمرجع لنا، مما أثَّر تأثيرًا خطيرًا في تفكيرنا وتعليمنا وثقافتنا.

وبذلك أصبحت «حصوننا مهددة من الداخل»، وسقطنا ضحية في أسر حضارة أخرى مع خسران حضارتنا الذاتية، أو ما يعرف بـ«الانغماس الحضاري»، ووصل الحد إلى أن أضحى تفكيرنا محصورًا في التفكير بأوعية الآخرين الفكرية، وانفرد الطرف الآخر بالتخطيط الاستراتيجي التدريجي لتحقيق أهدافه.

الأحلام تتحول إلى حقائق:

المرحلة الأولى: تأسيس الحقل المعرفي الجديد لدراسات بيت المقدس في المملكة المتحدة- الدولة التي لعبت دورًا أساسيًّا ومركزيًّا في تأسيس دولة يهودية في الأرض المباركة (١٩٩٤ - ٢٠٠٧م):

خلفية تاريخية:[١]

وفقًا لهذا الواقع الأليم، تم تأسيس الحقل المعرفي الجديد لدراسات بيت المقدس كمشروع أكاديمي معرفي حضاري حوَّل الأحلام إلى حقائق خلال الثلاث عشرة سنة الماضية: ١٩٩٤ - ٢٠٠٧م.

تاريخ التأسيس:

تم تأسيس هذا الحقل المعرفي الجديد في العاصمة البريطانية لندن يوم الخميس ٢٧ صفر ١٤١٥هـ/ ٤ أغسطس ١٩٩٤م، في ذكرى مرور أربعة عشر قرنًا على فتح المسلمين الأول لبيت المقدس.

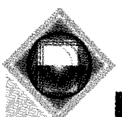
مكان التأسيس:

وقع الاختيار على المملكة المتحدة -الدولة التي لعبت دورًا أساسيًّا ومركزيًّا في تأسيس دولة يهودية في الأرض المباركة، نتج عنها جملة من القضايا الجوهرية والخطيرة في منطقتنا العربية، كان في مقدمتها قضية بيت المقدس- لتأسيس هذا الحقل المعرفي فيها.

منهج التدرج في الخطوات:

كان تأسيس هذا الحقل المعرفي الجديد لدراسات بيت المقدس رحلة استغرقت عقدًا من الزمان تقريبًا (١٩٩٤ - ٢٠٠٣م)، انطلقت ببداية متواضعة للغاية، ولكن تحمل في طياتها مشروعًا عالميًّا يعتمد على مبدأ التطور التدريجي لهذا الحقل على عدة مراحل. فقد

(١) اعتمدت هذه الخلفية عن الحقل المعرفي الجديد لدراسات بيت المقدس بشكل أساسي على بحث عائشة الأحلس (٢٠٠٤م) مجمع البحوث الإسلامية: ١٩٩٤ - ٢٠٠٤م، خلفية ونشاطات وإنجازات، مع الإشارة بشكل خاص إلى الحقل المعرفي الجديد لدراسات بيت المقدس (مجمع البحوث الإسلامية، اسكتلندا).




مـرَّت الرحلة بعدة مراحل على طريق الإنشـاء من خلال برنامـج متكامل تضمن عددًا من المبادرات الأكاديمية الجديدة. وقد أعار مؤسـس هذا الحقل الجديد اهتمامًا خاصًا بترسـيخ مفهوم دراسـات بيت المقدس عند إرساء أُسُسه بوصفه جزءًا من رؤيته. ومنذ المراحل الأولى حرص المؤسـس على اتخاذ خطـوات عملية لإثـراء عالم التعلم والتعليم والبحث بإسـهامات معرفية أساسـية، وتشجيع الشبان الباحثين للتخصص في هذا الحقل.

وقـد قدمت هـذه الإسـهامات بشـكل أساسـي من خـلال المؤتمـر الأكاديمي الدولي السـنوي لدراسـات بيت المقدس (عقدت عشـرة مؤتمرات حتى عام ٢٠٠٨م) ومن خلال مجلة دراسـات بيت المقـدس، وتوفير عدد لا بـأس به من مِنَـح الدراسـات العليا للبحـث في دراسـات بيـت المقدس. وقد كانت هـذه العناصر خطوات مهمة للغاية نحو وضع إطار فكري معرفي جديد لدراسـة بيت المقدس. وفي الواقـع نجـح كل مـن المؤتمر السـنوي، والمجلة في «إلقـاء الضوء على الفجوة في الكتابات المنشورة» عن دراسـات بيت المقدس. كما قدما «المعرفة اللازمة» لتنمية هذا الحقل، وأصبحا بمثابة منتدى عالمي للنقاش بين العلماء المهتمين بهذا الحقل.(٢)

كما كانـت هناك حاجة إلى خطـوات جادة وعملية لترسـيخ تطور هذا الحقـل وتكامله والارتقـاء به. وقد بـادر المؤسـس بالعمـل علـى تحقيـق ذلك بطرحـه أول مسـاق، عرف باسم «مساق بيت المقدس»، قام بتدريسه لطلاب البكالوريوس بجامعة سترلينج الأسكتلندية في المملكة المتحدة، ومن ثَم قام بتطوير هذا المساق ليصبح برنامجًا تدريسـيًّا لمنح الماجسـتير في معهد آل مكتوم/ حامعة أبرتيه دندي، ومن ثم جامعة أبردين الأسـكتلندية بالمملكة المتحدة.

وفي الواقـع كان معهـد آل مكتوم رائدًا في تجسـيد رؤية المؤسـس بافتتاح أول برنامج تدريسـي للماجستير، وهـو الوحيـد في جميـع أنحاء العـالم في دراسـات بيت المقدس. ثم اسـتُحدِث -بعد إنشاء معهد آل مكتوم أول منصب أكاديمي- أول كرسـي أسـتاذية في دراسـات بيت المقدس. كما أُسِّـس مركزُ دراسات بيت المقدس؛ ليركـز كل جهوده في هذا الحقل الجديد، ويلعب دورًا رئيسًـا في تنميتـه. وبـلا شـك، فقد كان إنشـاء هذا المركز تطـورًا تقدميًّا طبيعيًّا يهدف إلى هيكلة بحوث دراسات بيت المقدس وتدريسه.

سياسات الحقل:

١- صناعة الفعل:

> يتبنى هذا الحقل الجديد سياسة تجنب تشتيت الجهود والوقوع في شرك الاستجابة لأطروحات الآخرين والانشغال في «رد الفعل»، وكبديل، يتبنى سياسة «صنع الفعل»

لقـد حـوّل الواقـع المريـر -الذي أشـرنا إليـه سـابقًا- جهـود بعـض المخلصين من أبناء أمتنا وطاقاتهم إلى مواقع الدفاع، وانفرد الطرف الآخر بالتخطيط الاسـتراتيجي التدريجي لتحقيق أهدافه. فكلما حاول بعض الباحثـين العرب والمسـلمين الانتباه إلى قضيـة يثيرهـا «الآخـر»، تحول بهم إلى مشكلة وموقع دفاعي آخر، وهكذا دواليك.

ولهذا، يتبنى هذا الحقل الجديد سياسة تجنب تشتيت الجهود والوقوع في شرك الاستجابة لأطروحات الآخرين والانشغال في «رد الفعل». وكبديل، يتبنى سياسة «صنع الفعـل»، من خـلال طرح أجندة وآلية جديـدة تقوم على منهجية الحوار البناء بين العلماء المسلمين وغير المسلمين في العديـد من الفـروع المعرفية، كما طـرح بيان دندي لتطوير الدراسات الإسلامية.

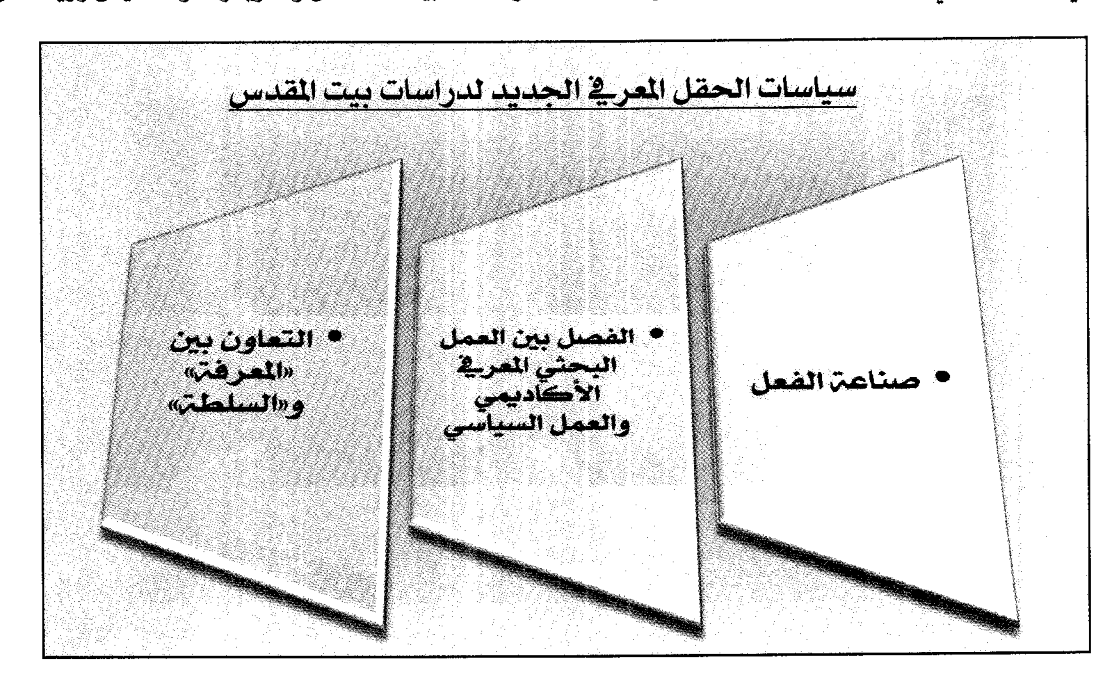
٢- التخصص والتكامـل: الفصـل بـين العمل البحثي المعرفي الأكاديمي والعمل السياسي:

انطلاقًـا من مقولة أمير المؤمنـين عمر بن الخطاب -رضـي الله عنـه- «أنت على ثغرة من ثغر الإسـلام، فلا يُؤتـين من قِبَلك» التي تدعو إلى التخصصية والتكامل،

(٢) المصدر السابق ص ٣٤.



أحب توضيح قضية محورية لازال يدعو إليها المؤسس منذ مدة طويلة جدًا، والتي تتلخص في «ضرورة الفصل بين البرامج والنشاطات السياسية الحزبية وبين العمل البحثي الأكاديمي». ويؤكد بقوة أن «الحركات



السياسية -سواء العلمانية أم الدينية- في الدول العربية والمسلمة تحُدّ -في كثير من الأحيان- من التطور الفكري للعلماء، وتضع القيود على حريتهم الفكرية»، ويدّعي أنه لم يبدع ويتميز إلا بعد أن تفرغ تمامًا للعمل الأكاديمي والمعرفي والثقافي في المملكة المتحدة، ويحاجج بأنه «إذا أردنا أن نأخذ أية خطة عمل أكاديمية على محمل الجد، فلا بد من فصلها عن الارتباطات السياسية الحزبية والتزاماتها». ولكنه يطالب -في نفس الوقت- بضرورة التواصل والتعاون بين «المعرفة» و«السلطة».

٣- التعاون بين «المعرفة» و«السلطة»:

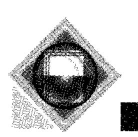
فقه المؤسس أسباب نجاح المستشرقين، والتي تتلخص في التحالف الذي أقاموه بين «المعرفة» و«السلطة»، فاستفاد من ذلك «فالحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو أحق بها»، فأعطى عالمنا العربي والمسلم المعاصر نموذجًا عمليًا للعلاقة المفقودة بين «المعرفة» و«السلطة» من خلال تأمينه الدعم المتواصل لسمو الشيخ حمدان بن راشد آل مكتوم -نائب حاكم دبي، ووزير المالية والصناعة بدولة الإمارات العربية المتحدة- لتأسيس الحقل المعرفي الجديد لدراسات بيت المقدس وتطويره، وتأسيس رؤيته على فهم بيت المقدس بوصفه نموذجًا للتعددية الثقافية التي أسّستها العهدة العمرية في صدر الإسلام.

وبلا شك فلقد كان لكسب الشيخ حمدان بن راشد آل مكتوم لدعم هذا المشروع الأكاديمي المعرفي، الفضل في تحقيق تطور هذا الحقل الجديد في مرحلته الأولى في المملكة المتحدة. فعندما كان هذا الحقل في مرحلته الأولية لعب الشيخ حمدان دورًا أساسيًا بتقديمه منحًا دراسية للشبان العلماء لمتابعة دراساتهم العليا في دراسات بيت المقدس.

وكان إسهامه الثاني المهم في تطوير هذا الحقل والارتقاء به هو موافقته على إنشاء معهد آل مكتوم. وأكدت عائشة أن «السبب الرئيس وراء نجاح» إنشاء الحقل المعرفي الجديد لدراسات بيت المقدس يعود إلى «العلاقة الحميمة والفريدة بين عنصري عرفة والسلطة». [٣]

---

(٣) المصدر السابق ص ٨٠.



وهذا النموذج للعلاقة بين «المعرفة» و «السلطة» مفقود في الواقع المعاصر للدول العربية والمسلمة. وكما جاء في بيان دندي لتطوير الدراسات الإسلامية الصادر في ١٨ مارس ٢٠٠٤م «إن إحدى أزمات العالم الإسلامي المعاصر ترجع إلى غياب التعاون بين المعرفة والسلطة».

إشكالية اسم الحقل المعرفي:

في السنوات القليلة الأولى من إنشاء هذا الحقل الجديد انتاب عددًا من علماء العرب والمسلمين قلق شديد في استخدام المصطلح الجديد Islamicjerusalem وبخاصة كلمة «إسلامي» فيه. وكان مصدر قلقهم الرئيس أن استخدام هذه الكلمة يمكن أن يثير عداء علماء الغرب وعدم قبولهم له. في ذلك الوقت، كان دفاع المؤسس أنه من دون كلمة «إسلامي»؛ فإن المصطلح نفسه سيفقد محتواه ومعناه وتعريفه. بالإضافة إلى ذلك لو أن المصطلح كان «القدس» فقط دون كلمة «إسلامي» فأيّ قدس تلك التي سنكون بصدد الحديث عنها؟ كما أنه كانت هناك العديد من البحوث والبرامج الدراسية الخاصة بدراسات القدس والدراسات الفلسطينية، مما يعني أن إسهاماتنا في المعرفة ستكون محدودة للغاية. مع ذلك فقد فتحت دراسات بيت المقدس مجالاً جديدًا للتخصص بإطار جديد. ولعل كلمة «إسلامي» هي المصطلح المناسب لتحريك الأرض الجامدة واجتيازها، ولتعزيز حوار جادّ، والبدء في مناقشات تلقي الضوء على اتجاهات تفسيرية جديدة.

بيت المقدس

أكدت عائشة الأحلس أن المؤتمر الأكاديمي الدولي الخامس لدراسات بيت المقدس الذي عقد في ٢١ أبريل ٢٠٠٣م كان «نقطة تحول» في تاريخ الحقل المعرفي الجديد لدراسات بيت المقدس [٤]. ورغم أن المؤسس كان هو الذي أعاد إحياء هذا المصطلح «بيت المقدس» في الأوساط الأكاديمية البريطانية عام ١٩٩٤م؛ فإنه تحير كثيرًا عندما كان يحاول -وبخاصة في السنوات الخمس الأخيرة (٢٠٠٠ - ٢٠٠٥م)- التوصل إلى فهم ما يقصده ببيت المقدس بشكل خاص.

ففي المؤتمر الأكاديمي الدولي الخامس لدراسات بيت المقدس الذي عُقد في ٢١ أبريل ٢٠٠٣م تحت عنوان «بيت المقدس: معابد الأنبياء، والمسجد الأقصى - تفنيد الحقائق واكتشاف الهوية»، قدم المؤسس بحثًا رئيسًا عن «استكشاف هوية بيت المقدس»، أقر فيه علنًا بحيرته، عندما قال: «لقد استغرقت حوالي ثلاث سنوات للتوصل إلى تعريف فعّال، وهو ما أحب أن أقدمه اليوم». وأضاف «أننا بحاجة إلى البدء بتعريف فعّال لما نعنيه ببيت المقدس».

وعلى الرغم من أن المؤسس لم يقدم في ذلك الوقت تعريفه النهائي لبيت المقدس، فقد تضمن حديثه العناصر الرئيسة له: «هناك ثلاثة عناصر رئيسة لهذا التعريف الفعال: الموقع الجغرافي (الأرض والمكان)، والشعب أي (من يعيش أو كان يعيش هناك)، والرؤية لإدارة أرضها وشعبها وحكمهما، وليس بالإمكان فصل هذه العناصر الثلاثة عن بعضها؛ إذ إنها مترابطة». إضافة إلى ذلك فإن هذه العناصر ترتبط بإطاريها التاريخي والجغرافي (وفي رأي المؤسس إذا كانت الجغرافيا هي المسرح، فإن التاريخ هو المسرحية). ولأول مرة أكد أن بيت المقدس ليس مجرد مدينة أو مستوطنة مدنية أخرى، ولكنه إقليم يشمل عدة مدن كبيرة ومدنًا صغيرة وقرًى. ويمكن للمرء أن يرى من خلال هذا التعريف أنه لا بد من وصف بيت المقدس بأنه إقليم ذو ثلاثة عناصر رئيسة مترابطة.

وقد أدى تحديد مركز البركة إلى أن يضع المؤسس نظرية مبتكرة مهمة وجديدة وهي «نظرية دائرة البركة لبيت المقدس». وتقوم هذه النظرية على تفسيرات جديدة لتاريخ المسلمين ومصادره الرئيسة. كما أكد أيضًا هذه النقطة عند إلقائه محاضرته العامة في أكاديمية الدراسات الإسلامية بجامعة مالايا يوم ٢٤ سبتمبر ٢٠٠٤م. ومع ذلك فإن ما قدمه في كتابه «تقديم بيت المقدس» هو التعريف المعدل الذي أخذ في الاعتبار

(٤) المصدر السابق ص ٣٢.



الحوارات والمناقشات التي شارك فيها منذ ذلك التاريخ.

إن Islamicjerusalem هو مصطلح جديد في اللغة الإنجليزية، لمفهوم قديم جديد، وإسهام عصري في القرن الواحد والعشرين لإحياء وتجديد التصور الذي برز بشكل واضح في صدر الإسلام، والذي يمكن ترجمته من الإنجليزية إلى العربية ببيت المقدس. ومن ثم يمكن أن يوصف ويعرف في نهاية الأمر بأنه : إقليم فريد غني بخلفية تاريخية خصبة، وله أهمية دينية، وارتباطات ثقافية، وبادعاءات سياسية ودينية تنافسية، وباهتمامات دولية، وجوانب متعددة تؤثر في بقية العالم في كل من الإطارين التاريخي والمعاصر.

ولـ Islamicjerusalem إطار مرجعي مركزي، وطبيعة حيوية ذات ثلاثة عناصر أساسية مترابطة: موقعها الجغرافي (الأرض والحدود)، وشعبها (السكان)، ورؤيتها الفريدة والخلاقة والشاملة لإدارة أرضها وشعبها بوصفه نموذجًا للتعددية الدينية والثقافية.

وقد استخدم مصطلح «بيت المقدس» في الماضي في كل من المصادر والروايات الإسلامية المبكرة للإشارة بشكل خاص إلى الإقليم الإداري الذي كان يعرف في ذلك الوقت بـ «إيلياء» .

وربما يدّعي البعض أن النبي محمد -صلى الله عليه وآله وسلم- كان أول من استخدم مصطلح «بيت المقدس» ليشير إلى إقليم «إيلياء» الإداري. وفي الواقع لقد استخدم -صلى الله عليه وآله وسلم- كلا المصطلحين إيلياء وبيت المقدس في كثير من أقواله. ومع ذلك يمكن للمرء أن يقول: إن العرب يمكن أن يكونوا قد استخدموا هذا المصطلح قبل قدوم الإسلام ليشيروا إلى الإقليم نفسه. ورغم أن الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- قد استخدم فعلاً مصطلح بيت المقدس؛ فإن المؤسس لا يمكنه أن يؤكد من كان أول من استخدم هذا المصطلح.

إن الترجمة الحرفية للمصطلح العربي «بيت المقدس» إلى اللغة الإنجليزية يمكن أن تكون «البيت المقّدس»، ويمكن أن يفهم ذلك من وجهة نظر دينية، غير أنه سيكون من الصعب فهم ذلك في السياق التاريخي والجغرافي. فضلاً عن ذلك فإن استخدام الترجمة «البيت المقدس» لا تمثل التعريف الذي سبق تقديمه هنا.

وتتضح صحة ذلك خاصةً بعد أن أصبح من الواضح أن بيت المقدس الآن هو مفهوم يحمل خلفيات تاريخية وجغرافية ودينية وثقافية. ويتجاوز حدود المسجد الأقصى ومدينة «القدس» المسورة القديمة، كما تدّعي بعض الأطروحات التي عفا عليها الزمن. كما أنه ليس مدينة ولا مستعمرة سكانية لمدنية أخرى، ولكنه إقليم مكون من عدة قرى ومدن صغيرة ومدن كبيرة تتميز برؤية شاملة متعددة الأديان والثقافات. وباختصار، لا يمكن فهم المصطلح الجديد « Islamicjerusalem» من دون وضعه في السياق التاريخي والجغرافي والديني.

وعلى الرغم من ذلك؛ فإن مصطلح Islamicjer-salem باللغة الإنجليزية يُعدّ مفهومًا جديدًا ظهر بمعناه الشامل، واستخدمه المؤسس أصلاً لأول مرة باللغة الإنجليزية، كما هو موثق ومحدد في كتابه «تقديم بيت المقدس». وتجدر الإشارة إلى أن هذا المصطلح الإنجليزي Islamicjerusalem هو كلمة واحدة وليس كلمتين منفصلتين، أي أنه ليس كلمة القدس Jerusalem ، وكلمة إسلامي Islamic.

ويجب التأكيد هنا على أن Islamicjerusalem ليس هو «القدس المسلمة»، ولا «القدس الإسلامية». فهو يختلف عن «القدس المسلمة» أو «القدس الإسلامية» التي تقابل «القدس اليهودية»، و«القدس المسيحية». فمصطلح القدس المسلمة هو الذي يُستخدم للدلالة على الفترة التاريخية التي حكم فيها المسلمون بيت المقدس لعدة قرون. فبيت المقدس مفهوم، في حين تشير «القدس المسلمة» إلى فترات حكم المسلمين لبيت المقدس.

ولتوضيح هذه النقطة؛ فإن فتح عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- لهذا الإقليم كان هو أول فتح للمسلمين لبيت المقدس، وهو ما ينطبق أيضًا على الفترة



التي أعقبت الفتح إلى عام ١٩١٧م (باستثناء فترة الحروب الصليبية)، كما ينطبق على أيّ حكم للمسلمين لبيت المقدس في المستقبل. وبالإضافة إلى ذلك فإن «القدس المسلمة» المعاصرة قد تشكلت من خلال الحوار حول مفهوم بيت المقدس وتاريخ المسلمين القديم والحديث، وردّة الفعل على المصالح الخارجية وتأثيرها على المنطقة. لذلك سعى المسلمون المعاصرون إلى الربط بين تراثهم في «القدس المسلمة» من خلال مفهوم بيت المقدس وبين ماضي المسلمين بالنسبة للوضع الراديكالي اليوم.

دراسة العهدة العمرية: نقطة التحول

وجدير بالذكر هنا أن مجلة دراسات بيت المقدس منذ صدورها في عام ١٩٩٧م، وهي تحمل أيضًا المصطلح العربي «القدس الإسلامية». غير أن اكتشافات المؤسس الجديدة عن العهدة العمرية لأهل إيلياء قد أدت إلى تغيير في استخدام هذا المصطلح العربي. ومن ثَمَّ تغيَّر عنوان هذه الدورية الأكاديمية المحكمة في عدد صيف عام ٢٠٠٠م من «مجلة دراسات القدس الإسلامية» إلى «مجلة دراسات بيت المقدس». وكان هو العدد الذي نشر فيه المؤسس مقالاً عن العهدة العمرية باللغتين الإنجليزية والعربية.

فبعد البحوث الأولى عن العهدة العمرية لأهل إيلياء بدأ المؤسس اعتبارًا من عام ٢٠٠٠م يجمع نتائج بحوثه الجديدة. وقد ساعده ذلك عام ٢٠٠٤م على التوصل إلى التعريفات لكل من بيت المقدس ودراسات بيت المقدس؛ إذ كانت العهدة العمرية جوهرة فتح المسلمين الأول لإيلياء، ومنارة تحديد رؤية بيت المقدس، وطبيعته الفريدة والخلاقة.

لقد اشتق الجزء الأخير من التعريف من نظرية في العلوم السياسية تشير إلى وجود ثلاثة عناصر لكل دولة، ولكنها نظرية تحل محل مفهوم السيادة برؤيته الشمولية والتعددية لبيت المقدس. ولهذه الرؤية الفريدة والخلاقة لبيت المقدس في الواقع أهمية أكبر من قضية السيادة في بيت المقدس. ويمكن القول بأن المحصلة النهائية عادة ما تكون هي قضية السيادة. ومع ذلك فإن المخطط لبيت المقدس لا ينبغي أن يكون الرغبة في تحقيق أهداف استعمارية للسيطرة على أراضٍ أو حكم شعب على أساس طموحات اقتصادية أو ادعاءات قومية عنصرية ولاهوتية، أو أية اهتمامات أو ادعاءات أخرى. فإن لم يكن هناك رؤية، أو كان هنالك رؤية لا تقوم على التعددية (على سبيل المثال، رؤية تعصبية عرقية) في بيت المقدس، فإن السيادة ستؤدي طبعًا إلى قهر داخلي وتقسيمات في المجتمع وجالياته، وإلى الارتباط بقوى خارجية لمحاولة القضاء على تلك الاضطرابات والمشكلات الداخلية، التي قد تؤدي إلى عدم الاستقرار، وإعاقة تقدم الإقليم وازدهاره. وفي الواقع فإن السمة الفريدة لبيت المقدس قد وضحت تمامًا من خلال هذه الرؤية التي تقف نموذجًا للتعايش السلمي، وأسلوبًا يمكّن الناس من مختلف الخلفيات الدينية والثقافية من أن يتعايشوا سويًا في جوّ من التعددية والتنوع الذي يؤدي إلى التعارف والتسامح والتواصل والاحترام المتبادل.

> الترجمة الحرفية للمصطلح العربي «بيت المقدس» إلى اللغة الإنجليزية يمكن أن تكون «البيت المقدس»، ويمكن أن يفهم ذلك من وجهة نظر دينية، غير أنه سيكون من الصعب فهم ذلك في السياق التاريخي والجغرافي

دراسات بيت المقدس Islamicjerusalem Studies

نظم المؤتمر الأكاديمي الدولي السادس لدراسات بيت المقدس في ٣١ مايو ٢٠٠٤م احتفالاً بالسنة العاشرة لتأسيس الحقل المعرفي الجديد لدراسات بيت المقدس. وكان هذا المؤتمر حدثًا مهمًا آخر في تاريخ هذا الحقل الجديد. فلقد قدم مؤسس الحقل في كلمته الرئيسة في هذا المؤتمر تعريفه لدراسات بيت المقدس لأول مرة. ومع ذلك فإن ما قدّمه في كتابه «تقديم بيت المقدس» هو التعريف المعدل لمصطلح دراسات بيت المقدس الذي أخذ بعين الاعتبار الحوارات والمناقشات التي شارك فيها منذ ذلك الوقت، وكذلك التعريف الجديد لبيت المقدس.



ويمكن أن توصف وتعرف دراسات بيت المقدس بأنها:

فرع جديد من المعرفة الإنسانية القائمة على منهجية الحقول المعرفية المتداخلة والمتعددة. وهو يهدف إلى التحقيق في كل الأمور المتعلقة بإقليم بيت المقدس، واكتشاف جوانبها المختلفة وفحصها، وتقديم فهم نقدي تحليلي لإطارها المرجعي الجديد، من أجل تحديد طبيعة بيت المقدس، وفهم الوضع الفريد لهذا الإقليم، وتأثيره على بقية أنحاء العالم في الإطارين التاريخي والمعاصر.

وأخيرًا يمكن للمرء أن يؤكد أن التعريف لا بد أن يكون مختصرًا ودقيقًا وجامعًا ومانعًا في نفس الوقت. ومع ذلك فإن تعريفات بيت المقدس تبدو طويلة للغاية. غير أن ما قدمناه لأول مرة هو عرض معرفي لما يمكن أن يوصف ويعرف ببيت المقدس وحقله المعرفي. ومن ثم ليس التعريف مقتصرًا على بيت المقدس وحقله فحسب، بل يشمل خصائص هذه المصطلحات أيضًا. فضلاً عن ذلك فإن هذه التعريفات التي تظهر لأول مرة في هذا الإطار تحاول أن تعطي صدمات لما سبق أن عده العلماء -الذين يمثلون شتى المدارس الفكرية والاتجاهات والأساليب- أمرًا مسلمًا به، وتحيره، وتلقي عليه ظلالاً من الشك. كما تهدف هذه المصطلحات أيضًا إلى طرح تساؤلات وتزويد الباحثين والعلماء في هذا الحقل بالجوانب الرئيسة لبيت المقدس.

وعلى الرغم من أن هذه التعريفات هي من أهم إسهامات المؤسس في هذا الحقل فإنه يجب اعتبارها تعريفات فعالة تهيئ لتطور هذا الحقل مستقبلاً، وليست تعريفات لاهوتية، أو ثابتة بأي شكل من الأشكال، حتى لا يمكن تغييرها أو تطويرها، كما يدعي بعض العلماء المسلمين التقليديين. إنها تعريفات مرنة تمامًا كدراسات بيت المقدس التي تتصف بأنها «فرع جديد من المعرفة الإنسانية» يخضع -في الواقع- لتفسيرات إنسانية للمفاهيم والمصطلحات الجديدة التي تقبل التغيير، والتطوير، وفقًا لآخر ما تتوصل إليه البحوث الأكاديمية في هذا الحقل.

منهجية الحقل:

منهجية الحقول المعرفية المتداخلة والمتعددة

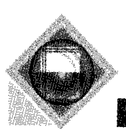
إن دراسات بيت المقدس في واقع الأمر حقل معرفي جديد يشتمل على عدة فروع معرفية مثل دراسة الإسلام والمسلمين، والتاريخ وعلم الآثار، والفن والعمارة، والجغرافيا والجيولوجيا، والبيئة والسياسة، وعدة فروع معرفية أخرى. لذلك فإن أساليب البحث فيها تنتمي إلى الحقول المعرفية المتداخلة والمتعددة التي تشمل مناهج تاريخية، ولاهوتية وثقافية، ونظرية وفكرية وتجريبية.

> دراسات بيت المقدس في واقع الأمر حقل معرفي جديد يشتمل على عدة فروع معرفية مثل دراسة الإسلام والمسلمين، والتاريخ وعلم الآثار، والفن والعمارة، والجغرافيا والجيولوجيا، والبيئة والسياسة، وعدة فروع معرفية أخرى

ولن يعرض الحقل الجديد فهمًا جديدًا لبيت المقدس فحسب، بل سيبحث في إطاره المرجعي الجديد الذي ينظر المسلمون من خلاله إلى بيت المقدس. ولتناول هذه النقطة يلزمنا الإجابة على عدة أسئلة رئيسة: ما تلك الروابط الوثيقة التي تربط المسلمين ببيت المقدس، وتجعله محط اهتماماتهم؟ ما أهمية بيت المقدس للمسلمين والإسلام؟ هل لبيت المقدس وضع خاص مقارنة بأي إقليم آخر؟

إن المناقشة المتعمقة لمختلف جوانب بيت المقدس وأبعاده، ستفتح آفاقًا جديدة للمهتمين بفهم رؤيتها وطبيعتها وأسباب تميزها على الأقاليم الأخرى. فمثلاً لا يجب أن يقتصر فهم رؤية بيت المقدس الشمولية على فهم شعبها ودياناتها وثقافاتها، بل يجب أن تشمل «الإجراءات المتساوية» لدور رجالها ونسائها.

وتجادل الباحثة المصرية الشابة، سارة حسن: لقد تركت النساء المسلمات مثل الرجال علامات في بداية تاريخ المسلمين، وفي الارتباط الطبيعي ببيت المقدس،



وعندما يُؤخَذ هذا العنصر المهم للشمولية في الاعتبار بشكل كافٍ، وكذلك الدور الذي لعبه النوعان لترسيخ شموليته للأديان وللنوعين، يمكن أن يصبح بيت المقدس نموذجًا «للتعددية الثقافية» بالفعل.(٥)

وحيث أصبح النوع (ذكرًا وأنثى) «بابًا مفيدًا من أبواب التحليل التاريخي»؛ فإن المؤسس يوافق سارة حسن الرأي في أن استخدام النوع كأداة تحليل في كل من ماضي بيت المقدس وحاضره هو ضرورة من ضروريات استكمال التطور في هذا الحقل المعرفي الجديد لدراسات بيت المقدس.(٦)

وكذلك يلزمنا كي نستعرض هذه الرؤية الشمولية أن نستخدم النوع كأداة تحليل في أسلوب دراسة بيت المقدس، وذلك من خلال البحث في الدور النشط الذي لعبته النساء المسلمات، ومدى إسهاماتهن المهمة في ترسيخ أهمية بيت المقدس وإظهارها. ويستدعي ذلك إعادة البحث في تفاسير الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي وردت في هذا الشأن، والأحكام أو الفتاوى الفقهية التي أصدرتها النساء المسلمات، ومقارنتها بتلك التي أصدرها الرجال فيما يتعلق ببيت المقدس. ولا بد أيضًا من مقارنة إسهامات النساء ودورهن المتكرر في تشكيل تاريخ بيت المقدس في كل عصوره.

فمثلاً توضح سارة حسن أن أم المؤمنين صفية بنت حُيَي بن أخطب كانت «قصة حياتها بشكل عام وزيارتها لبيت المقدس بشكل خاص تصوران بوضوح كيف أن العملية الكاملة للتفاوض حول خَلْفِيّتها اليهودية وديانتها الإسلامية تبلغ ذروتها في بيت المقدس».(٧)

ويمكن القول -بالإضافة إلى ذلك-: إن هذا الحقل الجديد إنما يدعم تاريخ المسلمين، وذلك بإلقاء الضوء على اتجاهات تفسيرية جديدة للآيات القرآنية والأحاديث النبوية المتعددة التي تناولت بيت المقدس. مما يدفع المرء إلى القول بأن هذا الحقل الجديد قد أضاف عمقًا واستبصارًا أكثر للعديد من فروع العلم والمعرفة مثل تفسير القرآن والأحاديث. كما أوضح هذا الحقل عددًا من الوقائع التاريخية المتناقضة، وتوصل إلى حلول لبعض القضايا التاريخية المعضلة.

آخر البحوث في دراسات بيت المقدس

لقد أنشأ المؤسس أثناء تأسيسه معهد آل مكتوم (٢٠٠٠ - ٢٠٠٧م) برامج تعليمية فريدة قائمة على البحوث الحالية والمستقبلية التي تأخذ بعين الاعتبار احتياجات طلابنا المحليين والعالميين واهتماماتهم، بما يمكّنهم من تقدير المدارس الفكرية والمعرفية المتنوعة، وفهمهما داخل إطار دراسي محدد. وأدى ذلك إلى تخريج دفعات من طلاب الدراسات العليا، الذين حصلوا على أول درجات الماجستير في دراسات بيت المقدس(٨)، وهم طلاب نأمل أن يكونوا قد اكتسبوا المعرفة الجيدة في هذا الحقل الجديد.

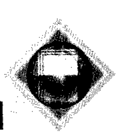
وبالإضافة إلى ذلك، فقد قام المؤسس أثناء عمله في المعهد (٢٠٠٢ - ٢٠٠٧م) بتدريب طلاب مؤهلين، وكوَّن فريقًا من الشبان العلماء في مختلف فروع المعرفة في دراسات بيت المقدس، وقد أجروا بحوثًا ممتازة من خلال برامج تدريسية على مستوى الماجستير أو الدكتوراه. فلقد وجَّه المؤسس طلابه في الدراسات العليا، وشجَّعهم من خلال تدريسه لهم ودوره الإشرافي عليهم إلى إجراء البحوث في الحقل الجديد من المعرفة الإنسانية ببيت المقدس، ولاسيما في إطاره المركزي، وطبيعته الحيوية ونوعيته الفريدة، وجوانب وأبعاد أخرى متعددة لبيت المقدس. وظل طلابه للدراسات العليا يناقشون ويبحثون في كثير من أفكاره وحججه بكل جدية، من خلال مقالات ودراسات بحثية ورسائل علمية

(٥) سارة محمد شريف حسن «النساء.. عوامل فاعلة في أسلمة بيت المقدس منذ عصر الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- حتى نهاية العصر الأموي». رسالة للماجستير عام (٢٠٠٥م) ص ٦٩.

(٦) المصدر السابق ص ٢-٣.

(٧) المصدر السابق ص ٥٤.

(٨) العدد الإجمالي حتى اليوم هو أربعة وعشرون من بينهم اثنان مسجلان لدرجة الدكتوراه في دراسات بيت المقدس خلال هذا العام الأكاديمي الحالي ٢٠٠٧/٢٠٠٨م، وبدأ ثلاثة آخرون دراساتهم العليا في برامج تعليمية لنيل درجة الماجستير في دراسات بيت المقدس.



على مستوى الماجستير والدكتوراه. وقد أسهمت كل هذه الدراسات بإيجابية تامة في معرفتنا بدراسات بيت المقدس.

خلاصة المرحلة الأولى:

وباختصار، فدراسات بيت المقدس حقل أكاديمي معرفي جديد، وفرع جديد من المعرفة الإنسانية القائمة على منهجية الحقول المعرفية المتداخلة والمتعددة لدراسة إقليم بيت المقدس، يعمل على إنتاج المعرفة المتعلقة بهذا الإقليم وتصنيعها، وتشكيل وتخريج نواة من المختصين الأكاديميين المحترفين على المستوى الدولي، وتطوير قدرات وكفاءات أكاديمية على مستوى عالٍ. تصدر له مجلة أكاديمية محكمة باللغتين العربية والإنجليزية «مجلة دراسات بيت المقدس» منذ عام ١٩٩٧م، ويعقد له «مؤتمر أكاديمي دولي سنوي» في بريطانيا منذ عام ١٩٩٧ (عقد المؤتمر العاشر في ٢٠٠٨/٢/٤م). استُحدث لهذا الحقل المعرفي منصب «أستاذ كرسي لدراسات بيت المقدس» في بريطانيا عام ٢٠٠١م، وأسس له مركز بحوث «مركز دراسات بيت المقدس» في بريطانيا عام ٢٠٠٢م، وأنشئ له برنامج تدريسي لمنح درجتي «الماجستير» و«الدكتوراه» في «دراسات بيت المقدس» من جامعة أبردين العريقة (الدراسة والبحث باللغة الإنجليزية فقط).

كتب في موضوعاته عددًا من الأطروحات الأكاديمية باللغة الإنجليزية (١٠) رسائل دكتوراه، و(٢٦) رسالة ماجستير، وطبع في موضوعاته عددًا من الكتب الأكاديمية، يأتي في مقدمتها الكتاب المهم والمميز «تقديم بيت المقدس» للمؤسس الذي كتبه بداية باللغة الإنجليزية، ونشره الناشر الأكاديمي لمعهد آل مكتوم في بريطانيا عام ٢٠٠٥م، ثم تُرجم إلى اللغة العربية واللغة الماليزية (مالايه).

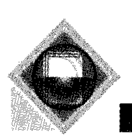
المرحلة الثانية
الاستراتيجية الجديدة لدراسات بيت المقدس وأولوياتها - نقل الحقل المعرفي إلى العالمين العربي والمسلم (٢٠٠٨ - ٢٠٢١م)

عندما قمنا في عام ١٩٩٤م بتأسيس هذا الحقل المعرفي الجديد دراسات بيت المقدس، كان الهدف يتمحور حول تأسيس مشروع أكاديمي معرفي حضاري دولي، يحوّل الأحلام إلى حقائق. وهذا ما تمكنا -بفضل الله ومنّه- من تحقيقه خلال الثلاث عشرة سنة الماضية: ١٩٩٤ - ٢٠٠٧م. ولقد غمرتني السعادة بردود الفعل والتطورات الإيجابية التي حدثت في مجال دراسات بيت المقدس خلال العقد الماضي (١٩٩٤-٢٠٠٥م)، فكان لا بد من تطوير استراتيجية جديدة لهذا الحقل المعرفي، وتحديد أولوياتها في العقد الثاني من تاريخه.

فرسمنا الخطة الاستراتيجية الجديدة لهذا الحقل المعرفي الجديد وأولوياتها، والمتمثلة في التعريف و«نقل» الحقل المعرفي لدراسات بيت المقدس إلى العالمين العربي والإسلامي، والتي أشرت إليها في خاتمة كتابي دليل دراسات بيت المقدس الصادر في منتصف عام ٢٠٠٧م.

ومن المؤسف أن العرب والمسلمين على الرغم من حبهم للمسجد الأقصى ولبيت المقدس، فإن حبهم هذا هو حب عاطفي تنقصه المنهجية في البحث والتمحيص، وغير مبني على منظومة معرفية متكاملة. ولا شك أننا -في القرن الواحد والعشرين- قد وصلنا إلى درجة التخمة من دغدغة العواطف والانحياز العاطفي، والانتصار بالانفعال والإثارة، أو البكاء على الأطلال، أو الإدانة والرفض الشامل المتشنج بالخطب الحماسية.

ومن المؤسف -كذلك- أنه لا توجد جامعة عربية أو مسلمة تدرس هذا الحقل المعرفي الذي يعرف في العالم الغربي بدراسات بيت المقدس Islamicjerusalem Studies والذي تُمنَح فيه درجتي الماجستير والدكتوراه من جامعة أبردين العريقة في المملكة المتحدة، أو حتى تطرحه مساقًا يتيمًا يدرس في الجامعات العربية والمسلمة



لطلبة البكالوريوس، على الرغم من نص بيان دندي الذي صدر في ختام الندوة الدولية الأولى للدراسات الإسلامية، التي نظمتها رابطة الجامعات الإسلامية، ومعهد آل مكتوم للدراسات العربية والإسلامية في دندي في ١٨ مارس ٢٠٠٤م، على أن «تعزز رابطة الجامعات الإسلامية بشكل عملي تطوير الحقل المعرفي الجديد لـ«دراسات بيت المقدس» ليكون مساقًا إجباريًّا في مناهج كل الجامعات الإسلامية».

أولاً: الخطوات التمهيدية:

لتمهيد الطريق أمام نقل هذا الحقل المعرفي إلى العالمين العربي والإسلامي، شرع فريق العمل في تنفيذ هذه الاستراتيجية من خلال جملة من الفعاليات، والتي منها في السنتين الأخيرتين (٢٠٠٥-٢٠٠٧م):

١- تدشين كتاب «تقديم بيت المقدس» باللغة الإنجليزية التي كُتب بها أصلاً ونشره الناشر الأكاديمي لمعهد آل مكتوم في بريطانيا عام ٢٠٠٥م، ودشن رسميًّا في ثلاث دول: جامعة زايد (دولة الإمارات العربية المتحدة) في ٢٥ ديسمبر ٢٠٠٥م، والبرلمان الأسكتلندي (أسكتلندا – المملكة المتحدة) في ٣٠ يناير ٢٠٠٦م، وجامعة قطر (دولة قطر) في ٩ مارس ٢٠٠٦م. ثم تُرجم إلى اللغة العربية ونشرته دار الفكر العربي بالقاهرة عام ٢٠٠٦م، ثم نُقِّحت الترجمة وزيد عليها، وصدرت عن مركز البحوث الاجتماعية والإنسانية بجامعة العلوم والتكنولوجيا بالجمهورية اليمنية، ومجمع البحوث الإسلامية في المملكة المتحدة في أبريل ٢٠٠٨م. كما تُرجم -كذلك- إلى اللغة الماليزية (مالايه)، ونشرته جامعة مالايا بالعاصمة الماليزية كوالمبور -أعرق الجامعات الماليزية- في فبراير ٢٠٠٨م. كما تم ترجمة الكتاب إلى اللغة الفرنسية، وسيتم نشره خلال هذا العام (٢٠٠٨م). كما تم إهداء الكتاب إلى معظم مكتبات الجامعات البريطانية، والمكتبات العامة في أسكتلندا بشكل عام ومدينة دندي بشكل خاص، وعدد من مكتبات الجامعات الأوروبية، والأمريكية، والعربية، والمسلمة.

٢- نشر الكتاب رقم ٨ من سلسلة دراسات بيت المقدس، تحت عنوان «دليل دراسات بيت المقدس» في منتصف عام ٢٠٠٧م، والذي يقدم دليلاً تفصيليًّا لأي جامعة -في العالمين العربي والإسلامي- ترغب في تدريس دراسات بيت المقدس. كما يقدم الكتاب تعريفًا مفصلاً بدراسات بيت المقدس، والإنجازات والنشاطات الأكاديمية، والمطبوعات، وعناوين رسائل الماجستير والدكتوراه التي أُنجزت في هذا الحقل المعرفي.

٣- إنجاز عدد من رسائل الدكتوراه في عام ٢٠٠٦م، وبذلك يصل عدد الأطروحات الأكاديمية التي كُتبت في موضوعاته باللغة الإنجليزية حتى نهاية عام ٢٠٠٧م: (١٠) رسائل دكتوراه، و(٢٤) رسالة ماجستير.

٤- إشارة بيان أبو ظبي للتواصل الثقافي والحضاري، الصادر في ختام الندوة الأكاديمية الدولية حول التعددية الثقافية والتواصل الحضاري في القرن الحادي والعشرين التي عُقدت بقصر الإمارات بأبو ظبي في دولة الإمارات العربية المتحدة في ٨ أبريل ٢٠٠٧م، ونظمتها دار زايد للثقافة الإسلامية في دولة الإمارات العربية المتحدة، بالتعاون مع معهد آل مكتوم للدراسات العربية في أسكتلندا، إلى الورقة الرئيسة التي قدمها المؤسس عن «بيت المقدس نموذجًا للتواصل الثقافي والحضاري والتعددية الثقافية والتعايش السلمي».

> من المؤسف أن العرب والمسلمين على الرغم من حبهم للمسجد الأقصى وبيت المقدس، فإن حبهم هذا هو حب عاطفي تنقصه المنهجية في البحث والتمحيص، وغير مبني على منظومة معرفية متكاملة.

كما نص البيان على «أن تاريخ الأمة العربية والمسلمة يؤكد إمكانية التعايش السلمي بين الشعوب والحضارات، والتواصل الثقافي بين الأديان المختلفة، واحترام حقوق الإنسان. وتقدم العهدة العمرية -التي أعطاها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) لأهل إيلياء- والمبدأ الرئيس والمحوري لبيت المقدس نموذجًا أساسيًّا للتعددية الثقافية، والتواصل الثقافي،



والتفاهم المشترك والاحترام المتبادل. وبلا شك؛ فإن بيت المقـدس يقـدم لنا نموذجًا من المسـاحة المشـتركة التي تمكّن أناسًـا من خلفيات متعددة من العيش فيه سوية، ومركزًا يزدهر فيه التنوع والتعدد».

٥- قيـام مكتـب العلاقـات العامـة الدولـي «نيتيف Native» بتطويـر مـادة تعليمية باللغـة الإنجليزية لعدد من المدارس في دبي للاحتفال بيوم السلام العالمي، بنيت على مواد تعليمية من الأمم المتحدة، وعلى كتاب «تقديم بيت المقـدس»، وصَاحَبَها معرض من ٨ إلى ١١ أكتوبر ٢٠٠٧م في مسرح دبي الاجتماعي ومركز الفنون.

ثانيًا: عودة مؤسـس الحقل المعرفي لدراسات بيت المقدس إلى المنطقة العربية:

وضمن الشـفافية التي يتمتع بهـا هذا الحقل المعرفي، أحـب أن أتوقف قليلاً حـول أحد أهم معالم هذه الخطة الاسـتراتيجية الجديدة. فبعد سـنتين من هذه الفعاليات التمهيديـة، قرر مؤسـس الحقل المعرفي لدراسـات بيت المقدس العـودة إلى المنطقـة العربية، وتعيـين العـالم الشـاب الواعـد الدكتور/ خالد عبد الفتاح العويسي مديرًا لمركز دراسـات بيـت المقدس بمعهـد آل مكتوم اعتبـارًا من الأول من أغسطس ٢٠٠٧م.

وكمـا أكـدتُ في حفـل الافتتاح الرسمي لمركز البحوث الاجتماعية والإنسـانية بجامعة العلـوم والتكنولوجيا بالعاصمـة اليمنية، صنعاء في ٢٠ نوفمبر ٢٠٠٧م، أني عدت في ١٠ أغسطس ٢٠٠٧م[٩] إلى بلاد العرب، وأجندتي أكاديمية معرفية ثقافية صرفة، نشـرتها في كتابـين صـدرا في المملكة المتحـدة العام الماضـي (٢٠٠٧م) باللغـة الإنجليزيـة: تأسـيس الأجندة الجديـدة للتواصـل الحضاري من خـلال التعليم وخدمة المجتمعات، ودليل دراسات بيت المقدس

ثالثـًا: أهم الفعاليـات في ذكرى مـرور ٩٠ عامًا على تصريح بلفور

١- المؤتمـر الأكاديمـي الأول لدراسـات بيـت المقدس في المنطقة العربية

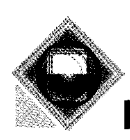
وتحقيقًا لرسـالة الحقل المعرفي الجديد -الذي يعرف على الساحة الأكاديمية العالمية «بدراسات بيت المقدس Islamicjerusalem Studies»- في المسـاهمة في تحقيق الوعـي الحضاري الملتـزم، ولملء الفراغ المعرفي، ونشـر المعرفـة عن بيت المقدس، وبناء سـقف معـرفي وتأصيل عمل أكاديمي مميز عن بيت المقدس، وتشجيع البحث العلمـي، وتهيئـة واحتضـان الطاقـات البحثيـة العربية والمسـلمة والعالميـة المختصـة والمهتمـة ببيـت المقـدس، ومسـاعدتها في إطـلاق إمكاناتهـا، وتثبيتًـا لأركان «المرجعيـة الأكاديمية المعرفيـة الحضارية الجديدة عن بيت المقدس» التي تمكّن مؤسس الحقل المعرفي الجديد وطلبته من تأسيسـها في السنوات الثلاث عشرة الماضية (١٩٩٤ - ٢٠٠٧م) من خلال جملة من النشـاطات والفعاليـات الأكاديميـة المتميـزة، وضمـن برنامـج عملـه المتكامل عن بيت المقدس، وفي إطار التعريف بهذا الحقـل المعرفي الجديد في المنطقـة العربيـة، ولنشـر المعرفة عن بيت المقـدس في المنطقة العربية، انعقـد المؤتمـر الأكاديمـي الأول في المنطقـة العربية، ضمـن الخطة الاسـتراتيجية الجديدة لدراسـات بيت المقدس وأولوياتهـا المتمثلة في «نقل» هذا الحقل المعرفي لدراسـات بيت المقدس إلى العالمين العربي والمسلم.

> رغبة في الاحتفال بذكرى مرور ستين عامًا على النكبة بطريقة إيجابية تم التدشين الرسمي للمشروع المعرفي والأكاديمي والنقلة لبيت المقدس في العالم العربي من خلال عقد حلقتين للنقاش في مقر جريدة اليمن تايمز - بصنعاء.

فكان هذا المؤتمر هو الأول الذي بدأنا به هذه السلسلة من المؤتمرات الأكاديمية عن دراسـات بيت المقدس في المنطقة العربية والمسلمة، تحت عنوان «البعد الأكاديمي والمعـرفي لبيت المقدس: التعريف بأركان الحقل المعرفي الجديد في العالم العربي». ويعد عقد هذا المؤتمر المشترك عن الجانب الأكاديمي المعرفي لبيت المقدس في عاصمة

---

(٩) أي بعد ثلاث عشرة سنة على تأسيس الحقل المعرفي الجديد لدراسات بيت المقدس في المملكة المتحدة يوم الخميس ٢٧ صفر ١٤١٥هـ-٤ /٨ /١٩٩٤م.



الجمهورية اليمنية (صنعاء) بين مركز دراسات بيت المقدس بمعهد آل مكتوم/جامعة أبردين - المملكة المتحدة ومركز البحوث الاجتماعية والإنسانية بجامعة العلوم والتكنولوجيا- صنعاء/الجمهورية اليمنية، هو الأول من نوعه في المنطقة العربية. بل إن مناقشة البعد الأكاديمي المعرفي لبيت المقدس هو الأول الذي يطرح خارج أوروبا من حيث الطرح الأكاديمي البعيد عن التوجهات السياسية والحزبية.

ونص بيان صنعاء «لدراسات بيت المقدس» الصادر في ختام المؤتمر على توصية واحدة تتمحور في الآتي: «توجيه توصية إلى وزارة التعليم العالي والبحث العلمي في الجمهورية اليمنية بالحاجة الماسة إلى طرح مساق دراسات بيت المقدس كمساق إجباري على جميع طلبة وطالبات الجامعات اليمنية الحكومية والخاصة.

وتوجيه توصية إلى اتحاد الجامعات العربية بالحاجة الماسة إلى طرح مساق دراسات بيت المقدس كمساق إجباري على جميع طلبة وطالبات الجامعات في الوطن العربي». كما دعا المؤتمر إلى «الاستفادة من الكتب الأكاديمية المعرفية التي أنتجها الفريق البحثي لهذا الحقل المعرفي الجديد، وبشكل خاص الكتاب المهم والمميز «تقديم بيت المقدس» للمؤرخ العربي الفلسطيني البروفيسور/ عبد الفتاح العويسي (المقدسي) الذي كتبه بداية باللغة الإنجليزية، ونشره الناشر الأكاديمي لمعهد آل مكتوم في بريطانيا عام ٢٠٠٥م».

وبالفعل، فقد أرسل الأستاذ الدكتور/ داود عبد الملك الحدابي - رئيس جامعة العلوم والتكنولوجيا بصنعاء - في ٢٥ نوفمبر ٢٠٠٧م رسالتين: الأولى إلى معالي الأستاذ الدكتور/ صالح علي باصرة - وزير التعليم العالي والبحث العلمي اليمني - والثانية إلى سعادة الأستاذ الدكتور/ صالح هاشم - الأمين العام لاتحاد الجامعات العربية. تضمنت الرسالة الأولى دعوة وزارة التعليم العالي والبحث العلمي اليمنية للموافقة على توصية المؤتمر، «والتعميم على الجامعات اليمنية الحكومية والخاصة لاستحداث هذا المساق». وتضمنت الرسالة الثانية دعوة اتحاد الجامعات العربية للموافقة على توصية المؤتمر «والتعميم على الجامعات في الوطن العربي لاستحداث هذا المساق».

ولمتابعة تنفيذ هذه التوصية، قام مركز البحوث الاجتماعية والإنسانية بصنعاء بالتعاون مع مجمع البحوث الإسلامية في المملكة المتحدة بنشر نص بيان صنعاء لدراسات بيت المقدس بالكامل في جريدة الثورة - اليومية- اليمنية في ٥ يناير ٢٠٠٨م - كإعلان مدفوع الأجر. كما قمت في ٧ يناير ٢٠٠٨م بالكتابة إلى سعادة الأستاذ الدكتور/ صالح هاشم - الأمين العام لاتحاد الجامعات العربية.

ومن هنا أود أن أنقل حرفيًا بعضًا من الملاحظات أو الأسئلة العامة التي طُرِحَتْ -مكتوبة- في المؤتمر:

١- «نقدم لكم الشكر الجزيل على كل ما قدمتوه لنا، والذي جعلنا نفتخر بأن كل هذه الاكتشافات هي منكم أنتم العرب. ونحن طالبات جامعة العلوم والتكنولوجيا نطلب منكم الاستمرار على هذا الطريق».

٢- «لماذا جُعلت الدراسات أو المناهج الدراسية لمنح درجتي الماجستير والدكتوراه، والعديد من الكتب التي كتبها الدكتور عبد الفتاح العويسي والدكتور خالد العويسي وغيرهما الكثير باللغة الإنجليزية؟ مع أنه من وجهة نظري - ونظر العديد من الناس - أن العرب هم أول المحتاجين إلى توعية، وخصوصًا في مجال دراسات بيت المقدس. وكما ذكر الدكتور عبد الفتاح في فكاهته سابقًا (في كلمته في الجلسة الأولى) أن الرءوس (العقول) العربية هي أقل استخدامًا، وهي التي تحتاج إلى تعبئة وتوعية فكرية بخصوص هذا المجال». (دراسات إسلامية - مستوى أول).

٣- «متى سيتم تنفيذ قرار إدخال (تدريس) منهج بيت المقدس (مادة دراسات بيت المقدس في الجامعات)؟ وهل تم تجهيز المنهج الذي سيتم تدريسه في الجامعات؟» (طالبات جامعة العلوم والتكنولوجيا).



٤- «يقول الأقارب بأن البحوث الإنسانية ليس لها مستقبل، ونحن أمة متخلفة، فما العمل؟ علمًا بأن الشباب أو كثير من الشباب لا يعملون بهذا التخصص ولا يطيقونه». (طلاب جامعة العلوم والتكنولوجيا).

٢- ورشة العمل الأولى لنقل الحقل المعرفي الجديد لدراسات بيت المقدس إلى العالمين العربي والمسلم:

وعلى هامش المؤتمر الأكاديمي الأول لدراسات بيت المقدس في العالم العربي، نظم مركز البحوث الاجتماعية والإنسانية بجامعة العلوم والتكنولوجيا بالجمهورية اليمنية، بالتعاون مع مجمع البحوث الإسلامية (إسراء) في المملكة المتحدة، ومركز دراسات بيت المقدس بمعهد آل مكتوم/ جامعة أبردين بالمملكة المتحدة، يوم الأربعاء ٢١ نوفمبر ٢٠٠٧م بقاعة السمنار بالإدارة العامة لجامعة العلوم والتكنولوجيا بصنعاء «ورشة عمل لنقل الحقل المعرفي الجديد لدراسات بيت المقدس إلى العالمين العربي والمسلم»، حضرها كل من:

مؤسس الحقل المعرفي الجديد لدراسات بيت المقدس، ومدير مركز دراسات بيت المقدس بمعهد آل مكتوم باسكتلندا، وممثل لمجمع البحوث الإسلامية (إسراء) في المملكة المتحدة، وممثل لمؤسسة القدس الدولية، وجميع المتحدثين في المؤتمر الأكاديمي الدولي الأول للدراسات الاجتماعية والإنسانية لمناقشة: البعد الأكاديمي والمعرفي لبيت المقدس – التعريف بأركان الحقل المعرفي الجديد في العالم العربي (٢٠ نوفمبر ٢٠٠٧م) مع بعض المشاركين في المؤتمر.

وجرى خلال ورشة العمل: عرض مختصر عن نشأة الحقل المعرفي الجديد لدراسات بيت المقدس في بريطانيا، والإنجازات التي تم تحقيقها خلال الفترة من ١٩٩٤ إلى ٢٠٠٧م، والخطة الاستراتيجية الجديدة وأولوياتها:

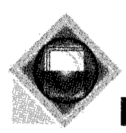
نقل الحقل المعرفي لدراسات بيت المقدس إلى العالمين العربي والمسلم. كما جرى مناقشة أولويات تنفيذ هذه الخطة الاستراتيجية الجديدة، وأفضل السبل والوسائل العملية لتحقيق هذه الخطة الاستراتيجية الجديدة، من خلال نقاش عام بين الحضور.

كما تم مناقشة موضوع التعاون بين «السلطة» و«المعرفة» من خلال الاستماع إلى مقترحات مؤسسة القدس الدولية للتعاون والمساعدة والدعم لنقل هذا الحقل المعرفي إلى العالمين العربي والمسلم: معالم هذا التعاون، الأفكار والبرامج المقترحة، وأفضل الوسائل للتنفيذ، والميزانية التي تستطيع المؤسسة رصدها للتنفيذ.[١٠]

كما جرى نقاش عام في موضوع التعاون بين «المعرفة» و«المعرفة»: والذي تركز حول التفكير في إنشاء شبكة للجامعات الراغبة في التعاون لتسهيل عملية نقل الحقل المعرفي لدراسات بيت المقدس إلى العالمين العربي والمسلم، بهدف التعريف بالحقل المعرفي، وتوفير المنح الدراسية، وتقديم البرامج الدراسية، وإعداد المختصين والخبراء، وعقد حلقات العصف الذهني، وورش العمل، والحلقات البحثية والدراسية، والمؤتمرات والندوات والدورات التدريبية، ترجمة ونشر البحوث الجادة والرصينة، وتأسيس جائزة أكاديمية للتميز.

وأثناء الورشة جرى التوقيع على اتفاقية للتعاون بين مجمع البحوث الإسلامية في المملكة المتحدة، ومركز البحوث الاجتماعية والإنسانية بجامعة العلوم والتكنولوجيا، بهدف تمكين المركز من لعب الدور المناسب في نقل الحقل المعرفي الجديد إلى العالم العربي. ونصت الاتفاقية على تخصيص مجمع البحوث الإسلامية لمنحة دراسية لطالب يمنيّ أو طالبة يمنية لدراسة الماجستير في دراسات بيت المقدس في معهد آل مكتوم/ جامعة أبردين في سبتمبر ٢٠٠٨م، بالإضافة إلى مبلغ عشرة آلاف دولار أمريكي لمساعدة المركز

(١٠) لمتابعة هذا النقاش بين المعرفة والسلطة، جرى اجتماع مع الدكتور/ محمد أكرم العدلوني، أمين عام مؤسسة القدس الدولية بصنعاء في ١٢ مايو ٢٠٠٨م، وفي نهاية الاجتماع وعد الدكتور/ العدلوني بدراسة المشروع بشكل جدي قريبًا.



في صنعاء على نشر الاهتمام بدراسات بيت المقدس من خلال الندوات، والمحاضرات، وإعادة طباعة بعض المراجع المهمة في دراسات بيت المقدس.

رابعًا: أهم الفعاليات في ذكرى مرور ٦٠ عامًا على النكبة:

-التدشين الرسمي للمشروع المعرفي والأكاديمي والثقافي لبيت المقدس في العالم العربي

ورغبة في الاحتفال بذكرى مرور ستين عامًا على النكبة بطريقة إيجابية، تم التدشين الرسمي للمشروع المعرفي والأكاديمي والثقافي لبيت المقدس في العالم العربي من خلال عقد حلقتين للنقاش في مقر جريدة اليمن تايمز - بصنعاء (الجمهورية اليمنية).

الأولى: خصصت للصحفيين في ٨ مايو ٢٠٠٨م، والثانية: خصصت لأساتذة الجامعات، وطلاب الدراسات العليا، والباحثين، والمهتمين، وتم خلالهما تدشين إصدار كتابين ضمن سلسلة دراسات بيت المقدس (باللغة العربية) ومن إصدار مجمع البحوث الإسلامية في المملكة المتحدة، هما:

١- تقديم بيت المقدس.

٢- البعد الأكاديمي والمعرفي لبيت المقدس: التعريف بأركان الحقل المعرفي الجديد في العالم العربي.

وجاء نشر هذا الكتاب -الذي يحتوي على بحوث متميزة لنخبة من العلماء الشبان الواعدين في دراسات بيت المقدس، والتي هي نماذج للبحوث التي يهتم بها الحقل المعرفي الجديد لدراسات بيت المقدس- لإطلاع قطاع كبير من المهتمين بدراسات بيت المقدس على جميع الأوراق التي أُلقيت في المؤتمر الأكاديمي الأول الذي عُقِد في صنعاء في ٢٠ نوفمبر ٢٠٠٧م.

خامسًا: الخطوة القادمة:

لقد تأسس هذا الحقل المعرفي الجديد بكل عزم ورؤية واضحة لدراسات بيت المقدس مواكبًا لأساليب الحقول المعرفية المتداخلة والمتعددة. وقد أسّس هذا الحقل الجديد إطارًا مرجعيًا جديدًا عن بيت المقدس. فخطط مؤسس الحقل من خلال إنشائه لمجمع البحوث الإسلامية في المملكة المتحدة أن تسهم البحوث والمنح الدراسية في وضع حجر الأساس لرؤيته عن الحقل.

ومن خلال خطوات عملية، قام المؤسس بترسيخ هذا الحقل الجديد ودمجه والارتقاء به في الميدان الأكاديمي، وبخاصة داخل إطار مؤسسات التعليم العالي البريطانية. كما تم مؤخرًا الشروع في تنفيذ الاستراتيجية الجديدة لدراسات بيت المقدس وأولوياتها، والمتمثلة في نقل هذا الحقل المعرفي إلى العالمين العربي والمسلم.

> لم يعد هنالك مقاعد شاغرة للكسالى النيام على أرصفة الأحلام في عالم المجدين الأذكياء في القرن الحادي والعشرين، أو أصحاب الظاهرة الصوتية والفعاليات الاحتفالية، أو للمثرثرين المثبطين، أو للذين أضاعوا جهود وأوقات شعوبهم وأهلهم في القيل والقال

والخطوة القادمة -والتي أعلنتها في حلقتي النقاش بصنعاء في ٨، و١٩ مايو ٢٠٠٨م- تتمثل في:

١- اختيار الشريك/الشركاء ممن سيتم التعاون معه/معهم لتأمين الدعم المتواصل لإنجاح هذا المشروع في العالم العربي والمسلم، وتقديم نموذج عملي جديد للعلاقة المفقودة بين «المعرفة» و«السلطة».

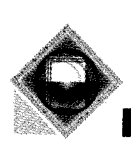
٢- اختيار البلد المناسب الذي سيتم فيه تأسيس معهد دراسات بيت المقدس.

وفي الختام، نود التأكيد على أنه لم يعد هنالك مقاعد شاغرة للكسالى النيام على أرصفة الأحلام في عالم المجدين الأذكياء في القرن الحادي والعشرين، أو أصحاب الظاهرة الصوتية والفعاليات الاحتفالية، أو للمثرثرين المثبطين، أو للذين أضاعوا جهود وأوقات شعوبهم وأهلهم في القيل والقال، ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝١٠٣ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ (الكهف: ١٠٣-١٠٤).




فنحـن على يقين أننا نسـير مع العاملين في المسـارات الأخـرى والمرابطـين على ثغورهـم إلى وعـد الله الفتاح العليم.

وهنـا أتوجـه بالشـكر الجزيـل لكل من سـاهم في إنجاح دراسات بيت المقدس في مرحلتها الأولى بالمملكة المتحـدة، ونتطلـع إلى نجاح مشـابه في العالمـين العربي والمسلم في الثلاث عشرة سنة القادمة (٢٠٠٨ - ٢٠٢١م). ونؤكد هنا على ضرورة اتباع منهج التدرج في الخطوات، واعتماد فلسـفة «لا شيء مسـتحيل»، ومنهجية الحقل، وسياسـاته المتمثلـة في: صناعـة الفعـل، والتخصـص والتكامل، والتعاون بين «المعرفة» و«السـلطة» بين أبناء الأمة؛ بما يتناسب مع زمانها ومكانها والظروف المحيطة بها، «فالأحكام تتغير بتغير الزمان والمكان».



معلومات إضافية

نبذة عن مؤسس الحقل المعرفي الجديد دراسات بيت المقدس

هو البروفيسور عبد الفتاح محمد العويسي، وُلد وترعرع ودرس في مخيم النصيرات للاجئين الفلسطينيين، شهد نكبة ١٩٤٨م وهزيمة ١٩٦٧م واستشهاد أخيه الأكبر هاشم (عبدالله) في معركة الكرامة، مما ترك بصمات واضحة في حياته.

عشق بيت المقدس عشقًا ملأ عليه كل حياته، فحوَّل عشقه وولعه ببيت المقدس إلى مشروع أكاديمي دولي، وحقل معرفي جديد يعرف «بدراسات بيت المقدس»، وتمنح فيه درجتي الماجستير والدكتوراه من جامعة أبردين الأسكتلندية (العريقة التي يزيد عمرها عن خمسمائة عام) في المملكة المتحدة.

درس وعمل في عدد من الجامعات العربية والبريطانية خلال الثلاثين سنة الماضية (منذ عام ١٩٧٧م). حصل على درجة الدكتوراه من جامعة إكستر بالمملكة المتحدة عام ١٩٨٦م، ثم حصل على درجة الأستاذية (أستاذ كرسي) في المملكة المتحدة عام ٢٠٠١م. تولى عددًا من المناصب الأكاديمية، والتي منها: رئيس قسم، وعميد كلية، ورئيس معهد، ومدير مركز بحوث.

أسس عددًا من المشاريع الإبداعية على المستوى الدولي، كما قام بتأسيس معهد آل مكتوم للدراسات العربية والإسلامية في المملكة المتحدة (٢٠٠٠ -٢٠٠٧م) وتأسيس عدد من مراكز البحوث المميزة والفريدة في المعهد مثل:

مركز دراسات بيت المقدس.

مركز التعددية الثقافية ودراسة الإسلام والمسلمين في اسكتلندا.

تأسيس الناشر الأكاديمي للمعهد.

بناء شبكة الشراكة الأكاديمية الدولية التي أسسها المعهد.

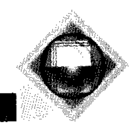
وصلت أعداد الخريجين من المعهد حتى فبراير ٢٠٠٧م إلى ٥٦ طالبًا وطالبة: حاز (٣٩) طالبًا وطالبة منهم على درجة الماجستير، و(١١) طالبًا وطالبة على درجة الدكتوراه، والبقية على دبلوم الدراسات العليا. ويعد هذا بالمقاييس الأكاديمية البريطانية إنجازًا كبيرًا في فترة زمنية قصيرة وقياسية.

تتمحور اهتماماته البحثية -كمؤرخ- حول دراسة العلاقة بين تاريخ العرب والمسلمين المبكر والسياسات في الأقطار العربية والإسلامية. ففي السنوات الثلاث عشرة الماضية (١٩٩٤-٢٠٠٧م)، تركزت بحوثه على دراسة تاريخ بيت المقدس ولاسيما فترة صدر الإسلام.

نشر ٣٣ بحثًا أكاديميًا (مطبوعًا) باللغتين العربية والإنجليزية، وبعض كتبه مترجم إلى لغات أخرى مثل الفرنسية والماليزية، وهو أحد مؤلفي التقرير المهم عن الدراسات الإسلامية في الجامعات البريطانية الذي يحمل عنوان: «حان وقت التغيير: تقرير حول مستقبل دراسة الإسلام والمسلمين في المعاهد والجامعات البريطانية متعددة الثقافات»، والذي دشن في مجلس اللوردات بلندن في ٢٥ أكتوبر ٢٠٠٦م.

حصل على عدد من الجوائز الأكاديمية والتقديرية، منها:

وسام عمدة مدينة ستيرلينج الأسكتلندية لعام ١٩٩٩م؛ لإنجازاته في مجال الدراسات الإسلامية.



لقب المقدسي لعام ٢٠٠٥م؛ وذلك تثمينًا لجهوده الأكاديمية والثقافية الضخمة، وإنجازاته الحضارية في خدمة بيت المقدس، وذلك من خلال تأسيسه الحقل المعرفي الجديد «دراسات بيت المقدس».

قرار مجلس العموم البريطاني (رقم ٢٨٦٤ بتاريخ ٢٥ أكتوبر ٢٠٠٦م) بتهنئة البروفيسور العويسي على تقريره الأكاديمي عن واقع الدراسات الإسلامية في الجامعات البريطانية.

قرار البرلمان الأسكتلندي (رقم S2M-٥٠٢٧ بتاريخ ٣٠ أكتوبر ٢٠٠٦م) بتهنئة البروفيسور العويسي على تقريره الأكاديمي عن واقع الدراسات الإسلامية في الجامعات البريطانية.

«جائزة الإبداع» لعام ٢٠٠٧م تقديرًا لدوره الكبير في «تأسيس الأجندة الجديدة للتواصل الحضاري والثقافي من خلال التعليم العالي وخدمة المجتمعات خلال سنوات التميز السبع الماضية: ٢٠٠٠ - ٢٠٠٧م.

جائزة الريادة في صناعة التاريخ لعام ٢٠٠٧م: ثلاثة عشر عامًا من التميز لدوره في تأسيس مجمع البحوث الإسلامية في المملكة المتحدة (١٩٩٤-٢٠٠٧م) وتأسيسه الحقل المعرفي الجديد «دراسات بيت المقدس».

أمثلة لآخر البحوث في دراسات بيت المقدس:

أعد عثمان إسماعيل الطل رسالته للدكتوراه عام (٢٠٠٢م) عن: الفتح الإسلامي الأول لإيلياء (بيت المقدس)- دراسة نقدية تحليلية للروايات والمصادر الإسلامية التاريخية المبكرة، ونشرها الناشر الأكاديمي لمعهد آل مكتوم في عام ٢٠٠٣م.

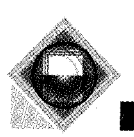
أعد هيثم فتحي الرطروط رسالته للدكتوراه عام (٢٠٠٢م) عن: التطور المعماري للمسجد الأقصى في بيت المقدس في الحقبة الإسلامية المبكرة - العمارة المقدسة على شكل «المقدس»، ونشرها الناشر الأكاديمي لمعهد آل مكتوم في عام ٢٠٠٤م.

أعد ماهر يونس أبو منشار رسالته للدكتوراه عام (٢٠٠٣م) عن: دراسة تاريخية لمعاملة المسلمين للمسيحيين في بيت المقدس في عهد عمر بن الخطاب وصلاح الدين، مع الإشارة بشكل خاص إلى قيمة العدالة الإسلامية، ونشرتها دار النشر البريطانية (أي، بي، تورس) في عام ٢٠٠٧م تحت عنوان «بيت المقدس ومسيحيوها: تاريخ من التسامح والتنازع».

أعد محمد رسلان محمد نور رسالته للدكتوراه عام (٢٠٠٦م) عن: أهمية بيت المقدس في الإسلام - من منظور القرآن والسنة.

أعد أمين الرشيد ياتيبان رسالته للماجستير عام (٢٠٠٣م) عن: المفهوم الإسلامي للسيادة: بيت المقدس في أثناء الفتح الإسلامي الأول - دراسة حالة. وأعد رسالته للدكتوراه عام (٢٠٠٦م) عن مفهوم السيادة عند المسلمين منذ الفتح الأول للمسلمين إلى نهاية العهد العباسي الأول.

أعد خالد عبد الفتاح العويسي رسالته للماجستير عام (٢٠٠٣م) عن: الحدود الجغرافية لبيت المقدس. وأعد رسالته للدكتوراه عام (٢٠٠٦م) عن رسم خريطة بيت المقدس: بيان الحدود الجغرافية لأرض بيت المقدس، والأرض المقدسة، والأرض المباركة، والتي نشرها الناشر الأكاديمي لمعهد آل مكتوم في عام ٢٠٠٧م تحت عنوان «إعادة اكتشاف الحدود الجغرافية لبيت المقدس».



أعد رائد جبارين رسالته للدكتوراه عام (٢٠٠٦م) عن: الأحكام الفقهية المتعلقة بيت المقدس، مع التركيز على أحكام العبادات في المسجد الأقصى – دراسة تحليلية مقارنة.

أعدت فاطمة الزهراء عبد الرحمن رسالتها للماجستير عام (٢٠٠٤م) عن: التغيرات السياسية والاجتماعية والدينية في بيت المقدس منذ الفتح الإسلامي الأول إلى نهاية العصر الأموي (٦٣٧ – ٧٥٠م) - دراسة تحليلية. وتقوم حاليًا بإعداد رسالتها للدكتوراه عن مفهوم التغيير عند المسلمين، دراسة تحليلية للتغيرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية في بيت المقدس منذ الفتح الأول للمسلمين.

أعد عبد الله معروف عمر رسالته للماجستير عام (٢٠٠٥م) عن: فتح بيت المقدس - الخطوات الرئيسة الثلاث التي اتخذها النبي محمد -صلى الله عليه وآله وسلم- دراسة تحليلية. ويقوم حاليًا بإنهاء إعداد رسالته للدكتوراه عن خطة الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- لفتح بيت المقدس.

أعد محمود معتز قزموز رسالته للماجستير في عام (٢٠٠٦م) عن: التطبيقات العثمانية لرؤية بيت المقدس كنموذج للتعددية الثقافية، مع التركيز على عهد السلطان سليمان القانوني. ويقوم حاليًا بإعداد رسالته للدكتوراه عن: بيت المقدس نموذجًا للتعددية الثقافية.

أعدت عائشة محمد إبراهيم الأحلس رسالتها للماجستير في عام (٢٠٠٣م) عن: مجمع البحوث الإسلامية (إسراء) – الجذور والنشاطات والإنجازات، مع التركيز على الحقل المعرفي الجديد لدراسات بيت المقدس، ونشرها مجمع البحوث الإسلامية (إسراء) في عام ٢٠٠٤م.

أعدت سارة محمد شريف عبد العزيز حسن رسالتها للماجستير عام (٢٠٠٥م) عن: النساء : عوامل فاعلة في أسلمة بيت المقدس منذ عصر الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- حتى نهاية العصر الأموي.

أعدت رامونا أحمد إبراهيم رسالتها للماجستير عام (٢٠٠٥م) عن: بيت المقدس نموذجًا لحل الصراع- دراسة حالة للمباحثات بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد (١١٩١ – ١١٩٢م).

أعد فادي محمود الرابي رسالته للماجستير عام (٢٠٠٧م) عن: بيت المقدس – القبلة الأولى.

المصادر:

اعتمدت الخلفية عن المؤسس للحقل المعرفي الجديد لدراسات بيت المقدس بشكل أساسي على تقديم الطبعة الثانية لعائشة محمد إبراهيم الأحلس لكتاب «تقديم بيت المقدس» لعبد الفتاح محمد العويسي (٢٠٠٨م، مجمع البحوث الإسلامية ، اسكتلندا)، ص ١٥-٢٤.